التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسِّر العلَّامة

أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القُشيري

المُتوفَّى سنة ٥١٤هـ

أول كتاب يبرز مطبوعًا للمؤلف
ويطبع محققًا على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ
محمد خلوف العبد الله

المجلد الرابع

يوسف - طه

دار اللباب

التيسير في التفسير

(٤)

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحفُوظَة

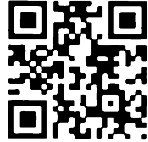
الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

يُمنع طباعةُ هذا الكتاب أو ترجمته أو تصويرُه ورقياً أو إلكترونياً

إلا بإذن خطي من الدار الناشرة

تحت المُساءلة الدُنيوية والأُخروية





دار اللباب

للدراسات وتحقيق التراث

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00902125255551
00905454729850

دمشق - سوريا
00963993151546
info@allobab.com
Www.allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990



İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

الإمام أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم

عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤هـ

رحمه الله تعالى

أول كتاب يبرز مطبوعًا للمؤلف

ويطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية

إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص

عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له

محمد خلوف العبد الله

المجلد الرابع

يوسف - طه

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ يُوسُفَ

تفسيرُ سورةِ يوسفَ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

قولُه: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أظهرُ المعاني أنَّ ﴿الٓر﴾ اسمُ السُّورةِ، أي: هذه السُّورةُ المُسماةُ ﴿الٓر﴾.

﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: من آياتِ الكتابِ الذي شرَّفتُ به محمَّدًا، وهو مُبينٌ لصدقِ محمَّدٍ وللأحكامِ.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه.

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى التَّوراةِ والإنجيلِ؛ أي: هذه الأقاصيصُ تلك الآياتُ التي وُصِفَتْ في التَّوراةِ، فالكتابُ المُبينُ على هذا هو التَّوراةُ.

وقيلَ: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿الٓر﴾ وسائرِ حروفِ المُعجمِ؛ أي: هذه الحروفُ رُكِّبت منها آياتُ القرآنِ.

***

(٢) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: أنزَلْنا الكتابَ، أو أنزَلْنا خبرَ يوسُفَ، وذلك لأنَّ اليهودَ قالوا للمُشركينَ: سلُوا محمَّدًا لِمَ انتقَلَ ولدُ يعقوبَ منَ

الشّـامِ إلـى مصـرَ، وسـلوه عن خبـرِ يوسُـفَ وإخوتِـه، فأنـزلَ الله هـذا[1].

﴿عَرَبِيًّا﴾؛ أي: يُقرَأُ بلغةِ العربِ، والمفعولُ يُسمَّى باسمِ المصدرِ، كالمشروبِ يُسمَّى شرابًا، فعلى هذا؛ أي: أنزَلْنا كلامًا مقروءًا بلغةِ العربِ، والقراءةُ أيضًا قد تُسمَّى قرآنًا، يُقالُ: قرأَ يقرأُ قراءةً وقُرآنًا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لتكونُوا على رجاءٍ من تدبُّرِه، فيعودُ معنى الشَّكِّ إليهم لا إلى الكتابِ ولا إلى الله سُبحانَه.

* * *

(٣) ـ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ: أُنزِلَ القرآنُ على رسولِ الله ﷺ، فتَلاه عليهم زمنًا، فقالوا: لو قصَصْتَ علينا، فنزلَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، فتَلاه عليهم زمانًا، فقالوا: لو حدَّثتَنا، فنزلَ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، كلُّ ذلك يُؤْمَرونَ بالقرآنِ[2].

﴿نَقُصُّ﴾؛ أي: نُبيِّنُ، والقَصَصُ ـ بفتحِ القافِ ـ: المصدرُ.

والـحُسنُ يعودُ إلى البيانِ لا إلـى القِـصّةِ، يُقـالُ: «فلانٌ حسَنُ الاقتِصاصِ للحديثِ»؛ أي: جيِّدُ السِّياقةِ له، ومنه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١].

---

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٨٧)، والنحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٣٩٦)، ومكي في «الهداية» (٥/ ٣٤٩٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٨ ـ ٩) عن أبي بكر بن الأنباري.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (١١٥٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣١٩) وصححه، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩). وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٦٣٤).

وقيلَ: القَصصُ ليس مصدرًا، بل هو في معنى الاسمِ، وهو المقتصُّ المُخبَرُ به، كما يُقالُ: «الله رَجاؤُنا»؛ أي: مَرجُوُّنا، فالمعنى على هذا: نحن نُخبِرُك بأحسنِ الأخبارِ، فسمَّى قصّةَ يوسفَ أحسنَ الأخبارِ؛ لأنّه ليس فيها أمرٌ ونهيٌ، ولِـمَا فيها منَ النُّكتِ والآياتِ، ولِـما فيها من حُسنِ صبرِ يعقوبَ، وحُسنِ عفوِ يوسفَ عن إخوتِه.

وقيلَ: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾؛ أي: أعجَبُ القَصصِ، و(القَصصُ) على هذا في معنى القِصَصِ.

وقيل: أي: الأقاصيصُ التي ذكرْناها لكم في القرآنِ أحسنُ الأخبارِ، وفيها غُنيةٌ عن غيرِها، فليس هاهُنا تخصيصٌ لقصّةِ يوسفَ، ووجهُ الحُسنِ: أنّها أُنزِلَتْ على النَّظمِ المُعجِزِ.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: بوَحينا، فـ(ما) مع الفعلِ بمنزلةِ المصدرِ.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾؛ أي: من قبلِ الوحيِ ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾؛ أي: ما كنتَ من قبلِه إلّا منَ الغافلينَ، وليس هذا ذمًّا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، بل هو أدخلُ في بابِ الإعجازِ؛ لأنّه أَخبرَ بالقصّةِ من غيرِ تعلُّمٍ، فعُلِمَ أنه بتأييدِ الرَّبِّ؛ أي: منَ الغافلينَ عن هذه وعن أحكامِ الشَّرعِ.

* * *

(٤) ـ ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: نقُصُّ عليك إذ قال يوسفُ، أو: اذكُرْ إذ قال يوسفُ، أو: وإنْ كنتَ من قبلِه لَمنَ الغافلين إذ قال يوسفُ.

و«يوسُفُ» بضمِّ السِّينِ اسمٌ عِبريٌّ[١] لا يَنصرِفُ، وقُرِئَ في الشَّواذِ: (يوسِف) بكسرِ السِّينِ[٢]، من «آسَفَ يُؤْسِفُ» وهو عربيٌّ، والأسيفُ: العبدُ، والأسَفُ: الحزنُ، وقد اجتمعَ المعنيانِ فيه فسُمِّي به، وهكذا الكلامُ في يونُس ويونِس[٣].

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ عند البصريِّين: التّاءُ علامةُ التّأنيثِ[٤] دخلَتْ على الأبِ في بابِ النِّداءِ خاصَّةً، فتكونُ بدلًا من ياءِ الإضافةِ، وأيضًا قد تدخلُ علامةُ التَّأنيثِ على المُذكَّرِ، فيُقالُ: «رجلٌ نُكَحَةٌ» و«هُزَأَةٌ».

ثمَّ؛ قُرِئَ بكسرِ التّاءِ؛ أي: «يا أبتي»، ثمَّ حُذِفت الياءُ؛ لأنَّ ياءَ الإضافةِ تُحذَفُ في النِّداءِ.

وقُرِئَ: ﴿يا أبتَ﴾ بفتحِ التّاءِ[٥]، وقال البصريُّونَ: أرادَ «يا أبتي» بالياءِ، ثمَّ أبدلَ الياءَ بالألفِ، كما فعلوا في ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] بفتحِ الياءِ، فصار «يا أبتا» فحُذِفَ الألفُ وبقيَتِ الفتحةُ في التّاءِ، **وفي هذا مَقْنَعٌ عن تطويلاتٍ أورَدَها الكوفيُّونَ.**

﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ قال وَهْبٌ: رأى يوسفُ عليه السَّلامُ وهو ابنُ سبعِ

(١) في (أ): «عبراني».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٦)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١٤٧ ـ ١٤٨).

(٣) (يُوسُف) فيه ست لغات: ضم السين وكسرها وفتحها من غير همزة فيهن، وبالهمز فيهن، ومثله (يونس) عن الفراء. انظر: «الصحاح» (مادة: أسف)، و«العباب الزاخر» (١/ ٣٦٨).

(٤) والدليلُ على أنها تاءُ تأنيثٍ قَلْبُها هاءً في الوقف، وقد قلبها في الوقف هاءً ابن كثير وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٤)، و«التيسير» (ص: ٦٠ و١٢٧).

(٥) قرأ بفتح التاء ابن عامر، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧). وقرئ بضم التاء، نسبها الهذلي في «الكامل» (ص: ٥٧٥) لابن أبي عبلة.

سنينَ أنَّ أحدَ عشرَ عصًا طِوالًا كانت مركوزةً في الأرضِ، وأنَّ عصًا صغيرةً نبتَتْ فاقتلَعَتْها وغلبَتْها، فذكرَ ذلك لأبيه، فقال: إيّاكَ أن تذكُرَ هذا لإخوتِك، ثمَّ رأى وهو ابنُ ثنتَي عشرةَ سنةً كأنَّ أحدَ عشرَ كوكبًا والشَّمسَ والقمرَ سجَدَتْ له، فذكرَ ذلك لأبيه فقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾[١].

قال ابنُ عبّاسٍ: هم إخوتُه وأبواه[٢].

وقيلَ: الشَّمسُ والقمرُ أبوه وخالتُه؛ لأنَّ أمَّه كانت ماتَتْ وكانت خالتُه تحتَ أبيه[٣].

﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ أعادَ ذكرَ الرُّؤيةِ لأنَّ الأُولى لمُشاهدةِ الكواكبِ والشَّمسِ والقمرِ، والثّانيةَ لمُشاهدةِ سجودِها.

وقيلَ: لـمَّا تطاوَلَ الكلامُ أُعيدَت ليكونَ أكشفَ للمعنى.

وقيلَ: أحدُهما منَ الرُّؤيةِ، والثّاني منَ الرُّؤيا.

وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ لأنَّه وصفَها بالسُّجودِ، فصارَتْ كأنَّها تعقِلُ، وهو كما قال في صفةِ الأصنامِ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وكما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٩١)، والجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ١٢١)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ٣٠٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢)، ابن المنذر في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٩١)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٨)، عن السدي. وقال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٣): «وروي عن ابن عبّاسٍ أنه قال: الكواكب إخوته، والشمس والقمر: أبوه وخالته، من وجه غير محمود، فكرهت ذكره».

﴿لِي سَاجِدِينَ﴾؛ أي: خاضِعين، وكان ذلك سجودَ كرامةٍ لا سجودَ عبادةٍ، وهو كسجودِ الملائكةِ لآدمَ.

وقيلَ: كانت تحيَّةُ بعضِهم لبعضٍ في ذلك الوقتِ السُّجودَ.

قُرِئَ: ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ بفتحِ العينِ، وقُرِئَ بسكونِها لتوالي الحركاتِ(١).

وأمَّا «اثنا عشر» فلا بدَّ فيه من فتحِ العينِ؛ لأنَّ قبلَ العينِ ساكنٌ.

* * *

(٥) - ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾؛ أي: تأويلُها ظاهرٌ، فربَّما يحملُهم الشَّيطانُ على قصدِكَ بسوءٍ حسدًا.

والرُّؤيا مصدرٌ كالبُقيا والسُّقيا والبُشرَى، ولمَّا كثُرَ استعمالُها صارَتْ كالاسمِ.

قُرِئَ ﴿رُءْيَاكَ﴾ بالهمزِ وبغيرِ همزٍ(٢)..

---

(١) الفتح قراءة الجمهور، والسكون ذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣٣٢) عن أبي جعفر ونافع بخلاف وطلحة بن سليمان، ثم قال: «سبب ذلك عندي أن الاسمين لما جُعلا كالاسم الواحد، وبُني الأول منهما لأنه كصدر الاسم، والثاني منهما لتضمنه معنى حرف العطف؛ لم يجز الوقف على الأول لأنه كصدر الاسم من عجزه، فجُعل تسكين أول الثاني دليلًا على أنهما قد صارا كالاسم الواحد، وكذلك بقية العدد إلى تسعة عشر، إلا اثنا عشر واثني عشر، فإنه لا يسكن العين لسكون الألف والياء قبلهما.
ومما يدلك على أن الاسمين إذا جريا مجرى الاسم الواحد بالتركيب عوملا في مواضع معاملته، ما حكاه أبو عمر الشيباني من قولهم في حضرموت: حَضْرَمُوت بضم الميم؛ ليكون كحَذْرفُوت وتَرْنَمُوت وعنكبوت، وهذا واضح».

(٢) قرأ الجمهور بالهمز، وأبدل الهمز واواً ساكنة الأصبهاني عن ورش، وأبو عمرو بخلف، وكذا أبو =

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾؛ أي: فيحتالُوا في هلاكِكَ.

واللّامُ في ﴿لَكَ﴾ تأكيدٌ كقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وقيل: هي من صِلةِ الكيدِ؛ أي: فيكيدوا كيدًا لك.

* * *

(٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ومثلَ ما رأيتَه يجتبيكَ ربُّكَ؛ أي: يختارُكَ، من جبَيْتُ الشَّيءَ؛ أي: حصَّلتُه لنفسي، وجبَيْتُ الماءَ في الحوضِ.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من علمِ ما تَؤُولُ إليه عاقبةُ ما يراه النّاسُ في المنامِ فتَعبُرُ لهم رُؤياهم، ولا يلحقُكَ خطأٌ، وهو مُعجزةٌ لك، وعنَى بالأحاديثِ: ما يراه النّاسُ في المنامِ.

وقيلَ: أي: يُعلِّمُك أحاديثَ الأُممِ والكُتبِ، ودلائلَ التَّوحيدِ، وأحكامَ الدِّينِ، فهو إشارةٌ إلى النُّبوّةِ.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنُّبوَّةِ ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

وقيلَ: بالتَّوحيدِ وإتيانِ الطّاعةِ.

وقيلَ: بإنجائِكَ من كلِّ مكروهٍ كما أنجَى إبراهيمَ منَ النّارِ وإسحاقَ منَ الذَّبحِ.

فإنْ قُلنا: «أرادَ: بالنبوَّةِ»، فآلُ يعقوبَ بنوه، وكانوا أنبياءَ.

وإنْ قلتَ: «بالتَّوحيدِ»، فآلُ يعقوبَ: مَن كانَ على دينِه.

= جعفر لكنه يقلب الواو ياء ويدغمها في الياء بعدها. انظر: «إتحاف فضلاء البشر» (ص: ٥١٠).

(٧) ـ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قُرِئَ: ﴿آيةٌ﴾، وقُرِئَ: ﴿ءَايَٰتٌ﴾[1]؛ أي: عبرةٌ يُعتبرُ بها.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي: لكلِّ مَن سألَ عن خبرِ يوسُفَ وإخوتِه.

وقيلَ: لليهودِ الذين سألوا عن هذه القِصّةِ، ولـمَّا أخبَرهم قالوا: من أينَ لك هذا يا محمّدُ؟ فقالَ: علَّمنيه ربِّي[2].

وفيه آيةٌ للسّائلِ وغيرِ السّائلِ، ولكنَّه قال: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لتقدُّمِ سؤالِ اليهودِ، ثمَّ إذا اعتبرَ السّائلُ اعتبرَ به غيرُه أيضًا.

***

(٨) ـ ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾؛ أي: قال إخوةُ يوسفَ: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾، وهو ولدُ راحيلَ، وهي خالتُهم.

﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وهذه اللّامُ للتَّأكيدِ، وهي التي يُتلقَّى بها القَسَمُ، وإنَّما قالوا هذا؛ لأنَّ خبرَ المنامِ بلغَهم فتآمَرُوا في كيدِه.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ، يُقالُ: تعصَّبَ القومُ؛ أي: اجتمَعُوا على هيئةٍ يشُدُّ بعضُهم بعضًا، ومنه: العَصَبةُ في النَّسبِ؛ لأنَّه يجمعُهم التَّعصُّبُ.

---

(١) قرأ ابن كثير بالإفراد والباقون بالجمع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٨٠).

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لـم يُريدوا ضلالَ الدِّينِ؛ إذ لو أرادُوه لكانُوا كفّارًا، بل أرادوا: لَفي ذهابٍ عن وجهِ التَّدبيرِ في إيثارِ اثنَين على عشرةٍ مع استوائِهم في الانتسابِ إليه.

وقيلَ: أي: في ذهابٍ بليغٍ في محبّةِ يوسُفَ وأخيه.

* * *

(٩) ـ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾؛ أي: قال قائلٌ منهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ ليكونَ أحسمَ لمادّةِ الأمرِ ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾؛ أي: في أرضٍ، فأُسقِطَ الخافضُ وانتصَبَ (الأرض)، والمعنى: أرضًا يبعُدُ عن أبيه، فلا بدَّ من هذا الإضمارِ؛ لأنَّه كان عند أبيه في أرضٍ[١].

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ أي: يُقبِلْ بكُلِّيتِه عليكم ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾؛ أي: تُحدِثُوا توبةً بعد ذلك فيقبلُها الله منكم.

وقيلَ: يَصلُحْ شأنُكم عند أبيكُم وتغلِبُوا على قلبِه بعد فقدِه يوسُفَ.

* * *

(١٠) ـ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قال يهُوذا، وهو أكبرُ ولدِ يعقوبَ[٢].

---

(١) وقال الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٤١): أرضاً منكورةً مجهولةً بعيدةً من العُمران، وهو معنى تنكيرِها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نُصبَتْ نصبَ الظروف المُبهَمة».

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء، ورواه ابن =

وقيلَ: رُوبيلُ، وهو ابنُ خالتِه، وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف: ٨٠].

وقيلَ: بل اسمُه شَمْعُونُ.

﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ ولا تحمِلُوه إلى أرضٍ بعيدةٍ، بل ألقُوه في غيابةِ الجبِّ، والغيابةُ: كلُّ ما غيَّبَ شيئًا وستَرَه.

والجُبُّ: الرَّكِيَّةُ قبلَ أن تُطوَى[1]؛ لأنَّها قُطِعَتْ قطعًا، والجمعُ: «جِبَبَةٌ وجِبابٌ وأجبابٌ»، وجمعَ بينَ الغَيابةِ والجُبِّ لأنَّه أرادَ: ألقَوه في موضعٍ مُظلمٍ منَ الجُبِّ لا يلحقُه نظرُ النّاظرينَ.

وقُرِئَ: ﴿غَياباتِ الجبِّ﴾[2].

ثمَّ؛ قيلَ: أشارَ هذا القائلُ إلى بئرِ بيتِ المقدسِ.

وقال وَهْبٌ: هي بأرضِ الأردنِ[3].

وقال مُقاتلٌ: هي على ثلاثةِ فراسخَ من منزلِ يعقوبَ[4].

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الالتِقاطُ: تناوُلُ الشَّيءِ منَ الطَّريقِ، ومنه: اللَّقيطُ واللُّقَطةُ.

= أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٦) عن السدي، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٨٢) عن الكلبي، وزاد: «لم يكن أكبرهم في السّن، ولكن كان أعقلهم».

(١) طوى البئر: عرشها بالحجارة والآجر.

(٢) قرأ بها نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٥٠١)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٦٠٢).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٢١).

والسَّيّارةُ: الجمعُ الذين يسيرونَ في الطَّريقِ للسَّفرِ، وإنَّما قال هذا القائلُ هذا حتَّى لا يحتاجُوا إلى حملِه إلى موضعٍ بعيدٍ ويحصُلَ المقصودُ، فإنَّ مَن التقَطَه من السّابلةِ يحملُه إلى موضعٍ بعيدٍ، وكان هذا وجهًا في التَّدبيرِ حتَّى لا يحتاجُوا إلى الحركةِ بأنفُسِهم، فربَّما لا يأذنُ لهم أبوهم، وربَّما يطَّلعُ على قصدِهم.

ثمَّ؛ قيلَ: إنَّ إخوةَ يوسفَ ما كانوا أنبياءَ، لا أوَّلًا ولا آخِرًا؛ لأنَّ الأنبياءَ لا يُدبِّرونَ في قتلِ مسلمٍ، بل كانوا مُسلمينَ فارتكبُوا معصيةً، ثمَّ تابوا.

وقيلَ: كانوا أنبياءَ، ولا يستحيلُ في العقلِ زلَّةُ نبيٍّ.

وقيلَ: في ذلك الوقتِ ما كانوا أنبياءَ، ثمَّ نبَّأهم الله.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾؛ أي: إن أضمَرْتُم ما تقولُونَ.

***

(١١) ـ ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَاصِحُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: افترَقُوا على رأيِ المُتكلِّمِ الثاني، وعادوا إلى يعقوبَ عليه السَّلامُ، وقالوا هذا القولَ.

وفيه دليلٌ على أنَّهم سألوه قبلَ ذلك أن يخرجَ معهم يوسفُ فأبَى، ويحتمِلُ أنَّه كانَ ابتداءَ السُّؤالِ، ولكنْ بدؤُوه بالإنكارِ حتَّى لا يرُدَّهم.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَاصِحُونَ﴾ لا تُهمةَ فينا في حقِّه.

***

(١٢) ـ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قُرِئَ: ﴿نرتَعِ﴾ بالنُّونِ وكسرِ العينِ منَ الارتِعاءِ، وهو افتِعالٌ من «رَعَيْتُ، ورَعَتِ الماشيةُ»، والارتِعاءُ للمواشي، فأضافُوه

إلى أنفُسِهم؛ أي: نرتَعي إبِلَنا، فحُذِفَ المُضافُ، أو أضافَ[1] الارتِعاءَ إلى أصحابِ المواشي؛ لأنَّهم سببُ ارتعاءِ المواشي.

ثمَّ على هذا قرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ؛ أي: ويلعبْ يوسفُ، فأضافُوا إليه اللَّعبَ لصِغَرِه.

وقرأ نافعٌ: ﴿يرتعِ﴾ بالياءِ وكسرِ العينِ منَ الارتعاءِ، ﴿وَيَلْعَبْ﴾؛ أي: يقومُ على مالِه في الارتعاءِ ليتدرَّبَ بذلك، فمرَّةً يرتَعي ومرَّةً يلعبُ.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿نَرتَعْ ونلعَبْ﴾ بالنُّونِ فيهما والجزمِ، و﴿نَرْتَعْ﴾ معناه ما سبَقَ، وقيلَ: ننَلْ إلى ما نحتاجُ إليه، يُقالُ: «رتَعَ»؛ أي: نالَ ما أرادَ، فعلى هذا هو ممَّا يُوصَفُ به الإنسانُ.

وقيلَ لأبي عمرٍو: كيف قالوا: «نلعب» وهم أنبياءُ؟ فقال: لم يكونوا يومَئذٍ أنبياءَ[2].

ثمَّ؛ يجوزُ أن يكونَ المُرادُ باللَّعبِ: التَّودُّعَ[3] لا اللَّعبَ الذي هو ضدُّ الحقِّ.

وقُرِئَ: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ والجزمِ فيهما[4].

---

(١) في النسختين: «وأضاف»، والتصويب من «البسيط» (١٢/ ٣٥)، وفيه: الارتعاء: افتعال من رعيت، يقال: رعى الماشيةُ الكلأ يرعاها رعيًا، إذا أكلته، ومثله: ارتعى، هذا معنى الارتعاء للإبل والمواشي، وقد أضافوه إلى أنفسهم؛ لأن المعنى: نرتعي إبلنا، ثم يحذف المضاف فيكون: نرتعي، أو يقال: حقيقة الرعي والارتعاء للماشية وينسب ذلك إلى أصحابها؛ لأنهم السبب في ذلك بإيرادها الكلأ ومواضعه والقيام عليها، فيسند ذلك إليهم.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٥) عن هارون أنه هو السائل لأبي عمرو.

(٣) التودع: من الدعة، والدَّعَةُ: الخفض في العيش والرّاحة. رجُلٌ مُتَّدع: صاحب دَعَةٍ وراحة. انظر: «العين» (٢/ ٢٢٣).

(٤) قرأ: ﴿نَرْتَعِ ونَلْعَبْ﴾ ابن كثير بخلاف عن قنبل، ﴿نرتعي ونَلْعبْ﴾ قنبل بوجهه الآخر، ﴿نَرْتَعْ =

وقيلَ: ﴿نَرْتَعْ﴾؛ أي: نأكُلْ، يُقالُ: «رتَعَ فلانٌ»؛ أي: أكلَ.

وقيلَ: ﴿نَرْتَعِ﴾؛ أي: نتَحارَسْ ويحفَظْ بعضُنا بعضًا، منَ الرِّعايةِ بمعنَى الحفظِ، لا من رَعيِ الماشيةِ(١).

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كلِّ ما تخافُ عليه.

ثمَّ؛ يحتملُ أنَّهم كانوا يخرُجون رُكبانًا، ويحتمِلُ أنَّهم كانوا رَجَّالةً، وقد نُقِلَ أنَّهم حملوا يوسُفَ على أكتافِهم ما دامَ يعقوبُ يراهُم، ثمَّ لـمَّا غابُوا عن عينَيه طرَحُوه ليغدُوَ معَهم إضرارًا به.

❊ ❊ ❊

(١٣) ـ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أخبرَ عن حُزنِه لغيبَتِه ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قيلَ: كان يعقوبُ رأى في النَّومِ كأنَّ ذئبًا عدا على يوسُفَ، فلهذا قالَ ما قالَ.

وقيلَ: كانت أرضُهم معدِنَ الذِّئابِ.

= ونَلْعَبْ﴾ ابن عامر وأبو عمرو، ﴿يَرْتَعِ ويَلْعَبْ﴾ نافع وأبو جعفر، ﴿يَرْتَعْ ويَلْعَبْ﴾ الباقون. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨)، و«النشر» (٢/ ٢٩٣ و٢٩٧)..

فقراءة ابن كثير المشهورة عنه من طريقيه: ﴿ونلعب﴾ بالنون لا بالياء، هذا كما أنه ليس في شيء من القراءات العشر المشهورة ما ذكره المصنف من قراءة: (نرتعِ ويلعب)، وإنما نقل ذلك عن «البسيط» (١٢/ ٣٥).

(١) وهذا إنما يستقيم على قراءة ابن كثير بوجهيه: ﴿نرتعِ﴾ بالكسر و﴿نرتعي﴾ بالياء، فكلاهما من الارتعاء: الافتعال، حيث قال الواحدي: وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿نرتع﴾: نتكالأ ونتحارس بعضنا بعضًا، وعلى هذا فهو افتعال من الرعاية بمعنى الحفظ، لا من رعي الماشية.

والذِّئبُ يُهمَزُ ويُخفَّفُ[1]، من قولِـهم: «تذأَّبتِ الرِّيحُ وتذاءَبَتْ»؛ أي: جاءَتْ من كلِّ جهةٍ، والذِّئبُ يحتالُ بالحيلةِ من كلِّ جهةٍ.

﴿وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: مُشتَغِلون بالرَّعيِ، وأدَّاه فرطُ الشَّفقةِ إلى أن علَّمَ بنيهِ ما يصنَعُونَ بيوسُفَ وعلَّمَهم الاعتذارَ.

* * *

(١٤) ـ ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ نرى الذِّئبَ ثمَّ لا نردُّه عنه ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ قيلَ: لجاهِلون بحقِّه.

وقيلَ: لَعاجِزُون، ولا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: ونحنُ عصبةٌ نراه، أو: عندَه.

وقيلَ: لخاسِرُون في حفظِ أغنامِنا؛ فإنَّ الذِّئبَ يُفسِدُها أيضًا.

* * *

(١٥) ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

قولُـه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: فأرسـلَ يعقـوبُ يوسـفَ معَهـم، فلمَّـا ذهبُوا به ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾؛ أي: وأحكَمُوا رأيَهم وأَمْرَهم على أن يطرَحُوه في الجبِّ.

وجوابُ «لـمَّا» محذوفٌ؛ أي: فلمَّا ذهُبوا به وأجمَعُوا على طرحِه في الجبِّ عظُمَتْ فتنتُهم.

(١) قرأ ورش والكسائيُّ وأبو عَمْرو بخُلفه بغير همز وكذا حمزة وقفاً، والباقون بالهمز في الحالين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

وقيلَ: جوابُ قولِه ﴿فَلَمَّا﴾ في قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾.

وقيلَ: ﴿أوحَينا﴾؛ **وهذا بعيدٌ** عند البصريِّينَ؛ فإنَّهم لا يُجوِّزونَ إقحامَ الواوِ.

وقال الكوفيُّونَ: الواوُ مُقحَمةٌ؛ أي: فلمَّا ذهبُوا به أوحَينا إليه، فالواوُ عندَهم يجوزُ أن تُزادَ لا سيَّما مع «لمّا» و«حتَّى»، قالَ الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ أي: فُتِحَتْ.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ قيلَ: كان وحيَ إلهامٍ، كقولِه ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وقيلَ: كان وحيًا على التَّحقيقِ؛ قال الحسنُ: أعطاه الله النُّبوّةَ وهو في الجبِّ(١).

وقال الكلبيُّ: أُلقِيَ في الجبِّ وهو ابنُ ثماني عشرةَ سنةً(٢)، فما كان صغيرًا، ومَن قال: كان صغيرًا فلا يبعُدُ في العقلِ أن يُنبَّأَ الصَّغيرُ ويُوحَى إليه.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: بهذا الوحيِ إلى يوسفَ؛ إذ لو علِمُوا به فربَّما ابتدَرُوا إلى إهلاكِه.

وقيلَ: أي: لتُنبِّئَنَّهم وهم لا يشعُرون أنَّك يوسفُ في وقتِ مَا تُخبِرُهم بأمرِهم، وذلك أنَّ الله أمرَ يوسفَ لـمَّا أفضى إليه الأمرُ بمصرَ أنْ لا يُخبرَ أباه وإخوتَه بمكانِه؛ لأنَّه قضى على يعقوبَ بأن يُوصِلَه إلى درجاتٍ عاليةٍ لا يَصلُ إليها إلّا بعظيمِ ما قاسى منَ الحزنِ.

* * *

(١) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٤/ ٣٨١)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ٣٣٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٢)، والقرطبي في «تفسيره» (٩/ ١٤٢)، وروى ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٩١٧) عن الحسن قال: «ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة».

(١٦) ـ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ﴾؛ أي: فطرَحُوه في الجبِّ، وذبَحُوا سخلةً، ولطَّخُوا بدمِها قميصَه ـ وكانُوا ألقَوه في الجبِّ عاريًا ـ وجاؤوا أباهم ﴿عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ إنَّما جاؤوا عشاءً ليكونُوا أقدرَ على الاعتذارِ في ظُلمةِ اللَّيلِ.

* * *

(١٧) ـ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾؛ أي: في الرَّمي، أو على الفرَسِ، أو على البعيرِ، أو على الأقدامِ، والغَرضُ منَ المُسابقةِ على الأقدامِ: تدريبُ النَّفسِ على العَدْوِ؛ لأنَّه الآلةُ في قتالِ العدوِّ ودفعِ الذِّئبِ عنِ الأغنامِ.

﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾؛ أي: عندَ ثيابِنا وأقمِشَتِنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾؛ أي: بمُصدِّقٍ ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: عندَ النَّاسِ، أو عند الله، وفي سائرِ الأشياءِ، وإنَّما لا تُصدِّقُنا أنتَ لسوءِ ظنِّك بنا، وفَرْطِ شَغَفِك بيوسفَ، ولـم يقُمْ لك برهانُ صِدقِنا.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾؛ أي: مكذوبٍ فيه، فوُصِفَ بالمصدرِ؛ أي: بدمٍ ذي كذبٍ، والفاعلُ والمفعولُ قد يُسمَّيانِ بالمصدرِ، يُقالُ: «هذا ضربُ الأميرِ»؛ أي: مضروبُه، و«ماءٌ سَكْبٌ»؛ أي: مسكوبٌ، و﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ [الملك: ٣٠]؛

أي: غائرًا، و«رجلٌ عدلٌ»؛ أي: عادلٌ، وهذا كما يُسمَّى المصدرُ أيضاً باسمِ الفاعلِ والمفعولِ، كقولِه: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦]؛ أي: الفِتنةُ.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: كذَبتُم، ما عهدي بالذِّئبِ حليمًا، لو أكلَه لخرَقَ قميصَه، فقالوا: فقتَلَه اللُّصوصُ، فقال: كيفَ قتلُوه ولـم يأخُذوا قميصَه، وهم إلى قميصِه أحوَجُ منهم إلى قتلِه؟

والتَّسويلُ: التَّزيينُ؛ أي: زيَّنَتْ لكم أنفسُكم أمرًا غيرَ ما تصِفُونَ، والتَّسويلُ: تفعيلٌ من سُولِ الإنسانِ وأُمنِيَّتِه.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: لا شكوَى فيه ولا جزَعَ، وارتفعَ (صبرٌ)؛ لأنَّ المعنى: فشأني صبرٌ جميلٌ، أو: فصبري صبرٌ جميلٌ، أو: فليكُنْ منِّي صبرٌ جميلٌ.

وقيلَ: أي: فصبرٌ جميلٌ أَولى بي، فهو مبتدأٌ وخبرُه محذوفٌ.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ بيَّنَ أنَّ صبرَه لا يتمُّ إلّا بعَونِ الله.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾؛ أي: رُفقةٌ مارَّةٌ يسيرونَ منَ الشّامِ إلى مصرَ.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾؛ أي: الذي يرِدُ الماءَ ليستقيَ للقومِ ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾؛ أي: أرسلَها في البئرِ، ودَلَا يدلُو دَلْوًا؛ أي: جذَبَ وأخرَجَ منَ البئرِ.

﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾؛ أي: فتشَبَّثَ يوسفُ بالرِّشا، فأخرَجَه الواردُ فقالَ: يا فَرْحَتَا، فقولُه: ﴿يا بُشرايَ﴾ في محلِّ النَّصبِ؛ لأنَّه نداءٌ مضافٌ، ومعنى النِّداءِ هاهُنا: التَّنبيهُ؛ أي: تنبَّهوا لفَرحَتي.

وقيلَ: أي: يا أَيَّتُها البُشرَى هذا أوانُكِ.

وقُرِئَ: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ من غيرِ إضافةٍ(١)، فيكونُ رفعًا؛ لأنَّه نداءٌ مفردٌ، وقال: ﴿هَـٰذَا﴾.

قال السُّدِّيُّ: نادَى المُدْلي صاحبَه، وكان اسمُه بُشرَى(٢)، كما تقولُ: «يا زيدُ هذا غلامٌ»، ويجوزُ أن يكونَ محلُّه نصبًا، كقولك: «يا رجلًا»، وقولِه: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، ولكنَّه لم يُنوِّنْ «بُشرَى» لأنَّه لا ينصرفُ.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾؛ أي: أسرَّه الواردُ وأصحابُه بضاعةً، قالوا: نبيعُ هذا الغلامَ من ملكِ مصرَ.

وقيلَ: قالوا: إنْ علمَ أهلُ الرُّفقةِ طلبُوا مُشاركتَنا فيه، فلنقُلْ: إنَّه بضاعةٌ أودَعَناها بعضُ أهلِ الشّامِ، أو أهلُ هذا الماءِ إلى مصرَ(٣).

وقال ابنُ عبّاسٍ: أسرَّه إخوةُ يوسفَ بضاعةً لـمَّا استُخرِجَ منَ الجبِّ، وتوعَّدوه بالقتلِ لو أخبرَهم بالقِصّةِ بلسانِ العبريّةِ(٤).

والبِضاعةُ: القطعةُ منَ المالِ تُجعَلُ للتِّجارةِ، من «بضَعْتُ الشَّيءَ»؛ أي: قطَعتُه.

وقيلَ: كانت هذه بئرًا للرُّعاةِ يسقُونَ منها أغنامَهم.

---

(١) قرأ بها حمزة وعاصم والكسائي، والباقون: ﴿بشراي﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٣).

(٣) أي: إن أهل الماء أبضعوه معنا على أن نبيعه لهم بمصر. انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٥٣).

(٤) انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٥٣)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٩) بإسناد ضعيف، وذكره ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية، ثم تعقبه بقوله: ولا يخفى ما فيه من الاختلال لحُسن نظم المقال، والإشكالِ من جهة أن التعبير المذكورَ لا يناسب الحال.

وقيلَ: أضلَّتِ الرُّفقةُ طريقَها فعثَرُوا على هذا البئرِ.

وقيلَ: لمَّا أُلقِيَ فيه ظهرَتْ صخرةٌ قبلَ وصولِه إلى الماءِ، فقعدَ عليها يوسفُ.

وقال وَهْبٌ: عرَّوه لـمَّا ألقَوه في البئرِ، وكانَ في عنُقِه تعويذٌ فيه حلّةٌ أنزلَـها الله على إبراهيمَ لـمَّا أنْ[١] رُمِيَ به إلى النَّارِ، فدفعَها إلى إسحاقَ، وإسحاقُ إلى يعقوبَ، ويعقوبُ إلى يوسفَ، فأتاه جبريلُ عليه السَّلامُ فألبَسها إيّاه[٢].

***

(٢٠) ـ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ قيلَ: إنَّ يهوذا رأى من بعيدٍ أنَّ يوسفَ أُخرِجَ منَ البئرِ، فأخبرَ إخوتَه، فجاؤوا وباعوه منَ الوارِدين.

وقيلَ: لا، بل عادُوا بعد ثلاثٍ إلى البئرِ يتعرَّفونَ الخبرَ فرأَوا أثَرَ السَّيّارةِ فاتَّبعُوهم، وقالوا: هذا عبدُنا أبقَ منّا، فباعُوه منهم باثنين وعشرين درهمًا.

وقيلَ: بعشرينَ درهمًا.

﴿وَشَرَوْهُ﴾؛ أي: باعُوه واشتَروه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، يُقالُ: «شرَيتُه»؛ أي: بِعتُه، و«شرَيتُه»؛ أي: اشتَريتُه.

وقيلَ: إنَّ السَّيّارةَ باعُوه بثمنٍ بخسٍ؛ أي: حرامٍ، والحرامُ يُسمَّى بخسًا ونُقصانًا لأنَّه لا بركةَ فيه.

وقيلَ: ﴿بَخْسٍ﴾؛ أي: ظُلمٍ.

---

(١) «أن» من (أ).

(٢) ذكره بنحوه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٠٩)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ٣٤٢)، عن وهب، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٥١٢) بلا نسبة.

وقيلَ: ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾؛ أي: قليلٍ. وقيلَ: زُيُوفٍ.

وقيلَ: غيرِ وافٍ؛ أي: بدراهمَ خفافٍ.

والبَخْسُ: مصدرٌ وُضِعَ موضعَ الاسمِ؛ أي: بثمنٍ مبخوسٍ؛ أي: منقوصٍ.

﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدلٌ منَ «الثَّمنِ» وتفسيرٌ له ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ قيلَ: كانوا يعدُّونَ الدَّراهمَ ولا يزِنُونها حتَّى تبلغَ أوقيةً، فبيَّنَ أنَّها كانَتْ أقلَّ من أوقيَّةٍ، والأوقيَّةُ: أربعونَ درهمًا.

وقيلَ: ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾؛ أي: قليلةٍ.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: كانتِ السَّيَّارةُ منَ الزَّاهدين في إمساكِه؛ لقولِـهم: إنَّه عبدٌ أبَقَ منَّا. والزُّهدُ: قلَّةُ الرَّغبةِ، ويُمكِنُ أن يكونَ إظهارُ قلَّةِ الرَّغبةِ من جانبِ السَّيَّارةِ كان على طريقِ العادةِ؛ فإنَّه أبدًا يَعيبُ ما يشتَريه.

وقيلَ: كانُوا فيه منَ الزَّاهدينَ؛ لأنَّ الله وإنْ أعطى يوسفَ شطرَ الحسنِ صرَفَ عنه دواعيَ نفوسِ القومِ إليه إكرامًا له.

وقيلَ: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: لـم يعلَمُوا منزلتَه عند الله.

وقيلَ: زهِدُوا فيه علمًا منهم بأنَّه لا يبقَى لهم.

وقيلَ: يعني: وكانت إخوتُه فيه منَ الزَّاهدينَ؛ لأنَّهم أبغَضُوه، ولهذا باعُوه بثمنٍ بخسٍ.

وقيلَ: أي: صارُوا فيه منَ الزَّاهدينَ.

وقيلَ: تزهَّدوا[1] في ذلك الثَّمنِ لرداءَتِه، ولأنَّ قصدَهم إبعادُ يوسفَ عن يعقوبَ، لا عن الثَّمنِ[2].

---

(١) في (أ): «زهدوا».

(٢) كذا وقع هذا القيل في النسختين، وفيه غموض، ولعل الصواب فيه ما جاء في «البسيط» (١٢/ ٥٣): =

وقيلَ: أظهَرُوا الزُّهدَ في الثَّمنِ؛ لأنَّ البائعَ أبدًا يطلبُ عيبَ الثَّمنِ، كما أنَّ المُشتريَ يطلُبَ عيبَ المبيعِ.

***

(٢١) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ قيلَ: الاشتراءُ بمعنَى الاستبدالِ؛ إذ لم يكُنْ ذلك عقدًا.

وقيلَ: إنَّهم ظنُّوه في ظاهرِ الحالِ اشتراءً[1]، فجرَى هذا اللَّفظُ على ظاهرِ الظَّنِّ.

قال الضَّحّاكُ: هذا الذي اشتراه ملكُ مصرَ ولقبُه العزيزُ[2].

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنَّما اشتراه وزيرُ ملكِ مصرَ[3].

وملكُ مصرَ هو الرَّيّانُ بنُ الوليدِ، أو الوليدُ بنُ الرَّيّانِ، وهو رجلٌ منَ العمالقةِ.

وقيلَ: هو فرعونُ موسى؛ لقولِ موسى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وإنَّه عاشَ أربعَ مئةِ سنةٍ.

وقيلَ: فرعونُ موسى من أولادِ فرعونِ يوسفَ.

= المعنى: أن إخوة يوسف كانوا من الزاهدين في الثمن إما لذاته، وإما لأن قصدهم تبعيد يوسف لا الثمن.

(١) في (أ): «أسيراً».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٩).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٩) من رواية الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وكان هذا العزيزُ الذي اشترَى يوسفَ على خزائنِ الملكِ، واشترَى يوسفَ من مالكِ بنِ دُعْرٍ، وهو الذي ظفرَ بيوسفَ بعشرينَ دينارًا، وزادَه حلَّةً ونعلَينِ.

وقيلَ: اشتراه من أهلِ الرُّفقةِ.

وقيلَ: تزايَدُوا في ثمنِه، فبلغَ أضعافَ وزنِه مسكًا وحريرًا ووَرِقًا، فاشتراه العزيزُ.

وقولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ يدُلُّ على أنَّ أهلَ الرُّفقةِ حملوه إلى مصرَ.

﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ قيلَ: كان اسمُها زَليخا، وكان الله ألقَى محبّةَ يوسفَ على قلبِ العزيزِ فأوصى به أهلَه.

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ أي: منزلَه، من ثَوَى بالمكانِ؛ أي: أقامَ به.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾؛ أي: يكفيَنا بعضَ المُهمَّاتِ إذا بلَغَ.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كانَ حَصُورًا لا يُولَدُ له[1].

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مثلَ الذي وصَفْنا مكَّنَّا، فشبَّهَ التَّمكينَ في الأرضِ بتهيئةِ هذه الأسبابِ في النَّجاةِ منَ البئرِ.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: ولنُعلِّمَه مكَّنّا له في الأرضِ، وعند الكوفيِّينَ الواوُ مُقحَمةٌ.

وقيلَ: فعَلْنا ذلك لنُمكِّنَه في الأرضِ، ولنُعلِّمَه من تعبيرِ الرُّؤيا.

وقيلَ: أحكامُ الشَّرعِ والنُّبوّةُ.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: على ما أرادَ من قضائِه، والكنايةُ في ﴿أَمْرِهِۦ﴾ ترجعُ إلى الله.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦١).

وقيلَ: أي: غالبٌ على أمرِ يوسفَ؛ أي: حِفْظِه، حتَّى لا يصلَ إليه كيدُ كائدٍ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يطَّلعونَ على غيبِه.

وقيلَ: المُرادُ بالأكثرِ: الجميعُ؛ لأنَّ أحدًا لا يعلَمُ الغيبَ.

وقيلَ: هو يجري على ظاهرِه؛ إذ قد يُطلِعُ مَن يُريدُ على بعضِ الغيبِ.

وقيلَ: أكثرُ النّاسِ لا يعلمونَ أنَّ الله غالبٌ على أمرِه، وهم المُشرِكُونَ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: لمَّا انتهَى يوسفُ في شبابِه مُنتهاه قبلَ أن يأخُذَ في النُّقصانِ.

وليس للأشُدِّ واحدٌ من لفظِه، وقيلَ: واحدُها «شُدٌّ»، مثلَ «وُدٍّ وأوُدٍّ».

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: ثلاثًا وثلاثين سنةً[1].

وقيلَ: عشرين سنةً.

وقيلَ: ثماني عشرةَ سنةً.

وقيلَ: سبعَ عشرةَ سنةً.

وقيلَ: أرادَ الحلُمَ.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ أي: فهمًا وعقلًا.

وقيلَ: الحكمُ: النُّبوّةُ، والعلمُ: علمُ الدِّينِ.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٩٧٧ ـ التفسير)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧) بلفظ: «بضعاً وثلاثين».

ومَن قال: أوتيَ النُّبوّةَ صبيًّا، قال: لـمَّا بلغَ أشُدَّه زدناه فهمًا وعلمًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: المُوحِّدين، وقيلَ: الصّابرينَ على النَّوائبِ.

* * *

(٢٣) - ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾؛ أي: حاوَلَـتْ منـه الوقاعَ، وأصلُ المُـراودةِ: الإرادةُ والطَّلَـبُ، والـرَّودُ والرِّيادةُ: طلبُ الكلأ؛ أي: طلبَتْ من يوسـفَ مُساعدتَها.

وقيـلَ: هي مـن «رُوَيدَ»، يُقالُ: «فلانٌ يمشـي رُوَيـدًا»؛ أي: برفـقٍ، فالمُراودةُ: الرِّفـقُ فـي الطَّلَـبِ، يُقالُ في الرَّجـلِ: «راوَدَهـا عن نفسِـها»، وفي المـرأةِ: «راوَدَتْه عن نفسِـه».

﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾؛ أي: من أجلِ نفسِه.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾؛ أي: جعلَتْهـا بحـيثُ يعـسُرُ فتـحُها، والتَّشـديدُ فـي ﴿غلَّقَـتْ﴾ لأنَّهـا غلَّقَتْ سـبعةَ أبـوابٍ، ثمَّ دعَتْـه إلى نفسِـها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾؛ أي: هلُـمَّ، ولا مصـدرَ لـه ولا تصريفَ.

قال الزَّجَّاجُ: أجوَدُ القراءةِ ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ بفتـحِ الهاءِ والتّاءِ؛ لأنَّها بمنزلةِ الأصواتِ، نحوَ «رُوَيدَ وصَه ومَه»، وفُتِحَت التّاءُ لسُكونِها وسكونِ الياءِ، واختيرَ الفتحُ؛ لأنَّ قبلَ التّاءِ ياءً، مثلَ «أينَ وكيفَ»، يُقالُ للواحدِ: «هَيْتَ لك»، وللجميعِ: «هَيْتَ لكم».

وقُـرِئَ: (هَيْـتِ) بفتـحِ الهاءِ وكسـرِ التّـاءِ[1]؛ لأنَّ السّـاكنَ إذا حُرِّكَ حُـرِّكَ إلى الكسرِ[2].

وقُرِئَ بضمِّ التّاءِ؛ لأنَّ فيه معنى الغايةِ؛ أي: قالَتْ: دُعائي لك، فلمّا حُذِفَت الإضافةُ بُنِيَ على الضَّمِّ، مثلَ «حيثُ وبعدُ وقبلُ».

وقُرِئَ: ﴿هِيتَ﴾ بكسرِ الهاءِ، وهو لغةُ قومٍ يُؤثِرونَ كسرَ الهاءِ على فتحِها.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿هِئتُ لك﴾ بكسرِ الهاءِ وضمِّ التّاءِ[3]، يُقالُ: «هِئتُ للأمرِ هيئةً وتهيَّأتُ»، مثلَ «فِئْتُ وتفيَّأتُ»؛ أي: رجَعْتُ، ثمَّ هو مهموزٌ، ويجوزُ تخفيفُه، مثلَ «جِئْتُ وشِئْتُ». **وهذا بعيدٌ**؛ لأنَّ «هِئْتُ» لـم تُسمَعْ في العربيّةِ.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعوذُ بالله، والمَعاذُ: المصدرُ، فقولُك: «مَعاذَ الله»؛ أي: أعوذُ مَعاذًا بالله، فيُحذَفُ الفعلُ، ويُنصَبُ المصدرُ بالفعلِ المحذوفِ، ويُضافُ المصدرُ إلى اسمِ الله، كما يُضافُ المصدرُ إلى المفعولِ، كقولك: «مررتُ بزيدٍ مرورَ عمرٍو»؛ أي: كمُروري بعَمرٍو.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يعني: زوجَها؛ أي: هو سيِّدي أكرمَني.

وقيلَ: أي: إنَّ الله ربِّي تولَّاني بلُطفِه، فلا أرتكبُ ما حرَّمَه.

---

(١) نسبت لنصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعبد الله بن أبي إسحاق وابن محيصن وابن عباس بخلاف وعيسى الثقفي. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٣٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٤/ ٥٤٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٠)، وانظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٦٦) وعنه نقل المصنف.

(٣) قرأ نافع وابن ذكوان: ﴿هِيْتَ﴾ بكسر الهاء من غير همز وفتح التَّاء، وهشام كذلك إلا أنه يهمز: ﴿هِئْتَ﴾، وقد رُوِيَ عنه ضم التَّاء: ﴿هِئْتُ﴾، وابن كثير بفتح الهاء وضم التَّاء: ﴿هَيْتُ﴾، والباقون بفتحهما. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٢٤) - ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ همَمْتُ بالشَّيءِ؛ أي: أرَدْتُه وحدَّثْتُ نفسي به.

وهمُّها كانَ قصدَ المعصيةِ، فأمَّا همُّ يوسفَ فقال قومٌ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ولكنْ لـمَّا رأى البُرهانَ ما همَّ، وهذا لوجوبِ عصمةِ الأنبياءِ، ولو قصدَ بقلبِه فعقدُ القلبِ على ارتكابِ المعصيةِ معصيةٌ، وقد قالَ الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقد قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يوسف: ٥٢]، ومَن قعدَ من زوجةِ سيِّدِه هذا المقعدَ[1] فقد خانَه، فإذًا في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه همَّ بها.

وقال قومٌ: جرَى من يوسفَ همٌّ، فعلى هذا قيلَ: هَمُّ يوسفَ كان حركةَ طبعٍ من غيرِ تصميمِ العقدِ على الفعلِ، وما كانَ من هذا القبيلِ لا يُؤاخَذُ به العبدُ، وقد يخطرُ بقلبِ المرءِ وهو صائمٌ شربُ الماءِ البارِدِ، وتناولُ الأطعمةِ اللَّذيذةِ، فإذا لـم يأكُلْ ولـم يشرَبْ ولـم يُصمِّمْ عَزْمَه على الأكلِ والشُّربِ لا يُؤاخَذُ بما هجَسَ في صدرِه، والبُرهانُ: صَرْفُه عن هذا الهمِّ حتَّى لـم يَصِرْ عزمًا مُصمَّمًا.

وقيلَ: ﴿همَّ بها﴾؛ أي: همَّ بضربِها ودفعِها عن نفسِه، والبرهانُ: كفُّه عن الضَّربِ؛ إذ لو ضرَبَها لأوهَمَ أنَّه قصدَها بالحرامِ فامتنَعَتْ فضربَها.

وقيلَ: أي: همَّ بمعصيتِها، أو همَّ بطاعةِ ربِّه، **ولكنْ ينأى عن هذا قولُه:** ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

وقيلَ: همَّ يوسفُ أيضًا غيرَ أنَّ الله أراه البرهانَ فانكفَّ عن الفعلِ، وعلى هذا

---

(١) في (أ): «هذه المقعدة».

يُمكنُ أن يُقالَ: لم يكُنْ حينَئذٍ نبيًّا، ويُمكنُ أن يُقالَ: كان نبيًّا والذي وقعَ منه كان صغيرةً، وقد مالَ إلى هذا القولِ مُعظَمُ المُفسِّرين، وقالوا: جلسَ منها مجلسَ الرَّجلِ منَ المرأةِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: حلَّ الهِمْيانَ، وجلسَ منها مجلسَ الخاتنِ، وفي روايةٍ: استلقَتْ له وقعدَ بين رجلَيها ينزعُ ثيابَه[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٣). قال الإمامُ أبو منصور الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦): أمَّا ما قالَه بعضُ أهل التَّفسير أنَّها استلقَتْ له، وهمَّ بها، وحلَّ إزارَه، وأمثالَ هذا من الخرافات؛ فهذا كلُّه ممَّا لا يحلُّ أنْ يُقال، والدلالةُ على فسادِ ذلك وجوهٌ: أحدُها: قوله تعالى: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾. والثَّاني: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾. والثَّالث: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾. والرَّابع: قولهنَّ: ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾. والخامس: قولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾. فهذا كلُّه دليلٌ على أنَّه لم يكنْ منهُ شيءٌ من ذلك، وليس في ظاهرِ الآية ممَّا قالوا من قليلٍ ولا كثيرٍ؛ إذ ليس فيه شيءٌ سوى أن ﴿هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وما أحسن كلام الزمخشري في رد تلك الأباطيل حيث قال في «الكشاف» (٤/ ٢٦٥): ولو وُجدتْ من يوسفَ عليه السلام أدنى زلَّةٍ لنُعِيَتْ عليه وذُكرَتْ توبتُه واستغفارُه كما نُعيَتْ على آدم صلوات الله عليه زلَّتُه، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيُّوب وعلى ذي النُّون عليهم السلام، وذُكرَت توبتُهم واستغفارُهم، كيف وقد أُثنيَ عليه وسُمِّي مخلَصاً، فعُلم بالقطع أنه ثبتَ في ذلك المقام الدَّحْضِ، وأنه جاهدَ نفسَه مجاهدةَ أولي القوة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجهِ القبح، حتى استَحَقَّ من الله الثناءَ فيما أُنزل من كتب الأوَّلين، ثم في القرآن الذي هو حجةٌ على سائر كتبه ومِصداقٌ لها، ولم يَقتصِر إلَّا على استيفاء قصَّتهِ وضربِ سورةٍ كاملةٍ عليها؛ ليجعل له لسانَ صدقٍ في الآخِرين كما جَعَله لجدِّه الخليلِ إبراهيمَ عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدَّهْر في العفَّة وطِيْبِ الإزار، والتثبُّتِ في مواقف العِثَار.

وقال أبو حيان في «البحر» (١٢/ ٤٤٥): «طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق». =

وقال عليٌّ رضيَ الله عنه: هـمَّ أن يحلَّ التِّكَّةَ، ولـمَّا قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قال له جبريلُ عليه السَّلامُ: لا، وحينَ همَمْتَ بها يا يوسفُ، فقال يوسفُ عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣](١).

والانكِفافُ في مثلِ الحالِ التي وصَفْنا أدَلُّ على الإخلاصِ، وأعظمُ للثَّوابِ، فعلى هذا فجوابُ: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ محذوفٌ؛ أي: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لأمضَى ما همَّ به، ومثلُه: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، وجوابُه: لـم تُنافِسُوا، وتفسيرُ هذا البرهانِ غيرُ مذكورٍ في القرآنِ، فهو آيةٌ من آياتِ الله أراها يوسفَ حتَّى قوِيَ إيمانُه، وامتنعَ عن المعصيةِ.

ثمَّ وردَ في خبرٍ أنَّه رأى صورةَ يعقوبَ على الجدارِ يتوعَّدُه.

ورُوِيَ أنَّه سمعَ صوتًا: «إيّاكَ وإيّاها»، فلم ينزجِرْ، فسمعَ ثانيًا فلم ينزجِرْ، فسمعَ ثالثًا فلم ينزجِرْ، فلمَّا رأى صورةَ يعقوبَ على جدارٍ عاضًّا على أَنْمَلَتِه يتوعَّدُه، فسكنَ وخرجَتْ شهوتُه من أناملِه، فهذا هو البرهانُ(٢).

= قال: «وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة، وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما دل عليه لسان العرب ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين».

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعده الزمخشري من الروايات المصنوعة. انظر كلامه في «الكشاف» (٤/ ٣٠٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٩٠ ـ ٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٣)، عن ابن عباس.

وقيلَ: قامتِ المرأةُ إلى صنمٍ مُكلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوتِ في زاويةِ البيتِ فسترَتْه بثوبٍ، فقال: ما تصنَعين؟ قالت: أستَحي من إلهي هذا أن يراني على هذه السَّوءةِ، فقال يوسفُ: أنا أولَى أن أستحييَ منَ الله، قالَه عليٌّ رضيَ الله عنه[1].

وقيلَ: رأى مكتوبًا في السَّقفِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢][2].

وقيلَ: نُودِيَ: يا يوسفُ، أنتَ مكتوبٌ في الأنبياءِ وتعملُ عملَ السُّفهاءِ[3]؟!

وقال قومٌ: ﴿رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: تذكَّرَ عهدَ الله وميثاقَه وما أكَّدَ عليه من تركِ الزَّلّةِ[4].

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾؛ أي: كذلك أرَيناه البرهانَ لئلّا يرتكبَ السُّوءَ والفحشاءَ.

وقال الـجُرجانيُّ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: همَّتْ به وهمَّ بها كذلك، ثمَّ قال: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لنصرِفَ عنه ما همَّ به[5].

والسُّوءُ: القبيحُ. والفَحشاءُ: الزِّنا.

وقيلَ: هما عبارةٌ عنِ الزِّنا.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٨١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٩٨) عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٩٥) عن محمد بن سيرين.

(٤) قال أبو السعود في «تفسيره» (٤/ ٢٦٧) تعليقاً على هذه الأقوال وأمثالها: «إنْ كلَّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيلُ تمجُّها الآذانُ وتردُّها العقول والأذهانُ ويلٌ لمن لاكها ولفّقها أو سمعها وصدّقها». وقد قدمنا قريباً ذكر ردود بعض العلماء عليها.

(٥) انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٧٨).

﴿إنَّه مِن عبادِنا المخْلِصِينَ﴾ بكسرِ اللّامِ؛ أي: أخلَصَ دينَه لله، وقُرِئَ بفتحِ اللّامِ[1]؛ أي: أخلَصَه الله منَ الأسواءِ.

***

(٢٥) - ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾؛ أي: لمَّا رأى البرهانَ هرَبَ منها فتعادَيا، وقصَدَتْ أن تُمسِكَ البابَ لئلّا يخرُجَ، وقصدَ يوسفُ أن يتخلَّصَ منها، فجذَبَتْه إلى نفسِها فشقَّتْ قميصَه من خلفِه.

والاستِباقُ: طلبُ السَّبقِ إلى الشَّيءِ؛ أي: تبادَرا إلى البابِ.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾؛ أي: وجدَا العزيزَ عند البابِ، وعنَى بالسَّيِّدِ: الزَّوجَ، والقِبْطُ يُسمُّونَ الزَّوجَ سيِّدًا، فلمّا رأَتْ زوجَها طلبَتْ وجهًا للحيلةِ وكادَتْ فقالت:

﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾؛ أي: الزِّنا، وبرَّأَتْ نفسَها ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾؛ أي: يُحبَسَ ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: الضَّربُ بالسِّياطِ.

***

(٢٦ - ٢٧) - ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ نطقَ يوسفُ بالحقِّ في مُقابلةِ تُهمتِها وكذبِها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيلَ: كانَ صبيًّا في المهدِ في الدّارِ، وهو ابنُ خالِ المرأةِ.

---

(١) قرأ بالكسر ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، والباقون بالفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨).

ورَوَى سعيدُ بنُ جُبَيرٍ عن ابنِ عبّاسٍ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ أنَّه قال: «تكلَّمَ أربعةٌ وهم صغارٌ»، فذكرَ منهم: شاهدَ يوسفَ[١].

وقال قومٌ: كان هذا الشّاهدُ رجلًا ذا عقلٍ كان العزيزُ يستشيرُه في أمورِه[٢].

وكان من جملةِ أهلِ المرأةِ، وسمَّى قولَه شهادةً لأنَّه أخرجَ الرَّأيَ الذي رآه بلفظِ الشَّهادةِ، يُريدُ بذلك تحقيقَ رأيِه.

وقيلَ: ﴿وَشَهِدَ﴾؛ أي: حكمَ، وقد يقولُ الرَّجلُ لغيرِه: إنْ كانَ الأمرُ على ما يقولُه خصمُكَ فأنا أشهدُ أنَّك ظالمٌ، فيكونُ كلامًا صحيحًا، وإنَّما يحتاجُ إلى تقريرِ هذا؛ لأنَّ الشَّهادةَ الجازمةَ لا تُعلَّقُ بالشَّرطِ.

وقيلَ: لعلَّ هذا الشّاهدَ سمعَ منَ المرأةِ كلامًا وراءَ البابِ أو لفظًا من يوسفَ، فعرفَ حقيقةَ الحالِ، فكان ما ذكرَه شهادةً، وذكرَه في معرضِ الشَّرطِ ليُؤكِّدَ به علمَ المُخاطَبينِ، وكأنَّه قال: هي الكاذبةُ وهو الصَّادقُ، فإنْ تدبَّرتُم ما أشترِطُه لكم عرفتُم

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٢٢)، والبزار (٢٤ ـ كشف)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩٠٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، إلا أنه في رواية ابن حبان قال بدل «شاهد يوسف»: «والرابع لا أحفظه».
وروى البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...» فذكر عيسى، وصاحب جريج، وابن المرأة التي مر عليها الراكب ذو الشارة، وروى مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب قصة أصحاب الأخدود، وفيه ذكر تكلُّم ولد المرأة التي أحرقت في الأخدود. فصار ما ذكر في الصحيحين أربعة، ومع حديث ابن عباس يصبحون ستة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٩)، عن ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما.

صحَّةَ قولي، وهذا كقولِك: إنْ كانَ القَدَرُ حقًّا فالحرصُ باطلٌ، فليس هذا إظهارَ شكٍّ، بل هو تحقيقُ ما يقولُ.

والقَدُّ: القطعُ طولًا، وفلانٌ حسَنُ القَدِّ؛ أي: حسَنُ التَّقطيعِ.

﴿مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: مِن جهةِ الخلفِ؛ أي: من دُبرِ القميصِ، فحُذِفَ المُضافُ تخفيفًا.

***

(٢٨) - ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: لـمَّا رأى زوجُ المرأةِ قميصَ يوسفَ ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: مقدودًا من دُبرٍ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ يعني قولَـها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ [يوسف: ٢٥].

وقيلَ: هذا من قولِ الشّاهدِ، قال: هذا من كيدِكُنَّ.

***

(٢٩) - ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾؛ أي: يا يوسفُ أعرِضْ عن هذا الأمرِ، ولا تذكُرْه، وقد بانَ براءتُك، ثمَّ قال للمرأةِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾؛ أي: تُوبي إلى ربِّكِ من خيانتِكِ لزَوجِكِ، ومُراوَدَتِكِ يوسفَ، وكذبِكِ عليه.

وقيلَ: هذا من قولِ الشّاهدِ، قال لـها: استغفِري لذنبِكِ منَ الله، أو: اطلُبي من زوجِكِ السَّترَ عليكِ.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾؛ أي: منَ القومِ الخاطئينَ، وهو كقولِه: ﴿إِنَّهَا

كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]، وقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وهذا لتغليبِ التَّذكيرِ، والخاطِئُ بمعنَى المُخطِئ.

وقيلَ: «أخطأَ» إذا لم يتعمَّدْ، و«خَطِئَ» إذا تعمَّدَ.

***

(٣٠) - ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: انتشرتِ القصّةُ في أهلِ مصرَ، والنِّسوةُ جمعٌ، فيجوزُ: «قالَتْ نِسوةٌ»، و: «قال نِسوةٌ»، كما تقولُ: «قالتِ الأعرابُ»، و: «قال الأعرابُ».

ثـمَّ قيلَ: قال ذلك امرأةُ ساقي العزيزِ، وامرأةُ خبَّازِه، وامرأةُ صاحبِ دواتِه، وامرأةُ صاحبِ سجنِه.

وقيلَ: وامرأةُ الحاجبِ امرأةُ العزيزِ، والعزيزُ بلغتِهم: الملكُ.

وقيلَ: سُمِّيَ عزيزًا؛ لأنَّه كان عزيزًا على الملِكِ.

﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الفتَى: الحدَثُ الشَّابُّ؛ أي: تُراوِدُ غُلامَها عن نفسِه.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ الشَّغَفُ: أن يبلُغَ الحبُّ شغافَ القلبِ، وهو جلدةٌ دونَه.

وقيلَ: ﴿شَغَفَهَا﴾؛ أي: أصابَ شَغافَها، مثلَ: «كبَدَها»؛ أي: أصابَ كبِدَها.

﴿حُبًّا﴾ هذا تفسيرٌ، كقولكَ: «طابَ نفسًا»، و: «قرَّ عينًا».

وقيلَ: أي: قد شَغَفَها بالحبِّ، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ، ونُصِبَ الحبُّ.

وقيلَ: شَغافُ القلبِ موضعُ الدَّمِ داخلَ القلبِ، وقرأ قومٌ منَ الصَّحابةِ:

﴿شَغَفَهَا﴾ بالعينِ؛ أي: بلغَ منها المبلغَ العظيمَ، وذهبَ منها كلَّ مذهبٍ، من الشَّعَفِ، وهو رؤوسُ الجبالِ.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: مَيلٍ ظاهرٍ عن طريقِ الرُّشدِ.

﴿فَتَىٰهَا﴾؛ أي: فتَى زوجِها، وصحَّتِ الإضافةُ لأنَّ يوسفَ كان عندَهم في حكمِ المماليكِ، وكان ينفُذُ أمرُها فيه.

* * *

(٣١) ـ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قيلَ: إنَّما قُلنَ ما قُلنَ توصُّلًا إلى رُؤيةِ يوسفَ، وكانت تبخَلُ بأن يرَى النّاسُ يوسفَ، فعِبْنَها بحُبِّ يوسفَ لتطلُّعِهنَّ على يوسفَ، فهذا معنى مكرِهنَّ.

وقيلَ: كانت أسرَّتْ إليهنَّ وَجْدَها بيوسفَ واستكْتَمَتهُنَّ فغَدَرْنَ وأظهَرْنَ سرَّها، فهذا مكرُهنَّ، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أرادَتْ أن تُوقِعَهنَّ فيما وقعَتْ فيه، فـ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: دعَتْهُنَّ إلى دارِها للطَّعامِ.

قال وَهْبٌ: دعَتْ أربعينَ امرأةً منهنَّ عيَّرْنَها[1].

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾؛ أي: أعدَّتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ والمُتَّكأُ: ما يُتَّكأُ عليه من نُمْرُقةٍ أو وسادةٍ، وأصله: «مُوْتَكأٌ» بالواوِ، مثلَ: مُوْتَزِنٍ، و«اتَّكَيتُ» أصلُه: اوتكَيتُ، فأُدغِمَت الواوُ في التّاءِ، فقيلَ: «مُتَّكأٌ» مثلَ: مُتَّزِنٌ، والتَّوكُّؤُ: التَّحاملُ على العصا في المشيِ.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٥٨٧)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٩٢).

وقُرِئَ شاذًّا: ﴿مُتْكًا﴾[١]، والمُتْكُ: الأُتْرُجُّ.

وقيلَ: الزُّماوَرْدُ[٢].

وقال ابنُ عبّاسٍ: المُتَّكأُ ـ بالتَّشديدِ ـ: الأُتْرُجُّ أيضًا[٣].

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾؛ أي: أعطَتْ سكّينًا وثمرةً تُحزُّ ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: أمرَتْ يوسفَ بالخروجِ عليهنَّ، ولزِمَه أمرُها لأنَّه كان في هيئةِ المملوكِ.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ أي: أعظَمْنَه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أعظَمْنَه وبُهِتْنَ وحِضْنَ[٤]، والإكبارُ في اللُّغةِ ليس بحيضٍ، ولكنَّه قد يَجرُّ الحيضَ، وقد تفزعُ المرأةُ فيسقطُ ولدُها أو تحيضُ.

---

(١) نسبت لابن عباس وابن عمر وجمع من التابعين. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٣٩)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٣). وقرأ أبو جعفر من العشرة: (مُتَّكًا) أيضًا بحذف الهمزة إلا أنه شدد التاء. انظر: «النشر» (١/ ٣٩٩).

(٢) الزُّمَاورد والزَّمَاورد ـ وفي قول العامة: البَزْماورد ـ: طعام من البيض واللحم والسمن، معرب كما في «القاموس»، أو هو الرقاق الملفوف باللحم، كما في حواشي «الكشاف»، وفي كتب الأدب: طعام يقال له: لقمة القاضي، أو: لقمة الخليفة، وقيل: البزماورد ضرب من الحلوى يصنع من العجين بالسكر، وقيل: كل ما عمل من السكر حلوى فهو زماورد. انظر: «معجم متن اللغة» لأحمد رضا (٣/ ٦١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢٨)، وروى عنه (١٣/ ١٢٦) أنه كان يقرؤها: (مُتْكاً) مخففة، ويقول: هو الأترج.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٥).

وذكر الكرماني هذا القول في «غرائب التفسير» (١/ ٥٣٥) وعده من العجائب، وقال: «ويمكن تصحيح أَكْبَرَ بمعنى: حاض أو أمذى الغلامُ والجارية من وجه، وهو أن يحمل على أول حيض وأول إمذاء، فإن ذلك علامة الكبر، ثم صار كناية عن الحيض والإمذاء».

وقال الزَّجّاجُ: يُقالُ: أكبرنَه، ولا يُقالُ: حِضْنَه، فليس الإكبارُ بمعنى الحيضِ(١).

والجوابُ ما سبقَ.

وأجابَ الأزهريُّ فقال: يجوزُ «أكبَرَتْ» بمعنى «حاضَتْ»؛ لأنَّ المرأةَ إذا حاضَتْ في الابتداءِ خرجَتْ عن حدِّ الصِّغَرِ إلى الكبرِ.

قال: والهاءُ في ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾، يجوزُ أن تكونَ هاءَ الوقفةِ لا هاءَ الكنايةِ(٢).

وهذا مُزيَّفٌ؛ لأنَّ هاءَ الوقفِ تسقطُ في الوصلِ.

وأمثَلُ منه قولُ ابنِ الأنباريِّ: إنَّ الهاءَ كنايةٌ عن مصدرِ الفعلِ؛ أي: أكبَرْنَ إكبارًا، بمعنى حِضْنَ حيضًا، كما يُقالُ: «قدِمَ زيدٌ فأحبَبْتُه»؛ أي: أحبَبْتُ قُدومَه(٣).

وقيلَ: ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾؛ أي: حِضْنَ له أو لأجلِه.

﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ قيلَ: أنامِلَهُنَّ؛ أي: ما وجَدْنَ ألـمًا في القطعِ والجَرحِ لشُغْلِ قلوبهنَّ بيوسفَ، والتَّقطيعُ يُشيرُ إلى الكثرةِ، فيُمكنُ أن ترجعَ الكثرةُ إلى أنَّ كلَّ واحدةٍ جرحَتْ يدَها في مواضعَ، ويُمكنُ أن ترجعَ إلى عددِهنَّ.

وقال وَهْبٌ: ماتَتْ منَ الأربعين تسعٌ في ذلك المجلسِ دَهَشًا وحيرةً ووَجْدًا بيوسفَ(٤).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٧)، ولفظه: ويقال: ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾: حضن... وهذه اللفظة ليست بمعروفة في اللغة، والهاء في ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ تنفي هذا لأنه لا يجوز أن يقول: النساء قد حضنه يا هذا؛ لأن حضن لا يتعدى إلى مفعول.

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٢٠ ـ ١٢١).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٩٩).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٧)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ٣٨٣). وفيه مبالغة لا تخفى.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ «حاشَ» و«حاشا»[١] يُستعملانِ استثناءً، ويُستعملانِ تنزيهًا، والمقصودُ هاهُنا التنزيهُ؛ أي: معاذَ الله أن يكونَ هذا بشرًا.

وقال الزَّجَّاجُ: أصلُ الكلمةِ منَ الحاشيةِ والحشا بمعنى النَّاحيةِ، تقولُ: «كنتُ في حشا فلانٍ»؛ أي: في ناحيتِه، فقولُك: «حاشا لزيدٍ»؛ أي: تنحَّى زيدٌ من هذا وتباعَدَ منه[٢].

والاستثناءُ إخراجٌ وتنحيةٌ عن جملةِ المذكورينَ.

وقال أبو عليٍّ: هو فاعَلَ منَ المُحاشاةِ؛ أي: حاشا يوسفُ، وصارَ في حاشيةٍ وناحيةٍ ممَّا قُرِنَ به، أو من أن يكونَ بشرًا.

وحذفُ الياءِ من «حاشى» كالحذفِ في قولك: «لم يكُ، ولا أدرِ»[٣].

فحاشا وحاشَ في الاستثناءِ حرفُ جرٍّ عند سيبويهِ[٤]، وعلى ما قال أبو عليٍّ فعلٌ.

﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لخوفِ الله ومُراقبةِ أمرِه.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ قال قومٌ: «ما» بمنزلةِ «ليس»، تقولُ: «ليس زيدٌ قائمًا»، و: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾.

---

(١) قرأ أبو عمرو بإثبات الألف وصلًا، والباقون: ﴿حاش﴾ دون ألف، وكذا أبو عمرو وقفاً. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٧)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ١٠١).

(٣) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣).

(٤) انظر: «الكتاب» (٢/ ٣٤٩)، وفيه: «وأما حاشا فليس باسم، ولكنه حرفٌ يجر ما بعده كما تجر حتى ما بعدها، وفيه معنى الاستثناء».

وقال الفرّاءُ: نُصِبَ «بشرًا» لأنَّ «ما» قلَّما تُستعمَلُ إلّا مع الباءِ، تقولُ: «ما زيدٌ بقائمٍ»، فلمَّا حُذِفَ الباءُ أحبُّوا أن يكونَ لـها أثرٌ فنصَبُوا[1].

وذكرتِ النِّسوةُ أنَّ يوسفَ أحسَنُ من صورةِ البشرِ، بل هو في صورةِ ملَكٍ، وقال الله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، والجمعُ بين الآيتَين: أنَّ قولَـهنَّ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهٌ ليوسفَ عمَّا رمَتْه به امرأةُ العزيزِ منَ المُراودةِ؛ أي: بعُدَ يوسفُ عن هذا، وقولُه: ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لخوفِه؛ أي: براءةٌ لله من هذا؛ أي: قد نُحِّيَ يوسفُ من ذلك، فليس هذا منَ الصُّورةِ في شيءٍ، والمعنى: أنَّه في التَّنزيهِ عن المعاصي كالملائكةِ، فعلى هذا لا تناقُضَ.

وقيلَ: المُرادُ تنزيهُه عن مُشابهةِ البشرِ في الصُّورةِ لفَرطِ جمالِه، وقولُه: ﴿لِلَّهِ﴾ تأكيدٌ لهذا المعنى، فعلى هذا قالتِ النِّسوةُ ذلك ظنًّا منهُنَّ أنَّ صورةَ الملَكِ أحسنُ، وما بلغَهنَّ قولُه: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ فإنَّه من كتابِنا.

وقد ظنَّ بعضُ الضَّعَفةِ أنَّ هذا القولَ لو كان ظنًّا باطلًا منهُنَّ لوجَبَ على الله أن يرُدَّ عليهنَّ ويُبيِّنَ كذبَهنَّ، **وهذا باطلٌ**؛ إذ لا وجوبَ على الله، وليس كلُّ ما يخبرُ به الرَّبُّ من كفرِ الكافرينَ وكذبِ الكاذبين يجبُ عليه أن يَقْرنَ به الرَّدَّ عليه.

وأيضًا أهلُ العُرفِ قد يقولون في القبيحِ: «كأنَّه شيطانٌ»، وفي الحسَنِ: «كأنَّه ملَكٌ»؛ أي: لـم نرَ مثلَه؛ لأنَّ النّاسَ لا يرَونَ الملائكةَ، فهو نبأٌ على ظنٍّ في أنَّ صورةَ الملَكِ أحسَنُ، أو على الإخبارِ بطهارةِ أخلاقِه وبُعدِه عن التُّهَمِ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾؛ أي: ما هذا إلّا ملَكٌ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٢)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ١٠٤).

(٣٢) ـ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ لمَّا رأَتْ افتتانَهنَّ بيوسفَ أظهرَتْ عذرَ نفسِها؛ أي: فهذا الذي لُـمتُنَّني فيه، واللّومُ: الوصفُ بالقبيحِ، ثمَّ أقرَّتْ وقالت:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: امتنَعَ، وسُمِّيتِ العصمةُ عصمةً؛ لأنَّها تمنعُ من ارتكابِ المعصيةِ.

وقيلَ: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: فاستعصَى.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ هذا مُعاودةُ المُراودةِ بمحضرٍ منهنَّ، وهَتكٌ لجلبابِ الحياءِ.

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ هذا وعيدٌ بإيقاعِ المكروهِ.

وخطُّ المُصحفِ ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالألفِ، وتُقرَأُ بنونٍ مخفَّفةٍ للتَّأكيدِ، وهو كما كُتِبَ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلق: ١٥] بالألفِ، وقد سبقَ الجوابُ عن مثلِ هذا.

﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ أي: منَ الأذلّاءِ.

وقُرِئَ في الشَّواذِّ: (وليكُونَنَّ) بنونٍ مُشدَّدةٍ[1].

* * *

---

(١) ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٨٤)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٤٣٧)، وأبو حيان في «البحر» (١٢/ ٤٧١).

(٣٣) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: دخولُ السِّجنِ أحبُّ إليَّ، فحُذِفَ المُضافُ، قالَه الزَّجَّاجُ[١].

وقيلَ: ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ بمعنَى السَّجْنِ؛ لأنَّ الاسمَ المُشتَقَّ من الفعلِ قد ينوبُ عن المصدرِ، يُقالُ: «طلَعَتِ الشَّمسُ مطلعًا، وغربَتِ مَغربًا»؛ أي: طُلوعًا وغُروبًا.

وقرأ يعقوبُ: ﴿ربِّ السَّجنُ أحبُّ إليَّ﴾ بفتحِ السِّينِ[٢].

وهذا الاختيارُ أيسَرُ الشَّرَّينِ؛ أي: دُخولُ السِّجنِ ـ أو السَّجنُ ـ إنْ كانَ ممَّا يُرادُ فهو أهوَنُ عليَّ منَ الوقوعِ في المعصيةِ، لا أنَّ دخولَ السِّجنِ ممّا يُحَبُّ على التَّحقيقِ.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾؛ أي: كيدَ جميعِ النِّسوانِ.

وقيلَ: كيدَ النِّسوةِ اللّاتي رأينَه؛ فإنَّهنَّ أمرْنَه بمُطاوعةِ امرأةِ العزيزِ، وقلنَ له: هي مظلومةٌ، وقد ظلَمْتَها.

وقيلَ: طلبَتْ كلُّ واحدةٍ خلوةً به للنَّصيحةِ، ثمَّ دعَتْه إلى نفسِها.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: أميلُ إليهنَّ، من «صَبا يصبُو»؛ أي: مالَ.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: ممَّن يرتكبُ الإثمَ ويستحِقُّ الذَّمَّ، أو ممَّن يعملُ عملَ الجُهَّالِ، ودلَّ على هذا أنَّ أحدًا لا يمتنعُ عن معصيةِ الله إلّا بعونِ الله.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٨)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ١٠٦).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٢٩٥).

(٣٤) ـ ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قوله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ لمَّا قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ تعرَّضَ للدُّعاءِ، وكأنَّه قال: اللَّهمَّ اصرِفْ عنِّي كيدَهُنَّ، فاستجابَ دُعاءَه وعصَمَه عن الوقوعِ في الزِّنا.

❊ ❊ ❊

(٣٥) ـ ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ ﴾؛ أي: ظـهرَ للعزيزِ وأهـلِ مشورتِه من بعدِ أن رأَوا علاماتِ براءةِ يوسفَ: من قَدِّ القميصِ من دُبرٍ، وشهادةِ الشّاهدِ، وحزِّ الأيدي، وقلّةِ صبرِهنَّ من لقاءِ يوسفَ، وإقرارِ المرأةِ بأنَّها راودَتْه عن نفسِه، أن يَسجنُوه كتمانًا للقصَّةِ وللحيلولةِ بينَه وبينَها.

﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾؛ أي: قالوا: واللهِ لنسجُنَنَّه؛ أي: قالوا فيما بينَهم ذلك، واللّامُ لامُ جوابٍ ليمينٍ مُضمَرةٍ.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴾؛ أي: إلى مدّةٍ؛ قال ابنُ عبّاسٍ: إلى انقطاعِ ما شاعَ في المدينةِ[1].

وقيلَ: نُفِيَ خمسَ سنينَ.

وقيلَ: سبعَ سنينَ.

وقال مُقاتلٌ: حُبِسَ ثنتَي عشرةَ سنةً[2].

وجعلَ الله الحبسَ تطهيرًا ليوسفَ من همِّه بالمرأةِ، وكان العزيزُ وإنْ عرفَ براءةَ يوسفَ أطاعَ المرأةَ في سجنِ يوسفَ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ١١٠) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٣٥).

(٣٦) - ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّى أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾؛ أي: عبدانِ من عبيدِ الملكِ الأعظَمِ بمصرَ: صاحبُ شرابِه، وصاحبُ طعامِه، ولعلَّ الفتَى كان اسمًا للعبدِ في عُرفِهم، ولهذا قال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠]، ويُمكنُ أن يكونَ الفتى اسمًا للخادمِ وإنْ لـم يكُنْ مملوكًا.

وقد قيلَ في الفتيَينِ: كانا شاكِرَينِ للملكِ، وكان رُفِعَ إلى الملكِ أنَّ أحدَ الفتيَينِ يُريدُ أن يَسُمَّه، فظنَّ أنَّ الآخرَ مالأَه على ذلك، ثمَّ يُمكنُ أن يكونَ حَبْسُهما مع حبسِ يوسفَ أو بعدَه أو قبلَه، غيرَ أنَّهما دخلا معه البيتَ الذي كانَ فيه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ كان يوسفُ قال لأهلِ السِّجنِ: إنِّي أعبُرُ الأحلامَ، فقال أحدُ الفتيَينِ لصاحبِه: تعالَ حتَّى نُجرِّبَ هذا العبدَ العبرانيَّ، فسألاه من غيرِ أن يكونا رأَيا شيئًا، قالَه ابنُ مسعودٍ(١).

وقال مُجاهدٌ: كانا رأيا حينَ أُدخِلا السِّجنَ رُؤيا، فأتياه(٢).

وقال السَّاقي: أيُّها العالمُ: إنِّي رأيتُ كأنِّي في بستانٍ، فإذا بأصلِ حَبَلَةٍ حسنةٍ، فيها ثلاثةُ أغصانٍ، عليها ثلاثةُ عناقيدَ من عِنَبٍ، فجنَيتُها وعصرتُها في كأسِ الملِكِ، وسقَيتُ الملِكَ فشرِبَه، ودلَّ قولُه: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ على أنَّه رأى ما رأى في النَّومِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٥٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨١٩٥) وصححه، ولفظ الحاكم: «الفتيان اللذان أتيا يوسف عليه الصلاة والسلام في الرؤيا إنما كانا تكاذبا، فلما أول رؤياهما قالا: إنا كنا نلعب، قال يوسف: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٢).

﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾؛ أي: عِنَبَ خمرٍ، فحُذِفَ المُضافُ، وأيضًا يُسمَّى الشَّيءُ باسمِ ما يَؤُولُ إليه، تقولُ: «فلانٌ يطبخُ الآجرَّ»؛ أي: اللَّبِنَ الذي يصيرُ آجرًّا.

وقيلَ: منَ العربِ مَن يُسمِّي العِنَبَ خمرًا.

وقال صاحبُ الطَّعامِ: إنِّي رأيتُ كأنَّ فوق رأسي ثلاثَ سلالٍ فيها الخبزُ وألوانُ الأطعمةِ، وإذا سباعُ الطَّيرِ تأكلُ منه.

والخبزُ: هو المخبوزُ، والمصدرُ: الـخَبْزُ.

والطَّيرُ: اسمُ جمعٍ وهو مؤنَّثٌ، والواحدُ طائرٌ، وقد يُقالُ للواحدِ: طيرٌ، وجمعُه: طيورٌ.

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: أخبِرْنا بتفسيرِه، والتَّأويلُ: مآلُ الشَّيءِ.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: تُؤْثِرُ الإحسانَ، وكان يوسفُ يعودُ المرضى في السِّجنِ، ويُعزِّي الحزينَ، ويُحافظُ على طاعةِ الله، فأحبَّه أهلُ السِّجنِ.

وقيلَ: إنَّا نراك منَ العالِمِينَ؛ أي: منَ المُحسِنين للعلمِ، ومنه: قيمةُ كلِّ امرِئٍ ما يُحسِنُه؛ أي: يعلَمُه.

وورَدَ في القِصّةِ: أنَّ أقوامًا رشَوا صاحبَ الطَّعامِ وصاحبَ الشَّرابِ لتسميمِ الملِكِ، فقبِلَ الخبّازُ دونَ صاحبِ الشَّرابِ، فلمَّا حضرَ الطَّعامُ قال السَّاقي: أيُّها الملكُ، لا تأكُلْ؛ فإنَّ الطَّعامَ مسمومٌ، وقال الخبّازُ: لا تشرَبْ؛ فإنَّ الشَّرابَ مسمومٌ، وقال الملِكُ للسّاقي: اشرَبْ، فشرِبَ فلم يضرَّه، وقال للخبّازِ: كُلْ، فأبى، فجرَّبَ الطَّعامَ على حيوانٍ فنفَقَ، فحبَسَهما سنةً، وبقِيا في الحبسِ تلك المدّةَ مع يوسفَ(١).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٨) دون نسبة، وذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٣/ ١٠٠٠)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ٣٩٤) عن وهب بن منبه.

(٣٧) ـ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ قدَّمَ على الجوابِ ما يُرغِّبُهما في علمِه حتَّى يثِقا بقولِه.

وقيلَ: علِمَ أنَّ أحدَهما مقتولٌ، فدَعاهُما إلى الإسلامِ ليَسعَدا به.

﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ قيلَ: أي: في المنامِ؛ أي: لا ترَيانِ في النَّومِ أكلَ طعامٍ ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

وقيلَ: أي: لا يُحمَلُ إليكما من بيتِكما طعامٌ إلّا أخبرتُكما به قبلَ الحضورِ، بقَدْرِه وجنسِه ووقتِه، وكان هذا من علمِ الغيبِ خُصَّ به يوسفُ، وبيَّنَ أنَّ الله خصَّه بهذا العلمِ لأنَّه تركَ ملّةَ قومٍ لا يُؤمنونَ بالله.

ومعنى الكلامِ: عندي العلمُ بتأويلِ منامِكُما، والعلمُ بما يأتيكُما من طعامِكُما، والعلمُ بدينِ الله، فاستمِعُوا أوَّلًا ما يتعلَّقُ بالدِّينِ لتهتَدوا.

وقيلَ: لا يأتيكُما طعامٌ إلّا ذكرتُ لكما أنَّه على ماذا يدُلُّ، كالنقالِ[1] الذي يجري بينَ النّاسِ، غيرَ أنَّ ما يذكرُه للنقالِ قد يتحقَّقُ وقد لا يتحقَّقُ، والذي كان يقولُه يوسفُ كان لا يُخلَفُ، ذكرَه القفَّالُ، واستدَلَّ بقولِه: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٧].

﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾؛ أي: يجري عليكما من جهةِ الملكِ أو غيرِه، ويحتملُ: يرزُقُكما الله تعالى.

---

(١) قوله: «للنقال» كذا في النسختين ولم يتبين لي المراد به هنا. فإن للنِّقال: معان كثيرة لكن ليس شيء منها يصلح هنا، وتحتمل أيضاً أن تكون: «للتقالّ» لكنها كسابقتها في عدم ظهور المعنى.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ أي: لا أُخبِرُكما به تكهُّنًا وتنجيمًا، بل هو بوحيٍ مِنَ الله تعالى.

***

(٣٨) - ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾؛ أي: اتَّبعتُ ملَّةَ آبائي فإنَّهم أنبياءُ الله ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ ﴿مِن﴾ للتَّأكيدِ، كقولِك: «ما جاءَني من أحدٍ»؛ أي: إنَّ الله عصَمَنا عن الشِّركِ.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾؛ أي: هو الذي عصَمَنا ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: على المُؤمنين الذينَ عصمَهم الله عن الشِّركِ.

وقيلَ: ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ إذ جعلَنا أنبياءَ ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلَنا الرُّسلَ إليهم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ لا يشكرونَه.

***

(٣٩) - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

قولُه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾؛ أي: يا ساكِنَي السِّجنِ، وذكرَ الصُّحبةَ لطُولِ مقامِهما في السِّجنِ، كقولِه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

و﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾؛ أي: في الصِّغَرِ والكبرِ والتَّوسُّطِ، أو: مُتفرِّقونَ في العددِ ﴿خَيۡرٌ أَمِ﴾ الإلهُ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

وقيلَ: أشارَ بالتَّفرُّقِ إلى أنَّه لو تعدَّدَ الإلهُ لتفرَّقوا في الإرادةِ، ولعَلا بعضُهم على بعضٍ، وبيَّنَ أنَّها إذا تفرَّقَتْ لم تكُنْ آلهةً.

(٤٠) - ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دونِ الله ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾؛ أي: ما تعبُدونَ أنتُما ومُوافِقُكما على الشِّركِ إلا أسماءً؛ أي: الأصنامَ، وليس لها من الإلهيّةِ إلا الاسمُ؛ لأنّها جماداتٌ.

وقيلَ: ما تعبُدونَ إلّا ذواتِ أسماءٍ.

وقيلَ: عَنى بالأسماءِ المُسمَّياتِ.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي هو خالقُ الكلِّ، وقد ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المُستقيمُ.

* * *

(٤١) - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

قولُه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ وهو الذي رأى أنّه يعصِرُ خمرًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: قال للسّاقي: ما أحسَنَ ما رأيتَ، أمّا حُسْنُ الحبلةِ فهو حُسْنُ حالِك، وأمّا الأغصانُ الثّلاثةُ فثلاثةُ أيامٍ تمضي فيُوجِّهُ إليك الملِكُ فيرُدُّك إلى عملِكَ. وقال للخبّازِ: بئسَ ما رأيتَ، فالسِّلالُ الثّلاثُ ثلاثةُ أيّامٍ، ثمَّ يُوجِّهُ إليك الملِكُ فيقتُلُك ويصلِبُك، وتأكلُ الطّيرُ من رأسِك، فقالا: ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: سيقعُ لكما ما ذكرتُ، صدَقتُما أم كذَبْتُما[1].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٢٠) من طريق الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي الخبرِ: أنَّهما لـم يرَيا شيئًا، بل جرَّبا يوسفَ[1].

ومَن قال: رأيا على التَّحقيقِ للرُّؤيا، قال: أخبرَهما بالتَّأويلِ وأكَّدَ وقال: هذا الذي ذكرتُ حقٌّ لا خُلفَ فيه.

وقيلَ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: قُطِعَ الجوابُ؛ لأنَّ هذا تعبيرُ ما سألتُما، ولـم يُرِدْ أنَّ ما ذكرَه واقعٌ لا محالةَ، ولهذا قال: ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، والظَّنُّ: الشَّكُّ، وعلى القولِ الأوَّلِ «ظنَّ» بمعنَى: أيقَنَ؛ لأنَّه قال ما قال عن وحيٍ.

***

(٤٢) ـ ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾؛ أي: أيقَنَ، وكان ذلك غلبةَ ظنٍّ؛ لأنَّ التَّعبيرَ هكذا يكونُ، فالظَّنُّ بمعنى الـحُسبانِ.

وقيلَ: يرجعُ الظَّنُّ إلى الذي نجا منهما، ولـم يكُنْ مُؤمنًا ليَقْطَعَ بصدقِ يوسفَ.

﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: عند سيِّدِك وهو الملِكُ، وأخبِرْه بأنِّي مظلومٌ محبوسٌ بلا ذنبٍ.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: أنسى الشَّيطانُ يوسفَ الاستِغاثةَ بالله فاستغاثَ بالملِكِ فعُوقِبَ بأنْ لبِثَ في السِّجنِ بضعَ سنينَ.

وقيلَ: أنسى الشَّيطانُ السّاقيَ أن يذكُرَ يوسُفَ لربِّه؛ أي: لسيِّدِه، وفيه حذفٌ؛ أي: أنساه الشَّيطانُ ذكرَه لربِّه، كقولِه: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ أي: يُخوِّفُكم بأوليائِه، وهذا لأنَّ الشَّيطانَ لو أنسى يوسفَ ذكرَ الله لَـمَا استحقَّ العقابَ

(١) تقدم قريبًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند تفسير الآية (٣٦).

باللَّبثِ في السِّجنِ؛ إذ النّاسي غيرُ مُؤاخذٍ، والقائلُ الأوَّلُ يقولُ: كان النِّسيانُ بمعنى التَّركِ؛ أي: تركَ ذكرَ ربِّه، ودَعاه الشَّيطانُ إلى ذلك.

وقيلَ: لمَّا قال يوسفُ هذا أتاه جبريلُ عليه السَّلامُ، فقال له يوسفُ: يا أخا المُنذِرين، ما لي أراكَ بينَ الخطَّائين؟ فقال له جبريلُ: يا طاهرَ الطّاهرينَ، يقرأُ عليك السَّلامَ ربُّ العالمين، ويقولُ: ما استَحيَيْتَ منِّي إذ استَشْفَعْتَ بالآدميِّين؟ فوَعِزَّتي لأُلبِثَنَّك في السِّجْنِ بضعَ سنينَ، فقال يوسفُ: وهو بعد ذلك راضٍ عنِّي؟ قال: نعم، قال: إذن لا أُبالي(١).

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ قيلَ: البِضعُ ما بينَ الواحدِ إلى الأربعِ.

وقيلَ: ما بينَ الثَّلاثِ إلى السَّبعِ.

وقيلَ: إلى تسعٍ.

واشتِقاقُه من بضَعْتُ؛ أي: قطَعْتُ، فهو من قطعِه منَ العددِ.

ثمَّ قيلَ: عاقبَ الله يوسفَ بأن حُبِسَ سبعَ سنينَ، أو تسعَ سنينَ، بعد الخمسِ التي مضَتْ إلى وقتِ قولِه: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

وفي الخبرِ: رحِمَ الله يوسفَ، لولا الكلمةُ التي قالَها: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لَمَا لَبِثَ في السِّجنِ طولَ ما لبِثَ(٢).

---

(١) رواه الكلاباذي في «بحر الفوائد» (ص: ١١٨) عن زهير بن عباد وعبد العزيز بن عمير.
وذكره دون عزوٍ السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٩٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٧ ـ ٢٨)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ٤٠١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣)، عن قتادة قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: «لو لم يستعن يوسف على ربّه، ما لبث في السجن طول ما لبث».
وروى نحوه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٦) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي =

(٤٣) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ رأى الملِكُ في المنامِ سبعَ بقراتٍ سِمانٍ ابتلَعَتْهُنَّ سبعٌ عجافٌ، ورأى سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ قد انعقَدَ حَبُّها، وسبعًا يابساتٍ قد استحصَدَتْ، فالْتَوَتِ اليابساتُ على الخضرِ حتَّى علَينَ عليها، فجمعَ الكَهَنةَ وسألَـهم.

﴿عِجَافٌ ﴾ منَ العَجَفِ، وهو ذهابُ السِّمَنِ، من «عجُفَ يعجُفُ»، على وزنِ «عظُمَ يعظُمُ»، ورُوِيَ «عجِفَ يعجَفُ»، على وزنِ «حمِدَ يحمَدُ».

= هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ يوسفَ لولا الكلمةُ التي قالها: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لَبِثَ في السجنِ ما لَبِثَ...» الحديث، وتعقبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٤٧٨) بسبب إدراج هذا الحديث في «صحيحه»، وقال: «إنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها».

وبنحو لفظ ابن حبان: رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٤٠) من حديث ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف جدًّا كما قال ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير هذه الآية؛ قال: «لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد ـ هو الخوزي ـ أضعف منه أيضًا. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كلٍّ منهما، وهذه المرسلات هاهنا لا تُقبل لو قُبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن».

قال الشيخ محمد أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٠): «وأغلب الظن عندي: أن هذا من الإسرائيليات، فقد صورت سجن يوسف على أنه عقوبة من الله لأجل الكلمة التي قالها، مع أنه عليه السلام لم يقل هجراً ولا منكراً، فالأخذ في أسباب النجاة العادية وفي أسباب إظهار البراءة والحق لا ينافي قط التوكل على الله تعالى، والبلاءُ للأنبياء ليس عقوبة، وإنما هو لرفع درجاتهم، وليكونوا أسوة وقدوة لغيرهم، في باب الابتلاء، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، فالأمثل، فالأمثل».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾؛ أي: يا أيُّها الأشرافُ الذي أرجعُ إليهم في الحوادِث ﴿أَفْتُونِى﴾؛ أي: أخبِرُوني بحُكمِ هذه الرُّؤيا ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ من عَبَرْتُ أعْبُرُ عِبارَةً، بمعنى: عبَّرْتُ تعبيرًا، وهو مأخوذٌ منَ العُبْرِ، وهو جانبُ النَّهرِ، وعبَرْتُ النَّهرَ؛ أي: قطَعْتُه إلى الجانبِ الآخرِ، وعَبَرَ الرُّؤيا؛ أي: تأمَّلَ ناحيتَي الرُّؤيا حتَّى يعرِفَ الصَّحيحَ.

﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾؛ أي: للرُّؤيا عابِرينَ.

قال الزَّجَّاجُ: هذه اللّامُ للتَّبيينِ؛ أي: إن كنتُم تعبُرونَ، ثمَّ بيَّنَ فقال: ﴿لِلرُّءْيَا﴾[1].

* * *

(٤٤) ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾؛ أي: إنَّما هي أضغاثُ أحلامٍ، وهي جمعُ الضِّغْثِ، وهو الحزمةُ من أنواعِ النَّبتِ والحشيشِ؛ أي: هي أحلامٌ مختلِطةٌ لا تحقيقَ لـها، ونفَوا عن أنفسِهم علمَ ما لا تأويلَ له، لا أنَّهم نفَوا عن أنفسِهم علمَ التَّأويلِ.

وقيلَ: نفَوا عن أنفسِهم علمَ التَّعبيرِ، والأضغاثُ على هذا: الجماعاتُ منَ الرُّؤيا التي منها صحيحةٌ ومنها باطلةٌ، ولهذا قال السَّاقي: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، فعُلِمَ أنَّ القومَ عجزُوا عن التَّأويلِ، لا أنَّهم ادَّعَوا أنْ لا تأويلَ لـها.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾؛ أي: منَ الفتيَينِ.

قيلَ: إنَّه قال للملِك: إنِّي قصَصْتُ أنا والخبَّازُ على رجلٍ في السِّجنِ منامَينِ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٢).

فأخبرَنا بالتَّأويلِ وصدَقَ، فإنْ أذِنْتَ أتيتُكَ من قِبَلِه بتفسيرِ هذه الرُّؤيا، فأذِنَ له.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: تذكَّرَ بعد حينٍ، فالأمَّةُ: الجماعةُ منَ الحينِ.

وتحتمِلُ: بعد مُضيِّ أمّةٍ منَ النّاسِ؛ أي: بعد زمانٍ طويلٍ.

ثمَّ قيلَ: نسيَ الفتى يوسفَ لقضاءِ الله في بقائِه في السِّجنِ مدّةً.

وقيلَ: ما نسيَ ولكنَّه خافَ أن يذكرَ الملِكُ الذَّنبَ الذي بسببِه حُبِسَ هو والخبّازُ، فقولُه: «وادَّكَرَ»؛ أي: ذكرَ وأخبرَ.

﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ خاطبَ الملِكَ ولكنْ بلفظِ التَّعظيمِ، أو خاطَبَ الملِكَ وأهلَ مجلِسِه.

* * *

(٤٦) ـ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا﴾؛ أي: فأرسلُوه فجاءَ إلى يوسفَ فقال: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾، وهو للمُبالغةِ في الصِّدقِ، وسألَه عن رُؤيا الملِكِ.

﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إلى الملِكِ وأصحابِه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لكي يعلَمُوا، و«لعلَّ» الأولى تتعلَّقُ بالفتى، والثّانيةُ بالرُّجوعِ، لعلَّهم يعلَمُونَ التَّعبيرَ، أو لعلَّهم يعلَمُونَ مكانَكَ.

* * *

(٤٧) ـ ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾؛ أي: قال يوسفُ: السَّبعُ منَ البقراتِ السِّمانِ سبعُ سنينَ مُخصِباتٌ وأنتم تزرعُونَ؛ أي: فازرَعُوا، ولهذا قال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ﴾.

﴿دَأَبٗا﴾؛ أي: مُتواليةً، والدَّأْبُ والدَّأَبُ: المُلازَمةُ.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيلَ: لئلَّا يتسَوَّسَ، وليكونَ أبقَى، وهكذا الأمرُ في ديارِ مصرَ، يعني: استخرِجُوا ما تحتاجُونَ إليه بقَدْرِ الحاجةِ.

* * *

(٤٨) ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: سبعُ سنينَ مُجدِبات، والشِّدادُ: الصِّعابُ.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: يُفنينَ ما أعدَدْتُم لهنَّ، يُقالُ: أكلَهم الدَّهرُ؛ أي: أفناهُم.

وقيلَ: أي: سبعٌ شدادٌ يُؤكَلُ فيهنَّ ما جُمِعَ في السِّنينَ المُتقدِّمةِ، وهو كقولِكَ: «ليلُه نائمٌ»، وأخبرَ يوسفُ بما أخبرَ إمَّا تعبيرًا للرُّؤيا أو بوحيٍ منَ الله. **وهذا أظهَرُ**؛ لأنَّه أخبرَ أنَّه يأتي عامٌ يُغاثُ فيه النّاسُ، وليس ذلك في السُّؤالِ، وكان هذا تمهيدًا للنُّبوّةِ؛ لأنَّه أخبرَ عن الغيبِ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾؛ أي: تُحرِزُونَ، وهو إلقاءُ الشَّيءِ فيما هو كالحصنِ والحِرزِ، يُقالُ: أحصَنَه وأحرَزَه؛ أي: جعلَه في حصنٍ وحرزٍ.

* * *

(٤٩) ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾؛ أي: بعد الجدْبِ.

وقيلَ: من بعدِ السَّبعِ منَ السِّنينِ، والسَّبعُ يُشبِهُ المُذكَّرَ إذ لا علامةَ فيها للتَّأنيثِ من حيثُ اللَّفظُ.

﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ منَ الإغاثةِ، أو منَ الغَوثِ، ومعنى ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾: يُمطَرون.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾؛ أي: تكثُرُ الأعنابُ وكلُّ ما يَعصِرونَ، كالزَّيتِ والسِّمْسِمِ.

وقيلَ: أرادَ حلبَ الألبانِ لكثرتِها، ويدلُّ ذلك على كثرةِ النَّباتِ.

وقيلَ: ﴿يَعۡصِرُونَ﴾؛ أي: يَنجُونَ، والعَصَرُ والعُصْرَةُ والمُعْتَصَرُ: المَنجاةُ، قُرِئَ: ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ بالياءِ والتّاءِ[١]، وقُرِئَ بضمِّ الياءِ وفتحِ الصّادِ[٢].

***

(٥٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾؛ أي: فأخبرَ الغلامُ الملِكَ، فقال الملكُ: ائتُوني به، فجاءَ الرَّسولُ إلى يوسفَ، فأبَى أن يخرُجَ إلّا أن تَصِحَّ براءتُه للملِكِ فيما قُرِفَ به.

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: سيِّدِك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ فيه محذوفٌ؛ أي: فاسألْه أن يتعرَّفَ ما بالُ النِّسوةِ؟ فلم يُرِدْ أن يراه الملِكُ بعينِ التُّهمةِ.

﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾؛ أي: ما حالُ النِّسوةِ؟ ومنه: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٢]؛ أي: حالَـهم.

وفـي الخبـرِ: «رحمَ الله يوسـفَ، لقـد كان ذا أناةٍ، فلـو كنتُ أنـا المحبوسَ ثمَّ جاءَني الرَّسـولُ لخرجتُ مُسـرِعًا»[٣].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) قرئ على بناء المفعول بالياء والتاء، فالياء تنسب لجعفر بن محمد والأعرج وعيسى البصرة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٤٤)، و«البحر» (١٢/ ٤٩٣). والتاء نسبت لعيسى البصرة. انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ٣٧٠)، و«البحر» (١٢/ ٤٩٣).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٢٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠٢)، عن عكرمة عن النبي ﷺ مرسلاً، وروي متصلًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد ضعيف جدًّا كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية، رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣). =

(٥١) ـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؛ أي: رجعَ الرَّسولُ إلى الملكِ، فدَعا الملكُ النِّسوةَ، ومنهنَّ امرأةُ العزيزِ، فقال لهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؛ أي: ما شأنُكُنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾، وذلك أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ كلَّمَتْ يوسفَ في حقِّ نفسِها، أو أرادَ قولَ كلِّ واحدةٍ: قد ظلمْتَ امرأةَ العزيزِ، فكان ذلك مُراودةً منهنَّ، أو علمَ أنَّ بعضَ النِّسوةِ راوَدْنَه، فجمَعَهنَّ في الخطابِ.

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: معاذَ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾؛ أي: زِنًا.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا رأَتْ إقرارَهنَّ ببراءةِ يوسفَ أقرَّتْ هي أيضًا، وكانَ ذلك لُطفًا منَ الله ليوسفَ؛ أي: الآنَ تبيَّنَ الحقُّ وخلَصَ، فأنطَقَها الله بذلك إكرامًا ليوسفَ.

وقيلَ: خافَتْ لو كذبَتْ أن تشهَدَ عليها النِّسوةُ بما تقرَّرَ عندهنَّ.

يُقالُ: «حَصْحَصَ البعيرُ في بروكِه»: إذا تمكَّنَ واستقرَّ في الأرضِ وفوقَ الحصى.

وقيلَ: أصلُه: «حصَصَ»، وهو زوالُ الشَّعَرِ عن الرَّأسِ وظهورُ ما تحتَه.

وقيلَ: هو منَ الحِصّةِ؛ أي: بانَتْ حِصَّةُ الحقِّ من حِصّةِ الباطلِ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إذ قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

* * *

= وروى الإمام أحمد في «المسند» (٨٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابةَ، وما ابتغيْتُ العذرَ». وهو عند البخاري (٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١) بلفظ: «ولو لَبِثْتُ في السجنِ طُولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الدَّاعيَ».

(٥٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قيلَ: هو من قولِ يوسفَ: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: أَخَّرْتُ إجابةَ الملِكِ ليعلَمَ أنِّي لـم أَخُنْ ربِّي؛ أي: العزيزَ، أو لم[1] أَخُنِ الله تعالى، أو: ليعلَمَ العزيزُ أنِّي لـم أَخُنْه، أو لـم أَخُنِ الملِكَ؛ لأنَّ خيانَتي لجاريتِه خيانةٌ له.

وإنَّما قال يوسفُ هذا بحضرةِ الملِكِ، وقال: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ توقيرًا للملِكِ.

وقيلَ: قالَه إذ عادَ إليه الرَّسولُ وهو في السِّجنِ بعدُ.

وقيلَ: قال قبلَ قولِ النِّسوةِ إقصاءً[2]؛ أي: إنَّما أستقصي ليَبِينَ أنِّي لـم أَخُنْه.

وقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من قولِ امرأةِ العزيزِ، وهو متَّصِلٌ بقولـها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾؛ أي: أقرَرْتُ بالصِّدقِ ليعلَمَ أنِّي لـم أَخُنْه بالكذبِ عليه، بل صدَقْتُ وخرَجْتُ عن الخيانةِ، ثمَّ قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ بل أنا راوَدْتُه، وعلى هذا هي كانَتْ مُقِرَّةً بالصّانعِ، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من قولِ يوسفَ، ثـمَّ عادَ الكلامُ إليها، فقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾.

والظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾، وقولَه: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من قولِ يوسفَ.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾؛ أي: لا يُرشِدُ كيدَ مَن خانَ أمانتَه، والمقصودُ: لا يهدي الكائدَ الخائنَ وإنْ خرجَ الكلامُ على الكيدِ.

* * *

(١) في (أ): «ولم».

(٢) في (أ): «قول النسوة أيضا».

(٥٣) - ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ قد قدَّمْنا أنَّه لـمَّا قال: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال جبريلُ: ولا حينَ همَمْتَ بها؟ فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾[1].

وتزكيةُ النَّفسِ مذمومةٌ، قال الله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: بالقبيحِ ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾؛ أي: إلّا مَن رحِمَ ربِّي فعصَمَه، و﴿مَا﴾ بمعنى «من» كثيرٌ، قال الله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣].

وهذا استثناءٌ مُنقطعٌ؛ لأنَّه استثنَى المرحومَ بالعصمةِ منَ النَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوءِ.

* * *

(٥٤ - ٥٥) - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (٥٤) قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ هذا يدلُّ على أنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ جرَى في السِّجنِ، ويحتمِلُ أنَّه جرَى عند الملِكِ، ثمَّ قال في مجلسٍ آخرَ: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾، وأعادَ لنوعِ تأكيدٍ.

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾؛ أي: أجعَلْه خالصًا لنفسي، أُفوِّضُ إليه أمرَ مملكَتي.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾؛ أي: كلَّمَ الملِكُ يوسفَ وسألَه عن الرُّؤيا شِفاهًا، فأجابَ يوسفُ، فـ﴿قَالَ﴾ الملِكُ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾؛ أي: عرَفْنا أمانتَكَ وبراءتَكَ مـمَّا قُرِفْتَ به.

وقيلَ: أي: مكَّنتُكَ من مُلكي، وائتَمَنتُكَ فيه.

---

(١) تقدم مع الرد على مثل هذه الأقاويل عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ كأنَّ الملِكَ فاوَضَه في أمرِ الرُّؤيا، فأشارَ يوسفُ بأنْ يزرعَ في السِّنينِ المُخصِبةِ زرعًا كثيرًا ويحفَظَه، فقال الملِكُ: مَن لي بمَن يتولَّى هذا؟ فقال يوسفُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: على حفظِها، فحُذِفَ المُضافُ، والمُرادُ بالأرضِ: أرضُ مصرَ، أو أرادَ: خزائنَ أرضِكَ.

وفي الخبرِ: «رحمَ الله أخي يوسفَ، لو لـم يقُلْ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ لاستعمَلَه من ساعتِه، ولكنْ أخَّرَ ذلك سنةً»(١).

وإنَّما طلَبَ الولايةَ لأنَّه علمَ أنَّه لا أحدَ يقومُ مَقامَه في العدلِ، فأمَّا مَن لـم يعلَمْ ذلك على التَّحقيقِ فالأَولى ألّا يطلُبَ الإمارةَ؛ لقولِه عليه السَّلامُ لعبدِ الرَّحمنِ: «لا تسألِ الإمارةَ»(٢).

﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾؛ أي: حفيظٌ لِـمَا وُلِّيتُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمرِه، وفي التَّفسيرِ: إنِّي حاسبٌ كاتبٌ(٣).

وقيلَ: إنَّما تأخَّرَ تمليكُه إلى سنةٍ؛ لأنَّه لـم يقُلْ: إنْ شاءَ الله(٤).

وقيلَ: ﴿حَفِيظٌ﴾ لتقديرِ الأقواتِ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بسِنِي المجاعةِ.

وقيلَ: بلغاتِ النّاسِ كلِّهم؛ لأنَّهم كانوا يفِدُونَ على الملِكِ من كلِّ ناحيةٍ.

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٥١ ـ ٥٢) من طريق إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً، وهذا إسناد ساقط كما قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٩٠).

(٢) رواه البخاري (٦٧٢٢)، ومسلم (١٦٥٢)، من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٥/ ٥٠)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ١٥٥).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٤٠).

(٥٦) - ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ومثلَ ذلك الإنعامِ الذي أنعَمْنا عليه في تقريبِه إلى قلبِ الملِكِ وإنجائِه منَ السِّجنِ مكَّنَّا له في الأرضِ.

﴿مَكَّنَّا﴾؛ أي: أقدَرْناه على ما نُريدُ، يُقالُ: «مكَّنَّاه» و«مكَّنّا له»، قال الله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرضِ مصرَ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ نَشاءُ﴾؛ أي: مكَّنَّاه مُتبوِّئاً، فهو في محلِّ النَّصبِ على الحالِ.

﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ بالياءِ وبالنُّونِ[1]؛ لأنَّ مشيئةَ يوسفَ كانت بمشيئةِ الله، فجازَ أن يُنسَبَ إلى الله، ولهذا قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: ثوابَ المُوحِّدين.

ولمَّا سلَّمَ الملِكُ الأمرَ إلى يوسفَ جعلَ لا يبيعُ من أحدٍ أكثرَ من حملِ بعيرٍ، فباعَهم أوَّلَ سنةٍ بالدَّراهمِ والدَّنانيرِ حتَّى لـم يبقَ بمصرَ منها شيءٌ، وفي السَّنةِ الثّانيةِ بالحليِّ والجواهرِ، ثمَّ في الثّالثةِ بالدَّوابِّ والمواشي، ثمَّ بالعبيدِ والإماءِ، ثمَّ بالضِّياعِ والعقاراتِ، ثمَّ باسترقاقِ أولادِهم، ثمَّ في السَّنةِ السّابعةِ برقابِهم، ثمَّ قال للملِكِ: كيفَ ترى صُنعَ ربِّي فيما خوَّلَني؟ والآنَ كلُّ هذا لك[2] فما ترَى فيه؟ فقال: فوَّضْتُ إليكَ الأمرَ، فافعَلْ ما شئتَ، قال: فإنِّي أُشهِدُ الله أنِّي أعتَقْتُ أهلَ مصرَ عن آخرِهم، وردَدْتُ إليهم أموالَـهم وضياعَهم، وردَدْتَ عليك ملكَكَ بشرطِ أن تستَنَّ بسُنَّتي.

* * *

(١) قرأ بالنون ابن كثير، وباقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) في (أ): «والآن هذا كله لك».

(٥٧) ـ ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما نُعطيه في الآخرةِ خيرٌ وأكبرُ ممَّا أعطَيناه في الدُّنيا.

وقيلَ: ولأجرُ الآخرةِ خيرٌ منَ الاشتغالِ بالدُّنيا الفانيةِ، وهو كما يُقالُ: «زيدٌ أعقَلُ الرَّجلَينِ» وإنْ لم يكُنْ للثّاني عقلٌ، وقال الله: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤].

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لـمَّا اتَّصلَ القحطُ وشاعَ عند يعقوبَ توجَّهَ النّاسُ إلى مصرَ للامتِيارِ منها، أخرَجَ أولادَه سوى بنيامين ـ وهو أخو يوسفَ لأمِّه ـ إلى أرضِ مصرَ لحملِ الميرةِ، فجاء إخوةُ يوسفَ مصرَ فدخلُوها ودخلُوا على يوسفَ لطلبِ الميرةِ، وأنكروه لأنَّهم اعتَقَدوا أنَّه مَلِكٌ كافرٌ.

وقيلَ: رأَوه لابسَ حريرٍ، وفي عنُقِه طَوْقُ ذهبٍ، وعلى رأسِه تاجٌ، وقد تزيّا بزِيِّ فرعونِ مصرَ، ويوسفُ رآهُم على ما كان عهِدَهم في الملبسِ والحِليةِ.

ويحتمِلُ أنَّهم رأَوه وراءَ سترٍ فلم يعرِفُوه.

وقيلَ: كان في ظنِّهم أنَّ يوسفَ مملوكٌ، ولم يخطُرْ ببالِهم مملكتُه.

وقيلَ: أنكروه لأمرٍ خارقٍ للعادةِ امتحانًا امتَحَنَ الله به يعقوبَ.

* * *

(٥٩ ـ ٦١) ـ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يُقالُ: «جهَّزتُ القومَ تجهيزًا»؛ أي: تكلَّفتُ جهازَهم للسَّفرِ، وجَهازُ العروسِ: ما تحتاجُ إليه عند الإهداءِ إلى الزَّوجِ، وجوَّزَ قومٌ منَ الكوفيِّينَ الجِهازَ بكسرِ الجيمِ، والـجَهازُ في هذه الآيةِ: حملُ بعيرٍ لكلِّ رجلٍ.

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: قال يوسفُ للتَّرجُمانِ: قُلْ لهم: لغتُكم مخالفةٌ للُغتِنا، وزِيُّكم مُغايرٌ لزِيِّنا، فلعلَّكم جواسيسُ، فقالوا: واللهِ ما نحنُ بجواسيسَ، بل نحنُ بنو أبٍ واحدٍ، وهو شيخٌ صدِّيقٌ، قال: فكم عِدَّتُكم؟ قالوا: كنّا اثنَي عشرَ، فذهبَ أخٌ لنا إلى البرِّيةِ معنا فهلَكَ فيها، قال: فأينَ الآخرُ؟ قالوا: عندَ أبينا، قال: فمَن يعلَمُ صدقَكم؟ قالوا: لا يعرِفُنا هاهُنا أحدٌ، وقد عرَّفناكَ أنسابَنا، فبأيِّ شيءٍ تسكُنُ نفسُك إلينا؟ فقال يوسفُ: فأْتُوني بأخيكم من أبيكم إن كنتُم صادقينَ، فأنا أرضى بذلك[1].

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾؛ أي: أُتِـمُّه ولا أَبْخَسُه، وأزيدُكم حملَ بعيرٍ لأخيكُم.

قولُه: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ توعَّدَهم بأنْ لا يبيعَهم الطَّعامَ؛ أي: إنْ لـم يأتُوا به.

قولُه: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: سنطلُبُه منه ونسألُه أن يُرسلَه معنا.

﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾؛ أي: لضامِنُونَ المجيءَ به، مُحتالون في ذلك.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٦١).

(٦٢) - ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه: ﴿وقالَ لِفِتْيَتِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ في رِحَالِهِم﴾ وقُرِئَ: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾[1]، والفِتيةُ: جمعُ «فتًى» في العددِ القليلِ، والفِتيانُ: جمعُ الكثرةِ، مثلَ البِرْقانِ[2] والخِرفانِ والجيرانِ والتِّيجانِ، وكان هؤلاءِ الفِتيانُ يُسوُّونَ جَهازَهم، ولهذا أمكنَهم جعلُ بضاعتِهم في رحالِـهم، ويجوزُ أن يكونَ الفِتيةُ أحرارًا، وكانوا أعوانًا له، وبضاعتُهم: أثمانُ ما اشترَوه منَ الطَّعامِ.

وقيلَ: كانت دراهمَ ودنانيرَ.

وقيلَ: النِّعالُ والأدمُ، ومتاعُ المسافرِ يُسمَّى رحلًا.

وقيلَ: ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾؛ أي: أوعيتِهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾؛ أي: لكـي يعرِفُوهـا، فـ(لعـلَّ) الأُولـى ليعرِفُـوا، والثّانيـةُ ليرجِعُـوا، والتَّـردُّدُ ربَّمـا يظنُّون أنَّـه هديّةٌ فـلا يرجِعُونَ، وقـال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لجـوازِ ألّا تسـلَمَ فـي الطَّريقِ.

وقيلَ: جعلَ بضاعتَهم في رحالِـهم لأنَّه علِمَ أنَّهم يتحرَّجُونَ ويتوهَّمونَ أنَّها وقعَتْ في الرِّحالِ غلطًا، فيرجِعُونَ إلى مصرَ لردِّها على يوسفَ.

وقيلَ: ليستَعينُوا بها على الرُّجوعِ لشراءِ الطَّعامِ.

وقيلَ: استقبَحَ أن يأخُذَ من أبيه وقومِه ثمنَ الطَّعامِ.

وقيلَ: ليرَوا فضلَه ويرغَبُوا في الرُّجوعِ إليه.

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائيِّ وعاصم في رواية حفص. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) في (أ): «الزبرقان».

(٦٣) - ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ في المُستأنَفِ إنْ لم نخرُجْ بأخينا.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾؛ أي: إنْ أرسلتَه اكتَلْنا، وإلّا مُنِعَ منّا الكيلُ، وقُرِئَ: ﴿يكتَلْ﴾[1] هو حِمْلَه كما نكتالُ نحنُ أحمالَنا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن ينالَه سوءٌ.

* * *

(٦٤) - ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قد فرَّطتُم في يوسفَ فكيفَ آمَنكم على أخيه؟ ﴿فاللهُ خيرٌ حِفْظًا﴾؛ أي: من حفظِكُم، وقُرِئَ: ﴿حَٰفِظًا﴾[2]، وفيه دليلٌ على أنَّه أجابَهم إلى إرسالِه معَهم.

* * *

(٦٥) - ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾؛ أي: رِحالَهم، والمتاعُ: ما يُستمتَعُ به، وهو هاهُنا: الطَّعامُ الذي حملوه.

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

(٢) قرأ بها حفص وحمزة والكسائي، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٩).

﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾؛ أي: أيَّ شيءٍ نُريدُ؟ أي: لا نبغي شيئًا وراءَ هذا، ولا عُذرَ لنا الآنَ في تركِ الرُّجوعِ إلى مصرَ.

وقيلَ: ﴿مَا﴾ للنَّفيِ؛ أي: لا نبغي منك دراهمَ ولا بضاعةً، بل تكفينا بضاعتُنا هذه التي رُدَّتْ إلينا.

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿مَا نَبۡغِي﴾؛ أي: ما نبغي منك شيئًا تصرِفُنا به إلى مصرَ، ومع ذلك نميرُ أهلَنا؛ أي: نجلبُ إليهم الطَّعامَ، يُقالُ: «مارَه يميرُه»؛ أي: أتاه بمِيْرةٍ؛ أي: بطعامٍ.

﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ عن كلِّ سوءٍ ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍ﴾؛ أي: نرجعُ بزيادةِ كيلِ بعيرٍ(1) على ما جئْنا به الآنَ.

﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾؛ أي: مُتيسِّرٌ على مَن يكيلُ لنا، أو على هذا الملِكِ المُحسِنِ.

وقيلَ: يسيرٌ سهلٌ قصيرُ المدَّةِ، لا نحتاجُ إلى احتباسٍ بسببِه.

وقيلَ: كان وعدَهم إنْ أتَوا بأخيهم أن يُعطِيَهم كيلَ بعيرٍ بلا ثمنٍ، فلهذا قالوا: ذلك يسيرٌ؛ أي: فيه مُسامحةٌ.

وقيلَ: أي: ما حمَلْناه أوَّلًا قَدْرٌ يسيرٌ، فالكيلُ بمعنَى المكيلِ.

***

(٦٦) - ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أخذَ عليهم مواثيقَ في حفظِ أخيهم بنيامينَ.

---

(1) «بعير» من (أ).

﴿مَوْثِقًا﴾؛ أي: ثقـةً؛ أي: عهـدًا يُوثَـقُ بـه، فالمَوثقُ مصـدرٌ بمعنَـى الثِّقةِ، وهو مصـدرٌ بمعنـى المفعـولِ؛ أي: حتَّـى تُعطونـي عهـدًا موثوقًا بـه؛ أي: تُشـهِدونَ الله عليـه، أو تُقسِـمُونَ بالله.

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ اللّامُ للقسمِ؛ أي: حتّى تحلِفُوا بالله لتأتُنَّني به ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أي: إلّا أن تهلِكُوا أو تموتوا، وقيلَ: إلّا أن تُغلَبُوا.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾؛ أي: عاهَدُوه ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أي: شهيدٌ، وسُمِّيَ الشَّهيدُ وكيلًا لأنَّ كلَّ مشهودٍ موكولٌ إليه الأمرُ فيما أُشهِدَ عليه.

وقيلَ: ﴿وَكِيلٌ﴾: كفيلٌ.

وقيلَ: مُطالِبٌ لكم بالخروجِ من هذا الضَّمانِ.

***

(٦٧) ـ ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾؛ أي: لمَّا عزَمُوا على الخروجِ خافَ عليهم العينَ فقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾؛ أي: مصـرَ، ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ وكانوا أولي كمالٍ وجمالٍ وبني رجلٍ واحدٍ.

﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: لا ينفعُ الحذَرُ مع القدَرِ.

***

(٦٨) ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ أي: من أبوابٍ شتَّى، ولـم يكُنْ ذلك

مُغنيًا عنهم منَ الله شيئًا إنْ أرادَ إيقاعَ مكروهٍ بهم ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾؛ أي: خاطِرًا خطرَ بقلبِه.

وكان لمصرَ أربعةُ أبوابٍ، فدخلُوها من أبوابِها، وفي الآيةِ محذوفٌ؛ أي: ما كان يُغني عنهم من شيءٍ لو قُضِيَ ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ لكنَّ حاجةً في نفسِه قضاها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾؛ أي: لَذو علمٍ باللهِ وقضائِه وقدَرِه.

وقيلَ: أي: بما علَّمْناه، ولكنَّه دفعَ وسوسةَ الشَّيطانِ عن نفسِه بما قال.

وقيلَ: ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾؛ أي: عمَلٍ، فإنَّ العلمَ أوَّلُ أسبابِ العملِ، فسُمِّيَ بما هو[1] سببُه، كما قال لعيسى: (كلمة الله)[2] لأنَّه بالكلمةِ أوجدَه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما علِمَه يعقوبُ، أو: لا يعلمونَ أنَّ يعقوبَ بهذه الصِّفةِ في العلمِ، وأرادَ بالأكثرِ: المُشركينَ.

❊ ❊ ❊

(٦٩) ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: ضمَّه إليه معه في منزِلِه.

وقيلَ: أجلَسَه معه على سريرِه.

وقيلَ: أمرَ أن ينزلَ كلُّ اثنينِ في منزلٍ، فبقيَ أخوه مُنفردًا، فقال: أشفَقْتُ عليه منَ الوحدةِ فأحببْتُ أن أضُمَّه إليَّ، و﴿قَالَ﴾ له سرًّا من إخوتِه: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾.

---

(١) بعدها في (أ): «من».

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وغيرها من المواضع.

وقيلَ: لم يذكُرِ النَّسبَ، بل قال: أنا لك بمثابةِ أخيك، لمَّا ذكرَ بنيامينَ وَجْدَه بأخيه.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾؛ أي: فلا تحزَنْ من جفاءِ الإخوةِ، وهو افتِعالٌ منَ البُؤسِ، وهو الشِّدّةُ والضَّرُّ وجفاءُ الإخوةِ معهما، وطولُ الحسدِ والجهدُ في صرفِ قلبِ يعقوبَ عنهما، وكانوا يُعيِّرونَهما بأنَّ جدَّهما أبَ الأمِّ عبدَ الأصنامِ، وكانت راحيلُ أمُّ يوسفَ، فسرَقَ جونةً كانت لأبيها فيها أصنامٌ رجاءَ أن يترُكَ عبادتَها إذا فقَدَها، فقيلَ: لا تحزَنْ لِـمَا سينسِبُونَك إليه منَ السَّرقةِ وينسبُونَني إليه، و(كان) بمعنى: يكونُ.

* * *

(٧٠) ـ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

قـولُه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ قيلَ: لمَّا عرفَ بنيامينُ أنَّه يوسفُ قال: لا ترُدَّني إليهم، فقال: قد علمتَ اغتمامَ يعقوبَ بي فيزدادُ غمُّه، فأبى بنيامينُ الخروجَ، فقال يوسفُ: لا يُمكِنُ احتِباسُكَ إلّا بعد أن أنسُبَك إلى ما لا يُحمَدُ، فقال: لا أُبالي، فدسَّ الصّاعَ في رحالِـهم إمَّا بنفسِه بحيثُ لـم يطَّلعْ عليه أحدٌ[1]، أو أمرَ بعضَ خواصِّه بذلك.

﴿جَهَّزَهُم﴾؛ أي: أوصَـلَ إليهـم مـا كان مُقـدَّرًا لهم مـن الميرةِ، لـكلِّ واحدٍ حمـلُ بعيرٍ.

وقيلَ: التَّجهيزُ: التَّسريحُ وتنجيزُ الأمرِ، ومنه: «جهَّزَ على الجريحِ»؛ أي: قتَلَه ونجَّزَ أمرَه.

﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السِّقايةُ والصُّواعُ شيءٌ واحدٌ، وهو إناءٌ كان يَشربُ منه يوسفُ، قيلَ: من زَبرجَدٍ.

---

(١) في (أ): «أحدا».

وقيلَ: من ذَهبٍ.

وقيلَ: من فِضّةٍ، وكان مُرَصَّعًا بالجواهرِ، ولعلَّه كان سقايةً وصاعًا، فكان يشربُ منه ويُكالُ به.

وقيلَ: كانَ مكيالًا كالمَكُّوكِ والقَفيزِ يسقُونَ منه دوابَّهم، وقرينةُ الحالِ تدلُّ على أنَّه كان شيئًا له قَدْرٌ وقيمةٌ.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ أي: أعلَمَ مُعلِمٌ، و«أذَّنَ» للتَّكثيرِ، فكأنَّه نادى مرارًا، وقد يرِدُ «فعَّلَ» بمعنى «أفعَلَ».

﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ العيرُ: كلُّ ما امتيرَ عليه منَ الإبلِ والحميرِ والبغالِ.

قال مجاهدٌ: كان عيرُهم حميرًا[1]، وقولُـهم: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ أي: حِـملَ حمارٍ، ويقرُبُ ما يحملُه البعيرُ الضَّعيفُ ممّا يحملُه الحمارُ القويُّ.

وقال أبو عبيدةَ: العِيرُ: الإبلُ المَرحولةُ المَركونةُ[2]، والمعنى: يا أصحابَ العِيرِ، كقولِه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، و«يا خيلَ الله اركَبي»[3]؛ أي: يا أصحابَ خيلِ الله، وفي الكلامِ حذفٌ؛ أي: فخرجَ العِيرُ وفيهم إخوةُ يوسفَ.

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ قيلَ: أرادَ: سرقتُم يوسفَ من أبيكم وألقَيتُموه في الجبِّ.

وقيلَ: لـم يَعرِفْ هذا المنادي أنَّ يوسفَ دسَّ الصَّاعَ في رحالِـهم، بل اتَّهمَهم، فقال: إنَّكم لسارِقُونَ؛ أي: اشتركتُم في السَّرقةِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٢).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٦١)، وابن الجوزي في «كشف المشكل» (٢/ ١٢٣).

(٣) رواه هناد في «الزهد» (٢٥)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ١٩١)، والكلاباذي في «بحر الفوائد» (١/ ١٠١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠١٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
ورواه ابن المبارك في «الجهاد» (١٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٦)، من حديث أسير بن جابر.

وقيلَ: لعلَّ يوسفَ عرفَ منهم[١] سرقةَ شيءٍ في بعضِ الأحوالِ.

وقيلَ: هو استفهامٌ؛ أي: إنَّكم لَسارقون، كقولِه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾؛ أي: أَوَتلكَ نعمةٌ؟ والغرضُ أنْ لا يُعزَى إلى يوسفَ الكذبُ.

***

(٧١ - ٧٢) - ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾؛ أي: قال أهلُ الرُّفقةِ للمُؤذِّنِ ومَن معه: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ الصُّواعُ: الصّاعُ، يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ.

قال الفرّاءُ: مَن أنَّثَ قال في الجمعِ: «ثلاثُ آصُعٍ[٢]»، مثلَ: ثلاثُ أَدوُرٍ، ومَن ذكَّرَ قال: «ثلاثةُ أصواعٍ»، مثلَ: أثوابٍ[٣].

﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾؛ أي: مِنَ الطَّعامِ ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾؛ أي: ضامِنٌ، قالَه المُؤذِّنُ.

وكان قَدْرُ الحملِ منَ الطَّعامِ مُعيَّنًا معلومًا عندَهم، غيرَ أنَّه بَذْلُ[٤] مالٍ للسّارقِ[٥]،

---

(١) بعدها في (أ): «صحة».

(٢) كذا في النسختين، والذي في المصادر وستأتي: «أصوع».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥١)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ٢٦٠)، و«تهذيب اللغة» (٣/ ٥٣)، و«البسيط» (١٢/ ١٨٢)، و«اللسان» (مادة: صوع).

(٤) في (أ): «بدل».

(٥) في النسختين: «السارق»، والتصويب من «تفسير القرطبي»، وقد نقل كلام المصنف بحروفه وتمامه.

ولا يحلُّ للسّارقِ ذلك[١]، فلعلَّه كان يصحُّ في شرعِهم، أو كانَ هذا جعالةً وبذلَ[٢] مالٍ لمَن يُفتِّشُ ويطلُبُ[٣].

* * *

(٧٣ ـ ٧٥) ـ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾؛ أي: قال إخوةُ يوسفَ: قد علِمتُم أنّا لسنا أهلَ السَّرقةِ، وأكَّدوا ذلك باليمينِ.

قال الفرَّاءُ: يُقالُ: «تالله»، ولا يُقالُ: «تالرَّحمنِ»؛ لأنَّ أكثرَ الأيمانِ «والله»، فظَنُّوا أنَّ الواوَ منها، فأبدَلُوها بالتّاءِ، كما يُقالُ: «تُراثٌ وتُخمَةٌ وتُجاهٌ».

وقال الزَّجَّاجُ والبصريُّونَ: الواوُ في «والله» بدلٌ منَ الباءِ، والتّاءُ بدلٌ منَ الواوِ، فهو بدلُ البدلِ، فضعُفَ فاختصَّ باسمٍ واحدٍ، وجازَ إبدالُ التّاءِ منَ الواوِ لأنَّهما من حروفِ الزَّوائدِ والبدلِ، والباءُ أقربُ حروفِ البدلِ إلى الواوِ[٤].

---

(١) أي: «لا يحل للسارق أن يأخذ شيئًا على رد السرقة» كما في «البسيط» والكلام فيه بنحوه.

(٢) في النسختين: «وبدل»، والمثبت من «تفسير القرطبي».

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ٤٠٨)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ١٨٤)، ولفظه: فإن قيل: هذه كفالة بشيء مجهول، قلنا: حمل بعير من الطعام كان معلومًا عندهم فصحت الكفالة به، غير أن هذا كفالة مال لرد سرقة، وهو كفالة ما لم يجب؛ لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئًا على رد السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٢٠)، و(٣/ ٣٩٥)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ١٨٤).

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ حلَفُوا على علمِهم بذلك؛ لأنَّهم كانوا معروفين بأنَّهم لا يظلِمونَ.

وقيلَ: كمَّمُوا أفواهَ دوابِّهم لئلَّا تعيثَ في زرعٍ.

﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾؛ أي: وتاللهِ ما كنّا سارقين؛ لأنَّا ردَدْنا ما جعلتُموه في رحالِنا منَ البضاعةِ، ولم نستحِلَّ أخذَه، فكيف نسرقُ؟

قولُه: ﴿فَمَا جَزَـٰٓؤُهُۥٓ﴾؛ أي: جزاءُ الصُّواعِ[1] المسروقِ، أو: جزاءُ هذا الفعلِ إنْ بانَ كذبُكم؟

قولُه: ﴿قَالُوا۟ جَزَـٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَـٰٓؤُهُۥ﴾؛ أي: جزاؤُه أن يُملَكَ ويُسترَقَّ مَن وُجِدَ في رحلِه، ثمَّ أكَّدَ فقال: ﴿فَهُوَ جَزَـٰٓؤُهُۥ﴾، كما يُقالُ: جزاءُ السّارقِ القطعُ، فهو جزاؤُه.

وقيلَ: ﴿جَزَـٰٓؤُهُۥ﴾ مُبتدأٌ، و﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَـٰٓؤُهُۥ﴾ بجملتِه خبرُ المُبتدأ.

ثمَّ؛ يُمكِنُ أنَّ هذا كان شرعَ يعقوبَ دونَ أهلِ مصرَ، ويُمكنُ أنَّه كان عادةَ أهلِ مصرَ لا شرعَ يعقوبَ، ويُمكِنُ أنَّه كان حكمَ البلدَين، ويُمكِنُ أن يُقالَ: لم يكُنْ شرعًا لأحدٍ، ولكنْ نطقَ به بنو يعقوبَ لثقَتِهم[2] بأنَّهم لم يسرِقُوا.

❊❊❊

(٧٦) - ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾؛ أي: لـمَّا تقارُّوا على هذا الجزاءِ بدأ المُؤذِّنُ برحالِ الإخوةِ قبلَ رحلِ بنيامينَ.

---

(١) في (أ): «الصاع».

(٢) في (أ): «ليفهم».

وقيلَ: بدأ يوسفُ برحالِهم، وكانُوا صرفُوهم عنِ الطَّريقِ إلى يوسفَ، وهذه البداءةُ لنفيِ التُّهمةِ.

والأوعيةُ: جمعُ الوعاءِ، وهو كلُّ ما استُودِعَ شيئًا فأحاطَ به.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ أي: استخرَجَ السِّقايةَ، أو الصُّواعَ عندَ مَن يُؤنِّثُ، وقال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ فذكَّرَ؛ لأنَّ الصُّواعَ كان صاعًا وسقايةً، فذكَّرَ مرَّةً وأنَّثَ أُخرَى.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الكيدِ كِدْنا ليوسفَ؛ أي: ألهَمْناه ذلك.

وقيلَ: أي: كِدْنا له إخوتَه حتَّى ضمَمْنا أخاه إليه، والكيدُ: التَّدبيرُ في خفيةٍ، فالكيدُ منَ الله أمرٌ مستورٌ.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يُسبِّبَ له ذلك بالكيدِ الذي كادَه له، والدِّينُ: الحكمُ، وقيلَ: السُّلطانُ.

وقيلَ: ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾؛ أي: في عادةِ الملكِ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلّا بمشيئةِ الله.

ثمَّ؛ قيلَ: كان ذلك بأمرٍ منَ الله. وقيلَ: بإلهامٍ.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾؛ أي: منَ الأولياءِ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: منَ النَّاسِ ممَّن[1] رُفِعَتْ درجاتُهم.

* * *

---

(١) في (أ): «من».

(٧٧) - ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: اقتَدَى بأخيه، ولو اقتَدَى بنا لَـمَا سرَقَ، ولـمَّا لامُوا بنيامينَ وقال لهم: والله ما سرقتُه ولا علمَ لي بمَن وضعَه في متاعي، وعلى هذا فيوسفُ لـم يُخبِرْ أخاه بما فعلَ.

وقيلَ: قال بنيامينُ: إنَّ الذي وضعَ بضاعتكم في رحالِكم ولـم تعرِفُوا هو الذي وضعَ الصّاعَ في رَحلي، وعلى هذا يجوزُ أن يكونَ يوسفُ أخبرَه بما دبَّرَ.

وقيلَ: أشاروا بقولِهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ إلى أنَّ يوسفَ كان يأخذُ الطَّعامَ من مائدةِ أبيه فيتصدَّقُ به في المجاعةِ.

وقيلَ: سرقَ صنمًا كان لأبي أمِّه فكسرَه.

وقيلَ: خبَّأَتْ جدَّتُه في ثيابِه منطقةً لإسحاقَ لتملكَه، وكانت تُحِبُّ مقامَه عندَها.

وكلُّ هذا ليس بسرقةٍ، بل يُشبِهُ السَّرقةَ، وهو كقولِه عليه السَّلامُ: «كذبَ إبراهيمُ ثلاثةَ كذباتٍ»(١)؛ أي: قال قولًا يُشبِهُ الكذبَ في الظّاهرِ.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾؛ أي: فسمعَ يوسفُ قولَـهم هذا - أو بلغَه ذلك - فأسرَّ هذه الكلمةَ في نفسِه.

وقيلَ: أسرَّ في نفسِه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾.

فعلى الأوَّلِ: شافهَهُم وقال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ طرحتُم أخاكم فـي قعرِ الجبِّ، وزعمتُم لأبيكم أنَّ الذِّئبَ قتلَه، وبعتُم أخاكم بعشرين درهمًا.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٨٤)، ومسلم (٢٣٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات».

وقيلَ: أرادَ: أنتم شرٌّ منزلًا عند الله ممَّن رمَيتُموه بالسَّرقةِ.

وعلى الثّاني: أسرَّ يوسفُ في نفسِه تلك الكلمةَ ﴿قَالَ أَنتُمْ﴾؛ أي: وقال في نفسِه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، والواوُ قد تُحذَفُ في مثلِ هذا الموضعِ، تقولُ: «فعلَ فلانٌ كذا قال كذا» أي: وقالَ كذا.

وقيلَ: أي: فأسرَّ في نفسِه أن قال في نفسِه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: أسرَقَ أخٌ له أم لا.

وقيلَ: الله أعلمُ أنَّ ما قلتُم كذبٌ، أو: أعلمُ أنَّ سرقةَ يوسفَ كانت لله رضًا، وقد قيلَ: ما كان إخوةُ يوسفَ في ذلك الوقتِ أنبياءَ.

* * *

(٧٨ ـ ٧٩) ـ ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أرادُوا كِبرَ السِّنِّ، وقيلَ: كبرَ، وذكرُوا أنه يجزعُ لفقدِه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ وهذا أخذُ احتباسٍ واستعبادٍ بدلَه[1].

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: في مُعاملتِك، فأحسِنْ إلى أبينا الضَّعيفِ الكبيرِ بردِّ هذا الولدِ إليه، وأحسِنْ إلينا بزوالِ عيبِ ابتياعِنا.

قولُه: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ إنِّي أعوذُ بالله معاذًا، أو: براءةً إلى الله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾؛ أي: أن نأخُذَ البريءَ بالمُجرمَ، ونُخالفَ ما تعاقَدْنا عليه.

* * *

(١) أي: خذ واحداً منا تستعبده بدله. انظر: «البسيط» (١٢/ ١٩٩).

(٨٠) - ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟﴾؛ أي: يئِسُوا منه، وهذا مثلُ: «عجِبَ واستَعْجَبَ»، و«سخِرَ واستسخَرَ».

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿استَايَسُوا﴾ من غيرِ همزٍ[1]، وكانَ الأصلُ الهمزَ فخُفِّفَ، وقد يُقالُ: «يئِسَ وأَيِسَ» فيُقلَبُ، والأصلُ: «يئِسَ»؛ لأنَّ المصدرَ ما جاء إلّا على تقديمِ الياءِ، و«الإياسُ» ليس مصدرَ «أَيِسَ»، بل هو مصدرُ: «أُسْتُهُ أَوْسًا وإِياسًا»؛ أي: أعطَيتُه.

وقال قومٌ: «أَيِسَ ويئِسَ» لغتانِ، و«آيَسْتُه»؛ أي: أيأَستُه، وهو مثلُ: «جبَذَ وجَذَبَ»، في أنَّ كلَّ واحدٍ أصلٌ، فـ«الإياسُ» مصدرُ «أَيِسَ»، و«اليأسُ» مصدرُ «يئِسَ».

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾؛ أي: لـمَّا يئِسُوا أن يُخلِّيَ سبيلَه ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾؛ أي: انفرَدُوا[2] خالصينَ لا يختلطُ بهم غيرُهم منَ اليأسِ يتناجَون فيما عَرَضَ لهم.

و«النَّجِيُّ» فعيلٌ بمعنى «المُناجي»، ويقعُ على الواحدِ، كقولِه: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وعلى الجمعِ كقولِه: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قيل: أسَنُّهم، وهو روبيلُ. وقيلَ: شمعونُ. وقيلَ: يهوذا.

وقيلَ: أي: كبيرُهم في العقلِ والرَّأيِ، وإنْ لـم يكُنْ أكبرَهم سِنًّا.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فـي حفظِ ابنِه وردِّه إليه.

---

(١) هي رواية البزي عن ابن كثير بخلف عنه. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٠)، و«النشر» (١/ ٤٠٥).

(٢) في (أ): «انفرقوا».

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾؛ أي: ومن قبلُ تفريطُكم في يوسفَ؛ أي: وقعَ تفريطُكم.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾؛ أي: فأنا ألزمُ أرضَ مصرَ، يُقالُ: «برِحَ براحًا وبُروحًا»؛ أي: زالَ عن موضعِه.

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فإنِّي أستَحيي منه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالرُّجوعِ بأنْ يظهرَ عُذري عند أبي.

وقيلَ: يحكمَ الله بالسَّيفِ، بأن أُحارِبَ مَن منعَني أخي فيحكمَ الله لي بالظَّفرِ أو العجزِ فأنصرفَ بعُذرٍ، وذلك أنَّ يعقوبَ قال: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، ومَن حارَبَ فعجزَ فقد أُحيطَ به.

* * *

(٨١) ـ ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

قولُه: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ﴾ قالَه هذا الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾؛ أي: ارجِعُوا أنتم إلى أبيكم ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾؛ أي: في ظاهرِ الحالِ، أو: فَعَلَ فعلًا يُشبِهُ السَّرقةَ.

وقد قُرِئَ: (سُرِّقَ)(١) أي: نُسِبَ إلى السَّرقةِ.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾؛ أي: بالأمرِ الظّاهرِ.

وقيلَ: ما شهِدْنا قطُّ إلّا بما علِمْنا، وأمَّا الآنَ فقد أخَذْنا بالظَّاهرِ ولا نعلَمُ الغيبَ، وقعَتْ لهم تُهمةٌ من قولِ بنيامينَ: دَسَّ هذا في رَحلي مَن دَسَّ بضاعتكم في رِحالِكم.

---

(١) نسبت لابن عباس وغيره. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٠).

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾؛ أي: حتَّى ندفعَ عنه فنقولَ: إنَّه لم يسرِقْ، أو: لم نعلَمْ أمرَ الباطنِ، أو: لم نعلَمْ أنَّه يسرقُ، ولو علِمْنا لَمَا خرَجْنا به.

وقيلَ: أي: ما دامَ بمَرأًى منّا لم يجرِ خللٌ، فلمَّا غابَ عنَّا خفِيَتْ علينا حالاتُه.

وقيلَ: لم نعلَمْ أنَّك تُصابُ به، ولو علِمْنا لَمَا خرَجْنا به.

* * *

(٨٢) ـ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾؛ أي: أهلَ القريةِ؛ أي: مصرَ.

وقيلَ: هي قريةٌ من قرى مصرَ، نزلُوا بها وامتارُوا منها، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: وسلِ القريةَ وإنْ كانَتْ جمادًا فإنَّك نبيٌّ، والله يُنطِقُ الجمادَ لك، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى إضمارٍ.

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: أهلَ العيرِ؛ أي: الرُّفقة، أو: البهائمَ حتَّى يُنطِقَها الله لك، والآيةُ تدلُّ على أنَّه كانَ معَهم في الطَّريقِ أقوامٌ أُخرِجُوا معهم، أو خرجُوا للامتيارِ.

* * *

(٨٣) ـ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: زيَّنَ لكم الشَّيطانُ أمرًا كما فعلتُم في أمرِ يوسفَ، ولم يثِقْ بقولِهم.

وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: فرجَعُوا وقالوا ليعقوبَ ذلك.

وقيلَ: أي: سوَّلَتْ لكم أنفسُكم إخراجَ بنيامينَ، وإرهاقِي إلى الإذنِ.

وقيلَ: سوَّلَتْ لكم أنفسُكم أنَّه سرق، وما سرَقَ.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فشأني صبرٌ جميلٌ، أو: فصبرٌ جميلٌ أولى بي.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: بيوسفَ وبنيامينَ، والذي تخلَّفَ، وهو العليمُ بحالي الحكيمُ فيما يقضي.

* * *

(٨٤) ـ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرَضَ عنهم ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وهي لفظةُ تنَدُّمٍ وتلهُّفٍ، والأسَفُ: الحزنُ على ما كانَ.

قال الزَّجَّاجُ: الأصلُ: «يا أسَفي»، فأُبدِلَ الياءُ بالألفِ لخفَّةِ الألفِ والفتحةِ(١).

وفي الخبرِ: أنَّ يوسفَ قال لجبريلَ عليهما السَّلامُ: هل لك علمٌ بيعقوبَ؟ قال: نعم، قال: فكيفَ حُزنُه؟ قال: حُزنُ سبعينَ ثَكْلى، قال: هل له في ذلك من أجرٍ؟ قال: نعم، أجرُ مئةِ شهيدٍ(٢).

وقال الحسَنُ: كان بين فراقِ يوسفَ ليعقوبَ إلى يومِ التَّقَى معه ثمانونَ عامًا لا تجِفُّ عينا يعقوبَ، وما على وجهِ الأرضِ أكرمُ على الله من يعقوبَ عليه السَّلامُ(٣).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٢٥).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٢٨٩) عن خلف بن حوشب، وابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١١٣) عن ثابت البناني، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٧ ـ ٣١٠) عن الحسن وأبي شريح وعبيد الله بن أبي جعفر ووهب بن منبه.

(٣) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (٤٣٠)، وابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣١٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١١٨).

ولـم يكُنْ بكاءُ يعقوبَ ولا قولُه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ اعتراضًا على التَّقديرِ وشكايةً، بل هو ذكرُ ما بقلبِه منَ الحزنِ.

وقال قومٌ: كان ذلك خطيئةً منه؛ إذ رُوِيَ أنَّه كان يرفعُ حاجبيه بعصابةٍ منَ الكبرِ، فقيلَ له: ما هذا؟ قال: طولُ الزَّمانِ وكثرةُ الأحزانِ، فأوحى الله إليه: أتشكُوني؟ فقال: يا ربِّ، خطيئةٌ أخطأتُها فاغفِرْها لي(١).

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ قيلَ: لـم يُبصِرْ بهما ستَّ سنينٍ.

وقيـلَ: قـد تبيـضُّ العيـنُ ويبقَى شـيءٌ مـنَ الرُّؤيـةِ، والله أعلَمُ بحـالِ يعقوبَ، وإنَّمـا ابيضَّـتْ عيناه مـنَ البُـكاءِ، ولكنَّ سـببَ البـكاءِ الحزنُ، فلهـذا قال: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: مكظـومٌ علـى حُزنِـه القديـمِ لا يبُثُّـه، وهو أشـدُّ الحزنِ، فالمكظـومُ: المسـدودُ عليـه طريـقُ حزنِه فـلا يتكلَّـمُ، قـال الله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

ويجوزُ أن يكونَ الكظيمُ بمعنَى الكاظمِ، وهو المُشتمِلُ(٢) على حزنِه.

***

(٨٥) - ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ أي: تالله تفعلُ ذلك في عقدِنا

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٨٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٢٩٨)، عن حبيب بن أبي ثابت.

(٢) في (أ): «وهو الممسك».

وظنِّنا، لا أنَّهم علِمُوا باليقينِ أنَّه يُداومُ على ذلك، يُقالُ: ما زالَ يفعلُ كذا، وما فَتِئَ، وما فَتَأَ، فهما لُغتانِ، قال النَّحويُّونَ: لا نتكلَّمُ به إلّا مع الجحدِ، فلا بدَّ من إضمارِ حرفِ النَّفيِ؛ أي: تالله لا تفتأُ، ولو كانَ يُرادُ به الإثباتُ لكانَ باللّامِ والنُّونِ، تقولُ: «والله لتَضرِبَنَّ»، فلا يُستعمَلُ «ما زالَ، وما فتئَ، وما برِحَ» إلّا مع الجحدِ.

وقال القفَّالُ: كما يُقالُ: «لا تزالُ تفعَلُ»، يُقالُ: «تزالُ تفعَلُ»، وعلى هذا لا حاجةَ إلى إضمارٍ، ولعلَّ هذا ممّا وجدوه في كلامِ الكوفيِّين.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾؛ أي: هالكًا، أو فاسِدًا في عقلِه أو بدَنِه.

وقرأ أنسٌ: (حتَّى تكونَ حُرْضًا) بضمِّ الحاءِ وسكونِ الرّاءِ، [يعني: حتى تكون] مثلَ عود الأُشنان[1].

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾؛ أي: مِنَ الميِّتينَ، وغرضُهم: منعُ يعقوبَ منَ البُكاءِ والحزنِ شفقةً عليه.

* * *

(٨٦) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ البَثُّ: ما يُحدِّثُ به المرءُ نفسَه منَ الغَمِّ، والحزنُ: ما يُضمِرُه منَ الغَمِّ.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: مِن سعةِ رحمتِه، أشارَ بهذا إلى أنَّه يرجو أن يكونَ يوسفُ حيًّا، وتَذكَّرَ رُؤيا يوسفَ إذ قال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

---

(١) انظر: «الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ٢٦٣)، و«البسيط» (١٢/ ٢٢١)، وما بين معكوفتين منهما.
والأشنان: شجر ينبت في الأرض الرملية يستعمل هو أو رماده في غسل الثِّياب والأيدي. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: أشن).

وقيلَ: قال يعقوبُ لملَكِ الموتِ: هل قبضْتَ روحَ يوسفَ؟ قال: لا، فأكَّدَ بهذا رجاءَه[1].

***

(٨٧) ـ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ لمَّا أخبَروه بسيرةِ ملكِ مصرَ طمعَ يعقوبُ أن يكونَ يوسفَ، فقالَ: (تحسَّسُوا).

وقيلَ: رأى ملَكَ الموتِ في النَّومِ، فأقسَمَ: والله ما قبضْتُ روحَ يوسفَ، فاطلُبْه من هاهُنا، وأشارَ إلى ناحيةِ مصرَ، والتَّحسُّسُ: طلَبُ الشَّيءِ بالحواسِّ، ويُقالُ: أحسَّ الخبرَ؛ أي: وجدَه، والأكثرُ أن يُقالَ: «تحسَّسَ عن هذا»، فأقامَ في هذه الآيةِ ﴿مِن﴾ مُقامَ «عن»، كما يُقالُ: «حدَّثَني فلانٌ مِن فلانٍ»، و: «عن فُلانٍ».

وقيلَ: أي: تحسَّسُوا خبرًا من أخبارِ يوسُفَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: التَّحسُّسُ: التَّجَسُّسُ، إلّا أنَّ التَّحسُّسَ يُطلَقُ في الخيرِ، والتَّجسُّسَ في الشَّرِّ[2].

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ الرَّوحُ: الاستِراحةُ من غمِّ القلبِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: إنَّ المُؤمنَ منَ الله على خيرٍ؛ يرجُوه في الشَّدائدِ، ويحمَدُه في الرَّخاءِ، بخلافِ الكافرِ[3].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٩ ـ ٢١٩٠) عن النضر بن عربي، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٣٤٨).

(٢) ذكره أبو هلال العسكري في «الفروق اللغوية» (ص: ١١٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١٣١).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٢٥).

(٨٨) ـ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ هذه المرّةُ الثّالثةُ من عَودِهم إلى مصرَ، وفي الكلامِ حذفٌ؛ أي: فخرَجُوا إلى مصرَ، فلمَّا دخلُوا على يوسفَ قالوا: ﴿مَسَّنَا﴾؛ أي: أصابَنا ومَن يختَصُّ بنا منَ الأهلِ والولدِ الجوعُ والحاجةُ.

﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ الإزجاءُ: السَّوقُ بدَفعٍ، قيلَ: كانت تلك البضاعةُ صنوبرًا[١] والحبَّةَ الخضراءَ.

وقيلَ: خَلَقَ الغرارةِ والحبالِ.

وقيلَ: دراهمَ ردِيّةً لا تَنفُقُ في ثمنِ الطَّعامِ؛ أي: بضاعةٍ كاسدةٍ.

وقيلَ: يسيرةٍ.

وقيلَ: ليس فيها صورةُ يوسفَ، وكانت دراهمُ مصرَ عليها صورةُ يوسفَ.

وقيلَ: كانت أقِطًا.

وقيلَ: السَّمنَ والصُّوفَ كمتاعِ الأعرابِ.

وقيلَ: النِّعالَ والأدَمَ؛ أي: ببضاعةٍ يُدافَعُ بها الوقتُ[٢] وليسَتْ ممّا يُتَّسَعُ به؛ أي: ببضاعةٍ تُزجَى بها الأيامُ.

---

(١) في (أ): «صنبوراً»، وفي (ف): «ضوراً»، وكلاهما تحريف، والتصويب من «تفسير الطبري» (١٣/ ٣١٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢١٩١)، وقد رويا هذا القول عن أبي صالح.

(٢) قوله: «يدافع بها الوقت» كذا في (ف)، وسقطت العبارة من (أ)، وهذا التأويل أول من وجدته ذكره هو الزجاج، والعبارة في «معاني القرآن» له (٣/ ١٢٧): «إنما يُدافع بها؛ أي: يتقوَّت»، وفي «غريب القرآن» لابن عزير (ص: ٤٤١)، و«زاد المسير» (٢/ ٤٦٧): «إنَّمَا ندافع بها ونتقوت»، =

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ طلَبُوا أن يُعطيَهم بالبضاعةِ المُزجاةِ ما يُعطي بالجيادِ.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أرادُوا المُسامحةَ بما بين الثَّمنَينِ، وسمَّوها تصدُّقًا لأَنَّها تُشبهُ التَّصدُّقَ.

وقيلَ: كانت الصَّدقةُ حلالًا لهم، وإنَّما حَرُمَتْ على نبيِّنا عليه السَّلامُ، فكأَنَّهم سألوه التَّصدُّقَ عليهم زيادةً على ما يستحِقُّونَه بالمُعاملةِ.

وقيلَ: تصدَّقْ علينا برَدِّ أخينا عليه(١).

***

(٨٩) - ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قيلَ: أدركَتْه الرِّقَّةُ لـمَّا ذكرُوا أنَّ الضُّرَّ مسَّهم فعرَّفَهم نفسَه.

= وفي «البسيط» (١٢/ ٢٢٩): «إنما يُدافع بها ويتقوت»، وفي «الوسيط» (٢/ ٦٣٠): «تتدافع بها الأيام وتتقوت». وكل هذه الجمل معناها واحد، وهو يدل على أن ما جاء في النسخة (ف) من لفظ «الوقت» تحريف.

(١) قوله: «عليه» كذا في النسختين، وفي «تفسير الطبري» (١٣/ ٣٢٥): «إلينا» ورواه عن ابن جريج، ومثله في «الهداية» لمكي (٥/ ٣٦٢٧)، و«النكت والعيون» (٣/ ٧٣) و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٧٢). وجاء في «تفسير الثعلبي» (١٥/ ١٣٦) عن ابن جريج والضحاك: «علينا»، وهي بمعنى «إلينا» هنا، أما لفظ «عليه» فلم أجده، ولعله من تحريف النساخ. وعلى كل فإن الطبري لم يعجبه هذا القول فقال: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن جريج وإن كان قولا له وجه، فليس بالقول المختار في تأويل قوله: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ لأن الصدقة في المتعارف إنما هي: إعطاء الرجل ذا الحاجةِ بعض أملاكه ابتغاءَ ثواب الله عليه، وإن كان كلّ معروف صدقةً، فتوجيه تأويل كلام الله إلى الأغلب من معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه أولى وأحرى.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: كتبَ يعقوبُ إليه يطلب ردَّ ابنِه، وفي الكتابِ: من يعقوبَ صفيِّ الله، ابنِ إسحاقَ ذبيحِ الله، ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله، إلى عزيزِ مصرَ، أمَّا بعدُ؛ فإنَّا أهلُ بيتِ بلاءٍ ومحنةٍ، ابتَلَى الله جدِّي إبراهيمَ بنمرودَ ونارِه، ثمَّ ابتَلَى أبي إسحاقَ بالذَّبحِ[1]، ثمَّ ابتَلاني بولدٍ لي كان أحبَّ أولادي إليَّ، حتَّى كُفَّ بصري منَ البكاءِ، وإنِّي لم أسرِقْ ولم أَلِدْ سارِقًا، والسَّلامُ، فلما قرأ يوسفُ الكتابَ ارتعَدَتْ مفاصلُه، واقشعَرَّ جلدُه، وأرخَى عينَيه بالبكاءِ، وعيلَ صبرُه، فباحَ بالسِّرِّ[2].

﴿هَلۡ عَلِمۡتُم﴾ استفهامٌ بمعنَى التَّذكيرِ والتَّوبيخِ، وهو الذي قال الرَّبُّ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

﴿وَأَخِيهِ﴾؛ أي: أفرَدْتُموه عن أخيه لأبيه وأمِّه، ولم يذكُرْ أباه تعظيمًا لقَدْرِه، وعلمًا بأنَّ ذلك كان بلاءً منَ الله له ليرفعَ درجتَه.

﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ وهذا يدُلُّ على أنَّه حسُنَ حالُهم الآنَ.

---

(١) الصحيح عند العلماء أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٥) عن أبي روق، ورواه الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٦٢٦) عن عبد الله بن يونس بن أبي فروة.

وذكره بنحوه مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٣٢٣)، وذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (٥/ ٣٦٢٢) من رواية ابن لهيعة عن ابن عمر.

وعزاه الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٧٩) إلى الدارقطني في غرائب مالك من حديث ابن عمر مرفوعًا، وساق لفظه، وإلى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن وهب بن منبه.

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٠٥): «إن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، في حديث طويل لا يصح».

قيلَ: ﴿جَٰهِلُونَ﴾؛ أي: آثِمُونَ، تقطعونَ رحمَ أخيكم ويعقوبَ أباكم جهلًا منكم.

وقيلَ: أي: إذ أنتُم شُبّانٌ[1] أو صبيانٌ.

وقيلَ: جاهلونَ بما تؤولُ إليه العاقبةُ.

* * *

(٩٠) - ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قيلَ: إنَّ يوسفَ تبسَّمَ، فشبَّهوه بيوسفَ فاستفهَمُوا.

وقُرِئَ: ﴿إِنَّكَ﴾ على الخبرِ[2]، ويجوزُ أن تكونَ هذه القراءةُ أيضًا استفهامًا، كقولِه: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ﴾ [الشعراء: ٢٢].

وقيلَ: وضعَ التّاجَ فعرَفُوه بشامةٍ كانت في رأسِه.

وقيلَ: رفعَ الحجابَ فعرَفُوه.

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾؛ أي: أنا المظلومُ المُرادُ قتلُه، وهذا أخي المظلومُ كظُلمي، وفي تسميةِ نفسِه إذ قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ ولـم يقُلْ: «أنا هو» تعظيمٌ للقصّةِ.

﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾؛ أي: بالنَّجاةِ والمُلكِ.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾؛ أي: يتَّقِ الله ويصبِرْ على المصائبِ وعنِ المعاصي.

---

(١) في (أ): «شباب».

(٢) هي قراءة ابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿إنَّه مَن يتَّقي﴾[1]، فـ﴿مَن﴾ على هذا بمنزلةِ «الذي» فلا يَجزِمُ، وقولُه: ﴿وَيَصْبِرْ﴾ جزمٌ على المعنى.

وقيلَ: الياءُ ليست لامَ الفعلِ هاهُنا، بل هي ياءٌ مزيدةٌ مُختَلسةٌ ليُدعَمَ بها كسرةُ القافِ.

***

(٩١) ـ ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: اختارَكَ بالعلمِ والحلمِ والعقلِ والملكِ ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾؛ أي: لمُذنِبين؛ أي: ما كنَّا إلّا خاطِئينَ، وفي ضمنِ هذا سؤالُ العفوِ.

***

(٩٢) ـ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا تعييرَ ولا توبيخَ، يُقالُ: ثَرَبَ وثَرَّبَ وأَثْرَبَ؛ أي: وبَّخَ، وإنَّما قال هذا لأنَّه كان سبقَ التَّوبيخُ[2]؛ أي: لا تثريبَ عليكم اليومَ وما بعد اليومِ[3].

---

(١) هي رواية قنبل عن ابن كثير وصلًا ووقفاً. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣١).

(٢) في (ف): «يسبق التوبيخ»، والمثبت من (أ) وهو الأقرب إلى المعنى المراد. انظر التعليق الآتي.

(٣) وشرح هذا فيما نقله الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٣٨) عن أبي بكر بن الأنباري: أن يوسف لما قدم توبيخهم وعدَّدَ عليهم قبيح ما فعلوا، وهو يستر عنهم نفسه، قال لهم عند تبين أمره لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب، فكان ذكرُ اليوم دلالةً على انقطاع التأنيب، وعلى أن ما بعده من الأيام يجري مجراه، واليوم قد يذكر ويراد به: الحين والزمان.

﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ هذا دعاءٌ؛ أي: أسألُ الله أن يسترَ عليكم ويرحمَكُم.

* * *

(٩٣) - ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ أخبرَ أنَّ عمَى يعقوبَ يزولُ بالقميصِ فزالَ، وكانَ هذا معجزةً ليوسفَ، وإنَّما علِمَ ذلك بإعلامِ الله إيّاه.

ورَوَى أنسٌ عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّ جبريلَ أتى إبراهيمَ إذ أُلقِيَ في النّارِ بقميصٍ منَ الجنّةِ، وكساه إبراهيمُ إسحاقَ، وإسحاقُ يعقوبَ، وأعطاه يعقوبُ يوسفَ، فجعلَه في قصبةٍ من فضّةٍ وعلَّقَها في عنُقِه، فأُلقِيَ في الجبِّ والقميصُ في عنُقِه، فذلك قولُه: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾[1].

وقيلَ: قال له جبريلُ: أرسِلْ بهذا القميصِ إليه؛ فإنَّ فيه ريحَ الجنّةِ، ولا يقعُ على مُبتَلًى ولا سقيمٍ إلّا صحَّ وعُوفيَ[2].

وعلى القولِ الأوَّلِ كان ذلك قميصًا من قُمصانِه.

وقيلَ: هو القميصُ الذي قُدَّ من دُبرٍ ليعلمَ يعقوبُ أنَّه عُصِمَ منَ الزِّنا.

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾؛ أي: يعُدْ بصيرًا، ويزولُ البياضُ الذي على عينِه.

---

(١) رواه الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٤٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ١٨٨).
وروى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٦) عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١٤٧) عن مجاهد.

(٢) قطعة من خبر مجاهد عند الثعلبي. انظر التعليق السابق.

وقيلَ: يأتيني بصيرًا، وكانَ قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾، وكانوا نحوًا من سبعينَ إنسانًا.

وقيلَ: كانوا ثلاثةً وسبعينَ من رجلٍ وامرأةٍ.

وقيلَ: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾؛ أي: على عينِه؛ لأنَّ العينَ منَ الوجهِ، ومثلُه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

* * *

(٩٤) ـ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾؛ أي: فارقَتِ القافلةُ مصرَ، يُقالُ: «فصَلَ فُصولًا»، و«فصَلتُه فصلًا»، فهو لازمٌ ومتعدٍّ.

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾؛ أي: قال لِمَن[1] حضرَه من قرابتِه ممَّن لم يخرُجْ إلى مصرَ، ثمَّ يحتملُ أنَّه خرجَ بعضُ بنيه فقالَ لمَن بقيَ، ويحتملُ أنَّهم خرجُوا فقال لبقيَّةِ قرابتِه:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هاجَتْ ريحٌ فحمَلَتْ ريحَ قميصِ يوسفَ إليه وبينَهما مسيرةُ ثماني ليالٍ[2].

وقال الحسَنُ: مسيرةُ عشرِ ليالٍ[3].

وقال مُجاهدٌ: هبَّتْ ريحٌ فصفَّقَتِ القميصَ، فراحَتْ[4] روائحُ الجنّةِ في الدُّنيا،

---

(١) في (أ): «من».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٣٣).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٤٢)، والقرطبي في «تفسيره» (٩/ ٢٥٩).

(٤) أي: ففاحت.

واتَّصلَتْ بيعقوبَ فوجدَ ريحَ الجنّةِ، فعلمَ أنَّه ليس في الدُّنيا من ريحِ الجنّةِ إلّا ما كان من ذلك القميصِ[١].

﴿لَأَجِدُ﴾؛ أي: أشَمُّ، فهو وجودٌ بحاسّةِ الشَّمِّ.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أي: لـولا أن تُضعِّفُوا عقـلي وتُكذِّبوني، والتَّفنيدُ: الذَّمُّ المُفرِطُ، والتَّفنيدُ كان في الإخبارِ؛ أي: لولا أن تُكذِّبوني[٢]، لا في وجودِ الرّائحةِ.

* * *

(٩٥) ـ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: فـي ذهابِكَ القديمِ في محبّةِ يوسفَ، من قولِهم: «ضلَّ الماءُ في اللَّبنِ»؛ أي: ذهبَ.

وقيلَ: كان عندَهم أنَّ يوسفَ ماتَ، وكان يعقوبُ عندَهم ذاهبًا عن الصَّوابِ.

* * *

(٩٦) ـ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ ﴿أَن﴾ زيادةٌ، و﴿ٱلْبَشِيرُ﴾ يهوذا، قال: أنا أذهبُ بالقميصِ اليومَ كما ذهبتُ بالقميصِ مُلطَّخًا بالدَّمِ، وهذا البشيرُ تقدَّمَ العيرَ.

﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾؛ أي: ألقَى القميصَ على وجهِ يعقوبَ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١٤٩)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٤٣).

(٢) لعله يريد: لولا أن تكذبوني في الإخبار عن وجود يوسف؛ ففي «البسيط» (١٢/ ١٤٥) عن الحسن: إنما قالوا له هذا لأنه كان عندهم أن يوسف قد مات، وكان في ولوعه بذكره ذاهبًا عن الصواب في أمره عندهم.

وقيلَ: ألقَى يعقوبَ على وجهِه حتَّى سجدَ شكرًا لله.

﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾؛ أي: انقلبَ.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكَّرهم قولَه: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

* * *

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾؛ أي: سلِ الله أن يغفِرَ لنا ذُنوبَنا في أمرِ يوسفَ.

وقيلَ: سَلْ يوسفَ أن يستغفرَ لنا ذُنوبَنا، وفي ضمنِه سؤالُ المغفرةِ منَ الله تعالى.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أخَّرَ دُعاءَه إلى السَّحَرِ[1].

وقيلَ: إلى ليلةِ الجمعةِ[2].

وقيلَ: إنَّما قالوا هذا بعد رُجوعِهم من مصرَ إليه، أو لعلَّ بعضَ الإخوةِ لم يخرُجْ، أو صدَرَ هذا منَ الأحفادِ وبقيّةِ القراباتِ، وطلَبُ المغفرةَ من تحسينِ الخطابِ مع يعقوبَ.

وقيلَ: أخَّرَ يعقوبُ الاستغفارَ لينظُرَ ما يفعلُ يوسفُ في أمرِهم.

* * *

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٥٥) من رواية الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الضبي في «الدعاء» (٥٠)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١١٤٤)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٤٧)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وقال: حديث غريب.

(٩٩) ـ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيلَ: بعثَ يوسفُ مع العيرِ مئتَي راحلةٍ وجهازًا، وسألَ يعقوبَ أن يأتيَه بأهلِه وولدِه جميعًا، فلما دخلوا عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾؛ أي: أباه وخالتَه، وكانت أمُّه ماتَتْ في ولادةِ بنيامينَ[(١)].

وقال الحسنُ: أرادَ: أباه وأمَّه[(٢)].

وأحيا الله أمَّه تحقيقًا للرُّؤيا حتَّى سجدَتْ له[(٣)].

وخرجَ يوسفُ للاستقبالِ، وخرجَ الملكُ معه.

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ فاستثنى لأنَّه جوَّزَ أن يمنعَهم الله من دخولِ مصرَ؛ لأنَّه كان لم يستغفِرْ لهم بعدُ، أو استغفرَ ولم يأتِه خبرُ الإجابةِ.

وقيلَ: سُمِّيَ النُّزولُ دخولًا لأنَّه قال هذا وهم في مصرَ؛ لقُربِ النُّزولِ من الدُّخولِ.

وقيلَ: رجعَ الاستثناءُ إلى الأمنِ، فهو وإنْ تقدَّمَ فالقصدُ التَّأخيرُ.

وقيلَ: أي: إذا شاءَ الله ذلك.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، عن السدي. والظاهر أن المراد أباه وأمه كما سيأتي عن الحسن، وهو ظاهر النص، ولا يصرف عن ظاهره إلا إذا ثبت بسند أن أمه ماتت. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨١).

(٢) ذكره عنه ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/ ٣٤٠)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٢) عن الحسن وابن إسحاق، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٥٢) عن ابن إسحاق.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٨) عن بعض التفاسير.

(١٠٠) ـ ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

قوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾؛ أي: إلى مجلِسِه على السَّريرِ ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾؛ أي: أبواه وإخوتُه كما رأى في النَّومِ، وكان هذا سجودَ تحيّةٍ لا سجودَ عبادةٍ، وكان ذلك عادةَ أهلِ ذلك الزَّمانِ.

وقيلَ: هذا السُّجودُ انحِناءٌ مع خُضوعٍ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: خرُّوا لله سجودًا في ذلك الوقتِ لرُؤيةِ يوسفَ[١].

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾؛ أي: إليَّ ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يذكرِ الجُبَّ لئلّا يتعيَّرَ الإخوةُ، ولأنَّ المِنَّةَ في النَّجاةِ منَ السِّجنِ كانت أكثرَ؛ لأنَّه دخلَه بسببِ أمرٍ همَّ به[٢]، وأيضًا دخلَه باختيارِه؛ إذ قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، فكان الكربُ فيه أكثرَ، وقال فيه أيضًا: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فعُوتِبَ فيه[٣].

---

(١) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١٦٩)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٤٩)، وصرح الواحدي بأنه من رواية عطاء عن ابن عباس وهي ساقطة، قال: ونحو هذا روى الضحاك عنه» والضحاك لم يسمع من ابن عباس. ويرد هذا قوله في أول السورة: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وكذا ما رواه الطبري (١٣/ ٣٥٥) عن ابن عباس قال: رفع أبويه على السرير، وسجدا له، وسجد له إخوته. لكن سنده ضعيف.

وذكر هذا القول مكي بن أبي طالب في «الهداية» (٥/ ٣٦٣٩) عن ابن إسحاق، وذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٥٥٣) بلا نسبة، واستغربه.

(٢) تقدم رد هذا عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾.

(٣) انظر ما تقدم عند الآية المذكورة.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ قيلَ: إنَّهم كانوا بادينَ بأرضِ كنعانَ، وكانوا أهلَ مواشٍ وبرِّيةٍ.

وقيلَ: كان يعقوبُ تحوَّلَ إلى الباديةِ وسكنَها، وإنَّ الله لم يبعَثْ نبيًّا من أهلِ الباديةِ، كما سنذكرُ إن شاءَ الله تعالى.

وقيلَ: كان خرجَ إلى بدا، وهو موضعٌ، وليعقوبَ بهذا الموضعِ مسجدٌ تحتَ جبلٍ[1].

يُقالُ: بدا القومُ بَدْوًا: إذا أتَوا بدا، كما يُقالُ: غارُوا غَوْرًا؛ أي: أتَوا الغَورَ، و«أنجَدَ مَن رأى حِضْنًا»؛ أي: أتى نَجْدًا، والمعنى: وجاءَ بكم من مكانٍ بدا.

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾؛ أي: رفيقٌ بعبادِه، ويُقالُ: لطُفَ فلانٌ بفُلانٍ يلطُفُ، على وزنِ: عظُم يعظُم؛ أي: رفَقَ.

وقيلَ: اللَّطيفُ: العالمُ بدقائقِ الأمورِ، والمُرادُ هاهُنا: الإكرامُ والرِّفقُ؛ لأنَّ العلمَ لا يُعلَّقُ بالمشيئةِ.

وقيلَ: قال يعقوبُ ليوسفَ: لِمَ لَمْ تُطلِعْني على حالِكَ مع تمكُّنِك وكثرةِ أعوانِكَ؟ فأطلَعَه على خزانةٍ كلُّها كتبٌ، كتب من كلِّ كتابٍ خطًّا أو خطَّينِ، فقال: كلُّ هذا ممّا أردْتُ أن أُكاتبَكَ به، فزجَرَني جبريلُ، فسأَلَ يعقوبُ جبريلَ عن ذلك فقال: أمرَني الله به، فقال: ألا تسألُه عنه؟ فسأَلَ فقالَ اللهُ: قل له: أنسيتَ يومَ قُلتَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، فهلّا خِفتَني يا يعقوبُ[2].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء والضحاك عنه. ثم نقل عن ابن الأنباري: بدا اسم موضع معروف يقال: هو بين شغب وبدا، وهما موضعان ذكرهما جميل [«ديوانه» (ص: ٢٠٠)]:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْبًا إلى بدا ... إليَّ وأوْطَاني بلادٌ سِواهُمَا

(٢) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٨/ ٥٠٠) عن بعض التفاسير المقبولة كما قال.

وكانت رُؤيا يوسفَ في الصِّغرِ، فكأنَّ تردُّدَ يعقوبَ لذلك، وأيضًا للغيبةِ منَ الوحشةِ في القلبِ ما لا يخفَى، وإنْ علمَ المرءُ أنَّها ستزولُ.

وغابَ يوسفُ عن يعقوبَ في روايةِ الحسنِ ثمانينَ سنةً[1].

وقال سلمانُ: أربعينَ سنةً[2].

وقال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: ثماني عشرةَ سنةً[3].

وعاشَ يعقوبُ بعد ذلك ثنتَي عشرةَ سنةً، وقال وهبٌ: أربعًا وعشرينَ سنةً[4].

* * *

(١٠١) - ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ تبرَّكَ بتلك الساعةِ[5] التي جمعَ الله فيها شملَه مع أبيه فدَعا، ثمَّ قدَّمَ الثَّناءَ على الدُّعاءِ ليقْربَ منَ الإجابةِ.

﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ ﴿مِنَ﴾ للتَّبعيضِ، وكذلك قولُه: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾؛ لأنَّ ملكَ مصرَ ما كان كلَّ الملكِ، وعلمُ التَّعبيرِ ما كان كلَّ العلومِ.

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (٤٣٠)، وابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣١٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١١٨).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٧٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٥٢٧)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (٨١٩٨).

(٣) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٦٤).

(٤) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ٥٠٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١٧٣) عن أهل التاريخ.

(٥) في (ف): «بتلك الحاجة».

وقيلَ: ﴿مِنَ﴾ للجنسِ، كقولِه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقيلَ: للتَّأكيدِ؛ أي: آتيتَني الملكَ وعلَّمتَني تأويلَ الأحاديثِ.

﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقَهما، والفَطْرُ: الشَّقُّ، وصارَ عبارةً عن الاختراعِ.

﴿أَنتَ وَلِيِّي﴾؛ أي: تتولَّى مصالحي.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ قال قتادةُ: سألَ اللُّحوقَ بربِّه، ولم يتمَنَّ نبيٌّ قطُّ الموتَ قبلَه[1].

وقال ابنُ عبّاسٍ: ما طلبَ الموتَ، بل طلبَ البقاءَ على الإسلامِ إذا اتَّفقَ الموتُ[2].

* * *

(١٠٢) ـ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾؛ أي: ما قصَصْنا عليك ممّا غابَ عن الخلقِ علمُه فأنزلتُه عليكَ دلالةً على صدقِكَ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: لدَى إخوةِ يوسفَ إذ أجمَعُوا على المكرِ بيوسفَ؛ أي: ما شاهَدْتَ تلكَ الأحوالَ ولكنَّ الله أطلعَكَ عليها.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ظنَّ أنَّ العربَ لمّا سألَته

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٦)، وعزاه ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ١٣٠) إلى الطبراني، وصحح إسناده.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٥٦) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٧) عن الضحاك.

عن هذه القِصّةِ وأخبرَهم بها يُؤمنون، فلم يُؤمِنُوا، فنزلتِ الآيةُ تسليةً للنَّبيِّ عليه السَّلامُ[1].

يُقالُ: حرَصَ يحرِصُ، مثلَ ضرَبَ يضرِبُ، وفي لغةٍ ضعيفةٍ: حرِصَ يحرَصُ، مثلَ: حمِدَ يحمَدُ، والحِرصُ: طلَبُ الشيءِ باجتهادٍ.

***

(١٠٤) ـ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: مالٍ حتَّى تُتَّهمَ ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: تذكرةٌ لِـمَا فيه نجاتُهم منَ النّارِ.

***

(١٠٥) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: من سماءٍ وأرضٍ وشمسٍ وقمرٍ وغيرِها.

وقيلَ: الآياتُ آياتُ عقوباتِ الأممِ السّالفةِ؛ أي: هم غافلونَ مُعرِضُونَ عن تأمُّلِها.

***

(١٠٦) ـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ نزلَتْ في قومٍ آمنُوا بأنَّ الله

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٥٧) عن ابن الأنباري.

خالقُ السَّماواتِ والأرضِ، ثمَّ يعبُدون الوثَنَ ويقولونَ: الملائكةُ بناتُ الله، والأصنامُ شُفَعاؤُنا عند الله، وعُزَيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، وقال عبَدةُ الشَّمسِ: إنَّ الشَّمسَ تشفعُ عندَ الله لنا.

وقيلَ: أرادَ أهلَ الكتابِ؛ فإنَّهم لـم يقولُوا بالله الذي أرسلَ محمَّدًا بالحقِ إلى الخلق.

وقيلَ: ما يُؤمِنُ أكثرُهم بالله باللِّسانِ إلّا وهو كافرٌ بقلبِه؛ يعني: المُنافقينَ.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾.

قوله: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ ﴾؛ أي: فجأةً ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ هو توكيدُ قولِه: ﴿بَغۡتَةٗ﴾.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

قوله: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾؛ أي: قُلْ يا محمَّدُ: هذه الطَّريقةُ التي أنا عليها منهاجي وديني وطريقي الذي يُؤدِّي إلى الجنّةِ.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ أي: أنا على يقينٍ.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾؛ أي: أدعُو إلى الله أنا ومَن اتَّبعَني؛ أي: هذه سبيلي وسبيلُ مَن اتَّبعَني، أو تبتَدِئُ فتقولُ: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وقُلْ: ﴿سبحانَ الله﴾؛ أي: تنزيهًا له عمَّا يُشرِكُونَ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتَّخِذونَ من دونِ الله أندادًا.

* * *

(١٠٩) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لـمَّا قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] قال: ما أرسلنا من قبلِك إلّا رجالًا ليس فيهم امرأةٌ ولا جنِّيٌّ ولا ملَكٌ.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ أي: المدائنِ، فلم يبعثِ الله نبيًّا من باديةٍ؛ لغلبةِ الجفاءِ والقَسوةِ على البَدْوِ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ إلى مصارعِ الأممِ المُكذِّبةِ.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال الفرّاءُ: هذا من بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه[1].

وقال البصريُّونَ: أي: دارُ الحالِ الآخرةِ، والمُرادُ بهذه الدّارِ: الجنّةُ؛ أي: هي خيرٌ للمُتَّقين.

وقُرِئَ: (وللدّارُ الآخرةُ)[2].

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥٥).

(٢) اتفق العشرة على قراءة هذه الكلمة في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، واختلفوا في آية الأنعام، وقد تقدمت.

(١١٠) - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي: ما أرسَلْنا قبلَك إلّا رجالًا، ثمَّ لم نُعاجِلْ أُممَهم المُكذِّبةَ بالعقابِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من إيمانِ قومِهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ؛ أي: أيقَنُوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم.

وقيلَ: حسِبُوا أنَّ مَن آمَنَ بهم من قومِهم كذَّبوهُم؛ لأنَّ القومَ [ما][1] كذَّبُوا، ولكنَّ الأنبياءَ ظنُّوا وحسِبُوا أنَّهم يُكذِّبونَهم؛ أي: خافُوا أن يدخلَ قلوبَ أتباعِهم شكٌّ.

وقُرِئَ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بالتَّخفيفِ[2]؛ أي: ظنَّ القومُ أنَّ الرُّسلَ كذَبُوهم فيما أخبَرُوا به منَ العذابِ ولم يَصدُقُوا.

ويجوزُ حملُ الضَّميرِ على المُرسَلِ إليهم وإنْ لم يتقدَّمْ ذِكرُهم؛ لأنَّ ذكرَ المُرسَلِ يدُلُّ على المُرسَلِ إليهم، أو يُقالُ: جرَى ذِكرُهم في قولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[3] [يوسف: ١٠٩].

وقيلَ: أي: ظنَّ الأممُ أنَّ الرُّسلَ قد كذَبُوا فيما وعَدُوا من نصرِهم.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق مستفادة من قول الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٦٨): والمعنى: ظنت الرسل ظن حسبان أن أتباعهم من الأمم قد كذَّبتهم في وعد الظفر والنصر لإبطائه عنهم وطول البلاء بهم، لا أنهم كذبوهم في كونهم رسلاً، وهذا التكذيب أيضًا لم يحصل من أتباعهم المؤمنين؛ لأنه لو حصل لكان نوع كفر، ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبُطء النصر.

(٢) قرأ بالتشديد ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر، والباقون: ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٣) في النسختين: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهذه في سورة الأنعام، والمؤلف قصد الاستشهاد بالآية التي في سورة يوسف رقم ١٠٩.

وقيلَ: تيقَّنَ الرُّسلُ أنَّهم قد كُذِبوا؛ أي: كذَبَ قومُهم في وعدِ الإيمانِ ولـم يُؤمِنُوا.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ: ظنَّ الرُّسلُ أنَّ الله أخلفَ ما وعدَهم[1].

وقيلَ: لـم تصحَّ هذه الرِّوايةُ؛ لأنَّه لا يُظَنُّ بالرُّسلِ هذا الظَّنُّ، ومَن ظنَّ هذا الظنَّ لا يستحقُّ النَّصرَ، فكيفَ قال: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾؟ ولا يبعُدُ ـ إنْ صحَّتِ الرِّوايةُ ـ أنَّ المُرادَ: خطرَ بقلوبِ الرُّسلِ هذا من غيرِ أن يُحقِّقوه في نفوسِهم.

وفي الخبرِ: «تجاوَزَ الله عن أُمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفسَها ما لـم ينطِقْ به لسانٌ أو تعمَلْ به»[2].

ويجوزُ أن يُقالَ: ﴿ظنُّوا﴾؛ أي: قرُبُوا من ذلك الظَّنِّ؛ كقولك: «بلَغْتُ المنزلَ»؛ أي: قرُبْتُ منه.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ لـم تُكتَبْ في المُصحفِ إلّا بنونٍ واحدةٍ كراهةَ اجتماعِ المثلَينِ، كما كتبُوا «الدُّنيا والعُلْيا» بالألفِ كراهةَ اجتماعِ ياءَينِ، ولولا ذلك لكُتِبَ[3] بالياءِ كالـحُبْلَى، وأيضًا هذه النُّونُ خفيةٌ، فصارَتْ كالحرفِ المُدغَمِ فإنَّه لا يَبينُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٩٣)، وروى البخاري (٤٥٢٤ ـ ٤٥٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خفيفة، ذهب بها هناك، وتلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤] فلقيت عروة بن الزبير فذكرت له ذلك، فقال: قالت عائشة: معاذ الله، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت، ولكن لم يزل البلاء بالرسل، حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم، فكانت تقرؤها: ﴿وظنُّوا أنهم قد كذِّبوا﴾ مثقلة.

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»، وعند مسلم: «ما لم يتكلموا أو يعملوا به».

(٣) في (أ): «لكتبوا».

وقرأ عاصمٌ: ﴿فَنُجِّيَ﴾ مُشدَّدةَ الجيمِ مفتوحةَ الياءِ[١].

***

(١١١) - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصّةِ يوسفَ وأبيه وإخوتِه، أو: في قصصِ الأممِ ﴿عِبْرَةٌ﴾؛ أي: فكرةٌ، والاعتِبارُ: استِعلامُ الشَّيءِ بالدَّلائلِ، تقولُ: «اعتَبِرْ هذا الدِّرهمَ»؛ أي: ابحَثْ عن خبرِه، وأصلُه: العِبْرُ، وهو الجانبُ، كأنَّ المُعتَبِرَ باستدلالِه يعبُرُ عن جانبِه الذي هو فيه إلى جانبِ البصيرةِ، فالعبرةُ: الدَّلالةُ التي بها يُعبَرُ إلى العلمِ والعبادةِ دلالةً على المعنى الذي في النَّفسِ.

﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني: مَن اعتبرَ.

وقيلَ: يدخلُ فيه مَن لم يعتبِرْ أيضًا؛ لأنَّه بحيثُ لو أرادَ أن يعتبرَ أمكنَه.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾؛ أي: ما كان القرآنُ حديثًا يُفترَى، أو: ما كانت هذه القصّةُ حديثًا يُفترَى ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾؛ أي: ولكِنْ كان تصديقَ ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: كلِّ شيءٍ يُحتاجُ إليه مِنَ الدِّينِ، أو: من خبرِ يوسفَ وإخوتِه، فهو عامٌّ أُريدَ به التَّخصيصُ.

قال وَهْبٌ: ماتَ يعقوبُ عن مئةٍ وسبعٍ وأربعينَ سنةً، وأوصَى بحملِه إلى الأرضِ المُقدَّسةِ ليُدفَنَ عند قبورِ آبائِه ففُعِلَ.

---

(١) وقرأ بها أيضاً ابن عامر، وباقي السبعة: ﴿فننْجي﴾ بالتخفيف والياء في آخره ساكنة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥١)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

وعاشَ يوسفُ بعد موتِ أبيه ثلاثًا وعشرين سنةً، وأوصَى بأن يُدفَنَ عند آبائِه، وأفضَتِ النُّبوّةُ بعد يوسفَ إلى روبيلَ ثمَّ إلى يهوذا.

وقال كعبٌ: دخلَ يعقوبُ مصرَ في اثنَينِ وسبعينَ من رجلٍ وامرأةٍ، وخرجُوا من مصرَ في وقتِ موسى عليه السَّلامُ، والمُقاتِلةُ منهم ستُّ مئةِ ألفٍ، وكانَ الذُّرِّيةُ ألفَ ألفٍ وسبعَ مئةِ ألفٍ وخمسَ مئةٍ ونيِّفًا وأربعينَ من ذكرٍ وأُنثَى[1].

والسُّورةُ مكِّيةٌ.

* * *

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ١٧٢) عن وهب، وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٢) عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد، قال: «اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا من مصر يوم أخرجهم فرعون وهم ست مئة ألف ونيف».

سُورَةُ الرَّعۡدِ

تفسيرُ سورةِ الرَّعدِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿الٓمٓر﴾ اسمُ السُّورةِ ﴿تِلۡكَ﴾؛ أي: ما سبقَ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: القُرآنِ.

وقيلَ: هو اسمُ جنسٍ؛ أي: القرآنُ والتَّوراةُ والإنجيلُ حقٌّ.

قال مُقاتِلٌ: نزلَتْ حينَ قال المُشرِكونَ: إنَّ محمَّدًا أتاه القرآنُ من تلقاءِ نفسِه[1].

* * *

(٢) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لـمَّا بيَّنَ أنَّ القرآنَ حقٌّ بيَّنَ أنَّ مَن أنزلَه قادرٌ على الكمالِ، فانظُروا في مصنوعاتِه لتعرِفُوا كمالَ قُدرتِه.

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ العَمَدُ: الأساطينُ، وهو جمعُ عمادٍ، يُقالُ: «عمادٌ وعَمَدٌ وعُمُدٌ»، مثلَ: «أَدَمٍ وأُدُمٍ»، والعمادُ: ما يُعمَدُ به الشَّيءُ ويُدعَمُ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٦٦).

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ هو متعلقٌ بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: ترَونَها بغيرِ عمدٍ، وعلى هذا فلا عمادَ للسَّماءِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: لها عمادٌ ولكنَّا لا نراه[1]. فيرجعُ قولُه: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ إلى العَمَدِ؛ أي: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ وثَمَّ عَمَدٌ لا ترَونَها.

قال ابنُ عبّاسٍ: لها عَمَدٌ على قافٍ، وهو جبلٌ من زَبَرجَدٍ يُحيطُ بالدُّنيا[2].

ويُمكنُ أن يُقالَ على هذا القولِ: العمدُ: قُدرتُه التي بها يُمسِكُ السَّمواتِ والأرضَ، وهي غيرُ مرئيَّةٍ لنا، ذكرَه الزَّجّاجُ[3].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: استولَى على الملكِ، وقد مضَى معناه.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: ذلَّل، وكلُّ مخلوقٍ مُذلَّلٌ للخالقِ، ويُقالُ: «سَخَرَتِ السَّفينةُ»؛ أي: أطاعَتْ وطابَ لها السَّيرُ.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقتٍ معلومٍ، وهو فناءُ الدُّنيا.

وقيلَ: معنَى الأجلِ المُسمَّى: أنَّ القمرَ يقطعُ فلَكَه في كلِّ شهرٍ، والشَّمسَ في سنةٍ.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: يصرِّفُه على ما يُريدُ ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: يُبيِّنُها؛ أي: مَن قدرَ على هذه الأشياءِ يقدرُ على الإعادةِ، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

* * *

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٨)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٠٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٨٣).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٣٧).

(٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بيَّنَ آياتِ السَّماءِ، ثمَّ بيَّنَ آياتِ الأرضِ؛ أي: بسطَ الأرضَ طُولًا وعَرْضًا ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالًا ثوابتَ، والرُّسوُّ: الثُّبوتُ، والإِرساءُ: الإِثباتُ.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾؛ أي: مياهًا جاريةً في الأنهارِ.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الزَّوجُ: شكلٌ له قرينٌ من نظيرٍ أو نقيضٍ، فالنَّظيرُ كزوجَي خُفٍّ، والنَّقيضانِ كالذَّكرِ والأُنثَى، والحلوِ والحامضِ، والرَّطبِ واليابسِ، والأبيضِ والأسودِ، والصَّغيرِ والكبيرِ.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يُدخِلُ هذا على ذاك.

***

(٤) ـ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾؛ أي: مُتلاصِقاتٌ، تربتُها واحدةٌ، وماؤُها واحدٌ، وفيها زرعٌ وجنّاتٌ، ثمَّ تتفاوَتُ في الثِّمارِ، فالبعضُ حلوٌ، والبعضُ حامضٌ، وفي الغصنِ الواحدِ منَ الشَّجرِ قد يختلفُ الثِّمارُ في الصِّغرِ والكبرِ والطَّعمِ واللَّونِ، وإن انبسطَ الشَّمسُ على الجميعِ على نسَقٍ واحدٍ.

وفيه أدَلُّ الدَّليلِ على بُطلانِ القولِ بالطَّبعِ، وعلى ثُبوتِ الصّانعِ المُختارِ.

وقيلَ: وجهُ الاحتجاجِ: أثبتَ التَّفاوُتَ بينَ البقاعِ، فمن تُربةٍ عذبةٍ، ومن تربةٍ سبخةٍ، مع تجاوُرِهما، وهذا أيضًا من دلالاتِ كمالِ قُدرتِه.

وقال الحسَنُ: هذا مَثَلٌ للقلوبِ؛ فإنَّ القرآنَ حياةُ القلوبِ كما أنَّ الماءَ حياةُ كلِّ شيءٍ، ثمَّ أمرُ ما يستمدُّ منَ الماءِ والتُّرابِ فيختلفُ[١]، فكذلك القلوبُ[٢].

﴿وجَنَّاتٌ مِن أَعْنَابٍ وزَرْعٍ ونَخِيلٍ﴾ الجنّةُ: البستانُ الذي يـجُنُّه الشَّجرُ، وقد يتخَلَّلُها زرعٌ.

وقُرِئَ: ﴿وَزَرْعٌ﴾ بالرَّفعِ[٣]؛ أي: وفي الأرضِ زرعٌ ونخيلٌ، وعلى هذا لفظُ «الجنّةِ» قد يقعُ على الأرضِ التي فيها الأعنابُ دونَ غيرِها.

و«النَّخيلُ»: جمعُ النَّخلِ، يُقالُ: «نخلةٌ»، والجمعُ: «نخلٌ ونخيلٌ»، ويُقالُ: «نخلاتٌ»[٤].

﴿صِنْوَانٌ﴾ هذه صفةٌ للنَّخيلِ، وهي المُجتمعةُ التي أصلُها واحدٌ.

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾؛ أي: مُتفرِّقةٌ، ومنه: «عمُّ الرَّجلِ صِنوُ أبيه»[٥]، ولا يُقالُ للواحدِ: «صِنْوٌ»، فإذا كانَ معه آخرُ فهما «صِنْوانِ» غيرَ مُنوَّنٍ.

---

(١) من قوله: «وخرجوا من مصر» إلى هنا سقطت ورقة من النسخة (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٢٦) مطولًا مبسوطاً فلينظر لفظه ثمة.

(٣) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحفص، والباقون بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣١).

(٤) انظر: «البسيط» (١٢/ ٢٨٨)، وفيه: «وثلاث نخلات» بدل: «ويقال نخلات».

(٥) قطعة من حديث رواه مسلم (٩٨٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقُرِئَ: (صُنوانٌ) بالرَّفعِ[1]، مثلَ «ذِيب وذُوبانٍ»، ويجوزُ في الشَّيءِ الواحدِ «فِعْلانٌ وفُعلانٌ»، نحوَ: «حَشٌّ وحُشانٌ وحِشَّانٌ».

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ بالياءِ، وبالتاءِ[2]؛ أي: تُسقَى هذه الأشياءُ.

﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بالنُّونِ، والياءِ[3]؛ أي: يُفضِّلُ الله.

﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ الأُكُلُ: الثَّمرُ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: دلالاتٍ على كمالِ قُدرةِ الصّانعِ.

***

(٥) ـ ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ عجَّبَ نبيَّه عليه السَّلامُ، لا أنَّ الرَّبَّ يتعجَّبُ؛ أي: إنْ عجِبْتَ من إنكارِهم الإعادةَ مع إقرارِهم بأنِّي خالقُ السَّماواتِ والأرضِ والثِّمارِ المُختلفةِ منَ الأرضِ الواحدةِ فعجبٌ هذا؛ أي: إنَّ قولَـهم عجَبٌ يعجَبُ منه الخلقُ؛ لأنَّ الإعادةَ في معنى الابتداءِ.

وقيلَ: الآيةُ في مُنكري الصَّانعِ؛ أي: إنْ تعجَبْ من إنكارِهم الصّانعَ مع الأدلّةِ الواضحةِ بأنَّ المُتغيِّرَ لا بدَّ له من مُغيِّرٍ، فهو محلُّ التعجُّبِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٥١)، عن أبي عبد الرحمن السلمي. وهي رواية غير مشهورة عن حفص كما في «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٥٦).

(٢) بالياء قراءة عاصم وابن عامر، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣١).

(٣) بالياء قراءة حمزة والكسائي، والباقون بالنون، كلاهما بالمبني للمعلوم. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣١).

وقيلَ: إنْ تعجَبْ من تكذيبِهم إيّاكَ بعدَما كنتَ عندَهم الصّادقَ الأمينَ، أو من عبادتِهم ما لا ينفعُ ولا يضُرُّ، فهو عجَبٌ.

ونظمُ الآيةِ يدُلُّ على المعنَى الأوَّلِ؛ لقولِه[١]: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾؛ أي: أنُبعَثُ إذا كنَّا ترابًا.

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقُرِئَ: ﴿إنّا﴾[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ الغُلُّ: طوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العنُقِ؛ أي: تُعَلَّقُ يومَ القيامةِ، بدليلِ قولِه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١] إلى قولِه: ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

وقيلَ: الأغلالُ: أعمالُـهم السَّيِّئةُ التي هي لازمةٌ لهم.

وقيلَ: أيديهم مغلولةٌ في محاولةِ الإضرارِ بك.

* * *

(٦) - ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قولُه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لفَرطِ إنكارِهم يطلُبونَ العذابَ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: بالعذابِ ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: قبلَ الرَّحمةِ، وهذه الرحمةُ: أنَّ الله حكَمَ بتأخيرِ العقوبةِ عن هذه الأمّةِ إلى يومِ القيامةِ.

وقيلَ: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: قبلَ الإيمانِ الذي يُرجَى به الأمانُ والحسناتُ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾؛ أي: العقوباتُ، والواحدةُ: «مَثُلَةٌ»، ويُقالُ:

---

(١) في (أ): «كقوله».

(٢) قرأ بها نافع والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٣١ ـ ١٣٢).

«مُثْلَةٌ»، والجمعُ: «مَثُلاتٌ ومُثُلاتٌ ومُثْلاتٌ» بسكونِ الثّاءِ، و«مَثْلَةٌ ومُثْلَةٌ»، مثل «صَدُقَةٌ وصُدْقَةٌ»، وأصلُ الكلمةِ قولُهم: «مَثَلَ فلانٌ بفُلانٍ»؛ أي: شانَ خلقَه.

وقيلَ: ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾: العقوباتُ التي يُشبِهُ بعضُها بعضًا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: لذو تجاوُزٍ عن المُشركينَ إذا آمنُوا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَن أصرَّ على الكفرِ.

* * *

(٧) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: نبيٌّ يدعُوهم إلى الله.

وقيلَ: الهادي هو الله؛ أي: عليكَ الإنذارُ، والله هادي كلِّ قومٍ إنْ أرادَ هدايتَهم.

* * *

(٨) ـ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾؛ أي: هو العالِمُ بما سينزلُ منَ الآياتِ وما سيقعُ منَ العقابِ؛ فإنَّه العالِمُ على الحقيقةِ ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾: أذكرٌ أو أُنثَى، واحدٌ أو أكثرُ، أبيضُ أو أسودُ.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ الغيضُ: النُّقصانُ، ويرِدُ لازمًا ومُتعدِّيًا، ونظيرُه: الازدِيادُ، وهو أيضًا لازمٌ ومتعدٍّ، وهما مُتعدِّيانِ في هذه الآيةِ، والمفعولُ محذوفٌ؛ أي: وما تغيضُه الأرحامُ وتزدادُه.

وقال مجاهدٌ: الغيضُ: ما تنقصُه الأرحامُ منَ الدَّمِ، والزِّيادةُ: ما تزدادُه منه[1].

وقيلَ: الغيضُ: الحيضُ على الحملِ، والزِّيادةُ: أن يزيدَ الحملُ على تسعةِ أشهرٍ.

وقيلَ: الغيضُ والزِّيادةُ يرجِعانِ إلى مدّةِ الحملِ؛ أي: يعلمُ أنَّ مدَّةَ الحملِ تنقصُ من تسعةِ أشهرٍ أو تزيدُ.

وقيلَ: أي: يعلمُ ما تُسقِطُه[2] المرأةُ وما لا تُسقِطُه منَ الأجِنّةِ.

وقيلَ: يعلمُ ما ينقصُ منَ الولدِ حتَّى يكونَ نِضْوًا، وما يزيدُ حتَّى يسمَنَ.

وقيلَ: ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾؛ أي: ما تنقصُ من أجزاءِ الولدِ، كنقصانِ إصبعٍ أو غيرِها، وما تزيدُ كزيادةِ إصبعٍ أو غيرِها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾؛ أي: علِمَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَه تقديرًا، والمقدارُ: القَدْرُ.

***

(٩) - ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾.

قولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: هو العالِـمُ بما غابَ عن الخلقِ وبما شهِدُوه، فالغَيبُ مصدرٌ بمعنَى الغائبِ، والشَّهادةُ مصدرٌ بمعنَى الشّاهِدِ، ونبَّهَ بهذا على أنَّه إذا علِمَ ما في الأرحامِ فيعلمُ وقتَ نزولِ العذابِ الذي استعجَلُوه[3]، وإذا قدَرَ على تصريفِ الحملِ على ما يُريدُ قدَرَ على العقابِ متى أرادَ، ولكنْ لكلِّ شيءٍ أجلٌ مضروبٌ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٤٦) بلفظ: «﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ قال: خروج الدم ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: استمساك الدم».

(٢) بعدها في (أ): «الأرحام».

(٣) في (أ): «يستعجلوه».

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: العظيمُ، والعظمةُ في حقِّه: استِحقاقُه لنُعوتِ الجلالِ.

﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾؛ أي: يتعالى عن قولِ المُشركينَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿المُتَعالي﴾ بالياءِ[١]، وهو القياسُ، وحذفَ قومٌ الياءَ تشبيهًا بما ليس فيه ألفٌ ولامٌ، كقولِك: «هذا قاضٍ»، وهذا في الوقفِ، فأمَّا في الوصلِ فالأصلُ ألّا تُحذَفَ الياءُ؛ إذ لا مُوجِبَ للحذفِ، إلّا أنَّ رُؤوسَ الآيِ تُشبَّه بالقوافي، والأكثرُ حذفُ ذلك منَ القوافي.

* * *

(١٠) ـ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

قولُه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: هو عالمٌ بقولِ مَن أسرَّ وجهرَ.

و«سواءٌ» يطلُبُ شيئَينِ، تقولُ: «زيدٌ وعمرٌو سواءٌ»؛ أي: ذوا سواءٍ، وتقولُ: «عَدْلٌ زيدٌ وعمرٍو»؛ أي: ذوا عدلٍ.

وقيلَ: ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: مُستوٍ، ولا يحتاجُ إلى تقديرِ الحذفِ.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ يُقالُ: أخفيتُ الشَّيءِ فخَفِيَ واستَخْفَى واختَفَى.

﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ظاهرٌ بالنَّهارِ في سَربِه؛ أي: طريقِه، يُقالُ: «خَلِّ سَرْبَه»؛ أي: طريقَه، وسرَبَتِ الإبلُ سُرُوبًا؛ أي: مضَتْ في الأرضِ ظاهرةً.

والمعنى: يستَوي في علمِ الله السِّرُّ والجهرُ، والظّاهرُ في الطُّرقاتِ والمُستَخفي في الظُّلماتِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

وقال الأخفشُ: المُستَخْفي: الظّاهرُ، والسّارِبُ: المُتَواري[١].

ومنه: خَفَيْتُ الشَّيءَ وأخفَيتُه؛ أي: أظهرتُه، واختَفَيتُ الشَّيءَ؛ أي: استَخرجتُه، ومنه يُقالُ للنَّباشِ: المُختَفي.

والسّاربُ: المُتَواري الدّاخلُ سَرَبًا، وانسرَبَ الظَّبيُ؛ أي: دخلَ في كِناسِه[٢].

***

(١١) ـ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

قولُه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾؛ أي: لله تعالى ملائكةٌ يتعقَّبونَ على النّاسِ باللَّيلِ والنَّهارِ، فالمُعقِّباتُ: المُتناوِباتُ التي يخلُفُ كلُّ واحدٍ منها مَن تقدَّمَه.

وقال الفرَّاءُ: عقَّبَ بمعنى: عاقَبَ، كما يُقالُ: ضعَّفَ وضاعَفَ، وعقَّدَ وعاقَدَ، وإنَّما قال: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ والملائكةُ ذُكرانٌ؛ لأنَّها جمعُ «مُعقِّبةٍ»، وقيلَ للملائكةِ: «مُعقِّبةٌ» على لفظِ الملائكةِ، والذي يدلُّ على التَّذكيرِ قولُه: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[٣].

وقيلَ: أُنِّثَتْ لكثرةِ ذلك منها، مثلَ «علَّامةٍ ونسّابةٍ وراويةٍ»، وقولُه: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ [النمل: ١٠]؛ أي: لم يرجِعْ، فالتَّعقيبُ: العَودُ إلى الشَّيءِ بعد الانصرافِ عنه.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾؛ أي: من بينِ يدَي هذا الذي هو مُستخفٍ باللَّيلِ وساربٌ بالنَّهارِ؛ أي: يحفَظُونَه من قُدّامِه ومن خلفِه ومن ملائكةِ العذابِ حتَّى لا تُحِلَّ به عقوبةً.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٠٢).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٣٠٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٠).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ منَ النِّعمةِ والعافيةِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالإصرارِ على الكفرِ، فإذا أصرُّوا وحانَ الأجلُ المضروبُ نزلَتْ بهم النِّقمةُ، وتزولُ عنهم الحفظةُ المُعقِّباتُ.

ويحتملُ أن يكونَ توكيلُ الملائكةِ بهم لحفظِهم منَ الوحوشِ والهوامِّ والأشياءِ المُضِرَّةِ، وعلى هذا: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمرِ الله وبإذنِه، فـ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباءِ، وحروفُ الصِّفاتِ يقومُ بعضُها مقامَ بعضٍ.

وقيلَ: ﴿مِنْ﴾ بمعنى «عن»؛ أي: يحفظونَه عن أمرِ الله، تقولُ: «كسَوتُه عن عُرِيٍّ، ومِن عُرِيٍّ»؛ أي: هذا الحفظُ من أمرِ الله؛ أي: ممّا أمرَ الله به.

وقيلَ: أي: يحفظُونَه منَ الجنِّ.

قال كعبٌ: لولا أنَّ الله وكَّلَ بكم ملائكةً يذُبُّونَ عنكم في مطعَمِكم ومشرَبِكم وعوراتِكم لتخَطَّفتكُم الجنُّ[1].

فـإذَنْ الجـنُّ مـن أمـرِ الله، وخصَّهـم بـأنْ قـال: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّهـم غيـرُ مُعايَنيـن فـي العُـرفِ، كمـا قـال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ أي: ليـس ممّـا تُشـاهدونَه أنتـم.

وقيلَ: (له مُعقِّباتٌ يحفَظُونَه)؛ أي: يحفَظُونَ الرَّسولَ من بينِ يدَيه ومن خلفِه ممَّن يُريدُ به سُوءًا، وقد جرَى ذِكرُ الرَّسولِ في قولِه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾؛ أي: سواءٌ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جهرَ به في أنَّه لا يضرُّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ، بل لله مُعقِّباتٌ يحفَظُونَه عليه السَّلامُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣١٠)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٩٤).

ويجوزُ أن يرجعَ هذا إلى جميعِ الرُّسلِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: يحفَظُونَ الهاديَ من بينِ يدَيه ومن خلفِه.

وقيلَ: لهذا الهادي ثلاثةُ مُعقِّباتٍ يحفَظُونه.

وقيلَ: أي: سواءٌ مَن أسرَّ القولَ ومَن جهرَ به فله حُرَّاسٌ وأعوانٌ يتعاقَبُونَ عليه فيحمِلُونَه على المعاصي، ويحفَظُونَه من أن ينجَعَ فيه وعظُ واعظٍ، وهذا لا يمنعُ الرَّبَّ منَ الإمهالِ إلى أن يحقَّ العذابُ، وهو إذا غيَّرَ هذا العاصي ما بنفسِه بطولِ الإصرارِ فيصيرُ ذلك سببًا للعقوبةِ، فكأنَّه الذي يُحِلُّ العقوبةُ بنَفْسِه، فقولُه: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من امتثالِ أمرِ الله.

وقيلَ: لهذا الكافرِ ثلاثةُ ملائكةٍ مُعقِّباتٍ يحفَظُونَه بأمرِ الله عن ملائكةِ العذابِ، أو عن الجنِّ والهوامِ، إلى مدّةٍ معلومةٍ.

وقال الفرَّاءُ: أي: لهذا المُستَخفي باللَّيلِ السّاربِ بالنَّهارِ مُعقِّباتٌ من أمرِ الله يحفَظُونَه، ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ[١].

وقال ابنُ عبّاسٍ: المُعقِّباتُ: الملائكةُ، وهم من أمرِ الله[٢].

وقيلَ: تحفظُ الملائكةُ عليه حسناتِه وسيِّئاتِه.

***

(١٢) - ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ بيَّنَ كمالَ قُدرتِه، وأنَّ تأخيرَ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٢). وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٠٩).

العقوبةِ ليس عن عجزٍ؛ أي: يُريكم البرقَ في السَّماءِ خوفًا للمُسافرِ؛ فإنَّه يخافُ أذاه لِمَا ينالُه منَ المطرِ والهولِ والصَّواعقِ، وطمعًا للحاضرِ أن يكونَ عقيبَه مطرٌ وخِصْبٌ.

﴿وَيُنشِئُ﴾؛ أي: يخترعُ ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطرِ، والسَّحابُ جمعٌ، والواحدةُ: سحابةٌ، ولهذا قال: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ [الروم: ٤٨] فذكَّرَ ووحَّدَ، فالسحابُ إذًا للواحدِ والجمعِ وللذَّكرِ والأُنثى، وهو كقولِه: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وفي موضعٍ: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

* * *

(١٣) ـ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾.

قولُه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ تسبيحُ الرَّعدِ: ما فيه منَ الدَّليلِ على أنَّ له خالقًا لا يُشبِهُ المخلوقاتِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: قالتِ اليهودُ للنبيِّ ﷺ: أخبِرْنا عن الرَّعدِ ما هو؟ فقال: «ملَكٌ من ملائكةِ الله مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، معه مخاريقُ يسوقُ بها السَّحابَ حيثُ يشاءُ الله»، قالوا: فما الصَّوتُ فيه؟ قال: «زجرُه السَّحابَ حتَّى تنتهيَ إلى حيثُ أمرَ»، قالوا: صدقتَ[١].

وكان ابنُ عبَّاسٍ إذا سمعَ الرَّعدَ قال: سبحانَ مَن سبَّحتَ له[٢].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٨٣)، والترمذي (٣١٧٧)، وقال: حسن غريب.

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٥/ ٤٣١)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (١٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٧٧).

فعلى هذا يجوزُ أن يكونَ ما نسمعُه تسبيحَ هذا الملَكِ، ويُمكنُ أن يكونَ زَجرَه للسَّحابِ، وله تسبيحٌ لا نسمعُه أخبرَنا الله تعالى به، وخُصَّ هذا الملَكُ بالإخبارِ عنه وإن كانَ كلُّ ملَكٍ يُسبِّحُ؛ لعُلوِّ شأنِ هذا الملَكِ.

ومَن قال: الرَّعدُ صوتُ السَّحابِ، فيجوزُ أن يُسبِّحَ الرَّعدُ بتقديرِ خلقِ الحياةِ فيه.

ودليلُ صحّةِ هذا القولِ قولُه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾، فلو كان الرَّعدُ ملَكًا لدخلَ في جملةِ الملائكةِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنَّ الملائكةَ خائفونَ منَ الله ليس كخوفِ ابنِ آدمَ، لا يعرفُ واحدُهم مَن على يمينِه ومَن على يسارِه، لا يَشغَلُهم عن عبادةِ الله طعامٌ ولا شرابٌ[1].

وقيلَ: الرَّعدُ: اصطِكاكُ الأجرامِ في السَّحابِ كالحجرِ يصُكُّ الحجرَ فيحدثُ بينهما صوتٌ.

وقيلَ: هو ريحٌ تجري تحتَ السَّحابِ فتصعدُ فيكونُ ذلك الصَّوتُ منه.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ قال أنسٌ: بعثَ رسولُ الله ﷺ رجلًا إلى رجلٍ من فراعنةِ العربِ، فقال: «اذهَبْ فادعُ لي فلانًا»، فقال: يا رسولَ الله، إنَّه أعتى من ذلك، قال: «اذهَبْ فادعُه لي»، فذهبَ إليه وقال: يدعوكَ رسولُ الله، فقال: وما الله، أمِن ذهبٍ هو أو من فضّةٍ أو من نُحاسٍ؟ فرجعَ إلى رسولِ الله ﷺ وقال: قال كذا وكذا، فقال: «ارجِعْ إليه الثّانيةَ فادعُه»، فرجعَ إليه فأعادَ كلامَه الأوَّلَ، فرجعَ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ فقال: «ارجِعْ إليه ثالثًا فادعُه لي»، فرجعَ الثّالثةَ، فبينا هو يُكلِّمُه بكلامِه الأوَّلِ إذ بعثَ الله سحابةً حيالَ رأسِه، فرعدَتْ فوقَعَتْ منها صاعقةٌ فذهبَتْ

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣١٥).

بقِحْفِ رأسِه، وأنزلَ الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الآية[1].

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في أَرْبَدَ بنِ ربيعةَ أخي لبيدِ بنِ ربيعةَ، وفي عامرِ بنِ الطُّفَيلِ، أقبَلا إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فقيلَ للنَّبيِّ: هذا عامرُ بنُ الطُّفَيلِ أقبلَ نحوَكَ، فقال للمُخبرِ: «دَعْه فإنْ يُرِدِ الله به خيرًا يَهْدِه»، فأقبلَ حتَّى قامَ عليه، فقال: يا محمَّدُ، ما لي إنْ أسلَمْتُ؟ فقالَ: «لكَ ما للمُسلمينَ، وعليكَ ما عليهم»، قال: تجعَلُ لي الأمرَ بعدَكَ؟ قال: «ليس ذلك إليَّ، إنَّما هو إلى الله يجعَلُه حيثُ يشاءُ»، قال: فتجعَلُني على الوَبَرِ، وأنتَ على المدَرِ؟ قال: «لا»، قال: فماذا تجعلُ لي، قال: «أجعلُ لك أعِنَّةَ الخيلِ تغدُو عليها»، قال: أوَليسَ ذلك إليَّ اليومَ، وكان قالَ لأَرْبَدَ: إذا رأيتَني أُكلِّمُه فَدُرْ من خلفِه فاضرِبْه بالسَّيفِ، فدارَ أَرْبَدُ ليضربَه، فاخترَطَ من سيفِه شبرًا، ثمَّ حبسَه الله، فلم يقدِرْ على سلِّه، وجعلَ عامرٌ يُومِئُ إليه، فالتفَتَ رسولُ الله فرأى أَرْبَدَ وما يصنَعُ بسيفِه، فقال: «اللَّهمَّ اكفِنيهما بما شئتَ»، فأرسلَ الله على أَرْبَدَ صاعقةً في يومٍ صائفٍ صاحٍ فأحرقَتْه، وولَّى عامرٌ هارِبًا، وقال: يا محمَّدُ، دعَوتَ ربَّك على أَرْبَدَ حتَّى قتلَه، والله لأملأَنَّها عليكَ خيلًا جُرْدًا وفِتيانًا مُرْدًا، فقال عليه السَّلامُ: «يمنَعُكَ الله من ذلك، وابنا قَيْلَةَ»؛ أي: الأوسُ والخزرجُ، فنزلَ عامرٌ بيتَ امرأةٍ سلوليَّةٍ، وأصبحَ وهو يقولُ: والله لَئِنْ أصحَرَ لي محمَّدٌ وصاحبُه ـ أي: ملَكُ الموتِ ـ لأنفَذْتُهما برُمحي، فأرسلَ الله ملَكًا فلَطَمَه بجناحِه فأرداه في التُّرابِ، وخرَجَتْ على رُكبتِه غدّةٌ عظيمةٌ في الوقتِ، فعادَ إلى بيتِ السَّلوليَّةِ وهو يقولُ: غُدّةٌ كغُدّةِ البعيرِ

(١) رواه البزار في «مسنده» (٧٠٠٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٤٦٨)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ٩٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): «ورجال البزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي سارة وهو ضعيف».

وموتٌ في بيتِ سلوليّةٍ، ثمَّ ماتَ على ظهرِ فرسِه ونزلَ: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ الآيتانِ[1].

وبيَّنَ أنَّه كما جعلَ في السَّحابِ مطرًا يُرجَى جعَلَ فيه صاعقةً تُخشَى، ولا يقدِرُ أحدٌ غيرُ الله على شيءٍ من ذلك.

﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: يُصيبُ بها مَن يشاءُ في حالِ جدالِه في الله، فالواوُ واوُ الحالِ، وكانَ أَرْبَدُ جادلَ النَّبيَّ ﷺ وقال: أخبِرْني عن الرَّبِّ؛ أمن نِحاسٍ هو أم من حديدٍ، فأحرقَتْه الصّاعقةُ.

وقيلَ: الواوُ للاستئنافِ، كأنَّه استأنفَ وقال: والمُشرِكونَ يُجادِلُونَ في الله ويُكذِّبونَ بعظمَتِه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣١٦) دون عزو.

وذكره الواحدي أيضاً في «البسيط» (٢٤/ ٤٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكن في سبب نزول سورة الإخلاص.

وقصة مجيء أربد وعامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ ومحاولتهما قتله وما أصاب كل واحد منهما رواها مطولة الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٧٦٠)، و«المعجم الأوسط» (٩١٢٧) من طريق عبد العزيز بن عمرانَ، عن عبد الرحمن وعبد الله ابنَا زيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيهما، عن عطاء بنِ يسارٍ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

ورواه مطولاً أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٧ ـ ٤٧٠) عن عبد الرحمن بن زيد أسلم، و(١٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٢) عن ابن جريج. وكلاهما مرسل.

ورواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣١٠) عن يزيد بن رومان ومجاهد والشعبي والزهري ومحمد بن كعب ويزيد بن عياض وغيرهم، في قصص الوفود التي وفدت على النبي ﷺ.

ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٧٦) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح (وتسمى سلسلة الكذب) عن ابن عباس. وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ١٨٥).

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ المِحالُ منَ الحولِ في قولِ القُتَيبِيِّ، وهو الحيلةُ، وكذلك المِحالةُ بمعنَى الحيلةِ[١]؛ أي: يُسبغُ في الدُّنيا عليهم النِّعَمَ، ويُمهِلُهم ثمَّ يُؤاخِذُهم، فيُشبهُ حيلةَ المخلوقينَ.

واعتُرِضَ على هذا فقيلَ: توهَّمَ أنَّ ميمَ ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ زائدةٌ، وأنَّها ميمُ «مِفعَل»، وهو غلطٌ؛ لأنَّ ما كانَ على وزنِ «فِعالٍ» وأوَّلُه ميمٌ مكسورةٌ فالميمُ أصليّةٌ، مثلَ: «مِهادٌ ومِراسٌ ومِلاكٌ»[٢].

فالمِحالُ إذًا: المُماحلةُ، تقولُ: «محَلْتُ أمحَلُ محلًا»، و«ماحَلْتُه مُماحلةً ومِحالًا»، نعم المَحالةُ بفتحِ الميمِ «مَفعلةٌ» منَ الحيلةِ[٣].

ومعنى «ماحَلتُه»: مارَيتُه حتَّى يتبيَّنَ أيُّنا أشدُّ، والمَحْلُ: الشِّدّةُ، فقولُه: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾؛ أي: شديدُ القوّةِ، وتقولُ: «تمحَّلْتُ مالًا لغَريمي»، فيُمكنُ أن يكونَ منَ المَحْلِ وهو السَّعيُ بقوّةٍ، والماحِلُ: السّاعي، كأنَّه يسعَى في طلَبِ المالِ.

ويُمكنُ أن يكونَ منَ المحالةِ، وهي الحيلةُ، فجُعِلَتِ الميمُ في «تـمَحَّلتُ» كالأصليّةِ، مثلَ «تـمَكَّنتُ» منَ المكانِ، وأصلُه: الكونُ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾؛ أي: المكرِ[٤]، وهذا يُشيرُ إلى أنَّه منَ المُماحلةِ.

---

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢٦).

(٢) هذا الاعتراض على القتيبي هو للأزهري في «تهذيب اللغة» (٥/ ٦٢)، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣١٩).

(٣) هذا الكلام للفراء في كتاب «المصادر» كما في المصدرين السابقين. وعقبه الأزهري بقوله: وهذا صحيح كما قاله.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٢١) من رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٤) - ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

قولُه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: هو الذي مَن دَعاه كانَتْ دعوتُه حقًّا، والدُّعاءُ: الاستِعانةُ، فمَن دَعا الله فقد دَعا مَن يقدِرُ على الضَّرِّ والنَّفعِ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: الأصنامُ التي يدعُوها المشركونَ من دونِ الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾؛ أي: لا يُجيبونَ، وعلى هذا: ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: دعواتُ الحقِّ، وقد يُكتَفَى منَ الجمعِ بالواحدِ كقولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وقيلَ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: كلمةُ التَّوحيدِ؛ قال ابنُ عبّاسٍ: هي «لا إلهَ إلّا الله»(١)؛ أي: له دعوةُ الدِّينِ الحقِّ؛ أي: لله من خلقِه الدَّعوةُ الحقُّ، فأُضيفَتِ الدَّعوةُ إلى الحقِّ لـمَّا اختلَفَ اللَّفظانِ.

وقال الحسنُ: الله الحقُّ(٢)، فمَن دَعاه فقد دَعا الحقَّ.

وقيلَ: أي: الله هو الذي دَعا إلى توحيدِه وإلى العبادةِ.

والأوَّلُ أقرَبُ إلى النَّظمِ؛ لقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ ترجعُ إلى الأصنامِ والملائكةِ الذين عُبِدُوا من دونِ الله.

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾؛ أي: يدعُو الماءَ بلسانِه ويُشيرُ بيدِه فلا يأتيه أبدًا؛ لأنَّ الماءَ لا يستجيبُ؛ أي: دعاؤُهم كدُعاءِ العطشانِ الماءَ إلى بُلوغِ فيه، فما هو ببالغِه، وما الماءُ ببالغِ فاه بمُجرَّدِ الدُّعاءِ، والتَّقديرُ: إلّا كاستجابةِ باسطِ كفَّيه، فالمصدرُ مُضافٌ إلى الباسطِ، ثمَّ حُذِفَ المُضافُ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٣٦٧)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٦)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٨٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٢٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ٤٢).

وقيلَ: أي: لا يحصُلُ في أيديهم إذا دَعَوا الأصنامَ إلّا ما يحصُلُ في يدِ القابضِ على الماءِ ليبلُغَ فاه. ذكرَه ابنُ قُتيبةَ وغيرُه[1].

وقيلَ: أي: إلّا كمادِّ يدِه إلى الماءِ من مكانٍ بعيدٍ، فلا يبلُغُه، ولا يبلُغُ الماءُ فاه، فكأنَّهم شُبِّهوا بمَن يمُدُّ يدَه إلى البعيدِ لينالَه من غيرِ آلةٍ.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: ليست عبادةُ الكافرينَ للأصنامِ إلّا في ضلالٍ؛ لأنَّها شركٌ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: يضِلُّ عنهم ذلك الدُّعاءُ فلا يجدونَ منه شيئًا؛ كما قال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: أصواتُ الكافرينَ محجوبةٌ عن الله[2]؛ أي: دُعاؤُهم غيرُ مسموعٍ.

* * *

(١٥) ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إنَّ الكافرينَ وإن دَعَوا من دونِ الله شُركاءَ وامتَنَعُوا من دعوةِ الحقِّ فهم وكلُّ مَن في السَّماواتِ والأرضِ يسجُدونَ لله ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، وفي الآيةِ مَسلَكانِ:

أحدُهما: أنَّها عامّةٌ والمُرادُ بها التَّخصيصُ، فالمُؤمنُ يسجُدُ طَوعًا وبعضُ

---

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢٦).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٦١)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٢٥)، من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الكفّارِ يسجُدون إكراهًا وخوفًا كالمُنافقينَ، فالآيةُ محمولةٌ على هؤلاءِ، ذكرَه الفرَّاءُ(١).

وقيلَ على هذا القولِ: الآيةُ في المُؤمنينَ، منهم مَن يسجدُ طَوعًا لا يثقُلُ عليه السُّجودُ، ومنهم مَن يثقُلُ عليه؛ لأنَّ التزامَ التَّكليفِ مشقّةٌ، ولكنَّهم يتحمَّلونَ المشقّةَ إخلاصًا وإيمانًا إلى أن يألَفُوا الحقَّ ويمرُنوا عليه.

والمسلَكُ الثّاني - وهو الصَّحيحُ -: إجراءُ الآيةِ على التَّعميمِ، وعلى هذا طريقانِ:

أحدُهما: أنَّ المؤمنَ يسجدُ طَوعًا، وأمَّا الكافرُ فمأمورٌ بالسُّجودِ مُؤاخَذٌ به.

والثّاني - وهو الحقُّ -: أنَّ المُؤمنَ يسجدُ طوعًا ببدنِه، وكلُّ مخلوقٍ منَ المُؤمنِ والكافرِ يسجدُ من حيثُ إنَّه مخلوقٌ مربوبٌ بـ(يكونُ)؛ أي: بتكوينِ منَ الرَّبِّ إيّاه، ويبقى بإبقائِه، فسجودُ كلِّ مخلوقٍ سجودُ دلالةٍ وحاجةٍ إلى الصّانعِ، وهذا كقولِه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهو تسبيحُ دلالةٍ لا تسبيحُ قالةٍ.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾؛ أي: ظلالُ الخلقِ ساجدةٌ لله بالغدُوِّ والآصالِ؛ لأنَّها تبينُ في هذَين الوقتَين، وتميلُ من ناحيةٍ إلى ناحيةٍ، وذلك تصريفُ الله إيّاها على ما يشاءُ، وهو كقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦١).

قال مجاهدٌ: ظِلُّ المؤمنِ يسجُدُ طَوعًا وهو طائعٌ، وظِلُّ الكافرِ يسجدُ طَوعًا وهو كارِهٌ(١).

وقال ابنُ الأنباريِّ: يُجعَلُ للظِّلالِ عقولٌ تسجدُ بها وتخشعُ، كما جُعِلَ للجبالِ أفهامٌ حتَّى خاطبَتْ وخُوطِبَتْ(٢).

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ الجبلَ عينٌ، فيُمكِنُ أن يكونَ له عقلٌ بشرطِ تقديرِ الحياةِ، وأمّا الظِّلالُ فآثارٌ وأعراضٌ، ولا يُتصوَّرُ تقديرُ الحياةِ لها، والسُّجودُ بمعنَى الميلِ، فسجودُ الظِّلالِ مَيلُها من جانبٍ إلى جانبٍ، يُقالُ: «سجدَتِ النَّخلةُ»؛ أي: مالَتْ، والآصالُ جمعُ: «أصيلٍ»، وهو ما بينَ العصرِ إلى المغربِ.

* * *

(١٦) ـ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾.

قولُه: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أمرَه عليه السّلامُ بمُحاجَّةِ مَن يعترِفُ بالصّانعِ؛ أي: إذا اعترفتُم بأنَّه هو الخالقُ فلِمَ تعبدون معه غيرَه؟ ولو لم يكونوا مُقرِّينَ بأنَّ الله هو الخالقُ لم يكُنْ للاحتجاجِ بقولِه: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنًى، وقولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جوابُ قولِه: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثمَّ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّهم لا يُنكِرونَ ذلك، وإذا لم يُنكِروا فقُلْ: فلِمَ تعبُدون غيرَه وذلك الغيرُ لا ينفَعُ ولا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٩٢)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٦٢)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٢٨).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٢٨).

يضُرُّ؟ ثمَّ ضرَبَ لهم مثلًا فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وكذا لا يستوي المؤمنُ الذي يُبصِرُ الحقَّ والمُشرِكُ الذي لا يُبصِرُ الحقَّ.

وقيلَ: الأعمَى مثَلٌ لِمَا عبَدُوه من دونِ الله، والبصيرُ مثَلٌ لله تعالى.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾؛ أي: الشِّركُ والإيمانُ.

قُرِئَ: ﴿تَسْتَوِي﴾ بالتَّاءِ؛ لأنَّ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ جمعٌ، ولا حائلَ بينَها وبينَ الفعلِ.

وقُرِئَ بالياءِ[1] لتقدُّمِ الفعلِ، وأيضًا تأنيثُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ ليس بحقيقيٍّ.

﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمامِ الاحتجاجِ؛ أي: أكانَ للأصنامِ ضرٌّ ونفعٌ وإيجادٌ واختراعٌ كما عرَفُوه منَ الله حتى يستَجِيزُوا عبادتَه؟

ولا يبعدُ أن تكونَ الآيةُ واردةً فيمَن لا يعتَرِفُ بالصّانعِ؛ أي: سَلْهم عن خالقِ السَّماواتِ والأرضِ؛ فإنَّه يَسهلُ تقريرُ الحجّةِ فيه عليهم، ويقرُبُ الأمرُ منَ الضَّرورةِ، فإنَّ عجزَ الجمادِ وعجزَ كلِّ مخلوقٍ عن خلقِ السَّماواتِ والأرضِ معلومٌ، وإذا تقرَّرَ هذا وبانَ أنَّ الصّانعَ هو الله، فكيف يجوزُ اعتقادُ الشَّريكِ له؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: كلِّ شيءٍ يصحُّ أن يكونَ مخلوقًا، وبيَّنَ في أثناءِ الكلامِ أنَّه لو كانَ للعالَمِ صانعانِ لاشتبهَ الخلقُ، ولم يتميَّزْ فعلُ هذا عن فعلِ ذاك، فبِمَ يُعلمُ أنَّ الفعلَ من اثنَينِ؟

* * *

(١) قرأ بها أبو بكر وحمزة والكسائي، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

(١٧) ـ ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾.

قولُه: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ ضربَ للحقِّ والباطلِ مَثَلَينِ، وهو متَّصلٌ بقولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾، المُبيِّنُ للحقِّ منَ الباطلِ، والضّاربُ فيهما الأمثالَ؛ أي: مَثَلُ الحقِّ كالماءِ المُنزلِ[1] منَ السَّماءِ، تسيلُ منه الأوديةُ، فيأخذُ كلُّ نهرٍ بقَدْرِ ما يحتملُه، فكذلك ينجَعُ القرآنُ في كلِّ قلبٍ بقَدْرِ ما يليقُ به، وشبَّهَ الكفرَ بالزَّبدِ الذي يعلُو الماءَ؛ فإنَّه يضمَحِلُّ ويَعلقُ بجنَباتِ الأوديةِ، وتدفعُه الرِّياحُ، فكذلك الكفرُ تُمحَقُ آثارُه.

ومثَلُ الحقِّ أيضًا كالجواهرِ التي تُذابُ ليُتَّخذَ منها ما ينفعُ النّاسَ فيعلُوها الزَّبدُ والخبثُ، فما ينفعُ النّاسَ يبقَى، وأمّا الخبثُ فيذهبُ، فكذلك يذهبُ الكفرُ ويضمَحِلُّ.

فالحقُّ مثلُ ما قُرِّرَ في الحجّةِ باعترافِهم بأنَّ الله خالقُ السَّماواتِ والأرضِ، والباطلُ كاشتباهِ الأمرِ عليهم حتَّى عبَدُوا الأصنامَ التي لا تضُرُّ ولا تنفَعُ ولا تخلقُ شيئًا، فهذه الشُّبهةُ زائلةٌ عند كلِّ عاقلٍ زوالَ الزَّبدِ الذي لا خيرَ فيه.

وأيضًا اغترارُ الكافرِ بظاهرِ الحالِ بالتَّموُّه[2] كالزَّبدِ، وهو ممَّا يزولُ عن قريبٍ ولا يُنتَفَعُ به، والحقُّ كالماءِ الصَّافي، وهو الذي يبقَى ويُنتَفَعُ به، ولهذا قال بعد هذه الآيةِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

---

(١) في (أ): «النازل».

(٢) في (ف): «بالتمويه».

والأوديةُ: جمعُ وادٍ، وهو ممرُّ السَّيلِ، وقال شَمِرٌ: يُقالُ: «وَدَى»؛ أي: سالَ منه الوَدْيُ لخروجِه وسيَلانِه[1]، فالوادي على هذا اسمٌ للماءِ السّائلِ.

وقال أبو عليٍّ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ توسُّعٌ؛ أي: فسالَ ماؤُها، فحُذِفَ المُضافُ[2].

﴿بِقَدَرِهَا﴾ القَدْرُ والقَدَرُ: مبلَغُ الشَّيءِ.

قال مُجاهدٌ: ﴿بِقَدَرِهَا﴾؛ أي: بمَلئِها[3].

وقال أبو عليٍّ: المعنى: بقدرِ مياهِها؛ لأنَّ الأوديةَ ما سالَتْ بقدرِ أنفُسِها[4].

وقال ابنُ عبّاسٍ: شبَّهَ القرآنَ في نزولِه بالمطرِ في نُزولِه[5].

وقيلَ: شبَّهَ الإيمانَ بالماءِ.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾ يُقالُ: أزبَدَ الوادي إِزْبادًا، والزَّبدُ الاسمُ.

﴿رَّابِيًا﴾؛ أي: طافيًا فوقَ الماءِ، من «رَبا يربُو»؛ أي: زادَ.

---

(١) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٦٣)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٣١).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٢/ ٣٤٠)، و(٥/ ٣٧٩)، و«البسيط» (١٢/ ٣٣١)، وعنه نقل المصنف.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠).

(٤) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٢/ ٣٤٠)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٣٣٣).

(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٠٦)، وصرح الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٣٣) أنه من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو طريق واه. وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٩٨) من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال: «فهذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو اليقين، كما يُجعل الحلي في النار، فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك».

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ هذا هو المثَلُ الثّاني.

قُرِئَ: ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ[1]، وأرادَ بما يُوقَدُ عليه: ما يُذابُ منَ الجواهرِ، كالذَّهبِ والفضّةِ والنُّحاسِ والحديدِ.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾؛ أي: تُوقِدونَ عليه للابتغاءِ، والذي يُوقَدُ عليه لابتغاءِ الحليةِ الذَّهبُ والفِضّةُ، والذي يُوقَدُ عليه لابتغاءِ الأمتعةِ الحديدُ والصُّفْرُ والنُّحاسُ والرَّصاصُ.

والمتاعُ: كلُّ ما يُتمتَّعُ به ويُنتَفَعُ.

﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾؛ أي: زبدٌ مثلُ زبدِ الماءِ الذي يحملُه السَّيلُ.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: كما ذكرَ من هذه الأشياءِ يضربُ الله مَثَلَ الحقِّ والباطلِ، فلا بدَّ من إضمارِ المَثَلِ.

وقيلَ: أي: كذلك يصِفُ الله الحقَّ والباطلَ بمثلِ هذا الوصفِ العجيبِ.

وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ الضَّربَ ليس بمعنى الوصفِ.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ الجفاءُ: ما جَفاه الوادي؛ أي: رمَى به، و«جفأْتُ الرَّجلَ»؛ أي: صرَعتُه، و«أجفَأَتِ القِدْرُ بزَبَدِها»؛ أي: رمَتْ بزَبَدِها، والجفاءُ: الرَّميُ.

***

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٨)، و«التيسير» (ص: ٣٣).

(١٨) ـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لمَن استجابَ لدعوةِ الحقِّ ـ وهو الرَّبُّ ـ الحسنى.

(استجاب)؛ أي: أجابَ إلى ما دَعاه الله إليه منَ التَّوحيدِ والنُّبوّاتِ.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الجنّةُ؛ لأنَّها في نهايةِ الحسنِ.

وقيلَ: منَ الحسنى: النصرُ في الدُّنيا، والنَّعيمُ المُقيمُ غدًا.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾؛ أي: لم يُجيبُوا إلى الإيمانِ به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: منَ الأموالِ ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ملكًا لهم ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾؛ أي: من عذابِ يومِ القيامةِ، والافتِداءُ: جَعلُ الشَّيءِ بدلًا منَ الشَّيءِ، وفي الكلامِ محذوفٌ؛ أي: لافتَدَوا به أنفُسَهم من عذابِ الله يومَ القيامةِ.

﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: بما في الأرضِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: لا تُقبَلُ لهم حسنةٌ، ولا يُتَجاوَزُ لهم عن سيِّئةٍ.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مسكنُهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: بئسَ الفِراشُ والوِطاءُ جهنَّمُ.

وقيلَ: أي: بئسَ ما مهَدُوا لأنفُسِهم.

* * *

(١٩) ـ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قولُه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ بيَّنَ الحكمةَ في التَّمييزِ بين

الذين استجابُوا له والذين لـم يستَجيبوا له، ونظيرُه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨].

نزلتِ الآيةُ في حمزةَ وأبي جهلٍ[1].

والمُرادُ بالعَمَى عمَى القلبِ، والجاهلُ بالدِّينِ أعمَى القلبِ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفةِ ذَوي الألبابِ؛ إذ قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يُوفُونَ بعهدِ[2] يومِ الميثاقِ.

وقيلَ: عهدُ الله: ما أخذَ عليهم منَ العهودِ على ألسنةِ الرُّسلِ.

وقال القَفَّالُ: هو ما رُكِّبَ في عقولِـهم من دلائلِ التَّوحيدِ والنُّبوّاتِ.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيلَ: هو الإيمانُ بجميعِ الأنبياءِ.

وقيلَ: يُريدُ: صلةَ الأرحامِ، وفيه حثٌّ على الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ؛ فإنَّ أكثرَ العربِ كان بينَهم وبين النَّبيِّ عليه السَّلامُ رحِمٌ ماسّةٌ لا سيَّما قريشٌ، ولهذا قال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ أي: إلا أن توادُّوني لقَرابتي منكم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٣٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٤٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «بعهده».

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيلَ: في قطعِ الرَّحمِ. وقيلَ: في جميعِ المعاصي.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: المُناقشةَ فيه.

***

(٢٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ هذا أيضًا من وصفِ مَن تقدَّمَ ذكرُهم، ويجوزُ الوصفُ تارةً بلفظِ الماضي، وتارةً بلفظِ المُستقبلِ؛ لأنَّ المعنى من[1] تقولُ: «مَن يفعلُ كذا فله كذا، ومَن فعلَ كذا فله كذا»، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، ثمَّ عطفَ عليه فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

وقيلَ: قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ ابتداءُ وصفٍ لأصحابِ النَّبيِّ ﷺ، وخبرُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾؛ أي: على الحقِّ والطّاعةِ، وعنِ المعصيةِ، ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: طلَبَ تعظيمِ الله.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفَعُونَ بالعملِ الصّالحِ السَّيِّئَ منَ الأعمالِ.

وقيلَ: أي: إذا أذنَبُوا تابُوا ليدفَعُوا بالتَّوبةِ ضررَ الذَّنبِ.

وفي الخبرِ أنَّه قال عليه السَّلامُ لمُعاذٍ: «إذا عمِلْتَ سيِّئةً فاعمَلْ بجنبِها حسنةً تمحُها»[2].

---

(١) كلمة: «من» كذا وقعت في (أ)، ووقعت في (ف) هكذا: «نن»، ولعل كلاهما تحريف.

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، حدثنا محمود بن =

وقيلَ: يدرَؤُونَ بالطّاعاتِ العقوبةَ التي تتوجَّهُ على المعصيةِ.

وقيلَ: يدفعُونَ بالإيمانِ الشِّركَ.

وقيلَ: يدفَعُونَ إساءةَ مَن أساءَ إليهم منَ النّاسِ بالإحسانِ إليهم والعفوِ عنهم كقولِه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، ثمَّ قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: ٣٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: لهم أن تَعْقُبَ أعمالَهم الجنّةُ، أو: أعقبَهم الله الجنّةَ بدلَ النّارِ، والدّارُ غدًا دارانِ: الجنّةُ للمُطيعِ، والنّارُ للعُصاةِ، فلمّا ذكرَ وصفَ المُطيعينَ فدارُهم الجنّةُ لا محالةَ.

وقيلَ: عَنَى بالدّارِ دارَ الدُّنيا؛ أي: لهم جزاءُ ما عمِلُوا منَ الطّاعاتِ في دارِ الدُّنيا.

* * *

(٢٣) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾.

قولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾؛ أي: لهم جنّاتُ عدنٍ، وجنّاتُ العَدْنِ: وسطُ الجنّةِ وقصَبتُها، وسقفُها عرشُ الرَّحمنِ، والعَدْنُ: الإقامةُ.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ أي: يدخُلونَها ويدخُلُها مَن صلَحَ، فمحلُّه الرَّفعُ، ويجوزُ أن يكونَ محلُّه النَّصبَ؛ أي: يدخلونَها معَ مَن صلَحَ من آبائِهم وأزواجِهم.

قال ابنُ عبّاسٍ: هذا الصَّلاحُ: الإيمانُ بالله والرَّسولِ، ولو كان لهم مع

= غيلان قال: حدثنا أبو أحمد وأبو نعيم، عن سفيان، عن حبيب، بهذا الإسناد نحوه، قال محمود: وحدثنا وكيع، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ نحوه، قال محمود: والصحيح حديث أبي ذر.

الإيمـانِ طاعـاتٌ أُخـرَى لدَخلوهـا بطاعاتِهـم لا على وجـهِ التَّبعيَّـةِ[١].

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّه لا بدَّ منَ الإيمانِ، فالقولُ في اشتراطِ العملِ الصّالحِ كالقولِ في اشتراطِ الإيمانِ، **فالأظهرُ** أنَّ هذا الصّالحَ هو الصّالحُ في جملةِ الأعمالِ، والمعنى: أنَّ النِّعمةَ غدًا تتمُّ عليهم بأن يجمَعَ بينَهم وبين قَراباتِهم في الجنّةِ، وإنْ دخلَها كلُّ إنسانٍ بعملِ نفسِهٖ بل برحمةِ اللهِ[٢].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾؛ أي: بالتُّحَفِ والهدايا منَ اللهِ.

* * *

(٢٤) - ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ القولُ فيه مُضمَرٌ؛ أي: يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾؛ أي: بصبرِكم، و(ما) مع الفعلِ بمعنَى المصدرِ.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾؛ أي: في شرِّ الأعداءِ، وفي طاعةِ اللهِ وعن معاصيه، وهو متَّصلٌ بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾.

﴿سَلَامٌ﴾؛ أي: قد سلِمتُم منَ الآفاتِ، أو هو دعاءٌ لهم بدوامِ السَّلامةِ وإنْ كانوا سالمينَ؛ فإنَّ نفسَ الدُّعاءِ وإنْ عُلمَ أنَّ اللهَ يفعلُه اعترافٌ بالعبوديّةِ.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾؛ أي: نِعمَ العُقبَى عُقبى الدّارِ، أو: فنِعمَ الدّارُ ما أنتُم فيه؛ أي: نِعمَ عاقبةُ الدّارِ التي كنتُم فيها، عمِلتُم فيها ما أعقَبَكم هذا الذي أنتُم فيه، فالعُقبَى على هذا اسمٌ، والدّارُ هي الدُّنيا.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٤١) بلفظ: «يريد: مَن صدَّق بما صدَّقوا به، وإن لم يعمل مثل أعمالهم». وبنحو هذا رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٩٧).

(٢) قول ابن عباس وتعقب المؤلف نقله عنه القرطبي في «التفسير» (١٢/ ٦٠).

(٢٥) - ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: يترُكونَ أمرَ الله.

وقيلَ: يُهمِلُونَ عقولَهم، فلا يتدبَّرونَ بها ليعرِفُوا الله تعالى، وهذا على قولِ القَفَّالِ.

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ منَ الأرحامِ والإيمانِ بجميعِ الأنبياءِ.

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: بارتكابِ المَعاصي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾؛ أي: الطَّردُ والإبعادُ منَ الرَّحمةِ.

﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: سوءُ المُنقلَبِ إلى الله، وهم مُعذَّبونَ في الآخرةِ.

* * *

(٢٦) - ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾.

قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ لـمَّا ذكرَ عاقبةَ المُؤمنِ وعاقبةَ المُشرِكِ بيَّنَ أنَّه الذي يبسُطُ الرِّزقَ ويقدرُ في الدُّنيا؛ لأنَّها دارُ امتحانٍ، فبَسطُ الرِّزقِ على الكافرِ لا يدُلُّ على كرامتِه، والتَّقتيرُ على بعضِ المُؤمنينَ لا يدُلُّ على إهانتِهم.

﴿وَيَقۡدِرُ﴾؛ أي: يُضيِّق، ومنه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]؛ أي: ضُيِّقَ.

وقيلَ: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾؛ أي: يُعطي بقَدْرِ الكفايةِ.

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: مُشركي مكَّةَ، فرِحُوا بالدُّنيا ولم يعرِفُوا غيرَها، وجهِلُوا ما عندَ الله.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ في جَنْبِ حياةِ الآخرةِ ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾؛ أي: شيءٌ يُتمتَّعُ به ويَفْنَى.

(٢٧) - ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بيَّنَ في مواضعَ أنَّ اقتراحَ الآياتِ على الرُّسلِ جهلٌ بعدَ أن رأَوا آيةً واحدةً تدلُّ على الصِّدقِ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: كما أضلَّكم بعدَ ما أنزلَ الآياتِ ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾؛ أي: رجعَ إلى الحقِّ، أو: ويهدي مَن أنابَ إنْ شاءَ.

* * *

(٢٨) - ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يهدي الله الذين آمَنُوا، فهو نصبٌ؛ لأنَّه مفعولٌ.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يذكُرونَ الله ويتأمَّلونَ آياتِه فيعرِفُونَ كمالَ قُدرتِه عن بصيرةٍ.

وقيلَ: وتخشعُ قلوبُهم لذكرِ الله؛ أي: إذا سمعُوا[1] القرآنَ استأنَسُوا به.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾؛ أي: قلوبُ المُؤمنينَ.

وقيلَ: أي: ألا بذكرِ الله ينبَغي أن تطمَئِنَّ القلوبُ.

وقيلَ: هو أن يحلفَ خصمُه بالله فيسكُنَ قلبُه إليه.

وقيلَ: وتطمئنُّ قلوبُهم بذكرِ الله لهم بالسَّعادةِ والإيمانِ.

* * *

---

(١) في (أ): «استمعوا».

(٢٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ وفي الخبرِ: «طوبى شجرةٌ غرَسَها الله بيدِه تُنبتُ الحُليَّ والحُلَلَ، وإنَّ أغصانَها لَتُرى من وراءِ سورِ الجنّةِ»[١].

وقال الزَّجّاجُ: طوبَى «فُعْلى» منَ الطِّيبِ، وهي الحالةُ المُستَطابةُ لهم، والأصلُ: «طُيْبَى» فصارتِ الياءُ واوًا لسُكونِها وضمِّ ما قبلَها، كما قالوا: «مُوسِرٌ» و«مُوقِنٌ».

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿طُوبَىٰ﴾ اسمُ الجنّةِ بالحبشيّةِ، **وإنْ صحَّ هذا** فهو وفاقٌ بينَ المعنيَينِ.

وقيلَ: تقديرُ الكلامِ: الذين آمَنُوا وتطمَئِنُّ قلوبُهم بذكرِ الله وعمِلُوا الصّالحاتِ طُوبَى لهم، وقولُه: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ كلامٌ مُعترِضٌ، كما تقولُ: قالَ الله ـ وهو أصدَقُ القائلينَ ـ كذا وكذا، ولمَّا اعترَضَ هذا أعادَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

* * *

(٣٠) ـ ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾؛ أي: أرسلناكَ كما أرسلنا الأنبياءَ قبلَكَ ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: القرآنَ ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ نزلَتْ في صُلحِ الحديبيةِ لمَّا قال عليه السَّلامُ لعليٍّ: «اكتُبْ: بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ»، فقال سُهَيلُ بنُ عَمرٍو: ما نعرِفُ الرَّحمنَ إلّا صاحبَ اليمامةِ ـ يعني: مُسيلمةَ الكذّابَ ـ اكتُبْ: باسمِكَ اللَّهمَّ[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٨) عن معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعًا. قال الشيخ أحمد شاكر: وهذا خبر هالك الإسناد.

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣١) عن قتادة ومجاهد، وعزاه الثعلبي في «تفسيره» =

وقيلَ: نزلَتْ في كفّارِ قُريشٍ لمّا قالَ لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[1]؛ أي: الرَّحمنُ الذي أنكرتُم معرفتَه ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

وقيلَ: سمعَ أبو جهلٍ رسولَ الله ﷺ يدعُو في الحِجْرِ ويقولُ: «يا رحمنُ» فقال: كان محمَّدٌ ينهانا عن عبادةِ الآلهةِ وهو يدعُو إلـهَينِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ، ونزلَ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[2].

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ أي: إليه مَرجِعي غدًا واليومَ أيضًا رِضًا بقضائِه وتسليمًا لأمرِه.

* * *

(٣١) - ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ هذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وكانُوا سألُوا أن يُسيِّرَ عنهم جبالَ مكّةَ حتَّى يزدَرِعُوا، وأن يطوِيَ لهم الأرضَ في الأسفارِ، أو يشقَّ لهم الأرضَ بالعُيونِ والأنهارِ، وأن يُحيِيَ أسلافَهم فيُصدِّقُوه،

= (٢٩٦/١٥) لقتادة وابن جريج واللفظ له. وأصل الحديث دون سبب النزول رواه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٣)، وهو من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) رواه أبو نعيم في «طرق حديث إن لله تسعة وتسعين اسمًا» (٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (٥/ ٣٧٤١)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٥٠).

وسألُوه أن يفعلَ بالقرآنِ هذه الأشياءَ، فنزلَتِ الآيةُ(١)؛ أي: أرسلناكَ بالقرآنِ وهي مُعجِزةٌ لك، ووجهُ المُعجِزةِ فيه: النَّظمُ المُعجِزُ، والمعاني المُشتمِلةُ على أقاصيصَ لـم تكُنْ من علومِ قومِك، فأمَّا تسييرُ الجبالِ والآياتُ الأُخَرُ فلا تكونُ(٢) بالقرآنِ، ولو آتاهُم الله تعالى هذه الآياتِ لاقترَحُوا آياتٍ أُخرَ، وكلُّ ذلك تعلُّلٌ منهم، وليس للأمّةِ الاقتراحُ بعد أن ظهرَتْ مُعجزةٌ فيها كفايةٌ.

وقال الزُّبيرُ بنُ العوّامِ: قالت قريشٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: تزعُمُ أنَّكَ نبيٌّ يُوحَى إليكَ، وأنَّ سليمانَ سُخِّرَ له الرِّيحُ، وأنَّ موسى سُخِّرَ له البحرُ، وأنَّ عيسى كان يُحيي الموتَى، فادعُ الله أن يُسيِّرَ عنّا هذه الجبالَ، ويُفجِّرَ لنا الأرضَ أنهارًا فنتَّخِذَها محارِثَ ونزرَعَ، وادعُ الله أن يُحيِيَ لنا مَوتانا حتَّى يُكلِّمونا، وأن تصيرَ هذه الصَّخرةُ التي تحتَكَ ذهبًا فنَنْحَتَ منها، وتُغْنينا عن رحلةِ الشِّتاءِ والصَّيفِ، فبينَما نحنُ حولَه إذ نزلَ عليه الوحيُ، فلمَّا سُرِّيَ عنه قال: «والذي نفسي بيدِه، لقد أعطاني ما سألتُم، ولو شئتُ لكانَ، ولكنَّه خيَّرَني بين أن تدخُلوا في بابِ الرَّحمةِ فيُؤمِّنَ مُؤمِنُكم، وبينَ أن يكِلَكُم إلى ما اختَرتُم لأنفُسِكم فتضِلُّوا بابَ الرَّحمةِ، فاخترتُ بابَ الرَّحمةِ، وأخبَرَني أنَّه إنْ أعطاكُم ذلك ثمَّ كفرتُم أنَّه مُعذِّبُكم عذابًا لا يُعذِّبُه أحدًا منَ العالَمين»، ونزلَتْ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ونزلَتْ ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١](٣).

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥)، عن قتادة والضحاك وابن زيد، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٣٧٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٨) دون راو ولا سند.

(٢) في (ف): «فلا تكونن».

(٣) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٦٧٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٤)، وابن مردويه في «تفسيره» كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ١٩٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» =

أي: لو أنَّ قرآنًا سُيِّرَتْ به الجبالُ أو شُقِّقَتْ به الأرضُ أو أُحيِيَ به الموتَى لكانَ هذا القرآنَ، فحُذِفَ لدلالةِ الحالِ عليه.

وقيلَ: الجوابُ مُتقدِّمٌ؛ أي: وهم يكفُرونَ بالرَّحمنِ، ولو أنزَلْنا القرآنَ وفعَلْنا بهم ما[1] اقترَحُوا.

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لَما آمنُوا، فالجوابُ المُضمَرُ هاهُنا ما أُظهِرَ في قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قولِه: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١][2].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾؛ أي: ليس ما يلتمِسُونَه ممّا يكونُ بالقرآنِ، إنَّما يكونُ بأمرِ الله.

﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ أي: أفلم يعلَمْ، قال ابنُ عبّاسٍ: هو لغةُ النَّخَعِ[3].

وقيلَ: هو منَ اليأسِ المعروفِ، وكان المُشركونَ لـمَّا طلَبُوا الآياتِ أحبَّ المُسلمونَ تلك الآياتِ حتَّى يُسلِمَ المُشركونَ، فقال الله: أفلم ييأسِ المُؤمنونَ عن إيمانِهم؟ أي: لـم يتيقَّنُوا أنَّه لا يكونُ إلّا ما أرادَ الله، وهو كما تقولُ: «يئسْتُ من غُلامي أن يُفلِحَ»؛ أي: علمًا منِّي بأنَّه لا يُفلِحُ.

= (٧/ ٨٥): «رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، وكلاهما وثق، وقد ضعفهما الجمهور».

(١) في (أ): «بما».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٤٨).

(٣) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٦٤) عن ابن عباس من رواية الكلبي عن أبي صالح، وذكره كراع النمل في «المنجد» (ص: ٣٦٢)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٧)، عن الكلبي.

وقرأ ابنُ عبّاسٍ: (أفلَمْ يتبيَّنِ الذين آمنُوا)، فقيلَ له: المكتوبُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾، فقال: أظنُّ الكاتبَ كتبَها وهو ناعسٌ[1]؛ أي: زادَ بعضَ الحروفِ حتَّى صارَ ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٧)، وهذا الخبر رجاله جميعهم ثقات لكن ظاهر متنه النكارة، ولذلك فقد اشتد إنكار جماعة من المفسرين عليه دون نظر منهم لإسناده، منهم الزمخشري الذي قال في «الكشاف»: «وهذا ونحوُه ممَّا لا يُصدَّق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خَلْفه، وكيف يَخْفَى مثلُ هذا حتى يَبْقى ثابتاً بين دفَّتي الإمام، وكان متقلِّباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطِينَ في دِين الله المُهيمِنين عليه» إلى أن قال: «وهي والله فرية ما فيها مرية».

أما أبو حيان فقد ميز بين القراءة وقصة الناعس، فقال في «البحر» (٦/ ٣٩١): وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول ﷺ، وليست مخالِفة للسواد إذ كتبوا ﴿ييئس﴾ بغير صورة الهمزة، وهذا كقراءة: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ و: ﴿فتثبتوا﴾ وكلتاهما في السبعة، وأما قول مَن قال: (إنما كتبه الكاتب وهو ناعس) فسوى أسنان السين، فقول زنديق ملحد. وتابعه في كلامه هذا الآلوسي في «روح المعاني» (٧/ ١٤٨).

قلت: وفي هذا ـ بعد صحة الإسناد ـ ما لا يخفى من المبالغة، لكن مما يشكل على هذا الخبر أيضاً أن الطبري رواه عن شيخه أحمد بن يوسف عن القاسم ـ هو ابن سلام ـ بإسناده إلى ابن عباس، وأحمد بن يوسف التغلبي الأحول شيخ الطبري، هو صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام، مشهور بصحبته، وهو ثقة مأمون، وهو الذي أخذ عنه الطبري كتب أبي عبيد القاسم بن سلام ـ كما قال الأستاذ أحمد شاكر ـ، لكن أبا عبيد رواه في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٢) بذلك الإسناد مقتصراً على ذكر القراءة فقط، دون قصة الناعس.

ومن العلماء من مال لجانب البحث عن تأويل لهذا الخبر المشكل وأمثاله مما صح إسناده، منهم ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٣٧٣) حيث قال: وهذه الأشياء وإن كان غيرها المعتمد لكن تكذيب المنقول بعد صحته ليس من دأب أهل التحصيل فلينظر في تأويله بما يليق به». وقد تكلم الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٥٢) على هذا الأثر وبين صحة إسناده. وأخبر أنه كتب رسالة مستقلة حول هذا الأثر المشكل وأشباهه.

قلت: وقد نقل السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٣٢٩) تأويل بعض العلماء ـ وهو ابن أشتة ـ لما روي من =

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ ﴿أَن﴾ مخفَّفةٌ منَ الثَّقيلةِ؛ أي: أنَّه لو يشاءُ الله.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾؛ أي: داهيةٌ مُهلِكةٌ: من صاعقةٍ كما أصابَ أَرْبَدَ، أو من قتلٍ أو أَسْرٍ أو جَدْبٍ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: هي السَّرايا التي كان يبعثُها النَّبيُّ ﷺ إليهم[1][2].

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قيلَ: نزلَتِ الآيةُ بالمدينةِ؛ أي: لا تزالُ تُصيبُهم القَوارعُ فتنزلُ بساحتِهم أو بالقربِ منهم كقُرى المدينةِ ومكّةَ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ في فتحِ مكّةَ.

وقيلَ: نزلَتْ بمكّةَ؛ أي: تُصيبُهم القوارعُ، أو تخرجُ عنهم إلى المدينةِ يا محمَّدُ فتحلُّ قريبًا من دارِهم[3]، أو تحلُّ بهم مُحاصِرًا لهم، وهذه المُحاصرةُ لأهلِ الطّائفِ ولقِلاعِ خيبرَ، أو يأتيَ وعدُ الله بالإذنِ لك في قتالِهم وقهرِهم.

وقيلَ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ في فتحِ مكّةَ، والقارعةُ: ما كان ينزلُ بهم بمكّةَ كما نزلَ بالمُستهزئينَ، وهم رُؤساءُ المُشركينَ.

وقيلَ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾، وهو القيامةُ.

* * *

= هذه الأخبار المشكلات، فذكر في هذا الخبر: أن معنى قول ابن عباس: «كَتَبها وهو ناعسٌ» يعني: فلمْ يَتدبَّرِ الوجه الذي هو أَولى من الآخر. والله أعلم بالصواب.

(١) «إليهم»: ليس في (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٨). وكلمة «إليهم» ليست في (أ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحسن إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٣٧٣).

(٣٢) ـ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: الاستهزاءُ والاقتراحاتُ في كلِّ وقتٍ.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: فأمهلتُهم مدّةً ليُؤمِنَ مَن كانَ في علمي أنَّه مُؤمنٌ منهم، فلمَّا حقَّ القضاءُ أخذتُهم بالعقوبةِ.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: فكيفَ رأيتَ ما صنعتُ بهم؟ وكذلك أصنعُ بمُشركي قومِكَ.

* * *

(٣٣) ـ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

قولُه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيامُ القيامَ الذي هو ضدُّ القُعودِ، بل هو بمعنَى التَّولِّي لأمورِ الخلقِ، كما تقولُ: «قامَ فلانٌ بشغلِ كذا»، فالله قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ؛ أي: يُقْدِرُها على الكسْبِ ويخلُقُها ويرزُقُها.

وقيلَ: يُؤاخذُهم بما فعلُوا.

وقيلَ: أي: أفمَنْ هو عالـمٌ بكسبِ كلِّ نفسٍ.

وخبرُ (مَنْ) محذوفٌ لدلالةِ الحالِ عليه؛ أي: أفمَنْ هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ كمَن ليس كذلك؟ وهذا تعجيبُ العبادِ من عبادةِ المُشركينَ ما لا ينفعُ ولا يضُرُّ.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: عبدُوا غيرَه ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾؛ أي: إنَّما يُسمُّونَ: اللّاتَ

والعُزَّى ومَناةَ وهُبَلَ؛ أي: جماداتٌ لا تنفعُ ولا تضُرُّ ممَّا يَعلمُ كلُّ عاقلٍ أنَّه لا يَستحقُّ أن يُعبَدَ.

﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ بمعنَى الاستفهامِ؛ أي: أَتُنبِّئُونَه بما لا يعلَمُ، وهو على التَّحقيقِ عطفٌ على استفهامٍ مُتقدِّمٍ في المعنَى؛ لأنَّ قولَه: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ معناه: أَلَهم أسماءُ الخالِقينَ أم تُنبِّئونَه بما لا يَعلمُ في الأرضِ.

وقيلَ: هو عطفٌ على قولِه: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾؛ أي: أفمَن هو قائمٌ أم تُنبِّئونَ الله بما لا يعلمُ؛ أي: أنتم تدَّعونَ لله شريكًا والله لا يعلَمُ لنفسِه شريكًا، أفتُنبِّئونَه بشريكٍ له في الأرضِ وهو لا يعلمُه؟ ومعنى ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾: بما يعلمُ أنَّه ليس، فالنَّفيُ وإنْ دخلَ على العلمِ فالمُرادُ نفيُ المعلومِ، وإنَّما خَصَّ الأرضَ بنفيِ الشَّريكِ عنها وإنْ لم يكُنْ له شريكٌ في غيرِ الأرضِ؛ لأنَّهم ادَّعَوا له شركاءَ في الأرضِ لا في غيرِها.

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: أم تقولونَ مجازًا وباطلًا لا حقيقةَ له، فالظَّاهرُ منَ القولِ هو المجازُ، أو الباطلُ الزَّائلُ، يُقالُ: «ظهرَ عنِّي هذا العيبُ»؛ أي: زالَ ولم يَعلَقْ بي.

وقيلَ: أي: إنَّما تجعلونَ لله شركاءَ بقولٍ ظهرَ عندَكم من أسلافِكم؛ لأنَّكم تُقلِّدونَهم من غيرِ دليلٍ وبرهانٍ.

وقيلَ: أي: أم تقولونَ ذلك بأمرٍ واضحٍ ظاهرِ الصِّحَّةِ فهاتُوا بُرهانَكم، وهو كما تقولُ: «أتصِفُني بشيءٍ لا أعرِفُه من نفسي أم تقولُ ما تقولُه بشيءٍ صحَّ عندَكَ وظهَرَ؟ فإنْ وصفْتَني بشيءٍ فيَّ لا أعلَمُه من نفسي فهو مُحالٌ، وإنْ قُلتَ ما قُلتَه لأمرٍ ظهرَ عندَكَ فأثبِتْ صحَّتَه».

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: دَعْ ذكرَ هذا، بل زيِّنَ لهم مكرُهم.

قيلَ: استِدراكٌ على هذا الوجهِ.

ثمَّ قيلَ: إنَّ الله زيَّنَ للكافرينَ مكرَهم.

وقيلَ: الشَّيطانُ زيَّنَ.

ويجوزُ أن يُسمَّى الكفرُ مكرًا؛ لأنَّ مكرَهم بالرَّسولِ كان كفرًا.

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: صدَّهُم الله.

وقُرِئَ: ﴿وصَدُّوا﴾ بالفتحِ[1]؛ أي: صَدُّوا غيرَهم، وهو منَ الصَّدِّ، أو (صَدُّوا) بمعنَى: أعرَضُوا، وهو منَ الصُّدودِ، فـ«صَدُّوا» لازمٌ ومُتعدٍّ.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ مُعظَمُ القرّاءِ يقِفُونَ على الدَّالِّ من غيرِ ياءٍ، وكذلك ﴿وَالٍ﴾ و﴿وَاقٍ﴾؛ لأنَّكَ تقولُ في الوصلِ: «هذا قاضٍ، ووالٍ، وهادٍ»، فتحذفُ الياءَ لسُكونِها والتقائِها مع التَّنوينِ، فإذا وقفتَ فالتَّنوينُ يُحذَفُ في الوقفِ في الرَّفعِ والجرِّ من غيرِ بدلٍ، والياءُ كانت انحذَفَتْ في الأصلِ فصادَفَ الوقفُ الدّالَ فتُسكَّنُ.

وقُرِئَ: (فما له من هادي)، و(والي) و(واقي) بالياءِ[2]، وهو على مذهبِ مَن يقولُ: «هذا داعي ووالي وواقي» بالياءِ، وهو بالياءِ[3] لأنَّ حذفَ الياءِ في حالةِ الوصلِ لالتقائِها مع التَّنوينِ، وقد أمنَّا هذا في الوقفِ فرُدَّتِ الياءُ فصارَتْ «هادي، ووالي، وواقي».

---

(١) قرأ بها ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو، والباقون بضم الصاد. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

(٢) قرأ ابن كثير بالياء وقفًا، وبالتنوين وصلاً، والباقون يصلون بالتنوين ويقفون بغير ياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٣).

(٣) «وهو بالياء»: من (ف).

قال الخليلُ في نداءِ «قاضٍ» ونحوِه: «يا قاضي» بإثباتِ الياءِ؛ إذ لا تنوينَ مع النِّداءِ، كما لا تنوينَ في نحوِ «الدّاعي والمُتعالي»(١).

* * *

(٣٤) ـ ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

قولُه: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: للمُشركينَ الصّادِّين عن سبيلِ الله عذابٌ في الحياةِ الدُّنيا، كالأسقامِ والمصائبِ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ أي: أشدُّ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

قوله: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال قومٌ: أي: صفةُ الجنّةِ، فهو مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، كقولك: «قَولي: يقومُ زيدٌ»، فـ«قولي» مُبتدأٌ، و«يقومُ زيدٌ» خبرُه، وهذا كقولِه: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ أي: صِفتُهم.

وقيلَ: مثَلُ الجنّةِ فيما نقُصُّ عليكم، فـ﴿مَّثَلُ﴾ رفعٌ على الابتداءِ، والخبرُ محذوفٌ؛ أي: مثَلُ الجنّةِ أجلُّ مثَلٍ، والمثَلُ على هذا هو الحديثُ نفسُه ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تفسيرٌ له.

قال هؤلاءِ: ولـم يُسمَعِ المثلُ في اللُّغةِ بمعنَى الصِّفةِ.

وقيلَ: المثَلُ تأكيدٌ؛ أي: الجنّةُ التي وُعِدَ المُتَّقون تجري من تحتِها الأنهارُ، كقولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: كهو.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٤/ ١٨٤)، و«الأصول في النحو» (٢/ ٣٧٥).

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾؛ أي: ثمارُها لا تنقطعُ ﴿وَظِلُّهَا﴾ لا تنسخُها[1] الشَّمسُ ولا تزولُ.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: بعضُ مَن أوتيَ الكتابَ يَفرحُ بالقرآنِ، كابنِ سلَامٍ وسلمانَ والذين جاؤوا منَ الحبشةِ، فاللَّفظُ عامٌّ، والمُرادُ الخصوصُ.

وقيلَ: ابنُ سلامٍ وصحبُه ساءَهم قلَّةُ ذكرِ الرَّحمنِ في القرآنِ مع كثرةِ ذكرِه في التَّوراةِ، فلمَّا نزلَ: ﴿أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فرِحُوا بذلك، فنزلتِ الآيةُ[2].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ هم المُشركونَ ومَن لم يُؤمِنْ منَ اليهودِ والنَّصارَى ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ يعني: ذكرَ الرَّحمنِ، وهم كانوا يُنكِرُونَ جميعَ القرآنِ إلّا أنَّ إنكارَهم لذكرِ الرَّحمنِ كان أشدَّ.

وقيلَ: أي: ومِن أعداءِ المسلمين مَن يُنكِرُ ما في القرآنِ؛ لأنَّ فيهم مَن كان يعترفُ ببعضِ الأنبياءِ، ومنهم مَن كان يعترفُ بأنَّ الله خالقُ السَّماواتِ والأرضِ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: أُمِرتُ بالتَّبرِّي عن المُشركينَ، ومَن قال: المسيحُ ابنُ الله، وعُزَيرٌ ابنُ الله، ومَن اعتقَدَ التَّشبيهَ كاليهودِ، وهؤلاءِ مُشركونَ كما تقدَّمَ مرارًا.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾؛ أي: النّاسَ ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾؛ أي: إليه أرجعُ في أُموري كلِّها.

---

(١) في (أ): «لا تنسخه».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٣١١) عن سائر العلماء، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٧٤) عن المفسرين.

(٣٧) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: كما أمرتُكَ أن تقولَ: «إنِّي عبدُ الله» أنزَلْنا هذا القرآنَ إليك، والهاءُ في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ كنايةٌ عن قولِه: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

وقيلَ: أي: كما أنزَلْنا الكتابَ على الأنبياءِ بلسانِهم، كذلك أنزَلْنا إليك القرآنَ بلسانِ العربِ.

﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ يُريدُ بالـحُكمِ: ما في القرآنِ منَ الأحكامِ، ثمَّ يُسمَّى ذلك الحكمُ عربيًّا لأنَّه نزلَ بلغةِ العربِ.

وقيلَ: أرادَ بالحكمِ العربيِّ: القرآنَ كلَّه؛ لأنَّ به يُفصَلُ بينَ الحقِّ والباطلِ ويُحكَمُ.

وقيلَ: أرادَ بالـحُكمِ العربيِّ: الذي أتى به النَّبيُّ ﷺ، جعلَه حُكمًا لأنَّه يُحكَمُ به، وهو عربيٌّ لأنَّه أتى به عربيٌّ.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾؛ أي: أهواءَ المُشركينَ في عبادةِ ما دونَ الله، وفي التَّوجُّهِ إلى غيرِ الكعبةِ بعدَما جاءَكَ منَ العلمِ ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ولا ناصرٍ، والخطابُ للنَّبيِّ والمُرادُ الأمَّةُ.

* * *

(٣٨) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ عادَ الكلامُ إلى ما اقترَحُوا منَ الآياتِ، وكانتِ اليهودُ عيَّرَتِ النَّبيَّ ﷺ وقالوا: ما نرَى لهذا الرَّجلِ همَّةً إلَّا النِّساءَ والنِّكاحَ،

ولو كان نبيًّا لشغَلَه أمرُ النُّبوّةِ عن النِّساءِ، فأنزلَ الله هذه الآيةَ[١]، وذكَّرَهم أمرَ داودَ وسليمانَ، وقال: لقد أرسلنا رسلًا من قبلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾؛ أي: جعَلْناهم بشرًا يقضُونَ ما أحلَّ الله من شهواتِ الدُّنيا، وإنَّما التَّخصيصُ في الوحيِ.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: إلّا بإيتاءِ[٢] الله إيَّاه تلك الآياتِ.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ أي: كتابةٌ مُثْبَتةٌ لا تتقدَّمُ ولا تتأخَّرُ.

وقال الفرَّاءُ: أي: لكلِّ أمرٍ كتبَه الله أجلٌ مُؤجَّلٌ ووقتٌ معلومٌ، قال: وهذا منَ المقلوبِ، كقولِه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، و(سكرةُ الحقِّ بالموتِ) في قراءة أبي بكرٍ رضيَ الله عنه[٣].

وبيَّـنَ أنَّ المـدارَ ليس علـى اقتـراحِ الأُممِ الآيـاتِ ونـزولَ العـذابِ، بل لكلِّ أجـلٍ كتابٌ.

***

(٣٩) - ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

قولُه: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾؛ أي: يمحُو من ذلك الكتابِ ما يشاءُ بأن يوقِعَه بأهلِه ويأتي به، ويُثبِتُ ما يشاءُ؛ أي: يُؤخِّرُه إلى وقتِه، يُقالُ: «محَوتُ الكتابَ محوًا»؛ أي: أذهَبْتُ أثرَه.

﴿وَيُثْبِتُ﴾؛ أي: يُثبِتُـه، كقولِـه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٤) عن الكلبي.

(٢) في (أ): «بإنباء».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٥). وانظر القراءة أيضاً في «المحتسب» لابن جني (٢/ ٢٨٣) وزاد نسبتها لسعيد بن جبير وطلحة.

[الأحزاب: ٣٥]؛ أي: والذّاكراتِ الله، قُرِئَ: ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[1].

وقيلَ: أي: يمحُو منَ الرِّزقِ ويزيدُ، ويمحُو السَّعادةَ والشَّقاوةَ، وهذا تغييرٌ يجري في اللَّوحِ المحفوظِ أو في بعضِ الجرائدِ، لا أنَّ علمَ الله يتغيَّرُ أو إرادتُه أو خبرُه.

وقيلَ: السَّعادةُ والشَّقاوةُ والخَلْقُ والخُلُقُ والرِّزقُ لا تتغيَّرُ، فالآيةُ فيما عدا هذه الأشياءِ. **وفي هذا القولِ نوعُ تحكُّمٍ.**

وقيلَ: يمحُو ويُثبِتُ ممَّا تصعدُ به الحفَظةُ من صحائفِ أعمالِ بني آدمَ، فيُثبِتُ ما فيه ثوابٌ وعقابٌ، ويُسقِطُ ما لا ثوابَ فيه ولا عقابَ.

وقيلَ: إذا وُلِدَ المولودُ أُثبِتُ أجلُه ورزقُه، وإذا ماتَ مُحِيَ.

وقيلَ: يُهلِكُ أقوامًا، ويُنشِئُ أقوامًا.

وقيلَ: يمحُو الذَّنبَ بالتَّوبةِ، ويُثبِتُ الحسناتِ.

وقيلَ: أرادَ بالمحوِ والإثباتِ النَّسخَ.

واعلم أنَّه لا تبديلَ لقضاءِ الله بهذا المحوِ والإثباتِ ممّا سبقَ به القضاءُ أيضًا.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: أصلُ ما كُتِبَ منَ الآجالِ وغيرِها.

وقيلَ: أمُّ الكتابِ: اللَّوحُ المحفوظُ، ولا تبديلَ في علمِ الله، أمَّا اللَّوحُ فقد قيلَ: يجري فيه التَّبديلُ.

وقيلَ: لا يجري، بل إنَّما يجري في الجرائدِ الأُخَرِ.

***

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو ساكنة الثاء خفيفة الباء، والباقون مفتوحة الثاء مشددة الباء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٤٠) - ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ لمَّا قال: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢]، قال: إنْ أَرَيناكَ بعضَ ما وعدناهُم أو توفَّيناكُ فليس عليك إلّا البلاغُ؛ أي: التَّبليغُ، وهو كالسَّراحِ والأداءِ بمعنَى التَّسريحِ والتَّأديةِ، فأمَّا العقابُ فمِنَّا، والحسابُ فعلَينا.

* * *

(٤١) - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾؛ أي: يأتيها أمرُنا بإهلاكِها.

وقيلَ: أرادَ فتوحَ الإسلامِ ودخولَ ما يدخلُ في أيدي المسلمينَ من بلادِ الكفرِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ كموتِ علمائِها وصُلَحائِها(١)، وعلى هذا فالأطرافُ: الأشرافُ، وقد قال ابنُ الأعرابيِّ: الطَّرَفُ والطَّرْفُ: الرَّجلُ الكريم(٢). **ولكنَّ هذا القولَ بعيدٌ**؛ لأنَّ مقصودَ الآيةِ: إنّا أريناهُم النُّقصانَ في أمرِهم ليعلموا أنَّ تأخيرَ العقابِ عنهم ليس عن عجزٍ، إلا أن يُحمَلَ قولُ ابنِ عبّاسٍ على موتِ أحبارِ اليهودِ والنَّصارَى.

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (ص: ٦٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧٨). وفيه طلحة بن عمرو، وهو متروك كما في «التقريب».

(٢) انظر: «المحيط في اللغة» (مادة: طرف).

ووجهُ الاحتجاجِ منَ الآيةِ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بُعِثَ فردًا، ثمَّ انضَمَّ إليه أقوامٌ وخافُوا المُشركينَ، وغلَبَ على كثيرٍ منَ القُرَى والقبائلِ، فلِمَ تستدعُونَ غلَبتَه على أنفُسِكم أيُّها المُشرِكونَ؟

﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾؛ أي: لا يتعقَّبُ أحدٌ حكمَه بالنَّقضِ.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ أي: سريعُ الانتقامِ منَ الكافرِ، وسريعُ الثَّوابِ للمُؤمنِ.

***

(٤٢) - ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

قولُه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أي: مكَرُوا بالرُّسلِ فنصَرَ الله رُسلَه، وهو الذي ينصُرُك أيضًا.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗا﴾؛ أي: هو مَن خلقِه وإرادتِه فلا يضرُّ المكرُ إلّا بإذنِه.

وقيلَ: فلِلَّهِ جزاءُ المكرِ؛ أي: يُجازيهم به.

﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾؛ أي: فيُجازي به ﴿وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ﴾ قيلَ: عنَى به: أبا جهلٍ.

وقيلَ: هو اسمُ الجنسِ، كما تقولُ: «كثُرَ الدِّرهمُ في أيدي النّاسِ».

وقُرِئَ: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾[1].

﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ أي: لمَن عُقبَى دارِ الدُّنيا ثوابًا وعقابًا، أو: لمَن الثَّوابُ والعقابُ في الدّارِ الآخرةِ.

---

(١) قرأ بها عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي، والباقون بالإفراد. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٤٣) ـ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾؛ أي: لـمّا لـم تأتِهم بما اقترحُوا ازدادُوا كفرًا.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾؛ أي: كفَى اللهُ ﴿شَهِيدًا﴾ بما أظهرَ منَ الآياتِ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؛ أي: وعلماءُ أهلِ الكتابِ الذينَ آمَنُوا بمحمَّدٍ ﷺ، وهذا احتجاجٌ على مُشرِكي العربِ لأنَّهم كانوا يرجعُونَ إلى أهلِ الكتابِ في كثيرٍ منَ الأشياءِ.

وقيلَ: احتجَّ على كفرةِ أهلِ الكتابِ بمَن آمَنَ منهم.

وفي التَّفاسيرِ: أنَّ الذي عندَه علمُ الكتابِ: عبدُ الله بنُ سلامٍ، وتميمٌ الدّارِيُّ، وسلمانُ الفارسيُّ، والنَّجاشيُّ وأصحابُه(١).

وقال ابنُ جُبَيرٍ: السُّورةُ مكِّيَّةٌ، وابنُ سلامٍ أسلمَ بالمدينةِ بعد هذه السُّورةِ(٢).

فلا يجوزُ أن تُحمَلَ هذه الآيةُ على ابنِ سلامٍ، فمَن عندَه علمُ الكتابِ جبريلُ، وهو قولُ ابنِ عبّاسٍ(٣).

وقال مُجاهدٌ: هو الله تعالى(٤).

---

(١) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٣)، عن قتادة.

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١١٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٦)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٣٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٨٩) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وعزاه الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١١٩)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٠٢) إلى سعيد بن جبير.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥)، والخلال في «السنة» (٨٦٨).

فعطَفَ (مَنْ) على اسمِ الله تعالى لزيادةِ معنًى في المعطوفِ، كما تقولُ: «قامَ عبدُ الله والظَّريفُ العاقلُ»، فتعطفُ لِـمَا تُريدُ من معنى المدحِ.

وقُرِئَ: (ومِنْ عندِه علمُ الكتابِ)[1]؛ أي: مِن عندِ الله تعالى.

***

---

(١) نسبت للنبي ﷺ، وعليٍّ وابن عباس وأبيٍّ رضي الله عنهم، وسعيد بن جبير وعكرمة، ومجاهد بخلاف، والحسن بخلاف، وعبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق والضحاك والحكم بن عتيبة، ورُويت عن الأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٢)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٣٥٨).

ورواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٤ـ ٥٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك.

وأما نسبتها للنبي ﷺ فقد قال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٦) بعد أن ذكر خبرًا مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ يؤيد هذه القراءة: وهذا خبر ليس له أصلٌ عند الثِّقات من أصحاب الزُّهري، فإذا كان ذلك كذلك، وكانت قراء الأمصار من أهل الحجاز والشَّام والعراق على القراءة الأخرى، وهي: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، كان التَّأويل الذي على المعنى الذي عليه قرَّاء الأمصار أولى بالصَّواب ممَّن خالفه، إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحق بالصواب.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

تفسيرُ سورةِ إبراهيمَ

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أخبرَ أوّلًا باسمِ السُّورةِ ثمَّ قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: هذا القرآنُ أنزَلْناه إليك، أو: هذا كتابٌ أنزَلْناه إليك ليس من جهةِ شيطانٍ، ولا أنتَ افترَيتَه كما يزعمُ الكفّارُ، بل نحنُ أنزَلْناه إليكَ على لسانِ جبريلَ.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: منَ الشِّركِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: إلى الإيمانِ، وإخراجُه إيّاهم: دُعاؤُه إيّاهم إلى الإيمانِ.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: بما أذِنَ الله لكَ في تعليمِهم وأَمَركَ به.

وقيلَ: إنَّما يخرجونَ منَ الكفرِ إلى الإيمانِ بإذنِ الله ومشيئَتِه.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ هو كقولِك: «خرجتُ إلى زيدٍ العاقلِ الفاضلِ» من غيرِ واوٍ؛ لأنَّهما شيءٌ واحدٌ، فكذلك قولُه: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾؛ لأنَّهما شيءٌ واحدٌ، والله هو العزيزُ المنيعُ في ملكِه وسُلطانِه، الحميدُ على ألسنةِ ملائكتِه وأنبيائِه وأوليائِه.

* * *

(٢) ـ ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قُرِئَ: ﴿اللهُ﴾ بالرَّفعِ، فهو مُبتدأٌ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُه، وقيلَ: ﴿ٱلَّذِى﴾ صفةٌ، والخبرُ مُضمَرٌ؛ أي: اللهُ الذي له ما في السَّماواتِ والأرضِ قادرٌ على كلِّ شيءٍ.

وقُرِئَ: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالخفضِ[1]، وهو بدلٌ منَ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، وليس صفةً؛ لأنَّ اسمَ الله صارَ كالعلَمِ فلا يُوصَفُ به كما لا يُوصَفُ بزيدٍ وعمرٍو، بل يجوزُ أن يُوصَفَ به من حيثُ المعنى؛ لأنَّ معناه أنَّه المُنفرِدُ بقُدرةِ الإيجادِ.

وقيلَ: قُدِّمَ النَّعتُ على المنعوتِ، كقولك: «مرَرْتُ بالظَّريفِ زيدٍ».

***

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ هو صفةُ (الكافرين)؛ إذ قال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾؛ أي: لله ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، فلا يجوزُ أن تُشرِكَ به غيرَه، فمَن أشركَ فويلٌ له من عقابِه، والمُشركونَ هم الذين يستَحِبُّونَ الحياةَ الدُّنيا.

وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ مُبتدأٌ، وخبرُه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾.

﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾؛ أي: يُؤثِرونَ الدُّنيا على الآخرةِ.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يُعرِضُونَ، أو: يمنَعُونَ النّاسَ عنه[2].

---

(١) قرأ نافع وابن عامر بالرفع، والباقون بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٢) «قوله: «أي: يُعرِضُونَ، أو: يمنَعُونَ...» إشارة إلى أن «صد» يكون لازماً ومتعدياً، فقوله: «يعرضون» =

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ السَّبيلُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، أي: يُدخِلُونَ الشُّبَهَ على النّاسِ، ويُهدِّدُونَهم لو آمَنُوا، ويُحرِّفُونَ الكتابَ عن وجهِهِ، ويُقبِّحونه عند الرّاغبينَ فيه، ويجتَهِدون ليجعَلُوا لدينِ الله عوجًا.

﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: في خُسرانٍ عظيمٍ، وخطأ بعيدٍ عن الحقِّ.

* * *

(٤) - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ بيَّنَ أنَّه أنزلَ عليه الكتابَ بيانًا للنّاسِ، ثمَّ قال: وكذلك كانتِ الرُّسلُ قبلَكَ، أرسَلْناهم ليُثبِّتُوا للنّاسِ أمرَ دينِهم، وجعَلْنا الرُّسلَ على ألسنةِ قومِهم.

واللِّسانُ هاهُنا بمعنَى اللُّغةِ، ووحَّدَ اللِّسانَ وإنْ أضافَه إلى القومِ لأنَّ المُرادَ اللُّغةُ، وهي اسمُ جنسٍ يقعُ على القليلِ والكثيرِ.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: لا شريكَ له في نُفوذِ المشيئةِ.

* * *

(٥) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أخبرَ أنَّه أرسلَ موسى بمثلِ ما أرسلَ به محمدًا بعدَه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بالتَّوراةِ، أو بالمُعجزاتِ.

= من معنى اللازم وهو: صَدَّ يَصُدُّ صدًّا، وقوله: «يمنعون..» من المتعدي، وهو: صَدَّ يَصُدُّ صدوداً.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: بأن أخرِجْ.

وقيلَ: ﴿أَنْ﴾ بمعنى «أي»، كقولِه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦]؛ أي: وانطَلَقَ الملأُ منهم: أي امشُوا، والمعنى: قالوا: امشُوا، وهذا كما قال لنبيِّنا عليه السَّلامُ: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ﴾؛ أي: بوقائعِ ﴿اللَّهِ﴾ في الأممِ السّالفةِ منَ النِّعَمِ والنِّقَمِ، يُقالُ: «فلانٌ عالـمٌ بأيّامِ العربِ»؛ أي: بوقائعِها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في ذلك التَّذكيرِ بآياتِ الله لدلالاتٍ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: على طاعةِ الله، وعن معاصيه ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعَمِ الله.

وفي الخبرِ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾؛ أي: بما أنعَمَ الله به عليهم منَ النَّجاةِ من فرعونَ، ومنَ التِّيهِ، إلى سائرِ النِّعَمِ[1].

***

(٦) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: واذكُروا إذ قال موسى لقومِه كذا.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ وقال في سورةِ البقرةِ: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩] من غير واوٍ؛ قال الفرّاءُ: أرادَ في البقرةِ تفسيرَ قولِه: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فلا يُحتاجُ فيه إلى الواوِ، وتقولُ: «أتاني القومُ زيدٌ وعَمرٌو»، فلا حاجةَ إلى الواوِ في «زيد»،

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٩٧) عن مجاهد.

ونظيرُه: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩] الأثامُ فيه نيَّةُ العذابِ ففسَّره بغيرِ واوٍ، وقال: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾، وهاهُنا أدخلَ الواوَ لأنَّ المعنى: يُعذِّبوكم بالذَّبحِ وغيرِ الذَّبحِ، فقولُه: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ جنسٌ آخرُ منَ العذابِ، لا تفسيرٌ لِما قبلَه[1]، وقولُه: ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾؛ أي: يحمِلُونكم على أنواعِ الأذى.

﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾؛ أي: يطلُبونَ حياتَهنَّ للاستِرقاقِ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾؛ أي: وفيما كان يفعلُ فرعونُ بكم من هذا ﴿بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: مِحنةٌ منَ الله غليظةٌ عظيمةٌ.

وقيلَ: في إنجائِنا إيّاكُم ابتِلاءٌ ونعمةٌ عظيمةٌ، وسمَّاه بلاءً؛ لأنَّه امتحانٌ للعبدِ ليتبيَّنَ شكرَه.

* * *

(٧) ـ ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾ «تأذَّنَ وأذَّنَ»؛ أي: أعلَمَ، ومثلُه «توعَّدَ وأوعَدَ»؛ أي: أعلَمَكُم ربُّكم: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ الشُّكرُ: الاعتِرافُ بنعمةِ المُنعمِ ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ أي: في النِّعمةِ.

﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ﴾؛ أي: جحَدْتُم حقِّي ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾؛ أي: ليس معه حياةٌ تنفعُ، ولا موتٌ يقطعُ الألـمَ ويدفعُ.

ثمَّ قيلَ: هو من قولِ موسى لقومِه.

وقيلَ: من قولِ الله؛ أي: واذكُرْ يا محمَّدُ إذ قال ربُّكم كذا.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦٨)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٠٦).

(٨) - ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ ﴾؛ أي: لا يَلحقُه بذلك نقصٌ، بل هو الغنيُّ ﴿ حَمِيدٌ ﴾؛ أي: محمودُ.

* * *

(٩) - ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

قولُه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾؛ أي: أخبِرْهم ليعتَبِروا بهم.

قيلَ: هو من قولِ موسى.

وقيلَ: هو ابتداءُ خطابٍ منَ الله تعالى.

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وأخبارُهم مشهورةٌ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي: لا يُحصي عددَهم، والنَّسَّابون وإن نسَبُوا إلى آدمَ فلا يدَّعُونَ إحصاءَ جميعِ الأُممِ، وإنَّما ينسُبون البعضَ ويُمسِكُونَ عن نسبِ البعضِ.

وقيلَ: لا يَعرفُ نسبتَهم إلّا الله، وقد صارَ أقوامٌ إلى أنَّ ما جاوزَ[1] عدنانَ لا يُعرَفُ على التَّحقيقِ.

وقال ابنُ مسعودٍ في هذه الآيةِ: كذبَ النَّسّابونَ[2].

---

(١) في (أ): «جاوزوا».

(٢) رواه هكذا موقوفاً على ابن مسعود: الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٤)، ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٧)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ١٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٥٢) عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن =

وقال عُروةُ بنُ الزُّبيرِ: ما وجَدْنا أحدًا يعرِفُ ما وراءَ عدنانَ[١].

وقال ابنُ عبّاسٍ: بينَ عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أبًا لا يُعرَفُونَ[٢].

فما فوقَ عدنانَ إذن انقطَعَتْ معرفتُهم عن النّاسِ إلّا مَن كان منَ الأنبياءِ الذين نوَّه الله بأسمائِهم. والذينَ قال الله فيهم: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لا يعلَمُهم النَّسّابُونَ.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ أضافَ إليهم لأنَّهم أُرسِلُوا إليهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمُعجِزاتِ، أو ببيانِ[٣] الأحكامِ.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: أولئكَ القومُ جعلوا أيديَ أنفُسِهم في أفواهِهم ليعضُّوها غيظًا ممّا جاءَ به الرُّسلُ، إذ كان فيه تسفيهُ أحلامِهم وشتمُ

= ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا انتهى إلى معد بن عدنان أمسك ثم يقول: «كذب النسابون قال الله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]». والكلبي وابنه متروكان وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما.

وروي موقوفاً أيضاً عن غير ابن مسعود، فقد رواه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١٣٥٧) عن عمر رضي الله عنه، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٤) عن عمرو بن ميمون.

(١) رواه ابن وهب في «الجامع» (٦)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٣٦)، وذكره النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٥١٨).

(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٥١٨)، ورواه أبو عبيد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٠)، ورواه خليفة بن خياط في «طبقاته» (ص: ٢٦) عن هشام بن محمد بن السائب قال: حدثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: بين مَعَدِّ بن عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم ثلاثون أباً. وهكذا ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٢٦): وليس هذا الإسناد بما يُقطع بصحته ولكنه عمن علم الأنساب صنعته.

(٣) في (ف): «أو سائر».

أصنامِهم، وهو كقولِه: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقيلَ: ردَّ الرُّسلُ أيديَ القومِ في أفواهِهم.

وقيلَ: أي: كانُوا إذا سمعُوا كلامَ الرَّسولِ أسكتُوه بالإشارةِ بأيديهم إلى أفواهِهم؛ أي: اسكُتْ عن هذا وكُفّ؛ ذكره ابنُ عباس (١).

وقيلَ: رَدَّ القومُ بأيديهم إلى أفواهِ الرُّسلِ وأطبَقُوها؛ أي: لم يسمَعُوا كلامَهم وقطَعُوه عليهم.

قال أبو عُبيدةَ: هو ضربُ مثَلٍ؛ أي: لم يُؤمِنُوا ولم يُجيبُوا، تقولُ للرَّجلِ إذا أمسَكَ عن الجوابِ فلم يُجِبْ: ردَّ يدَه في فمِه؛ أي: سترَ فاه بيدِه، وأوهَمَ أنَّه لم يدخُلْ هذا الكلامُ في قلبِه، ولا جوابَ له(٢).

وقال مُقاتلٌ: أخذوا أيديَ الرُّسلِ ووضعُوها على أفواهِ الرُّسلِ ليُسكِتُوهم ويقطَعُوا كلامَهم(٣).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤١١)، ورواه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٦٩) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «كانوا إذا جاءهم الرسول قالوا له: اسكت وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم كما تسكت أنت ـ قال: وأشار لنا الفراء بأصبعه السبابة على فيه ـ ردًّا عليهم وتكذيباً».

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٥/ ٣٥٨)، و«البسيط» (١٢/ ٤١٣).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤١١). وفي «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٩٩): «وضع الكفار أيديهم في أفواههم، ثم قالوا للرسل: اسكتوا فإنكم كذبة ـ يعنون الرسل ـ وإن العذاب ليس بنازل بنا في الدنيا». وحكاه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٢٦) عن المهدوي، وضعفه وقال: «وهذا عندي لا وجه له».

وقيلَ: وضَعُوا أيديَ أنفُسِهم على أفواهِ أنبيائِهم تكذيبًا لهم.

وقال قومٌ: الأيدي هاهُنا بمعنَى النِّعَمِ؛ أي: رَدُّوا نِعَمَ الرُّسلِ بأفواهِهم؛ أي: ردُّوا ما لو قبِلُوه لكانَ نِعمًا منَ الله عندَهم، ومجيءُ الرُّسلِ بالشَّرائعِ نِعَمٌ، والمعنى: كذَّبُوا بأفواهِهم بما جاءَتْ به الرُّسلُ، و﴿فِىٓ﴾ بمعنى الباءِ، يُقالُ: «جلستُ في البيتِ وبالبيتِ»، وحروفُ الصِّفاتِ يُقامُ بعضُها مُقامَ بعضٍ.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بالإرسالِ على زعمِكم، لا أنَّهم أقرُّوا بأنَّهم أُرسِلُوا.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: منَ التَّوحيدِ ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوْقِعٍ للرِّيبةِ؛ أي: نظُنُّ أنَّكم تطلُبون الملكَ والدُّنيا.

***

(١٠) ـ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ هو استفهامُ إنكارٍ؛ أي: لا شكَّ في الله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا تجوزُ العبادةُ إلّا له.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾؛ أي: إلى طاعتِه بالرُّسلِ والكتبِ.

﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عُبيدةَ: ﴿مِّن﴾ زائدةٌ[١]. وقال سيبويهِ: هي للتَّبعيضِ[٢]، ويجوزُ أن يُذكرَ البعضُ والمرادُ منه الجميعُ.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٣٦).

(٢) ذكر سيبويه في «الكتاب» (٤/ ٢٢٥) أن (مِن) قد تأتي للتبعيض، لكنه لم يذكر ذلك في الآية بالتحديد.

وقيلَ: ﴿مِّن﴾ للبدلِ؛ أي: لتكونَ المغفرةُ بدلًا منَ الذُّنوبِ.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: وليُعمِّرَكم إلى أجلٍ قد سمَّاه لكم، فلا يُعاجِلُكم بالعقابِ.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: اتِّباعُ الآباءِ أمثَلُ من اتِّباعِكم، وليس لكم سلطانٌ مبينٌ، وكان هذا محالًا منهم؛ لأنَّ الرُّسلَ ما دَعَوا إلَّا ومعهم المُعجِزاتُ.

* * *

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما قُلتُم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بإظهارِ المُعجزةِ على أيديهم، ونَصْبِهم رُسلًا.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: بحُجَّةٍ وآيةٍ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمشيئتِه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في دفعِ شرِّ مَن خالفَهم.

= وفي «البسيط» للواحدي (١٢/ ٤١٥ ـ ٤١٧): «قال أبو عبيدة: ﴿مِّن﴾ زائدة، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب، فإن حكمنا بزيادتها فهو ظاهر، وإن لم يُحكم بزيادتها فقال بعضهم هي: للتبعيض، وذُكِر البعضُ هاهنا وأُريد به الجميع توسعًا».

قولـه: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: فـي كـفِّ أذاكُـم وقـد أنعَـمَ علينـا بالهدايـةِ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ ثقـةً بـالله أنَّـه يكفينـا ويُثيبُنـا.

***

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ اللّامُ للقَسمِ؛ أي: والله لنُخرِجنَّكم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾؛ أي: حتَّى تعودُوا، أو: إلّا أن تعودُوا.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ أي: لمَّا خافُوا شرَّ الأعداءِ وعدَهم الله النَّصرَ.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ووعَدَهم[1] أن يُسكِنَهم ديارَهم من بعدِهم.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾؛ أي: ذلك الوعدُ للأنبياءِ والمُؤمنينَ، والمقامُ مصدرٌ كالقيامِ، يُقالُ: قامَ قيامًا ومَقامًا؛ أي: خافَ مقامَه بينَ يدَيَّ يومَ القيامةِ.

وقيلَ: ذلك لمَن خافَ قيامي عليه ومُراقبتي له، قال الله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ الوعيدُ: الاسمُ من أوعَدَ؛ أي: تهدَّدَ؛ أي: لمَن خافَ ما أوعَدْتُ منَ العقابِ.

***

(١) في (أ): «وعدهم».

(١٥) ـ ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾؛ أي: أُذِنَ للرُّسلِ في الاستفتاحِ على قومِهم فدَعَوا بهلاكِهم.

وقيلَ: قال الرَّسولُ: إنَّهم كذَّبوني، فافتَحْ بيني وبينَهم، وقالتِ الأمَّةُ: إنْ كان هؤلاءِ صادقين فعذِّبْنا، وهو[1] لفَرطِ الإنكارِ.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾؛ أي: كلُّ كافرٍ تجبَّرَ على الأنبياءِ، والجَبْرِيَّةُ والجَبْرُوَّةُ: التَّكبُّرُ.

﴿عَنِيدٍ﴾: مُخالفٍ، يُقالُ: «عندَ عن قومِه»؛ أي: تباعَدَ عنهم.

وقيلَ: هو منَ «العَنَدِ» وهو النّاحيةُ، و«عانَدَ فلانٌ»؛ أي: أخذَ في ناحيةٍ مُعرِضًا.

❊ ❊ ❊

(١٦) ـ ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ وَراءٌ: ما تـوارَى عنكَ واستقرَّ، فيُطلَقُ على خلفٍ وقُدّامٍ، فقيلَ: أي: من أمامِه جهنَّمُ يدخلُها.

وقيلَ: ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: من بعدِه؛ أي: عاقبتُه جهنَّمُ، كقولك: «وراءَكَ بردٌ شديدٌ»؛ أي: سيأتيكَ.

وقيلَ: أي: من وراءِ اليأسِ الذي تضمَّنَه قولُه: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، والمعنى: من بعدِ يأسِهم جهنَّمُ.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: يظُنُّه ماءً وهو صديدٌ، وهو ما يخرجُ من جوفِ

---

(١) في (أ): «وهذا».

الكفّارِ منَ القيحِ والدَّمِ، والمعنى: يُجعَلُ ماؤُه صديدًا؛ أي: ماءً كأنَّه صديدٌ، فلونُه لونُ الماءِ، وطعمُه طعمُ الصَّديدِ.

وقيلَ: من ماءٍ ذا صديدٍ.

* * *

(١٧) ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

قولُه: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يُقالُ: جرَعَ الماءَ وأجرَعَه وتجرَّعَه بمعنًى.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يُقالُ: ساغَ الشَّرابُ في الحلقِ يسوغُ سَوْغًا، وأساغَه الله إساغةً.

و﴿يَكَادُ﴾ صلةٌ؛ أي: ولا يسيغُه، كقولِه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]؛ أي: لم يرَها.

وقيلَ: لا يكادُ يُسيغُه؛ أي: يُسيغُه بعد إبطاءٍ، قال الله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ أي: فعَلُوا بعد إبطاءٍ، ولهذا قال: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ٢٠]، فهذا يدلُّ على الإساغةِ.

وقيلَ: أي: لم يُسغِ الجميعَ لمرارتِه(١).

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: من فوقِه ومن تحتِه وأمامَه ووراءَه، كقولِه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

---

(١) المعنى: ولا يُسيغ جمْعه؛ كأنه يَجْرع البعض، ولم يُسغ الجميع لمرارته، فوقع الجحدُ بعد إثباتِ التَّجرعِ على معنى إساغة الكل. انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٣٦).

وقيلَ: من كلِّ مكانٍ حتَّى من أطرافِ شعرِه.

وفيه إضمارٌ؛ أي: يأتيه ألَـمُ الموتِ من كلِّ عضوٍ من أعضائِه.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ بل يبقَى جسدُه، ولكنَّ الله يخلقُ فيه آلامًا كلُّ واحدٍ منها كألَـمِ الموتِ، وقد يُقالُ: «فلانٌ ميِّتٌ»؛ أي: كأنّه ميِّتٌ مـمَّا يلحقُه منَ البلاءِ.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: مُتواصلُ الآلامِ من غيرِ فُتورٍ.

* * *

(١٨) - ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ قال الفرَّاءُ: أي مثَلُ أعمالِ الذين كفَرُوا بربِّهم ﴿كَرَمَادٍ﴾ فحُذِفَ المُضافُ [اعتمادًا على ذِكْره بعدَ المضاف إليه]، وقد يُقدَّمُ المُضافُ إليه، ثمَّ يُؤتَى بالذي يُخبَرُ به عنه معه كقولِه: ﴿الذي أَحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]؛ أي: خلْقَ كلِّ شيءٍ(١).

وقال الزَّجَّاجُ: أي: مثَلُ الذين كفَرُوا فيما يُتلى عليكم أعمالُـهم كرمادٍ(٢).

وقيلَ: المثَلُ بمعنى الصِّفةِ؛ أي: صفةُ الذين كفروا بربِّهم أنَّ أعمالَـهم كرمادٍ.

واتَّصلَ هذا بقولِه: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، والمعنى: أعمالُهم

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٢)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٣٩ - ٤٤٠) والكلام وما بين معكوفتين منه. والمراد: أنه قد يقدم المضاف إليه دون المضاف، ثم يؤتى بهما معاً على سبيل البدل من الأول، كالآية المذكورة، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] المعنى: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودَّة.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٧)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٣٩).

مُحبَطةٌ، والرَّمادُ: ما بقيَ بعد احتراقِ الشَّيءِ؛ أي: كرمادٍ هاجَتْ به ريحٌ شديدةٌ في يومٍ كثيرِ الرِّيحِ، فكما لا يبقى منَ الرَّمادِ شيءٌ كذلك ما اكتسَبَه الكافرُ في حالِ كُفرِه من صلةِ رحمٍ وصدقةٍ، فكلُّ ذلك باطلٌ لا ثوابَ لشيءٍ منه.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾؛ أي: ذي عُصوفٍ؛ لأنَّ العُصوفَ للرِّيحِ لا لليومِ، وهو كما تقولُ: «يومٌ حارٌّ»؛ أي: ذو حرٍّ.

وقيلَ: أي: في يومٍ عاصفِ الرِّيحِ، فحُذِفَ لأنَّ الرِّيحَ في أوَّلِ الكلامِ.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: في الآخرةِ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾؛ أي: الخسرانُ الكبيرُ.

* * *

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: ألـم ينتهِ علمُكَ إليه، فهو رؤيةُ القلبِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿أنَّ اللهَ خالقُ السَّمواتِ والأرضِ﴾[1].

﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: كان له خلقُها.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ أي: هو قادرٌ على الإفناءِ كما قدرَ على الإنشاءِ.

﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يُقالُ: «أجَدَّ ثوبًا واستجَدَّه»؛ أي: أخذَه جديدًا، من: «جدَّه يجُدُّه»؛ أي: قطعَه، فالجديدُ الذي قُطِعَ عنه العملُ في ابتداءِ أمرِه، والمرادُ: بـخلقٍ جديدٍ أطوعَ منكم؛ إذ لو كانوا مثلَ الأوَّلين فلا فائدةَ في الإبدالِ.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بممتنعٍ.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٢١) - ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾.

قولُه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾؛ أي: برَزُوا من قُبورِهم، يعني: يومَ القيامةِ، وهذا ممّا سيقعُ، ولكنَّ المستقبلَ يُذكَرُ بلفظِ الماضي إذا عُلِمَ أنَّه سيكونُ قطعًا ويقينًا؛ أي: وخابَ كلُّ جبّارٍ عنيدٍ لمّا استفتَحُوا فأُهلِكُوا، ثمَّ بُعِثُوا للحسابِ فبَرَزُوا لله جميعًا لا يسترُهم عنه ساترٌ، والبَراز: المكانُ الواسعُ لظُهورِه، ومنه: «امرأةٌ بَرْزةٌ»؛ أي: تظهَرُ للنّاسِ، فمعنى (برَزُوا): ظهَرُوا من قُبورِهم ﴿لِلَّهِ﴾: لأجلِ أمرِ الله إيّاهم بالبُروزِ.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا ﴾؛ أي: الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا ﴾ عن عبادةِ الله: ﴿إِنَّا كُنَّا ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا ﴾ والتَّبعُ: جمعُ تابعٍ، مثلَ: «حارسٍ وحرَسٍ» و«خادمٍ وخدَمٍ».

وقيلَ: التَّبعُ مصدرٌ سُمِّيَ به؛ أي: كنّا ذَوي مُتابعةٍ.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: هل أنتم دافِعُونَ عنّا شيئًا منَ العذابِ.

﴿قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾ لأنَّهم دعَوهم إلى الضَّلالةِ، ولو كانَ الله هداهُم لدَعَوهم إلى الهُدى.

وقيلَ: أي: لو بيَّنَ الله لنا أشياءَ ندفعُ به العذابَ عن أنفُسِنا لبينّاه لكم، فالـهُدى بمعنى البيانِ.

وقيلَ: لو هَدانا الله إلى الجنّةِ لـهَديناكُم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ هذا ابتداءُ خبرٍ آخرَ؛ أي: سواءٌ علينا ﴿أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ من قولِهم: «حاصَ القومُ في الحربِ»؛ أي: زاغُوا عن العدُوِّ ففرُّوا؛ أي: ما لنا وجهٌ نتباعَدُ به عن النّارِ.

وقال مُقاتِلٌ: يقولون: تعالَوا نجزَعْ، فيجزَعُونَ خمسَ مئةِ سنةٍ فلا ينفَعُهم، فيقولون: تعالَوا نصبِرْ، فيصبِرونَ خمسَ مئةِ سنةٍ فلا ينفَعُهم، فيقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾[1].

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: لـمَّا فُرِغَ من سَوقِ أهلِ الجنّةِ إلى الجنّةِ وأهلِ النّارِ إلى النّارِ، وذلك لأنَّهم يلومُونَ إبليسَ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾ هذا اليومَ فصدَقَكم وعدَه ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ أنّه غيرُ كائنٍ ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ﴾ وعدَ الحقِّ.

قيلَ: هو إضافةُ الشَّيءِ إلى نعتِه، كقولِـهم: «مسجدُ الجامعِ»؛ أي: وعدَكم الوعدَ الحقَّ، قالَه الفرّاءُ[2].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣). وذكره عن مقاتل الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٩). وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٢٧ ـ ٦٢٨) معناه عن ابن زيد.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٣٠) و(٢/ ٥٥) و(٣/ ٧٦). وقد ذكر الفراء هذا المذهب في هذه المواضع لكن لم يذكره في هذه الآية.

وقال البصريُّونَ: وعدَكم وعدَ اليومِ الحقِّ، أو: وعدَكم الحقَّ، فذكرَ المصدرَ تأكيدًا، وفيه إضمارٌ؛ أي: وعدَكم وعدَ الحقِّ فصدَقَكم، فحذفَه لدلالةِ الحالِ عليه[١].

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾؛ أي: حجّةٍ، وقيلَ: لم أقهَرْكم على ما دَعَوتُكم إليه.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هو استثناءٌ مُنقطعٌ؛ أي: لكن دَعَوتُكم بالوسواسِ ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ باختيارِكم.

﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾؛ أي: أطعتُموني من غيرِ أنْ كان لي برهانٌ وسلطانٌ.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي بمُنقِذِكم[٢]، يُقالُ: «صرَخَ فلانٌ»؛ أي: استَغاثَ، يصرَخُ ويصرُخُ صَرْخًا وصُراخًا، وأصرَخْتُه؛ أي: أغَثتُه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ بفتحِ الياءِ؛ لأنَّ ياءَ الإضافةِ إذا سكنَ ما قبلَها تعيَّنَ فيها الفتحُ، مثلَ «هوايَ وعصايَ»، وإنْ تحرَّكَ ما قبلَها جازَ الفتحُ والإسكانُ، مثلَ «غُلامي وغُلامَتي».

وقرأ حمزةُ: ﴿بمُصرِخيِّ﴾ بكسرِ الياءِ[٣].

قال الفرَّاءُ: لعلَّه من وَهْمِ حمزةَ فإنَّه قلَّ مَن سلِمَ منهم عن خطأٍ، وقال: ويُمكِنُ أن يُقالَ على بُعدٍ: التَقَى ساكنانِ فخُفِضَ الأخيرُ منهما[٤].

وقال الزَّجّاجُ: هذه قراءةٌ رديئةٌ لا وجهَ لها إلّا وجهٌ ضعيفٌ ذكرَه بعضُ النَّحويِّين

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٥١).

(٢) في (أ): «أي: بمبعدكم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (٢: ١٣٤).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٥)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٧).

ـ يعني: الفرَّاءَ ـ، ولو كان ﴿بِمُصرِخيِّ﴾ بالجرِّ لجازَ «هي عصايِ» بالكسرِ[١].

وهو على ما ذكرَه الفرَّاءُ جائزٌ.

وقال أبو عليٍّ: قال قُطربٌ: هذه لغةُ بني يربوعٍ، يزيدونَ على ياءِ الإضافةِ ياءً[٢].

قال أبو عليٍّ: الهاءُ قد لحقَتْها الزِّيادةُ في قولكَ: «هذا الشَّيءُ لَـهُو»، و«ضرَبَهو»، وكذلك الكافُ في قولِك: «أعطَيتُكاه، وأعطَيتُكِيه»، وكذلك ألحقُوا الياءَ الزّائدةَ فقالوا: «فيِّي»، ثمَّ تُحذَفُ كما تُحذَفُ الزِّيادةُ في قولِك: «أعطيتُكه»، وأُقرَّتِ الكسرةُ التي تلي الياءَ المحذوفةَ[٣].

وهذا حسَنٌ.

والذي يُغني عنه: أنَّ ما ثبتَ بالتَّواترِ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ فلا يجوزُ أن يُقالَ: هو خطأٌ، أو قبيحٌ، أو رديءٌ، بل في القرآنِ فصيحٌ، وفيه ما هو أفصحُ، فلعلَّ هؤلاءِ أرادُوا أنَّ غيرَ هذا الذي قرأ به حمزةُ أفصَحُ[٤].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٩).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨).

(٣) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٨ ـ ٣٠)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٤٥٨).

(٤) قال أبو حيان في «البحر المحيط»: وما ذهب إليه مَن ذكرنا مِن النحاة [يعني: الذين طعنوا في القراءة] لا ينبغي أن يلتفت إليه، لأن هذه قراءة متواترة نقلها السلف واقتفى آثارهم فيها الخلف، فلا يجوز أن يقال فيها: إنها خطأ، أو قبيحة، أو رديئة، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكنه قلَّ استعمالها، ونص قطرب على أنها لغة في بني يربوع، وقال القاسم بن معن وهو من رؤساء النحويين الكوفيين: هي صواب، وسأل حسين الجعفي أبا عمرو بن العلاء ـ وذكر له تلحينَ أهل النحو ـ فقال: هي جائزة، وقال أيضاً: لا تبالي إلى أسفل حرَّكْتَها أو إلى فوق.

وعنه أنه قال: هي بالخفض حسنة. وعنه أيضاً أنه قال: هي جائزة، وليست عند [أهل] الإعراب بذاك.

=

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بإشراكِكُم إيّايَ مع الله في الطّاعةِ.

وقيلَ: أي: إنِّي كفرتُ بالله الذي أشركتُموني به من قبلِكم فـ(ما) على هذا بمعنى «مَنْ»، وعلى الأوَّلِ بمعنَى المصدرِ.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين وضعُوا العبادةَ في غيرِ موضِعِها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مُؤلِـمٌ.

* * *

(٢٣) - ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ لـمَّا أخبَر بحالِ أهلِ النّارِ أخبرَ بحالِ أهلِ الجنّةِ أيضًا.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بأمرِه، وقيلَ: بمشيئتِه وتيسيرِه.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ أي: يُحيِّيهم اللهُ والملائكةُ ويُحيِّي بعضُهم بعضًا بالسَّلامِ؛ أي: يدعُونَ لهم بدوامِ السَّلامةِ من كلِّ آفةٍ.

* * *

(٢٤ - ٢٥) - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ ذكرَ مَثَلَ أعمالِ الكفّارِ وأنَّها كرمادٍ اشتدَّتْ

= ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم على أبي عمرو تحسينها، فأبو عمرو إمام لغة، وإمام نحو، وإمام قراءة، وعربي صريح، وقد أجازها وحسنها.

به الرِّيحُ، ثمَّ ذكرَ مثلَ أقوالِ المُؤمنين وغيرِهم كيفَ ضربَ الله مثلًا؛ أي: بيَّنَ شبهًا ثمَّ فسَّرَ ذلك المثَلَ فقال:

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: «لا إلهَ إلّا الله»(١).

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ أي: النَّخلةِ؛ أي: كشجرةٍ طيِّبةِ الثَّمرةِ، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه.

﴿أَصْلُهَا﴾؛ أي: أصلُ هذه الشَّجرةِ ﴿ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا﴾؛ أي: أعلاها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: عُروقُها تشربُ منَ الأرضِ وتسقيها السَّماءُ من فوقِها، فهي زاكيةٌ ناميةٌ.

﴿تُؤْتِي﴾؛ أي: هذه الشَّجرةُ ﴿أُكُلَهَا﴾؛ أي: ثمرَها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾؛ أي: كلَّ سنةٍ، والحينُ: وقتٌ منَ الزَّمانِ.

وقيلَ: أي: كلَّ غدوةٍ وعشيَّةٍ، فشُبِّه الإيمانُ في قلبِ المُؤمنِ بالنَّخلةِ في المنبَتِ، وشُبِّه ارتفاعُ عملِه إلى السَّماءِ بارتفاعِ فروعِ النَّخلةِ وثوابِ الله له بالثَّمرةِ.

وقيلَ: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾؛ أي: في كلِّ وقتٍ في جميعِ السَّنةِ على الدَّوامِ، والمُؤمنُ كذلك لا يخلو من خيرٍ.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ: الشَّجرةُ الطَّيبةُ: شجرةٌ في الجنّةِ تُثمِرُ في كلِّ وقتٍ، والشَّجرةُ الخبيثةُ: شجرةٌ لم تُخلَقْ على الأرضِ(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤١)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٩٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤١) مقتصرًا على قوله: «هي شجرة في الجنة»، وقد ورد في الحديث الصحيح ما يدل على أن هذه الشجرة هي النخلة، فقد روى البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: =

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ فيدُلُّ على الأشياءِ الغائبةِ بالمحسوساتِ.

* * *

(٢٦) - ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

قولُه: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: الشِّركَ ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ أي: غيرِ زاكيةٍ.

وقيلَ: ثمرتُها غيرُ مُستطابةٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: في روايةٍ: يعني الثُّومَ[١]، وفي روايةٍ: الكُشُوث[٢].

وقيلَ: الحنظلُ[٣].

﴿اجْتُثَّتْ﴾؛ أي: اقتُلِعَتْ وأُخِذَتْ جثَّتُها بكمالِها ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾؛ أي: ليس لها أصلٌ راسخٌ تشربُ بعروقِه منَ الأرضِ.

﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾؛ أي: من أصلٍ في الأرضِ، والقَرارُ: مصدرٌ سُمِّيَ به المُستَقَرُّ، بيَّنَ أنَّ الكفرَ لا ثباتَ له.

= رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟»، فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة».

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٦٩) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٦٩) من رواية مقاتل عن الضحاك، وقوله: و«الكشوث» بالثاء المثلثة: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. انظر: «الصحاح» (مادة: كشث).

(٣) روي عن النبي ﷺ؛ رواه الترمذي (٣١١٩) عن أنس رضي الله عنه، مرفوعًا وموقوفًا، ورجح الموقوف. وروى المرفوع أيضًا أبو يعلى في «مسنده» (٤١٦٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥).

وقيلَ: يرجعُ المثَلانِ إلى: الدُّعاءِ إلى الإيمانِ، والدُّعاءِ إلى الشِّركِ؛ لأنَّ الكلمةَ يُفهَمُ منها القولُ والدُّعاءُ إلى الشَّيءِ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

قولُه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هو «لا إلهَ إلا الله»[١].

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي ما داموا في الدُّنيا ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾؛ أي: في القبرِ؛ لأنَّ مَن دُفِنَ ظهرَتْ له أحكامُ الآخرةِ، والآيةُ وردَتْ في سؤالِ القبرِ وتلقينِ الله المؤمنَ كلمةَ الحقِّ.

ثمَّ قيلَ: يُثبِّتُهم بهذه الكلمةِ.

وقيلَ: يُثبِّتُ الله الذين آمَنُوا بـ«لا إلهَ إلا الله» على الحقِّ في الدُّنيا والآخرةِ.

وقيلَ: يُثبِّتُهم في الدَّارَينِ جزاءً لهم على القولِ الثَّابتِ.

وقال القفَّالُ وجماعةٌ: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي: في القبرِ؛ لأنَّ الموتَى في الدُّنيا إلى[٢] أن يُبعَثُوا ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾؛ أي: عندَ الحسابِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٥). وروى البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١)، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إذا أقعد المؤمن في قبره أتي، ثم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾.».

(٢) في (أ): «إلا».

وقيلَ: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾؛ أي: بخبرِه الأزَليِّ بإيمانِهم، فإنَّ السَّعيدَ مَن أسعدَه الله.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يُلقِّنُهم كلمةَ الحقِّ، فإذا سُئِلُوا في قُبورِهم قالوا: لا ندري، فيقولُ الملَكُ لمَن قال: «لا أدري»: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ[١].

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من عذابِ قومٍ وإضلالِ قومٍ.

***

(٢٨ - ٢٩) - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ مُشركي مكّةَ، كفروا بالله[٢].

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾؛ أي: أتباعَهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ أي: الهلاكِ، يُقالُ: «رجلٌ بائرٌ»، و«قومٌ بُورٌ»، ودارُ البوارِ: جهنَّمُ.

وقال عليٌّ في هذه الآيةِ: هم الأفجَرانِ من قُريشٍ: بنو أميّةَ، وبنو مخزومٍ، فأخزاهُم الله يومَ بدرٍ؛ أي: بدَّلوا نعمةَ الله عليهم بمحمَّدٍ ﷺ فكفَرُوا[٣].

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري (١٣٣٨) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «العبد إذا وضع في قبره وتولي وذهب أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنة. قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً، وأما الكافر، أو المنافق، فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين».

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٠)، ولفظه: «هم كفار أهل مكة».

(٣) رواه سفيان في «تفسيره» (٤٦٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٤١٠) و(٢٩٧٠)، والطبري في =

وقيلَ: عنَى النِّعمةَ على التَّعميمِ.

قولُه: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيَّنَ أنَّ دارَ البوارِ جهنَّمُ.

* * *

(٣٠) ـ ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.

قولُه: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾؛ أي: عبَدُوا الأصنامَ ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قُرِئَ بضمِّ الياءِ، وقُرِئَ بفتحِها[1]؛ أي: عاقبتُهم الإضلالُ والضَّلالُ، فهذه لامُ العاقبةِ.

﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ ﴾ هذا وعيدٌ لهم، وهو إشارةٌ إلى تعليلِ ما هم فيه من ملاذِّ الدُّنيا.

* * *

(٣١) ـ ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾.

قولُـه: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ أي: إنَّ أهـلَ مكّـةَ بدَّلـوا نعمـةَ الله بالكفـرِ، فقُـلْ لمَـن آمنَ وحقَّـقَ عبوديَّتَـه أنْ ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ أي: قل لهـم: أقيمُوا، والأمرُ معـه شـرطٌ مُقدَّرٌ، تقولُ: «أطـعِ اللهَ يُدخِلْكَ الجنّـةَ»؛ أي: إنْ أطعتَـه يُدخِلْكَ الجنّةَ،

= «تفسيره» (١٣/ ٦٧٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٧٢٦).

وروي مثله عن عمر رضي الله عنه، رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٦٩).

(١) قـرأ بفتح اليـاء ابن كثير وأبـو عمرو، والباقـون بضمها. انظر: «السـبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسـير» (ص: ١٣٤).

فالتَّقديرُ في هذه الآيةِ: «إنْ تقُلْ لهم يُقيمُوا»، هذا قولُ الفرَّاءِ(١).

وقال الزَّجّاجُ: ﴿يُقِيمُواْ﴾ مجزومٌ بمعنَى اللّامِ؛ أي: ليُقيمُوا، فأُسقِطَت اللّامُ لأنَّ الأمرَ دلَّ على الغائبِ بـ«قُلْ».

ويجوزُ أن تقولَ: «قُلْ لزيدٍ يضربْ عمرًا»، و: «قُلْ لزيدٍ ليضرِبْ عمرًا»، ولا يجوزُ «يضرِبْ زيدٌ عمرًا» بالجزم حتَّى تقولَ: «ليَضرِبْ»؛ إذ لا عوضَ هاهُنا، بخلافِ قولك: «قُلْ».

قال: ويحتملُ أن يُقالَ: ﴿يُقِيمُواْ﴾ جوابُ أمرٍ محذوفٍ؛ أي: قُلْ لهم: أقيمُوا الصَّلاةَ يُقيمُوا الصَّلاةَ(٢).

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أرادَ الفداءَ ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾؛ أي: لا مُخالَّةَ تنفعُ، وقد قالَ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فأثبتَ المُخالَّةَ للمُتَّقينَ، ولكنَّه يومٌ طويلٌ، ففي بعضِ أوقاتِه يشتغلُ كلُّ خليلٍ عن خُلَّةِ خليلِه، وفي بعضِها تَظهرُ مخالَّةُ المتَّقينَ.

***

(٣٢ - ٣٣) - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: هذه النِّعمُ منَ الله، فلِمَ تُبدِّلونَ نعمةَ الله بالكفرِ؟ وهلَّا استَعَنتُم بها على الطّاعةِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٧)، وهذا معنى كلام الفراء وشرحه. انظر: «البسيط» (١٢/ ٤٧٦ - ٤٧٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٦٢ - ١٦٣).

قولُه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾؛ أي: في إصلاحِ ما يُصلحانِه منَ النَّباتِ وغيرِه، والدُّؤوبُ: مرورُ الشَّيءِ في العملِ على عادةٍ جاريةٍ.

وقيلَ: دائبَينِ في السَّيرِ امتثالًا لأمرِ الله.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾؛ أي: لتسكُنوا في اللَّيلِ، ولتبتَغُوا من فضلِه بالنَّهارِ.

***

(٣٤) - ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾.

قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾؛ أي: من كلِّ مسؤولٍ شيئًا، فالمفعولُ محذوفٌ.

وقيلَ: ﴿مِّن ﴾ زائدةٌ؛ أي: آتاكُم كلَّ ما سألتُموه.

وقيلَ: من كلِّ ما سألتُموه وما لـم تسألوه؛ لأنَّا لـم نسألْه شمسًا ولا قمرًا، ولا كثيرًا من نعمِه التي ابتدَأَنا بها.

وقيلَ: آتاكُمْ من كلِّ ما تشتَهُونَ، تقولُ: «أعطَيتُ فلانًا سُؤلَه»؛ أي: ما اشتَهاه.

وقيلَ: إذا سألَ المُؤمنُ شيئًا وطلَبَه منَ الله أعطاه ذلك أو ما هو أصلَحُ له منه، فإذَنْ قد آتاه ما به حاجةٌ إليه، وهو كقولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]؛ أي: لكلِّ شيءٍ بكم حاجةٌ إليه.

وقُرِئَ: (من كلٍّ) بالتَّنوينِ[١]؛ أي: من كلٍّ لم تسألُوه كالشَّمسِ والقمرِ وغيرِهما.

---

(١) نسبت لابن عباس والحسن والضحاك ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٣)، ونسبت ليعقوب من العشرة في غير المشهور عنه، وهي قراءة شاذة. انظر: «شواذ القراءات» لشمس القراء =

وقيلَ: أي: من كلِّ الأشياءِ ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾؛ أي: الذي سألتُموه.

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي: إنعامَ اللهِ، وأقام الاسمَ مُقام المصدرِ ولهذا قال: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّها في مذهبِ المصدر.

﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي: لا تقومُوا بحصرِها لكثرتِها، وقيلَ: لا تُطيقُوا عدَّها.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسانُ لفظُ جنسٍ، وأرادَ به الخصوصَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ أبا جهلٍ[١].

وقيلَ: جميعَ الكفّارِ.

* * *

(٣٥) - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؛ أي: ألم ترَ إلى الذين بدَّلُوا نعمةَ الله كفرًا، وألم ترَ إذ قال إبراهيمُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؟ أي: احكُمْ بأنَّه آمنٌ.

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ أي: ثبِّتْنا على التَّوحيدِ.

قال الفرَّاءُ: «جَنَبَني يجنُبُني» بالتَّخفيفِ لغةُ الحجازِ، وأهلُ نجدٍ يقولون: أُجنُبْني شرَّه[٢].

= الكرماني (ص: ٢٦١)، و«زاد المسير» (٢/ ٥١٤).

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٨٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٨).

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ هذا دعاءٌ لمَن أذِنَ الله في أن يدعُوَ له، وقيلَ: أرادَ بَنِيه من صُلبه.

والصَّنمُ: الصُّورةُ التي تُعبَدُ، والجمعُ: «أصنامٌ».

***

(٣٦) - ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ضلَّ بسببِهنَّ كثيرٌ منَ النّاسِ؛ فإنَّ الأصنامَ جماداتٌ لا تعقلُ.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾؛ أي: في التَّوحيدِ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾؛ أي: من جملةِ أصحابي.

﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إنْ تابَ وآمنَ، أو: ومَن عصاني فيما دونَ الشِّركِ فإنَّك غفورٌ له إنْ شئتَ.

وقيلَ: قال هذا قبلَ أن يُعرِّفَه الله أنَّ الله لا يغفرُ الشِّركَ.

وقيلَ: مَن عصاني وأصرَّ على الشِّركِ فأنتَ قادرٌ على أن تغفرَ له بأن تنقُلَه إلى الإسلامِ.

وقيلَ: فإنَّك غفورٌ فلا تعاجِلُهم.

***

(٣٧) - ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ أي: بوادي مكّةَ، وليس ثَمَّ زرعٌ، و﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ؛ أي: أسكَنْتُ بعضَ ذُرِّيَّتي، يعني: إسماعيلَ وأمَّه.

وقيلَ: ﴿مِن﴾ تأكيدٌ؛ أي: أسكَنْتُ ذُرِّيَّتي عند بيتِكَ المُحرَّمِ الذي كان قبلَ أن ترفعَه وقتَ الطُّوفانِ.

وقيلَ: عند بيتِكَ المُحرَّمِ الذي سبقَ حكمُك بأنَّه مُحدَثٌ في هذا الوادي، وكان الله أعلَمَه مكانَ البيتِ.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: ليُطيعوكَ غيرَ مُشركين.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أفئدةَ جماعةٍ منَ النّاسِ ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تنزِعُ إليهم.

قال مُجاهدٌ: لو قال: أفئدةَ النّاسِ لازدَحَمَتْ عليه فارسُ والرُّومُ والتُّركُ والهندُ واليهودُ والنَّصارى والمجوسُ، ولكنْ قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المُسلمون[1].

يُقالُ: «هَوَى يهوِيْ هَوِيًّا»؛ أي: سقطَ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، فقولُه: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تُسرِعُ إليهم وتحِنُّ إلى زيارةِ البيتِ.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: التي تكونُ في بلادِ الرِّيفِ حتَّى تجيءَ إليها الثَّمراتُ منَ النَّواحي ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ليشكُروكَ.

ثمَّ إنَّ الله استجابَ دُعاءَه وأنبتَ لهم بالطّائفِ سائرَ الأشجارِ.

* * *

(٣٨) ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾؛ أي: ليس يخفى عليك شيءٌ من أحوالِنا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥٨٣٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤١٥٦)، بذكر فارس والروم فقط.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هـذا مـن قـولِ إبراهيمَ، وقيـلَ: من قـولِ الله تبارَكَ وتعالى.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾.

قولـه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾: علـى كبرِ سِـنّي وسِـنِّ امرأتي.

قال ابنُ عبّاسٍ: وُلِدَ له إسماعيلُ وهو ابنُ تسعٍ وتسعينَ سنةً، وإسحاقُ وهو ابنُ مئةٍ واثنَي عشرَ سنةً[1].

وقيلَ: ابنُ مئةٍ وسبعةَ عشرَ سنةً[2].

* * *

(٤٠) ـ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾.

قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾؛ أي: منَ الثّابتين على الإسلامِ والتزامِ أحكامِه.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾؛ أي: واجعَلْ من ذُرِّيَّتي مَن يُقيمُ الصَّلاةَ.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾؛ أي: عبادَتي؛ فإنَّ الدُّعاءَ مخُّ العبادةِ.

وقيلَ: كرَّرَ مسألةَ اللهِ إجابةَ دعواتِه.

* * *

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٠٤)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٩٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٠٢) عن سعيد بن جبير.

(٤١) ـ ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾.

قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ كان هذا قبلَ أن يتبيَّنَ له أنَّ أباه عدوٌّ الله، ولا يبعُدُ أنَّ أمَّه كانت مسلمةً؛ لأنَّ الله ذكرَ عُذرَه في استغفارِه لأبيه دونَ أمِّه.

وقيلَ: استغفَرَ لهما طمَعًا في أن يهديَهما الله إلى الإسلامِ.

وقيلَ: استغفَرَ لهما بشرطِ أن يُسلِما.

وقيلَ: أرادَ آدمَ وحوّاءَ.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ تناوَلَ بدُعائِه جميعَ المؤمنين.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾؛ أي: يقعُ الجزاءُ بالسَّيِّئاتِ والحسناتِ، يُقالُ: «قامَتِ الصَّلاةُ»؛ أي: حضرَ وقتُها.

***

(٤٢) ـ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ بعد أن عجَّبَه من أفعالِ المُشركينَ ومُخالفتِهم دينَ إبراهيمَ؛ أي: اصبرْ كما صبرَ إبراهيمُ، وأعلَمَ المُشركينَ أنَّ تأخيرَ العذابِ ليس للرِّضا بأفعالِهم، بل سنّةُ الله إمهالُ العُصاةِ مدّةً.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾؛ أي: ليومِ القيامةِ، وهو اليومُ الذي تشخَصُ فيه الأبصارُ، يُقالُ: «شخَصَ الرَّجلُ بصرَه»، و: «شخَصَ البصرُ نفسُه»؛ أي: سما وطمَحَ من هولِ ما يرى.

قال ابنُ عبّاسٍ: تشخَصُ أبصارُ الخلائقِ يومَئذٍ إلى الهواءِ؛ لشدّةِ الحيرةِ فلا يغمَضونَ(١).

***

(٤٣) ـ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

قولُه: ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مُسرِعينَ إلى داعي الرَّحمنِ.

وقيلَ: يُسرِعُونَ لأنّهم يُساقونَ، يُقالُ: «أهطَعَ البعيرُ في سيرِه»؛ أي: أسرَعَ.

وقيلَ: المُهطِعُ الذي ينظرُ في ذلٍّ وخُشوعٍ؛ أي: ناظرينَ من غيرِ أن يَطرِفُوا، قالَه ابنُ عبّاسٍ(٢).

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ يُقالُ: «أقنَعَ رأسَه»؛ أي: رفعَ بصرَه إلى السَّماءِ؛ أي: يُسرِعُونَ إلى الدّاعي، وقبلَ أن يدعُوَهم يكونونَ مُقنِعي رُؤوسِهم نحوَ السَّماءِ لانفِتاحِ أبوابِ السَّماءِ ونُزولِ الملائكةِ، قال الله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩].

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: لا ترجعُ إليهم أبصارُهم من شدّةِ النَّظرِ.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾؛ أي: جُوفٌ لا عقولَ لها من شدّةِ الأهوالِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: أفئِدتُهم ذاتُ هواءٍ وخلاءٍ.

وقيلَ: قلوبُهم منحوتةٌ كأنَّها نُزِعَتْ عنهم.

وقيلَ: أفئِدَتُهم خاليةٌ من كلِّ سرورٍ، ومثلُه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠]؛ أي: من كلِّ شيءٍ إلا همَّ مُوسى.

---

(١) انظر: «البسيط» (١٢/ ٤٩٤)، وقول ابن عباس ينتهي عند قوله: «إلى الهواء»، والباقي شرح من كلام الواحدي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٥١).

وقيلَ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾؛ أي: خرجَتْ من مواضعِها إلى القلوبِ والحناجرِ.

***

(٤٤ ـ ٤٥) ـ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: لا تحسَبْ أنَّ الله غافلٌ، إنَّما يُؤخِّرُهم ليومِ الحسابِ فاشتغِلْ أنتَ بإنذارِهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

قال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ بالنّاسِ أهلَ مكّةَ، قال: ولو أنّهم اتَّبعُوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ، أو لو أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرةِ آمنَ به، لَـمَا اختلَفَ عليه اثنانِ(١).

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: أنذِرْهم ذلك اليومَ، وليس يُريدُ إنذارَهم في ذلك اليومِ.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: فيقولون في ذلك اليومِ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ يسألونَ الرُّجوعَ إلى الدُّنيا ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾.

فيُقالُ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾: من انتقالٍ إلى الآخرةِ، وهو كقولِه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، والمعنى: كنتُم في مَهلٍ هلّا آمنتُم، وإنَّما طلَبُوا الرَّدَّ إلى الدُّنيا لأنَّ الآخرةَ ليست دارَ تكليفٍ، وإنَّما يسألونَ هذه المهلةَ يومَ القيامةِ، وقيلَ: عند حضورِ الموتِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٠٤).

قولُه: ﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾؛ أي: بلادَ ثمودَ ونحوَها، فهلّا اعتبَرْتُم بمساكنِهم بعدَما تبيَّنَ لكم ما فعَلْنا بهم، وبعد أن ضرَبْنا لكم الأمثالَ في القرآنِ.

***

(٤٦) ـ ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين بدَّلوا نعمةَ الله كُفرًا، أو: هؤلاءِ[1] الذين سكنتُم في مساكنِهم وقد ظلَمُوا أنفُسَهم، قد مكرُوا مكرَهم، فعلى الأوَّلِ هو أنْ مَكَرَ أهلُ مكّةَ بالنَّبيِّ ﷺ، وهمُّوا بقتلِه أو نفيِه.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾؛ أي: هو عالمٌ بذلك فيُجازيهم، أو: عند الله جزاءُ مكرِهم، فحُذِفَ المضافُ.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسرِ اللّامِ؛ أي: ما كانَ مكرُهم مكرًا يكونُ له أثرٌ وخطرٌ عندَ الله، فالجبالُ مثَلٌ لأمرِ النَّبيِّ ﷺ ومُعجزاتِه.

وقيلَ: أي: وإنْ كان مكرُهم في تقديرِهم لِتزولَ منه الجبالُ ويُؤثِّرَ في إبطالِ الإسلامِ.

وقُرِئَ: ﴿لَتزولُ﴾ بفتحِ اللّامِ الأولى وضمِّ الثّانيةِ[2]؛ أي: كانَ مكرًا عظيمًا تزولُ منه الجبالُ، ولكنَّ الله حفِظَ رسولَه ﷺ، وهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]، والجبالُ لا تزولُ، ولكنَّ العبارةَ عن تعظيمِ الشَّيءِ هكذا يكونُ.

وقيلَ: أي: وإنْ كان مكرُهم لتزولَ منه الجبالُ في تقديرِهم، فلم ينفَعْهم ذلك.

---

(١) في (أ): «كفراً وهؤلاء».

(٢) قرأ بها الكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

وفي التَّفاسيرِ: أنَّه أرادَ بهذا قصَّةَ نُمْروذَ مع التّابوتِ والنُّسورِ، وأنَّ الجبالَ حين سمِعَتْ حفيفَ النُّسورِ والتّابوتِ عند هُبوطِها ظنَّتْ أنَّ القيامةَ قامَتْ.

وقد رُوِيَ هذا عن عليٍّ رضيَ الله عنه(١).

وقال مجاهدٌ: الذي اتَّخذَ التّابوتَ بُختَنَصَّرُ(٢).

وهذا جائزٌ بتقديرِ خلقِ الحياةِ في الجبالِ.

***

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قولُه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾؛ أي: يُخلِفُ رُسلَه وعدَه.

قولُه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو صفةٌ لقولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، أو أرادَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾.

---

(١) رواه عن علي رضي الله عنه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧١٨)، ورواه أيضًا عن سعيد بن جبير ومجاهد، ورواه الطبري أيضًا (١٤/ ٢٠٣) عن السدي، وذكره الثعلبي «تفسيره» (١٥/ ٤١٢ ـ ٤١٤)، وفي خبر مجاهد أنه بختنصر، وكيف كان، فقد رد العلماء هذه القصة، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٦): «وذلك عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه في مثل هذا».

وقال الخازن في «تفسيره» (٣/ ٤٥): «واستبعد العلماء هذه الحكاية وقالوا: إن الخطر فيه عظيم، ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم، وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه، ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة».

(٢) انظر التعليق السابق.

ثمَّ قيلَ: هذا التَّبديلُ تبديلُ الهيئةِ والوصفِ، فتسيرُ الجبالُ وتُفجَّرُ البحارُ.

وفي الخبرِ: «يُبدِّلُ الله الأرضَ غيرَ الأرضِ، فيبسُطُها ويمُدُّها مدَّ الأديمِ العُكاظِيِّ، لا ترَى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا»[١].

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾؛ أي: وتُبدَّلُ السَّماواتُ، فتكونُ مرّةً كالمُهلِ، ومرّةً كالدِّهانِ، وتتكوَّرُ الشَّمسُ وتتناثَرُ النُّجومُ.

وقيلَ: هذا التَّبديلُ تبديلُ العينِ، فتُبدَّلُ هذه الأرضُ بأرضٍ كالفِضّةِ البيضاءِ النَّقيّةِ لم يُسفَكْ فيها دمٌ، ولم يُعمَلْ عليها خطيئةٌ[٢].

وقال عليٌّ رضيَ الله عنه: الأرضُ يومَئذٍ من فضّةٍ، والسَّماءُ من ذهبٍ[٣].

وقالت عائشةُ للنَّبيِّ ﷺ: أين يكونُ النّاسُ يومَئذٍ؟ فقالَ عليه السَّلامُ: «على الصِّراطِ» أخرجه مسلم[٤].

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾؛ أي: بُعِثُوا من قُبورِهم.

وقيلَ: صارَتِ الأرضُ قاعًا صَفْصَفًا بارزةً، فبرَزُوا وصارُوا بحيثُ لا يستُرُهم ساترٌ، ولم يجِدوا ملجَأً ومَفرًّا منَ الحسابِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٨٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٠٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٠ ـ ٧٣١) عن ابن مسعود رضي الله عنه وعمرو بن ميمون. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢٤) عن عمرو بن ميمون.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٦٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤١٥)، وفي رواية أخرى عند ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٦٢)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٣ـ ٧٣٤): أنَّ تلك الأرضَ من فضّةٍ، والجنّةُ من ذهبٍ. وعلى كل فإسناده ضعيف لجهالة الراوي عن علي رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٧٩١). وقوله: «أخرجه مسلم» من (أ).

(٤٩) - ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾.

قولُه: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾؛ أي: قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ.

وقيلَ: قُرِنَ كلُّ كافرٍ بشيطانٍ، كما يُقرَنُ كلُّ مؤمنٍ بالحورِ العينِ، وهو قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

وقيلَ: قُرِنَتْ أيديهم وأرجلُهم إلى رقابِهم بالسَّلاسلِ والأغلالِ.

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾؛ أي: القُيودِ، يُقالُ: «صَفَدْتُه صَفْدًا»؛ أي: قيَّدتُه، والاسمُ: الصَّفَدُ، و«أصفَدْتُه إِصفادًا»؛ أي: أعطَيتُه.

وقيلَ: «صَفَدْتُه وأصْفَدْتُه» جارِيانِ في القيدِ والإعطاءِ جميعًا.

***

(٥٠ - ٥١) - ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

قولُه: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ هي جمعُ «سِرْبالٍ» وهي القُمُصُ.

والقَطِرانُ - بفتحِ القافِ وكسرِ الطّاءِ - هنا: الإبلُ.

وقال اللَّيثُ: هو شيءٌ يُحتَلَبُ من شجرٍ يُقالُ له: الأبْهَلُ[1].

وقيلَ: «القِطْرانُ» بكسرِ القافِ وسكونِ الطّاءِ.

وقيلَ: «القَطْرانُ» بفتحِ القافِ وسكونِ الطّاءِ.

والقَطِرانُ أشدُّ في الاشتعالِ؛ أي: تأخذُهم النّارُ في أبدانِهم ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ﴾

---

(١) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٩/ ٦)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٢٢).

والنّارُ لا تُبطِلُ ذلك القطرانَ كما لا تُبطلُ الأغلالَ والأنكالَ تغليظًا عليهم، ومنَ العقوبةِ في القطرانِ: خُبثُ الرّائحةِ وفَرطُ التَّسويدِ.

وفي روايةٍ عن يعقوبَ: (سرابيلُهم من قِطْرٍ آنٍ)[1]، والقِطرُ: النُّحاسُ والصُّفْرُ المُذابانِ، والآني: الذي انتَهَى حرُّه.

قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: بما كسبَتْ.

* * *

(٥٢) ـ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قولُه: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: هذا الذي أنزلتُ[2] إليك ﴿بَلَٰغٌ﴾؛ أي: تبليغٌ.

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: ليُخوَّفُوا ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟﴾ بما فيه منَ الحججِ ﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وليتَّعِظَ أصحابُ العقولِ.

* * *

(١) هي رواية زيد عن يعقوب، وهي غير المشهور عنه. انظر: «المبسوط في القراءات» (ص: ٢٥٧)، و«الكامل في القراءات» (ص: ٣٩٠)، وانظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٦).

(٢) في (أ): «أنزلنا».

سُورَةُ الحِجرِ

تفسيرُ سورةِ الحِجْرِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

قوله: ﴿الٓر﴾ هو اسمُ السُّورةِ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: هذه آياتُ الكتابِ، أو: تلك الآياتُ التي سبقَتْ آياتُ القرآنِ.

وقيلَ: الكتابُ اسمٌ لجنسِ الكتبِ المُتقدِّمةِ منَ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ أي: هذه الآياتُ هي آياتُ تلك الكتبِ؛ فإنَّ القرآنَ مُصدِّقٌ لتلك الكتبِ.

﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: هي آياتُ تلك الكتبِ، وآياتُ قرآنٍ مبينٍ.

وعلى الأوَّلِ هي آياتُ الكتابِ وآياتُ القرآنِ، فجمعَ بينَ الوصفَين كقولك: «زيدٌ ظريفٌ وعاقلٌ»؛ أي: ظريفٌ عاقلٌ.

***

(٢) ـ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿ربَّما يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا لو كانُوا مسلِمِين﴾ «رُبَّ» لا تدخلُ على الفعلِ، فإذا لحقَه «ما» هيَّأه للدُّخولِ على الفعلِ، تقولُ: «ربَّما قامَ زيدٌ»، و: «ربَّما يقومُ زيدٌ».

ويجوزُ أن تكونَ (ما) نكرةً بمعنى «شيءٍ»، و﴿يَوَدُّ﴾ صفةٌ له؛ أي: ربَّ شيءٍ يودُّه الكافرُ.

وقُرِئَ: ﴿ رُبَمَا ﴾ بالتَّخفيفِ[١]، فـ«رُبَّ» يُشدَّدُ ويُخفَّفُ؛ لأنَّ الحرفَ المُضاعفَ قد يتطرَّقُ إليه الحذفُ كثيرًا.

ثمَّ قيلَ: «رُبَّ» للتَّكثيرِ، مثلَ «كم»؛ أي: يودُّ الكفّارُ في أوقاتٍ كثيرةٍ لو كانوا مسلمينَ، قالَه الكوفيُّون.

وقال الأكثَرون: «رُبَّ» للتَّقليلِ، وعلى هذا هو كقولِك: «ربَّما ندِمتَ على هذا» وأنتَ تعلَمُ أنَّه يطولُ ندَمُه؛ أي: يكفيكَ قليلُ النَّدمِ، فكيف كثيرُه[٢]؟

وقيلَ: شغَلَهم العذابُ عن تمنِّي ذلك إلّا في القليلِ.

وفي الخبرِ: «إذا كان يومُ القيامةِ واجتمعَ أهلُ النّارِ في النّارِ ومعَهم مَن شاءَ الله من أهلِ القِبلةِ، قال الكفّارُ: ما أغنَى عنكم إسلامُكم؟! فيغضبُ الله لهم، ويُخرِجُ أهلَ القِبلةِ منَ النّارِ، فحينَئذٍ يوَدُّ الذين كفَروا لو كانوا مسلمين»، وقرأَ رسولُ الله ﷺ هذه الآيةَ[٣].

***

(١) قرأ بها عاصم ونافع، وبالأولى الباقون. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٧٢)، ورد على من ادعى أنها للتكثير فقال: «فأما من قال إن «رب» يعنى بها الكثير فهذا ضد ما يعرفه أهل اللغة، لأن الحروف التي جاءت لمعنى تكون على ما وَضَعَتِ العرب، فـ«رب» موضوعة للتقليل، و«كم» موضوعة للتكثير، وإنما خوطبوا بما يعقلون ويستفيدون».

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٨٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٩٥٤) وصححه، عن أبي موسى رضي الله عنه.

ورواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٠٧)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٤٦)، عن جابر رضي الله عنهما. ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٤٣٢)، والطبراني في «الأوسط» (٨١١٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) ـ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾؛ أي: دَعْهم يا محمَّدُ يتقلَّبوا في الدُّنيا، وهذا تهديدٌ لهم ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ يُقالُ: «ألـهاهُ عن كذا»؛ أي: شغَلَه، ولَـهِيَ هو عن الشَّيءِ: تلَهَّى.

***

(٤) ـ ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾.

قولُـه: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾؛ أي: دَعْهـم فإنَّهـم إذا تمادَوا فـي الكفرِ نزلَ بهم العذابُ للوقـتِ المُعيَّنِ لذلك.

﴿مِن قَرْيَةٍ ﴾؛ أي: من أهلِ قريةٍ ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾؛ أي: أجلٌ ينتَهونَ إليه، كُتِبَ لهم ذلك في اللَّوحِ المحفوظِ.

***

(٥) ـ ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ ﴿مِنْ﴾ تأكيدٌ، كقولِك: «ما جاءَني من أحدٍ»؛ أي: ما تقدَّمَ أمدُ الوقتِ الذي وُقِّتَ لـها ولا تأخَّرَ، ولـم يقُلْ: «وما تتأخَّرُ» لطلبِ مُشاكلةِ رُؤوسِ الآيِ، وهو كقولِـهم: «انطلَقَتِ العشيرةُ ففعَلَتْ كذا» و: «فعَلُوا كذا».

***

(٦ ـ ٧) ـ ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾؛ أي: يا أيُّها الذي نُزِّلَ عليه الذِّكرُ

في زَعمِه، أو: يا أيُّها الذي يدَّعي أنَّه أُنزِلَ عليه الذِّكرُ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ قالوه استهزاءً، والذِّكرُ هو القرآنُ.

وقيلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ قولُ الله، ثمَّ قال: قال أعداؤُك: يا محمَّدُ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

قولُه: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: هلّا تأتينا.

وقال الفرَّاءُ: الميمُ في «لوما» بدلٌ منَ اللّامِ في «لولا»، ومثلُه: «استَولَى على الشَّيءِ» و: «استَومَى عليه»، ومثلُه: «خالَمْتُه»؛ أي: «خالَلْتُه»، فهو «خِلْمِي وخِلِّي»؛ أي: صديقي[1].

وعلى هذا يجوزُ «لوما» بمعنى الخبرِ، تقولُ: «لوما زيدٌ لَضُرِبَ عَمرٌو».

***

(٨) - ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

قولُه: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعذابِ.

وقيلَ: إمَّا أن تنزلَ بآجالٍ، أو تنزلَ بالوحيِ منَ الله.

وقيلَ: حكَمْنا أنَّا لو أنزَلْنا الملائكةَ فأخَّرُوا الإيمانَ لم نُؤخِّرْ عنهم العذابَ، وقد يكونُ في أصلابِهم مُؤمِنُونَ، فاستِئصالُهم يجانبُ الصَّلاحَ، ونحنُ لا نُنزِلُ الملائكةَ إلّا بالحقِّ والصَّلاحِ، ذكرَه القفّالُ.

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ قال الجُرجانيُّ: أصلُه «إذ أن»، ومعنى «إذ»: حينئذٍ،

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٥٤٤)، وانظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٤٦٢).

فضُمَّ إليها «أن»، واستثقَلُوا الهمزةَ فحذَفُوها، فالمعنى: «وما كانُوا إذ أنْ كانَ ما طلَبُوا مُنظَرين»(١).

قُرِئَ: ﴿ما تَنَزَّلُ الملائكةُ﴾ بالتَّشديدِ وفتحِ التّاءِ؛ أي: ما تَتَنَزَّلُ.

وقُرِئَ: ﴿ما تُنَزَّلُ﴾ بضمِّ التّاءِ وتشديدِ الزّاي.

وقُرِئَ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ﴾ بالنُّونِ وتشديدِ الزّاي ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالنَّصبِ(٢).

***

(٩) ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾؛ أي: القرآنَ، هذا ردٌّ عليهم لاستِهزائِهم إذ قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يُزادَ فيه أو يُنقَصَ منه.

وقيلَ: إنَّه محفوظٌ عندَنا في أمِّ الكتابِ، كقولِه: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

وقيلَ: أي: فإنّا لِمُحمَّدٍ لحافظونَ من أن يَتقوَّلَ علينا، أو يُتقوَّلَ عليه.

أو: وإنّا له لحافظونَ من أن يُكادَ ويُقتَلَ.

***

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (١٢/ ٥٤٦).

(٢) الأخيرة قرأ بها حفص وحمزة والكسائي، والثانية قراءة أبي بكر عن عاصم، والأولى لباقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: أرسَلْنا رُسلًا، فحُذِفَ ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾: الفِرَقِ والأتباعِ، والواحدةُ: شيعةٌ، والشِّيعةُ: الأمَّةُ المُتَّبِعةُ[١] بعضُهم بعضًا.

وقولُه: ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ من بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه كقولِه: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

قولُه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هو تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: جرَى في كلِّ وقتٍ ما جرى لهؤلاءِ معَكَ.

***

(١٢) ـ ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ السَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، كإدخالِ الخيطِ في المِخيَطِ؛ أي: نسلُكُ الشِّركَ في قلوبِ الكفّارِ، والهاءُ في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ ترجعُ إلى الشِّركِ.

وقيلَ: إلى الاستهزاءِ، أو إلى التَّكذيبِ بالعذابِ.

***

(١٣) ـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ أي: بالرَّسولِ، وقد سبقَ ذكرُ الرَّسولِ إذ قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾، نزلَ في قومٍ علِمَ الله أنَّهم لا يُؤمِنُونَ.

---

(١) في (أ): «المتابعة».

وقيلَ: نسلُكُه في قلوبِ المُجرمينَ لئَلّا يُؤمِنُوا.

وقيلَ: أي: نسلُكُه في قلوبِ المُجرِمينَ الذين لا يُؤمِنُونَ، كما تقولُ: «أنتَ الرَّجلُ يحمدُه النّاسُ»؛ أي: الرَّجلُ الذي يحمدُه النّاسُ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مضَتْ سنّةُ الله بإهلاكِ الكفّارِ، فما أقربَ هؤلاءِ منَ الهلاكِ، والمعنَى: سنّةُ الله في الأوّلينَ.

وقيلَ: مضَتْ سنّةُ الأوّلينَ بمثلِ ما فعلَه هؤلاءِ، فهم يقتَدُونَ بأولئكَ.

* * *

(١٤ ـ ١٥) ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ظَلَّ يفعَلُ كذا؛ أي: فعَلَه بالنَّهارِ، والمصدرُ: «الظُّلولُ»؛ أي: لو أُجيبُوا إلى ما اقترَحُوا منَ الآياتِ لأصَرُّوا على الكفرِ وتعلَّلوا بالخيالاتِ، كما قالوا للقرآنِ المُعجِزِ: إنَّه سحرٌ.

﴿يَعْرُجُونَ﴾ من: «عرَجَ يعرُجُ»؛ أي: صَعِدَ، والمعارِجُ: المصاعِدُ؛ أي: لو صعِدُوا إلى السَّماءِ وشاهَدُوا الملَكوتَ والملائكةَ لأصرُّوا على الكفرِ.

وقيلَ: هذا العُروجُ للملائكةِ؛ أي: لو كُشِفَ لهؤلاءِ حتَّى يُعايِنُوا أبوابًا في السَّماءِ تصعَدُ فيها الملائكةُ وتنزلُ لقالُوا: «رأينا بأبصارِنا ما لا حقيقةَ له وما هو سحرٌ»، وهذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

قولُه: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ(١).

---

(١) قرأ ابن كثير بتخفيف الكاف، والباقون بتشديدها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

والسَّكْرُ: سَدُّ الشَّقِّ لئلَّا يتفجَّرَ الماءُ؛ أي: مُنِعَتْ أبصارُنا منَ النَّظرِ إلى ما نراهُ خيالًا.

وقيلَ: أي: حارَتْ أبصارُنا، وهو من سُكْرِ الشَّرابِ.

وقيلَ: «سَكَرَتِ الرِّيحُ تسكُرُ» على وزنِ «نصَرَ ينصُرُ»؛ أي: سكَنَتْ، والمعنى: سكنت أبصارُنا عن النَّظرِ، وهذا على قراءةِ مَن قرأ بالتَّشديدِ.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾؛ أي: سحَرَنا محمَّدٌ فيما نُرى.

* * *

(١٦ - ١٨) - ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ لـمَّا ذكرَ كُفرَهم ذكرَ كمالَ قُدرتِه وعجزَ الأصنامِ؛ ليُعلمَ بُطلانُ ما عليه أهلُ الشِّركِ، ووصَلَ بذلك أخبارَ الأنبياءِ.

وفي الإخبارِ بها دليلُ صدقِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

والبروجُ: القُصورُ؛ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: جعَلْنا في السَّماءِ بروجَ الشَّمسِ والقمرِ؛ أي: منازِلَـهما[1].

والعربُ تعُدُّ المعرفةَ بمواقعِ النُّجومِ وألوانِها من أجَلِّ العلومِ، ويستَدِلُّونَ بها على الطُّرُقاتِ والأوقاتِ والخِصْبِ والـجَدْبِ، وقالوا: الفَلَكُ اثنا عشرَ بُرجًا، كلُّ برجٍ ميلانِ ونصفٌ للقمرِ[2].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٦٤).

(٢) انظر: «البسيط» (١٢/ ٥٦٣)، وقوله: «ميلان ونصف» كذا وقع في النسختين، وكذا وقع عند القرطبي في «تفسيره» (١٢/ ١٨٦)، والغالب أنه نقله عن المصنف، وجاء في «البسيط»: «منزلان ونصف»، =

وقال مُجاهدٌ: أرادَ بالبروجِ النُّجومَ[1].

وقال قومٌ: ﴿بُرُوجًا﴾؛ أي: قُصورًا وبيوتًا خلقَها الله في السَّماءِ، وأصلُ البروجِ منَ الظُّهورِ والتَّبرُّجِ.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾؛ أي: بالكواكبِ للنّاظِرين؛ أي: للمُستدلِّينَ على كمالِ قُدرةِ الصّانعِ.

قولُه: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾؛ أي: حَرَسْنا السَّماءَ ﴿مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾؛ أي: مَرجومٍ، والرَّجمُ: الرَّميُ بالحجارةِ. وقيلَ: الرَّجمُ: اللَّعنُ والطَّردُ.

قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: لكنْ مَن استرَقَ السَّمعَ، فهو استِثناءٌ مُنقطعٌ.

وقيلَ: أي: إلّا ممَّن استرَقَ السَّمعَ؛ أي: حفِظْنا السَّماءَ منَ الشَّياطينِ أن تسمعَ منها شيئًا منَ الوحيِ وغيرِه إلّا مَن استرَقَ السَّمعَ فإنَّا لـم نحفَظْها من أن تسمعَ الخبرَ من أخبارِ السَّماءِ سِوى الوحْيِ، فأمَّا الوحيُ فلا تسمعُ منه شيئًا؛ لقولِه: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]، وعلى هذا ليس الاستِثناءُ بمُنقطعٍ.

وإذا استمعَ الشَّياطينُ إلى شيءٍ ليس بوحيٍ فإنَّهم يقذِفُونَه إلى الكهنةِ في أسرعَ

= والصواب: «منزلان وثلث»، كما في «الأنواء» لابن قتيبة (ص: ١٢١)، و«البدء والتاريخ» للمطهر بن طاهر (٢/ ١٦)، و«تهذيب اللغة» (١١/ ٣٩)، و«الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (ص: ١٦٠)، و«العمدة» لابن رشيق (٢/ ٢٥٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٧)، وغيرها. والمعنى: أنها اثنا عشر برجًا، مسير القمر في كلّ برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ثم يستسرّ ليلتين، ومسير الشمس في كلّ برج منها شهر. انظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦١).

(١) ذكره عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١٦) ورواه عن سعيد بن جبير، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٠) عن مجاهد بلفظ: «كواكب».

من طَرْفِ العينِ، ثمَّ تتبَعُهم الشُّهُبُ فتقتُلُهم أو تخبُلُهم، ذكرَه الحسَنُ وابنُ عبّاسٍ[١].

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾؛ أي: لحِقَه ﴿شِهَابٌ﴾؛ أي: شُعلةٌ من نارٍ، ويُسمَّى الكوكبُ شهابًا لبريقِه يُشبَّه بالنّارِ.

قال الزَّجَّاجُ: والرَّمْيُ بالشُّهُبِ من آياتِ[٢] النَّبيِّ عليه السَّلامُ ممّا حدَثَ بعد مولدِه[٣]؛ لأنَّ الشُّعراءَ في القديمِ لم يذكُروه في أشعارِهم، ولم يُشبِّهوا الشَّيءَ السَّريعَ به كما شبَّهوا بالبرقِ وبالسَّيلِ[٤].

ولا يبعُدُ أن يُقالَ: انقِضاضُ الكوكبِ كان في قديمِ الزَّمانِ، ولكنَّه لم يكُنْ رُجومًا للشَّياطينِ، ثمَّ صارَ رُجومًا حينَ وُلِدَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ.

---

(١) ذكر نحوه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٣٦)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٦٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى معناه البخاري (٤٧٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا، واحد فوق آخر، ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا، يكون كذا وكذا، فوجدناه حقا؟ للكلمة التي سمعت من السماء».

(٢) في (أ): «من آثار».

(٣) روى البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث...» الحديث.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٧٦)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٥٦٧).

وقال العلماءُ: نحنُ نرَى انقِضاضَ الكوكبِ، فيجوزُ أن يكونَ ذلك كما نرى، ثمَّ يصيرُ نارًا إذا أدرَكَ الشَّيطانَ.

ويجوزُ أن يُقالَ: يُرمَونَ بشُعلةٍ من نارٍ منَ الهواءِ فيُخيَّلُ إلينا أنَّه نجمٌ سرَى.

والشِّهابُ في اللُّغةِ: النّارُ السّاطِعةُ.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ هذا من نِعَمِه أيضًا، ومـمَّا يدُلُّ على كمالِ قُدرتِه، قال ابنُ عبّاسٍ: بسَطْناها على وجهِ الماءِ[1]، كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]؛ أي: بسَطَها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالًا ثابتةً.

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾؛ أي: من كلِّ شيءٍ بقدَرٍ مُقدَّرٍ، وحدٍّ محدودٍ، ويُقالُ: هذا كلامٌ موزونٌ؛ أي: منظومٌ غيرُ مُنتَشرٍ، فعلى هذا؛ أي: أنبَتْنا في الأرضِ ما يُوزَنُ منَ الجواهرِ والحيواناتِ والمعادنِ، وقد قالَ الله في الحيوانِ: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، والمقصودُ منَ الإنباتِ: الإنشاءُ والإيجادُ.

وقيلَ: أي: أنبَتْنا في الجبالِ من كلِّ شيءٍ يُوزَنُ منَ الذَّهبِ والفِضّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ والكُحْلِ.

وقيلَ: أي: أنبَتْنا في الأرضِ الثِّمارَ مـمَّا يُكالُ ويُوزَنُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٦٨)، وهو في كثير من التفاسير غير منسوب. انظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٥٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٥/ ٤٤٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٧٤)، و«التيسير» لأبي حفص النسفي (٩/ ١٧٩)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٥٢٨).

(٢٠) ـ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾؛ أي: ما تعيشُونَ به في الأرضِ منَ الحبوبِ والثِّمارِ والتِّجاراتِ ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾؛ أي: قد ملَّكتُكم منَ العبيدِ والدَّوابِّ ما ليس رِزقُهم عليكم، بل رزقُهم عليَّ، وأنا خالِقُهم، ولفظُ ﴿مَن﴾ يجوزُ أن يتناوَلَ العبيدَ والدَّوابَّ؛ لأنَّه إذا اجتمعَ ما يعقلُ وما لا يعقلُ غُلِّبَ مَن يعقلُ.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ خزائنُ الرَّبِّ: مَقدوراتُه؛ أي: نحنُ نملكُ كلَّ شيءٍ، ولكن لا نُنزِلُه إلّا على حسبِ مشيئَتِنا، وعلى حسبِ حاجةِ الخلقِ إليه، كما قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقيلَ: أرادَ: وإنْ من شيءٍ منَ المطرِ إلّا عندَنا خزائنُه، فإنَّ المطرَ سببُ الرِّزقِ والمعاشِ.

والخزائنُ: جمعُ الخزانةِ، وهي الموضعُ الذي يسترُ الإنسانُ فيه مالَه، والخزانةُ أيضًا مصدرُ خزَنَ يخزُنُ، وما كانَ في خزانةِ الإنسانِ كان مُعَدًّا له، فكذلك ما يقدرُ عليه الرَّبُّ فكأنَّه مُعَدٌّ عندَه.

والإنزالُ بمعنَى: الإنشاءِ والإيجادِ، كقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقيلَ: الإنزالُ بمعنَى الإعطاءِ، وسمَّاه إنزالًا؛ لأنَّ أحكامَ الله إنَّما تنزلُ منَ السَّماءِ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ منَ النِّعمِ التي خزائنُها عنده الأمطارُ، وتُقدَّمُ الرِّياحُ عليها؛ أي: أرسَلْنا الرِّياحَ لاقحاتٍ بالماءِ، كالنّاقةِ اللّاقحِ الحاملِ، ومنَ الرِّياحِ ما يأتي بالأمطارِ، ومنَ الرِّياحِ العقيمُ التي لا تحمِلُ السَّحابَ، وقد قال الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧] والإقلالُ: حملُ السَّحابِ، فمعنَى «أَقَلَّتْ» ومعنَى «لقِحَتْ» واحدٌ، فالرِّيحُ على هذا القولِ تلقَحُ بمُرورِها على التُّرابِ والماءِ، وهذا كما يُقالُ: «قد لقِحَتِ الحربُ» فشَبَّهوها بالنّاقةِ، كذلك الرِّيحُ الجَنوبُ تحمِلُ السَّحابَ، أو تحمِلُ الماءَ، والشَّمالُ تُوصَفُ بالحِيالِ والعقمِ. هذا قولُ الفرَّاءِ وابنِ الأنباريِّ والأزهريِّ والقُتَيبيِّ(١).

وقال أبو عُبيدةَ: «لواقِحُ» بمعنَى: «ملاقِح»، و«المَلاقحُ» جمعُ «مُلقِحةٍ»، وإلقاحُها السَّحابَ: عمَلُها في السَّحابِ(٢).

قال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ إلقاحَ السَّحابِ والشَّجرِ(٣).

يُقالُ: «لقِحَتِ النّاقةُ، وألقَحَها الفحلُ»؛ أي: ألقَى إليها الماءَ فحملَتْه، فالرِّياحُ كالفحلِ للسَّحابِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٧)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (٤/ ٣٦)، و«البسيط» (١٢/ ٥٨٢) عن ابن الأنباري.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٤٨).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٧٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٥) بلفظ: «تلقح الشجر، وتَمري السحاب».

وقد قال ابنُ مسعودٍ: يبعثُ الله الرِّياحَ لتُلقِحَ السَّحابَ، فتحمِلُ الماءَ وتـمجُّه في السَّحابِ، ثمَّ تَـمريه فيدُرُّ كما تدُرُّ اللّقْحةُ(١).

قال أبو عُبيدةَ: هو كما يُقالُ: «أبقَلَ النَّبتُ فهو باقلٌ»؛ أي: مُبقِلٌ(٢)، و«همٌّ ناصِبٌ» أي: مُنصِبٌ، وفي الخبرِ: «أعوذُ بكَ من عينٍ لامَّةٍ»(٣) أي: مُلِمَّةٍ، وكذلك «لاقحٌ» بمعنى: مُلقِحٍ.

وقيلَ: ﴿لَوَاقِحَ﴾؛ أي: فيها اللَّقاحُ بأنْ تُلقِحَ الشَّجرَ، كقولِه: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: فيها رِضًا، و«ليلٌ نائمٌ»؛ أي: فيه نومٌ.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: منَ السَّحابِ، وكلُّ ما علاكَ فأظلَّكَ يُسمَّى سماءً.

وقيلَ: من جهةِ السَّماءِ.

﴿مَآءً﴾؛ أي: مطرًا ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾؛ أي: جعَلْنا ذلك المطرَ لسُقياكُم، ولشُربِ مَواشيكُم وأرَضيكُم ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾؛ أي: نحنُ الخازِنُونَ لهذا الماءِ، نُنزِلُه إذا شِئْنا، ونُمسِكُه إذا شِئْنا، ومثلُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

---

(١) رواه الشافعي في «مسنده» (٥٢٥)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٢٣٨٠)، والبزار في «مسنده» (٣٢١٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٠٨٠). وقوى إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٣٠١). وقوله: «تمريه» مرت الريح السحاب: إذا أنزلت منه المطر. انظر: «اللسان» (مادة: مرى).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٧٩) عن ابن الأنباري، ولم أجده عن أبي عبيدة، لكنه تقدم قريباً عنه بمعناه.

(٣) رواه البخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

(٢٣) ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾؛ أي: مَن قدرَ على هذه الأشياءِ قادرٌ على الإماتةِ ثمَّ الإحياءِ بعدَها.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾؛ أي: تَفنَى الأرضُ ومَن عليها، ولا يبقَى شيءٌ سِوانا.

وقيلَ: الإحياءُ في هذه الآيةِ: إحياءُ النُّطَفِ في الأرحامِ، فأمَّا البعثُ فقد ذكرَه بعدَ هذا في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ [الحجر: ٢٥]، ومِلكُ كلِّ شيءٍ لله تعالى، ولكنْ ملَّكَ عبادَه أملاكًا، فإذا ماتُوا انقطَعَتِ الدَّعاوي فكانَ الله وارثًا من هذا الوجهِ.

❊ ❊ ❊

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

قولُـه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾؛ أي: مَـن تقـدَّمَ ممَّن أمَتْنـاه، وعلِمْنا مَن تأخَّـرَ فلـم نُمِتْـه بعـدُ، ومَن لـم نخلُـقْ بعـدُ؛ أي: لا ينسَـلُّ أحدٌ مـنَ البيـنِ، فيُبعثُ الكلُّ للحسـابِ.

وقيلَ: علِمْنا السّابقينَ إلى الطّاعةِ، والمُستأخِرين عنها، وسنحشُرُهم جميعًا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: كانت تُصلِّي خلفَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ امرأةٌ حسناءُ في آخرِ النِّساءِ، فكان بعضُهم يتقدَّمُ في الصَّفِّ خوفَ الافتتانِ، ويتأخَّرُ البعضُ، فإذا ركعَ قال هكذا، ونظرَ تحتَ إبطِه، فنزلَتِ الآيةُ[1]، فهي إذن وعيدٌ.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٢)، والنسائي (٨٧٠)، وابن ماجه (١٠٤٦) عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه الترمذي عن أبي الجوزاء دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: وهذا أشبه أن يكون أصح. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: غريب جدًّا وفيه نكارة شديدة.

وقيلَ: بعُدَتْ دورُ قومٍ منَ المسجدِ فأرادوا بيعَ دُورِهم ليقرُبوا منَ المسجدِ، فقال عليه السَّلامُ: «ديارَكُم فإنَّما تُكتَبُ آثارُكم»، ونزلَتِ الآيةُ[1]؛ أي: إنَّ الله عالمٌ بالنِّيَّاتِ.

وقيلَ: المُستَقدِمُونَ مَن خُلِقُوا، والمُتأخِّرونَ[2] مَن لم يُخلَقُوا؛ أي: شمِلَ علمُه ما كانَ وما يكونُ.

وقيلَ: أرادَ: مَن تقدَّمَ إلى صفِّ الكفَّارِ للقتالِ، ومَن تأخَّرَ عنه، واستقدَمَ؛ أي: تقدَّمَ، واستأخَرَ؛ أي: تأخَّرَ.

قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: للحسابِ والجزاءِ.

***

(٢٦) - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ نبَّهَ بهذا على كمالِ قُدرتِه، وأنَّ الواجبَ عبادتُه وتركُ الإشراكِ به.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: آدمَ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: من طينٍ يابسٍ يُصَلْصِلُ إذا نُقِرَ لشدَّةِ يَبسِه؛ أي: يُصَوِّتُ، ومنه: صَلْصَلَ اللِّجامُ؛ أي: صوَّتَ.

قيلَ: خلَقَ الله آدمَ من طينٍ، فصوَّرَه فمكثَ في الشَّمسِ أربعينَ سنةً حتّى صارَ صَلْصالًا كالخزَفِ، ولم يَدْرِ أحدٌ ما يُرادُ به، إلى أن نفخَ الرُّوحَ فيه.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٦ - ٤٥٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٦)، عن الربيع بن أنس. ورواه مسلم (٦٦٥)، وليس فيه أن ذلك سبب النزول، وله شاهد - دون التصريح بسبب النزول أيضاً - من حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري (٦٥٥) و(٦٥٦) و(١٨٨٧).

(٢) في (أ): «المستقدمين من خلفوا والمستأخرين».

وقيلَ: الصَّلْصالُ: المُنتِنُ، من قولـهم: «صلَّ اللَّحمُ»؛ أي: أنتَنَ وتغيَّرَ، وعلى هذا فالأصلُ: «صَلَّالٍ»، فأُبدِلَ الصّادُ منَ اللّامِ الثّانيةِ، وعلى هذا ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ ﴿مِّنْ﴾ مُفسِّرةٌ لجنسِ الصَّلصالِ، كقولِكَ: أخذتُ هذا من رجلٍ منَ العربِ.

والحمَأُ: جمعُ «حَـمَأةٍ» وهي الطِّينُ الأسودُ المُنتِنُ، بفتحِ الميمِ والحاءِ.

وقال أبو عُبيدةَ: «الحَمْأةُ» بسكونِ الميمِ مثلَ «الكَمْأةِ»، والجمعُ: «حَـمْءٌ» مثلَ «تمرةٍ وتمرٍ»، و«الحمَأُ» المصدرُ مثلَ الهلَعِ والجزَعِ، ثمَّ سُمِّيَ به[1].

﴿مَّسْنُونٍ﴾؛ أي: مُتغيِّـرٍ، مـن سُـنَّ المـاءُ فهـو مسـنونٌ؛ أي: تغيَّـرَ، ومنه: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ أي: لـم يتغيَّرْ.

وقال الزَّجَّاجُ: هو من سنّةِ الطَّريقِ؛ لأنَّها تتغيَّرُ في الماءِ إذا لم يكُنِ الماءُ جاريًا[2].

وسنّةُ الطَّريقِ: وجهُ الطَّريقِ.

وقيلَ: هو من سنَنْتُ الحجرَ على الحجرِ؛ أي: حكَكْتُه عليه، والذي يخرجُ من بينِهما يُقالُ له «السَّنِينُ»[3]، ومنه: المِسَنُّ.

وقال أبو عُبيدةَ: المسنونُ: المصبوبُ، والسَّنُّ: الصَّبُّ[4].

وقـال سـيبويهِ: المسنُونُ: المصبـوبُ علـى صـورةٍ، مَـن سُـنَّةِ الوجـهِ، وهي صورتُـه[5].

---

(١) انظر: «البسيط» (١٢/ ٥٩٥ _ ٥٩٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٧٨ _ ١٧٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٨)، و«البسيط» للواحدي (١٢/ ٥٩٧).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٥١).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٦٠)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٩٧).

(٢٧) ـ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ ﴾ انتصَبَ لأنَّ المعنى: وخلَقْنا الجانَّ خلقْناه.

قال ابنُ عبّاسٍ: الجانُّ أبو الجنِّ[1]. وهو إبليسُ، وسُمِّيَ جانًّا لتَواريه عنِ الأعيُنِ.

والجانُّ في اللُّغةِ: السّاترُ، فسُمِّيَ جانًّا لأنَّه يستتِرُ بنفسِه[2].

وقيلَ: هو فاعلٌ أُريدَ به المفعولُ، كقولِهم: «ماءٌ دافِقٌ»؛ أي: مدفوقٌ، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: مَرضِيّةٌ.

﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ خلقِ آدمَ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ السَّمومُ: نارٌ لا دُخانَ لها. وقيلَ: الرِّيحُ الحارَّةُ، وسُمِّيتِ الرِّيحُ الحارّةُ سَمومًا لدُخولِها بلُطفِها في مسامِّ البدَنِ.

***

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾؛ أي: اذكُرْ إذ قال، أو[3]: ولقد علِمْنا المُستَقدمين والمُستأخرين إذ قال ربُّك؛ أي: علِمْنا الخلقَ قبلَ أن نخلُقَهم حينَ أعلَمْنا الملائكةَ ما أرَدْناه من خلقِ آدمَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٦٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٨٥)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٩٨).

(٢) في (أ): «لأنه يستر نفسه».

(٣) في (أ): «أي»، وسقطت من (ف)، ولعل المثبت هو الصواب.

﴿خَلِقُۢ بَشَرًا﴾؛ أي: حيوانًا غيرَ رُوحانيٍّ مُخالفًا لكم معشرَ الملائكةِ.

قولُه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: عدَّلْتُ صورتَه الإنسانيَّةَ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ النَّفخُ: إجراءُ الرِّيحِ في الشَّيءِ.

والرُّوحُ: جسمٌ لطيفٌ أجرَى الله العادةَ بأن يخلُقَ الحياةَ في البدنِ مع ذلك الجسمِ، ومَن قال: «الرُّوحُ هو الحياةُ»، قال: «أرادَ: فإذا ركَّبتُ فيه الحياةَ».

والأرواحُ كلُّها لله، فأضافَ روحَ الآدميِّ إلى نفسِه تخصيصًا كما أضافَ البيتَ إلى نفسِه، كما يُقالُ: «شهرُ الله» و«ناقةُ الله».

﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أمرٌ منَ الوقوعِ؛ أي: فخِرُّوا له ساجِدين، وهو سجودُ تحيَّةٍ وتكرمةٍ. لا سجودُ عبادةٍ، وللهِ أن يُفضِّلَ مَن يُريدُ، ففضَّلَ الأنبياءَ على الملائكةِ.

وقال القفَّالُ: كانوا أفضلَ من آدمَ، فامتحَنَهم بالسُّجودِ له تعريضًا لهم للثَّوابِ الجزيلِ، وهو مذهبُ المُعتزلةِ[1].

وقيلَ: أُمِرُوا بالسُّجودِ لله عندَ آدمَ وكان آدمُ قبلةً لهم.

***

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أتبعَ التَّوكيدَ التَّوكيدَ للمُبالغةِ.

قولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لا شكَّ أنَّ إبليسَ أُمِرَ بالسُّجودِ، ثمَّ قال قومٌ: كان منَ الملائكةِ، فهذا استثناءٌ منَ الجنسِ.

---

(١) وانظر: «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٨٠)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٣/ ١٠٠)، و(٥/ ١٥ ـ ١٧).

وقال قومٌ: لـم يكُنْ منَ الملائكةِ، فهو استثناءٌ مُنقطعٌ.

وإنَّما امتنعَ إبليسُ منَ السُّجودِ لآدمَ حسَدًا وتكبُّرًا.

* * *

(٣٢ - ٣٣) - ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾؛ أي: قال الله تعالى له: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾؛ أي: في ألَّا تكونَ.

قوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾؛ أي: لبشرٍ مخلوقٍ من لحمٍ ودمٍ.

﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾؛ أي: إنَّه من طينٍ وأنا من نارٍ، والنَّارُ تأكلُ الطِّينَ.

* * *

(٣٤ - ٣٨) - ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

قوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي: منَ السَّماواتِ، أو من جنَّةِ عدنٍ، أو مـن جملةِ الملائكةِ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مَرجومٌ بالشُّهُبِ.

وقيلَ: ملعونٌ مشتومٌ يلعنُكَ الملائكةُ والمؤمنونَ، ويلعنُك الله.

قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لعنَتي ولعنةَ اللَّاعنينَ إلى يومِ القيامةِ، وهذا لأنَّه أوَّلُ مَن عصى الله، ثمَّ هذا اللَّعنُ لا ينقطعُ إلى يومِ القيامةِ، بل المُرادُ أنَّ في القيامةِ تظهرُ ثمرةُ اللَّعنِ، ويُخلَّدُ إبليسُ في النَّارِ مع استمرارِ اللَّعنِ به على التَّأبيدِ.

﴿ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾؛ أي: إلى الوقتِ المعلومِ لإهلاكِ جميعِ الخلقِ بالموتِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ به النَّفخةَ الأولى حين تموتُ الخلائقُ(١).

وكان إبليسُ استَنظَرَ إلى قيامِ السّاعةِ لئلّا يموتَ؛ إذ لا موتَ بعد قيامِ القيامةِ، فلم يُجَبْ إلى ذلك، بل أُخِّرَ إلى النَّفخةِ الأولى ثمَّ يموتُ.

وقيلَ: الوقتُ المعلومُ هو الوقتُ الذي استأثرَ الله بعلمِه لقيامِ السّاعةِ، ويموتُ إبليسُ ثمَّ يُبعَثُ، قال الله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

* * *

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو قَسمٌ؛ أي: بإغوائِكَ إيّايَ لأُزيِّنَنَّ لهم، كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، فكأنَّه أقسمَ بقُدرتِه على الإغواءِ، قالَه أبو عُبيدةَ(٢).

وقال غيرُه: الباءُ للسَّببِ؛ أي: لأُزيِّننَّ لهم بسببِ إغوائِكَ إيّايَ.

﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأولادِ آدمَ؛ أي: لأُزيِّنَنَّ لهم المعاصيَ والأرضَ وحبَّ المقامِ فيها، فقولُه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الأرضَ، كقولِه: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ أي: أصلِحْ ذُرِّيّتي.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٤)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٦٠)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٠٥).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٥١)، وفيه: «﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ مجازه مجاز القسم: بالذي أغويتني».

وقيلَ: أي: بما[١] أغوَيتَني في الأرضِ وأخرجْتَني إليها لأُزيِّننَّ لهم المعاصيَ.

قولُه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتحِ اللّامِ وكسرِها[٢]، فلا سُلطانَ للشَّيطانِ على المُؤمنِ؛ لأنَّه أخلَصَ الدِّينَ له، وإنَّما سُلطانُه على الذين يتولَّونَه.

* * *

(٤١ - ٤٤) - ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قال: هذا الإخلاصُ طريقُه إليَّ، أو يُؤدِّي إلى جَزائي، فأنا أُجازي عبادي المُخلصين.

وقيلَ: أي: عليَّ ممرُّ مَن أغوَيتَه أنتَ فأُجازيهم بما يستحِقُّونَ.

وقيلَ: أي: عليَّ أن أدُلَّ على الصِّراطِ المُستقيمِ.

قولُه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: لا سُلطانَ لإبليسَ على مَن لم يقبلْ منه، إنَّما سُلطانُه على الذين اتَّبعُوه.

قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لموعدُ إبليسَ ومَن تبعَه.

قولُه: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾؛ أي: سبعةُ أطباقٍ، طبقٌ فوقَ طبقٍ ﴿لِكُلِّ﴾ طبقةٍ ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾؛ أي: نصيبٌ مُعيَّنٌ من أتباعِ إبليسَ.

قال الضَّحّاكُ: في الدَّركةِ العُليا أهلُ التَّوحيدِ، يُعذَّبونَ مدّةً ثمَّ يُخرَجُونَ، وفي

---

(١) في (ف): «أي إنما»، وفي (أ): «أي بإغوائك بما».

(٢) قرأ الكوفيون ونافع: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ إذا كان في أوله ألف ولام بفتح اللام حيث وقع، والباقون بكسرها. انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٢٨).

الثّانيةِ اليهودُ، ثمَّ النَّصارى، ثمَّ الصّابئونَ، ثمَّ المجوسُ، ثمَّ مُشرِكو العربِ، ثمَّ المُنافقونَ(١).

وقال عليٌّ: أسفَلُها جهنَّمُ، وفوقَها لَظى، ثمَّ الحُطَمةُ، ثمَّ سقَرُ، ثمَّ السَّعيرُ، ثمَّ الجحيمُ، ثمَّ الهاويةُ(٢).

وقال الفرّاءُ: أسفلُها الهاويةُ، وأعلاها جهنَّمُ(٣).

و«جهنَّمُ» مأخوذٌ من قولِكَ: «بئرٌ جِهنَّامٌ»؛ أي: بعيدةُ القعرِ، و«لَظى» منَ التَّوقُّدِ، و«الحُطَمةُ»: ما تحطِمُ وتكسِرُ العظامَ، و«سقرُ» من سقَرَتْه الشَّمسُ وسقَّرَتْه؛ أي: أذابَتْه، و«السَّعيرُ» لأنَّها سُعِّرَتْ؛ أي أُوقِدَتْ، و«الجحيمُ» منَ الجَحْمةِ، يُقالُ: نارٌ جَحْمةٌ؛ أي: عظيمةٌ، و«الهاويةُ»: هي التي تهوِيْ بهم؛ أي: تُسقِطُهم.

* * *

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾؛ أي: الذين اتَّقَوا الشِّركَ ﴿فِى جَنَّـٰتٍ﴾، أي: بساتينِ ﴿وَعُيُونٍ﴾ هي ماءٌ وخمرٌ ولبنٌ وعسلٌ.

قولُه: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾؛ أي يُقالُ لهم: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٧١)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٥) دون ترتيب الأبواب.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٧٠)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ١٩٥)، ولفظه: «أسفلُها جهنَّم، وفوقَها لَظَى، وفوقَها الحُطَمة، وفوقَها سَقَر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨٩).

وقُرِئَ: (وعُيونٌ ادخِلُوها)[١] من «أدخَلَ يُدخِلُ» بضمِّ التَّنوينِ ووصلِ الألفِ وكسرِ الخاءِ، فأُلقِيَ حركةُ الهمزةِ على التَّنوينِ، ولكنْ فيه انتقالٌ من كسرٍ إلى ضمٍّ، ثمَّ من ضمٍّ إلى كسرٍ فيثقُلُ على اللِّسانِ.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: بسلامةٍ من سخَطِ الله وعذابِه ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: منَ الموتِ، ومنَ العذابِ.

* * *

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قيلَ: تحقَّقَ هذا في الدُّنيا.

قال عليُّ بنُ الحُسَينِ: نزلَتْ في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ والصَّحابةِ[٢]، يعني: ما كانَ بينَهم في الجاهليّةِ منَ الغِلِّ.

وقيلَ: هذا في الآخرةِ، ويدُلُّ عليه سياقُ الآيةِ.

وقد رُوِيَ: أنَّ المُؤمنينَ يجلسونَ على بابِ الجنّةِ فيُقتَصُّ لبعضِهم من بعضٍ وتَطيبُ قلوبُهم، ثمَّ يُؤمَرُ بهم إلى الجنّةِ وقد هُذِّبوا ونُقُّوا ولم يبقَ في قلوبِهم غِلٌّ[٣].

---

(١) رويت عن يعقوب في رواية رويس، والمشهور عن يعقوب كقراءة حمزة وعاصم وأبي عمرو وابن ذكوان بكسر التنوين وضم الخاء. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠١).

(٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على «فضائل الصحابة» لأبيه (١٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٦).

(٣) روى البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقُّوا =

وقال عليٌّ رضيَ الله عنه: أرجُو أن أكونَ أنا وطلحةُ والزُّبيرُ من هؤلاءِ[١].

﴿إِخْوَٰنًا﴾ نصبٌ على الحالِ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ السُّرُرُ: جمعُ السَّريرِ، يُقالُ: «سُرُرٌ وسُرَرٌ».

وقيلَ: هو منَ السُّرورِ، فكأنَّه مكانٌ رفيعٌ مُهَّدَ للسُّرورِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: على سُرُرٍ مُكلَّلةٍ بالياقوتِ والزَّبَرْجَدِ والدُّرِّ، السَّريرُ ما بينَ صنعاءَ إلى الجابيةِ، وما بينَ عدَنَ إلى أيلةَ[٢].

﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾؛ أي: مُتواجِهينَ لا يرَى بعضُهم قَفا بعضٍ.

وقيلَ: الأسرَّةُ تدورُ بهم كيفَما شاؤوا، فلا يَرى أحدٌ قَفا أحدٍ.

قولُـه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: إعيـاءٌ ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لأنَّهـم مُخلَّـدونَ فيها.

* * *

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

قولُه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ قيلَ: أرادَ المُؤمنينَ؛ أي: أخبِرْهم ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ﴾ لمَن تابَ منَ الشِّركِ.

= وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد ﷺ بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا».

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٨٢١)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٩٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٨)، وفي بعض المصادر زيادة: «وعثمان».

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (١٢/ ٦١٢)، و«البسيط» (١٢/ ٦١٢).

رُوِيَ عن بعضِ الصَّحابةِ أنَّه قال: اطَّلَعَ علينا رسولُ الله ﷺ من بابِ بني شيبةَ ونحنُ نضحَكُ، فزجَرَ عنه، ثمَّ أدبرَ حتَّى إذا كانَ عند الحِجْرِ رجعَ إلينا القَهْقَرى، فقالَ: «لـمَّا خرجْتُ جاءَ جبريلُ فقال: يقولُ الله: يا محمَّدُ لِـمَ تُقنِّطُ عبادي؟ نبِّئْ عبادي أنِّي أنا الغفورُ الرَّحيمُ»(1).

وقد كُتِبَتْ صورةُ الهمزةِ في «نبِّئْ» وهي الياءُ المهموزةُ في المُصحفِ، ولـم تُكتَبْ في «دِفْءٍ» و«جُزْءٍ»؛ لأنَّ ما قبلَ الهمزةِ في «جُزْءٍ» ساكنٌ، فهي تُحذَفُ كثيرًا وتُلقَى حركتُها على السّاكنِ قبلَها، فـ«نبِّيْ» في الخطِّ على تخفيفِ الهمزةِ، وما قبلَ الهمزةِ في «نبِّئْ» مُتحرِّكٌ.

قولُه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾؛ أي: لأعدائي.

***

(٥١ - ٥٦) - ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: أنا الغفورُ الرَّحيمُ، وعذابي أليمٌ، ومِن ذلك القَبيلِ ما فعلتُه بإبراهيمَ رحمةً منِّي له ولامرأتِه، وما فعلتُه بقومِ لوطٍ منَ الإمهالِ إلى أنْ وقعَ بهم العقابُ، وكذلك أصحابُ الأيكةِ وأصحابُ الحِجْرِ.

---

(1) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٨٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٨٢)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٧٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٧).

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾؛ أي: أخبِرْهم ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: عن الملائكةِ الذين دخَلُوا عليه على هيئةِ الأضيافِ، وقد مضَتْ هذه القصّةُ في سورةِ هودٍ.

والضَّيفُ: مصدرُ ضافَ يضيفُ؛ أي: أتى إنسانًا لطلَبِ القِرَى، ثمَّ سُمِّيَ به، ولهذا وُحِّدَ في اللَّفظِ وهم جماعةٌ، وهو كقولِكَ: «رجلٌ صَومٌ» و: «رجالٌ صَومٌ».

قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾؛ أي: حيَّوا إبراهيمَ بالتَّسليمِ، فـ﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾؛ أي: فزِعُونَ، والوَجِلُ والواجِلُ: الذي يَفزعُ، وإنَّما قال بعد أن قرَّبَ العجلَ ورآهم لا يأكلُونَ.

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾؛ أي: قالتِ الملائكةُ له: لا تخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: سيُولَدُ لك غلامٌ فيكونُ عالِـمًا بالدِّينِ؛ أي: إسحاق

قوله: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ أي: على حالةِ الكِبَرِ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ هذا استفهامُ تعجُّبٍ.

وقيلَ: استفهامٌ حقيقيٌّ؛ أي: أجادُّونَ أنتُم في هذا القولِ؟

قُرِئَ: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ بفتحِ النُّونِ، وقُرِئَ: ﴿تُبشِّرونِّ﴾ بتشديدِ النُّونِ وكسرِها؛ أي: بِمَ تُبشِّرونَني، وأُدغِمَ النُّونُ في النُّونِ، وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ والتَّخفيفِ(١)، حُذِفَتْ إحدى النُّونَينِ للاستثقالِ، وبقيَ الكسرةُ التي تدلُّ على الياءِ التي هي دلالةُ المفعولِ، والمحذوفُ النُّونُ الثّانيةُ؛ لأنَّ الأصلَ: «تُبشِّرونَني» والنُّونُ الأولى علامةُ الرَّفعِ، وإنَّما وقعَ التَّكريرُ بالثّانيةِ.

---

(١) قرأ نافع بكسر النون مخففة، وابن كثير بكسرها مشددة، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

قوله: ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: بما لا خُلفَ فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴾؛ أي: منَ الآيِسينَ، وكان قد أيِسَ منَ الولدِ لفَرْطِ الكِبَرِ.

قوله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ بكسرِ النُّونِ وفتحِها[1]، وهما لغتانِ «قنَطَ يقنِطُ» وهو الأحسنُ، و«قنِطَ يقنَطُ».

﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾؛ أي: الذّاهبُونَ عن طريقِ الصَّوابِ، يعني: أنَّه استبعَدَ الولدَ لكبَرِ السِّنِّ، لا أنَّه قنَطَ من رحمةِ الله.

***

(٥٧ - ٦٠) - ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾؛ أي: فعلِمَ أنَّهم ملائكةٌ؛ إذ أخبرُوه بأمرٍ خارقٍ للعادةِ وبشَّرُوه بالولدِ، فقال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾؛ أي: فما شأنُكم؟ وما الذي جئتُم به؟

والخَطْبُ: الأمرُ الخطيرُ.

قوله: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾؛ أي: إلى قومٍ اكتسَبُوا الكفرَ بالله وارتكَبُوا ما لم يسبِقْهم إليه أحدٌ منَ الفاحشةِ، وهم قومُ لوطٍ.

قوله: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: أُرسِلْنا إلى قومٍ مُجرمينَ لنُهلِكَهم إلّا آلَ لوطٍ.

آلُ لوطٍ: أتباعُه في دينِه.

وقيلَ: هم أهلُ لوطٍ، ولم يكُنْ هناكَ مُسلمٌ غيرُهم، وهم لوطٌ وابنَتاه.

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون، وباقي السبعة بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ منَ التَّنجيةِ، ومنَ الإنجاءِ، والتَّنجيةُ والإنجاءُ: التَّخليصُ.

قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثنَى من آلِ لوطٍ امرأتَه، وكانت كافرةً، فإنْ قلتَ: «آلُ لوطٍ: أهلُه» فالاستثناءُ غيرُ مُنقطعٍ، وإنْ قلتَ: «أتباعُه» فالاستثناءُ مُنقطعٌ.

﴿قَدَّرْنَآ﴾؛ أي: قضَيْنا، أو: دبَّرْنا، وقُرِئَ: ﴿قَدَرْنا﴾ مُخفَّفًا[1]، وهو بمعنى ﴿قَدَّرْنَآ﴾.

﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: منَ الباقينَ المُخلَّفينَ الذين حُكِمَ عليهم بالهلاكِ.

* * *

(٦١ ـ ٦٥) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: أهلَ منزلِ لوطٍ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ أي: لا نعرِفُكم ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: بما كان يشُكُّ قومُكَ في نُزولِه بهم من عذابِ الله إذ حذَّرتَهم، فقولُه: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ﴾؛ أي: دَعْ إنكارَكَ إيَّانا فإنَّا رُسُلُ ربِّكَ.

قولُه: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعذابِ، وقيلَ: باليقينِ.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾؛ أي: سِرْ بهم ليلًا.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: ببقيَّةٍ منَ اللَّيلِ، والقِطْعُ: القِطعةُ، وهو اسمٌ كالقِسمِ والطِّحنِ والقِشرِ.

---

(١) هي قراءة شعبة عن عاصم، وباقي السبعة بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

ثمَّ؛ قيلَ: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: بمُضيٍّ.

وقيلَ: بقِطعٍ منَ اللَّيلِ يبقَى.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾؛ أي: كُنْ من وراءِ أهلِكَ لئلَّا يتخلَّفَ منهم أحدٌ فينالَه العذابُ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾؛ أي: لا يتخلَّفْ.

وقيلَ: نُهوا عنِ الالتفاتِ ليَجِدُّوا في السَّيرِ، ليتَباعَدُوا عن القريةِ قبلَ أن يفجَأَهُم الصُّبحُ.

﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: حيثُ يأمرُكم الله، يُريدُ الشَّامَ.

وقيلَ: إلى بعضِ قُرى لوطٍ، لم يكونُوا يعملون مثلَ عملِ سَدُومَ.

* * *

(٦٦) - ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: أوحَيْنا إليه وأعلَمْناه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: أخبَرْناه بعذابِ قومِه.

وقيلَ: أي: أعلَمْنا إبراهيمَ ما سيحُلُّ بقومِ لوطٍ.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ هو بدلٌ من قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾.

﴿مُّصْبِحِينَ﴾؛ أي: عندَ طُلوعِ الصُّبحِ، والدّابرُ: آخِرُ مَن بقيَ؛ أي: أنَّ أوَّلَهم وآخرَهم يُستأصَلُونَ وقتَ الصُّبحِ.

* * *

(٦٧ ـ ٦٩) ـ ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾.

قولُه: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾؛ أي: أهلُ مدينةِ لوطٍ، قيلَ: إنَّها مدينةُ سدومَ، و﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾؛ أي: للطَّمعِ في ركوبِ الفاحشةِ.

قولُه: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي ﴾؛ أي: أضيافي ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾؛ أي: فلا تُخجِلُوني فيهم، فيُقالُ: فضَحَه؛ إذا أبانَ[1] من أمرِه ما يلزَمُه به العارُ.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ يُقالُ: خَزِيَ الرَّجلُ؛ أي: فعلَ ما يُفتَضَحُ به، وأخزاه غيرُه؛ أي: فضَحَه.

* * *

(٧٠ ـ ٧١) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾؛ أي: أن تُدخِلَ بيتَكَ أحدًا منَ العالمين؛ لأنَّا نُريدُ منهم الفاحشةَ.

وقيلَ: أوَلَـم ننْهَكَ عن أن تُكلِّمَنا في أحدٍ منَ النّاسِ إذا قصَدْناه بالفاحشةِ.

قولُه: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾؛ أي: بناتُ أمَّتي، فتزوَّجُوهُنَّ ولا ترتكِبُوا الحرامَ.

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾؛ أي: ما آمرُكم به، أو: إنْ كنتُم طالبينَ الاستمتاعَ.

وقيلَ: عنَى بناتِ نفسِه، ولعلَّه قال ذلك بشرطِ أن يُسلِمُوا، أو كان يجوزُ في شرعِه أن ينكحَ المُشركُ مسلمةً.

* * *

(١) في (أ): «أي أبان».

(٧٢) - ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾؛ أي: وحياتِكَ يا محمَّدُ، وهذا إجلالٌ له عليه السَّلامُ بالقَسَمِ بحياتِه.

والعَمْرُ والعُمْرُ بمعنَى الحياةِ، وعمِرَ الرَّجلُ يعمَرُ عَمْرًا وعُمْرًا، وتقولُ في القَسَمِ «لَعَمْرُكَ» بالفتحِ لا غيرُ؛ لأنَّ الفتحَ أخفُّ، ويكثُرُ القَسَمُ[1].

و﴿لَعَمْرُكَ﴾ مبتدأٌ، والخبرُ مُضمَرٌ؛ أي: لَعَمْرُكَ قَسَمي ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾؛ أي: في ضلالتِهم، يعني: كفّارَ قُريشٍ، وهذا كلامٌ مُعترِضٌ في قصّةِ لوطٍ.

ويحتملُ أن يُقالَ: يرجعُ ذلك إلى قومِ لوطٍ؛ أي: كانوا في سكرَتِهم، وأصلُ السُّكرِ منَ السَّترِ، ومنه «سكَرْتُ الماءَ»؛ أي: حبَستُه، والسُّكرُ: احتِباسٌ يعرِضُ للعقلِ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يترَدَّدُونَ.

وقيلَ: لمَّا وعظَ لوطٌ قومَه وقال: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ قالتِ الملائكةُ: يا لوطُ لعَمْرُكَ إنَّهم لفي سكرَتِهم، ولا يدرُونَ ما يَحِلُّ بهم صباحًا.

* * *

(٧٣) - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهي الهلاكُ، و«صاحَ الزَّمانُ بفلانٍ»؛ أي: هلَكَ.

وقيلَ: كان ذلك صيحةً عظيمةً فاجَأَتهم من فعلِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿مُشْرِقِينَ﴾ يُقالُ: «أشرَقَتِ الشَّمسُ»؛ أي: أضاءَتْ، و«أشرَقَتِ الأرضُ بضوءِ

---

(١) أي: هم يكثرون القسم بـ: لَعَمْري ولعَمْرك، فلزموا الأخَفَّ عليهم. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٨٣).

الشَّمسِ»؛ أي: أضاءَتْ، و«أشرَقَ القومُ»؛ أي: دخلُوا في وقتِ شُروقِ الشَّمسِ، مثلَ: «أصبَحُوا وأمسَوا»، وهو المُرادُ في الآيةِ.

وقيلَ: أرادَ شُروقَ الفجرِ.

وقيلَ: أوَّلُ العذابِ كانَ عندَ الصُّبحِ، وامتَدَّ إلى شروقِ الشَّمسِ، فكان تمامُ الهلاكِ عندَ ذلك.

* * *

(٧٤) ـ ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

قولُه: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلَّبْناها عُلوًّا لسُفْلٍ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾؛ أي: أرسَلْنا عليها كالمطرِ يأتي منَ السَّماءِ ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من طينٍ قد صلُبَ واشتَدَّ.

ثمَّ هذا الإمطارُ كانَ قبلَ أن قلَبَها.

ويجوزُ أن يكونَ قلَبَها فهلَكَ البعضُ، فأمطَرَ عليهم الحجارةَ لاستئصالِ الباقينَ.

* * *

(٧٥ ـ ٧٧) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: للمُتَفرِّسينَ.

وقيلَ: للمُعتَبِرينَ النّاظرينَ في العواقبِ، يُقالُ: توسَّمْتُ الشَّيءَ؛ أي: أعلَمْتُه بعلامةٍ، وسيما الشَّيءِ: علامتُه.

قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾؛ أي: وإنَّ مدينةَ لوطٍ، وقد سبقَ ذِكرُها في قولِه: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾.

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: على طريقِ قومِكَ يا محمَّدُ إلى الشّامِ؛ أي: لبسبيلٍ معروفٍ واضحٍ، والاعتبارُ فيها ممكنٌ.

قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لَعبرةً للمُصدِّقينَ.

***

(٧٨ ـ ٧٩) ـ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ هم قومٌ آخرونَ عرَفَتِ العربُ بلدَهم بقُربِهم، ثمَّ قيلَ: هم قومُ شُعَيبٍ، والأيكةُ: الغَيضةُ، وهي الموضعُ الذي فيه الشَّجرُ المُلتَفُّ، وهكذا كانَ بلدُ هؤلاءِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: الأَيكُ: شجرُ المُقْلِ، وهي التي يُقالُ لها: الدَّوْمُ[1].

و﴿إنْ﴾ هي الثَّقيلةُ خُفِّفَتْ، واللّامُ تأكيدٌ؛ أي: وقد كانَ هؤلاءِ ظالمين أيضًا لأنفُسِهم.

وقيلَ: أي: وما كانَ أصحابُ الأَيكةِ لَظالمينَ[2].

قولُه: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: عذَّبناهم بما نقَمْنا منهم.

﴿وَإِنَّهُمَا﴾؛ أي: بلادُ لوطٍ وبلادُ شُعَيبٍ ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لَبطريقٍ ظاهرٍ في الأسفارِ، والإمامُ: الطَّريقُ؛ لأنَّه يُؤَمُّ ويُتَّبعُ.

﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: واضحٍ في نفسِه، وقيلَ: مُبينٍ لغيرِه الطَّريقَ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٤٠)، والدَّوْمُ: ضِخامُ الشَّجرِ ما كان، وقيل: هو شجرٌ يُشبِهُ النَّخل، إلَّا أنه يُثمِرُ المُقْلَ، وله لِيفٌ وخُوصٌ. انظر: «مجمع الغرائب» للفارسي (مادة: دوم).

(٢) في (أ): «ظالمين».

وقال ابنُ عبّاسٍ: هؤلاءِ هم الذين أُهلِكُوا بعذابِ يومِ الظُّلّةِ، فكان شُعَيبٌ رسولًا إلى أهلِ مدينَ، وعذابُ أهلِ مدينَ كان بالصَّيحةِ، وعذابُ أصحابِ الأيكةِ كان بالحرِّ سبعةَ أيّامٍ، ثمَّ أظلَّتهم سحابةٌ سوداءُ فالتَجؤُوا إلى ظلِّها فأحرَقَهم الله، فهو عذابُ يومِ الظُّلّةِ[1].

* * *

(٨٠ ـ ٨١) ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم ثمودُ، وقومُ صالحٍ، وكانت منازِلُهم الحِجْرَ إلى وادي القُرى بين الحجازِ والشّامِ، وكان أمرُهم ومنازلُهم وما نزلَ بهم معروفًا عند العربِ.

وأرادَ بالمُرسلين صالحًا وحدَه، ولكنَّ مَن كذَّبَ نبيًّا فقد كذَّبَ الأنبياءَ؛ لأنَّهم على دينٍ واحدٍ في الأصولِ، فلا يجوزُ التَّفريقُ بينَهم.

وقيلَ: كذَّبوا صالحًا ومَن تقدَّمَه منَ النَّبيِّين أيضًا.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: آتَيناهُم بآياتِنا، كقولِه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]؛

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧١)، عن قتادة، ولفظه: «ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة، وكان عامة شجرهم هذا الدوم، وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب ﷺ، أرسل إليهم وإلى أهل مدين، أرسل إلى أمتين من الناس، وعذبتا بعذابين شتى، أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة، وأما أصحاب الأيكة، فكانوا أهل شجر متكاوس، ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام، لا يظلهم منه ظل، ولا يمنعهم منه شيء، فبعث الله عليهم سحابة، فحلوا تحتها يلتمسون الروح فيها، فجعلها الله عليهم عذاباً، بعث عليهم ناراً فاضطرمت عليهم فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم».

أي: ائتِنا بغَدائِنا، والمُرادُ بالآيةِ: النّاقةُ، وكانَ فيها آياتٌ جمّةٌ: خروجُها منَ الصَّخرةِ، ودُنُوُّ نَتاجِها عند خُروجِها، وعِظَمُها حتَّى لـم تُشبِهْها ناقةٌ، وكثرةُ لبنِها حتَّى يكفيهم جميعًا، ويحتملُ أنَّه كان لصالحٍ آياتٌ أُخَرُ[1] سوى النّاقةِ، ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: لـم يعتَبِرُوا.

* * *

(٨٢ ـ ٨٤) ـ ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾؛ أي: لأنفسِهم بشدّةِ قُوَّتِهم ﴿ءَامِنِينَ﴾ منَ الموتِ، أو منَ العقابِ، أو من أن تخرَّ عليهم أو تُخرَّبَ.

قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحةُ الهلاكِ ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: حينَ أصبَحُوا في اليومِ الرّابعِ عند العذابِ إذ قيلَ لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

قولُه: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾؛ أي: ما نفعَهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ منَ الأموالِ والحصونِ في الجبالِ، ولا دفَعَ عذابَ الله عنهم، أو: فما أغنَى عنهم أفعالُـهم المذمومةُ.

* * *

(٨٥ ـ ٨٦) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قـولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: خلقْتُ ذلك لأُجازيَ المُحسِنَ والمُسيءَ، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

---

(١) في (أ): «أخرى».

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾؛ أي: إنَّ القيامةَ لكائنةٌ فنجزي كلَّ أحدٍ.

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾؛ أي: عن المُشركينَ، ثمَّ قيلَ: نُسِخَ بآيةِ السَّيفِ[1].

وقيلَ: ليس منسوخًا، بل هو أمرٌ بالصَّفحِ في موضعِه، والقتالِ في موضعِه.

والصَّفحُ: الإعراضُ.

* * *

(٨٧) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بيَّنَ ما منَّ به على النَّبيِّ عليه السَّلامُ منَ القرآنِ المُعجِزِ الذي فيه بيانُ الأحكامِ وأخبارُ الأممِ السّالفةِ.

والسَّبعُ المثاني قيل: الفاتحةُ؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قرأ الفاتحةَ فقال: «هي السَّبعُ المثاني»[2].

وقال ابنُ عبّاسٍ: السَّبعُ المثاني: السَّبعُ الطِّوالُ، البقرةُ وآلُ عمرانَ والنِّساءُ والمائدةُ والأنعامُ والأعرافُ والأنفالُ والتَّوبةُ معًا[3]؛ إذ ليس بينَهما تسميةٌ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠٧) عن قتادة والضحاك ومجاهد وسفيان بن عيينة. وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ١٧٠) عن عكرمة.

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه، و(٤٧٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه سفيان في «تفسيره» (ص: ١٦١) مقتصراً على قوله: «السبع الطوال»، ورواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٨١) بعدِّ السور السبعة إلا أنه ذكر سورة يونس بدل الأنفال والتوبة. ورواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢١٢) ولم يذكر السورة السابعة، وكذا الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٠٨) وذكر عن إسرائيل ـ أحد رجال السند ـ أنه قال: «وذكر السابعة فنسيتها».
وانظر في ترك التسمية بين الأنفال والتوبة ما تقدم في أول سورة التوبة.

وسُمِّيت مثانيَ لأنَّ العبَرَ والأحكامَ والأمثالَ والحدودَ ثبتَتْ فيها.

وأنكرَ قومٌ هذا، وقالوا: نزلَتْ هذه الآيةُ بمكّةَ ولـم ينزِلْ منَ الطِّوالِ شيءٌ إذ ذاك[1].

وأُجيبَ عن هذا: بأنَّ الله أنزَلَ القرآنَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ أنزلَه منها نُجومًا، فما أنزلَه إلى السَّماءِ الدُّنيا فكأنَّما آتاه مُحمَّدًا ﷺ وإنْ لـم ينزِلْ عليه بعدُ.

وقيلَ: القرآنُ كلُّه مثانٍ، قالَ الله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ أي: ثُنِيَتِ القصصُ فيه، والمُرادُ بالسَّبعِ: أقسامُ القرآنِ؛ فإنَّه سبعةُ أسباعٍ.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ على القولِ الأخيرِ هـو السَّبعُ المثاني، فـأدخلَ فيه الواوَ لاختلافِ اللَّفظَينِ، وعلى الأقوالِ الأُخَرِ أفـردَ البعضَ الذي هـو المثاني بالذِّكرِ تخصيصًا كقولِه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقيلَ: أي: آتَيناك الفاتحةَ وبقيّةَ القرآنِ، وبعضُ القرآنِ قد يُسمَّى قرآنًا كقولِه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، أو: آتيناكَ الفاتحةَ وهي القرآنُ العظيمُ لاشتمالِـها على ما يتعلَّقُ به أصولُ الإسلامِ.

***

(٨٨ ـ ٨٩) ـ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قولُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: لا تتشَوَّفْ لزينةِ الدُّنيا، فإنَّها كانت لأقوامٍ ثمَّ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢١٩٧)، عن الربيع بن أنس.

انقرَضُوا ولم يصحَبْهم منها شيءٌ، فكان عليه السَّلامُ بعد هذا لا ينظرُ إلى ما يُستَحسَنُ من متاعِ الدُّنيا.

وقيلَ: وافى سبعُ قوافلَ من بُصرَى وأذرعاتٍ ليهودِ قُريظةَ والنَّضيرِ في يومٍ واحدٍ، فيها البزُّ والطِّيبُ والجوهرُ وأمتعةُ البحرِ، فقال المسلمونَ: لو كانت هذه الأموالُ لنا لتقَوَّينا بها وأنفقْناها في سبيلِ الله، فأنزلَ الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾؛ أي: فهي خيرٌ لكم منَ القوافلِ السَّبعِ، فلا تمدُّوا أعيُنَكم إليها(١).

وصارَ ابنُ عُيَينةَ إلى هذا، وأَورَدَ عليه قولَه عليه السَّلامُ: «ليس منَّا مَن لـم يتغَنَّ بالقرآنِ»؛ أي: مَن لـم يستغنِ بالقرآنِ(٢).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧)، وتلميذه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٧)، ونسباه للحسين بن الفضل البجلي. وتابعهما في إيراد هذا الخبر في تفاسيرهم: المصنف وابن الجوزي والفخر الرازي والقرطبي والبيضاوي، لكن رده الخازن في «تفسيره» (٣/ ٦١) بقوله: وهذا القول ضعيف، أو لا يصح؛ لأن هذه السورة مكية بإجماع أهل التفسير، وليس فيها من المدني شيء، ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة، وكيف يصح أن يقال: إن سبع قوافل جاءت في يوم واحد، فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية، وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل؟!
وقد ذكر القصة أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٩/ ٢٢٠) دون الإشكال المذكور، وفيه: «قيل: قَدمَتْ لأبي جهلٍ ـ لعنه الله ـ في يومٍ واحدٍ سبعُ قوافل للتِّجارة، معها مالٌ كثيرٌ وطعام ومطاعم وثياب، وكان بأصحاب رسول الله ﷺ يومَئذٍ عُرْيٌ وجوعٌ...» الحديث، لكن يبقى أنه ليس لهذا الحديث سند يعرف، والله أعلم.

(٢) رواه عن سفيان بن عيينة: أبو عبيد في «غريب الحديث» (١/ ٣٨٤)، وأبو داود (١٤٧٢)، واختاره أبو عبيد مستدلًا ببعض الأخبار المروية في هذا المعنى تنظر ثمة. والمرفوع رواه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٧٢)، وأبو داود (١٤٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٩١)، من حديث سعد رضي الله عنه. =

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: أمثالًا في النِّعمِ؛ أي: إنَّ الأغنياءَ بعضُهم أمثالُ بعضٍ في الغِنَى فهم أزواجٌ.

وقيلَ: الزَّوجُ: الصِّنفُ، يعني: أصنافَ الكفّارِ منَ اليهودِ والمُشركينَ.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على تقاعُدِهم عن الإيمانِ والطّاعةِ.

وقيلَ: لا تحزَنْ على ما مُتِّعُوا به في الدُّنيا؛ فإنَّ لك في الآخرةِ خيرًا منه، وقد قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقيلَ: لا تحزَنْ عليهم إنْ صارُوا إلى العذابِ فهم أهلُ العذابِ.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أَلِنْ جانِبَكَ لمَن آمنَ بك، وتواضَعْ لهم وارفُقْ بهم، وأصلُه: أنَّ الطّائرَ إذا ضمَّ فرخَه إلى نفسِه بسطَ جناحَه ثمَّ قبضَه على الفرخِ، فجُعلَ ذلك وصفًا لتقريبِ الإنسانِ أتباعَه، ويُقالُ: «فلانٌ خافضُ الجناحِ»؛ أي: وَقورٌ ساكنٌ.

قولُه: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: أُنذِرُكم عذابَ الله، وأُبيِّنُ لكم أحكامَ الدِّينِ.

* * *

= قال الطيبي: قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» لا يصلح للاستشهاد، لِمَا رويناه عن أبي داود [(١٤٧١)] عن أبي لبابة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، قال: فقلت لابن أبي مُليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع.

وروى البيهقي عن الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» فقال له رجل: يستغن؟ قال: ليس هذا معناه. أي: معناه: يقرأه تحزيناً. انظر: «السنن الصغرى» للبيهقي (ص: ٥٥٩)، و«الكافي الشاف» (ص: ٩٣).

(٩٠) ـ ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾.

قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هم الذين اقتَسَمُوا طرُقَ مكّةَ يصُدُّونَ النّاسَ عن رسولِ الله ﷺ والإيمانِ به، وكانوا قريبًا من أربعينَ رجلًا(١).

وقيلَ: ستَّةَ عشرَ رجلًا بعثَهم الوليدُ بنُ المُغيرةِ أيامَ الموسمِ فاقتسَمُوا أعقابَ مكّةَ وأنقابَها، يقولُ لمَن سلَكها: لا تغترُّوا بهذا الخارجِ فينا لدعوَى النُّبوّةِ فإنَّه مجنونٌ، وربَّما قالوا: ساحرٌ، وربَّما قالوا: شاعرٌ، وربَّما قالوا: كاهنٌ، وسُمُّوا المُقتَسمين؛ لأنَّهم اقتسَمُوا هذه الطُّرقَ فأماتَهم الله شرَّ ميتةٍ؛ أي: أُنذِرُكم مثلَ ما أنزَلْنا بالمُقتَسِمينَ(٢).

وقيلَ: الكافُ زائدةٌ؛ أي: أُنذِرُكم ما أنزَلْنا بالمُقتَسمينَ، كقولِه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: مثلَه.

[وذكَرَ صاحبُ «النظم» وجهًا آخَرَ، هو أنْ يكونَ التأويلُ](٣): ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ عذابًا ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، فحُذِفَ المفعولُ، وهو المُشبَّه ودلَّ عليه المُشبَّه به، كما تقولُ: «رأيتُكَ القمرَ في الحسنِ»؛ أي: رجلًا كالقمرِ.

وقيلَ: المُقتَسِمُونَ اليهودُ والنَّصارَى، آمَنُوا ببعضِ القرآنِ وكفَرُوا ببعضِه، أو لأنَّهم اقتَسَمُوا القرآنَ استهزاءً، فقال بعضُهم: سورةٌ كذا إلى سورةِ كذا لفُلانٍ،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٥٨)، من رواية عطاء عن ابن عباس، وهو طريق واه، وقد روى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٥٣) من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس القصة، وفيه أنهم كانوا ثمانية.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٣٧ ـ ٤٤٠)، وعنه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٥٢٠)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٦٥٨).

(٣) ما بين معكوفتين من «البسيط» (١٢/ ٦٦٠)، والكلام منه.

أو لأنَّهم اقتَسَمُوا كتابَهم فحرَّفُوا البعضَ، أو اقتَسَمُوا القرآنَ فقال بعضُهم: إنَّه سحرٌ، وقال بعضُهم: إنَّه كذبٌ، وقال بعضُهم: سَمَرٌ، أو اقتَسَمُوا الأنبياءَ فآمَنُوا ببعضٍ دونَ البعضِ.

وقيلَ: المُقتَسِمُونَ قومُ صالحٍ، تقاسَمُوا لنُبيِّتَنَّه وأهلَه، فرمَتْهم الملائكةُ بالحجارةِ، وعلى هذا: الاقتِسامُ منَ القسَمِ بمعنَى اليمينِ، لا منَ القِسمةِ.

وقيلَ: هم الذين تحالَفُوا على تكذيبِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ.

* * *

(٩١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ هو صفةُ المُقتَسِمين.

وقيلَ: هو مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾.

وواحدُ ﴿عِضِينَ﴾: عِضةٌ، وأصلُه: «عِضْوَةٌ» من عَضَّيْتُ الشَّيءَ؛ أي: فرَّقتُه، وكلُّ فرقةٍ عِضةٌ، وهي مثلُ «عِزَةٍ وقُلةٍ وبُرَةٍ»، ويرجعُ المعنى إلى ما ذكَرْناه في ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾؛ أي: جعَلُوا قولَهم في القرآنِ مُفرَّقًا فقالوا: سِحرٌ، وقالوا: أساطيرُ الأوَّلينَ.

وقيلَ: هو منَ العَضْهِ والعَضِيهةِ، وهي أن تعضِهَ الإنسانَ وتقولَ فيه ما ليس فيه، وأصلُ «عِضَة»: «عِضَهةٌ»، فاستثقَلُوا الهاءَين فقالوا: عِضَةٌ، كما قالوا: «شفةٌ»، والأصلُ: «شَفَهةٌ»؛ لأنَّك تقولُ: «شافَهْتُ»، وقالوا: «سنةٌ»، والأصلُ: «سنَهةٌ»، والعَضْهُ: الكذبُ؛ أي: فرَّقُوا كتابَ الله بالفريةِ، وقالوا: إنَّه كذبٌ.

وقيلَ: العَضْهُ: السِّحرُ[1]، ويُقالُ للسّاحرِ: عاضِهٌ؛ أي: قالوا للقرآنِ إنَّه سحرٌ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٣٧)، عن عكرمة.

وقيلَ: «عِضُون» في الجمعِ ليكونَ الجمعُ بالواوِ والنُّونِ عِوَضًا مـمَّا لحقَها من الحذفِ، فعلى الأوَّلِ حُذِفَ الواوُ التي هي لامُ الفعلِ، وعلى الثّاني الهاءُ.

* * *

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ ﴾؛ أي: لَنسألَنَّ هؤلاءِ الذين جرَى ذِكرُهم عما عمِلُوا في الدُّنيا، وسُئِلَ ابنُ عبّاسٍ عن الجمعِ بينَه وبين قولِه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] فقالَ: لا يُسألونَ سؤالَ استفهامٍ؛ لأنَّ الله عالـمٌ بكلِّ شيءٍ، ولكنْ يُسألونَ سؤالَ تقريعٍ، فيُقالُ: لِـمَ عصَيتُم القرآنَ؟ وما حُجَّتُكم فيه[1]؟

* * *

(٩٤) ـ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

قولُـه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾؛ أي: بلِّـغْ رسـالةَ الله جميـعَ الخلـقِ، فقـد أمـرَكَ الله بذلـك، والصَّـدْعُ: الشَّـقُّ، وتصَـدَّعَ القـومُ؛ أي: تفرَّقُوا، ومنـه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾؛ أي: يتفرَّقُـونَ؛ أي: اِصـدَعِ الباطـلَ بالحقِّ.

﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: اِمضِ على تبليغِ الرِّسالةِ بأمرِ الله؛ فإنَّه أمركَ به.

وقيلَ: أي: فاصدَعْ بما تُؤمَرُ به، فحُذِفَ حرفُ الصِّلةِ، كقولك: «إنِّي لأكفرُ بك، وأكفرُكَ».

وقيلَ: (ما) مع الفعلِ بمنزلةِ المصدرِ؛ أي: فاصدَعْ بالأمرِ، كقولك: «ما أحسَنَ ما ينطلقُ»؛ أي: ما أحسَنَ انطِلاقَه.

---

(١) روى معناه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤١).

وقيلَ: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أرادَ الجهرَ في الصَّلاةِ.

وقيلَ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾؛ أي: فرِّقْ جمعَهم وكلمتَهم بأن تدعُوَهم إلى التَّوحيدِ؛ فإنَّهم يتفرَّقُون بأن يُجيبَ البعضُ، فيرجعُ الصَّدْعُ على هذا إلى صَدْعِ جماعةِ الكفَّارِ.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: عنِ المُبالاةِ بهم وبما يقولون، فقد برَّأكَ الله عما يقولون.

ثمَّ قيلَ: قولُه: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ منسوخٌ بآيةِ القتالِ[1].

وقيلَ: ليستْ بمنسوخةٍ.

* * *

(٩٥) - ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ وكانوا رُؤساءَ معروفينَ؛ أي: فكذلك نكفيكَ أمرَ الباقينَ.

وقيلَ: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ﴾؛ أي: سنكفيكَ عن قريبٍ، كما يُقالُ: أتاكَ المدَدُ؛ أي: هو قريبٌ منكَ، وكان المُستَهزِئونَ خمسةً: الوليدُ بنُ المُغيرةِ، والعاصُ بنُ وائلٍ، وعديُّ بنُ قيسٍ، والأسودُ بنُ المُطَّلِبِ، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، سلَّطَ الله عليهم جبريلَ فقتَلَ كلَّ واحدٍ منهم بآفةٍ.

وقيلَ بدلَ عديِّ بنِ قيسٍ: الحارثُ الخزاعيُّ.

وقيلَ: أتَى جبريلُ عليه السَّلامُ فمرَّ به الأسودُ بنُ المُطَّلبِ فرَماه في وجهِه بورقةٍ خضراءَ، فعمِيَ ووقعَتْ عينُه، فجعَلَ يضرِبُ رأسَه بالجدارِ حتَّى ماتَ، ومرَّ به

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص: ٥٣٩).

الأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، فأشارَ إلى بطنِه فاستسقَى بطنُه فماتَ فيه، ومرَّ به الوليدُ بنُ المُغيرةِ، فأشارَ إلى أثرِ جُرحٍ بأسفلِ كعبِه كان أصابَه قبلَ ذلك بسنتَينِ، فانتقَضَ به فقتلَه، ومرَّ به العاصُ بنُ وائلٍ، فأشارَ إلى أخمصِ رجلَيه فخرجَ على حمارٍ له يُريدُ الطّائفَ، فربضَ على شِبْرِقةٍ، فدخلَتْ في أخمصِ رجلِه شوكةٌ منها فقتَلَه، ومرَّ به الحارثُ الخزاعيُّ، فأشارَ إلى رأسِه فصارَ قَيحًا وماتَ فيه.

وقيلَ: بل أشارَ إلى بطنِه فأكلَ سمكةً مالحةً، فما زالَ يشربُ الماءَ حتَّى تفطَّرَ وماتَ.

وقيلَ: خرجَ الأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ مُتنزِّهًا، فرجعَ إلى أهلِه وقد اسوَدَّ جلدُه، فلم يفتَحْ أهلُه له البابَ، ولم يعرِفُوه وماتَ فيه[1].

وقد قيلَ: إنَّهم هلَكُوا في يومٍ واحدٍ.

***

(٩٦) - ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا صفةُ المُستهزِئينَ.

وقيلَ: هو ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٩٨٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٨)، وفي «الدلائل» (٢/ ٣١٦)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٩٦)، من طريق جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وصححه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٢٥).
ورواه ابن حبيب النيسابوري في «عقلاء المجانين» (ص: ٩ ـ ١٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٦٥) عن مقسم مولى ابن عباس.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤٦ ـ ١٤٨) عن عروة بن الزبير وسعيد بن جبير.
وذكر نحوه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٥)، دون نسبة.
وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠).

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: المُشرِكُونَ، فافزَعْ إلى الصَّلاةِ والعبادةِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿فَسَبِّحْ﴾؛ أي: فصَلِّ[1].

وقيلَ: فسبِّحْه بالتَّحميدِ؛ فإنَّه كفاكَ قومًا، وسيكفيكَ الباقينَ.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾؛ أي: المُصلِّينَ.

* * *

(٩٩) ـ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

قولُه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾؛ أي: الموتُ؛ لأنَّه مُستيَقَنٌ، فاليقينُ بمعنَى المُوقَنِ به، مثلَ قولِهم: «ليلٌ مُبهَم وبهيمٌ».

وقيلَ: حتَّى يأتيَكَ المُتيقَّنُ[2] من وعدِ الله فيما يُنزِلُه بهؤلاءِ.

والسُّورةُ مكِّيَّةٌ.

* * *

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٣٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٥٣٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٦/ ٨٨).

(٢) في (أ): «اليقين».

سُورَةُ النَّحۡلِ

تفسيرُ سورةِ النَّحلِ

بسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾؛ أي: عذابُ الله، فأمرُه: ما توعَّدَهم به على الكفرِ منَ الجزاءِ، كما قال: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

وقيلَ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الأمرُ بالسَّيفِ والقتالِ.

وقيلَ: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: السّاعةُ؛ أي: إنَّها قريبةٌ.

وقال: ﴿أَتَىٰٓ﴾ لأنَّه آتٍ لا محالةَ، كقولِه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤][(١)].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهًا له؛ أي: إنَّ المُشركينَ يقولونَ: لا تقومُ السّاعةُ ولا يقدرُ أحدٌ على بعثِ الأمواتِ، فقال: قرُبَ أمرُ السّاعةِ، وجلَّ الله عمَّا يصِفُونَه به من أنَّه لا يقدرُ على إقامةِ السّاعةِ؛ فإنَّ ذلك شركٌ؛ إذ وصَفُوه بالعجزِ الذي لا يُوصَفُ به إلا المخلوقُ.

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: عن إشراكِهم.

وقيلَ: (ما) بمعنَى (الذي)؛ أي: ارتفَعَ عن الذي أشرَكُوا به.

***

---

(١) أي: سينادونهم لا محالة.

(٢) - ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بالوحيِ؛ فإنَّ كلامَ الله سببُ حياةِ الخلقِ من موتِ الكفرِ.

وقال أبو عُبيدةَ: الرُّوحُ هاهُنا جبريلُ، والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بمعنى «مع»[1]، كقولِكَ: «خرجَ بثيابِه»؛ أي: مع ثيابِه، و«ركبَ الأميرُ بسلاحِه».

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: من فعلِه في الوحيِ.

وقيلَ: أمرُه: شرائعُه وأحكامُ دينِه.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ أي: على الذين اختارَهم للنُّبوّةِ، وهذا ردٌّ لقولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾؛ أي: تتنزَّلُ الملائكةُ على مَن اختارَه للنُّبوّةِ بأن أنذِرُوا أهلَ الكفرِ بأنَّه لا إلهَ إلّا الله.

قُرِئَ: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بياءٍ مضمومةٍ، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ منصوبةٌ.

وقُرِئَ: ﴿يُنزِلُ الملائكةَ﴾ بالتَّخفيفِ[2].

وقُرِئَ: ﴿تَنَزَّلُ﴾ بفتحِ التّاءِ والزّايِ وتشديدِها، و﴿الملائكةُ﴾ بالرَّفعِ[3].

* * *

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٣)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٠)، ورجح الواحدي الوجه الأول.

(٢) قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بالتَّخفيف وباقي السبعة بالتَّشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«التيسير» (ص: ٧٥).

(٣) وهي رواية روح عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٢).

(٣) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: الدّلالةِ على قُدرتِه، وأنَّ له أن يَتعبَّدَ العبادَ بالطّاعةِ، وأن يُحييَ الخلقَ بعد الموتِ.

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ أشرَكُوا مَن لا يقدرُ على خلقِ شيءٍ.

* * *

(٤) ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جاءَ أُبيُّ بنُ خلفٍ الجمَحيُّ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ بعظمٍ رَميمٍ فقال: أترَى يُحيي الله هذا بعدَما قد رمَّ؟ وفي هذا أيضًا نزَلَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧](1)؛ أي: خلَقَ الإنسانَ من ماءٍ يخرجُ من بينِ الصُّلبِ والتَّرائبِ، فنقلَه أطوارًا إلى أن وُلِدَ ونشأ بحيثُ يخاصمُ في الأمورِ.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٤٦٠)، وهو في «النكت والعيون» (٣/ ١٧٩) عن الكلبي، ودون عزو في «تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٦٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٦/ ١٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٧٨).

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٩٨)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٨٧) عن قتادة، في نزول قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

وكذا جاء في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) عن ابن إسحاق.

وكذا رواه البيهقي في «البعث والنشور» (١٦) عن أبي مالك، و(١٧) عن مقاتل بن سليمان.

وكذا رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨١٢١) عن مجاهد.

وفي رواية سعيد بن جبير عند الطبري (١٩/ ٤٨٧) أنه العاص بن وائل السهمي، وكذا رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٦) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية المذكورة من سورة (يس).

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾؛ أي: مُخاصِمٌ، كالنَّسيبِ بمعنَى المُناسبِ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿خَصِيمٌ﴾ فاعلًا من «خصَمَ يخصِمُ» بمعنَى: اختصَم.

﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهرُ الخصومةِ.

وقيلَ: يُبينُ عن نفسِه الخصومةَ بالباطلِ.

وهـذا تعجيبٌ منَ الإنسـانِ يخلقُـه الله ويُقلِّبُه في أطوارِ الخلقـةِ ثمَّ يُخاصِمُ الله فـي قُدرتِـه علـى إحيـاءِ الموتـى، وهـو كمـا قـال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨].

* * *

(٥) - ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾؛ أي: هو خالقُ[1] هذه الأشياءَ فكيف يجوزُ الإشراكُ به؟ والأنعامُ: الإبلُ والبقرُ والغنمُ؛ أي: سخَّرَها لكم لتنتفِعُوا بها.

﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ هذا ابتداءٌ؛ أي: خلقَها لكم، ثمَّ ابتدأ فقالَ: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾، الدِّفْءُ: ما يُلبَسُ منها ويُبتَنَى، وعلى الجملةِ: الدِّفءُ: ما يُستَدفَأُ به من الأكسِيةِ والأبنيةِ، ويُقالُ: «اقْعُدْ في دِفءِ هذا البيتِ»؛ أي: في كِنِّهِ.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾؛ أي: الألبانُ والسَّمنُ واللُّحومُ والظُّهورُ للرُّكوبِ.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفرَدَ منفعةَ الأكلِ بالذِّكرِ لأنَّها مُعظَمُ المنافعِ.

ثمَّ قيلَ: أرادَ: ومن لُحومِها تأكلونَ عند الذَّبحِ.

وقيلَ: تأخُذونَ كِراءَ الإركابِ.

---

(١) في (ف): «خلق».

وقيلَ: الأنعامُ يقعُ على النَّعَمِ وغيرِها، فعلى هذا ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: ومنها ما تأكُلونَ.

* * *

(٦) ـ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾؛ أي: زينةٌ ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: تردُّونَ الإبلَ بالعشيِّ إلى مُراحِها.

وقيلَ: حين ترُدُّونَ الماشيةَ أيّامَ الرَّبيعِ منَ المَرعَى.

﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ يُقالُ: سرَحَ القومُ إبلَهم سَرْحًا؛ أي: أخرَجُوها إلى المَرعَى بالغداةِ، وسرَحَ المالُ نفسُه سُروحًا.

* * *

(٧) ـ ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾؛ أي: في الأنعامِ منَ المنافعِ حملُ الأثقالِ، وهي جمعُ الثِّقلِ، وهو ما يُثقِلُ الإنسانَ حملُه.

﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ الشِّقُّ: المشقَّةُ.

وقيلَ: شِقُّ الشَّيءِ نصفُه؛ أي: لا تبلُغونَه إلّا بنُقصانِ نصفِ البدنِ والقوّةِ.

وقُرِئَ: ﴿إلّا بشَقِّ الأنفُسِ﴾ بفتحِ الشِّينِ[1]، وهو مصدرُ «شقَقْتُ عليه شَقًّا»؛ أي: أثقَلتُ عليه، وشَقَّ عليه الأمرُ مشقّةً، فهو لازمٌ ومُتعدٍّ، والشِّقُّ بالكسرِ الاسمُ منه.

---

(١) قرأ بها أبو جعفر من العشرة، والباقون بكسرها. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٢).

(٨) ـ ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ ﴾ إفرادُها بالذِّكرِ دليلٌ ظاهرٌ على أنَّها لـم تدخُلْ تحتَ لفظِ الأنعامِ.

وقيلَ: دخلَتْ ولكـنْ أفردَها بالذِّكرِ لِما يتعلَّقُ بها منَ الرُّكوبِ؛ فإنَّه يكثرُ في الخيلِ والبغالِ والحميرِ.

﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾؛ أي: وجعلَها زينةً، ففيها مع الرُّكوبِ جمالٌ كقولِه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ [فصلت: ١٢]؛ أي: وحفِظْناها حِفْظًا.

وقيلَ: أي: وخلَقَها للزِّينةِ، فهو مفعولٌ له.

وليس في الآيةِ دليلٌ على تحريمِ الخيلِ؛ إذ لو دلَّتْ عليه لدلَّتْ على تحريمِ لحومِ الحمُرِ، والسُّورةُ مكِّيَّةٌ، فأيُّ حاجةٍ كانت إلى تجديدِ تحريمِ لُحومِ الحمُرِ عامَ خيبرَ؟ وقد ثبتَ في الأخبارِ تحليلُ الخيلِ[1].

﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: سِوَى البهائمِ أشياءُ لا تعلمونَها من أنواعِ الحشراتِ

---

(١) رواه البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١)، عن جابر: «نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر، ورخص في لحوم الخيل».

وروى أبو داود (٣٨٠٨) من طريق عمرو بن دينار، أخبرني رجل، عن جابر بن عبد الله، قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أن نأكل لحوم الحمر، وأمرنا أن نأكل لحوم الخيل، قال عمرو: فأخبرت هذا الخبر أبا الشعثاء، فقال: قد كان الحكم الغفاري فينا يقول هذا، وأبى ذلك البحرُ. يريد: ابن عباس. وإسناده صحيح، والرجل المبهم هو محمد بن علي الباقر كما جاء بيانه في الحديث رقم (٣٧٨٨) عند أبي داود.

وذكر مسلم في «مقدمة صحيحه» (١/ ٣٢) عن جابر قال: «أطعمنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمر».

والهوامِّ في أسافلِ الأرضِ والبرِّ والبحرِ مـمّا لـم يرَه البشرُ ولـم يسمَعُوا به.

وقيلَ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مـمّا أعدَّ في الجنّةِ لأهلِها، وفي النّارِ لأهلِها.

* * *

(٩) ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قولُـه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: علـى الله بيـانُ قصـدِ السَّـبيلِ بالرُّسـلِ والحُجَـجِ.

وقصـدُ السَّـبيلِ: استِقامةُ الطَّريـقِ، يُقـالُ: «طريـقٌ قاصِـدٌ»؛ أي: يُـؤدِّي إلـى المطلـوبِ، وحُـذِفَ المُضـافُ وهـو البيـانُ.

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؛ أي: منَ السَّبيلِ ما هو جائرٌ، والسَّبيلُ قد يُؤنَّثُ.

﴿جَآئِرٌ﴾؛ أي: مائلٌ، يعني: اليهوديّةَ والنَّصرانيّةَ والمجوسيّةَ والأهواءَ والبِدَعَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: أي مَن أرادَ أن يهديَه سهَّلَ له طريقَ الإيمانِ، ومَن أرادَ أن يُضِلَّه ثقُلَ عليه طريقُ الإيمانِ وفروعُه(١).

وبيَّنَ أنَّ المشيئةَ لله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقيلَ: معنى الآيةِ: على رضوانِ الله قصدُ السَّبيلِ، ومـمرُّ المُطيعِ؛ فإنَّه يُثبِّتُ المؤمنَ، وأمّا الطَّريقُ الجائرُ فمَمَرُّه على الشَّيطانِ.

وقيلَ: على الله ممرُّ كلِّ طريقٍ وإنْ كانَ منها ما هو جائرٌ، وإليه مرجعُ الكلِّ؛ كقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، فلا يخرجُ أحدٌ عن حكمِه.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٠) - ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾؛ أي: مطرًا ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾؛ أي: ما تشربُونَه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾؛ أي: يَنبتُ منَ الأمطارِ أشجارٌ وعروشٌ ونباتٌ.

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ مواشيَكم، يُقالُ: «أَسَمْتُ الماشيةَ»؛ أي: خلَّيتُها ترعَى، و«سامَتْ هي تسومُ سَوْمًا»؛ أي: رعَتْ.

قال الزَّجّاجُ: أُخِذَ منَ السُّومةِ، وهي العلامةُ؛ أي: أنَّها تُؤثِّرُ في الأرضِ علاماتٍ برَعيِها[1]، أو لأنَّها تُعلَّمُ الإرسالَ في المَرعَى.

* * *

(١١) - ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

قوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم ﴾ قُرِئَ بالياءِ والنُّونِ[2]، يُقالُ: «أنبتَ اللهُ البقلَ، ونبتَ البقلُ بنفسِه، وأنبتَ البقلُ بنفسِه أيضًا»؛ أي: يُنبِتُ اللهُ لكم بالمطرِ الزُّروعَ المُختلفةَ.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ ﴾ هي جمعُ زيتونةٍ، ويُقالُ للشَّجرةِ نفسِها: «زيتونةٌ»، وللثَّمرةِ: «زيتونةٌ».

﴿وَٱلنَّخِيلَ ﴾: جمعُ نخلةٍ.

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٩٢)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٢٧).

(٢) قرأ بالنون أبو بكر عن عاصم، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(١٢) ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: للسُّكونِ والأعمالِ ﴿والشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ﴾؛ أي: لمعرفةِ الأوقاتِ، ونُضجِ الثِّمارِ والزُّروعِ، والاهتِداءِ بالنُّجومِ في الظُّلماتِ.

﴿مُسَخَّراتٍ بأمرِه﴾؛ أي: هذه الأشياءُ سخَّرَها لكم بأمرِه، وهي حالٌ مُؤكِّدةٌ كقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا﴾ [البقرة: ٩١].

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿والشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ﴾ بالرَّفعِ ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ وهي خبرُ الابتداءِ(١).

وقُرِئَ: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ بالنَّصبِ ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ بالرَّفعِ، وهو خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ؛ أي: هي مُسَخَّراتٌ(٢).

---

(١) وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ بالرفع ونصب الباقي، وقراءة ابن عامر كما ذكرها المصنف، وقرأ الباقون بنصب ذلك كله. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢/ ٧٦)، و«المبسوط في القراءات العشر» لأبي بكر النيسابوري (ص: ٢٦٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٦/ ٢٨)، و«جامع البيان» للداني (٣/ ١٢٧١)، و«التيسير» له (ص: ١٣٧)، و«الوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية» لأبي علي الأهوازي (ص: ٢٢٥)، و«العنوان في القرءات السبع» للسرقسطي (ص: ١١٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» لابن الباذش (ص: ٣٣٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٨٢)، و«زاد المسير» (٢/ ٥٥٣)، و«البحر المحيط» (١٣/ ٣١٧)، جميع هؤلاء اتفقوا على ما ذكرناه من القراءات، وانظر التعليق الآتي.

(٢) كذا قال المصنف متابعاً للواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٩) الذي تابع أبا علي الفارسي في «الحجة» (٥/ ٥٧)، ومِنْ بعدهم: أبو العلاء الكرماني في «مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني» (ص: ٢٣٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٣)، والشوكاني في «فتح القدير» (٣/ ١٨٣)، =

(١٣) - ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ ﴾؛ أي: وسخَّرَ ما ذرأَ في الأرضِ لكم، ﴿ذرأ﴾؛ أي: خلقَ.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾؛ أي: هيأتُه ومناظِرُه، وهو نصبٌ على الحالِ.

* * *

(١٤) - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾؛ أي: ذلَّله للرُّكوبِ ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السَّمكَ وطيرَ الماءِ، يُقالُ: «طَرُوَ يطْرُو طَراوةً».

= ومنشأ هذا الوهم من أبي علي الفارسي الذي قال: «وروى حفص عن عاصم مثل قراءة ابن عامر في ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾ وحدها، ونصب الباقي»، ثم قال: «ووجه ما روي عن عاصم من الرفع في ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾ وحدها، أنّه لم يجعلها حالاً مؤكّدة، وجعلها خبر ابتداء محذوف، كأنّه لما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ﴾ قال بعد: هي مسخرات، فحذف المبتدأ، وأضمره لدلالة الخبر عليه». وواضح من كلامه أن حفصاً لم يقرأ بالرفع سوى ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾ مخالفاً بذلك لما أطبقت عليه المصادر من أن قراءة حفص هي ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾ برفع كليهما كما تقدم في التعليق السابق.

ثم وجدتُ من نبه على هذا الوهم، فقد قال أبو شامة في «إبراز المعاني» (ص: ٤٧٦): «ووقع في تفسير الواحدي خلل في نقل قراءة حفص في النحل، فقال: وقرأ حفص: ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾ بالرفع وحدها، وجعلها خبر مبتدأ محذوف كأنه قال: هي مسخراتٌ».

وقال الفرّاءُ[١]: «طَرِيَ يطْرَى طراءً وطَراوةً»، مثلَ «شَقِيَ يشْقَى شَقاوةً وشَقاءً».

﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: الدُّرَّ والمرجانَ والزَّبرجَدَ، والحِليةُ والحَلْيُ واحدٌ، كالبِرْكةِ والبَرْكِ للصَّدْرِ.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾؛ أي: تشُقُّ الماءَ بصُدورِها، يُقالُ: «مخَرَتْ عليه الماءَ»؛ أي: أرسلَتْه عليه تشُقُّ إليه الطُّرقَ.

وقيلَ: المَخْرُ: صوتُ هُبوبِ الرِّيحِ الشَّديدةِ، ومخرُ السَّفينةِ: صوتُ جَرْيِ الرِّياحِ بها.

قال أبو عُبيدةَ: مواخِرُ؛ أي: صوائِح[٢].

ومن آدابِ الاستِنجاءِ في الصَّحراءِ ما ورَدَ في قولِه: «وَلْيَتَمَخَّرِ الرِّيحَ»[٣]؛ أي: لينظُرْ مَجراها حتَّى لا يستقبِلَها فيرجِعَ إليه رشاشُ البولِ.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ولتركبوه للتِّجارةِ وطلَبِ الرِّبحِ.

---

(١) في كتاب «المصادر» كما ذكر الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣١)، وكتاب «المصادر» للفراء من الكتب المفقودة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٠)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣١)، ووقع في مطبوع الثعلبي: «صوائخ» بالخاء ولعله تحريف، وفي «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٨): ﴿مَوَاخِرَ﴾ واحدها ماخرة، وهو صوت جري الفلك بالرياح.

(٣) رواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (١/ ٤١٨) عن واصل مولى أبي عيينة قال: كان يقال: «إذا أراد أحدكم البول، فليتمخر الريح».

وروى الخطابي في «غريب الحديث» (٢/ ٥٥٩) عن سُراقةَ أنه قال لقومه: «إذا أَتَى أحدكم الغائطَ فلْيُكْرِمْ قِبلةَ الله ولا يَسْتَدْبِرْها، ولْيَتَّقِ مجالسَ اللعن: الطريقَ والظلَّ، واستَمْخِروا الريح واسْتَشِبُّوا على سُوقكم وأَعِدُّوا النُّبَلَ».
«اسْتمخروا الريحَ» يقول: اجعلوا الريحَ وَراءَ ظهوركم. والنُّبَل: حجارة الاستنجاء.

(١٥ - ١٦) - ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالًا ثابتةً ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: «لئَلّا تميدَ» عند الكوفيِّينَ، و: «كراهةَ أن تميدَ» على قولِ البصريِّينَ، والمَيدُ: الاضطِرابُ يمينًا وشمالًا.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾؛ أي: وجعَلَ فيها أنهارًا، أو: وألقَى فيها أنهارًا.

﴿وَسُبُلًا﴾؛ أي: طُرُقًا ومسالكَ تهتَدون بها إلى حيثُ تقصِدون.

قولُه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾؛ أي: جعلَ للطُّرقِ علاماتٍ يقعُ بها الاهتِداءُ، وهي معالِمُ الطُّرقِ بالنَّهارِ والنُّجومُ باللَّيلِ.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾، ثمَّ ابتدأَ وقال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وعلى الأوَّلِ: أي: جعَلَ لكم علاماتٍ ونُجومًا تهتَدون بها.

والنَّجمُ بمعنَى النُّجومِ كما يُقالُ: «كثُرَ الدِّرهمُ في أيدي النّاسِ»؛ أي: الدَّراهمُ.

قال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ بالنَّجمِ الجديَ والفرقَدَينِ[1].

وقيلَ: الثُّريّا وبناتِ نعشٍ، ومنَ العلاماتِ: الرِّياحُ يُهتَدَى بها.

* * *

---

(١) نسبه الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٧)، للكلبي، فلعله من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهكذا فسره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٩٨).

(١٧) ـ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾؛ أي: كيف يجوزُ في العقلِ أن يُشرَكَ بمَن قدرَ على هذه الأشياءِ مَن هو مخلوقٌ ولا ينفعُ ولا يضُرُّ ولا يخلُقُ شيئًا من هذه الأشياءِ.

وقال: ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ فأتى بلفظِ (مَن) في حقِّ الأصنامِ؛ لاقترانِ الضَّميرِ في الذِّكرِ بالخالقِ.

قال الفرَّاءُ هو كقولِ العربِ: «اشتبَه عليَّ الرّاكبُ وحملُه، فلا أدري مَن ذا ومَن ذا»، وإنْ كانَ أحدُهما غيرَ إنسانٍ[١].

وقيلَ: إنَّهم عبَدُوا الأصنامَ، فذُكِرَتْ بلفظِ (مَن) كقولِه: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

* * *

(١٨) ـ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾؛ أي: لا تبلُغُوا حقيقةَ إحصائِها لكثرَتِها، ولا تُطيقُوا شُكرَها، فافعَلُوا ما تيسَّرَ منه.

* * *

(١٩ ـ ٢١) ـ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾؛ أي: ما تُبطِنُونَه وما تُظهِرُونَه.

قولُه: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ قُرِئَ بالتّاءِ والياءِ[٢] ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾؛ أي:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٨).

(٢) قرأ عاصم بالياء، وباقي السبعة بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧١) و«التيسير» (ص: ١٣٧).

لا يقدرونَ على خلقِ شيءٍ، وهم خلقُ الله، فكيف يُجعَلُ خلقُه شريكًا له؟!

قولُـه: ﴿ أَمْوَٰتٌ ﴾؛ أي: هم أمواتٌ، يعنـي: الأصنامَ؛ أي: جماداتٌ ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ تأكيدٌ.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ بعثُها: أنَّها تُطرَحُ في النّارِ مع عبَدَتِها يومَ القيامةِ؛ لأنَّ لـها صفاتِ الأحياءِ.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ثمَّ ابتدأ فوصَفَ المُشركينَ بأنَّهم ﴿ أَمْوَٰتٌ ﴾ وهذا الموتُ موتُ الكفرِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وقتَ البعثِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنُونَ بالبعثِ حتَّى يستَعِدُّوا للقاءِ الله.

وقيلَ: أي: وما يُدريهم متى السّاعةُ، ولعلَّها تكونُ قريبًا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: تُبعَثُ الأصنامُ وتُركَّبُ فيها الرُّوحُ، ومعها شياطينُها، فيَبرَؤُونَ من عبَدَتِهم، ثمَّ يُؤمَرُ بالشَّياطينِ والمُشركينَ إلى النّارِ[1].

* * *

(٢٢) ـ ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لمَّا بيَّنَ استحالةَ الإشراكِ بالله بيَّنَ أنَّ المعبودَ واحدٌ.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾؛ أي: لا تقبلُ الوعظَ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾؛ أي: يتكبَّرونَ عن قَبولِ الحقِّ.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٩).

(٢٣) ـ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

قوله: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فيُجازِيهم.

قال الخليلُ: «لا جرَمَ» كلمةُ تحقيقٍ، ولا تكونُ إلّا جوابًا، يُقالُ: «فعَلُوا كذا»، فيُقالُ: «لا جرَمَ سيندَمُونَ»[1]؛ أي: حقًّا أنَّ لهم النّارَ.

وقيلَ: ﴿ لَا ﴾ ردٌّ لكلامٍ سبقَ، و﴿جَرَمَ﴾؛ أي: حَقَّ وكَسَبَ الشَّيء[2]، من قولِه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨]، وهو كقولك: «لا واللهِ لا أفعلُ كذا».

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾؛ أي: لا يُثيبُهم ولا يُثني عليهم.

***

(٢٤) ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ بيَّنَ فَرْطَ إنكارِهم ﴿قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ليس هو من تنزيلِ ربِّنا، لا أنَّهم أقرُّوا بإنزالِ شيءٍ.

﴿أَسَـٰطِيرُ﴾؛ أي: ممَّا سطَّرَه الأوَّلونَ، ولا تحقيقَ له، نزلَتْ في النَّضْرِ بنِ الحارثِ، وكانَ خرجَ إلى الحيرةِ واشترى أحاديثَ كليلةَ ودمنةَ وأساطيرَ[3].

---

(١) نقله عنه سيبويه في «الكتاب» (٣/ ١٣٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٩٤)، وفيه: معنى ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حق أن الله يعلم ووجب، وقوله: ﴿ لَا ﴾ رَد لفعلهم.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤١) عن ابن عباس، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٨٧) دون نسبة. وروى ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ٢٠١)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنزل الله في النضر ثماني آيات، قول الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القلم: ١٥]، وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن».

﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أيَّ شيءٍ أنزلَ ربُّكم؟ أي: ﴿ما﴾ بمعنى «الذي»؛ أي: ما الذي أنزَلَ ربُّكم، أو ما هذا الذي أنزَلَ ربُّكم؟

***

(٢٥) - ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ اللامُ لامُ العاقبةِ، كقولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿كَامِلَةً﴾؛ أي: لا يَحملُ غيرُهم شيئًا من أوزارِهم.

وقيلَ: لا يُكفَّرُ عنهم شيءٌ من ذُنوبِهم بما يُصيبُهم في الدُّنيا من نكبةٍ، بخلافِ المُؤمنِ.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾؛ أي: رُؤساءِ الكفَّارِ يحمِلُونَ أوزارَ مَن يَقتدي بهم.

وفي الخبرِ: «أيُّما داعٍ دَعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ؛ فإنَّ عليه مثلَ أوزارِ مَن اتَّبعَه من غيرِ أنْ يَنْقُصَ من أوزارِهم شيءٌ»[1].

و﴿مِن﴾ للجنسِ لا للتَّبعيضِ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: يُضِلُّونَ الخلقَ جهلًا منهم بما يَلزمُهم منَ الآثامِ، غيرَ أنَّه جهلٌ لا يعذُرُهم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وروى نحوه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا يُنقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا».

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ أي: ما يتحمَّلونَ من أثقالِ المعاصي.

وقيلَ: ﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ في قولِه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾؛ أي: إنَّما يتحمَّلونَ وزرَ الآثامِ التي حسَّنَها الشِّركُ دونَ الآثامِ الأُخَرِ.

* * *

(٢٦) ـ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: سبقَهم بالكُفرِ أقوامٌ مع الرُّسلِ المُتقدِّمينَ، فكانتِ العاقبةُ الجميلةُ للرُّسلِ.

قال المُفسِّرون: يعني: نُمْروذَ بنَ كنعانَ، بنَى الصَّرحَ ورامَ الصُّعودَ منه إلى السَّماءِ ليُقاتلَ أهلَها ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾؛ أي: أتَى أمرُ الله، وهو الرِّيحُ التي خرَّبَتْه.

قال ابنُ عبّاسٍ ووَهْبٌ: كان صرحُ نُمروذَ في السَّماءِ خمسةَ آلافِ ذراعٍ[1].

وقال كعبٌ: كانَ طولُه فرسخَينِ، فهبَّتْ ريحٌ فألقَتْ رأسَها في البحرِ، وخرَّ عليهم الباقي[2].

وقيلَ: أتَى الملائكةُ بأمرِ الله، كما يُقالُ: «ضرَبَ الأميرُ فلانًا ألفَ سوطٍ»؛ أي: وقعَ الضَّربُ بأمرِه.

والبنيانُ: البناءُ، والقواعدُ: أصولُ البناءِ، وإذا اختلَّتِ القواعدُ سقطَ البناءُ.

وقيلَ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾؛ أي: أبطلَ مكرَهم وتدبيرَهم فخرَّ

---

(١) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٧)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٤٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ٢٦١)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وحده.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٧)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ٢٦١)، عن كعب ومقاتل.

عليهم السَّقفُ من فوقِهم، هذا ضربُ مثلٍ؛ أي: هلَكُوا كما هلَكَ مَن نزلَ عليه السَّقفُ من فوقِه.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: من حيثُ ظنُّوا أنَّهم في أمانٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ البعوضةَ التي أُهلِكَ بها نُمرودُ[1].

* * *

(٢٧) - ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾؛ أي: يفضَحُهم بالعذابِ ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾؛ أي: الآلهةُ التي عبدتُم دوني، وهو سؤالُ توبيخٍ.

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: تُعادُونَ أنبيائي بسببِها، فليدفَعُوا عنكم هذا العذابَ.

وقولُه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾؛ أي: بزعمِكم وفي دَعواكُم.

وقُرِئَ: ﴿تُشاقُّونِ﴾ بكسرِ النُّونِ[2]؛ أي: تُعادُونَني فيهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: الملائكةُ[3].

وقيلَ: هم المُؤمنونَ، يقولونَ: إنَّ الخزيَ اليومَ على الكفّارِ.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٩٨).

(٢) وهي قراءة نافع، والباقون بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧١)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٩).

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: وهم ظالمونَ أنفُسَهم إذا أورَدُوها مواردَ الهلاكِ.

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾؛ أي: أقَرُّوا لله بالرُّبوبيّةِ، والمعنى: يُلقونَ السَّلَمَ، فأقامَ الماضيَ مُقامَ المُستقبلِ لأنَّ وعدَ الله لا خُلفَ فيه.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾؛ أي: إذا رأَوا ملائكةَ العذابِ تبرَّؤُوا من شركِهم.

وقيلَ: أي: ما كنّا نعملُ من سوءٍ في ظنِّنا عند أنفُسِنا.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ﴾؛ أي: تقولُ الملائكةُ لهم: بلى قد كنتُم تعمَلُون الأسوأَ، والله عليمٌ بأعمالِكم.

قولُه: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ يُقالُ لهم عندَ الموتِ إذا بعثَهم فأدخَلَهم دَرَكاتِ جهنَّمَ.

وقيلَ: هو بشارةٌ لهم بعذابِ القبرِ؛ لأنَّ القبرَ بابٌ من أبوابِ جهنَّمَ للكافرِ.

وقيلَ: لا يصِلُّ أهلُ الدَّركةِ الثّالثةِ ـ مثلًا ـ إليها إلّا بُدخولِ الدَّركةِ الأولى، ثمَّ الثّانيةِ، ثمَّ الثّالثةِ، فهذه أبوابُ جهنَّمَ.

وقيلَ: لكلِّ دركةٍ بابٌ مُفردٌ، فالبعضُ يدخُلونَ من بابٍ، والبعضُ من بابٍ آخرَ.

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وهم الذينَ إذا قيلَ لهم: «لا إلهَ إلّا الله» يستكبِرُونَ.

* * *

(٣٠) - ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ثمَّ أخبرَ عن المُؤمنينَ وأنَّهم إذا قيلَ لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾؛ أي: أنزَلَ الله القرآنَ الذي هو الخيرُ والهدى.

وكان يرِدُ الرَّجلُ مكّةَ في أيّامِ الموسمِ فيسألُ المُشركينَ عن محمَّدٍ عليه السَّلامُ، فيقُولون: ساحرٌ، أو شاعرٌ، أو كاهنٌ، أو مجنونٌ، ويسألُ المؤمنينَ فيقولونَ: أنزَلَ الله عليه الخيرَ والهدى، وما هو سببُ الثَّوابِ لمَن آمنَ.

ثمَّ فسَّرَ ذلك الخيرَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞ﴾؛ أي: نُخبِرُ بهذا.

وقيلَ: هو من قولِ الله ابتداءً.

ثمَّ؛ قيلَ: حسنةٌ في الآخرةِ؛ أي: مَن أطاعَ في الدُّنيا فله الجنّةُ غدًا.

وقيلَ: للذين أحسَنُوا اليومَ حسنةٌ في الدُّنيا منَ النَّصرِ والفتحِ والغنيمةِ.

﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ﴾؛ أي: ما ينالُونَ في الآخرةِ من ثوابِ الجنّةِ خيرٌ وأعظَمُ.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الآخرةُ، فحُذِفَ لدلالةِ الحالِ.

وقيلَ: ولَنِعمَ دارُ المتَّقينَ جنّاتُ عدنٍ[1].

وقيلَ: قال هاهُنا: ﴿خَيْرًا﴾ بالنَّصبِ، وقال فيما مضى: «قالوا أساطيرُ الأوّلينَ» بالرَّفعِ؛ لأنَّ المُؤمنينَ آمَنُوا بما أنزَلَ الله منَ القرآنِ، والكفّارُ ما آمَنُوا بأنَّه أنزلَ شيئًا، بل قالوا: أساطيرُ؛ أي: هذه أساطيرُ الأوَّلينَ.

---

(١) فترفع ﴿جَنَّٰتُ﴾ على أنها اسم لـ(نعم)؛ كما تقول: نعم الدار دار ننزلها. هذا إن جعل ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ متصلاً بما بعده، وما قبله إذا لم يجعل متصلاً بما بعده، فعند ذلك لـ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٖ﴾ إعراب آخر كما سيأتي.

(٣١) - ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾؛ أي: هذه جنّاتُ عدنٍ.

وقيلَ: هو ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾.

وقيلَ: (نِعمَ دارُ المتَّقينَ جنّاتُ) كما سبقَ.

* * *

(٣٢) - ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾؛ أي: كذلك يجزِي الله المُتَّقين الذين تتوفَّاهم الملائكةُ ﴿طَيِّبِينَ ﴾؛ أي: بأعمالِـهم الصّالحةِ، وباجتِنابِهم الشِّركَ.

وقيلَ: طيِّبةً نفوسُهم بالرُّجوعِ إلى الله.

* * *

(٣٣) - ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾.

قولُـه: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾؛ أي: مـا ينظُـرونَ إلّا أن تأتيَهـم الملائكـةُ بقَبـضِ أرواحِهـم وهـم ظالمـونَ لأنفُسِـهم.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾؛ أي: أمـرُه بالعـذابِ مـنَ القتـلِ والزَّلزلةِ والخسـفِ، وفي الآخـرةِ أو للقيامـةِ، والقـومُ لـم ينتظِـرُوا هـذه الأشـياءَ؛ لأنَّهم مـا آمَنُوا بهـا، ولكنَّ امتِناعَهـم عـن الإيمـانِ أوجَـبَ عليهم العـذابَ، فأُضيفَ ذلـك إليهـم؛ أي: عاقبتُهم العذابُ.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: أصَرُّوا على الكفرِ، فيه حـذفٌ؛ أي: فأتاهُم أمرُ الله بالعذابِ.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبِهم ولكنْ ظلمُوا أنفُسَهم بالشِّركِ.

* * *

(٣٤) - ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ قيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: كذلك فعلَ الذين من قبلِهم، فأصابَهم سيِّئاتُ ما عمِلُوا وما ظلَمَهم الله.

وقيلَ: ما ظلَمَهم الله ولكنْ ظلَمُوا أنفُسَهم فأصابَهم جزاءُ أعمالِـهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاطَ بهم عقابُ استهزائِهم.

* * *

(٣٥) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

قولُـه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ قال الزَّجاجُ: قالـوه استهزاءً[1]، ولـو قالـوه عـن اعتقـادٍ لكانُـوا مُؤمنيـنَ. وقـد مضـى هـذا فـي (سـورةِ الأنعامِ).

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ أي: كذَّبُـوا الرُّسـلَ ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أمَّـا الهدايـةُ فهـي إلـى الله تعالـى.

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٩٧).

(٣٦) - ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بأن اعبُدوا الله ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: الشَّيطانَ وكلَّ مَن دَعا إلى الضَّلالِ.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: أرشَدَه الله ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؛ أي: في سابقِ علمِنا ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: فسيرُوا مُعتَبِرين في الأرضِ بآثارِ الأممِ المُكذِّبةِ.

* * *

(٣٧) - ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾؛ أي: إنْ تطلُبْ جَهْدَكَ هُداهم ﴿فإنَّ اللهَ لا يُهدَى مَن يُضِلُّ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الدّالِ؛ أي: لا يهدي أحدٌ مَن أضلَّه الله.

وقُرِئَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ بفتحِ الياءِ[1]؛ أي: لا يُرشِدُ.

وقيلَ: ﴿يَهۡدِي﴾ بمعنى: يهتَدي؛ قال الفرَّاءُ: يُقالُ: «هَدَى الرَّجلُ»؛ أي: اهتَدَى[2].

واتَّفقُوا على ضمِّ الياءِ من ﴿يُضِلُّ﴾.

* * *

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر بضمِّ الياءِ وفتحِ الدّالِ، وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الدّال. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٩٩).

(٣٨ - ٣٩) - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ هذا تعجيبٌ من صنيعِهم، إذ أقسَمُوا بالله وبالَغُوا في تغليظِ اليمينِ بأنَّ الله لا يبعثُ مَن يموتُ، ووجهُ التَّعجيبِ: أنَّهم يُظهِرُونَ تعظيمَ الله فيُقسِمُونَ به، ثمَّ يُعجِّزونَه عن بعثِ الأمواتِ.

﴿بَلَىٰ﴾ هذا ردٌّ عليهم؛ أي: بلى ليبعَثَنَّهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾؛ أي: وعَدَ البعثَ وعدًا حقًّا.

نزلَتْ في رجلٍ منَ المسلمينَ كان له دَينٌ على مُشركٍ، فأتاهُ يتقاضاه، وجرَى في كلامِه: والذي أرجُو بعد الموتِ، فقال المُشرِكُ: أُقسِمُ بالله لا يبعَثُ الله مَن يموتُ، فأنزَلَ الله الآيةَ(١).

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾؛ أي: ليُظهِرَ لهم ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمرِ البعثِ؛ أي: ليبعَثَنَّهم ليُظهِرَ.

وقيلَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ ليُظهِرَ لهم.

والذي اختَلَفَ فيه المُشركون والمسلمون أمورٌ:

منها: أمرُ البعثِ.

ومنها: عبادةُ الأصنامِ.

ومنها: إقرارُ قومٍ بأنَّ محمَّدًا حقٌّ، ولكنْ منعَهم من اتِّباعِه التَّقليدُ كأبي طالبٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٢٠) عن أبي العالية، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٩) وعنه نقل المصنف.

(٤٠) ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾؛ أي: لا يلحقُنا تعبٌ في بَعثِ الأمواتِ.

قال ابنُ الأنباريِّ: أوقَعَ لفظَ الشَّيءِ على المعلومِ عندَ الله قبلَ الخلقِ؛ لأنَّه بمنزلةِ ما وُجِدَ وشُوهِدَ[١].

والمعنى: إنَّما قولُنا لكلِّ مُرادٍ ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾؛ أي: أرَدْنا فِعلَه.

﴿فَيَكُونُ﴾ بالرَّفعِ؛ أي: فهو يكونُ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٢] عطفًا على ﴿أَن نَّقُولَ﴾.

وقال الزَّجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ نصبًا على جوابِ ﴿كُن﴾[٣].

***

(٤١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بيَّنَ أنَّ من ضلالاتِ المُشركينَ تعذيبَهم المُسلمينَ على إيمانِهم، وبيَّنَ أنَّ هؤلاءِ الذين ظُلِمُوا فهاجَرُوا ينصرُهم الله في الدّارَينِ.

نزلَتْ في أصحابِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بمكّةَ، مثلَ بلالٍ وصُهَيبٍ وعمّارٍ وخبّابٍ وأبي جندلِ بنِ سُهَيلٍ، هاجَرُوا في الله؛ أي: من مكّةَ إلى المدينةِ في رِضا الله وطلَبِ ثوابِه[٤].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٩).

(٢) قرأ بها ابن عامر والكسائي، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٩٨).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٩)، دون عزو. =

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: منازِلَ حسنةً، قيلَ: يعني: المدينةَ.

وقيلَ: النَّصرُ والفتحُ؛ أي: لنُبوِّئَنَّهم في الدُّنيا ولنرزُقَنَّهم حسنةً؛ أي: نُبوِّئُهم المدينةَ، ونُطعِمُهم الغنائمَ.

وقيلَ: عنَى بالحسنةِ الحسناتِ، كقولِه: ﴿ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]؛ أي: جملةَ الحسناتِ.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: أجرُ الدّارِ الآخرةِ أكبرُ؛ أي: أكبرُ من أن يعلَمَه أحدٌ قبلَ أن يُشاهدَه؛ أي: أكبرُ مـمَّا يُشاهِدُونَ في الدُّنيا.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كانَ هؤلاءِ الظّالمونَ يعلَمُون ذلك، وهذا كقولِك: «لو علمتَ هذا لكانَ خيرًا لك»، فلا يدُلُّ على أنَّه لو لـم يعلَمْ لـم يكُنْ خيرًا له، بل هو خيرٌ له في الحالَين، ولكنَّ معناه: اعلَمْ أنَّه خيرٌ لكَ لترغَبَ فيه.

* * *

(٤٢) ـ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قولُه: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ هو بدلٌ منَ ﴿الَّذِينَ﴾ الأوَّلِ.

وقيلَ: منَ الضَّميرِ في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾.

وقيلَ: هم الذينَ صبَرُوا على دينِهم.

* * *

= وروى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال: إنهم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم، ظلمهم المشركون.

وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٣)، عن داود بن أبي هند، قال: نزلت في أبي جندل بن سهيل.

(٤٣) - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ قُرِئَ: ﴿يُوحَى﴾ بالياءِ وفتحِ الحاءِ، وقُرِئَ: ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنُّونِ[١].

نزلَتْ لـمَّا قالوا: هلَّا أرسلَ إلينا ملَكًا[٢].

أي: ما أرسَلْنا إلى الأممِ الماضيةِ إلّا رجالًا آدميِّين ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: الكتبِ المُتقدِّمةِ؛ أي: الذين آمَنُوا من قُريظةَ والنَّضيرِ.

وقيلَ: سَلُوا أهلَ الكتابِ وإنْ لـم يُؤمِنُوا فهم مُعتَرفونَ بأنَّ الرُّسلَ كانوا منَ البشرِ.

***

(٤٤) - ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: أرسَلْناهم بالبيِّناتِ، فلا بدَّ من هذا الإضمارِ.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ما أرسلنا من قبلِكَ بالبيِّناتِ والزُّبرِ إلّا رجالًا نُوحي إليهم.

وقيلَ: إلّا رجالًا نُوحي إليهم بالبيِّناتِ.

وقيلَ: أي: سَلُوا أهلَ العلمِ بالبيِّناتِ، فالذِّكرُ على هذا بمعنَى العلمِ، والبيِّناتُ: المُعجِزاتُ، وقيلَ: الشَّرائعُ.

---

(١) قرأ حفص بالنون، وقرأ باقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٢٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والزُّبرُ: الكتُبُ، واحدُها: زَبورٌ.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآنَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتابِ منَ الأحكامِ، والوعدِ والوعيدِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في القرآنِ ليعتَبِرُوا.

***

(٤٥ ـ ٤٧) ـ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هو وعيدٌ للمُشركينَ الذين احتالُوا في إبطالِ الإسلامِ، ومكرُهم كانَ سعيًا بالفسادِ والسيِّئاتِ.

﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كما خسَفَ بقارونَ[١]، يُقالُ: «خسَفَ المكانُ، وخسَفَه الله»، والاستفهامُ بمعنى الإنكارِ؛ أي: يجبُ أن لا يأمَنُوا عقوبةً تلحقُهم كما لحقَت المُكذِّبين.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما نزلَ بقومِ لوطٍ.

وقيلَ: يُريدُ يومَ بدرٍ؛ فإنَّهم أُهلِكُوا ذلك اليومَ، ولـم يكُنْ شيءٌ منه في حسابِهم.

قولُه: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ أي: في أسفارِهم ومُتصرَّفاتِهم.

وقيلَ: في تقلُّبِهم على الفراشِ أينَما كانوا.

قولـه: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: بعـدَ أن يُخيفَهـم بـأن يُهلِـكَ فرقـةً فيخـافَ الباقونَ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٦٨).

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: علـى تنقُّصٍ[(١)]؛ أي: يُنقِصُ من أطرافِهم ونواحيهم الشَّيءَ بعد الشَّيءِ حتَّى يهلكَ جميعُهم.

قال ابنُ السِّكِّيتِ: هو يتخوَّنُ المالَ ويتخوَّفُه؛ أي: يَتنقَّصُه ويأخذُ من أطرافِه[(٢)].

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لا يُعاجِلُ، بل يُمهِلُ للتَّوبةِ.

* * *

(٤٨) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾.

قولُـه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾؛ أي: الأشياءُ كلُّها سميعةٌ مُطيعةٌ لله تعالى، فهو غنيٌّ عن إيمانِ هؤلاءِ.

وقُرِئَ: ﴿أولَم تَروا﴾ بالتّاءِ[(٣)]، على أنَّ الخطابَ لجميعِ النَّاسِ.

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ الشَّجرَ والنَّباتَ وكلَّ جسمٍ قائمٍ له ظِلٌّ[(٤)].

﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾ هو يتفعَّلُ منَ الفَيءِ، يُقالُ: «فاءَ الظِلُّ يفيءُ فَيئًا»؛ أي: رجعَ وعادَ بعدَما كان ضياءُ الشَّمسِ يُسخِّنُه، والفَيءُ: الرُّجوعُ، فتَفيُّؤُ الظِّلِّ: رُجوعُه بعدَ انتصافِ النَّهارِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٣٧) بلفظ: «﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: التنقص والتفزيع».

(٢) انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ١٩٧).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٧٣)، وفيه: «قال المفسرون وأهل المعاني: أراد من شيء له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم، وهذا معنى قول ابن عباس: يريد الشجر والنبات».

وقيلَ: التَّفيُّؤُ لا يكونُ إلّا بالعشيِّ، والظِّلُّ بالغداةِ، وهو ما لـم تَنَلْه الشَّمسُ، والفَيءُ بالعشيِّ: ما انصرَفَتْ عنه الشَّمسُ.

وقال أبو عليٍّ: الظِّلُّ: ما كانَ قائمًا لـم تنسَخْه الشَّمسُ، فإذا نسخَتْه الشَّمسُ ثمَّ زالَ ضياءُ الشَّمسِ يُقالُ للنّاسخِ للظِّلِّ: فاءَ الظِّلُّ؛ أي: رجعَ، وهذا يُسمَّى الظِّلَّ أيضًا، ولا يُسمَّى الأوَّلُ فيئًا(١).

﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ ترجعُ الكنايةُ إلى لفظِ الشَّيء، أو إلى ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾؛ أي: إنَّ الشَّمسَ إذا كانت على يمينِ الشَّخصِ كان الفَيءُ عن شمالِه، وإنْ كانت على شمالِه كان الفَيءُ عن يمينِه، ووحَّدَ اليمينَ والمُرادُ الجمعُ للإيجازِ، ولو قال: «عن الأيمانِ والشَّمائلِ»، أو «اليمينِ والشِّمالِ»، أو «الأيمانِ والشِّمالِ» لجازَ؛ لأنَّ المعنى للكثرةِ، واللَّفظَ للواحِدِ، وهو ﴿مَا﴾.

وقيلَ: وحَّدَ اليمينَ لأنَّ الشَّمسَ إذا طلعَتْ وأتَتْ مُتوجِّهةً إلى القبلةِ انبسَطَ الظِّلُّ عن اليمينِ، ثمَّ في حالٍ تميلُ إلى جهةِ الشِّمالِ، وثَمَّ حالاتٌ فسمَّاها: «شمائلَ».

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: خاضِعةً له مُشاهَدةً بأنَّها تحتَ تصريفِه، فهذا معنى سُجودِها، وقد يُستَعارُ لفظُ السُّجودِ في الاستسلامِ.

﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾؛ أي: صاغِرونَ؛ أي: هذه الأشياءُ مجبولةٌ على الطّاعةِ، ولمَّا وصفَهم بالطّاعةِ أشبهُوا ما يَعقلُ فقالَ: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

***

---

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٦٧)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٧٤)، وفيهما: «الناسخُ للظلِّ» بدل: «يقال للناسخ للظل».

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فالمُؤمنُ يسجُدُ سجودَ عبادةٍ، والكلُّ ساجدةٌ سجودَ التَّسخيرِ؛ لأنَّ كلَّ مخلوقٍ يشهدُ ببِنيَتِه أنَّ له خالقًا مُتصرِّفًا.

﴿مِن دَابَّةٍ﴾؛ أي: من كلِّ ما يَدِبُّ على الأرضِ.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أفرَدَهم بالذِّكرِ تخصيصًا، كقولِه: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨].

وقيلَ: خصَّهم بالذِّكرِ لخُروجِهم من صفةِ الدَّبيبِ؛ لأنَّ لهم أجنحةً.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: عن عبادةِ الله.

ثمَّ؛ قيلَ: يرجعُ هذا إلى الجميعِ؛ أي: لا يستكبِرونَ عن عبادةِ الله، وغيرُه[1] لا يَمتنعُ عن تصريفِ الله إيّاه على ما يُريدُ.

وقيلَ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ هذا من صفةِ الملائكةِ؛ لقولِه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾؛ أي: عذابَ ربِّهم ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فحُذِفَ المُضافُ.

---

(١) قوله: «وغيره» كذا في النسختين، ولعل الصواب: «وغيرهم»؛ أي: وغيرهم ممن ليس سجوده سجود عبادة، فإن السجود يكون على نوعين: سجود هو عبادة؛ كسجود المسلمين لله، وسجود هو خضوع واستكانة؛ وهو سجود ما لا يعقل وسجود الجمادات، فإن هذه الأشياء بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى مُدَبِّر وصانع ساجدة؛ أي: خاضعة متذللة، فهؤلاء معنى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في صفتهم: أنهم يذعنون للخالق والصانع بالتسخير والتذليل وما فيهم من الضرورة إلى صانع فطرهم وخلقهم وأنشأهم ودبَّرهم. مستفاد من «البسيط» (١٣/ ٧٩ و٨١ ـ ٨٢).

وقولُـه: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يعنـي: فوقيّـةَ الرُّتبـةِ وعلُـوَّ الدَّرجـةِ؛ أي: إنَّ الله في أعلى مراتـبِ القادرينَ.

وقيلَ: إنَّما قال: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لأنَّ أكثرَ ما يأتي العذابُ المُهلِكُ من فوق.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني: الملائكة.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكرَ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ توكيدًا.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: لا تتَّخِذُوا اثنَينِ إلـهَينِ.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطّاعةُ.

﴿وَاصِبًا﴾ أي: دائمًا، يُقالُ: «وصَبَ الشَّيءُ يصِبُ وُصوبًا»؛ أي: دامَ؛ أي: طاعتُه واجبةٌ أبدًا.

وقيلَ: الوَصْبةُ: التَّعبُ؛ أي: تجبُ طاعتُه، وإنْ تعِبَ العبدُ منها.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لا ينبَغي أن تتَّقوا غيرَه.

* * *

(٥٣ ـ ٥٤) ـ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الباءُ مُتَّصلةٌ بفعلٍ مُضمَرٍ؛ أي: ما يكونُ بكم من نعمةٍ فمنَ الله.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: السُّقْمُ والبلاءُ والقَحْطُ ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾؛ أي: تَضِجُّونَ بالدُّعاءِ، يُقالُ: «جأَرَ يجأَرُ جُؤُورًا»، وهو الصَّوتُ الشَّديدُ؛ أي: إذا كانتِ النِّعمُ منه، والفرحُ في الشَّدائدِ منه، والقدرةُ كلُّها له، فلا ينبَغي أن يُشرَكَ به.

قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ هذا تعجيبٌ مـنَ الإشراكِ بعد إزالةِ البلاءِ وبعد الجُؤارِ إليه.

* * *

(٥٥) ـ ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ليجحَدُوا نعمةَ الله في كشفِ الضُّرِّ عنهم؛ أي: أشرَكُوا بالله ليجحَدُوا نعمتَه، فاللّامُ لامُ «كي»، وقيلَ: لامُ العاقبةِ.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أمرُ تهديدٍ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: عاقبةَ أمرِكم.

* * *

(٥٦) ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ ذكرَ نوعًا آخرَ من جهالاتِهم؛ أي: أفرَدُوا شيئًا من أموالِـهم وأنعامِهم لأصنامِهم، وقد سبقَ تفسيرُ هذا في سورةِ الأنعامِ.

﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: للأصنامِ، فإنَّها جماداتٌ.

وقيلَ: لِمَا لا يعلمون أنَّ له نفعًا وضرًّا ونصيبًا.

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وهذا سؤالُ توبيخٍ ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾؛ أي: تتقوَّلونَ على الله بأنَّه أمرَكم بهذا.

* * *

(٥٧) ـ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾.

قـولُه: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ نزلَتْ في خُزاعةَ وكِنانةَ فإنَّهم زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ الله(١).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا له عن اتِّخاذِ الأولادِ ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾؛ أي: يجعلون لأنفُسِهم البنينَ ويأنَفُون منَ البناتِ فـ﴿مَّا﴾ منصوبٌ.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾، فـ﴿مَّا﴾ رفعٌ على هذا.

* * *

(٥٨) ـ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾؛ أي: إذا أُخبِرَ أحدُهم بولادةِ بنتٍ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾؛ أي: مُتغيِّرًا تغيُّرَ مُغتَمٍّ مُتغيِّرٍ، وليس يُريدُ السَّوادَ الذي هو ضدُّ البياضِ.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾؛ أي: مُـمتَلِئٌ منَ الغيظ(٢).

والكِظامةُ: الموضعُ الذي يُجمَعُ فيه الماءُ فيغيضُ به ويطولُ مُكثُه فيه.

* * *

(٥٩) ـ ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾؛ أي: يختَفي ويتغيَّبُ للامتِعاظِ والتَّعيُّرِ بالبنتِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٦٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٧٦).

(٢) في (ف): «من الغم».

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ أي: هو في تواريه يُفكِّرُ فيما يصنعُ بما بُشِّرَ به، أيُمسِكُه على سبيلِ هَوانٍ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾؟ وهو الوَأْدُ، والـهُونُ: الـهَوانُ، يُقالُ: أَهَنْتُه هُوْنًا وهَوانًا.

ثمَّ؛ قيلَ: يرجعُ الهوانُ إلى البنتِ؛ أي: أيُمسِكُها وهي مُهانةٌ؟

وقيلَ: إلى المولودِ له؛ أي: أيُمسِكُه على رغمِ أنفِه وهَوانِه؟

والدَّسُّ: إخفاءُ الشَّيءِ في الشَّيءِ.

***

(٦٠) ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: العذابُ والنّارُ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: التقدُّسُ[1] عن الولدِ وكلِّ نقصٍ، والمثَلُ بمعنى الصِّفةِ.

وقيلَ: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: ما ضربَه الله للأصنامِ وعبدَتِها منَ الأمثالِ، كقولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ [الحج: ٧٣]، و﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كقولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥].

وأمَّا قولُه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] فمعناه: لا تعتَقِدُوا له مثَلًا وشبيهًا، أو: لا تضرِبُوا له مثَلًا يقتَضي نقصًا أو تشبيهًا بالخلقِ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المُمتَنعُ من أن يلحقَه نقصٌ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في إمهالِ العبادِ إلى الوقتِ المضروبِ للُحوقِ العذابِ.

***

(١) في (ف): «المقدس».

(٦١) ـ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ ﴾؛ أي: المُشركينَ ﴿بِظُلْمِهِم ﴾؛ أي: بافترائِهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾؛ أي: من مُفترٍ.

﴿عَلَيْهَا ﴾؛ أي: على الأرضِ، ولـم يجرِ لـها ذِكرٌ، ولكنْ لمَّا ذكرَ[1] الدّابةَ فالدَّابّةُ تدِبُّ على الأرضِ، على أنَّه يُقالُ في العُرفِ: «ما عليها مثلُ فلانٍ»؛ أي: على الأرضِ.

وقيلَ: أرادَ: لو عاجَلَهم العذابُ لنزلَ عذابٌ لا يبقَى معه شيءٌ من دوابِّ الأرضِ كما جرَى في عهدِ نوحٍ.

قال ابنُ مسعودٍ ـ وقرأ هذه الآيةَ ـ: كاد أنْ يَهْلَكَ الجُعْلُ في جُحرِه بذنبِ ابنِ آدمَ[2].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أرادَ: مُنتَهى أجلِ كلِّ شيءٍ في نفسِه، فإنَّ المُشركَ إذا ماتَ حلَّ به العقابُ.

وقيلَ: أرادَ: فإذا جاءتِ القيامةُ.

***

(٦٢) ـ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾؛ أي: البناتِ ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾؛ أي: لـم يرضَوا بنسبةِ البناتِ إلى الله حتَّى ادَّعَوا أن الله حكم

(١) في (أ): «لما دخل».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٠).

بذلك، ثم ادعَوا(١) لأنفُسِهم الحسنَى؛ أي: الغلمانَ والبنين(٢)، وربَّما قالوا: إنْ كانَ محمَّدٌ صادقًا في النَّعتِ فلنا النَّصيبُ الأوفَرُ منَ الجنَّةِ.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ردَّ عليهم قولَهم بهذا.

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿لَا﴾ ردٌّ لقولِهم، ﴿جَرَمَ﴾؛ أي: اكتسَبَ ذلك القولُ لهم النّارَ(٣).

وقيلَ: أي: حَقَّ أنَّ لهم النّارَ، أو: لا بدَّ ولا محالةَ أنَّ لهم النّارَ، أو: لا قطعَ على أنَّ لهم النّارَ، أو: قطعَ الرَّبُّ أنَّ لهم النّارَ.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: مُترَوكُونَ في النّارِ، يُقالُ: «ما أفرطْتُ منَ القومِ أحدًا»؛ أي: ما تركْتُ وما نسيتُ.

وقيلَ: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾؛ أي: مُعجَّلونَ إلى النّارِ، يُقالُ: فرَطَ الرَّجلُ أصحابَه يفرُطُهم فِراطًا وفُرُوطًا؛ أي: تقدَّمَهم إلى الماءِ ليُصلِحَ أمرَ السَّقْيِ، وأفرَطَ القومُ الفارِطَ؛ أي: قدَّمُوه.

وقرأ نافعٌ: ﴿مُفرِطُونَ﴾ بكسرِ الرّاءِ(٤)؛ أي: كانُوا مُفرِطينَ على أنفُسِهم في الذَّنبِ(٥).

***

---

(١) «أن الله حكم بذلك ثم ادعوا» من (أ).

(٢) كلمة: «والبنين» غير واضحة في النسختين، والمثبت من «البسيط» (١٣/ ١٠١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٧)، و«البسيط» (١٣/ ١٠٢).

(٤) وقرأ بالكسر مشدَّداً أبو جعفر المدني، وبالفتح مخفَّفاً باقي العشرة. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٥٤).

(٥) في (أ): «الدنيا».

(٦٣) - ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أخبرَ أنَّ الشَّيطانَ زيَّنَ لكلِّ أمّةٍ الكفرَ والأقوالَ القبيحة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾؛ أي: فالشَّيطانُ وليُّ هؤلاءِ القوم - أي: المُشركينَ - كما كان وليَّ الكفّارِ في كلِّ وقتٍ، ولهؤلاءِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؛ أي: هو وليُّ تلك الأُممِ اليومَ، ولتلكَ الأممِ عذابٌ أليمٌ في القيامةِ.

وقيلَ: أراد باليومِ: يومَ القيامةِ، فأجملَه لشُهرتِه.

* * *

(٦٤) - ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾؛ أي: لتتَّخِذَ الحجّةَ عليهم وتُبيِّنَ لهم الأحكامَ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾؛ أي: للهدايةِ والرَّحمةِ.

* * *

(٦٥) - ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ عاد الكلامُ إلى تعديدِ النِّعمِ وبيانِ كمالِ القدرةِ؛ أي: أنزَلَ المطرَ فأحيا به الأرضَ.

* * *

(٦٦) - ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ العبرةُ: تمثيلُ الشَّيءِ بالشَّيءِ لتُعرفَ حقيقتُه من طريقِ المُشاكلةِ.

﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بفتحِ النُّونِ من سقَيتُه، وقُرِئَ بضمِّ النُّونِ من أسقَيتُه[١]، يُقالُ: سقاه يَسْقيهِ، وأسقاهُ كذا؛ أي: جعلَه شِربًا له.

﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ ولـم يقُل: «بطونها»؛ لأنَّ الأنعامَ لفظُ الجمعِ، وهو اسمُ الجنسِ، ويُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، فيُقالُ: هو الأنعامُ، وهي الأنعامُ، وفي موضعٍ آخرَ: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، وهذا قولُ الزَّجَّاجِ[٢].

وقال الفرَّاءُ: الأنعامُ بمعنَى النَّعَمِ، والنَّعَمُ مذكَّرٌ[٣].

وقال الكسائيُّ: أي: مـمَّا في بطونِ ما ذكَرْنا[٤].

وقيلَ: الكنايةُ ترجعُ إلى (ما) في قولِه: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾؛ أي: نُسقيكُم منَ الذي في بطنِه اللَّبنُ؛ إذ ليس لكلِّها لبنٌ.

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ﴾ الفَرْثُ: ما في الكرشِ، وما تعتَلِفُه البهيمةُ ينقسمُ؛ فيجري الدَّمُ في العروقِ، واللَّبنُ في الضَّرعِ، ويبقَى الفَرْثُ.

﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾؛ أي: لذيذًا هنيئًا، يُقالُ: ساغَ الشَّرابُ في الحلقِ، وأساغَه شاربُه[٥].

***

---

(١) قـرأ نافـع وابـن عامر وعاصـم في رواية أبـي بكر بفتـح النُّـون، والباقـون بضمِّها. انظر: «السـبعة» (ص: ٣٧٤)، و«التيسـير» (ص: ١٣٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢٩).

(٤) ذكره الفراء «معاني القرآن» (١/ ١٢٩) ولم يرتضه، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٣٧)، وابن الأنباري في «المذكر والمؤنث» (١/ ٤٦٧).

(٥) في (ف): «صاحبه».

(٦٧) ـ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾؛ أي: ولكم منها ما ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ وتقديـرُ الـكلامِ: ومـن ثمَـراتِ النَّخيـلِ ومـنَ الأعنـابِ؛ إذ لا يُقـالُ: ومـن ثمـراتِ الأعنابِ سـكرًا.

قـال ابـنُ عبّـاسٍ: السَّـكَرُ: ما حُـرِّمَ مـن ثمرتِهـا، والرِّزقُ الحسـنُ: مـا حلَّ من ثمرتِها[1].

وقيلَ: ﴿سَكَرًا﴾؛ أي: ما أسكرَ، وهذا قبلَ تحريمِ الخمرِ.

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: الخلُّ والتَّمرَ والزَّبيبَ والعسليّةَ.

وقال أبو عُبيدةَ: السَّكَرُ: الطَّعامُ[2].

وقيلَ: السَّكَرُ: العصيرُ الحلوُ الحلالُ، وسُمِّيَ به لأنَّه قد يصيرُ مُسكِرًا إذا بقيَ، فإذا بلغَ الإسكارَ حرُمَ.

والجملةُ: أنَّ الآيةَ ذُكِرَتْ للاعتبارِ؛ أي: مَن قدرَ على خلقِ هذه الأشياءِ قادرٌ على البعثِ، وهذا الاعتبارُ لا يختلفُ بأن يكونَ الخمرُ حرامًا أو حلالًا، فاتِّخاذُ السَّكَرِ لا يدلُّ على التَّحليلِ، وهو كما قال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

***

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٩٦)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٢٢٨)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٨).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٣)، وفيه: «سكراً: طعماً».

(٦٨) ـ ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ ذكرَ نوعًا آخرَ من النِّعمةِ، وهو نعمةُ العسلِ، وهذا وحيُ إلهامٍ، والنَّحلُ: دَبْرُ العسلِ، الواحدُ: نحلةٌ.

قال الزَّجَّاجُ: سُمِّيَ نحلًا لأنَّ الله نحَلَه العسلَ الذي يخرجُ منه[1].

والنَّحلُ يُؤنَّثُ في لغةِ أهلِ الحجازِ، وكلُّ جمعٍ ليس بينَه وبينَ واحدِه إلا الهاءُ.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ أشارَ إلى أنَّ النَّحلَ إذا لم يكُنْ لها مالكٌ تتَّخِذُ بيوتًا منَ الجبالِ.

﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾؛ أي: وممَّا يبني لها أصحابُه.

قُرِئَ بضمِّ الرَّاءِ وكسرِها[2]، مثلَ ﴿يَعْكُفُونَ﴾ و﴿يَعْكِفُون﴾[3] [الأعراف: ١٣٨].

والعريشُ هاهُنا: خلايا النَّحلِ، وهي ما بنَى لها أصحابُها.

* * *

(٦٩) ـ ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ﴿ كُلِّ ﴾ ليس للتَّعميمِ، وهو كقولِه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٢)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ١٢١)، وفيهما: «لأن الله نحل الناسَ العسلَ الذي يخرج من بطونها».

(٢) قرأ أبو بكر وابن عامر بضم الرَّاء والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٣) قرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف، والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، وقولِه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾؛ أي: طُرُقَ ربِّكِ تطلُبين فيها الرَّعْيَ.

﴿ذُلُلًا﴾ هي جمعُ «ذَلولٍ»، وهو المُنقادُ؛ أي: مُطيعةً لله.

وقيلَ: ترجعُ الذُّلُلُ إلى السُّبُلِ؛ أي: ذَلَّلَ اللهُ لكِ الغياضَ الأَشِبَةَ(١) والطُّرُقَ الوعرةَ.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ رجعَ الخطابُ إلى الخبرِ ﴿شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾؛ أي: منه أحمرُ وأصفرُ وأبيضُ ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: في العسلِ شفاءٌ.

قال الزَّجّاجُ: هذا كما أنَّ الماءَ حياةُ كلِّ شيءٍ، ثمَّ يُرى مَن يقتُلُه الماءُ، فكذلك العسلُ شفاءٌ، وإنْ رأينا مَن يضُرُّه العسلُ، والمقصودُ بالآيةِ الأغلبُ(٢).

وقيلَ: فيه شفاءُ الأمراضِ التي شفاؤُها فيه.

وقال مجاهدٌ: أي: في القرآنِ شفاءٌ(٣).

أو: فيما ذكَرْنا لكم من هذه الأشياءِ شفاءٌ يدلُّ على أنَّ اللهَ واحدٌ، وأنَّه قادرٌ على كلِّ شيءٍ.

والعسلُ يخرجُ من فمِ النَّحلِ، والفمُ في ظنِّ النّاسِ في حكمِ الباطنِ، فما خرجَ منه يجوزُ أن يُقالَ: خرجَ منَ البطنِ.

* * *

---

(١) قوله: «الأشبة» من أَشِبَ الشَّجرُ، كفَرِحَ أَشَباً فهو أَشِبٌ: الْتَفَّ، كتأشَّبَ، والأَشَبُ: شدَّةُ الْتِفافِ الشَّجر وكثرتُه حتى لا يُجَاز فيه، يقال فيه: موضعٌ أَشِبٌ؛ أي: كثيرُ الشَّجر، وغَيْضةٌ أَشِبةٌ وعِيصٌ أَشِبٌ؛ أي: مُلْتفٌّ، وأَشِبَتِ الغَيْضةُ بالكسر؛ أي: التَفَّتْ. انظر: «اللسان» و«التاج» (مادة: أشب).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٨٩).

(٧٠) ـ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾؛ أي: لم تكونوا شيئًا ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾؛ أي: عند انقضاءِ الأجلِ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ وهو أردؤه وأوضعه، يُقالُ: رَذُلَ الشَّيءُ يرذُلُ رَذالةً، وأرذَلَه غيرُه.

وقيلَ: أرذَلُ العمرُ الخرَفُ، وقيلَ: الهرمُ.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾؛ أي: ليرجعَ إلى حالةِ الطُّفوليّةِ بنسيانِ ما علِمَ لفَرْطِ الكبرِ.

* * *

(٧١) ـ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾؛ أي: جعلَ منكم غنيًّا وفقيرًا وحرًّا وعبدًا ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ ﴾؛ أي: في الرِّزقِ؛ أي: أُعطُوا الفضلَ ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾؛ أي: لا يرُدُّ المولى على ما ملكَتْ يمينُه ممَّا رُزق شيئًا حتَّى يستويَ المملوكُ والمالكُ في المالِ.

وهذا مثَلٌ ضرَبه الله لعبَدةِ الأصنامِ؛ أي: إذا لم يكُنْ عبيدُكم معكم سواءً فكيفَ تجعَلون عبيدي معيَ سواءً؟!

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ ليس يُريدُ أنَّ المالكَ والمملوكَ يستويانِ، بل المعنى: فما الذين فُضِّلوا برادِّي رزقِهم على المملوكِ ليكونُوا سواءً، ونظيرُه: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا

مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨] بمعنى: حتَّى أنتم فيه سواءٌ؛ أي: هل يُشارِكُونكم حتَّى تَستَوُوا أم لا؟

قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ في نصارَى نجرانَ، قالوا: عيسى ابنُ الله، فقال الله ردًّا عليهم: كيفَ جعلتُم عبدَه شريكًا له[(١)]؟

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ بالياءِ؛ يعني: المُشركينَ، وقُرِئَ بالتّاءِ[(٢)]؛ أي: قُلْ لهم: أفبِنعمةِ الله تَجحَدون بالإشراكِ به؟

وقال الزَّجَّاجُ: أي: أفبِأَنْ أنعمَ الله عليكم اتَّخذتُم النِّعمَ لتجحَدُوا وتُشرِكُوا به الأصنامَ[(٣)]؟ فالنِّعمةُ بمعنى الإنعامِ على هذا.

وقيلَ: أي: أَفَبِما[(٤)] أنعَمَ الله به عليكم فبيَّنَ لكم ما تحتاجُونَ إليه تجحدون؟ فالنِّعمةُ على هذا اسمٌ لِـمَا أنعمَ الله عليهم لا مصدرٌ، والباءُ في ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ يُمكِنُ أن تكونَ زائدةً؛ لأنَّ الجحودَ لا يُعدَّى بالباءِ، وهو كما تقولُ: أخذتُ الخِطامَ، وأخذتُ بالخِطامِ، ويجوزُ أن يُرادَ بالجحودِ الكفرُ فيُعدَّى بالباءِ.

***

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٨١)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٣٣).

(٢) قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٢).

(٤) في النسختين: «فيما»، والمثبت من «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٢)، و«البسيط» (١٣/ ١٣٤) والكلام منه.

(٧٢) ـ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾؛ أي: خلَقَ حوّاءَ مـن ضلعِ آدمَ، وإذا ثبتَ هذا في الأصلِ ثبتَ في الفروعِ.

وقيلَ: جعلَ لكم أزواجًا من جنسِكم منَ البشرِ كقولِه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ أي: من جنسِكم وعشيرتِكم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ قيلَ: الحفدةُ: ولدُ الولدِ.

وقيلَ: الأعوانُ من جهةِ المرأةِ؛ لأنَّه قالَ: ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾، والـحَفْدُ: الخِفَّةُ في الخدمةِ والعملِ، يُقالُ: حفَدَ حَفْدًا وحَفَدانًا وحُفُودًا؛ أي: أسرعَ، وفي الدُّعاءِ: «إليكَ نسعى ونحفِدُ»[1]، ويُقالُ: «أحفَدَ» أيضًا؛ أي: خدَمَ، ويُقالُ في جمعِ الحافدِ: حَفَدٌ وحَفَدةٌ.

---

(١) قطعة من دعاء القنوت روي عن جمع من الصحابة منهم:

علي رضي الله عنه: رواه عنه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٧٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٠٢٩).

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رواه عنه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٨٩٣).

ورواه أبو داود في «المراسيل» (٨٩)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٣٨٢)، من طريق خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ مرسلاً.

ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٦٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٠٢٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٤٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٩٨)، من طريق ابن جريح، عن عطاء، عن عبيد بن عمير: «أن عمر بن الخطاب قنت..»، فذكره مطولاً. واختار هذه الطريق البيهقي ورجحها، وللحديث طرق كثيرة، بعضها مرفوع وبعضها مرسل، وانظر: «البدر المنير» (٤/ ٣٧٠ـ ٣٧٢)، و«نصب الراية» (٢/ ١٣٦).

وقيلَ: الحفَدةُ: بنو امرأةِ الرَّجلِ إذا لـم يكونُوا منه.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: منَ الثِّمارِ والحبوبِ والحيوانِ.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بالأصنامِ، وقيلَ: بالشَّيطانِ.

وقيلَ: يُصدِّقونَ أنَّ لي شريكًا وولدًا وصاحبةً.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يعني: التَّوحيد.

وقيلَ: بما أحلَّ الله لهم يكفرونَ فيُحرِّمُونَه، يعني: ما حرَّمُوا على أنفُسِهم.

* * *

(٧٣) ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: المطـرَ الـذي يأتـي مـن جهـةِ السَّـماءِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: النَّبـاتِ والثَّمـارِ ﴿شَيْـًٔا﴾ هـو بدلٌ منَ الـرِّزقِ.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: لا يقدرونَ على شيءٍ؛ يعني: الأصنام، وقـال: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ لِلَفْظِ ﴿مَا﴾، وقال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نظرًا إلى المعنَى.

* * *

(٧٤) ـ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: فلا تُشبِّهوا به هذه الجماداتِ؛ لأنَّه واحدٌ قادرٌ على الكمالِ لا مثلَ له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾؛ أي: ما كانَ وما يكونُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَدْرَ عظَمَتِه؛ إذ أشركتُم به واعتقدتُم عجزَه عن البعثِ.

وقيلَ: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فتقولوا: «نحنُ نُحِلُّ ونُحرِّمُ كما يُحِلُّ الله ويُحرِّمُ» فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ وهذا وعيدٌ؛ أي: سيُجازيكم على ما تصنَعونَ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تملِكُونَ جزاءَ أحدٍ ولا تعلمون له شريكًا لأنَّكم اتَّبعتُم الظَّنَّ.

* * *

(٧٥) ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ نبَّه على ضلالةِ المُشركينَ، وهو مُنتَظِمٌ بما قبلَه من ذكرِ نعمِ الله على المُشركينَ وعدَمِ مثلِ ذلك من آلهتِهم.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾؛ أي: بيَّنَ شبَهًا، ثمَّ ذكرَ ذلك فقال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾؛ أي: كما لا يستَوي عندَكم عبدٌ مملوكٌ لا يقدرُ من أمرِه على شيءٍ ورجلٌ حرٌّ قد رُزِقَ رزقًا حسنًا، فكذلك أنا وهذه الأصنامُ.

وقيلَ: هو مثَلٌ للمُؤمنِ والكافرِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ أبا جهلٍ وأبا بكرٍ؛ فإنَّ الكافرَ لا يعملُ بطاعةِ الله ولا يُنفِقُ خيرًا[(١)].

﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو المُؤمنُ يُطيعُ الله في نفسِه ومالِه، فالكافرُ لمَّا

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٤٣) عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذه مرويات واهية تروى من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٨٨) عن ابن جريج عن عطاء، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٧٢) عن ابن جريج.

لـم يُنفِقْ فـي الطّاعةِ صارَ كالعبـدِ الذي لا يملكُ شـيئًا، والمُؤمنُ يُنفِقُ فـي طاعةِ الله، فليسا يستَويانِ.

وقال: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾، ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾، أُريدَ بهما الشُّيوعُ في الجنسِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هو المُستحِقُّ للحمدِ دونَ ما يعبُدونَ من دونِه؛ إذ لا نعمةَ للأصنامِ عليهم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: أكثرُ المُشركينَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الحمدَ لي، وجميعَ النِّعمةِ منِّي، وذكرَ الأكثرَ وهو يُريدُ الجميعَ، فهو خاصٌّ أُريدَ به التَّعميمُ.

وقيلَ: أي: بل أكثرُ الخلقِ لا يعلمون، وذلك لأنَّ أكثرَهم المُشرِكُونَ.

***

(٧٦) ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ ضربَ مثلًا آخرَ؛ أي: وفيه القولانِ:

أحدُهما: أنَّه مثَلٌ للأوثانِ واللهِ تعالى، فالأبكمُ مثلُ الصَّنَمِ وهو كَلٌّ على عابدِه لا يستَوي هو ومَن يأمرُ بالعدلِ وهو اللهُ تعالى.

والقولُ الثّاني: أنَّه مثَلٌ للمُؤمنِ والكافرِ.

والأبكَمِ: العَيُّ المُفْحَمُ.

وقيلَ: الأقطَعُ اللِّسانِ.

وقيلَ: الذي لا يعقِلُ.

وقيلَ: الذي لا يسمعُ ولا يُبصِرُ.

﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ منَ الكلامِ؛ أي: لا يُفهِمُ ولا يُفهَمُ عنه.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾؛ أي: ثِقْلٌ ووَبالٌ على صاحبِه وابنِ عمِّه، يُقالُ: كَلَّ السِّكِّينُ يكِلُّ كُلولًا؛ أي: غلُظَتْ شفرتُه فلم يقطَعْ.

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾؛ أي: يُرسِلْه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لا يُحِسُّ ولا يفهَمُ ما يُقالُ له ولا يُفهَمُ عنه.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾؛ أي: هذا الأبكَمُ ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾؛ أي: ومَن هو قادرٌ عاقلٌ مُتكلِّمٌ آمِرٌ بالعدلِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

(٧٧) - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: شرعُ التَّحليلِ والتَّحريمِ إنَّما يحسُنُ ممَّن يُحيطُ بالعواقبِ والمصالحِ، وأنتم أيُّها المُشرِكونَ لا تُحيطونَ بها، فلِمَ تتحكَّمونَ؟!

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وتُجازَونَ فيها بأعمالِكم.

وقيلَ: هذا جوابُ قولِهم: لو كان البعثُ حقًّا لعُرِفَ وقتُه، فقالَ: وقتُه معلومٌ عندَ الله، فعندَه علمُ ما غابَ عن العبادِ ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ كما قالَ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال الزَّجَّاجُ: أي: ولله علمُ غيبِ السَّماواتِ والأرضِ[1].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٤).

والسّاعةُ: هي الوقتُ الذي تقومُ فيه القيامةُ، سُمِّيت ساعةً لأنَّها تفجأُ النّاسَ في ساعةٍ فيموتُ الخلقُ بصيحةٍ، واللَّمحُ: النَّظرُ بسرعةٍ، يُقالُ: لَمَحَه ببصرِه لَمْحًا ولَمَحانًا.

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس ﴿أَوْ﴾ للشَّكِّ، بل للتَّمثيلِ بأيِّهما أرادَ المُمَثِّلُ.

وقيلَ: ﴿أَوْ﴾ بمعنَى الإباحةِ، كما يُقالُ: «جالسِ الحسَنَ أو ابنَ سيرينَ».

وقال الزَّجَّاجُ: وصفَ سرعةَ القدرةِ على الإتيانِ بها[1]؛ أي: يقولُ للشَّيءِ: ﴿كُن﴾ فيكونُ.

وقيلَ: أدخَلَ ﴿أَوْ﴾ لشكِّ المُخاطَبِ.

وقيلَ: ﴿أَوْ﴾ بمنزلةِ «بل».

***

(٧٨) ـ ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ ذكرَ أنَّ من نعمِه أنْ أخرَجَكم من بطونِ أمَّهاتِكم أطفالًا لا علمَ لكم بشيءٍ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: خلَقَ لكم الحواسَّ لتفهَمُوا الأشياءَ.

﴿وَالْأَفْـِٔدَةَ﴾ جمعُ الفؤاد، نحوَ: «غُرابٍ وأغرِبةٍ».

وقد قيلَ: في ضمنِ قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ إثباتُ النُّطقِ؛ لأنَّ مَن لم يسمَعْ لم يتكلَّمْ، وإذا سلِمَتْ حاسّةُ السّمعِ وُجِدَ النُّطقُ.

***

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٤).

(٧٩) ـ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾؛ أي: مُذَلَّلاتٍ ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الهواءُ، وأضافَ الجوَّ إلى السَّماءِ لأنَّ الهواءَ مُرتفعٌ عن الأرضِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في حالِ القَبضِ والبَسطِ.

* * *

(٨٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قولُه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾؛ أي: موضعَ السُّكنَى في الحضَرِ، والسَّكَنُ: ما سكَنْتَ إليه أو سكَنْتَ فيه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾؛ أي: منَ الأنطاعِ والأَدَمِ ﴿بُيُوتًا﴾ يعني: الخيامَ والقِبابَ ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾؛ أي: يخِفُّ عليكم حملُها في الأسفارِ.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الظَّعنُ: سيرُ الباديةِ في الانتجاعِ، والتَّحوُّلُ من موضعٍ إلى موضعٍ.

وقُرِئَ: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ و: ﴿ظَعَنِكم﴾ كالشَّعْرِ والشَّعَرِ[1].

﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾؛ أي: لا تثقُلُ عليكم في الحالَينِ.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر بسكون العين، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ الأصوافُ للضَّأنِ، والأوبارُ للإبلِ، والأشعارُ للمَعزِ، وقد يُسمَّى الكلُّ شعرًا.

﴿أَثَاثًا﴾ هو أنواعُ المتاعِ من متاعِ البيتِ منَ الفُرُشِ والأكسِيةِ.

قال الفرَّاءُ: لا واحدَ له(١).

وقال أبو زيدٍ: الواحدُ: «أثاثةٌ»(٢).

وقال الخليلُ: أصلُ الكلمةِ من «أثَّ النَّباتُ والشَّعرُ»؛ أي: كثُرَ(٣).

﴿وَمَتَاعًا﴾؛ أي: مـمَّا تتمتَّعونَ به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى أن يبْلَى، وقيلَ: إلى حينِ الموتِ.

* * *

(٨١) - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾؛ أي: ما يُستَظَلُّ به كالغمامِ والشَّجرِ؛ أي: ليقِيَكم من حرِّ الشَّمسِ وشدَّةِ البردِ، ويدخلُ فيه البيوتُ.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ يعني: الغِيرانَ والأسرابَ، والواحدُ: «كِنٌّ»، مثلَ «حِمْلٍ وأحمالٍ»، والكِنُّ: كلُّ ما وقَى شيئًا وستَرَه.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧١).

(٢) ذكره عنه أبو بكر الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٤٦)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١/ ١١٨)، والجوهري في «الصحاح» (مادة: أثث)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٥٧).

(٣) انظر: «العين» (٨/ ٢٥٣)، وانظر: «البسيط» للواحدي (١٣/ ١٥٨).

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ وهي القُمُصُ، والواحدُ «سِربالٌ».

﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يقُلْ: «البردَ»؛ لأنَّ ما وقَى منَ الحرِّ وقَى منَ البردِ، فاكتَفَى بذكرِ أحدِهما عن الآخرِ.

وقيلَ: خاطَبَ العربَ وهم في بلاد الحرِّ، فكانت حاجتُهم إلى ما يقي الحرَّ أكثرَ.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾؛ أي: دُروعَ الحديدِ، والبأسُ: الشِّدّةُ؛ أي: تردُّ عنكم مكارِهَ القتالِ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ما جعلَ لكم هذه الأشياءَ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ في الدُّنيا، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ والخطابُ لأهلِ مكّةَ.

***

(٨٢) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ دعا إلى النَّظرِ والاستدلالِ والإيمانِ، ثمَّ قال: فإنْ أعرَضُوا فليس عليك يا محمَّدُ غيرُ التَّبليغِ.

***

(٨٣) ـ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: يعرِفُونَ أنَّ أمرَ النَّبيِّ ﷺ حقٌّ وأنَّه نعمةٌ منَ الله عليهم، ثمَّ يُنكِرُونَ ذلك.

وقيلَ: يعرِفُونَ هذه النِّعمَ التي ذُكِرَتْ في هذه السُّورةِ ويُنكِرُونَ أنَّها مَن الله ويقولون: كانَتْ لآبائِنا ورِثْناها، أو: نحنُ اكتَسَبْناها.

وقيلَ: قالوا: إنَّها منَ الله، ولكنْ قالوا: إنَّها بشفاعةِ آلهتِنا.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني: البالغينَ العاقلينَ.

وقيلَ: أرادَ بالأكثرِ جميعَ المُشركينَ، وقد ذكَرْنا هذا في قولِه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وقيلَ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تعرِفُ قلوبُهم ويجحَدونَ باللِّسانِ، وهذا وصفُ المُعانِدِ، فقولُه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ فيهم الجاهلَ والمُقلِّدَ وإنْ كان أكثرُهم مُعانِدينَ.

* * *

(٨٤) - ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ توعَّدَهم بيومِ البعثِ.

وقيلَ: يعرِفُونَ نعمةَ الله اليومَ ويومَ القيامةِ أيضًا.

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: نبيًّا ليشهدَ على أمَّتِه.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: في الكلامِ والاعتذارِ، كقولِه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]، ويُقالُ: «أذِنْتُ لفلانٍ»؛ أي: استمَعْتُ لـه؛ أي: لا يُستمَعُ لِـمَا يعتَذِرونَ.

وقيلَ: لا يُؤذَنُ لهم؛ أي: هم محجُوبونَ عن الله كقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: لا يُؤمَرُونَ بالكفِّ عن معصيةٍ يرتكبُونَها كما كان يُفعَلُ بهم في الدُّنيا؛ لأنَّه لا تكليفَ في الآخرةِ، وأصلُ الكلمةِ منَ العَتْبِ، وهو

المَوجِدةُ، يُقالُ: «عتَبَ عليه»؛ أي: وجَدَ عليه، و«أعتبَه»؛ أي: أزالَ عتبَه بأنْ ترَكَ ما كان يعتِبُ عليه من أجلِه، و«استعْتبَه»؛ أي: طلَبَ منه الإِعتابَ.

* * *

(٨٥) ـ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾؛ أي: أشرَكُوا ﴿ٱلۡعَذَابَ ﴾؛ أي: النّارَ؛ أي: دخَلُوا النّارَ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ العذابُ؛ أي: لا يُمهَلون؛ إذ لا توبةَ ثَمَّ.

* * *

(٨٦) ـ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُوا۟ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡا۟ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمۡ ﴾؛ أي: الأصنامَ التي عبَدُوها، وذلك أنَّ الله يبعَثُ معبُودِيهم[1] فيتبَعُونَهم حتَّى يُورِدُوهم النّارَ، وإنَّما قال: ﴿شُرَكَآءَهُمۡ ﴾؛ لأنَّهم جعَلُوا لهم نصيبًا في أموالِهم، وأيضًا جعَلُوهم شركاءَ في العبادةِ.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُوا۟ ﴾؛ أي: نعبدُ ﴿مِن دُونِكَ ﴾.

﴿فَأَلۡقَوۡا۟ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ ﴾؛ أي: قالَتِ الأصنامُ: ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في أنَّ الصَّنَمَ يستحِقُّ العبادةَ.

وقيلَ: يُنطِقُ الله الأصنامَ حتَّى تقولَ: إنَّكم لكاذِبُونَ علينا، ولا علمَ لنا بعبادتِكم إيّانا، ويظهرُ عند ذلك فضيحةُ الكفّارِ.

* * *

---

(١) في (أ): «مبعوداتهم».

(٨٧) - ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾؛ أي: استسلَمَ هؤلاءِ المُشركونَ لحكمِ الله وذَلُّوا.

وقيلَ: استسلَمَ العابدُ والمعبودُ، وزالَ عنهم ما كانُوا فيه منَ التَّكبُّرِ في الدُّنيا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾؛ أي: ذهبَ ما زيَّنَ الشَّيطانُ لهم، وما كانُوا يُؤمِّلونَ من شفاعةِ آلـهتِهم لـهم.

وقيلَ: ضلَّ عنهم أصنامُهم التي عبَدُوها من دونِ الله.

***

(٨٨) - ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: طاعتِه ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ قال ابنُ مسعودٍ: أي: عقارِبَ لـها أنيابٌ كأمثالِ النَّخْلِ الطِّوالِ وأفاعِيَ[1].

وقيلَ: إنَّهم إذا جزِعُوا من حرِّ جهنَّمَ استغاثُوا بضَحضاحِ ماءٍ في النّارِ، فإذا أتَوه تلقَّتْهم عقاربُ كأنَّها البغالُ، وأفاعٍ كأنَّها البَخاتيُّ فضرَبْنَهم، فتلك الزِّيادةُ[2].

***

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٢٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤١٣٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦٥٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٥٧)، كلهم بذكر العقارب دون لفظ الأفاعي، ولفظ الأفاعي رواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣١) من طريق آخر مقتصراً عليه، وفي رواية أخرى بلفظ: «أفاعي في النار».

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن السدي كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٥٧).

(٨٩) ـ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾؛ أي: نبيًّا يشهدُ على أمَّتِه ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾؛ أي: من بني جنسِهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾؛ أي: على قومِكَ، فأفرَدَه بالذِّكرِ تشريفًا؛ أي: فحينَئذٍ لا تنفَعُهم الشَّفاعةُ.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ أي: بلَّغتَهم القرآنَ، ففيه بيانُ ما يحتاجُونَ إليه من أمرِ الدِّينِ، والتِّبيانُ: اسمٌ بمعنَى البيانِ.

***

(٩٠) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: العدلُ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا الله، والإحسانُ أداءُ الفرائضِ(١).

وفي روايةٍ: العدلُ خلعُ الأندادِ، والإحسانُ الإخلاصُ فيه(٢).

وقيلَ: العدلُ في الأفعالِ، والإحسانُ في الأقوالِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٩٩)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٨٣).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٠٦)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٧٢)، من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، كلاهما بلفظ: «العدل: خلع الأنداد، والإحسان: تعبد الله كأنك تراه»، وزاد الواحدي: «وأن تحب للناس ما تحب لنفسك؛ إن كان مؤمنًا أحببت أن يزداد إيمانًا، وإن كان كافرًا أحببت أن يكون أخاك في الإسلام».

﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: صلةِ الرَّحمِ من فضلِ ما رزَقَكَ الله.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: الزِّنا، وقيلَ: البُخلِ، وقيلَ: ما قبُحَ من قولٍ وفعلٍ.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: الكفرِ، وقيلَ: ما لا يُعرَفُ في الشَّرعِ.

﴿وَٱلْبَغْىِ﴾؛ أي: الكِبْرِ والظُّلمِ.

قال ابنُ مسعودٍ: أجمعُ آيةٍ في القرآنِ لخيرٍ وشرٍّ هذه الآيةُ[1].

***

(٩١) - ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: يعِظُكم لتتذكَّروا ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأيمانٍ يوم الذَّرِّ.

وقيلَ: بما أمرَكُم الله به وأخذَ عليكم منَ العُهودِ إذ أرسلَ إليكم الرُّسُلَ.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ أي: بعد تشديدِها، وإنَّما قال: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فرقًا بين اليمينِ المُؤكَّدةِ بالعزمِ، وبين لغوِ اليمينِ، يُقالُ: «وَكَّدَ وأكَّدَ» وهما لغتانِ، والأصلُ الواوُ، والهمزةُ بدلٌ منها.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ والواوُ للحالِ، ومَن حلَفَ بالله فكأنَّه أكفَلَ الله بالوفاءِ بما حلَفَ عليه.

***

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠٠٢)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٢٤١)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٥٨).

(٩٢) ـ ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾؛ أي: لا تنقُضوا العهدَ فيكونَ مثلُكم مثَلَ امرأةٍ أبرَمَتْ غزلَـها ثمَّ نقَضَتْه.

﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾؛ أي: من بعدِ إمرارٍ وفتلٍ.

﴿أَنكَٰثًا ﴾ واحدُها «نِكْثٌ»، وهو الغزلُ منَ الصُّوفِ والشَّعرِ يُبرَمُ ويُنسَجُ، فإذا أخلَقَتِ النَّسيجةُ قُطِعَتْ ونُكِثَتْ خيوطُها المُبرَمةُ وخُلِطَتْ بالصُّوفِ ونُفِشَتْ ثمَّ غُزِلَتْ ثانيًا.

والنَّكـثُ: النَّقـضُ، وهـو المصـدرُ، وهو كقولِـك: «كُسِـرَتْ أقطاعًـا وفُرِّقَتْ أجـزاءً»، فقولُـه: ﴿أَنكَٰثًا ﴾ مفعـولٌ ثانٍ.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ الدَّخَـلُ والدَّغَـلُ والغِـشُّ واحـدٌ، ويُقـالُ: «دخْـلٌ» أيضًـا بالتَّخفيـفِ، فـكلُّ مـا دخلَـه عيـبٌ فهـو مدخولٌ.

﴿دَخَلًۢا ﴾ نصبٌ؛ لأنه مفعولٌ له؛ أي: للدَّخَلِ.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾؛ أي: من أجلِ أنَّ طائفةً من النّاسِ أكثرُ عددًا من طائفةٍ أُخرَى أو أكثرُ أموالًا، فتنقُضونَ أيمانَكم إذا رأيتُم الكثرةَ والسَّعةَ في الدُّنيا لأعدائِكم المُشركينَ، والمقصودُ النَّهيُ عن العَودِ إلى الكفرِ بسببِ كثرةِ الكفّارِ أو كثرةِ أموالِـهم.

﴿أَرْبَىٰ ﴾ أكثرُ، من رَبا الشَّيءُ يربُو؛ أي: كثُرَ.

وقال مُجاهدٌ: كانوا يُحالفُونَ الحلَفاءَ، فإذا وجدُوا أكثرَ منهم وأعزَّ ينقُضونَ حلفَ الأوَّلِ ويُحالِفُونَ الذين هم أعزُّ، فنُهُوا عن ذلك[١].

﴿أَن تَكُونَ﴾ أي: بأنْ تكونَ، أو: لأنْ تكونَ.

قال الفرَّاءُ: أي: لا تغدُروا بقومٍ لِقلَّتِهم وكثرتِكم، أو لقلَّتِكم وكثرتِهم، وقد غَرَرْتُموهم بالأيمانِ[٢]، والمعنى: النَّهيُ عن اليمينِ مع إضمارِ خلافٍ، وعن تغريرِ الغيرِ باليمينِ.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ﴾؛ أي: بما يأمُركم وينهاكُم.

وقيلَ: الكنايةُ ترجعُ إلى التَّكليفِ.

﴿يَبْلُوكُمُ﴾: يُعاملُكم مُعاملةَ المُختبرِ.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ منَ البَعثِ وغيرِه.

***

(٩٣) - ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: على ملّةٍ واحدةٍ ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ولا يُسألُ عمَّا يفعلُ بل تُسألون أنتم.

واللّامُ في ﴿لَتُسأَلُنَّ﴾ مع النُّونِ المُشدَّدةِ يدُلّانِ على قسَمٍ مُضمَرٍ؛ أي: واللهِ لَتُسأَلُنَّ.

***

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٣)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ١٨٢).

(٩٤) ـ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: لا تعتَقِدوا الأيمانَ بالانطِواءِ على الخديعةِ والفسادِ، وقد سبقَ ذِكرُه فكرَّرَه تأكيدًا.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ أي: تـزِلَّ عـن الإيمـانِ بعـد المعرفةِ بالله، وهـذا الوعيدُ فـي نقـضِ عهدِ رسـولِ الله ﷺ، فإنَّ مَـن عاهدَه ثمَّ نقـضَ عهدَه خرَجَ عـن الإيمانِ، ولهـذا قـال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: العـذابَ ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾؛ أي: بصدِّكـم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ثمَّ؛ قيلَ: تذُوقُوا السُّوءَ في الدُّنيا، وهو ما يَحُلُّ بكم من المكروهِ ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ في الآخرةِ.

وقيلَ: يرجعُ الكلُّ إلى الآخرةِ وعذابِها.

وفي الآيةِ محذوفٌ؛ أي: ولكم عذابٌ عظيمٌ إن اتَّخذتُم أيمانكم دخَلًا.

* * *

(٩٥ ـ ٩٦) ـ ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾؛ أي: عرَضَ الدُّنيا وإنْ كثُرَ؛ لأنَّه مـمَّا يزولُ، فهو قليلٌ على التَّحقيقِ.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ منَ الثَّوابِ على الوفاءِ بالعهودِ ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ ذكرَ سببَ الخيريَّةِ؛ أي: الدُّنيا تنفَدُ وما عند الله لا ينفَدُ.

﴿بَاقٍ﴾ قُرِئَ بالياءِ، وكذلك ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، و﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقُرِئَ من غيرِ ياءٍ، ولا بدَّ في حالةِ الوصلِ منَ التَّنوينِ[1].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾؛ أي: على الإسلامِ والطَّاعاتِ، وعن المعاصي ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: الطَّاعاتِ، وجعلَها أحسَنَ لأنَّ ما عَداها منَ الحَسَنِ مُباحٌ، والجزاءُ إنَّما يكونُ على الطَّاعةِ من حيثُ الوعدُ منَ الله.

نزلَتْ في امرِئِ القيسِ بنِ عابسٍ الكنديِّ وخصمِه ابنِ أَشْوَعَ، اختَصَما في أرضٍ، فأرادَ امرُؤُ القيسِ أن يحلفَ، فلمَّا سمعَ هذه الآيَةَ نكَلَ وأقرَّ له بحقِّه[2].

***

---

(١) قرأ ابن كثير فيها بالياء وقفًا، وقرأ الباقون بغير ياء وقفًا، والجميع يصلون بالتنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

(٢) ذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٣/ ١٠٨٠) عن ابن عباس، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٨٨) عن الكلبي، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٨١) عن ابن عباس من طريق أبي صالح، فهو إذاً من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.
والقصة دون سبب نزول هذه الآية رواها مسلم (١٣٩) من حديث وائل بن حجر رضي الله عنه، وكذا رواها الإمام أحمد في «المسند» (١٧٧١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٥٣)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٥١٧)، من حديث عدي بن عميرة رضي الله عنه، وفي «سنن النسائي الكبرى»، و«تفسير الطبري»: فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧].
وفي رواية أحمد: أن رسول الله ﷺ تلاها، دون التصريح بنزولها، وسنده صحيح.

(٩٧) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: مَن أتى بطاعةٍ منَ الفروعِ وهو على الدِّينِ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: لَنُطيِّبَنَّ عيشَه.

وقيلَ: هو أن يرزُقَه الله القناعةَ فيَطِيبَ عيشُه بالرِّضا بالكفافِ، وقد يكونُ ذلك بأن يُوسِّعَ عليه الرِّزقَ.

وقيلَ: يجعلُ رزقَه حلالًا.

وقيلَ: يُوفِّقُه للطّاعاتِ؛ فإنَّها تُؤدِّيه إلى رضوانِ الله.

وقيلَ: الحياةُ الطَّيِّبةُ إنَّما تكونُ في الجنّةِ.

وقيلَ: أي: في القبرِ.

قولُه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾؛ أي: في الآخرةِ. وقد قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾؛ لأنَّ «مَن» يصلُحُ للواحدِ والجمعِ.

***

(٩٨ ـ ١٠٠) ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ هو متَّصلٌ بقولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]؛ أي: فإذا أخَذْتَ في قراءتِه فاستَعِذْ بالله من أن يعترِضَ لك الشَّيطانُ فيصُدَّكَ عن تدبُّرِه والعملِ بما فيه، وليس يُريدُ: استَعِذْ بعد القراءةِ، بل

هو كقولِك: «إذا أكلْتَ فقُلْ: بسمِ الله»؛ أي: قُلْ: «بسمِ الله» إذا أردت الأكل، وقولِه: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ أي: أردتُم الطَّلاقَ.

قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: ليس له حجَّةٌ.

وقيلَ: طريقٌ يتسلَّطُ به على المُؤمنِ بالإغواءِ.

قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: يُطيعونَه، يُقالُ: تولَّيتُه؛ أي: أطَعْتُه، وتوَلَّيتُ عنه؛ أي: أعرَضْتُ عنه، وإنَّما يُؤثِّرُ وسواسُ الشَّيطانِ فيمَن أقبلَ عليه لا فيمَن أقبلَ على الله.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾؛ أي: بالله.

وقيلَ: يرجعُ ﴿بِهِۦ﴾ إلى الشَّيطانِ؛ أي: والذين هم بطاعتِهم له صارُوا مُشرِكين بالله، كما يُقالُ: كفَرْتُ بهذه الكلمةِ؛ أي: من أجلِها؛ أي: والذين هم بسببِ تولِّي الشَّيطانِ مُشرِكُونَ.

* * *

(١٠١ ـ ١٠٢) ـ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾؛ أي: إذا نزلَتْ آيةٌ فيها شدّةٌ، ثمَّ نزلَتْ آيةٌ فيها تخفيفٌ؛ قال كفّارُ قريشٍ: إنَّ محمَّدًا ليسخَرُ بأصحابِه، يأمرُهم اليومَ بأمرٍ وغدًا بآخرَ، وهذا من عندِ نفسِه(١).

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨٨) دون نسبة ولا عزو، وذكره في «البسيط» (١٣/ ١٩٥) عن الكلبي، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٨٣) عن أبي صالح عن =

ويُمكِنُ أن يُريدَ به النَّسخَ.

والتَّبديلُ: رفعُ الشَّيءِ مع وضعِ غيرِه مكانَه.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾؛ أي: منَ النّاسخِ والمنسوخِ، وهذا كلامٌ مُعترِضٌ.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾؛ أي: إذا كانَ هو أعلمَ فلِمَ ينسبُونَ محمَّدًا إلى الافتراءِ؟

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله شرَعَ الأحكامَ، وتبديلَ البعضِ بالبعضِ.

قولُه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾؛ أي: نزلَ بالقرآنِ كلِّه ناسخِه ومنسوخِه جبريلُ.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: بالقرآنِ من عندِ الله، فهو كلامُ الله عزَّ وجلَّ.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصَّوابِ، والأمرِ الصَّحيحِ الثّابتِ لا الباطلِ ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: بما فيه منَ الحججِ والآياتِ ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: وهو هُدًى.

* * *

(١٠٣) - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ قال عبدُ الله بنُ مسلمٍ: كان لنا غلامانِ نصرانيّانِ من أهلِ عينِ التَّمرِ، اسمُ أحدِهما يسارٌ، واسمُ الآخرِ جبرٌ، وكانا صَيْقَلَينِ[1]، وكانا يقرآنِ كتبًا لهم بلسانِهم، فكان رسولُ الله ﷺ يمرُّ بهما ويسمعُ قراءَتَهما، وكان المشركون يقولون: يتعلَّمُ منهما، فأنزلَ الله هذه الآيةَ وأكذَبَهم[2].

= ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) الصيقل: الذي يشحذ السيوف ويجليها.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨١).

وقيلَ: عَنَوا سلمانَ الفارسيَّ رضيَ الله عنه(١).

وقيلَ: رجلًا يُسمَّى يَعِيش(٢).

وقيلَ: نصرانيًّا بمكَّةَ بَلْعام(٣).

وقيلَ: كانَ رسولُ الله ﷺ يُعلِّمَ قَينًا بمكّةَ يُقالُ له: بَلْعامُ، وكان أعجميَّ اللِّسانِ، وكان المُشركونَ يرَونَ رسولَ الله حينَ يدخلُ عليه وحينَ يخرُجُ من عندِه، فقالوا: إنَّما يُعلِّمُه بَلْعامُ، رواه ابنُ عبّاسٍ(٤).

وفي روايةٍ: أنَّه عدَّاسٌ غلامُ عتبةَ بنِ ربيعةَ(٥).

وقيلَ: هو رجلٌ نصرانيٌّ كان بمكّةَ يُقالُ له: أبو ميسرةَ، يتكلَّمُ بالرُّوميّةِ(٦).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٣)، وقال الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٣٠): هذا قول غير مرضي، لأن سلمان رضي الله عنه إنما أتى النبي ﷺ في المدينة، وهذه الآية مكية.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٥ـ٣٦٦) عن عكرمة وقتادة.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، وهو الذي بعده نفسه، إلا أن الثعلبي زاد كونه نصرانيًّا.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٥).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ١٩٨) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٣٠) عن السدي. وروى عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٣) قال: «كان رسول الله ﷺ إذا آذاه أهل مكة دخل على عبد لبني الحضرمي يقال له: أبو يسر، كان نصرانيًّا وكان قد قرأ التوراة والإنجيل، فساءله وحدثه، فلما رآه المشركون يدخل عليه قالوا: يعلمه أبو اليسر. قال الله: هذا لسان عربي مبين ولسان أبي اليسر عجمي».

وقيلَ: هو عائِشٌ، غلامٌ لحُوَيطِبِ[١] بنِ عبدِ العُزَّى، ويسارٌ أبو فُكَيهةَ مولى ابنِ الحضرميِّ، وكانا قد أسلَما[٢].

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ الإلحادُ: المَيلُ، يُقالُ: لحدَ وألحدَ؛ أي: مالَ عن القصدِ.

وقُرِئَ: ﴿يَلحَدُون﴾ بفتحِ الياءِ[٣]؛ أي: لسانُ هؤلاءِ الذين يَميلونَ إلى محمَّدٍ ﷺ.

وقيل: الإلحاد بمعنى الإمالة؛ يقال: أَلْحدْتُ له لحدًا؛ أي: حفرتُ مائلًا عن الاستواء، فالمعنَى على هذا: لسانُ الذين يُميلُونَ إليه القولَ؛ أي: يُومِئونَ إليه ويزعُمونَ أنَّه يُعلِّمُكَ.

﴿أَعۡجَمِىٌّ﴾ العُجمةُ: الإخفاءُ، ضدُّ البيانِ، ورجلٌ أعجَمُ، وامرأةٌ عجماءُ؛ أي: لا يُفصِحُ، ومنه: «عَجْمُ الزَّبيبِ» لاستِتارِه، والعَجْماءُ: البهيمةُ؛ لأنَّها لا تُوضِحُ عن نفسِها، وأعجَمْتُ الكتابَ؛ أي: أزَلْتُ عُجمَتَه، والعربُ تُسمِّي كلَّ مَن لا يعرفُ لغتَهم ولا يتكلَّمُ بلسانِهم أعجميًّا.

وقال الفرَّاءُ: الأعجَمُ الذي في لسانِه عُجمةٌ وإنْ كانَ منَ العربِ، والأعجميُّ هو العجَميُّ الذي أصلُه منَ العجَمِ[٤].

---

(١) في (أ): «حويطب».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٠٠) عن الكلبي، وذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١١٣) مقتصرًا على ذكر الأول منهما.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي، والباقون: ﴿يُلْحِدون﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٣)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٢٠٣) وعنه نقل المصنف.

وقال أبو عليٍّ: الأعجَميُّ: الذي لا يُفصِحُ سواءٌ كان منَ العربِ أو العجَمِ، وكذلك الأعجَمُ[1].

ومعنى الآيةِ: هذا الذي يزعُمونَ أنَّه يُعلِّمُك أعجميٌّ لا يُفصِحُ، فكيفَ يُتعلَّمُ منه ما هو في أعلى طبقاتِ البيانِ[2]؟!

﴿وَهَٰذَا﴾؛ أي: القرآنُ ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: أفصحُ ما يكونُ منَ العربيّةِ، واللِّسانُ في هذه الآيةِ بمعنَى الكلامِ.

* * *

(١٠٤ - ١٠٥) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: هؤلاءِ المُشركونَ الذين لا يؤمنون بالقرآنِ ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا جوابُ وصفِهم النَّبيَّ عليه السَّلامُ بالافتراءِ.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هذا مُبالغةٌ في وصفِهم بالكذبِ؛ أي: كلُّ كذبٍ قليلٌ بالنِّسبةِ إلى كذبِهم، وقد يُقالُ: «كذَبَ فلانٌ» ولا يُقالُ: «إنَّه كاذبٌ»؛ لأنَّ الفعلَ قد يكونُ لازمًا وقد لا يكونُ لازمًا، فأمَّا النَّعتُ فيكونُ لازمًا، ولهذا يُقالُ: «عصى آدمُ ربَّه فغَوَى»، ولا يُقالُ: «إنَّه عاصٍ غاوٍ»، فإذا قيلَ: «كذَبَ فلانٌ فهو كاذبٌ» كان مُبالغةً في الوصفِ بالكذبِ.

* * *

---

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٦/ ١٢١).

(٢) في (أ): «اللسان».

(١٠٦) ـ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ هذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾؛ لأنَّ معناه لا ترتَدُّوا عن بيعةِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ؛ أي: مَن كفرَ من بعدِ إيمانِه وارتدَّ فعليه غضبُ الله.

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في عمّارِ بنِ ياسرٍ؛ فإنَّ المُشركينَ أخَذُوه وأخَذُوا أباه وأمَّه سُميّةَ، وصُهَيبًا وبلالًا وخبَّابًا وسالِمًا، فعذَّبوهم، ورُبِطَتْ سُميّةُ بينَ بعيرَين فوُجِئَ قُبُلُها بحربةٍ، وقيلَ لـها: إنَّكِ أسلَمْتِ من أجلِ الرِّجالِ، فقُتِلَتْ وقُتِلَ زوجُها ياسرٌ، وهما أوَّلُ قتيلَينِ في الإسلامِ، وأمَّا عمّارٌ فأعطاهم ما أرادوا بلسانِه مُكرَهًا، فأُخبِرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ عمارًا كفرَ فقال: «كلّا؛ إنَّ عمّارًا مُلِئَ إيمانًا من قَرْنِه إلى قدمِه، واختلَطَ الإيمانُ بلحمِه ودمِه»، فأتى عمارٌ رسولَ الله ﷺ وهو يبكي، فجعَلَ رسولُ الله ﷺ يمسَحُ عينَيه، وقال: «إنْ عادُوا لك فعُدْ لهم بما قُلتَ» ونزلَتْ هذه الآيةُ[1].

---

(١) ذكره بهذا السياق الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٣٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨١)، ورواه مختصرًا الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٣) بإسناد ضعيف.

وقول النبي ﷺ: «إنّ عمّارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»: روى نحوه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٩١)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٦٠٠) عن عمرو بن شرحبيل، ورواه النسائي (٥٠٠٧) عن عمرو بن شرحبيل عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

ورواه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٩٢)، وابن ماجه (١٤٧)، عن علي رضي الله عنه بلفظ: إن عمارًا مُلئ إيمانًا إلى مُشاشه.

وروى يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٩٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٠٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠٤) عن أبي عبيدة بن محمد بن =

وقيلَ: نزلَتْ في قومٍ آمَنُوا بمكّةَ ثمَّ هاجَرُوا فردَّهم المُشرِكون عن الطَّريقِ وأكرَهُوهم على الكفرِ[(١)].

وقولُه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ هو عندَ الزَّجَّاجِ بدلٌ من ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[(٢)]؛ أي: إنَّما يفتَري الكذبَ مَن كفرَ باللهِ من بعدِ إيمانِه؛ إذ لا خبرَ له هاهُنا حتَّى يُجعلَ ابتداءً، ثمَّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[(٣)].

وقال الأخفشُ: ﴿مَن﴾ ابتداءٌ، وخبرُه محذوفٌ، اكتفَى منه بخبرِ ﴿مَن﴾ الثّانيةِ كقولِك: «مَن يأتينا فمَن يُحسِنْ نُكرِمْه»[(٤)].

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ أي: وسَّعَه لقَبولِ الكفرِ، ولا يقدرُ أحدٌ على شرحِ صدرِ غيرِه للكفرِ، فلهذا لم يقُلْ: «صدرَه».

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ طلاقَ المُكرَهِ لا يقعُ.

***

= عمار بن ياسر، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذَّبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئنًّا بالإيمان. قال النبيُّ ﷺ: «فإنْ عادُوا فَعُدْ». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ٣١٢): وهو مرسل ورجاله ثقات. ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٦٢) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه، وصححه، وقال الحافظ: «وهو مرسل أيضاً، وأخرج الطبري [في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)] من طريق عطية العوفي عن ابن عباس نحوه مطولاً وفي سنده ضعف».

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٨) عن مجاهد، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨٢).

(٢) في النسختين: «بدل ممن يفتري الكذب»، والتصويب من المصدرين الآتيين.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٩)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٢٠٨).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤١٨)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٢٠٧) ورجحه على قول الزجاج.

(١٠٧ - ١٠٩) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنَّما استَحَقُّوا غضبَ الله لإيثارِهم الدُّنيا، وذلك الشَّرحُ والكفرُ لإيثارِهم الدُّنيا، وهذا في قومٍ ارتَدُّوا لإيثارِ الدُّنيا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وبأنَّ الله ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: أضلَّهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عمّا بينَ أيديهم منَ العذابِ.

قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: حقًّا[1] أنَّهم في الآخرةِ هم المغبونُونَ، فقولُه: ﴿أَنَّهُمْ﴾ رفعٌ؛ أي: وجَبَ أنَّهم.

وقيلَ: نصبٌ؛ أي: جرَمَ وكسَبَ فعلُهم أنَّهم ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ثمَّ، قال قومٌ في الإكراهِ: يجبُ أن يُجرِيَ هذا المُكرَه بقلبِه شيئًا لو صرَّحَ به لـم يكُنْ كلامُه كُفرًا، فإذا أُكرِهَ مثلًا على أن يقولَ: «عيسى إلهٌ» قال في قلبِه: يزعُمُ النَّصارَى؛ لأنَّه يُمكِنُه هذه التَّوريةُ.

وقال المُعظَمُ: لا يُشترَطُ هذا، بل صورةُ الإكراهِ بجَعلِ هذا اللَّفظِ منه كلفظِ المُبَرْسَمِ والنَّائمِ، وذكرُ هذا الاختلافِ في الإكراهِ على الإطلاقِ.

---

(١) في النسختين: «حقًّا لهم»، والمثبت من «البسيط» للواحدي (١٣/ ٢١٠)، ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(١١٠) - ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ نزلَتْ في القومِ الذين آمَنُوا وهاجَرُوا[١]، فرُدُّوا عن الطَّريقِ وفُتِنُوا مُكرَهين - وفيهم نزلَتْ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢] -، وكتبَ أهلُ المدينةِ إليهم بذلك، فتبايَعُوا على أنْ يخرُجُوا، فإنْ أدرَكَهم المُشرِكون قاتلُوهم، فخرَجُوا فلحِقَهم المُشركون فقاتَلوهم، فمنهم مَن قُتِلَ ومنهم مَن نَجا[٢].

وقيلَ: أي: للَّذين فُتِنُوا ثمَّ هاجَرُوا وجاهَدُوا الكفَّارَ مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أعادَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لتطاوُلِ الكلامِ، وأُجيبَ كلاهما بجوابٍ واحدٍ كما ذكَرْنا في قولُه: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ ﴾.

﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد تلك الفتنةِ، وهي التَّلفُّظُ بكلمةِ الكفرِ.

وقيلَ: من بعد خَرجَتِهم من مكَّةَ إلى المدينةِ؛ أي: غفرَ الله لهم مُقامَهم بمكَّةَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿مِن بَعْدِ ما فَتَنُوا﴾ بفتح الفاءِ[٣]؛ أي: بعد ما فَتَنُوا أنفُسَهم

---

(١) في (أ): «آمنوا ثم هاجروا».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٨ - ٣٧٩)، عن قتادة وليس فيه ذكر آية العنكبوت. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٣٩) عن الشعبي بذكر آية العنكبوت دون هذه الآية.
وروى نحو هذه القصة البزار (٢٢٠٤ - كشف)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. ورجاله ثقات، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك، وهو ثقة.

(٣) انظر: «السبعة» (١/ ٣٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

بإظهارِ ما أظهَروه للتَّقيَّةِ، وجعلَ ذلك فتنةً؛ لأنَّ الرُّخصةَ لـم تكُنْ نزلَتْ بعدُ، أو: فَتَنُوا أنفُسَهم بالتَّخلُّفِ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: نزلَتْ فيمَن كان يُعذِّبُ المؤمنينَ منَ الكفّارِ، ثمَّ بدا له فأسلَمَ وهاجَرَ.

***

(١١١) ـ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾؛ أي: إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ في ذلك اليومِ، أو: ذكِّرهم يومَ تأتي كلُّ نفسٍ ولا يُهِمُّها إلّا نفسُها.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: ثوابَ ما عمِلَت، فحُذِفَ المُضافُ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يُنقَصُونَ.

***

(١١٢) ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ هذا مُتَّصِلٌ بذكرِ المشركينَ، وكان رسولُ الله ﷺ دعا على مُشركي قريشٍ وقال: «اللَّهمَّ اشدُدْ وَطْأتَكَ على مُضَرَ، واجعَلْها عليهم سنينَ كسني يوسفَ»[1]، فابتُلوا بالقَحْطِ حتَّى أكلُوا العِلْهِزَ[2]،..................

---

(١) إلى هنا رواه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه النَّسائي في «الكبرى» (١١٢٨٩) في تفسير (سورة المؤمنون) من حديث ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النَّبي ﷺ فقال: يا محمد، أَنْشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعني: الوبر =

ووجَّهَ إليهم رسولُ الله ﷺ طعامًا ففرَّقَ فيهم[(١)].

والمثَلُ يُضرَبُ لتشبيهِ شيءٍ بشيءٍ، وهاهُنا ذُكِرَ المُشبَّهُ به ولم يُذكَرِ المُشبَّه؛ لوُضوحِه عند المُخاطَبين؛ أي: ضرَبَ لقريتِكم مثلًا، فشبَّهَ مكّةَ بقريةٍ صفتُها ما ذُكِرَ، وذكرَ القريةَ والمُرادُ أهلُ القريةِ.

وقيلَ: ضرَبَ مكّةَ مثلًا لغيرِها منَ البلادِ؛ أي: أنَّها مع جوارِ بيتِ الله وعمارةِ مسجدِه لـمَّا كفرَ أهلُها أصابَهم القَحْطُ، فكيف بغيرِها من القُرى؟

فعلى الأوَّلِ شبَّهَ مكةَ بالقريةِ التي وصفَها، وعلى الثّاني شبَّهَ كلَّ قريةٍ كفرَ أهلُها بمكّةَ.

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾؛ أي: ذاتَ أمنٍ منَ الإغارةِ، ويرجعُ الأمنُ إلى الأهلِ، وهو كقولِكَ: «يومٌ حارٌّ» أو «باردٌ» فيرجعُ إلى جُلِّ اليومِ.

﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾؛ أي: ساكنةً بأهلِها، لا يحتاجُونَ إلى النُّقلةِ عنها.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾؛ أي: واسِعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ لأنَّ الله جعلَ أفئدةً منَ النّاسِ تهوي إليهم، فيجلبُ إليها الرِّزقَ من كلِّ بلدٍ.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ الأنعُمُ: جمعُ النِّعمةِ، كالأَشُدِّ: جمعُ الشِّدّةِ.

وقيلَ: جمعُ نُعمَى، مثلَ «مُوسى وأَمْوُسٍ».

= والدَّم - فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. وروى البخاري (١٠٠٧) من حديث ابن مسعود: «اللَّهُمَّ سَبْعٌ كسَبعِ يوسفَ»، فأخذتْهم سَنةٌ حَصَّتْ كلَّ شيءٍ، حتى أكلوا الجلودَ والمَيْتةَ والجِيَفَ... الحديث.

العلهز: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سني المجاعة. انظر: «الصحاح» (٣/ ٨٨٧).

(١) سيأتي عند قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

وهذا الكفرانُ تكذيبُ محمَّدٍ ﷺ.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ يُطلَقُ لفظُ الذَّوقِ على ما ينالُ المرءَ منَ المكارِه، قالَ الله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقالَ: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩]، وتقولُ: «ذُقْتُ الحلوَ والمُرَّ من صُروفِ الدَّهرِ»، فأصلُ الذَّوقِ: الفمُ، ثمَّ يُستَعارُ فيُوضَعُ موضعَ الابتلاءِ.

قيلَ: عذَّبَهم الله بالجوعِ سبعَ سنينَ، حتَّى أكلُوا الجِيَفَ والعِظامَ المُحرقةَ، وإليه أشارَ بقولِه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، والأكبرُ عذابُ الآخرةِ، والذَّوقُ إنَّما يقعُ بالشَّيءِ القليلِ.

﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾؛ أي: ما يظهرُ عليهم من سوءِ آثارِهما، وهو على مجازِ قولِكَ: ألبسَكَ الله العافيةَ، ويُذكَرُ اللِّباسُ بمعنى المُخالطةِ، قال الله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالمعنَى: مُقارنةُ الجوعِ لهم ومسُّه إيّاهم كمَسِّ الثَّوبِ البدَنَ.

وقيلَ: اللِّباسُ بمعنَى المُلابسةِ؛ أي: فأذاقَها الله مُلابسةَ الجوعِ والخوفِ، وهذا الخوفُ هو الخوفُ منَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، ومنَ السَّرايا التي كان يبعثُها إليهم فيُحيطونَ بهم.

وقُرِئَ: (والخوفَ) بالنَّصبِ[1]؛ أي: أذاقَها الخوفَ.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ منَ التَّكذيبِ بمُحمَّدٍ عليه السَّلامُ، ولـم يقُلْ: «بما صنعَتْ»؛ لأنَّه ذهبَ به إلى الرِّجالِ، وهو كقولِه: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، ولـم يقُلْ: «قائلةٌ».

---

(١) انظر: ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٣٧٦)، والأزهري في «معاني القراءات» (٢/ ٨٣) رواية عن أبي عمرو، وهي خلاف المشهور عنه.

(١١٣) - ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾؛ أي: جاءَهم محمَّدٌ عليه السَّلامُ وهو منهم؛ أي: من نَسَبِهم فكذَّبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ وهو الجوعُ الذي وقعَ بمكّةَ.

وقيلَ: القتلُ ببدرٍ.

***

(١١٤) - ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: كلُوا يا معشرَ المُؤمنينَ ممّا رزَقكم الله منَ الغنائمِ.

وقيلَ: كاتَبَ أهلُ مكّةَ النَّبيَّ ﷺ في سِني القحطِ وقالوا: عادَيْتَ الرِّجالَ فما بالُ النِّساءِ والأطفالِ؟ وكانَ قطعَ الميرةَ عنهم، فأذِنَ في الحملِ إليهم، وبعَثَ إليهم أموالًا ففرَّقَها أبو سفيانَ في المحاويجِ، فهذا قولُه: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[1].

وقيلَ: خاطَبَ جميعَ المُشركينَ وقال: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾، ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾، ولا تجعلُوا منها نصيبًا للأصنامِ.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإنَّهم كانوا يقولون: إنَّما نعبدُ الله بعبادتِنا الأصنامَ فإنَّها تُقرِّبُنا إليه.

وقد قيلَ: هذا الخطابُ للمُشركينَ من غيرِ أهلِ مكّةَ؛ أي: صدِّقُوا محمَّدًا ﷺ، فإنَّكم إنْ خالفْتُم شارَكتُم أهلَ مكّةَ في استحقاقِ الجوعِ والخوفِ.

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٩٥)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٢٠) عن الكلبي.

(١١٥) - ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ كانوا يُحرِّمون ويُحلِّلون على حسَبِ هواهُم، فقالَ: المُحرَّمُ الميتةُ والدَّمُ ولحمُ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغيرِ الله به، ثمَّ بيَّنَ أنَّ صاحبَ الضَّرورةِ يحِلُّ له منها ما يُحيِي به نفسَه.

* * *

(١١٦) - ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ هو كما تقولُ: لا تقُلْ لكذِبِكَ: إنَّه حكمُ الله.

وقيلَ: اللّامُ لامُ سَبَبٍ وأجْلٍ؛ أي: لا تقولوا لأجلِ وصفِكم الكذِبَ: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ؛ أي: إنَّما تُحلُّون وتُحرِّمونَ لأجلِ الكذبِ لا غيرُ.

وقيلَ: نصبُ ﴿الْكَذِبَ﴾ لنزعِ الخافضِ؛ أي: لِـمَا تصِفُ ألسنتُكم منَ الكذبِ.

وقيلَ: انتصَبَ على التَّفسيرِ؛ أي: لِـمَا تصِفُ ألسنتُكم كذِبًا، ثمَّ ألحقَ به الألفَ واللّامَ.

﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وذلك لأنَّهم كانوا ينسبونَ التَّحليلَ والتَّحريمَ إلى الله، وهذا في أقوامٍ كانُوا يعترِفُونَ بالخالقِ؛ أي: هم مُشرِكون مع هذا الاعترافِ لعبادتِهم الأصنامَ.

* * *

(١١٧) - ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

قولُه: ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ﴾؛ أي: ما هم فيه من نعيمِ الدُّنيا يزولُ عن قريبٍ.

قال الزَّجَّاجُ: أي: متاعُهم متاعٌ قليلٌ[1].

وقيلَ: لهم متاعٌ قليلٌ، ثمَّ يُردُّونَ إلى عذابٍ أليمٍ.

* * *

(١١٨) - ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ بيَّنَ أنَّ الأنعامَ والحرثَ حلالٌ لهذه الأمَّةِ، فأمّا اليهودُ فحُرِّمَتْ عليهم منها أشياءُ.

﴿ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ ﴾؛ أي: في سورةِ الأنعامِ، في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ ﴾؛ أي: بتحريمِ ما حرَّمْنا عليهم ولكنْ كانوا هم الظّالمينَ، ظلَمُوا أنفُسَهم فحرَّمْنا عليهم تلك الأشياءَ عقوبةً لهم.

* * *

(١١٩) - ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: السُّوءُ: الشِّركُ[2].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٢٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٢٤)، وذكره النحاس في «إعراب القرآن» (١/ ٢٤٠) لكن في قوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ من بعد ذلك السُّوءِ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ أي: آمَنُوا وصدَّقُوكَ، وكلُّ مَن تَرَكَ أمرَ الله فهو جاهلٌ بحقِّ الله إذا خالَفَ أمرَه.

***

(١٢٠) - ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ دَعا مُشركي العربِ إلى ملّةِ إبراهيمَ؛ إذ كان أباهم ومَفخَرَهم وبانيَ البيتِ الذي هو عزُّهم، والأمّةُ: الرَّجلُ الجامعُ للخيرِ.

وقيلَ: كان مُؤمنًا بالله وحدَه في زمانِه.

وقيلَ: كان إمامًا يقتَدي به النّاسُ، فهو ومَن اتَّبعَه أمّةٌ.

وقيلَ: سُمِّيَ أمَّةً لأنَّه اجتمعَ فيه منَ الخيرِ ما يجتمعُ في أمّةٍ؛ أي: قامَ مقامَ أمّةٍ.

وقيلَ: هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: كان إبراهيمُ وحدَه، فكثَّرَ الله ذُرِّيتَه، فهكذا يفعلُ الله بك.

﴿قَانِتًا﴾؛ أي: مُطيعًا.

﴿حَنِيفًا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أوّلُ مَن اختَتَنَ وأقامَ مناسكَ الحجِّ وضحّى، وهذا معنى الحنيفيّةِ[1].

وقيلَ: الحنيفُ اسمٌ معروفٌ في الجاهليّةِ لمَن حجَّ البيتَ واختَتَنَ واغتسَلَ منَ الجنابةِ وغسَّلَ موتاه، ثمَّ صارَ وصفًا للإسلامِ، وأصلُه: الحنَفُ في الرِّجلِ، وهو الاعوِجاجُ، فهذا اسمٌ بمعنَى العُدولِ عنِ الدِّينِ[2] الباطلِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٢٦).

(٢) «الدين» من (أ).

وقيلَ: كانُوا يُسمُّون المُسلمينَ في تديُّنِهم بدينِ الإسلامِ حنيفًا على جهةِ الذَّمِّ، فلَزِمَهم هذا الاسمُ على المعنى الذي هو الاعوِجاجُ.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: أخلَصَ التَّوحيدَ لله صغيرًا وكبيرًا.

* * *

(١٢١) - ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ الأنعُمُ جمعُ «النِّعمةِ» عند قومٍ، وجمعُ «النُّعمَى» عند قومٍ.

﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾؛ أي: اختارَه ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: للدِّينِ والنُّبوَّةِ.

* * *

(١٢٢) - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيلَ: الولدُ الطَّيِّبُ.

وقيلَ: الثَّناءُ الحسَنُ.

وقيلَ: النُّبوّةُ.

وقيلَ: الصَّلاةُ عليه مقرونةً بالصَّلاةِ على محمَّدٍ في التَّشهُّدِ.

وقيلَ: هي أنَّه ليس أهلُ دينٍ إلّا وهم يتولَّونَه.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (مِن) بمعنى «مع»؛ أي: مع الصّالحين؛ لأنَّه كان في الدُّنيا أيضًا منَ الصّالحينَ.

* * *

(١٢٣ ـ ١٢٤) ـ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال ابنُ عمرَو[١]: أمرَ باتِّباعِه في مناسكِ الحجِّ كما علَّمَ جبريلُ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ[٢].

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ أي: شرعُ إبراهيمَ كان سَمْحًا لا تغليظَ فيه، وكان في السَّبتِ تغليظٌ على اليهودِ، وهو رفضُ الأعمالِ وتركُ التَّبسُّطِ في المعاشِ، فبيَّنَ أنَّ التَّغليظَ عليهم كان بسببِ اختلافِهم كما فعلوا في البقرةِ.

وقيلَ: أمرَهم موسى بتعظيمِ يومِ الجمعةِ؛ لأنَّه اليومُ الذي اجتمعَ فيه خَلْقُ ما أرادَ الله خَلْقَه من أصنافِ البَرِيّةِ، فقالوا: لا، بل نُعظِّمُ يومَ السَّبتِ، فأُجيبُوا إليه وشُدِّدَ عليهم[٣].

---

(١) في (ف): «ابن عمر»، وسقط هذا الخبر من (أ)، والصواب المثبت كما في المصادر وستأتي.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤٧٠٠)، والطبري في «تاريخه» (١/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٠٧)، والبيهقي في «السنن» (٥/ ١٤٥)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أفاض جبريل بإبراهيم صلى الله عليهما فصلى به بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا من منى إلى عرفة فصلى به الصلاتين الظهرَ والعصر، ثم وقف له حتى غابت الشمس، ثم دفع حتى أتى المزدلفة فنزل بها فبات وصلى، ثم صلى كأعجل ما يصلي أحد من المسلمين، ثم وقف به كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، ثم دفع منه إلى منى فرمى وذبح، ثم أوحى الله تعالى إلى محمد ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٩٣)، و«تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٩٨) وعزاه للكلبي، و«تأويلات أهل السنة» (٦/ ٥٩٣) عن بعضهم، و«تفسير الثعلبي» (١٦/ ١٥٧) عن الكلبي أيضاً.

وإنَّما اختارُوا السَّبتَ لأنَّه اليومُ الذي فُرِغَ فيه منَ الخلقِ، ثمَّ جاء عيسى بيومِ الجمعةِ، فقال: تفرَّغُوا للعبادةِ في كلِّ سبعةِ أيَّامٍ يومًا واحدًا، فقالوا: لا نريدُ أن يكونَ عيدُهم بعد عيدِنا، فاختارُوا الأحدَ.

ورَوَى أبو هريرةَ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ: «إنَّ الله كتبَ الجمعةَ على مَن كان قبلَنا فاختلَفُوا فيه، وهدانا الله له، فالنّاسُ لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غدًا والنَّصارَى بعد غدٍ»[1].

فقولُه: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ يُريدُ: في يومِ الجمعةِ اختلَفُوا على نبيِّهم موسى.

وقيلَ: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾؛ أي: تهاوَنُوا به وصادُوا فيه. **وهذا بعيدٌ**؛ لأنَّهم إنما تعدَّوا بالصَّيدِ يومَ السَّبتِ في زمانِ داودَ، وجُعلَ السَّبتُ عليهم في أوَّلِ ما اختاروه قبلَ داودَ عليه السَّلامُ بأزمنةٍ.

ووجهُ الاتِّصالِ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ أمرَ باتِّباعِ الحقِّ، وحذَّرَ الله الأمّةَ منَ الاختلافِ عليه، فشدَّدَ عليهم كما شدَّدَ على اليهودِ.

* * *

(١٢٥) - ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ سبيلُ الله الإسلامُ، وإضافةُ الشَّيءِ إلى نفسِه تشريفًا.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٠٣٦٢)، والبزار في «مسنده» (٩٥٧٠)، ورواه مسلم (٨٥٦) بلفظ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة...».

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بوضعِ كلِّ شيءٍ في موضعِه، قيلَ في التَّفاسيرِ: بالنُّبوّةِ.

﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: بمواعظِ القرآنِ.

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: افتِلْهُم عمَّا هم عليه بأبلَغِ الحجَّةِ من غيرِ مُماراةٍ وخروجٍ إلى ما يُذَمُّ منَ الجدالِ.

﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: بالمُجادلةِ والكلمةِ التي هي أحسنُ، والأحسنُ أن يكونَ الجدالُ بالحجّةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ منَ المُتجادِلينَ.

* * *

(١٢٦) ـ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ نزَلَ في حمزةَ لـمَّا مُثِلَ به رضيَ الله عنه، قال ابنُ عبّاسٍ: لـمَّا انصرَفَ المشركونَ عن قتلى أُحُدٍ انصرَفَ رسولُ الله ﷺ فرأى منظرًا ساءَه، ورأى حمزةَ رضيَ الله عنه قد شُقَّ بطنُه، واصطُلِمَ أنفُه، وجُدِعَتْ أُذُناه، فقال: «لولا أن تحزَنَ النِّساءُ أو تكونَ سنّةً بعدي لتركتُه حتَّى يبعثَه الله من بطونِ السِّباعِ والطَّيرِ، والله لأَمثُلَنَّ مكانَه بسبعينَ رجلًا منهم»، ثمَّ دعا ببُردةٍ فغطَّى بها وجهَه، فخرَجَتْ رِجلاه، فجعَلَ على رجلَيه شيئًا منَ الإذْخِرِ، ثمَّ قدَّمَه فكبَّرَ عليه عشرًا، ثمَّ جعلَ يُجاءُ بالرَّجلِ فيُوضَعُ وحمزةُ مكانَه حتَّى صلَّى عليه سبعينَ صلاةً، وكان القتلى سبعينَ، فلمَّا دُفِنُوا نزلَتْ هذه الآية إلى قولِه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فصبرَ رسولُ الله ﷺ ولم يَمْثُلْ بأحدٍ[1].

(١) ذكره بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٦٢ ـ ١٦٤) دون سند. =

والسُّورةُ مكِّيَّةٌ إلّا هذه الآياتِ الثّلاثَ نزلَتْ بالمدينةِ.

وقال قومٌ: نزلَتْ هذه الآياتُ قبلَ الأمرِ بالجهادِ؛ إذ كان المُسلمون أُمِرُوا بقتالِ مَن يُقاتِلُهم، وأن لا يبدَؤُوا بالقتالِ، وهو قولُه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفي هذه الآيةِ أُمِرُوا أن يُعاقِبُوا بمثلِ ما أصابَهم منَ العقوبةِ، ولا يزيدوا، ثمَّ نُسِخَتْ هذه الآيةُ.

وقيلَ: نزلَتْ هذه الآيةُ في نَهْيِ المظلومِ عن أن ينالَ من ظالـمِه بأكثرَ مـمّا نالَ منه، كأنَّه قال: خُذْ مكانَ درهمٍ درهمًا لا دينارًا.

***

(١٢٧) ـ ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

قولـه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بتوفيقِـه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على المُشـركينَ.

= وقصـة حمـزة رواهـا الترمـذي (٣١٢٩) مختصرة مـن حديث أبي بـن كعب رضي الله عنـه، وقال: حسـن غريب.
ورواها البزار في «مسنده» (٩٥٣٠)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٤٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٩٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٨٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: صالح المري واه.
ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٥١)، والدارقطني في «سننه» (٤٢٠٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الدارقطني: فيه عبد العزيز بن عمران ضعيف. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢٠): رواه الطبراني، وفيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف.
ورواه الدارقطني (٤٢٠٩) من طريق آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: لم يروه غير إسماعيل بن عياش وهو مضطرب الحديث عن غير الشاميين.

وقيلَ: على قتلَى أُحدٍ؛ فإنَّهم صاروا إلى رحمةِ الله.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بفتحِ الضّادِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿في ضِيقٍ﴾[1].

وقال أبو عُبَيدٍ: «الضَّيْقُ» تخفيفُ «الضَّيِّقِ»، مثلَ «الميِّتِ والمَيْتِ»، و«السَّيِّدِ والسَّيْدِ»، و«الهيِّنِ والهَيْنِ»[2].

وقال الأخفش: «الضَّيقُ والضِّيقُ» مصدرُ «ضاقَ يضيقُ»[3].

والمعنى: لا يضِقْ صدرُكَ من كُفرِهم.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾؛ أي: الشِّركَ ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾؛ أي: مُوحِّدونَ، وهذه المعيّةُ بالفضلِ والبرِّ.

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٣٧) عن أبي عبيدة، وانظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٩).

(٣) ذكره ابن زنجلة في «حجة القراءات» (ص: ٣٩٧)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٣٧) وعنه نقل المصنف.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

تفسيرُ سورةِ بني إسرائيلَ[1]

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدرِ، تقولُ: «سبَّحْتَ الله تسبيحًا وسُبْحانًا»، مثلَ «كفَّرْتُ اليمينَ تكفيرًا وكُفْرانًا»، والمعنى: التَّنزيهُ والبراءةُ لله من كلِّ نقصٍ.

وقال طلحةُ[2]: سألْتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسيرِ «سُبحانَ الله» فقال: «تنزيهٌ لله من كلِّ سوءٍ»[3].

---

(١) من هنا تبدأ النسخة الخطية لمكتبة جارث يهودا المرموز لها بـ (ج).

(٢) تحرف في النسختين إلى: «طرفة».

(٣) رواه مرفوعاً متصلًا البزار في «مسنده» (٣٠٨٢ ـ كشف الأستار)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٨)، والشاشي في «مسنده» (١٠)، والطبراني في «الدعاء» (١٧٥١)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٤٨)، من طريق عبد الرحمن بن حماد، عن حفص بن سليمان، عن طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله.. الحديث. وصححه الحاكم، وقال الذهبي: لم يصح، فإن طلحة منكر الحديث، قاله البخاري، وحفص واهي الحديث، وعبد الرحمن قال أبو حاتم: منكر الحديث.

وقال ابن حبان: عبد الرحمن بن حماد الطلحي من ولد طلحة بن عبيد الله يروي عن طلحة بن يحيى بنسخة موضوعة.

وقيلَ: هو منَ السَّبْحِ، وهو التَّباعُدُ، قال الله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ٧]؛ أي: مُتباعِدًا في المُدّةِ، فقولُكَ: «سُبحان الله» أي: بَعِّدْه ونَزِّهْه عمَّا لا يليقُ به، وقد يُوضَعُ المصدرُ موضعَ الفعلِ كقولِه: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]؛ أي: اضرِبُوها، وعلى هذا «سُبْحانَ الله»؛ أي: سبِّحُوه ونَزِّهُوه وبعِّدُوه عن الشَّريكِ والولدِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: نزَّهَ الله نفسَه[١]. وعلى هذا يجوزُ أن ينتَصِبَ «سُبْحانَ الله» على النِّداءِ؛ أي: يا سُبْحانَ الله.

﴿ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾؛ أي: سيَّرَ محمَّدًا ﴿لَيۡلٗا﴾ قال مُقاتلٌ: كان ذلك اللَّيلُ قبلَ الهجرةِ بسنةٍ[٢].

وكانُوا قد شاهَدُوه عشِيًّا عندَهم، ثمَّ أصبحَ عندَهم، وأراهُ الله تلك اللَّيلةَ منَ الآياتِ ما ثبَّتَ به قلبَه، وقوَّى نفسَه، وأخبرَ النّاسَ بما رآه، وسألوه عن العيرِ فأخبرَهم، فكانَ فيه أظهرُ مُعجزةٍ.

= ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٨)، والطبراني في «الدعاء» (١٧٥٢)، من طريق سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده عن موسى بن طلحة عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ مثله. قال أحمد شاكر في تعليقه على الطبري (١٥/ ٣٢): «سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة روى نسخة عن أبيه عن آبائه عامة، أحاديثه لا يتابع عليها، وروى أحاديث مناكير. وذكره ابن حبان في «الثقات».. وهذا خبر ضعيف الإسناد أيضًا».

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٨) من طريق موسى بن طلحة عن النبي ﷺ مرسلاً.

وقد أورده الدارقطني في «العلل» (٤/ ٢٠٨) موصولاً ومرسلاً، وقال: المرسل أصح.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٢٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٦٩) إلى عبد بن حميد والمحاملي في أماليه.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥١٣).

وفي الخبرِ أنَّه قال: «بينا أنا في المسجدِ الحرامِ في الحِجْرِ عند البيتِ بين النّائمِ واليقظانِ إذ أتاني جبريلُ بالبُراقِ»(١).

وقيلَ: أُسرِيَ به من بيتِ أمِّ هانئٍ أختِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ(٢).

والرِّوايتانِ محمولتانِ على مرَّتَينِ كما سنُبيِّنُ إنْ شاءَ الله(٣).

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: من مكّةَ، ومكّةُ والحرَمُ كلُّه مسجدٌ، قالَ الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ أي: مكّةَ ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، فكان هذا في جميعِ الحرمِ، وقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]، وكان المنعُ منَ العمرةِ ودخولِ مكّةَ.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه بلفظ: «بَيْنَا أَنَا عند البيت بينَ النَّائم واليقظان...»، وفي رواية عند البخاري (٣٨٨٧) من حديثه: «بينما أنا نائم في الحطيم ـ وربما قال: في الحِجْرِ ـ مضطَجِعًا إذ أَتاني آتٍ...». قال في «الفتح» (٧/ ٢٠٤): المراد بالحطيم هنا الحجر.

وفيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل».

وفي غير الصحيحين روايات أُخر، وقد أورد الروايات بذلك الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٠٤) محاولاً الجمع بينها لأنها كما قال: لم تتعدد لأن القصة متحدة لاتحاد مخرجها، قال: وقد تقدم في أول بدء الخلق بلفظ: «بينا أنا عند البيت» وهو أعم، ووقع في رواية الزهري عن أنس عن أبي ذر: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة»، وفي رواية الواقدي بأسانيده أنه أسري به من شعب أبي طالب، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني أنه بات في بيتها قال: ففقدتُه من الليل فقال: «إن جبريل أتاني... »، والجمع بين هذه الأقوال أنه نام في بيت أم هانئ، وبيتُها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٣٢) من حديث أم هانئ رضي الله عنها. وانظر التعليق السابق.

(٣) وهذا مخالف لما ذكرناه قريباً عن الحافظ ابن حجر من أن القصة متحدة لم تتعدد.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾؛ أي: بيتِ المقدسِ، وقيلَ له: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾؛ لبُعدِ المسافةِ بينَه وبين المسجدِ الحرامِ، وكانَ أبعدَ مسجدٍ عن أهلِ مكّةَ في الأرضِ يُعظَّمُ بالزِّيارةِ.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يعني: الخِصْبَ والسَّعةَ في الثِّمارِ والأقواتِ والمياه فيما حولَ بيتِ المقدسِ إلى بلادِ الشّامِ، ومنَ البركةِ: أنَّه مُتعَبَّدُ الأنبياءِ والصُّلَحاءِ، والبركةُ: دُرورُ الخيرِ وكثرتُه.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ هذا من بابِ تلوينِ الخطابِ، والآياتُ: ما أراهُ الله مِنَ العجائبِ التي أخبرَ بها النّاسَ، وأخبارُ المِعراجِ مُستَفيضةٌ.

وصارَ قومٌ إلى أنَّ الإسراءَ كانَ رُؤيا، **والصَّحيحُ أنَّه كان بالبدَنِ**[1]، وقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ لا يقعُ في ظاهرِ الأمرِ على الرُّؤيا، وقد كذَّبَه المُشركونَ فيما أخبرَ به حتَّى ارتدَّ أقوامٌ كانوا آمنُوا، فلو كان بالرُّؤيا لم يُستنكَرْ، وفي ألفاظِ الأخبارِ

---

(١) وهذا مذهبُ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ: أنَّه أُسري بجسده وروحه إلى بيتِ المقدسِ ثمَّ إلى السَّماواتِ حتَّى انتهى إلى سدرةِ المنتهى، وعليه يدلُّ ظاهرُ القرآنِ، ووردَ في صحَّته ما لا يُحصى من الأخبارِ، ولو كانت رؤيا ما أنكره قريش، وما ارتدَّت جماعةٌ ممَّن كانوا أسلموا حين سمعوا منه هذا الكلامَ؛ لأنَّ الرُّؤيا لا يُنكَرُ منها مثلُ ذلك وما هو أبعدُ منها. انظر: «لباب التفاسير» للكرماني (٥/ ١٧٨).
وقال القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ١١): وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال: «بروح عبده» ولم يقل: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] يدل على ذلك، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما قالت له أم هانئ: «لا تحدث الناس فيكذبوك»، ولا فضّل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشاً التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقا فخبرنا عن عيرنا..، إلى آخر كلامه، وسيأتي حديث العير.

نصوصٌ على أنَّ الإسراءَ كان بالبدَنِ، **وإذا ورَدَ الخبرُ بشيءٍ هو يجوزُ في العقلِ**[١] **في قدرةِ الله تعالى فلا طريقَ إلى الإنكارِ** لا سيَّما في زمانِ خرقِ العوائدِ، وقد كانَ للنَّبيِّ ﷺ معاريجُ، فلا يبعُدُ أن يكونَ البعضُ بالرُّؤيا، وعليه يُحمَلُ قولُه: «كنتُ بينَ النّائمِ واليقظانِ»، ويُعتَقَدُ مع ذلك أنَّه كان له معراجٌ بالبدَنِ في حالِ اليقظةِ[٢].

وقد قال المُشرِكون: إنْ كنتَ صادِقًا فخبِّرْنا عن عيرِنا أينَ لقيتَها[٣]؟ قال: «بمكانِ كذا وكذا مررتُ عليها، ففزعَ فلانٌ، فقيلَ له: ما رأيتَ يا فلانُ، قال: ما رأيتُ

---

(١) في (أ): «هو مجوز بالعقل».

(٢) وهذا الذي أطبق عليه الصحابة ورووه، قال أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٩/ ٣٦٣): وحديثُ الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ ثابتٌ بنصِّ الكتاب، والعروجُ به إلى السماء في تلك الليلة إلى حيث شاء الله كذلك، وفيه أحاديثُ كثيرة صحيحة، وقد قبلها أهل السنَّة والجماعة، وردَّها المعتزلةُ خذَلهم الله، وممن رواه: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر الفاروق رضي الله عنه، وعثمان ذو النورين، وعليٌّ المرتضَى، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدريُّ، ومالك بن صَعْصَعة، وعِمران بن الحُصين، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله الأنصاري، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أوفى، وأبو سلمى راعي رسولِ الله ﷺ، وأمُّ كلثوم بنتُ رسول الله ﷺ، وبلالٌ الحبشي، وأبو أمامة الباهليُّ، وأسامة بن زيد، وعياض، وعبد الرحمن بن عائش، وأبو الدرداء، وعائشة، وأم هانئ بنت أبي طالب، وأبو ذر الغفاري، وبلال بن سعد، وأبو حَيَّةَ الأنصاري، وأبيُّ بن كعب، وغيرهم، منهم مَن ساق الحديثَ كلَّه، ومنهم مَن روى شيئاً منه، وقد جمعنا أحاديثَهم في كتابٍ أفردناه له وأَمْليناه على أهل العلم، ومَن أنكر هذا فهو منكِرٌ إمَّا قدرةَ الله تعالى، أو فضلَ النبيِّ ﷺ، وكلُّ ذلك باطل.

قلت: وقد جمع الحافظ ابن كثير في أول الإسراء ما روي فيه من أحاديث، وساقها أحسن سياقة فلتراجع فيه.

(٣) في (أ): «أين وجدتها».

شيئًا غيرَ أنَّ الإبلَ قد نفرَتْ» قالوا: فأخبِرْنا متَى تأتينا العيرُ؟ قال: تأتيكُم يومَ كذا، قالوا: أيّةَ ساعةٍ؟ قال: «ما أدري أطُلوعُ الشَّمسِ من هاهُنا أسرعُ أم طلوعُ العيرِ من هاهُنا»، فقال رجلٌ ذلك اليومَ: هذه الشَّمسُ قد طلَعَتْ، وقال رجلٌ: هذه عِيرُكم قد طلَعَتْ. واستخبَروا النَّبيَّ ﷺ عن صفةِ بيتِ المقدسِ والمسجدِ، فوصَفَ لهم، ولم يكُنْ رآه قبلَ ذلك، وكانَ الأمرُ على ما ذكرَ[1].

وقال: ﴿لَيۡلٗا﴾، والإسراءُ لا يكونُ إلّا باللَّيلِ ليُبيِّنَ أنَّه أُسرِيَ به في ليلٍ واحدٍ أو بعضِ ليلٍ.

ولمَّا سمعَ الكفّارُ وصفَ العيرِ وقدمَت العيرُ للوقتِ الذي عيَّنَه النَّبيُّ عليه السَّلامُ قالوا: لم يكُنْ أحدٌ أعلَمَ بهذا الرَّجلِ منَ الوليدِ بنِ المُغيرةِ، وكان يقولُ: إنَّه ساحرٌ.

* * *

(٢) - ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾.

قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: أكرَمْنا محمَّدًا بالمعراجِ، وأكرَمْنا موسى بالكتابِ، وهو التَّوراةُ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتابَ ﴿هُدٗى﴾ لهم، أو: جعَلْنا موسى هُدًى لهم، أو: جعَلْنا إيتاءَ الكتابِ هُدًى لهم.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾؛ أي: في ذلك الكتابِ النَّهيُ عنِ الشِّركِ باللهِ.

(١) رواه بنحوه أبو يعلى في «معجمه» (١٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٣٢)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

قُرِئَ: ﴿أنْ لا يتَّخِذوا﴾ بالياءِ، وقُرِئَ بالتّاءِ(١)، فيكونُ من بابِ تلوينِ الخطابِ.

والوكيلُ: مَن يُوكَلُ إليه الأمرُ.

***

(٣) ـ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: يا ذرِّيّةَ مَن حمَلْنا مع نوحٍ لا تُشرِكوا بي أحدًا، وذكرَ نوحًا ليُذكِّرَهم نعمةَ الإنجاءِ منَ الغرقِ على آبائِهم، ثمَّ بيَّنَ أنَّ نوحًا كان عبدًا شَكورًا يشكرُ الله على نِعَمِه، ولا يرَى الخيرَ إلّا من عندِه، فكذلك امتَنَّ الرَّجُلُ على ذُرِّيتِه.

وقيلَ: كان نوحٌ لا يأكُلُ ولا يشربُ ولا يلبَسُ إلّا قال: «الحمدُ لله»، فسُمِّيَ شَكورًا(٢).

والشُّكرُ: مُقابلةُ النِّعمةِ بالثَّناءِ على المُنعِمِ وبالطّاعةِ له، ومقصودُ الآيةِ: أنَّكم من ذُرِّيةِ نوحٍ، وقد كان عبدًا شكورًا، فأنتُم أحقُّ بالاقتداءِ به دونَ آبائِكم الجهّالِ.

وقيلَ: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ نُصِبَ لأنَّه مفعولُ الاتِّخاذِ؛ أي: لا تتَّخِذُوا جماداتٍ.

وقيلَ: أي: وجعَلْناه هُدًى لبني إسرائيلَ أعني: ذُرِّيَةَ نوحٍ، والعربُ قد تنصِبُ على المدحِ والذَّمِّ.

***

---

(١) قرأ بالياء أبو عمرو، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٥٣) عن ابن مسعود وسلمان ومجاهد.

(٤) ـ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ كانَ بيتُ المقدسِ لبني إسرائيلَ كالكعبةِ لقُريشٍ، ثمَّ حُرمةُ بيتِ المقدسِ لـم تَعصِمْ بني إسرائيلَ منَ العذابِ لـمَّا كفرُوا، فكذا مُشرِكُو قُريشٍ، وعرَّفَ الله نبيَّه عليه السَّلامُ هذا لئلَّا يَضيقَ صدرُه بإصرارِ قُريشٍ على الكفرِ.

﴿قَضَيْنا﴾؛ أي: أعلَمْنا بني إسرائيلَ في كتابِهم.

وقيلَ: القضاءُ بمعنَى الإيحاءِ، ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... لَتُفْسِدُنَّ﴾، أرادَ به مُخالفةَ أحكامِ التَّوراةِ.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرضِ الشَّامِ وبيتِ المقدسِ وما والاها.

﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾؛ أي: لتُفسِدَنَّ أخلافُكم، كقولِه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢]؛ أي: قتَلَ أسلافُكم.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: في دفعتَينِ.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أرادَ: التَّكبُّرَ والبغيَ والفسادَ، كقولِه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

* * *

(٥) ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾؛ أي: أُولَى المرَّتَينِ أنزلْتُ العذابَ عليكم مرَّتَينِ، والوعدُ: إخبارٌ بإتيانِ شيءٍ مُوقَّتٍ.

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قيلَ: أرسلَ عليهم جالوتَ فقتلَهم، فهو وقومُه أُولو بأسٍ شديدٍ.

والبأسُ: القِتالُ، وقتلَهم بُخْتَنَصَّرُ وخرَّبَ المسجدَ وألقَى فيه الجِيَفَ وسباهُم.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾؛ أي: تردَّدُوا، والجَوْسُ: التَّردُّدُ خلالَ البيوتِ في الغارةِ؛ يعني: خلالَ ديارِ بيتِ المقدسِ، والخِلالُ: الفُرَجُ بين الأشياءِ؛ أي: قتَلُوكم بينَ بُيوتِكم وعاثُوا.

وقال مجاهدٌ: جاءَهم جندٌ من فارسَ يتحسَّسُونَ أخبارَهم ومعهم بُخْتَنَصَّرُ، فوَعَى حديثَهم من بينِ أصحابِه، ثمَّ رجَعُوا إلى فارسَ ولـم يكُنْ قتالٌ[1].

وهذا في المرّةِ الأولى، فكانَ منهم جَوْسٌ خلالَ الدِّيارِ لا قَتلٌ.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾؛ أي: كانَ خبرُه[2] صِدقًا لا خُلفَ فيه، فالوعدُ بمعنى المصدرِ.

ويجوزُ أن يكونَ بمعنَى الموعودِ؛ كما يُقالُ: «الله رَجاؤُنا»؛ أي: مَرجُوُّنا، و«هذا هبةُ فلانٍ»؛ أي: مَوهُوبُه، ثمَّ هذا الموعودُ: إفسادُهم في الأرضِ، أو بعثُ الله عليهم الرِّجالَ، أو الأمرانِ جميعًا.

ولـم يقُلْ: «عبادَنا»، بل قال: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾؛ لأنَّ الإضافةَ إلى الله في القرآنِ تشريفٌ للمُؤمنينَ في الأكثرِ، مثلَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ [الفجر: ٢٩]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ [ص: ١٧]، وليس للكفّارِ هذا التَّخصيصُ فيُقالَ فيهم: «هم عبادُ الله»، ولا يُقالُ على الإطلاقِ: «عبادُ الله»، وفرقٌ بينَ أن تقولَ: «اتَّقِ عبدَ الأميرِ»، وبينَ أن تقولَ: «اتَّقِ عبدًا للأميرِ».

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣١٨).

(٢) في (أ): «خبراً».

(٦) - ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾.

قولُه: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيلَ: لـمَّا قتلَهم جالوتُ بقُوا مدّةً أذِلَّاءَ إلى قتلِ داودَ جالوتَ، وعادَ مُلكُ بني إسرائيلَ.

وعلى قولِ مجاهدٍ النُّصرةُ في المرّةِ الأولى كانَتْ لبني إسرائيلَ بعد أن قصَدَهم جندُ فارسَ.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾؛ أي: أكثرَ عددًا ورجالًا.

والنَّفيرُ: مَن يَنفرُ مع الرَّجلِ من عشيرتِه، يُقالُ: «نفيرٌ ونافِرٌ» مثلَ: قديرٍ وقادرٍ.

ويجوزُ أن يكونَ النَّفيرُ جمعًا كالكليبِ والعبيدِ، والمعنى: أنَّهم صارُوا بعد هذه الوقعةِ الأولى أكثرَ انضِمامًا، وأصلحَ أحوالًا، جزاءً منَ الله تعالى لهم على عَودِهم إلى الطّاعةِ.

***

(٧) - ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

قولـه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: نفعُـه عائـدٌ إليكـم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾؛ أي: فعليهـا، وحـروفُ الإضافـةِ يقعُ بعضُها موقـعَ بعـضٍ إذا تقارَبَتْ كقولِه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٥]؛ أي: إليهـا، وأيضًـا قـد يُعاقَبُ المَرءُ على إسـاءتِه، فيُقـالَ: «هذا لك في مُقابلةِ إسـاءَتِكَ»؛ أي: هذا الذي تسـتحِقُّه، فاللّامُ للاسـتحقاقِ، قـال الله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

وقيلَ: إنْ أسأتُم فلها العقابُ، أو: فلها ربٌّ يعفُو عنها.

ثمَّ؛ يحتمِلُ أن يكونَ هذا خطابًا لبني إسرائيلَ في أوَّلِ الأمرِ؛ أي: أسأتُمْ فحَلَّ بكم القتلُ والسَّبْيُ والتَّخريبُ، ثمَّ أحسنتُم فعادَ إليكم الثَّراءُ والعُلُوُّ وانتِظامُ الحالِ.

ويحتمَلُ أنَّه خُوطِبَ بهذا بنو إسرائيلَ في زمنِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ؛ أي: عرفتُم استحقاقَ أسلافِكم العقوبةَ على العصيانِ فارتقِبُوا مثلَه، أو يكونُ خطابًا لمُشركي قريشٍ على هذا الوجهِ.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: وعدُ المرّةِ الآخرةِ من إفسادِكم، وذلك أنَّهم قتَلُوا في المرّةِ الثّانيةِ يحيَى بنَ زكريّا عليه السَّلامُ، فبعثَ الله عليهم بُخْتَنَصَّرَ البابليَّ المجوسيَّ أبغضَ خلقِة إليه، فسبَى وقتَلَ وخرَّبَ بيتَ المقدسِ.

وجوابُ قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ محذوفٌ؛ أي: إذا جاءَ وعدُ الآخرةِ بعَثْناهم ليَسُوؤُوا وجوهَكم، ودلَّ عليه ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ﴾.

﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، يُقالُ: «ساءَه يسُوؤُه»؛ أي: أحزَنَه، وأرادَ بالوجوهِ: ذَوي الوجوهِ، كقولِه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، خصَّصَ الوجهَ بالذِّكرِ لأنَّه الذي يَظهرُ عليه أثرُ السُّرورِ والحزنِ.

﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ بالتَّخريبِ والهَدْمِ ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾.

وقرأ حمزةُ: ﴿ليسُوءَ﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: ليسُوءَ الرَّبّ تعالى، أو ليسُوءَ ذلك البعثُ.

وقال الزَّجَّاجُ: ليسوءَ الوعدُ وُجوهَكم[2].

---

(١) كذا في النسختين، ولعله سهو أو سبق قلم، فإن القراءات كلها بالنصب، وعبارة الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٦٤): على واحد بالياء. أي: بالإفراد وبالياء.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٢٨).

وقرأ الكسائيُّ: ﴿لنسوءَ﴾ بالنُّونِ[1]، كقولِه: ﴿بعثْنا﴾ و(أمدَدْنا).

﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ يُقالُ: «تبَرَ الشَّيءَ»؛ أي: كسَرَه، ومنه «التِّبْرُ»؛ أي: ليُدمِّرُوا وليُخرِّبُوا ما غلَبُوا عليه، و﴿مَا﴾ بمعنى الذي؛ أي: الذي غلبُوا عليه.

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿مَا﴾ ظرفٌ؛ أي: ليُتبِّروا ما دامَ سُلطانُهم جاريًا على بني إسرائيلَ[2]. وعلى هذا فالمُتبَّرُ مُضمَرٌ؛ أي: يُتبِّرونَ كلَّ شيءٍ.

واللّامُ في ﴿لِيَسُوءُوا﴾ و﴿ليدخُلوا﴾ لامُ العاقبةِ.

ودُخولُـهم المسجدَ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ المسجدَ اسمٌ لبيتِ المقدسِ كلِّه، كما يُعبَّرُ عن الحرمِ كلِّه وعن مكَّةَ بالمسجدِ الحرامِ، كما قال: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥].

والثّاني: أنَّهم لا يدخُلونَ المسجدَ للتَّخريبِ إلّا بعد دُخولِـهم البلدَ واستيلائِهم عليه، فعبَّرَ عنِ الاستيلاءِ بدخولِ المسجدِ.

***

(٨) - ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾؛ أي: بعثْنا عليكم العدُوَّ لتَنزَجِرُوا وتتُوبوا فيرحَمَكم ربُّكم، فإنْ لم تفعَلُوا وعُدْتُم إلى الإفسادِ عُدْنا إلى العقوبةِ في الدُّنيا، ثمَّ نجعلُ جهنَّمَ سجنًا لكم، وقد قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وكان هذا عذابًا في الدُّنيا يدومُ لهم إلى القيامةِ، وهذا لا

---

(١) وقرأ ابن عامر وشعبة كقراءة حمزة، والباقون: ﴿ليسوءوا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٢٨)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٢٦٥).

يكونُ إلّا وقد عادوا، ولهذا أصرَّ أخلافُهم على تكذيبِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، وحلَّ بقُرَيظةَ والنَّضيرِ وخيبرَ ما حلَّ، والباقونَ مقهورونَ بالجِزيةِ.

وقيلَ: إنْ عُدْتُم عن المعاصي إلى الطّاعةِ عُدْنا لكم إلى الإحسانِ.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾؛ أي: سِجْنًا، يُقالُ للَّذي يَفرشُ حصيرًا: يَحصرُ بعضَه على بعضٍ بالنَّسجِ، والحصيرُ: الملِكُ؛ لأنَّه محجوبٌ، فكأنَّه محصورٌ، وقد حلَّ العقابُ ببني إسرائيلَ مرَّتَينِ على أيدي الكفّارِ، ومرّةً على أيدي المُسلمين، وهذا حينَ عادُوا فعادَ الله لهم.

***

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ لـمَّا ذكرَ المِعراجَ ذكرَ ما قضى إلى بني إسرائيلَ في الكتاب، وكان ذلك دلالةً على نُبوّةِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ؛ بيَّنَ أنَّ الكتابَ الذي أنزلَ الله سببُ اهتِداءِ النّاسِ.

﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: للمِلَّةِ التي هي أَسَدُّ وأعدَلُ وأصوَبُ، يُقالُ: رُمْحٌ قويمٌ؛ أي: مُستقيمٌ، وفلانٌ أقومُ كلامًا من فلانٍ؛ أي: أعدَلُ، فـ(التي) نعتٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: للطَّريقةِ التي هي أقومُ.

قال الزَّجَّاجُ: للحالِ التي هي أقوَمُ الحالاتِ، وهي توحيدُ الله والإيمانُ برُسلِه(١).

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنَّ لهم الثَّوابَ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٢٨)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٢٦٩).

قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: ويُبشِّرُهم بأنَّ لأعدائِهم العقابَ، والقرآنُ مُعظَمُه وعدٌ ووعيدٌ.

* * *

(١١) ـ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

قولُه: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ لم تُكتَبْ في المُصحفِ الواوُ في (يدعو) ولا في (سندعو)، ولا الياءُ في (يُؤتي الله المُؤمنين)، و(يومَ يُنادي المُنادي)، و(فما تُغنِي النُّذرُ)؛ لأنَّها لا تظهرُ في اللَّفظِ، فجرَوا على الظَّاهرِ.

أي: أعرَضُوا عن القرآنِ وهو سببُ الهدايةِ، وإذا سمِعُوا العذابَ استعجَلُوه لفرطِ الإنكارِ، كأنَّهم يسألونَ الخيرَ، والمُرادُ بالإنسانِ: جنسُ المُشركينَ.

وقيلَ: نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ، قال: إنْ كانَ هذا هو الحقَّ فأمطِرْ علينا حجارةً منَ السَّماءِ(١).

وقيلَ: أرادَ الإنسانَ يدعو على نفسِه وولدِه وأهلِه ومالِه عندَ الضَّجرِ بما لا يحبُّ أن يُستَجابَ له كما يدعو لنفسِه بالخيرِ.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾؛ أي: طبعُه العجَلةُ، فيَعْجَلُ بسُؤالِ الشَّرِّ كما يَعْجَلُ بسؤالِ الخيرِ.

وقيلَ: أشارَ به إلى آدمَ حين نهضَ قبلَ أن تتركَّبَ فيه الرُّوحُ على الكمالِ.

وقيلَ: سلَّمَ عليه السَّلامُ أسيرًا إلى سودةَ فباتَ يئِنُّ، فسألَتْه فقال: أنيني لشدَّةِ القدِّ والأسرِ، فأرخَتْ له من كتافِه، فلمَّا نامَتْ هربَ، فأخبرَتِ النَّبيَّ عليه السَّلامُ

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٧١) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٢٤).

فقال: «قطَعَ الله يدَيكِ»، فلمَّا أصبحَتْ كانت تتوقَّعُ الآفةَ، فقال عليه السَّلامُ: «إنِّي سألتُ الله أن يجعَلَ دُعائي على مَن لا يستحِقُّ من أهلي رحمةً؛ لأنِّي بشرٌ أغضَبُ كما يغضَبُ البشرُ»، ونزلَتِ الآيةُ[1].

---

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢٢٩). وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٦٠): «غريب من حديث سودة». وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٩٧): لم أجده من هذه الجهة، وقد أخرجه الواقدي في «المغازي» [(٢/ ٥٥٤)] من رواية ذكوان عن عائشة: أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت: فلهوتُ مع امرأة فخرج ولم أشعر، فدخل يسأل عنه فقلتُ: والله ما أدري، فقال: «قطع الله يدك»، فذكر نحوَ ما تقدم».

قال: ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلِّص تخريج البقال، قال: حدثنا ابن أبي داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا. اهـ.

قلت: ورواه الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٦٠) من طريق أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن بن العباس المخلص عن ابن أبي داود به، مثل رواية الواقدي.

وهكذا رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٢٥٩) من طريق يحيى عن ابن أبي ذئب به. وإسناده صحيح، يحيى هو ابن سعيد القطان، وابن أبي ذئب هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب.

وروى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٤٣١) من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه أن المرأة هي حفصة ابنة عمر رضي الله عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وليس في حديث حفصة وعائشة رضي الله عنهما ذكر النزول.

وللمرفوع شواهد منها:

وروى مسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلِفَنيه، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة». =

(١٢) - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾؛ أي: علامتَينِ على كمالِ قُدرتِنا، [أو][1]: جعلناهُما ذَوَي آيتَين، دليلُ هذا القولِ قولُه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾، ولـم يقُلْ: فمَحَونا اللَّيلَ، فلمّا أضافَ الآيةَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ دلَّ على أنَّ الآيتَينِ المذكورتَينِ لـهما، لا هما.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: طَمَسْنا نورَها، وفي الخبرِ: «إنَّ الله أمرَ جبريلَ فأمرَّ جناحَه على وجهِ القمرِ فطمسَ عنه الضَّوءَ، وكان كالشَّمسِ في النُّورِ، والسَّوادُ الذي يُرَى في القمرِ من آثارِ المحوِ»[2].

وقيلَ: معنى هذا المحوِ: أنَّ القمرَ يأخذُ النُّورَ منَ الشَّمسِ لنُقصانِ ضوءِ القمرِ، وعلى هذا:

= وروى مسلم (٢٦٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أم سليم! أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أن بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن تجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة».

(١) ما بين معكوفتين مستفاد من «البسيط» (١٣/ ٢٧٢) فقد ذكر الأول ـ وهو كونهما علامتين على كمال قدرة الله ـ عن أهل التفسير والمعاني، وما سيأتي عن غيرهم.

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٦٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٤٧) إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، وقال: سنده واه.

قلت: فيه أبو عصمة نوح بن أبي مريم، قَالَ ابن الجوزي في «العلل» (٢/ ١٣٢): قال يحيى: ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال السعدي: سقط حديثه، وقال مسلم بن الحجاج والرازي والدارقطني: متروك، وقال أبو عبد الله الحاكم: نوح وضع حديث فضائل القرآن.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: ذاتَ إبصارٍ؛ أي: ذاتَ نورٍ يقعُ به الإبصارُ، كقولِك: «ليلٌ نائمٌ» أي: ذو نومٍ يقعُ للنّاسِ فيه.

ومَن قال: «جعلناهما آيتَين» فالمعنى: جعلنا الآيةَ التي هي اللَّيلُ ممحوَّةً؛ أي: عديمةَ النُّورِ، والآيةَ الأُخرَى مُضيئةً. والمَحوُ: ذهابُ الأثرِ، يُقالُ: مَحوتُه أمحُوه، وأمحاه مَحوًا.

وقيلَ: ﴿مُبْصِرَةً﴾ مثلُ «رجلٌ مُخبِثٌ»؛ أي: أصحابُه خُبثاءُ، و«مُضعِفٌ»؛ أي: دوابُّه ضِعافٌ، وكذلك «يومٌ مُبصِرٌ»؛ أي: أهلُه بُصَراءُ.

﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: لتنصَرِفُوا في طلبِ المعاشِ، ولم يذكرِ السُّكونَ في اللَّيلِ اكتفاءً بما ذكرَ في النَّهارِ.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ لينفصلَ اللَّيلُ منَ النَّهارِ، فتعرِفُوا حسابَ الأيَّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ.

﴿وَٱلْحِسَابَ﴾؛ أي: ولتعلَمُوا حسابَ ما دونَ السِّنينَ.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾؛ أي: من أحكامِ التَّكليفِ، وهو كقولِه: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقولِه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

* * *

(١٣) ـ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قيلَ: أرادَ به التَّكليفَ؛ أي: قلَّدْناه التزامَ الشَّرعِ، وهو بحيثُ لو أرادَ أن يفعَلَ ما أُمِرَ به وينزجِرَ عمَّا زُجِرَ عنه أمكنَه ذلك، وهو كقولك: «جعلْتُ هذا في عنقِكَ»؛ أي: قلَّدتُكَه.

وكانتِ العربُ تتطيَّرُ وتتفاءَلُ بما ترَى من طائرٍ وظَبْيٍ وغيرِهما، فجعلَ الطَّائرَ الدّالَّ على الخيرِ والشَّرِّ كنايةً عن أعمالِ العبادِ؛ أي: طائرُ كلِّ إنسانٍ في نفسِه، كما قالَ: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فعلامةُ الثَّوابِ طاعتُك، وعلامةُ العقابِ معصيتُكَ، وقد قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٨]، فعملُ الخيرِ كالطَّوقِ زَينٌ، وعملُ الشَّرِّ كالغِلِّ شَينٌ.

وفي الآيةِ قولٌ آخرُ، وهو كما قالَه الحسَنُ، قال: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾؛ أي: سعادتَه وشقاوَتَه وما كُتِبَ له من خيرٍ وشرٍّ وما طارَ له في التَّقديرِ[1]؛ أي: صارَ له عند القسمةِ في الأزَلِ[2].

وقولُه: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ عبارةٌ عن اللُّزومِ، كالقِلادةِ والطَّوقِ.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾؛ أي: تستقبلُهم الملائكةُ بالكتابِ الذي كُتِبَ عليه فيه أعمالُه، فمعنَى (نُخرِجُ): نُظهِرُ.

وقيلَ: يكتُبُ الملَكُ الذي على اليمينِ الحسناتِ، والذي على الشِّمالِ السَّيِّئاتِ، فإذا ماتَ العبدُ طُويَتِ الصُّحُفُ وأُدرِجَتْ معه في القبرِ، فعلى هذا ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾؛ أي: من قبرِه معه.

---

(١) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٤٤) ولفظه: «طائره عمله؛ شقاؤه أو سعادته».

(٢) قوله: «وما طارَ له في التَّقديرِ؛ أي: صارَ له عند القسمةِ في الأزَلِ» معناه كما قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم عَلِمَ المطيعَ من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة مَن عَلِمَه مطيعًا وشقاوة مَن عَلِمَه عاصيًا، فصار لكلٍّ ما هو صائرٌ إليه عند خلقه وإنشائه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، أي: ما طار له بدءًا في علم الله من الخير والشر. انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١١)، و«البسيط» (١٣/ ٢٧٨).

وقُرِئَ: ﴿ويَخرُجُ له يومَ القيامةِ كتابًا﴾(١)؛ أي: يَخرُجُ له طائرُه [أي: عملُه] كتابًا؛ أي: ذا كتابٍ؛ أي: عملُه مُثبَتٌ في الكتابِ.

وقُرِئَ: ﴿ويُخرَجُ له يومَ القيامةِ كتابًا﴾(٢)؛ أي: يُخرَجُ له الطّائرُ ـ أي: عمَلُه ـ كتابًا.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿كتابًا يُلَقَّاهُ﴾ كقولِه: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١](٣).

* * *

(١٤) ـ ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.

قولُه: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾؛ أي: يُقالُ له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾، قال الحسَنُ: يقرَؤُه أُمِّيًّا كان أو غيرَ أمِّيٍّ(٤).

* * *

(١٥) ـ ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.

قولُه: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾؛ أي: ثوابُ اهتدائِه له ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا

---

(١) بعدها في (ف): «على البناء للمفعول» وهو خطأ، فهذا وصف الذي بعدها، وانظر: «البسيط» (١٣/ ٢٨٠)، وما سيأتي بين معكوفتين منه.

(٢) قرأ أبو جعفرٍ بالياء وضمِّها وفتحِ الراء، وقرأ يعقوبُ بالياء وفتحِها وضمِّ الراء، وقرأ الباقون بالنون وضمِّها وكسر الراء. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٤) رواه عن الحسن السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٠٤)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٨١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٢٥) عن قتادة.

يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾؛ أي: فعليه عقابُ كُفرِه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾؛ أي: لا يُعذَّبُ أحدٌ بذنبِ غيرِه.

قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ، قال: اتَّبِعُوني وأنا أحملُ أوزارَكم[1].

يقال: وزَرَ يزِرُ وِزْرًا وزِرَةً؛ أي: أَثِمَ.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾؛ أي: لـم نترُكِ الخلقَ سُدًى، بل أرسلنا الرُّسُلَ، وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الأحكامَ لا تثبُتُ إلّا بالشَّرعِ.

* * *

(١٦) ـ ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ التُّرفةُ: النِّعمةُ، والمُترَفُ: المُتنعِّمُ، يعني: الرُّؤساءَ المتبوعينَ، وفي الآيةِ قولانِ:

أحدُهما: أنَّـه مـنَ الأمرِ الذي هـو الاقتِضـاءُ والطَّلـبُ؛ أي: جـرَتْ سـنَّتُنا ألّا نُعـذِّبَ أمّـةً في الدُّنيا عـذابَ الاستِئصالِ، وفي الآخرةِ عـذابَ النّارِ، إلّا بعد إرسـالِ الرُّسـلِ والأمـرِ بالطّاعـةِ، فـإذا خالَفُوا وفسَـقُوا فحينَئذٍ حـقَّ عليهم العـذابُ، والأمرُ شـاملٌ للتّابـعِ والمتبـوعِ، ولكنَّـه ذكـرَ المتبوعيـنَ لأنَّ الباقيـنَ تبـعٌ لهـم، وعلى هذا ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾؛ أي: أمَرْناهُـم بالطّاعـةِ، وهـو كقولـك: «أمرتُـكَ فعصَيتَنـي»؛ أي: أمرتُـكَ بطاعَتـي فعصَيـتَ.

والقـولُ الثّانـي: أمَرْنـا مُترَفيهـا؛ أي: كثَّرْنـا، يُقـالُ: «أَمِـرَ القـومُ»؛ أي: كثُـروا،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٨٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٥/ ١٤٨) في آية سورة النجم.

وأَمَرَهـم اللهُ؛ أي: كثَّرَهـم، وآمَرَهـم اللهُ أيضًـا، وهـو قـراءةٌ عن أبـي عمـرٍو[1]، مثلَ: نضَّـرَ الله وجهَـه وأنضَرَ وجهَـه، ويُقـالُ: (أمَّرنا) بالتَّشـديدِ أيضًا، وهو قـراءةٌ عن أبي عمـرٍو[2]، ومنـه: «خيـرُ المالِ سـكةٌ مأبـورةٌ، أو مهـرةٌ مأمـورةٌ»[3]؛ أي: كثُرَ نسـلُها.

وقال قومٌ: «مأمورةٌ» إتباعٌ لـ(مَأبورةٌ)، كالغَدايا والعَشايا، وكقولِه: «ارجِعْنَ مأزُوراتٍ لا مأجُوراتٍ»[4]، وعلى هذا لا يُقالُ: «أمرَهم الله» بمعنى: كثَّرَهم، بل يُقالُ: آمَرَهم وأمَّرهم.

وقيلَ: (أمَّرْنا مُترَفيها)؛ أي: جعَلْنا لهم إِمرةً وسُلطانًا.

---

(١) ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٣٧٩) رواية عن نافع وابن كثير في غير المشهور عنهما. وقرأ بها يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٦).

(٢) رويت عن أبي عمرو وعاصم في غير المشهور عنهما، ونسبت لابن عباس بخلاف، وأبي العالية بخلاف، وأبي عثمان النهدي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٦)، وانظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٧٩).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٧٩)، والإمام أحمد في «المسند» (١٥٨٤٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٢٩)، والطبراني فـي «المعجم الكبير» (٦٤٧٠ ـ ٦٤٧١)، من حديث سويد بن هبيرة رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥٨): «رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات».

(٤) رواه ابن ماجه (١٥٧٨) من حديث علي رضي الله عنه، وتمامه: خرج رسول الله ﷺ، فإذا نسوة جلوس، فقال: «ما يجلسكن» قلن: ننتظر الجنازة، قال: «هل تغسلن» قلن: لا، قال: «هل تحملن»، قلن: لا، قال: «هل تدلين فيمن يدلي»، قلن: لا، قال: «فارجعن مأزورات غير مأجورات». وصوب الدارقطني إرساله في «العلل» (١٢/ ٢١٥)، قال الإمام النووي في «المجموع» (٥/ ٢٧٧): «رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من رواية إسماعيل بن سليمان الأزرق ونقل ابن أبي حاتم تضعيفه عن أعلام هذا الفن». وانظر: «مصباح الزجاجة» (٢/ ٤٤).

وقيلَ: أمَرْنا وآمَرْنا وأمَّرْنا يرجعُ إلى تكثيرِ المالِ؛ أي: كثَّرْنا مالَهم حتَّى بطِرُوا.

﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾؛ أي: خرَجُوا عن أمرِ الله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: العذابُ ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾؛ أي: استأصَلْناها ﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكرَ المصدرَ للمُبالغةِ في العذابِ الواقعِ بهم.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾؛ أي: كم من قومٍ كفَرُوا فحلَّ بهم البَوارُ.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾؛ أي: كفى ربُّك.

قال الفرَّاءُ: إنَّما يجوزُ دخولُ الباءِ في المرفوعِ إذا كان يُمدَحُ به صاحبُه أو يُذَمُّ، كقولِكَ: «كفاكَ به»، و: «أكرِمْ به رجلًا»، فإذا لم يكُنْ مَدحًا لم يجُزْ، فلا يُقالُ: «قام بأخيكَ» بمعنى: قامَ أخوكَ[1].

* * *

(١٨) ـ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

قولُه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ أي: عرَضَ الدُّنيا لم نُعطِه منه إلّا ما نشاءُ، ثمَّ نُؤاخِذُه بأعمالِه، وعاقبتُه دخولُ النّارِ.

﴿مَّدْحُورًا﴾؛ أي: مطرودًا مُبعَدًا من رحمةِ الله.

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٩ ـ ١٢٠)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٢٩١).

(١٩) ـ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.

قوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾؛ أي: ثـوابَ الآخـرةِ كمـا قـالَ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾؛ أي: أطـاعَ الله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأنَّ الطّاعـةَ لا تُقبَلُ إلّا من مُؤمنٍ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾؛ أي: مُقابَلًا بالثَّوابِ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾.

قولُه: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾؛ أي: مَن أرادَ الدُّنيا ومَن أرادَ الآخرةَ؛ أي: نُعطي الدُّنيا البرَّ والفاجرَ، ونُعطي ثوابَ الآخرةِ المُؤمنَ، والكُلُّ منّا.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾؛ أي: ممنوعًـا، مـن حظَـرَ يَحظُرُ حَظْـرًا وحِظارةً وحِظارًا.

* * *

(٢١) ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾.

قوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾؛ أي: في الدُّنيا، وهو إشارةٌ إلى بسطِ الرِّزقِ على قومٍ، وقَبضِه عن قومٍ.

﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾؛ أي: والتَّفاوُتُ بين المُؤمنِ والكافرِ أكبرُ، وتفاوتُ درجاتِ المُؤمنينَ في الجنّةِ أكبرُ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

قولُه: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لـمَّا بيَّنَ أنَّ مَن سعَى للآخرةِ كان سعيُه مشكورًا، نبَّهَ على أعمالِ الآخرةِ وهي: التَّوحيدُ وبرُّ الوالدَينِ والصَّدقاتُ وغيرُها كما بيَّنَ في هذه الآياتِ.

﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ الخطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، والمُرادُ الكُلُّ.

وقيلَ: الخطابُ للإنسانِ.

﴿فَتَقْعُدَ﴾؛ أي: إنْ جَعلتَ معه إلـهًا آخرَ قعَدْتَ ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، والمخذولُ: الذي لا ناصرَ له، يُقالُ: خذَلَه يخذُلُه خَذْلًا وخُذْلانًا، ومعنى ﴿فَتَقْعُدَ﴾: فتمكُثَ في النّاسِ مذمومًا.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

قولُه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾؛ أي: لا تجعَلُوا مع الله إلـهًا آخرَ وأحسِنُوا مع الوالدَينِ.

(قضى)؛ أي: أمرَ، فليس هذا قضاءَ حُكمٍ، بل هو قضاءُ أمرٍ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنَّما هو (ووَصَّى ربُّك)، فالتَصقَتْ إحدَى الواوَينِ فقُرئَتْ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾؛ إذ لو كان على القضاءِ ما عصى اللهَ أحدٌ[1].

---

(١) انظر: «معاني القرآن للفراء» (٢/ ١٢٠)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٥٤٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

قال الكرماني في «لباب التفسير» (٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٠): وهذه القراءةُ في جملةِ الشَّواذِّ مقبولةٌ عند القرَّاءِ، والحكايةُ مردودةٌ. =

وقرأ عليٌّ وعبدُ الله: (ووصَّى ربُّك)(١).

والطَّعنُ فيما أجمَعُوا عليه وهو «قضَى» مـمَّا لا وجهَ له.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ تقولُ: «أمرَكَ به خيرًا»؛ أي: أمرَكَ أنْ تفعَلَ به خيرًا، والإحسانُ قد يُوصَلُ بالباءِ، كقولِه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، كما يُقالُ: أحسَنَ إليَّ.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾، وقُرِئَ: ﴿يبلُغانِّ﴾(٢)، فيرجعُ إلى الوالدَينِ، ثمَّ قال: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وهو مُستأنفٌ، كقولِه: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾، ثمَّ استأنَفَ فقالَ: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، قالَه الفرّاءُ(٣).

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ بدلٌ منَ الألفِ(٤).

= وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١٧): وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإِجماع، فلا يلتفت إليه.

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٧): ضعف أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك، وقال: لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا.

وذكره ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٣٨٩) عن الضحاك ثم قال: كذا قال واستنكروه منه.

(١) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٠٩)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٩٧)، عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما، ونسبت لابن مسعود في: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٩)، و«تأويلات أهل السنة» (٧/ ٢٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٩)، و«الانتصار للقرآن» للباقلاني (٢/ ٦٧٩)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٦/ ٤١٧١)، و«النكت والعيون» (٣/ ٢٣٧)، وغيرها، ووقع في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٠) عن ابن مسعود: (وأوصى).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٠).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٤)، وهذا على قراءة حمزة والكسائي، أما في قراءة ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ =

والكِبَرُ: كِبَرُ السِّنِّ هاهُنا.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾؛ أي: لا تستثقِلْهما، فإنَّ النّاسَ يقُولونَ لِـمَا يستثقِلُونَه: «أُفٍّ له»، وفلانٌ يتأفَّفُ من كذا؛ أي: يستثقِلُه.

قال القُتَيبيُّ: أصلُه: نفخُكَ الشَّيءَ يسقطُ عليك من رمادٍ أو ترابٍ(١).

وقال الزَّجَّاجُ: معنى ﴿أُفٍّ﴾: النَّتنُ(٢).

وقال مُجاهدٌ: لا تتقَذَّرْهما كما كانا لا يتقَذَّرانِكَ في الصِّبا(٣).

وقال ابنُ عبّاسٍ: لا تقُلْ: أراحَني الله منكما، وما في معناه(٤).

وقال ابنُ الأعرابيِّ: الأَفَفُ: الضَّجرُ(٥).

وقال الأصمعيُّ: الأُفُّ: وسَخُ الأُذنِ، والتُّفُّ: وسَخُ الأظفارِ، فكثُرَ استعمالُه حتَّى ذُكِرَ في كلِّ ما يُتأذَّى به(٦).

= فقد قال: يرفع ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بـ﴿يَبۡلُغَنَّ﴾، و﴿كِلَاهُمَا﴾ عطف عليه.

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٩٦)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٣٠٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٤)، وفيه: «والمعنى: لا تقل لهما كلاماً تتبرم فيه بهما، ومعنى ﴿أُفٍّ﴾ النتن».

(٣) رواه بمعناه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥٤١٠)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٤٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٤٥)، ولفظ ابن أبي شيبة: «إذا بلغا من الكبر ما كان يليان منه في الصغر، فلا تقل لهما أف».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٠٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٤٢٣)، والخطابي في «غريب الحديث» (٢/ ٣٤٧)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٠٤).

(٦) ذكره المفضل في «الفاخر» (ص: ٤٨)، وابن الأنباري في «الزاهر» (١/ ١٨٠)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٨١)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٠٤).

ويُقالُ: «أفَّ» بالكسرِ لالتقاءِ السّاكنَين، وبالفتحِ لالتقاءِ السّاكنَين وطلبِ الخفَّةِ، وبالضَّمِّ لأنَّ ما قبلَ الفاءِ مضمومٌ، ويُقالُ: «أُفٍّ وأُفٌّ وأُفًّا» بالتَّنوينِ[1]، فإذا لم يُنوَّنْ فهو معرفةٌ، وإنْ نُوِّنَ فهو نكرةٌ، وهو منَ الأصواتِ مثلَ «غاقِ وغاقٍ».

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهرُ الزَّجرُ والغِلظةُ.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليِّنًا لطيفًا، مثلَ «يا أبَتاهُ، ويا أُمّاه».

***

(٢٤) ـ ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضَعْ لهما.

وقيلَ: لا ترفَعْ يدَكَ عليهما.

﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: منَ الشَّفقةِ والتَّعظيمِ.

وقُرِئَ: (جناحَ الذِّلِّ) بكسرِ الذّالِ[2]، من قولِه: «دابّةٌ ذَلولٌ» بيِّنةُ الذِّلِّ.

---

(١) قرأ نافع وحفص بالتنوين وكسر الفاء، وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين، وباقي السبعة بكسرها من غير تنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).
وانظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٨)، وفيهما: (أفُّ) بالضم من غير تنوين عن أبي السمال. وزاد ابن خالويه: (أفًّا) بالنصب والتنوين شبل عن أهل مكة. وزاد ابن جني: (أفٌّ) بالضم والتنوين عن هارون النحوي، و: (أفَ) خفيفة عن ابن عباس.
وفي الكلمة لغات جمة؛ فقد نقل أبو حيان في «البحر» (١٤/ ٥٠) عن الزناتي في «الحلل»: أن في (أف) لغات تقارب الأربعين، ثم سردها أبو حيان كاملة مع الضبط. أما صاحب «التاج» فقد أوصلها للخمسين.

(٢) نسبت لابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير والجحدري وجماعة غيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٨).

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ذكرَ التَّربيةَ ليتذكَّرَ العبدُ شفقةَ الأبوينِ وتعبَهما في تربيتِه.

قال ابنُ عبّاسٍ: نُسِخَ قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ بقولِه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣][1]، فلا يجوزُ الآنَ الدُّعاءُ للأبوينِ المُشرِكينِ.

وقيلَ: نزلَ قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ في سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ؛ فإنَّه أسلمَ فألقَتْ أمُّه نفسَها في الرَّمضاءِ مُتجرِّدةً، فذُكِرَ ذلك لسعدٍ فقال: لِتَمُتْ، فأنزلَ الله هذه الآيةَ[2].

وقيلَ: لا نسخَ، فهو دعاءٌ بالرَّحمةِ الدُّنيويّةِ، لا رحمةِ الآخرةِ[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٤).

(٢) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ٣٩٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٦٣)، عن قتادة في نزول قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]. ورواه مسلم (١٧٤٨)، والطبري (١٨/ ٥٥٢)، من حديث سعد رضي اللّه عنه في نزول قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤ - ١٥].

(٣) قال الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٣١): «وأمكن أن تكون الآية في المؤمنين والكافرين؛ فالرحمة التي ذكر: تكون في الكافرين سؤال الهداية لهم وجعلهم أهلًا للرحمة والمغفرة؛ وذلك جائز كقول نوح لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] أي: استهدوا ربكم؛ فيهديكم فيغفر لكم ما كان منكم؛ إنه كان لم يزل غفارًا؛ إذ لا يحتمل أن يأمرهم بالاستغفار ويعدهم بالمغفرة على الحال التي هم عليها، وكذلك استغفار إبراهيم لأبيه.

أو أن تكون من الرحمة التي يتراحم بعضهم بعضًا، والشفقة التي تكون بين الناس كما يتراحم الصغار والضعفاء».

وقيلَ: الآيةُ خاصّةٌ في الدُّعاءِ للأبوَينِ المُسلمَينِ[١].

***

(٢٥) ـ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾.

قولُه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾؛ أي: لا يطرَأُ على علمِه سهوٌ ونسيانٌ، فهو أثبَتُ علمًا أو أكثرُ معلومًا، لا أنَّ علمَه يتعدَّدُ.

قال ابنُ جُبَيرٍ: يُريدُ: البادرةَ التي تبدُرُ منَ الرَّجلِ مع أبوَيه، لا يُريدُ بذلك بأسًا[٢]، قال الله: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾؛ أي: صادِقينَ في نيّةِ البرِّ بالوالدَينِ فإنَّ الله يغفِرُ البادرةَ.

﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾؛ أي: الرّاجعَينِ إلى الخيرِ أو التّوبةِ.

***

(٢٦) ـ ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾؛ أي: كما راعَيتَ حقَّ الوالدَين فصِلِ الرَّحمَ، ثمَّ تصدَّقْ على المسكينِ وابنِ السَّبيلِ وكلِّ محتاجٍ.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾؛ أي: لا تُسرِفْ، وهو النَّفقةُ في غيرِ حقٍّ.

وقيلَ: أرادَ بذي القُربَى أنَّ رسولَ الله ﷺ أمرَ بإعطائِهم حقَّهم منَ الغنائمِ[٣].

---

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٥٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٥).

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٦٣) عن السدي، عن أبي الديلم قال: «قال علي بن الحسين عليهما السلام لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾؟ قال: وإنكم لَلقرابةُ التي أَمر الله جل ثناؤه أن يؤتَى حقَّه؟ قال: نعم».

(٢٧) - ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ يفعلون ما يُسوِّلُ لهم الشَّيطانُ.

وقيلَ: هم إخوانُ الشَّياطينِ يُقرَنُونَ بهم غدًا في النّارِ.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾؛ أي: فاحذَرُوا عن مُتابعتِه، والشَّيطانُ اسمُ الجنسِ.

* * *

(٢٨) - ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾.

قولُه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾؛ أي: إنْ أعرَضْتَ عن إعطائِهم لضيقِ يدٍ فأحسِنِ القولَ وابسُطِ العُذرَ، وادعُ لهم بسَعةِ الرِّزقِ، وقُلْ: إذا وجَدْتُ فعَلْتُ وأكرَمْتُ.

وكان عليه السَّلامُ إذا سُئِلَ وليس عندَه ما يُعطي سكتَ انتظارًا للرِّزقِ يأتي منَ الله كراهتَه الرَّدَّ، فنزلَتْ هذه الآيةُ، وكان إذا سُئِلَ ولم يكُنْ عندَه ما يُعطي قال: «يرزُقُنا الله وإيّاكُم من فضلِه»[1]؛ يعني قولَه: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾.

﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ ليس يُريدُ بذلك سببَ الإعراضِ، بل هو إشارةٌ إلى حالةِ الإضاقةِ؛ أي: إنْ تُعرِضْ عن السّائلِ إضاقةً وإعسارًا في حالةٍ ترجُو رحمةَ الله فقُلْ لهم قولًا جميلًا.

﴿مَّيْسُورًا ﴾ منَ يَسَرْتُ القولَ له أَيْسِرُ؛ أي: ليَّنتُه له.

وقيلَ: هو منَ اليسيرِ القليلِ.

---

(١) ذكرته كتب التفسير دون سند. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٦)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٦/ ٤١٨٥)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٠)، و«التيسير» لأبي حفص النسفي (٩/ ٣٩٩). وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٧١) عن الضحاك.

وقيلَ: هو ما تيسَّرَ منَ القولِ الجميلِ.

وقيلَ: ما يتيسَّرُ به عليه الفقرُ.

***

(٢٩) ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾.

قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ علَّمَه أدبَ الإنفاقِ، وأمرَه بالاقتصادِ.

قال جابرٌ وابنُ مسعودٍ: جاء غلامٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أمِّي تسألُك كذا وكذا، فقال: «ما عندَنا اليومَ شيءٌ» قال: فتقولُ لك: أُكسُني قميصَك، فخلَعَ قميصَه فدفعَه إليه وجلسَ في البيتِ عاريًا، وفي روايةِ جابرٍ: فأذَّنَ بلالٌ للصَّلاةِ، وانتَظَروا رسولَ الله ﷺ فلم يخرُجْ، واشتغَلَتِ القلوبُ، فدخلَ بعضُهم فإذا هو عارٍ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

---

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٩٠)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٩/ ٤٠١)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٦٦٢).
قال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٩٩): «لم أجده».
وقال الآلوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٢٩): «وأنت تعلم أنه يأبى هذا كونُ السورة مكية والآية ليست من المستثنيات، ولعل الخبر لم يثبت، فعن ولي الدين العراقي: أنه لم يجده في شيء من كتب الحديث؛ أي: بهذا اللفظ، وإلا فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا فقال: «ما عندنا اليوم شيء»، قال: فتقول لك: اكسني قميصك، فخلع عليه الصلاة والسلام قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت حاسراً فنزلت، وأخرج ابن أبي حاتم عن المنهال ابن عمرو نحوه، وليس في شيء منهما حديث أذان بلال وما بعده».
وحديث المنهال بن عمرو رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٤١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢٧).

والغُلُّ: الادِّخارُ، وغَلَّ في الغنيمةِ؛ أي: خانَ وأدخلَها في كُمِّه، وغُلَّتْ يدُ فلانٍ؛ أي: أُدخِلَتْ في الحديدِ؛ أي: لا تُمسِكْ يدَكَ عن البذلِ حتَّى كأنَّها مقبوضةٌ إلى عنُقِكَ بالغُلِّ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ في النَّفقةِ والعطيَّةِ وإنْ كانت طاعةً.

وقيلَ: هو نهيٌ عن التَّبذيرِ والبذلِ في غيرِ طاعةٍ ومعروفٍ.

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾؛ أي: ليس عندَكَ شيءٌ فتلومَ نفسَكَ أو تُلامَ، والمحسورُ: الذي لم يبقَ له شيءٌ، وبعيرٌ محسورٌ؛ أي: انقطَعَ سيرُه.

وقال قتادةُ: أي: نادِمًا على ما سلَفَ منك[1]. فجعَلَه منَ الحسرةِ، **وفيه بُعدٌ**؛ لأنَّ الفاعلَ منَ الحسرةِ: حَسِرٌ وحَسْرانُ، ولا يُقالُ: محسورٌ.

والمعنى: لا تجعَلْ يدَكَ كالمغلولةِ، أو: لا تكُنْ يدُكَ مغلولةً؛ لأنَّه لا يُقالُ: «فلانٌ جعَلَ يدَه مغلولةً ورِجلَه مُقيَّدةً»، بل يُقالُ: «غَلَّ يدَه».

* * *

(٣٠) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يُوسِّعُ ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيقُ، ومنه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]؛ أي: لا اعتراضَ عليه لأحدٍ.

* * *

(٣١) - ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾؛ أي: خشيةَ فقرٍ، وأعظمُ وجوهِ قطعِ الرَّحمِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٧٥).

قتلُ الولدِ لا سيَّما من خوفِ الفقرِ؛ لأنَّه من سوءِ الظَّنِّ بالله، وكانوا يئِدُونَ البناتِ لعجزِهنَّ عن التَّكسُّبِ، ولخوفِ أن يلحقَها الفقرُ فيدعُوَها إلى غيرِ الكفُءِ.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾؛ أي: إثمًا كبيرًا، يُقالُ: «خَطِئَ يَخْطَأُ خِطأً»، مثل «أثِمَ يأثَمُ إثمًا».

وإنَّما يُقالُ هذا في تعمُّدِ ارتكابِ الذَّنبِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: ١١٢]، وقال: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٨١]، وليس منَ الخطأ في قولِه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقُرِئَ: ﴿كانَ خَطأً﴾ بفتحِ الخاءِ والطَّاءِ من غيرِ مدٍّ.

وقُرِئَ: ﴿خِطاءً﴾ بكسرِ الخاءِ والمدِّ(١)، وهو مصدرُ «خاطَأَ»، أو لعلَّه لغةٌ مثل: «دِباغٍ ولباسٍ»، فلا يكونُ مصدرًا.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ هذا أبلَغُ من أن يقولَ: «لا تزنُوا»، بل هو نهيٌ عن الدُّنوِّ منَ الزِّنا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ لأنَّ الله نهى عنه.

وقيلَ: ﴿كَانَ﴾ صلةٌ؛ أي: إنَّه فاحشةٌ بحكمِ الشَّرعِ.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾؛ أي: ما أسوأَه من سبيلٍ.

---

(١) قرأ ابن كثير: ﴿خِطَاءً﴾ بكسر الخاء وفتح الطَّاء مع المدّ، وابن ذكوان: ﴿خَطَأً﴾ بفتح الخاء والطاء من غير مد. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٣٣) ـ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾.

قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾؛ أي: لا تقتُلوا أحدًا إلّا في الموضعِ الذي أباحَه الله، وهو قتلُ الكافرِ الذي لا عهدَ له، والقتلُ قصاصًا، والقتلُ بتركِ الصَّلاةِ، والرَّجمُ في الزِّنا.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾؛ أي: بغيرِ سببٍ يُوجِبُ القتلَ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾؛ أي: لمُستحِقِّ دمِه ﴿سُلْطَانًا ﴾؛ أي: تسلُّطًا؛ إنْ شاءَ قتَلَ، وإنْ شاءَ عَفا، وإنْ شاءَ أخذَ الدِّيةَ، وقال:

﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ منَ الإسرافِ في القتلِ: أن يُقتَلَ غيرَ القاتلِ، وأن يُمثَّلَ بالقاتلِ، وأن يُقتَلَ سيِّدُ القبيلةِ بالرَّجلِ الخسيسِ.

وقيلَ: هو خطابٌ لمَن يهُمُّ بالقتلِ؛ أي: فلينظُرْ مَن يهُمُّ بالقتلِ لنفسِه، فيقتلُ بغيرِ حقٍّ فيُقتَلُ.

﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾؛ أي: إنَّ الوليَّ كان منصورًا.

وعلى القولِ الثّاني: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾؛ أي: كان المقتولُ منصورًا بأن يقتَصَّ له وليُّه.

وقُرِئَ: ﴿فلا تُسرِفْ﴾ بالتّاءِ[1]؛ أي: فلا تُسرِفْ أيُّها القاتلُ ظلمًا، فلا تقتُلْ، أو:

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٤٠)، و«المبسوط في القراءات العشر» لأبي بكر النيسابوري (ص: ٢٦٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧). وزاد ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٣٨٠) نسبتها لابن عامر، وكذا في «معاني القراءات» للأزهري (٢/ ٩٤)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/ ٤٥٣). =

لا تُسرِفْ أيُّها الوليُّ، وهذه النُّصرةُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ نصرةُ الدُّنيا والآخرةِ.

***

(٣٤) ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهي القيامُ بتثميرِ مالِ اليتيمِ وحفظِه عن الآفاتِ، ثمَّ أنزَلَ الله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فرخَّصَ في المُخالطةِ.

وقال قومٌ: منَ التَّصرُّفِ بالأحسنِ أن تأكُلَ منه بالمعروفِ، وعند الحاجةِ، وأنت تنوي الغرامةَ.

وهذا بعيدٌ وإن ذكرَه قومٌ منَ السَّلفِ.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ يعني: البلوغَ الذي تتعلَّقُ به الأحكامُ.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾؛ أي: بما عاهَدْتُم الله عليه، وبجميعِ العقودِ التي أقدَمْتُم عليها.

قال الزَّجّاجُ: كلُّ ما أمرَ الله به ونهى عنه فهو منَ العهدِ[1].

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مطلوبًا يُؤاخِذُ الله به العبدَ، تقولُ: «سألتُه حقِّي»؛ أي: طلبتُه.

= وقال في «البحر المحيط» (١٤/ ٧٢): في نسخة من «تفسير ابن عطية»: «وابن عامر، وهو وهم».

قلت: لو كان ابن عطية قد تفرد بذكر ابن عامر لجاز نسبته إلى الوهم، ولعلها رواية غير مشهورة عن ابن عامر.

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (١٣/ ٣٢٩)، وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٨)، ولفظه: «والعهد كل ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق فهي عهود».

وقيلَ: أرادَ: كان مسؤولًا عنه للجزاءِ، فحُذِفَ، كقولِه: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]؛ أي: ما يُؤمَرُونَ به.

وقيلَ: إنَّ العهدَ يسألُ تبكيتًا لناقضِه، فيُقالُ: لِـمَ نقَضْتَ؟ كما تسألُ الموؤودةُ تبكيتًا لوائدِها.

* * *

(٣٥) - ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾؛ أي: أتِـمُّوه ولا تبْخَسُوا منه.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: بالقَبَّانِ(١).

وعلى الجملةِ: هو الميزانُ المُستقيمُ أيَّ ميزانٍ كانَ.

وقال مُجاهدٌ: هو العدلُ(٢).

ويجوزُ ضمُّ القافِ وكسرُها.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾؛ أي: خيرٌ ثوابًا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: عاقبةً.

* * *

(٣٦) - ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: لا تثِقْ بالشَّيءِ إلّا إذا عرَفْتَه بدليلِه، يُقالُ: «قَفوتُ أثرَه أقفُوه»؛ أي: اتَّبعتُ أثرَه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٣٠) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٩٧١)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٢)، بلفظ: «العدل بالرومية»، وعلقه البخاري قبل حديث (٧٥٦٣).

قال ابنُ عبّاسٍ: أي: لا تقُلْ ما ليس لك به علمٌ[1]، وفي روايةٍ: لا تشهَدْ بما لا تعلَمُ[2].

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: أنتَ مسؤولٌ غدًا عمّا تكتسِبُه بسمعِكَ وبصرِكَ وقلبِكَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرَه منَ السَّمعِ والبصرِ والفؤادِ، وقولُه: ﴿كَانَ عَنْهُ﴾ الكنايةُ ترجعُ إلى لفظِ ﴿كُلُّ﴾ لا إلى معناه.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نهيٌ عن الخُيَلاءِ وأمرٌ بالتَّواضعِ، والمرَحُ: شدّةُ الفرحِ، وقولُك: «جاء زيدٌ رَكْضًا» أبلَغُ من قولِك: «جاءَ زيدٌ راكضًا»، وكذا قولُك: «مَرَحًا»، والمرَحُ: المصدرُ أبلغُ من أن يُقالَ: «مَرِحًا».

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: لن تشُقَّ الأرضَ ولن تقطعَها، يُقالُ: «خرَقَ الثَّوبَ»؛ أي: شقَّه، و«خرَقَ الأرضَ»؛ أي: قطَعَها حتَّى بلغَ أقصاها؛ أي: لن تخرقَ الأرضَ بكِبْرِكَ ومشيِكَ عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمَتِكَ؛ أي: قُدرتُكَ لا تبلُغُ هذا المبلغَ، بل أنت عبدٌ ذليلٌ فلا يليقُ بك التَّكبُّرُ، والمُرادُ بخرقِ الأرضِ: ثقبُها، لا قَطعُها بالمسافةِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٩٤) بلفظ: «لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم»، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٤٣).

وقيلَ: إنَّك لن تضَيِّق[1] الأرضَ بشدَّةِ مشيِكَ، ولن تبلُغَ رؤوسَ الجبالِ بأن تـمُدَّ عينَيكَ وترفعَ رأسَكَ، فلا فائدةَ في التَّكبُّرِ.

وقيلَ: كيفَما كنتَ فأنتَ مُحاطٌ بكَ من تحتِكَ ومن فوقِكَ، والمُحاطُ به محصورٌ ضعيفٌ، فلا يليقُ به التَّكبُّرُ.

***

(٣٨) ـ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

قولُه: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ هذا إشارةٌ إلى جملةِ ما تقدَّمَ ذِكرُه مـمَّا أمرَ به ونهى عنه، و(ذلك) يصلُحُ للواحدِ والجمعِ والمُؤنَّثِ والمُذكَّرِ.

﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ قُرِئَ بالإضافةِ، ولهذا قال: ﴿مَكْرُوهًا﴾.

وقُرِئَ: ﴿سيئةً﴾ بالتَّنوينِ[2]؛ أي: كلُّ ما نهَى الله عنه كان سيِّئةً، وعلى هذا انقطعَ الكلامُ عند قولِه: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، ثمَّ قال: ﴿كلُّ ذلكَ كانَ سيِّئةً﴾ بالتَّنوينِ، وقولُه: ﴿مَكْرُوهًا﴾ ليس نعتًا للسَّيِّئةِ، بل هو بدَلٌ منه، والتَّقديرُ: كان سيِّئةً وكان مكروهًا.

***

(٣٩) ـ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما ذكرَه في هذه السُّورةِ منَ الأحكامِ

(١) في (ف): «تقبض»، وفي «البسيط» (١٣/ ٣٣٥): «تنقص».

(٢) قرأ بها ابن كثير ونافعٌ وأبو عمرٍو، والباقون: ﴿سِيِّئُهُۥ﴾ بالرفع والإضافة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

والقصصِ مـمَّا أوحَى الله إليكَ على لسانِ جبريلَ بـ﴿ٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بالصَّوابِ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: لا تجعَلْ أيُّها الإنسانُ؛ أي: لا تظُنَّ أنَّ أحدًا يستحِقُّ أن يُنفَّذَ أمرُه ويُمتَثَلَ إلّا الله.

* * *

(٤٠) ـ ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أصفاه بالشَّيءِ؛ أي: آثَره به؛ أي: خصَّكُم أو أخلَصَكُم، وهذا ردٌّ على مَن قال منَ العربِ: الملائكةُ بناتُ الله، وكان لهم بناتٌ أيضًا مع البنينَ، ولكنَّه أرادَ: أخلَصَ لكم البنينَ دونَه وجعلَ البناتِ مشتركةً بينكم وبينَه.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ التَّصريفُ: صَرْفُ الشَّيءِ من جهةٍ إلى جهةٍ، والمُرادُ بهذا التَّصريفِ البيانُ، ومفعولُ التَّصريفِ محذوفٌ؛ أي: صرَّفْنا ما وجَبَ تصريفُه لهم في القولِ.

وقيلَ: هي زائدةٌ كما قالَ: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ أي: أصلِحْ لي ذُرِّيَّتي.

﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾؛ أي: ليتذَكَّروا وليتَّعِظُوا، وقُرِئَ: ﴿لِيَذْكُروا﴾ منَ الذِّكرِ(١).

والمقصودُ منَ الذِّكرِ والتَّذكيرِ: التدبُّرُ، ولا يبعُدُ أن يُرادَ بالذِّكرِ ذِكرُ اللِّسانِ، وهو ضدُّ النِّسيانِ.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بفتح الذال والدال مشددين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ أي: ما يزيدُهم تصريفُ الآياتِ إلّا نُفورًا عن الحقِّ، فأُضمِرَ الفاعلُ، وإنَّما زادَهم نُفورًا لأنَّهم اعتَقَدوا أنَّه حيلةٌ وسِحرٌ، أو كهانةٌ، أو شعرٌ.

وقيلَ: حصَلَ لهم نُفورٌ عند تصريفِ القرآنِ، فأضافَ الزِّيادةَ إلى تصريفِ القرآنِ لأنَّ التَّصريفَ زادَهم على التَّحقيقِ.

***

(٤٢) - ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ هذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وهو ردٌّ على عبدةِ الأصنامِ.

قُرِئَ: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالتّاءِ والياءِ(١).

﴿إِذًا لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لطلَبُوا مع الله مُنازعةً وقتالًا كما يفعل ملوكُ الدنيا(٢). وهذا إشارةٌ إلى دليلِ التَّمانعِ، وإن عبَدُوا الأصنامَ فهي جماداتٌ لا تُتَصوَّرُ منها المُنازعةُ، فكيفَ تتَّصِفُ بالإلهيَّةِ؟

وقيلَ: إذن لابتَغَتِ الآلهةُ الحوائجَ منَ الله، ولتقرَّبُوا إليه، وهو كقولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، والقومُ اعتَقَدوا أنَّ الأصنامَ تُقرِّبُهم إلى الله زُلفَى، فإذا اعتَقَدوا في الأصنامِ أنَّها محتاجةٌ إلى الله فقد بطَلَ كونُها آلهةً.

***

(٤٣) - ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

قولُه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ نزَّه نفسَه عن أن يكونَ له شريكٌ.

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص بالياء، والباقون بالتَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨١)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٤٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال: ﴿عُلُوًّا﴾ ولم يقُلْ: «تعاليًا»؛ كما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧].

﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾؛ أي: لا نهايةَ لعُلوِّه.

* * *

(٤٤) ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾.

قولُه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ قيلَ: هو تسبيحٌ حقيقيٌّ يصدرُ من كلِّ حيٍّ مؤمنٍ؛ أي: منَ الملائكةِ التي عبدَها كثيرٌ منَ المُشركين يعتَرِفُون بتنزيهِ الله، وكذلك كلُّ مؤمنٍ، فهو عامٌّ أُريدَ به التَّخصيصُ.

وقيلَ: هو تسبيحُ الدّلالةِ، فكلُّ محدَثٍ يشهدُ على نفسِه بأنَّ له خالقًا قادرًا.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ﴾ أيُّها الكفّارُ ﴿تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ لأنَّكم لستُم تتأمَّلون.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ فلِحِلمِه لا يُعاجِلُكم بالعذابِ ﴿غَفُورٗا﴾ يسترُ في الحالِ.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ أي: صرَّفْنا لهم القرآنَ ليذَّكروا فما تذكَّروا، بل إذا قرأتَ القرآنَ تغافَلوا.

﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾؛ أي: تغافَلوا حتَّى كانَ بينَكَ وبينَهم حجابٌ، وحتَّى كانَ على قلوبِهم أغطيةٌ.

قيلَ: نزلَتْ في قومٍ كانوا يُؤذون رسولَ الله ﷺ إذا قرأ القرآنَ، وهم أبو جهلٍ،

وأبو سفيانَ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ، وأمُّ جميلٍ امرأةُ أبي لهبٍ، وحُوَيطبٌ، فحجَبَ الله رسولَه ﷺ عن أبصارِهم عند قراءةِ القرآنِ، وكانوا يمرُّونَ به ولا يرَونَه[1].

وقيلَ: هذا الحجابُ هو الطَّبعُ على قلوبِهم، والمنعُ عن أن يُدرِكُوا ما فيه منَ الحكمةِ.

﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قيلَ: ساترًا، وقد يرِدُ المفعولُ بمعنى الفاعلِ، كقولِهم: «إنَّه لميمونٌ على فلانٍ ومشؤومٌ»؛ أي: يامِنٌ وشائِمٌ، من قولِهم: «شأمَهم ويَمَنَهم»، ذكرَه الأخفشُ[2].

وقيلَ: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ لا يُبصِرُه أحدٌ، بل هو من قُدرةِ الله تعالى.

وقيلَ: أي: حجابًا ذا سترٍ، كقولِهم: «جاريةٌ مغنُوجةٌ»؛ أي: ذاتُ غُنْجٍ، ولا يُقالُ: «غَنَجْتُها»، و«مكانٌ مهولٌ»؛ أي: فيه هَولٌ، ولا يُقالُ: «هُلْتُ المكانَ»؛ أي: جعَلْتُ فيه الهولَ، و«رجلٌ مرطُوبٌ»؛ أي: ذو رُطوبةٍ، ولا يُقالُ: «رطبتُه».

وقيلَ: حجابًا مستورًا به؛ أي: حجابًا ستَرْنا به ما بينَك وبينَهم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٤٦)، عن الكلبي.

وروى الحميدي في «مسنده» (٣٢٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٧٦) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ جاءت العوراء أم جميل، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول: مذمم أبينا ـ أو أتينا ـ ودينه قلينا، وأمره عصينا، ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه ـ أو قال: معه ـ قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه، وأنا أخاف أن تراك. فقال: «إنها لن تراني» وقرأ قرآنًا اعتصم به: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، ولم تر النبي ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، قال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فانصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٢٥).

(٤٦) ـ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ هي جمعُ «كنانٍ»، وهو ما يسترُ الشَّيءَ.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ ﴾؛ أي: لئلّا يفقَهوه، أو: كراهةَ أن يفقَهوه.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾؛ أي: صَمَمًا وثِقْلًا، وفيه إضمارٌ؛ أي: أن يسمَعُوه.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾؛ أي: قُلتَ: «لا إلهَ إلا الله» وأنت تتلُو القرآنَ ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ ﴾؛ أي: أعرَضُوا ﴿نُفُورًا﴾؛ أي: كارِهينَ للتَّوحيدِ، ووَلَّوا نافِرينَ نُفورًا.

وقيلَ: ﴿نُفُورًا﴾: جمعُ نافرٍ، مثلَ «شُهودٍ»: جمعُ شاهدٍ.

* * *

(٤٧) ـ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

قولُه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾؛ أي: بأيِّ سببٍ يستمعونَ، أو: لأيِّ سببٍ، والباءُ واللّامُ في هذا سواءٌ، تقولُ: «أكرمْتُ فلانًا لـحُرمَتِكَ وبحُرمَتِكَ»؛ أي: نحنُ أعلَمُ أنَّهم يستمِعُونَ ليقولوا: «هذا سحرٌ» وليهزَؤُوا.

وقيلَ: الباءُ زائدةٌ في قولِه: ﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: يستمِعُونَه وأنتَ تقرأُ القرآنَ.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾؛ أي: يتناجَونَ بينَهم بالتَّكذيبِ.

وقال الزَّجّاجُ: «النَّجوى» اسمٌ للمصدرِ؛ أي: وإذ هم ذَوو نَجوَى[1].

وقيلَ: أمرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ عليًّا أن يتَّخِذَ طعامًا ويدعُوَ إليه أشرافَ قُريشٍ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٤٣).

منَ المُشرِكينَ، ففعلَ ذلك عليٌّ، ودخلَ عليهم رسولُ الله ﷺ، وقرأ عليهم القرآنَ ودعاهُم إلى التَّوحيدِ، وقال: «قولوا: لا إلهَ إلا الله لتُطيعَكم العربُ، وتَدينَ لكم العجمُ»، فأبَوا، وكانوا يستمِعُونَ منَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ ويقولونَ بينَهم مُتَناجينَ: هو ساحرٌ، وهو مسحورٌ، فنزلتِ الآيةُ[1].

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أبو جهلٍ والوليدُ بنُ المُغيرةِ وأمثالُـهما ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما تتَّبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ والقومُ ما اتَّبعوه، ولكنَّ المعنَى: إن اتَّبعتُموه لـم تتَّبِعُوا إلّا رجلًا مسحورًا، أو قالوا ذلك للمسلمين، أو قالوا ذلك لـمَّا استمَعُوا إلى كلامِه، فتواصَوا بألّا يستَمِعُوا بعدُ؛ لأنَّه مسحورٌ.

والمسحورُ: الذي سُحِرَ، وقيلَ: الذّاهبُ العقلِ.

وطعامٌ مسحورٌ؛ أي: أُفسِدَ عملُه.

وأرضٌ مسحورةٌ؛ أي: فسدَتْ بكثرةِ الأمطارِ.

وقال أبو عُبيدةَ: أي: ما تتَّبِعُونَ إلّا رجلًا ذا سَحرٍ؛ أي: ذا رئةٍ[2]؛ أي: هو مثلُكم، ويقرُبُ منه قولُ ابنِ عبّاسٍ: ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا؛ أي: مخلوقًا[3].

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٥١) عن المفسرين، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣١٤) عن الكلبي دون ذكر علي رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٣٢٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٨١).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٥٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤٨) ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

قولُه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ عجَّبَه من صنيعِهم كيف يقولون تارةً: إنَّه ساحرٌ، وتارةً: إنَّه شاعرٌ ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حيلةً في صدِّ النّاسِ عنك.

وقولُه: ﴿ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: يُسمُّونك بالسّاحرِ والشّاعرِ والمجنونِ والمُعلِّمِ والكاهنِ. وقيلَ: ضلُّوا عن الحقِّ فلا يجِدُونَ سبيلًا.

* * *

(٤٩) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾؛ أي: قالوا وهم يتناجَونَ لـمَّا سمعُوا القرآنَ وسمعُوا أمرَ البعثِ: لو لـم يكُنْ مسحورًا مخدوعًا لَـمَا قال هذا.

والرَّفْتُ: كسرُ الشَّيءِ بيدِكَ، يُقالُ: «رَفَتَه يرفِتُه»، مثَلَ: «ضرَبَ يضرِبُ»، والرُّفاتُ من كلِّ شيءٍ: ما تكسَّرَ منه.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿خَلْقًا﴾ نصبٌ لأنَّه مصدرٌ؛ أي: بعثًا جديدًا، وكان هذا غايةَ الإنكارِ منهم.

* * *

(٥٠ ـ ٥٢) ـ ﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قولُه: ﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾؛ أي: لو[1] كنتُم في نهايةِ القوّةِ والامتناعِ منَ التَّصرُّفِ فيكم لَـمَا أعجزْتُـمُوني.

---

(١) في (ف): «أي: إن».

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ قيلَ: أرادَ به الموتَ؛ إذ لا شيءَ أعظمُ في صدورِ بني آدمَ منه؛ أي: لو كنتُم الموتَ لأماتَكم الله ثمَّ أحياكُم.

وقيلَ: أرادَ به السَّماءَ والأرضَ والجبالَ.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يُقالُ: أنغَضَ رأسَه؛ أي: حرَّكَه، ونغَضَ رأسُه؛ أي: تحرَّكَ؛ أي: لا تزيدُهم الحجّةُ إلّا تعجُّبًا وتحريكَ رأسٍ من شدّةِ الإنكارِ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؛ أي: متى البعثُ؟ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾؛ أي: هو قريبٌ؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

قولُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾؛ أي: عسى أن يكونَ البعثُ يومَ يدعوكُم، ومعنى هذا الدُّعاءِ: النِّداءُ في النَّفخةِ الآخرةِ.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾؛ أي: تُجيبونَ ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: بأمرِه[١].

وقال ابنُ جُبَيرٍ: يخرُجونَ من قُبورِهم، يقولون: سُبحانَك وبحمدِكَ[٢].

ولكن لا ينفعُهم الاعترافُ ذلك اليومَ.

وقيلَ: يستَجيبُونَ حامِدينَ، كقولكَ: «جاء فلانٌ بغضبٍ»؛ أي: غضبانَ.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يُرفَعُ عنهم العذابُ بين النَّفختَين[٣]. فإنَّما يُعذَّبون في القبورِ إلى النَّفخةِ الأولى، فيعودُ ظنُّهم إلى لَبثِهم بينَ النَّفختَينِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٣).

(٢) رواه الدولابي في «الكنى والأسماء» (٣/ ١١٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٤).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣١٥) عن ابن عباس والكلبي، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٤٩) عن الكلبي، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٦٤) عن ابن عباس من رواية عطاء. ورواية عطاء والكلبي لا يحتج بها.

وقيلَ: أي: يعُدُّونَ لَبثَهم في القبرِ قليلًا بالإضافةِ إلى طولِ يومِ القيامةِ.

وقيلَ: إنْ لبِثتُم في الدُّنيا إلّا قليلًا.

وقيلَ: الآيةُ في المُؤمنينَ؛ لأنَّهم الذين يستَجيبُونَ بحمدِ الله ويحمَدُونَه على إحسانِه إليهم في القبرِ، ويستقصِرُونَ مدّةَ لَبثِهم في البرزخِ؛ لأنَّهم كانوا غيرَ مُعذَّبينَ.

***

(٥٣) ـ ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾؛ أي: قُلْ للمُؤمنينَ إذا جادَلُوا الكفّارَ في التَّوحيدِ أن يقولُوا الكلمةَ التي هي أحسنُ، كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقال الحسنُ: هو أن تقولَ للكافرِ إذا تشطَّطَ: «هداكَ الله»(١).

وقيلَ: نزلَتْ لمَّا قال المُسلِمونَ: ائذَنْ لنا يا رسولَ الله في قتالِهم فقد طالَ إيذاؤُهم إيّانا، فقال: «لم أُؤمَرْ بعدُ بالقتالِ»(٢).

وقيلَ: أي: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ﴾ الذين اعتَرفُوا بأنِّي خالقُهم وهم يعبُدونَ الأصنامَ ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ من كلمةِ التَّوحيدِ والإقرارِ بالنُّبوّةِ، فـ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي: بينَ المؤمنينَ والمُشركينَ.

***

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦١)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٦٦).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦١)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٦٥)، عن الكلبي.

(٥٤) - ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

قولُه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قيلَ: الخطابُ للمُشركينَ؛ أي: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يُوفِّقَكم للإيمانِ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بأن يُميتكم على الكفرِ.

وقيلَ: الخطابُ للمُؤمنينَ؛ أي: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يُخلِّصَكم من كفّارِ مكّةَ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بتسليطِهم عليكم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافِظًا وكفيلًا، وإنَّما عليك التَّبليغُ.

***

(٥٥) - ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

قولُه: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أعادَ بعدَ أن قال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ليُبيِّنَ أنَّه فضَّلَ بعضَ النَّبيِّين على بعضٍ عن علمٍ منه بحالِهم.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾؛ أي: كما آتيناه الزَّبورَ فلا تُنكِروا أن نُؤتِيَ محمَّدًا القرآنَ، وهو في مُحاجَّةِ اليهودِ.

***

(٥٦) - ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

قولُه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لـمَّا ابتُلِيَتْ قُريشٌ بالقَحطِ وشكَوا إلى رسولِ الله ﷺ أنزَلَ الله هذه الآيةَ[1]؛ أي: ادعُوا مَن تعبُدونَه من دونِ الله.

---

(١) ذكره الواحدي في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٨) عن المفسرين.

﴿زَعَمۡتُم﴾؛ أي: كذَبتُم، أو ظَنَنْتُم[١] من غيرِ يقينٍ.

﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾؛ أي: القحطِ ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ مِنَ الفقرِ إلى الغِنَى، ومنَ السُّقمِ إلى الصِّحّةِ.

***

(٥٧) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا﴾.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ أي: هؤلاءِ الأنبياءُ الذين مضَى ذِكرُهم يدعُونَ الله ويعبُدونَه ويبتَغونَ إليه الوسيلةَ.

وقيلَ: أي: أولئك الذين يدعُوهم المُشركونَ؛ منَ الجنِّ والملائكةِ، أو عيسى، أو عُزَيرٌ، هم الذينَ يبتَغون إلى الله الوسيلةَ ويخشَونَ عقابَه، فقولُه: ﴿يَدۡعُونَ﴾ فعلُ العابدينَ، وقولُه: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ فعلُ المعبودينَ.

﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ رفعٌ؛ لأنَّه بدلٌ منَ الواوِ في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾؛ أي: يبتَغي أيُّهم أقربُ الوسيلةَ إلى الله.

***

(٥٨) ـ ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾؛ أي: إنَّ عذابَ ربِّك كان محذورًا، فليتَّقِ المُشركون؛ فإنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ إلا سيحُلُّ بها العذابُ.

---

(١) في (أ): «وظننتم».

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ قال مُقاتلٌ: أمّا الصّالحةُ فبالموتِ، وأمّا الطّالحةُ فبالعذابِ[1]، وأراد هلاكَ أهلِها أو عذابَهم.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ ﴿مَسْطُورًا﴾؛ أي: مكتوبًا.

وقيلَ: أرادَ وإنْ من قريةٍ كافرةٍ إلّا نحن مُهلِكُوها، نُهلِكُها بالاستئصالِ، أو نُعذِّبُهم بعذابٍ دونَ ذلك.

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يُعاجَلُونَ في الدُّنيا بالعذابِ، فأمَّا عذابُ الآخرةِ فعتيدٌ، وهذا مشروطٌ بالإصرارِ على الكفرِ.

***

(٥٩) ـ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

قولُه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ طلَبَ القومُ آياتٍ كآياتِ الرُّسلِ المُتقدِّمةِ، كناقةِ صالحٍ، وفَلْقِ البحرِ، فقال: وما منَعَنا أن نُرسِلَ هذه الآياتِ إلّا أنَّ الأوَّلين كذَّبوا بها فاستُؤصِلُوا، فلو أظهَرْنا تلك الآياتِ في هؤلاءِ وكذَّبُوا لاستُؤصِلُوا أيضًا، وقد وقعَ في علمِنا أنَّ فيهم مَن يُؤمِنُ وفيهم مَن يُولَدُ مُؤمنًا.

وقد قدَّمنا أنَّهم طلبُوا أن يُحوِّلَ الله الصَّفا ذهَبًا، وتتَنَحَّى الجبالُ عنهم، فنزلَ جبريلُ وقالَ: إنْ شئتَ كانَ ما سألَ قومُك، ولكنَّهم إنْ لم يُؤمِنُوا لم يُمهَلُوا، وإنْ شئتَ استَأْنَيْتَ بهم، فقال: «لا، بل أستَأْني بهم»، وفيه نزلَتْ هذه الآيةُ[2].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٣٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٣٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

واللهُ تعالى لا يكونُ ممنوعًا عن شيءٍ، فالمعنى: المُبالغةُ في أنَّه لا يفعلُ، فكأنَّه قد مُنِعَ عنه، وخلافُ المعلومِ والمُرادِ مقدورٌ وإنْ كانَ لا يقعُ، فمِن هذا الوجهِ صحَّ إطلاقُ لفظِ المنعِ، والباءُ في ﴿بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ زائدةٌ؛ أي: أنْ نُرسلَ الآياتِ، وفي الآيةِ اختصارٌ؛ أي: إلّا أنْ كذَّبَ بها الأوَّلون فأهلَكْناهُم.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: بيِّنةً عِيانًا.

قال مجاهدٌ: أي: آيةً مُبصرةً[1]؛ أي: بيِّنةً، يُقالُ: «بانَ وأبصَرَ»؛ أي: ظهَرَ، فـ«أبصرَ» على هذا لازمٌ.

وقال الفرّاءُ: ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: مُضيئةً، كقولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: مُضيئًا[2].

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: ظلَمُوا بتكذيبِها؛ أي: ظلَمُوا أنفُسَهم، فالمُضافُ محذوفٌ.

وقيلَ: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: جحَدُوا بها.

وقيلَ: ﴿مُبْصِرَةً﴾؛ أي: ذاتَ إبصارٍ لمَنْ يتأمَّلُها.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ أي: ما نُرسِلُ بالعبرِ والدَّلالاتِ إلّا تخويفًا ليتَّعِظُوا ويخافُوا، وقد أظهَرْنا على يدِك المُعجِزات فلْيخافُوا عذابي إنْ كفرُوا.

وقيلَ: أي: ما نُرسِلُ بآياتِ القرآنِ كقولِنا: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨] إلّا تخويفًا لهم ليُؤمِنُوا، فإنْ لم يُؤمِنُوا استحَقُّوا العذابَ.

***

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٣٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٦).

(٦٠) - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وجهُ النَّظمِ: وما أرسَلْناكَ عليهم حفيظًا، بل عليكَ التَّبليغُ، فبلِّغْ بجدٍّ فإنّا نعصِمُكَ عنهم، وقُدرتُنا مُحيطةٌ بالكلِّ.

وقيلَ: أرسَلْنا الآياتِ تخويفًا، ومـمَّا نُخوِّفُهم به هذه الآيةُ، وفيها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾؛ أي: هم في قبضَتِه، فهو مانِعُكَ منهم.

قال ابنُ عبّاسٍ: النّاسُ هاهُنا: أهلُ مكّةَ[1]، وإحاطتُه بهم: إهلاكُه إيّاهُم؛ أي: إنَّ الله سيُهلِكُهم، وذُكرَ بلفظِ الماضي لتحقُّقِ كونِه، وعنَى بهذا الإهلاكِ الموعودِ ما جرَى يومَ بدرٍ ويومَ الفتحِ، ولـمَّا بيَّنَ أنَّ إنزالَ آياتِ القرآنِ يتضمَّنُ التَّخويفَ ضمَّ إليه ذكرَ آيةِ الإسراءِ، وهي المذكورةُ في صدرِ السُّورةِ فقالَ:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ يعني: ما أراه ليلةَ المعراجِ.

قال عكرمةُ: أمَا إنَّه ليس برُؤيا نومٍ، بل رُؤيا عينٍ ورُؤيا يقظةٍ، وهذا قولُ ابنِ عبّاسٍ[2]، وقد يُقالُ: رأيتُ بعيني رُؤيةً ورُؤيا.

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ لأنَّه ارتدَّ بعضُهم.

وقال ابنُ عبّاسٍ في روايةٍ: أرادَ ما رأى في المنامِ أنَّه يدخلُ مكّةَ، وكان أخبرَ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٧٦) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذا فسره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٣٨)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٢٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٩) عن مقاتل والفراء.

(٢) رواه البخاري (٤٧١٦) من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

به أصحابَه، فلما صُدَّ عن البيتِ عامَ الـحُدَيبيةِ كان ذلك فتنةً لهم[١]، فلمَّا كان العامُ المُقبِلُ دخلَها وأنزلَ الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾. وفي هذا ضعفٌ؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيةٌ، وتلك الرُّؤيا كانت بالمدينةِ.

وقال في روايةٍ: رأى عليه السَّلامُ في المنامِ بني مروانَ ينزُونَ على منبرِه نزوَ القِردةِ، فساءَه ذلك، فقيلَ: إنَّما هي الدُّنيا أُعطُوها فسُرِّيَ عنه[٢]، وما كان له بمكّةَ منبرٌ، ولكنَّه يجوزُ أن يرى بمكّةَ رُؤيا المنبرِ بالمدينةِ.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ما جعلْنا الرُّؤيا التي أريناكَ والشَّجرةَ الملعونةَ في القرآنِ إلّا فتنةً للنّاسِ.

ثمَّ قيلَ: هي شجرةُ الزَّقُّومِ، وفتنتُها: أنَّها لـمَّا خُوِّفوا بها قال أبو جهلٍ استهزاءً: كيف تبقَى تلك الشَّجرةُ في تلك النّارِ[٣]؟

وقال ابنُ الزِّبَعْرَى: ما نعلَمُ الزَّقُّومَ إلّا التَّمرَ والزُّبْدَ، فتزَقَّمُوا منه[٤].

---

(١) إلى هنا رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٥)، وبتمامه ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٧٧).

(٢) روى نحوه أبو يعلى في «مسنده» (٦٤٦١)، وابن الجوزي في «العلل» (١١٦٨) و(١١٦٩) و(١١٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا أصل له.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٦) من حديث سهل بن سعد رضي اللّٰه عنه، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، قال عنه ابن كثير عند تفسير الآية: متروك، وشيخه ضعيف جدًّا.
فهذه طرق ضعيفة منكرة لا يصح منها شيء، بل هي مكذوبة كما قال ابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ١١٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٨) عن الحسن بلفظ: قال أبو جهل وكفار أهل مكة: أليس من كذب ابن أبي كبشة أنه يوعدكم بنار تحترق فيها الحجارة، ويزعم أنه ينبت فيها شجرة؟.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٣٩)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٨٣)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٨١)، دون نسبة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٥٠) عن قتادة وفيه أن القائل هو أبو جهل.

وقال ابنُ عبّاسٍ: هذه الشَّجرةُ بنو أُميّةَ، وقال: رأى رسولُ الله ﷺ في النَّومِ أنَّ ولدَ مروانَ يتداوَلون منبرَه، فقصَّ ذلك على أبي بكرٍ وعمرَ فتفرَّقُوا، فسمعَ رسولُ الله ﷺ الحكَمَ يُخبِرُ برُؤيا النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فاتُّهمَ[1] عمرُ في إفشاءِ سِرِّ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، ثمَّ ظهرَ أنَّ الحكمَ كان يتسمَّعُ إليهم، فنفاه رسولُ الله ﷺ[2].

ولكنَّ السُّورةَ مكّيّةٌ، فيبعدُ هذا التَّأويلُ، إلّا أن تكونَ هذه الآيةُ مدنيةً ولم يثبُتْ ذلك.

وقد قالت عائشةُ لمروانَ: لعنَ الله أباكَ وأنتَ في صُلبِه، فأنتَ فَظَظٌ[3] من لعنةِ الله[4].

ثمَّ قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾، ولـم يجرِ في القرآنِ لَعْنُ هذه الشَّجرةِ، ولكنَّ الله لعَنَ الكفّارَ وهم آكِلُوها، فالمعنى: والشَّجرةَ الملعونةَ في القرآنِ آكِلُوها، ويُمكِنُ أن يجريَ هذا على قولِ العربِ لكلِّ طعامٍ مكروهٍ: ضارٌّ ملعونٌ.

وقيلَ: أي: الشَّجرةَ الملعونةَ المذكورةَ في القرآنِ، فقولُه: ﴿فِى﴾ ظرفٌ للذِّكرِ لا للَّعنِ.

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾؛ أي: ما يزيدُهم التَّخويفُ إلّا الكفرَ.

* * *

(١) في النسخ: «فاهتم»، والمثبت من «البسيط».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٨١ - ٣٨٢) من رواية عطاء عن ابن عباس. والحكم هو ابن أبي العاص الأموي القرشي، عمّ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأبو مروان بن الحكم، من مسلمة الفتح.

(٣) كذا في النسخ، وفي المصادر: «فضض».

(٤) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٢٧)، والبزار في «مسنده» (٢٢٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٨٣)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال الذهبي في «التلخيص» (١١١٥): فيه انقطاع، محمد لم يسمع من عائشة رضي اللّه عنها.

وقولها: «فضض من لعنة اللّه»؛ أي: قطعة وطائفة منها. انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٥١٨).

(٦١) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تقدَّمَ ذكرُ كونِ الشَّيطانِ عدُوًّا للإنسانِ، فانجرَّ الكلامُ إلى ذكرِ آدمَ.

وقيلَ: أي: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا﴾ وحين ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ فصدَقَ قولُه فيهم، فصاروا طاغينَ[1].

وقيلَ: وجهُ النَّظمِ: اذكُرْ بتمادِيَ هؤلاءِ على الكفرِ عُتوَّ إبليسَ على الله ليُعرفَ أنَّ الشَّرَّ قديمٌ.

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ هذا استفهامُ إنكارٍ، ورأى جوهرَ النّارِ خيرًا من جوهرِ الطِّينِ، ولم يعرِفْ أنَّ الجواهرَ مُتماثلةٌ.

﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؛ أي: خلقْتَه طينًا؛ أي: أنشأْتَه في حالِ كونِه منَ الطِّينِ.

* * *

(٦٢) ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قولُه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾؛ أي: قال إبليسُ: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾؟

قال الزَّجّاجُ: أي: أخبِرْني، والكافُ لا موضعَ له؛ لأنَّه ذُكِرَ للمُخاطَبةِ توكيدًا[2]، وقد ذكَرْنا هذا في سورةِ الأنعامِ.

---

(١) أي: هو على معنى: ما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا محققين لظن إبليس فيهم مخالفين موجب نعمة ربهم على أبيهم وعليهم. انظر: «البسيط» (١٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٤٩).

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ نصبٌ بـ«أرأيتَ»، والجوابُ محذوفٌ؛ أي: أخبِرْني عن هذا الذي فضَّلتَ عليَّ لِـمَ فضَّلتَه؟

وقيلَ: لا حاجةَ إلى تقديرِ المحذوفِ؛ أي: أترَى هذا لأفعلَنَّ به وبذُرِّيَّتِه كذا وكذا.

والإكرامُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمَدُ.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لَئِنْ لـم تُـمِتْني إلى يـومِ القيامةِ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ أي: لأستأصِلَنَّ ذُرِّيَّتَه بالإغواءِ فلا يبقَى معهم من دينِهم شيءٌ، يُقالُ: «احتنَكَتِ السَّنةُ أموالَـهم»؛ أي: استأصَلَتْها، و«احتَنَكَ الجرادُ الزَّرعَ»؛ أي: أتَى عليه.

وقيلَ: هو من قولِـهم: «حنَكَ الدّابةَ يحنكُها»؛ أي: ربطَ في حنكِها الأسفلِ حبلًا يقودُها به، وكذلك «احتَنكَها»؛ أي: لأقودَنَّهم حيثُ شئتُ كمَن يُربَطُ في حنكِه الزِّناقُ.

وقولُـهم: «احتَنَكَ الجرادُ الزَّرعَ» يقرُبُ من هذا؛ لأنَّه يأتي على الزَّرعِ بأن يحتويَ عليه بالحنكِ، وإنَّما قال إبليسُ ذلك ظنًّا، كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، أو علِمَ من طبعِ البشرِ تركُّبَ الشَّهوةِ فيهم، أو بنَى على قولِ الملائكةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم الذينَ قال الله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

***

(٦٣) ـ ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾.

قولُـه: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ هـذا أمـرُ إهانـةٍ؛ أي: اجهَدْ جَهْـدَكَ فقـد أنظَرْناكَ ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾؛ أي: أطاعَـكَ مـن ذُرِّيـةِ آدمَ فجـزاؤُه جهنمُ.

﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾؛ أي: وافِـرًا، يُقـالُ: وَفَرْتُـه أفِـرُه وَفْـرًا، ووَفَرَ المالُ بنفسِـه يفِرُ

وُفـورًا فهـو وافِـرٌ، فهـو لازمٌ ومُتَعـدٍّ، والجـزاءُ الموفـورُ: الـذي لا نُقصـانَ فيه عن قَدْرِ الاسـتحقاقِ.

وقيلَ: هو الذي لا ينقطعُ.

* * *

(٦٤) ـ ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

قولُه: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾؛ أي: وأزعِجْ، وهذا أمرُ تهديدٍ.

﴿بِصَوۡتِكَ﴾؛ أي: بدُعائِكَ إيّاهم إلى المعصيةِ.

قال مجاهدٌ: من صوتِ الشَّيطانِ الغناءُ والمزاميرُ[1].

﴿وأَجلِبْ عَلَيْهِمْ بخَيْلِكَ ورَجْلِكَ﴾ يُقالُ: أجلَبَ إجلابًا، والجلَبَةُ والجلَبُ: الصَّوتُ، كالغَلَبةِ والغَلَبِ.

ويُقالُ: أجلَبَ على العدوِّ إِجلابًا؛ أي: جمعَ عليهم جُنودَه.

فعلى الأول: صِحْ بخِيلِكَ ورَجْلِكَ في إغواء بني آدم، وعلى الثاني: اجمع [عليهم كلَّ ما تَقْدِرُ عليه من مَكائدِكَ] فالباءُ زائدةٌ.

وقيلَ: أجْلِبْ عليه وكذا أَحْلِبْ بالحاء؛ أي: أعِنْ عليه، فعلى هذا معنى الآيةِ: أعِنْ نفسَكَ عليهم بخَيلِكَ ورَجْلِكَ، فالمفعولُ محذوفٌ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٥٧) بلفظ: «باللهو والغناء»، ورواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٧١) بلفظ: «بالمزامير»، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٧) بلفظ: «استنزل مِنَ استطعت منهم بالغناء والمزامير واللهو والباطل».

(٢) انظر: «البسيط» (١٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٢)، وما بين معكوفتين منه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: كلُّ راكبٍ وراجلٍ في معصيةِ الله فهو جندُ إبليسَ[١].

ثمَّ؛ قيلَ: لا يبعُدُ أن يكونَ في الشَّياطينِ رُكبانٌ.

وقيلَ: هذا مثَلٌ يُقالُ للمُجِدِّ في الأمرِ: جئتَ بخيلِكَ ورَجْلِك.

والرَّجْلُ: جمعُ راجِلٍ، مثل صَحْبٍ وصاحبٍ.

وفي روايةٍ عن عاصمٍ: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسرِ الجيمِ[٢]، يُقالُ: «رَجْلٌ ورَجِلٌ» بمعنى: راجلٍ، مثلَ: حَذْرٍ وحَذِرٍ.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾؛ أي: اجعَلْ لنفسِكَ شركةً في أموالِـهم، فكلُّ ما عُصِيَ الله باكتسابِه فهو لإبليسَ، ويدخلُ فيه الرِّبا والسّائبةُ والبَحيرةُ والوصيلةُ وما جعلوه لأصنامِهم منَ الأنعامِ والزُّروعِ وذبحُوه لآلـهتِهم.

والشَّركةُ في الأولادِ: بالحمْلِ على الزِّنا، وكصنيعِ النَّصارَى بأولادِهم بالغمسِ في الماء الذي لهم، وكتسميةِ الأولادِ بعبدِ ودٍّ، وعبدِ العُزَّى، وعبدِ اللّاتِ، وعبدِ الحارثِ، وزيدِ مناةَ، وكوَأْدِ البناتِ، وإسقاطِ الولدِ بالحبَلَةِ.

﴿وَعِدْهُمْ﴾؛ أي: منِّهم الأمانيَّ الكاذِبةَ، وأنَّه لا قيامةَ ولا حسابَ، وأنَّه إنْ كان حسابٌ وجنّةٌ ونارٌ فأنتم أولى بالجنّةِ من غيرِكم.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: مواعيدَ خدعٍ.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٥٩) بلفظ: «خيله: كل راكب في معصية الله، ورجله: كل راجل في معصية الله».

(٢) هي قراءة حفص، والباقون بإسكانها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٢ـ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٦٥) ـ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هم المُؤمنونَ[1].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾؛ أي: عاصِمًا منَ القَبولِ من إبليسَ.

وقد قيلَ: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ أمرُ تعجيزٍ؛ أي: أنت لا تقدرُ على إضلالِ أحدٍ، وليس لك على أحدٍ سلطانٌ، فافعَلْ ما شئتَ.

* * *

(٦٦) ـ ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾.

قولُه: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾؛ أي: كفَى به وكيلًا، فهو ربُّكم الذي أنعمَ عليكم بكذا وكذا، ﴿يُزْجِى ﴾؛ أي: يسوقُ.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾؛ أي: في التِّجاراتِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ رحمةَ الدُّنيا وهي عامَّةٌ للبرِّ والفاجرِ، ورحمةَ الآخرةِ وهي خاصّةٌ بالمُؤمنينَ.

* * *

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وهم عباده المخلصون الذين قال فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحببها إليهم.

وذكر الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٣٩٦) عن عطاء عن ابن عباس والكلبي: يريد أوليائي ليس لك عليهم حجة في الشرك.

(٦٧) - ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: خوفُ الغرقِ ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: مَن تعبُدون منَ الأصنامِ فلم يُغنوا عنكم شيئًا؛ أي: تركتُموهم وسألتُم الله إزالةَ ما حلَّ بكم.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾؛ أي: خلَّصكم ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾؛ أي: عن الإخلاصِ.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ يعني به الكافرَ، وقيلَ: أي: وطَبْعُ الإنسانِ كُفرُ المُنعمِ إلّا مَن عصمَه الله، فـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لفظُ الجنسِ.

* * *

(٦٨ - ٦٩) - ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾.

قولُه: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ نَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ﴾؛ أي: إذا تخلَّصتُم منَ البحرِ أعرضتُم، فمَن يُؤمِنُكم من أن نخسفَ بكم جانبَ البرِّ؟

والخسفُ: أن تنهارَ الأرضُ بالشَّيءِ، يُقالُ: «بئرٌ خسيفٌ»؛ أي: انهدَمَ أصلُها، و«عينٌ خاسفٌ»؛ أي: غارَتْ حدقتُها في الرَّأسِ، و«عينٌ منَ الماءِ خاسفةٌ»؛ أي: غارَ ماؤُها، و«خسَفَتِ الشَّمسُ»؛ أي: غابَتْ عن الأرضِ.

﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ذكرَ الجانبَ لأنَّه ذكرَ البحرَ فيما قبلُ، فالبرُّ جانبٌ والبحرُ جانبٌ.

﴿أو نُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِبًا﴾ الحَصْبُ: الرَّميُ، من حصَبْتُ أحصِبُ حَصْبًا؛ أي: رَمَيْتُ، فقولُه: ﴿حَاصِبًا﴾؛ أي: عذابًا يَحصِبُهم؛ أي: يرميهم بالحجارةِ، ويُقالُ

للرِّيحِ التي تحملُ التُّرابَ والحصباءَ: «حاصِبٌ»، وللسَّحابةِ ترمي بالبرَدِ: حاصبٌ.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: مَن يكفيكُم ما حلَّ بكم.

قولُه: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾؛ أي: وما يُؤمِنُكم ﴿أَنْ نُعِيدَكُمْ فيهِ﴾؛ أي: في البحرِ مرّةً ﴿أُخْرَى فنُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصفًا مِن الرِّيحِ﴾ القاصِفُ: الكاسرُ، من: قصَفَ الشَّيءَ يقصِفُه؛ أي: كسرَه بشدَّةٍ؛ أي: قاصِفًا يقصفُ الفُلْكَ.

﴿فنُغرِقَكُم بِما كَفرتُم﴾؛ أي: بكُفرِكم.

وقُرِئَ: ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ بالياءِ، وكذا ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ وأخواتُها[1].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾؛ أي: لا نخافُ أن نُتْبَعَ بشيءٍ مـمَّا أصابَكم؛ إذ لا اعتراضَ لأحدٍ علينا.

* * *

(٧٠) - ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لـمَّا ذكرَ منَ التَّرهيبِ ما ذكرَ بيَّنَ النِّعمةَ عليهم أيضًا، وهذه الكرامةُ يدخلُ فيها خلقُهم على هذه الهيئةِ في امتدادِ القامةِ وحُسنِ الصُّورةِ، وتخصيصُهم بما خصَّهم به من المطاعمِ والمشاربِ والملابسِ، وبالعقلِ الذي هو عُدَّةُ التَّكليفِ، وهذا عامٌّ في جميعِ بني آدمَ.

ومَن قال: لا نعمةَ لله على الكافرِ قال: أي: عامَلْناهم مُعاملةَ المُكرَمين.

وقيلَ: ﴿كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بأن جعَلْنا محمَّدًا عليه السَّلامُ منهم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿أن نخسف﴾ ﴿أو نرسل﴾ ﴿أن نعيدكم﴾ ﴿فنرسل﴾ ﴿فنغرقكم﴾ بالنُّون في الخمسة، وباقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: على المراكبِ منَ البهائمِ والفُلْكِ.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: منَ الثِّمارِ ولُحومِ الحيواناتِ والأشربةِ العذبةِ.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾؛ أي: على البهائمِ؛ لأنَّه سخَّرَ الحيواناتِ الأُخرَ لهم.

واختيارُ ابنِ عبّاسٍ[١] والزَّجّاجِ[٢] وكثيرٍ منَ العلماءِ تفضيلُ المؤمنينَ على [غيرِ][٣] الملائكةِ.

وصارَ قومٌ إلى تفضيلِ الأنبياءِ على التَّخصيصِ على الملائكةِ.

وقال الكلبيُّ: فُضِّلوا على الخلائقِ كلِّهم غيرَ طائفةٍ منَ الملائكةِ، جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملَكِ الموتِ؛ لأنَّهم من جملةِ رُسلِ الله[٤].

ولا ينتَهي الكلامُ في هذه المسألةِ إلى القطعِ، وقد تحاشى قومٌ منَ الكلامِ فيها كما تحاشَوا منَ الكلامِ في تفضيلِ بعضِ الأنبياءِ على بعضٍ؛ إذ في الخبرِ: «لا تُخايِرُوا بينَ الأنبياءِ»[٥]، و: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بنِ متَّى»[٦].

---

(١) ذكر الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٠٤) عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يريد غير الملائكة في هذا الموضع، لم يفضل ولد آدم عليهم».

(٢) نص الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢٥٢) على استثناء الملائكة من هذا التفضيل فقال: «﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ ولم يقل: على كلِّ مَن خلقنا، لأن الله تعالى فضَّل الملائكة، فقال: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولكن ابن آدم مفضل على سائر الحيوان الذي لا يعقل ولا يميز».

(٣) زيادة يقتضيها السياق وما تقدم من قول ابن عباس والزجاج.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٤)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٠٣).

(٥) رواه مسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: «لا تخيروا..».

(٦) رواه بألفاظ مقاربة البخاري (٣٤١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والبخاري =

(٧١) ـ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قيلَ: هو متَّصلٌ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ... يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾.

وقيلَ: هو متَّصلٌ بقولِه: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ... يَوْمَ نَدْعُوا﴾.

وقيلَ: هو متَّصلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ... يَوْمَ نَدْعُوا﴾.

وقيلَ: اذكُرْ يومَ ندعُو.

وقيلَ: أي: إذا دُعِيَ كلُّ أناسٍ بإمامِهم لـم يُظلَموا، فـ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لهذا.

﴿بِإِمَامِهِمْ﴾؛ أي: بكتابِهم، كما قال: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

والكتابُ يُسمَّى إمامًا لأنَّه يُرجَعُ إليه في تعرُّفِ أعمالِـهم، يعني: ندعو كلَّ إناسٍ إلى كتابِهم وإلى الحسابِ، وكأنَّه قال: ندعوهُم بسبب كتابِهم.

أو: يُدعَى كلُّ إنسانٍ بكتابِه الذي كان يتلُوه، فيُدعَى أهلُ التَّوراةِ بالتَّوراةِ، وأهلُ القرآنِ بالقرآنِ، فيُقالُ: يا أهلَ القرآنِ.

وقيلَ: الإمامُ مَن يُؤتَمُّ به، فقولُه: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾؛ أي: بنبيِّهم، فيُقالُ: هاتُوا مُتَّبعي إبراهيمَ، هاتُوا مُتَّبعي موسى، هاتُوا مُتَّبعي الشَّيطانِ، هاتُوا مُتَّبعي الأصنامِ، وعلى

= (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والبخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا ﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾؛ أي: يكونون لهم تبعًا وشيعةً لإمامِهم[1]، أو: ندعُوهم مع إمامِهم، كما يُقالُ: «ركبَ الأميرُ بسيفِه»؛ أي: مع سيفِه.

وقيلَ: «إمامٌ»: جمعُ أُمٍّ؛ أي: ندعُوهم بأمَّهاتِهم لئلّا ينكشفَ أولادُ الزِّنا[2].

وقيلَ: بمذاهبِهم.

وقيلَ: يُقالُ: أين الرّاضُونَ بالمقدورِ؟ أين الصّابرون على المحذورِ؟ فعلى هذا ﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾؛ أي: بأعمالِـهم.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾؛ أي: شيئًا.

***

(٧٢) - ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾.

قولُه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ رضيَ الله

---

(١) قوله: «﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾؛ أي: يكونون لهم تبعًا وشيعةً لإمامِهم»، أي: «ندعو كل أناس بكونهم تبعة وشيعة لإمامهم»، والباء متعلقة بالفعل الذي هو ﴿نَدۡعُواْ﴾ في موضع المفعول الثاني. انظر: «البسيط» (١٣/ ٤١١).

(٢) وهذا مردود بما رواه البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «إذا جَمَعَ الله الأوَّلين والآخِرين يومَ القيامة يُرْفَعُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ فيقالُ: هذه غَدْرةُ فلانِ بنِ فلانٍ»، قال القرطبي: «فقولُه: «هذه غدرة فلان ابن فلان» دليلٌ على أنَّ الناس يُدْعَون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يَرُدُّ على مَن قال: إنما يُدْعَوْن بأسماء أمَّهاتهم لأن في ذلك سَتْرًا على آبائهم». انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٣١).

ولعل أوضح من هذا ما رواه أحمد في «المسند» (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنكم تُدْعَون يومَ القيامة بأسمائكم وأسماءِ آبائكم فأَحْسِنوا أسماءكم» لكن إسناده ضعيف لانقطاعه.

عنهما: مَن كانَ في هذه النِّعمِ المُشاهَدةِ التي جرَى ذِكرُها أعمَى فهو في أمرِ الآخرةِ وما لا يراه أعمَى(١).

فقولُه: ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أي: في أمورِ الدُّنيا وما يُشاهدُه منَ الأرضِ والسَّماءِ والبحارِ والجبالِ حينَ لا يهتَدي بها فهو في أمورِ الآخرةِ أعمَى.

وقيلَ: مَن عمِيَ عن التَّوبةِ في الدُّنيا عمِيَ عن طريقِ النَّجاةِ غدًا.

وقيلَ: مَن لم يتُبْ في الدُّنيا وبابُ التَّوبةِ مفتوحٌ فلا سبيلَ له في الآخرةِ إلى التَّوبةِ.

وقيلَ: مَن كانَ في الدُّنيا أعمَى عن حُجَجِ الله بعثَه الله يوم القيامةِ أعمَى، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء: ٩٧]، فالضَّلالُ في الدُّنيا قد يُوجَدُ سبيلٌ إلى الخروجِ منه بالإيمانِ، فأمَّا في الآخرةِ فلا مطمعَ في الخروجِ منه، والمُرادُ بضلالِ الآخرةِ: عاقبةُ الضَّلالِ السّابقِ في الدُّنيا وعذابُه؛ لأنَّ المعارفَ غدًا تصيرُ ضروريّةً.

والمُرادُ بهذا العمَى: عمى القلبِ، ولهذا قال: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: أشدُّ عمًى، فلو كانَ من عمَى العينِ لَـمَا جازَ فيه «أفعَلُ من كذا».

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٩) عن عكرمة قال: «جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم تصب المسألة اقرأ ما قبلها: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ حتى بلغ ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾» فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «فمن كان أعمى عن هذا النعيم الذي قد رأى وعاين فهو في أمر الآخرة التي لم تر ولم تعاين أعمى وأضل سبيلًا».

وروى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: «من عمي عن قدرة الله في الدنيا فهو في الآخرة أعمى».

قال الفرّاءُ: إنَّما تقولُ العربُ: «أفعَلُ من كذا» فيما كان فعلُه على ثلاثةِ أحرُفٍ، مثلَ «منَعَ» تقولُ: «هو أمنَعُ من فلانٍ»، فأمَّا إذا كان أكثرَ ثلاثةِ أحرُفٍ فلا يُقالُ فيه: «أفعَلُ»، بل تقولُ: «هو أشدُّ حمرةً من كذا»؛ لأنَّ الفعلَ «احـمرَّ»، فأمَّا في العمَى فيُقالُ: «هو أعمَى في القلبِ من فلانٍ»، ولا يُقالُ: «هو أعمَى منه في العينِ»؛ لأنَّه لـمَّا جاءَ على مذهبِ «أحمرَ وحمراءَ» تُرِكَ فيه «أفعَلُ»، كما تُرِكَ في كثيرٍ من أشباهِه.

قال: وأجازَ بعضُ النَّحويِّين ذلك في الأعمَى والأزرقِ والأعرجِ والأعمشِ؛ لأنَّه يُقالُ: «عمِيَ، وزرِقَ، وعرِجَ، وعمِشَ»، ولا يُقالُ: «حـمِرَ وبيِضَ»، قال: وليس هذا بشيءٍ؛ لأنَّ النَّظرَ في هذا إلى ما يجوزُ أن يكثُرَ ويقِلَّ، فيُقالُ: «هذا أجمَلُ من فلانٍ»؛ لأنَّ الجمالَ قد يزيدُ وينقُصُ، ولا يُقالُ في الميِّتَين: «هذا أموَتُ من ذلك»؛ لأنَّه ليس ممّا يزيدُ وينقُصُ[١].

وإنَّما يجري لفظُ «أفعل» إذا كان الفعلُ على ثلاثةِ أحرفٍ، وكان ذلك الشَّيءُ ممّا يقِلُّ ويكثُرُ، وما عدا هذا لا يُقالُ فيه: «أفعَلُ من كذا» إلّا شاذًّا.

ولمّا قال: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ عُلِمَ أنَّ قولَه: ﴿أَعۡمَىٰ﴾ معناه: أشدَّ عمًى.

وقيلَ: قال ابنُ أمِّ مكتومٍ: يا رسولَ الله، أفأُحشَرُ أعمَى؟ فنزلَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][٢].

***

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٧)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٤١٦ ـ ٤١٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٨٣) عن ابن عباس ومقاتل. وأورده البيضاوي في تفسير سورة الحج مقدماً له بـ(قيل)، وهي صيغة التمريض عنده، وقال الشهاب: لعل تمريضه لعدم ثبوته عنده لأنّ ابن أم مكتوم رضي اللّه عنه لا يخفى عليه مثله. انظر: «حاشية الشهاب على البيضاوي» (٦/ ٣٠٣).

(٧٣) - ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في وفدِ ثقيفٍ، قالوا: متِّعْنا باللّاتِ سنةً، وحرِّمْ وادِيَنا كما حرَّمتَ مكّةَ شجرَها وطيرَها ووحشَها، فسكتَ النَّبيُّ ﷺ، وكرَّرُوا السُّؤالَ حتَّى زجَرَهم عمرُ، ولعلَّ رسولَ الله همَّ بقلبِه أن يُعطيَهم ذلك رغبةً في إيمانِهم، فنزلتِ الآيةُ(١).

وقيلَ: خلَتْ قريشٌ بالنَّبيِّ ﷺ ليلةً وفخَّمُوه وسوَّدُوه وقارَبُوه، وما زالُوا به حتَّى كادَ يُقارِبُهم في بعضِ ما يُريدونَ، ثمَّ عصمَه الله، ونزلَتِ الآيةُ(٢).

وقال الزَّجَّاجُ: أي: كادُوا يفتِنُونَك، ودخلَتْ (إنْ) واللّامُ للتَّأكيدِ(٣).

وقيلَ: «إنْ» بمعنى: «قد».

«كادَ»: قرُبَ منَ الفعلِ ولـم يفعَلْ.

---

(١) ذكره بنحوه الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤١٩) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره بأطول من هذا الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٨)، وعبد القاهر الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٢٢٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ٤٥٦)، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٤٣)، وأورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧) في نزول هذه الآية وقال: رواه عطاء عن ابن عباس. ثم ذكر نحوه عن عطية عن ابن عباس. وذكره أيضًا (٢/ ١٩٦) في نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء: ١١٣] وقال: هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك.

قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ١٠٠): ذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند. وقال العراقي كما في «روح المعاني» (١٥/ ٣٢): لم نجده في كتب الحديث.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣) عن قتادة.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٥٣)، و«البسيط» (١٣/ ٤١٩).

﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾؛ أي: ليفتِنُونَكَ ويصرِفُونَكَ عنِ الحقِّ، من «فتنْتُ الذَّهبَ بالنَّارِ».

﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: عن القرآنِ ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾؛ أي: لتختلِقَ علينا غيرَ ما أوحَينا إليك؛ لأنَّ وفدَ ثقيفٍ قالوا: إنْ سألَتْكَ العربُ: لِـمَ خصَصْتَهم؟ فقُلْ: الله أمرَني بذلك؛ حتَّى يكونَ عُذرًا لك[1].

﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾؛ أي: لو فعلتَ ما أرادُوا لاتَّخذوكَ خليلًا.

* * *

(٧٤) ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾؛ أي: على الحقِّ وعصَمْناكَ عن مُوافقَتِهم ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تميلُ ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾؛ أي: رُكونًا قليلًا.

قال قتادةُ: لـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قال عليه السَّلامُ: «اللَّهمَّ لا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ»[2].

* * *

(٧٥) ـ ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

قولـه: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾؛ أي: ضِعْفَ عذابِهما: عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، وهذا غايةُ الوعيدِ، وكلَّما كانتِ الدَّرجةُ أعلى

---

(١) قطعة من خبر وفد ثقيف الذي تقدم تخريجه قريباً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٦) وهو مرسل. وروى المرفوع دون ذكر النزول أبو داود (٥٠٩٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت».

كان العـذابُ عنـد المُخالفـةِ أعظـمَ، قـال الله تعالـى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وقال ابنُ عبّاسٍ: كان رسولُ الله ﷺ معصومًا، ولكنَّ هذا تعريفٌ للأمَّةِ لئلّا يركَنَ أحدٌ منهم إلى المُشركينَ في شيءٍ من أحكامِ الله وشرائعِه[1].

ونظيرُ هذه الآيةِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقولُه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقيل: ما كانَ منه همٌّ بالرُّكونِ إليهم، بل المعنَى: لولا فضلُ الله عليكَ لكانَ منكَ مَيلٌ إلى مُوافقتِهم، ولكنْ تمَّ فضلُ الله عليك فلم تفعَلْ.

وضِعفُ الشَّيءِ: مثلُه مرَّتَينِ.

* * *

(٧٦) - ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال اليهودُ: إنَّ الأنبياءَ كانوا بالشّامِ، فإنْ كنتَ نبيًّا فالحَقْ بها، فإنْ أجابُوكَ اتَّبعناكَ، وخطرَ بقلبِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ الهجرةُ إلى الشّامِ، وقيلَ: سافرَ مرحلةً في ذلك الصَّوبِ، فنزلَتِ الآيةُ، ذكرَه ابنُ عبّاسٍ[2].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٢١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٢٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره هو والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١١) من قول الكلبي، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٣-٤٤) من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

وقال عبدُ الرَّحمنِ بنُ غَنْمٍ: غزا رسولُ الله ﷺ غزوةَ تبوكَ لا يُريدُ بها إلا الشّامَ، فلما نزلَ تبوكَ نزلَ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾[1].

وقال مجاهدٌ: نزلَتْ في همِّ أهلِ مكّةَ بإخراجِه، ولو أخرَجُوه لَـمَا أُمهِلُوا، ولكنَّ الله أمرَه بالهجرةِ فخرجَ[2].

وهذا أصحُّ؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيةٌ، وعلى القولِ الأوَّلِ الآيةُ مدنيّةٌ.

﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من أرضِ مكّةَ أو أرضِ المدينةِ، كقولِه: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠]؛ أي: أرضَ مصرَ، وكقولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني: مكّةَ، معناه: همَّ أهلُها بإخراجِه، فلهذا أضافَ إليهم وقال: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]؛ أي: لو فعلُوا لـم يلبثُوا بعد ذلك إلّا قليلًا؛ أي: لاستأصَلْناهُم.

وقيلَ: أي: إنْ ظفِرُوا بك فكم يبقَونَ في الدُّنيا، أليس مصيرُهم إلى عذابِ الله عن قريبٍ؟

قُرِئَ: ﴿خَلْفَكَ﴾ و﴿خِلَٰفَكَ﴾[4]؛ أي: بعد خروجِكَ، فحُذِفَ المُضافُ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤١)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٥٤)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ١٠١): في هذا الإسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٩) ورجحه.

(٣) في (أ) و(ج): «خلفك» بدل: «خلافك»، وهما قراءتان كما سيأتي.

(٤) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿خلافك﴾، والباقون: ﴿خَلْفَكَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٧٧) ـ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾.

قولُه: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾؛ أي: يُعذَّبونَ كسُنَّةِ مَن قد أرسَلْنا، فهو نصبٌ على العذابِ المُضمَرِ، قالَه الفرّاءُ[١].

وقال الزّجّاجُ: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾[٢]؛ أي: وإذًا يُعذَّبونَ تعذيبَ الأُممِ قبلَهم إذ أخرَجُوا رُسلَهم، والسُّنّةُ في العذابِ تقعُ بالقومِ، ولكنْ أضافَ إلى الرُّسلِ لأنَّ تلك السُّنَّةَ سنَّةُ الرُّسلِ.

وقيلَ: أي: سُنّةَ أُممِ مَن قد أرسَلْنا.

﴿ولن تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾؛ أي: لا خُلفَ في وعدِنا.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٩).

(٢) أي: ﴿ سُنَّةَ ﴾ منصوب بمعنى ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ كما ذكر الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٢٦) عن الزجاج، ولفظ الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢٥٥): ﴿ سُنَّةَ ﴾ منصوب بمعنى: أنا سَنَنَّا هذه السنةَ فيمن أرسلنا قبلك من رُسُلِنَا؛ أنهم إذا أخْرَجُوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتَلُوهُ لم يلبثهم العذاب أن ينزل بهم.

ثم عقب الواحدي على قول الفراء والزجاج بقوله: هذا كلامهما ويحتاج إلى شرح وبيان في هذا، وهو أن نقول: ﴿ سُنَّةَ ﴾ منصوبة لأنها وضعت موضع المصدر، ومعنى السنّة هاهنا: التعذيب، وتأويل الآية: أنهم يعذبون تعذيب الأمم قبلهم إذا أَخرجوا رسلهم أو قَتلوا، ودل قوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ ﴾ على تعذيبهم، وكأنه قيل: وإذًا يعذبون تعذيب غيرهم، ومعنى قول الزجاج: «﴿ سُنَّةَ ﴾ منصوب بمعنى ﴿لَّا يَلْبَثُونَ ﴾»، هو ما ذكرنا من أنه يدل على: يعذبون، ومعنى قول الفراء: «أنه منصوب بالعذاب المضمر» هو هذا سواء، فاعرفه فإنه مشكل الظاهر.

(٧٨) ـ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

قولُه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ ذكرَ مكائدَ المُشركينَ[١]، ثمَّ أمرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بالصَّبرِ والمُحافظةِ على الصَّلاةِ، وفيها طلبُ النَّصرِ على الأعداءِ، ومثلُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

دلوكُ الشَّمسِ: غروبُها.

وقيلَ: زوالُها عن كبدِ السَّماءِ، وعلى هذا فالآيةُ جامعةٌ للصَّلواتِ الخمسِ، فيدخُلُ في قولِه: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ الظُّهرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ، ثمَّ قالَ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

﴿لِدُلُوكِ﴾؛ أي: من أجلِ دُلوكِ الشَّمسِ، فاللّامُ بمعنى «أجْلِ»، وبمعنى السَّببِ.

وغَسَقُ اللَّيلِ: سوادُه وظُلمتُه، يُقالُ: «غَسَقَ اللَّيلُ غُسوقًا»، والغَسَقُ: الاسمُ بفتحِ السِّينِ، وأصلُ الكلمةِ منَ السَّيلانِ، يُقالُ: «غَسَقَتِ العينُ»، وهو هَمَلانُ العينِ بالغَمَصِ والماءِ، ويُقالُ لِـمَا يسيلُ من أهلِ النّارِ: «الغَسَّاقُ»، ومعنى غَسَقَ اللَّيلُ: انصَبَّ بظلامِه؛ لأنَّ الظُّلمةَ تنزلُ من فوقٍ.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أي: صلاةَ الصُّبحِ[٢]، **وفيه بيانُ أنَّه لا صلاةَ إلا بقراءةٍ؛ لأنَّه سمَّى الصَّلاةَ قرآنًا.**

---

(١) في (أ): «مكائد الشيطان».

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٢٧٥)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦)، ويشهد له الحديث الآتي.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾؛ أي: صلاةُ الفجرِ يشهدُها ملائكةُ اللَّيلِ وملائكةُ النَّهارِ كما في الخبرِ[1]، ولهذا يُبكِّرُ بهذه الصَّلاةِ، فمَن لم يُبكِّرْ لم يشهَدْ صلاتَه إلّا أحدُ القبيلَينِ منَ الملائكةِ.

وقيلَ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أي: وقراءةَ الفجرِ فأقيمُوها.

***

(٧٩) ـ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾.

قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ التَّهجُّدُ منَ الهُجودِ، وهو من الأضدادِ، يُقالُ: «هَجَدَ»؛ أي: نامَ، و«هَجَدَ»؛ أي: استيقَظَ وقامَ، و«هجَدَ وتهجَّدَ» بمعنًى، و«هجَّدْتُه»؛ أي: أنَمْتُه، و«هَجَّدْتُه»؛ أي: أيقَظْتُه، والتَّهجُّدُ هاهُنا: القيامُ إلى الصَّلاةِ منَ النَّومِ.

وقيلَ: الهُجودُ: النَّومُ، ويُسمَّى مَن قامَ إلى الصَّلاةِ باللَّيلِ مُتهجِّدًا؛ لأنَّ المُتهجِّدَ يُلقي الهُجودَ الذي هو النَّومُ عن نفسِه، كالعابدِ يُسمَّى مُتحنِّثًا؛ لأنَّه يُلقي الحِنْثَ عن نفسِه، وهو الإثمُ، ويُقالُ: «تحرَّجَ وتأثَّمَ»؛ أي: ألقَى الحرَجَ والإثمَ عن نفسِه.

﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أو بالقيامِ بالصَّلاةِ ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: زيادةً على الصَّلواتِ المفروضةِ، ومنه: الأنفالُ، للغنائمِ.

ثمَّ قيلَ: كانت صلاةُ اللَّيلِ فريضةً على النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فقولُه: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: فريضةً زائدةً على الفريضةِ المُوظَّفةِ على الأمّةِ.

---

(١) روى البخاري (٤٧١٧)، ومسلم (٦٤٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح». يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾.

وقيلَ: كانت صلاةُ اللَّيلِ تطوُّعًا منه أيضًا، وكانَتْ في الابتداءِ واجبةً على الكلِّ، ثمَّ نُسِخَ الوُجوبُ، فمعنى قولِه: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: أنَّ الله قد غفرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَّرَ، فهو إذا تطوَّعَ بما ليس عليه كان ذلك زيادةً في الدَّرجاتِ، وغيرُه من الأمّةِ تطوُّعُهم كفَّاراتٌ وتدارُكٌ لخلَلٍ يقعُ في الفرضِ.

وقيلَ: نافلةً لك ولأُمَّتِكَ، ثمَّ إنَّ النّافلةَ ممَّن لا ذنبَ له زيادةٌ في الدَّرجاتِ.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ المقامُ: الموضعُ الذي يقومُ فيه الإنسانُ للأمورِ الجليلةِ، كالمقاماتِ بين يدَي الملوكِ؛ أي: يبعثُكَ مقامًا محمودًا، وهو نصبٌ على الظَّرفِ؛ أي: في مَقامٍ، وهو مقامٌ يُبيِّنُ فضلَه ﷺ وشرفَه على الجميعِ، وفي الخبرِ: «هو المقامُ الذي أشفَعُ فيه لأمَّتي»(١).

﴿مَّحْمُودًا﴾؛ أي: مَرْضِيًّا؛ أي: مقامًا تحمَدُه أنتَ وترضاه، أو: يبعَثُكَ مقامًا محمودًا يحمَدُكَ فيه الخلقُ.

***

(٨٠) - ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ قيلَ: علَّمَه ما يدعُو به في صلاتِه وغيرِها

---

(١) رواه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٧٢٥)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٣١٣٧) وحسنه بلفظ: «هي الشفاعة».

وروى البخاري (٧٤٤٠) عن أنس رضي الله عنه حديث الشفاعة الطويل، وفي آخره: ثم تلا هذه الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم ﷺ. وذكر الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٨٢ - ٢٨٧) عدة روايات في معنى الحديث.

من إخراجِه مما[1] بينَ المُشركينَ وإدخالِه موضعَ الأمنِ، فأخرَجَه من مكَّةَ وصيَّرَه إلى المدينةِ.

وقيلَ: أي: أمِتْني إماتةَ صِدقٍ، وابعَثْني يومَ القيامةِ مَبعَثَ صدقٍ؛ ليتَّصِلَ بقولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾، كأنَّه لمَّا وعدَه ذلك أمرَه أن يدعُوَه ليُنجِزَ هذا الوعدَ.

وقيلَ: أخرِجْني منَ الدُّنيا وأدخِلْني الجنَّةَ.

وقيلَ: يعني: إدخالَه القبرَ وإخراجَه منه.

وقيلَ: أدخِلْني في الأمرِ الذي أكرمتَني به منَ النُّبوّةِ مُدخلَ صدقٍ، وأخرِجْني منه مُخرَجَ صدقٍ إذا أمتَّني.

والمُدخَلُ بضمِّ الميمِ بمعنَى الإدخالِ، كقولِه: ﴿أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾ [المؤمنون: ٢٩]؛ أي: إنزالًا لا أرى فيه ما أكرهُ.

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾؛ أي: حجَّةً بيِّنةً ظاهرةً تنصُرُني بها على مَن خالَفني.

* * *

(٨١) - ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

قولُه: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي: بشِّرْ أصحابَك بدُنوِّ النَّصرِ.

قال ابنُ مسعودٍ: دخلَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ مكّةَ يومَ الفتحِ فوجدَ فيها ثلاثَ مئةٍ وستِّينَ صنمًا، فجعَلَ يطعنُها بيدِه ويقولُ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[2]، فجعَلَ الصَّنمُ ينكَبُّ لوجهِه[3].

---

(١) في (أ): «من».

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١).

(٣) انظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٨٣٢)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٧)، ورواه الأزرقي في «أخبار مكة» =

وقيلَ: أخذَ كفًّا منَ الحصا فرماها بها، وقالَ: «جاءَ الحقُّ وزهَقَ الباطلُ»، فما بقيَ منها صنمٌ إلّا خرَّ لوجهِه، ثمَّ أمرَ بها فكُسِرَتْ[1].

وقيلَ: الحقُّ: الإسلامُ، والباطلُ: الشِّركُ.

وقيلَ: الحقُّ: القرآنُ، والباطلُ: الشَّيطانُ.

وقيلَ: الحقُّ: الجهادُ، والباطلُ: الشِّركُ.

والزُّهوقُ: البُطولُ، يُقالُ: زهَقَتْ نفسُه تزهَقُ زُهوقًا، وأزهَقْتُها.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾؛ أي: لا بقاءَ له، والحقُّ هو الذي يثبُتُ.

* * *

(٨٢) ـ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

قولُه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ لمَّا قدَّمَ هذه التَّنبيهاتِ[2] والحجَجَ في الكتابِ قالَ: إنَّ هذا الكتابَ شفاءٌ من مرضِ الجهلِ، وتنبيهاتٌ على الحجَجِ لمَن ينتفِعُ به، وهو سببُ الخسارةِ لمَن جحَدَه.

﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: ﴿مِنَ﴾ للجنسِ، وفي الخبرِ: «مَن لم يستَشْفِ بالقرآنِ فلا شفاهُ الله»[3].

= (١/ ١٢١)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١٠٦٥٦)، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ): «هذه الشبهات».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٦٠ ـ ٤٦١) من حديث رجاء الغنوي، وفي إسناده أحمد بن الحارث الغساني وهو متروك. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٠٢). ورجاء الغنوي لا يصح حديثه ولا تصح له صحبة، كما في «التمهيد» (٢/ ٤٩٥).

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ثوابٌ منَ الله؛ أي: في تلاوتِه.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني: الكافرَ؛ لأنَّه يكفرُ به ولا ينتفعُ.

***

(٨٣) - ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين يزيدُهم القرآنُ خسارًا صِفَتُهم الإعراضُ عن تدبُّرِ آياتِ الله والكُفرانُ.

قيلَ: نزلَتْ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ[1].

﴿أَعْرَضَ﴾؛ أي: ولَّى عُرْضَه؛ أي: ناحِيَتَه؛ أي: لا يُقبِلُ على الشُّكرِ والطّاعةِ.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ أي: تكبَّرَ وتباعَدَ عن قَبولِ الحقِّ، يُقالُ: «نأى الشَّيءُ»؛ أي: بعُدَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿وناءَ بِجَانِبِهِۦ﴾ على وزنِ «باعَ»[2]، ومثلُه: رَأَى وراءَ، وهو على طريقِ القلبِ.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾؛ أي: نالَه السوءُ[3] يئِسَ من رحمةِ الله، (يؤُوسٌ): فَعولٌ منَ اليأسِ، وهو الخيبةُ.

***

(٨٤) - ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

قولُه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؛ أي: على طريقَتِه وجديلَتِه وطبيعَتِه، يُقالُ:

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤١).

(٣) في (ف): «سوء».

«هذا شكلُ فلانٍ»؛ أي: يُشبِهُه، والمعنَى: أنَّ كلَّ أحدٍ يعمَلُ على ما يُشاكِلُ أصلَه وأخلاقَه التي ألِفَها، وهذا ذمٌّ للكافرِ ومدحٌ للمُؤمنِ.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾؛ أي: بالمُؤمنِ وبالكافرِ وما سيحصُلُ من كلِّ واحدٍ منهم.

* * *

(٨٥) - ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾؛ أي: قد ظهرَتِ الحجَجُ، ولكنَّهم أعرَضُوا عن التَّأمُّلِ، وأسقطوك بالمسائلِ التي لا تعلُّقَ لها بالنُّبوّةِ، فهم يسألونَكَ عن الرُّوحِ ما هي؟ فأخبِرْهم في الجوابِ أنَّ الرُّوحَ شيءٌ من أمرِ الله مُركَّبٌ في أبدانِ الحيواناتِ.

وحقيقةُ المعنَى في الرُّوحِ كحقيقةِ المعنى في العقلِ: أثرٌ يخلُقُه الله في بعضِ الحيواناتِ ليميزَ به الأشياءَ، فمَن سُئِلَ عن العقلِ فأجابَ بهذا كانَ جوابُه مُقنِعًا، وكذا مَن سُئِلَ عن الرُّوحِ فقال: هو من أمرِ الله وخلقٌ من خلقِه، فهذا سديدٌ، سواءٌ اعتَقَدَه جسمًا رقيقًا لا يُشاهَدُ في العُرفِ، أو عرَضٌ[1] يتجدَّدُ وجودُه حالًا فحالًا، فهو إذًا من أمرِ الله وخلقٌ من خلقِه يُعرَفُ بآثارِه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلِقِلّةِ علمِكُم بمواقعِ حجَجِ الله تلتمِسُونَ دليلَ صحّةِ النُّبوّةِ من جهةِ العلمِ بالرُّوحِ، ولو جهِلَ مُدَّعي النُّبوّةِ معنى الرُّوحِ لـم يضُرَّه، وكذا لو قال: لا أعلَمُ حتَّى يُعلِّمَني ربِّي.

---

(١) كذا في النسخ، والجادة: «أو عرضاً».

وقال ابنُ عبّاسٍ: قالت قريشٌ لليهودِ: أعطُونا شيئًا نسألُ عنه هذا الرَّجلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فنزلَتِ هذه الآيةُ[(١)].

وقيلَ: قالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، وعن فِتيةٍ فُقِدُوا في أوَّلِ الزَّمانِ، وعن رجلٍ بلغَ شرقَ الأرضِ وغربَها، فإنْ أجابَ في ذلك كلِّه فليس بنبيٍّ، وإن لـم يُجِبْ في ذلك فهو نبيٌّ، فسألوه، فأنزَلَ الله في شأنِ الفِتيةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ [الكهف: ٩]، وفي شأنِ الذي بلغَ شرقَ الأرضِ وغربَها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٩]، وأنزلَ في الرُّوحِ هذه الآيةَ[(٢)].

وقال ابنُ عبّاسٍ: لـمَّا سألُوا محمَّدًا عليه السَّلامُ عن هذه الأشياءِ قال: «غدًا أُخبِرُكم»، ولـم يستَثْنِ، فأبطأَ عنه الوحيُ أربعينَ يومًا، ثمَّ نزلَ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ثمَّ نزلَ في شأنِ ما سألوه عنه[(٣)].

وقيلَ: قالتِ اليهودُ: سَلُوه عن الرُّوحِ، فإنْ قال: هو ما يحيا به الحيوانُ، قُلنا: أرَدْنا جبريلَ، وإنْ قال: جبريل؛ قُلنا: أرَدْنا شيئًا آخرَ فإنَّ اللَّفظَ مُشتَرَكٌ بينَ مُسمَّياتٍ، فأجابَ جبريلُ بجوابٍ يشمَلُ الكلَّ[(٤)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٠٩)، والترمذي (٣١٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٥٢)، وزادوا: «قالوا: أُوتينا علمًا كثيرًا أُوتينا التوراةَ، ومَن أُوتي التوراةَ فقد أُوتي خيرًا كثيرًا، فأُنزلت ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ [الكهف: ١٠٩] إلى آخر الآية». قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه.

(٢) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في خبر طويل، وشيخ ابن إسحاق فيه مبهم لم يسمه.

(٣) هذا تتمة حديث ابن عباس رضي الله عنهما السابق.

(٤) لم أجده.

ثمَّ، قال قومٌ: كان هذا الجوابُ مُقنِعًا، فإنَّ الرُّوحَ من أمرِ الله، وهو ممَّا يعلمُ.

وقال قومٌ: طَوَى الرَّبُّ العلمَ بحقيقةِ الرُّوحِ عنه وعنهم، ولهذا قال:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وليس كلُّ شيءٍ يُبيَّنُ للخلقِ، فإنَّ وقتَ السّاعةِ لـم يُبيَّنْ للخلقِ، وعددُ حبّاتِ رملِ القِفارِ وقطرِ الأمطارِ لـم يُبيَّنْ لنا.

وقولُه: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: من علمِ ربِّي لا يعلمُه بشرٌ، ولا شكَّ أنَّه يجوزُ أن يخلُقَ الرَّبُّ لنا علمًا بحقيقةِ الرُّوحِ وهيئَتِه وكيفيَّتِه، فإنَّ ما علِمَه الرَّبُّ يجوزُ أن يخلُقَ لنا علمًا به.

والرُّوحُ الذي يحيا به الحيوانُ يُؤنَّثُ ويُذكَّرُ، واشتِقاقُه منَ الرِّيحِ، وأصلُ الرِّيحِ: روحٌ، وقد يُسمَّى النَّفَسُ الذي يخرُجُ منَ الإنسانِ رُوحًا.

وقيلَ: الاشتِقاقُ منَ الانبِساطِ، فإنَّ الرُّوحَ تنبسِطُ في جميعِ البدنِ، يُقالُ: «رَجُلٌ أَرْوَحُ ورِجْلٌ رَوْحاء» إذا كانَ في صدرِ قدَمِه انبِساطٌ، ومنه: «الرّاحُ» لاهتِزازِ البدَنِ وانبِساطِه بالشُّربِ.

ثمَّ؛ قال قومٌ: الرُّوحُ: الدَّمُ؛ لأنَّ الميِّتَ لا يُفقَدُ منه إلّا الدَّمُ.

وقيلَ: استِنشاقُ الهواءِ؛ لأنَّ مَن مُنِعَ منه ماتَ.

وقيلَ: النَّفَسُ الذي يتنفَّسُ الإنسانُ به.

وقيلَ: جسمٌ لطيفٌ أجرَى الله العادةَ بخلقِ الحياةِ فيه في الجسدِ ما دامَ ذاك الجسمُ اللَّطيفُ فيه، ومعنى اللُّطفِ: أنَّه لا يُرَى في العُضوِ، ولا شكَّ أنَّ الحيَّ يحيا بالحياةِ.

ثمَّ؛ مَن قالَ: هو جسمٌ لطيفٌ قالَ: مسكَنُه القلبُ.

وقيلَ: الدِّماغُ.

وقيلَ: الدَّمُ.

وقيلَ: هو في جميعِ البدنِ؛ لقولِه: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقيلَ: الرُّوحُ في هذه الآيةِ: القرآنُ، كما قال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فكأنَّهم قالوا: ما هذا القرآنُ الذي يُسمِّيه رُوحًا؟ فقال: هو من أمرِ ربِّي، وهو الذي أنزلَه، ولو تدبَّرتُموه لعلِمْتُم صِدْقي، ويتَّصِلُ هذا بقولِه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقيلَ: الرُّوحُ المسؤولُ في هذه الآيةِ ملَكٌ.

وقالَ عليٌّ رضيَ الله عنه: هو ملَكٌ له سبعونَ ألفَ وجهٍ، لكلِّ وجهٍ سبعونَ ألفَ لسانٍ، لكلِّ لسانٍ سبعونَ ألفَ لغةٍ، يُسبِّحُ الله بتلك اللُّغاتِ، يخلُقُ الله من كلِّ تسبيحةٍ ملَكًا يطيرُ مع الملائكةِ إلى يومِ القيامةِ(١).

وقال ابنُ جُبَيرٍ: لـم يخلُقِ الله خلقًا أعظَمَ من هذا الملَكِ غيرَ العرشِ، ولو شاءَ أن يبلعَ السَّماواتِ السَّبعَ والأرضينَ السَّبعَ ومَن فيها بلُقمةٍ واحدةٍ لفعَلَ(٢).

وهو المذكورُ في قولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨].

وقيلَ: هو جبريلُ عليه السَّلامُ؛ لقولِه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٧١)، وابن الأنباري في «الأضداد» (ص: ٤٢٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٠٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٦٩)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٦٢).
قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨١): «ما أظن هذا القول يصح عن علي»، وقال ابن كثير: «هذا أثر غريب عجيب». وضعفه السيوطي في «الحبائك» (ص: ٦٢).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٣١)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٦٢).

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خاطَبَ الكفّارَ والسّائلينَ عن الرُّوحِ، وقيلَ: جميعَ المُكلَّفين.

* * *

(٨٦ ـ ٨٧) ـ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لـمَّا ذكرَ نعمَه على النَّبيِّ عليه السَّلامُ بإنزالِ القرآنِ عليه قال: كما قدَرْنا على إنزالِه نقدرُ على إذهابِه حتَّى ينساه الخلقُ، ويتَّصِلُ هذا بقولِه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: ولو شئتُ أن أذهبَ بذلك القليلِ لقدرتُ عليه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾؛ أي: مَن يتوكَّلُ في ردِّ شيءٍ منه.

قولُه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فأثبتَ ذلك في قلبِكَ ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إذ جعلَكَ سيِّدَ ولدِ آدمَ، وأعطاكَ المقامَ المحمودَ وهذا الكتابَ المُعجِزَ.

* * *

(٨٨) ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾؛ أي: من فضلِه الكبيرِ هذا الكتابُ الذي يعجزُ الإنسُ والجنُّ عن الإتيانِ بمثلِه، وفيه بيانُ أنَّه من أمري لا من كلامِكَ، فإنَّه لا حاجةَ معه إلى آيةٍ أُخرَى، وهذا تكذيبٌ لمَن قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾؛ أي: مُعينًا، فالظَّهيرُ بمعنى المُظاهِرِ.

وقيلَ: المثلُ صِلةٌ؛ أي: لو اجتَمَعُوا لـم يأتُوا بالقرآنِ، بل خصَّ الله به محمَّدًا فلا يُتصَوَّرُ أن يُعينَه مخلوقٌ.

* * *

(٨٩) ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾؛ أي: صرَّفْنا في هذا الكتابِ المُعجِزِ القولَ بكلِّ نوعٍ منَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ وضربِ الأمثالِ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ وإعراضًا عن تدبُّرِه.

* * *

(٩٠ ـ ٩٣) ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾؛ أي: لن نُصدِّقَك، ولم نقتَنِعْ بهذا القرآنِ مُعجزةً.

نزلَتْ في رُؤساءِ قُريشٍ، مثلَ عُتبةَ وشيبةَ، وأبي سُفيانَ، والنَّضرِ بنِ الحارثِ، وأبي جهلٍ، وأبي البَخْتَرِيِّ، والوليدِ بنِ المُغيرةِ، وغيرِهم، اجتمَعُوا عند ظهرِ الكعبةِ، وأرسلُوا إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فجاءَهم سريعًا وهو يظُنُّ أنَّهم بدا لهم أن يُؤمِنُوا، فقالوا: إنّا والله لا نعلَمُ رجلًا منَ العربِ أدخَلَ على قومِه ما أدخَلْتَ على قومِكَ، لقد شتَمْتَ الآباءَ، وعِبْتَ الدِّينَ، وسفَّهْتَ الأحلامَ، وشتَمْتَ الآلهةَ، وفرَّقتَ الجماعةَ،

وما بقيَ أمرٌ قبيحٌ إلّا جئتَه، فإنْ كنتَ جئتَ بهذا تطلُبُ مالًا جعَلْنا لك من أموالِنا ما تكونُ به أكثَرَنا مالًا، وإنْ كنتَ إنَّما تطلُبُ الشَّرفَ فينا سوَّدْناكَ علينا، وإنْ كنتَ تُريدُ ملكًا ملَّكناكَ علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيكَ منَ الجِنِّ قد غلَبَ عليك بذَلْنا أموالَنا في طلَبِ الطِّبِّ لك حتَّى نُبرِئَكَ منه أو نُعذَرَ فيكَ.

فقالَ عليه السَّلامُ: «ما جئتُ بما جئتُ لشيءٍ ممّا قلتُم، بل بعثَني الله إليكم رسولًا، وأنزَلَ عليَّ كتابًا، وأمَرَني أن أكونَ لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغتُكم ونصَحْتُ لكم، فإنْ تقبَلُوا فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرةِ، وإن ترُدُّوه عليَّ أصبِرْ لأمرِ الله حتَّى يحكُمَ بيني وبينكم».

فقالوا: سَلْ ربَّكَ أن يُنَحِّيَ عنّا هذه الجبالَ، وأن يُجرِيَ لنا أنهارًا، وأن يبعَثَ آباءَنا حتَّى نسألَـهم عمّا تقولُ، إلى سائرِ الاقتراحاتِ المذكورةِ في هذه الآيةِ، فقال عليه السَّلامُ: «ما بهذا بُعِثْتُ»، وانصرَفَ عليه السَّلامُ، ونزَلَتْ هذه الآياتُ[1].

﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾؛ أي: تُجرِيَ ﴿لَنَا﴾ الأنهارَ، وقُرِئَ: ﴿تُفجِّرَ﴾[2]، يُقالُ: «فجَّرتُ الماءَ تفجيرًا، وفجَرْتُه فجرًا».

﴿يَنۢبُوعًا﴾؛ أي: عينًا تنبعُ، يُقالُ: «نبَعَ الماءُ ينبَعُ وينبُعُ نَبْعًا ونُبُوعًا».

قولُه: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾؛ أي: بستانٌ فيها ثمارٌ وأنهارٌ.

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ١٩٧ ـ ١٩٩)، ومن طريقه ابن هشام في «سيرته» (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٨٧ ـ ٩٠)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٧٧ ـ ٤٨١) من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفيه إبهام الراوي عن عكرمة.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الجيم، والباقون بتشديدها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٤ـ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾؛ أي: تُعجِّلَ العذابَ كما زعَمْتَ أنَّ ربَّكَ يفعلُ ما يشاءُ ﴿كِسَفًا﴾ بفتحِ السِّينِ، واحدُها «كِسْفةٌ»، مثلَ: «قِطْعةٍ وقِطَعٍ».

وقُرِئَ: ﴿كِسْفًا﴾ بسكونِ السِّينِ[1]، مثلَ: «سِدْرةٍ وسِدْرٍ».

وقيلَ: الكَسْفُ: القطعُ، يقالُ: «كَسَفْتُ الثَّوبَ»؛ أي: قطَعتُه.

وقيلَ: هو قطعُ العُرقُوبِ.

وإذا كانَ الكَسْفُ المصدرَ، فالكِسْفُ الشَّيءُ المقطوعُ، كالطَّحْنِ والطِّحْنِ، وعلى هذا فالكِسْفُ بسكونِ السِّينِ للواحدِ[2]، وليس بجمعٍ.

وقيلَ: الكِسْفُ: الغِطاءُ، وكَسَفْتُ الشَّيءَ؛ أي: غطَّيتُه، فالمعنى: أو تُسقِطَ السَّماءَ طبقًا علينا، ذكرَه الزَّجّاجُ[3].

ففي قولٍ: يعني: أو تُسقِطَ السَّماءَ علينا قِطَعًا، وفي قولٍ: أو تُسقِطَ السَّماءَ علينا بمرّةٍ واحدةٍ: إما طبقًا، أو قطعةً واحدةً، وكُسوفُ الشَّمسِ منَ التَّغطِّي.

﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾؛ أي: عِيانًا حتَّى نراهُم مُقابلينَ، ولـم يعلَمِ الجهَلةُ أنَّ الله لا يجوزُ عليه الإِتيانُ والتَّحوُّلُ والمُقابلةُ.

وقيلَ: ﴿قَبِيلًا﴾: فوجًا بعد فوجٍ.

وقـال ابـنُ عبّاسٍ: أي: ضامِنًـا وكفيلًا[4]. يُقـالُ: «قَبَلْتُ به أقبُلُ»، مثـلَ: «كفَلْتُ

---

(١) قرأ نافع وعاصم وابن عامر بفتح السين والباقون بإسكانها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) في (ج): «الواحد».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٥٩).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٨٢)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٨٠).

أكفُـلُ»، وعلـى هـذا فهـو واحـدٌ أُريدَ بـه الجمـعُ، كقولِـه: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقيلَ: هو كقولِه: ﴿يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي: يُخرِجُ كلَّ واحدٍ منكم طفلًا، كذلك قولُه: ﴿قَبِيلًا﴾ أي: يأتي بكلِّ واحدٍ منهم قبيلًا كفيلًا.

قولُه: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ الزُّخرُفُ: الزِّينةُ.

وقيلَ: بيتٌ من ذهبٍ؛ أي: نحنُ لا ننقادُ لك مع هذا الفقرِ الذي نرَى.

﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يُقالُ: «رَقِيتُ أَرْقَى رَقْيًا ورُقِيًّا»؛ أي: أو تصعدَ في السَّماءِ.

﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ وصُعودِك أيضًا ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا﴾؛ أي: كتابًا منَ الله إلى كلِّ رجلٍ منّا، كما قال: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ [المدثر: ٥٢].

﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾؛ أي: قُلْ يا محمَّدُ: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾!

وقُرِئَ: ﴿قالَ سُبْحانَ ربِّي﴾[1]؛ أي: قال محمَّدُ تنزيهًا لله عن أن يعـجزَ عن شيءٍ، وعن أن يُعترَضَ عليه في فعلٌ.

وقيلَ: هذا كلُّه تعجيبٌ عن فرطِ كُفرِهم واقتراحاتِهم.

﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾؛ أي: ليست هذه الأشياءُ في قدرةِ البشرِ، فهل سمِعتُم أحدًا منَ البشرِ أتى بهذه الآياتِ؟ ولستُ ملَكًا فأُزخرِفَ البيوتَ وأغرسَ[2] الجنانَ، إنَّما أنا رسولٌ إليكم.

***

---

(١) قرأ بها ابن كثير وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) في (ج): «وأعرش».

(٩٤ ـ ٩٦) ـ ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ كأنَّه لمَّا قالَ: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ قالوا: إنَّ الله أجَلُّ من أن يكونَ رسولُه منَ البشرِ، فبيَّنَ الله فرْطَ عنادِهم لأنَّهم قالوا: أنتَ مثلُنا فلا يلزَمُنا الانقِيادُ، فقد غفلوا عن المعجزةِ والاعتبارِ بها.

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾؛ أي: أهلَ مكّةَ[1] ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾؛ أي: أن يُصدِّقُوا ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾؛ أي: البيانُ على لسانِ محمَّدٍ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا ﴾ على طريقِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ.

قولُه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾؛ أي: قاطِنينَ، والطُّمَأنينةُ: السُّكونُ.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ إذ الجنسُ إلى الجنسِ أميَلُ، وإنَّما أرسَلَ إلى البشرِ بشرًا، والعقلُ يُجوِّزُ أن يُرسَلَ إلى البشرِ ملَكٌ، كما أُرسِلَ جبريلُ إلى محمَّدٍ، ولكنْ لا حكمَ لأحدٍ على الله.

قولُه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾؛ أي: قُلْ لهؤلاءِ المُكذِّبينَ: قد ثبَتَ الآياتُ، فأنا أُشهِدَ الله عليه، وهو بعبادِه خبيرٌ بصيرٌ يَشهدُ لي غدًا بالتَّبليغِ.

***

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٤٨٤).

(٩٧) - ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾؛ أي: لو هَداهُم الله لاهتَدَوا ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: لا يهديهم أحدٌ.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ قال أبو هريرةَ: قيلَ: يا رسولَ الله، كيفَ يمشُونَ على وُجوهِهم؟ فقال عليه السَّلامُ: «الذي أمشاهُم على أقدامِهم قادرٌ على أن يُمشِيَهم على وجوهِهم، أمَا إنَّهم يتَّقونَ بوجُوهِهم كلَّ شوكٍ»[1].

﴿عُمْيًا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: لا يرونَ شيئًا يسُرُّهم ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمَعُونَ شيئًا يسرُّهم ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطِقُونَ بحجّةٍ؛ لأنَّه قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣][2].

وقيلَ: هم في بعضِ أحوالِ القيامةِ عُمْيٌ، وفي بعضِ الأحوالِ يزولُ عنهم ذلك.

وقيلَ: هذا حينَ يُقالُ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فيصيرونَ عُمْيًا بُكْمًا صُمًّا، وإذا لهم عُواءٌ كعُواءِ الذِّئبِ.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾؛ أي: سكَنَتْ، وإنَّما يسكُنُ لهيبُ النّارِ لا الآلامُ ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

وقيلَ: أي: إذا أرادتْ أن تخبُوَ، كقولِه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الإسراء: ٤٥]؛ أي: أرَدْتَ قراءَتَه.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣١٤٢) وحسنه، وروى نحوه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٩٣ - ٩٤)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٨٦).

(٩٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ أي: ذلك جزاءُ كفرِهم ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا﴾؛ أي: وبأنَّهم قالوا: أإذا كنّا ﴿عِظَـٰمًا﴾ نُبعَثُ؟! فأنكرُوا البعثَ.

***

(٩٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؛ أي: ليس في إعادتِهم أكثرُ ممّا في خلقِهم ابتداءً ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: أجلَ الموتِ، وهذا الأجلُ مدَّةُ المُهلةِ لهم في الدُّنيا، فربَّما آمَنُوا.

وقيلَ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: أوَلَم يرَوا أنَّ الله الذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وجعلَ لهم أجَلًا لا ريبَ فيه قادرٌ على أن يخلُقَ مثلَهم، فالأجَلُ: مدةُ بقائِهم في الدُّنيا ثمَّ موتِهم، وذلك ما لا شكَّ فيه؛ لأنَّه مُشاهَدٌ.

﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: جُحودًا لقُدرتِه، وكذلك الأجَلُ الذي هو البَعثُ، وقد قيلَ: ذلك الأجَلُ هو وقتُ البعثِ، ولا ينبَغي أن يُشَكَّ فيه.

***

(١٠٠) ـ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾؛ أي: لو ملكتُم خزائنَ الأرزاقِ ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ عنَ الإنفاقِ منَ البُخلِ، وهو جوابُ قولِهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ

لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ حتَّى نتوسَّعَ في المعيشةِ؛ أي: لو توسَّعْتُم لبخِلْتُم أيضًا.

وقيلَ: نبَّه على أنَّ الكافرَ لا يستحقُّ الإمهالَ مع استعجالِ العذابِ، فلا يستحِقُّ نِعَمَ الدُّنيا، ولكنَّ الله أدرَّ عليهم الرِّزقَ وأمهَلَهُم، وذلك من كمالِ فضلِه.

﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾؛ أي: لخشيةِ الإنفاقِ، وفيه حذفٌ؛ أي: خشيةَ ضررِ الإنفاقِ.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾؛ أي: بخيلًا مُضيِّقًا، يُقالُ: «قَتَرَ يقْتِرُ قَتْرًا»؛ أي: ضيَّقَ.

***

(١٠١) - ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾؛ أي: أيَّدناه بالمُعجِزاتِ فكفَرُوا، فكانتِ النُّصرةُ لموسى، فكذلك هؤلاءِ إنْ كفروا فالعاقبةُ الجميلةُ للمسلمين، وآياتُ موسى: الطُّوفانُ والجرادُ والقُمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ، فهذه الخمسُ مُتَّفقٌ عليها.

فأمّا الأربعُ الباقيةُ فقال ابنُ عبّاسٍ: هي اليدُ البيضاءُ من غيرِ سوءٍ، والعصا، وأخذُهم بالسِّنينَ حتَّى هلَكَتِ المواشي في حقِّ أهلِ البراري، وحتَّى نقصَتْ ثمارُهم في حقِّ أهلِ القرى، وهاتان آيتانِ[1].

وقال قومٌ بدلَ السِّنينَ: فلقُ البحرِ والطمسةُ، وهي أنَّ الله مسَخَ أموالَهم حجارةً، حتَّى الأطعمةَ والنَّخلَ والدَّراهمَ والدَّنانيرَ.

ورَوَى صفوانُ بنُ عسّالٍ: أنَّ يهودِيَّينِ سألا رسولَ الله ﷺ عن الآياتِ التِّسعِ فقال: «أوحَى الله إلى موسى أنْ قُلْ لبني إسرائيلَ: لا تُشرِكُوا بي شيئًا، ولا تقتُلوا

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٣٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠١)، من رواية قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

النَّفسَ التي حرَّمَ الله إلا بالحقِّ، ولا تزنُوا، ولا تأكلوا الرِّبا، ولا تشرَبُوا الخمرَ، ولا تسرِقُوا، ولا تقذِفُوا المُحصَنةَ، ولا تعتَدُوا في السَّبتِ، ولا تسحرُوا»، فقالا: نشهدُ إنَّك صادقٌ، قال: «فما يمنعُكما عن الإيمانِ؟» قالا: نخافُ أن يقتُلَنا اليهودُ[1].

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لا لتَعرِفَ من جهَتِهم، بل لتعلَمَ عوامُّهم صدقَ ما أخبرتَ عنه بقولِ علمائِهم.

﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾؛ أي: جاءَهم موسى بهذه الآياتِ ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾؛ أي: ساحرًا، كالمشؤومِ والمَيمونِ.

وقيلَ: أي: إنَّكَ قد سُحِرْتَ فتتخيَّلُ الشَّيءَ من غيرِ تحقيقٍ.

وقيلَ: أي: تُعطَى علمَ السِّحرِ.

وقيلَ: أي: رجلًا مثلَنا ذا سَحْرٍ ورِئةٍ.

***

(١٠٢) ـ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

قولُه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: هؤلاءِ الآياتِ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: كلُّ مَن عَقَلَ علِمَ أنَّ هذه الآياتِ لا تدخُلُ تحت قُدرةِ البشرِ.

---

(١) رواه بنحوه الترمذي (٢٧٣٣)، و(٣١٤٤)، والنسائي (٤٠٧٨). قال الترمذي: حديث حسن صحيح!

وقال النسائي في «السنن الكبرى» بعد أن روى هذا الحديث (٣٥٢٧): هذا حديث منكر. ثم قال: حكي عن شعبة قال: سألت عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة فقال: تعرف وتنكر. وقال النسائي: وعبد الله بن سلمة الأفطس متروك الحديث.

قُرِئَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بالفتحِ وبالضَّمِّ[(١)].

قال عليٌّ رضيَ الله عنه: والله ما علِمَ عدوُّ الله، ولكنَّ موسى هو الذي علِمَ[(٢)].

واحتَجَّ ابنُ عبّاسٍ لمَّا سمعَ هذه القراءةَ الأخرى بقولِه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤][(٣)]، ونسبَ فرعونَ إلى العنادِ.

﴿بَصَآئِرَ﴾؛ أي: دلالاتٍ.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾؛ أي: أعلمُكَ ﴿يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾؛ أي: مُهلَكًا، والثُّبورُ: الهلاكُ.

* * *

(١٠٣) - ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

قولُه: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرادَ فرعونُ أن يُخرِجَ موسى وبني إسرائيلَ من أرضِ مصرَ إمّا بالقتلِ أو بالإبعادِ، فأهلَكَه الله.

* * *

(١٠٤) - ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

قولُه: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾؛ أي: أرضَ مصرَ ﴿فَإِذَا جَآءَ

---

(١) قرأ الكسائي بالضم، وباقي السبعة بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) رواه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٣٢)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٣١٩)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٥٧٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠٧)، وذكره يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ١٦٦)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٣٢).

﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: القيامـةِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾؛ أي: جمعًـا من كلِّ موضـعٍ، قد اختلَطَ المُؤمـنُ بالكافـرِ وقتَ الحشـرِ منَ القبـورِ كالجرادِ المُنتشـرِ.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

قولُه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ هذا متَّصلٌ بما سبقَ من ذكرِ المُعجزاتِ والقرآنِ، والكنايةُ ترجعُ إلى القرآنِ؛ أي: أنزَلْناه بالأمرِ الحقِّ، أو الدِّينِ الحقِّ.

وقيلَ: الباءُ بمعنى «مع»؛ أي: مع الحقِّ، كقولِكَ: «ركبَ الأميرُ بسيفِه»؛ أي: مع سيفِه.

﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: أنزَلْناه بالحقِّ، فنزَلَ بالحقِّ.

وقيلَ: ﴿بالحقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: محمَّدٍ؛ أي: نزَلَ عليه؛ كما تقولُ: «نزلْتُ بزيدٍ».

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تُبشِّرُ المُطيعَ بالثَّوابِ، وتُنذِرُ العاصيَ بالعقابِ؛ أي: فامضِ للتَّبليغِ، ولا تُبالِ بتكذيبِ مَن كذَّبَ.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

قولُه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾؛ أي: وأنزَلْنا قرآنًا فرَقْناه؛ أي: فصَّلْناه.

وقال ابنُ جُبَيرٍ: نزَلَ القرآنُ كلُّه منَ السَّماءِ العليا إلى السَّماءِ السُّفلَى، ثُمَّ فُصِّلَ في السَّماءِ السُّفلَى في السِّنينَ التي نزَلَ فيها[1].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٩٥٩) عن سعيد بن جبير، ورواه ابن الجعد في «مسنده» (٢٣٦٣)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٢١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٠١)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٥٩)، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال قتادةُ: كانَ بينَ أوَّلِه وآخرِه عشرونَ سنةً(١). ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾.

وقيلَ: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾؛ أي: جعَلْناه آيةً آيةً، وسورةً سورةً.

وقيلَ: فصَّلْناه أحكامًا، كقولِه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]؛ أي: يُفصَّلُ.

وقُرِئَ: (فرَّقناه) بالتَّشديدِ(٢)؛ أي: أنزَلْناه مُفرَّقًا.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تُؤَدةٍ وترَسُّلٍ، والمُكْثُ والمَكْثُ والمِكْثُ واحدٌ من «مكَثَ يمكُثُ، مثلَ «نصَرَ ينصُرُ»، و«مكُثَ يمكُثُ»، مثلَ «عظُمَ يعظُمُ».

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾؛ أي: نجمًا بعد نجمٍ.

وقيلَ: جعلناه منازلَ ومراتبَ ينزِلُ شيءٌ بعد شيءٍ، ولو أُخِذُوا بجميعِ الفرائضِ في وقتٍ واحدٍ لنفَرُوا.

***

(١٠٧ - ١٠٩) - ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

قولُه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾؛ أي: ليس في إيمانِهم به لنا جمالٌ ونفعٌ، ولا في كُفرِهم نقصٌ، وهذا تهديدٌ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٣٦)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٢٥)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١١٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣)، عن أبيٍّ وابن عباس ومجاهد. وزاد ابن جني نسبتها لعلي وابن مسعود وجمع من أئمة التابعين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: مـن قبلِ القـرآنِ ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: القرآنُ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ نـزلَ فـي قـومٍ مـن أهـلِ الكتـابِ آمنُـوا لَـمّا سمعُوا القرآنَ وخَرُّوا سُـجَّدًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: منهم زيدُ بنُ عمرِو بنِ نُفَيلٍ، وورقةُ بنُ نوفلٍ[1].

وعلى هذا ليس يُريدُ: أوتُوا الكتابَ، بل يُريدُ: أوتُوا علمَ الدِّينِ.

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾؛ أي: للوُجوهِ؛ أي: يسجُدونَ بوجوهِهم وجباهِهم وأذقانِهم، والذَّقَنُ: مجمَعُ اللَّحيَينِ.

وقال الحسَنُ: الأذقانُ عبارةٌ عن اللِّحَى[2]؛ أي: يضَعُونَها على الأرضِ في حالِ السُّجودِ، وهو غايةُ التَّواضُعِ.

واللّامُ بمعنى «على»، تقولُ: سقطَ لِفيه؛ أي: على فيهِ، قال الله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢]؛ أي: عليه.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ أي: يُنزِّهُونه ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾؛ أي: وعدُه بإنزالِ القرآنِ وبعثِه محمَّدًا، وما بلَغَنا في الكتُبِ منه كانَ حقًّا، و﴿إِن﴾ واللّامُ توكيدٌ.

قوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أعادَ لأنَّ الأوّلَ للسُّجودِ، والثّانيَ للذِّلّةِ والخشـوعِ عنـد استماعِ القـرآنِ، ولهـذا قـال: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾؛ أي: ويزيدُهـم القـرآنُ تواضُعًا لله تعالى.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٠٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٠)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٨٠).

(١١٠) ـ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

قولُه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ﴾ لمَّا جرَى في السُّورةِ نفيُ الشِّركِ والأمرُ بالإخلاصِ أمرَ العبدَ بالدُّعاءِ، وعلَّمَه ما يقولُ في الدُّعاءِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: تهجَّدَ رسولُ الله ﷺ ليلةً فجعلَ يقولُ في سجودِه: «يا رحمنُ، يا رحيمُ»، فقال المُشرِكونَ: دعا إلـهَينِ، وما نعرِفُ الرَّحمنَ إلّا رحمنَ اليمامةِ مُسيلمةَ، فنزلتِ الآيةُ(١).

وقيلَ: كانوا يكتُبونَ في صدرِ الكتُبِ: «باسمِكَ اللَّهمَّ»، فنزلَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، فكتبَ رسولُ الله ﷺ به، فقال المُشرِكونَ: هذا الرَّحيمُ نعرِفُه، فما الرَّحمنُ؟ فنزلَتْ هذه الآيةُ(٢).

قيلَ: قالتِ اليهودُ: ما لنا لا نسمعُ في القرآنِ اسمًا هو كثيرٌ في التَّوراةِ؟ يعنُونَ: الرَّحمن، فنزلتِ الآيةُ(٣).

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ ﴿مَّا﴾ صلةٌ؛ أي: أيًّا تدعُوا ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ والنَّبيُّ عليه السَّلامُ مُتخَفٍّ بمكّةَ، وكانوا إذا سمِعُوا القرآنَ سبُّوه، وسبُّوا مَن جاء به، ومَن أنزَلَه(٤).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٣)، ورواه (١٥/ ١٢٤) عن مكحول.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٥٠٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٤)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٦٠)، عن ميمون بن مهران.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٥٠٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٤)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٩/ ٤٩١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٦٠).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٩).

وقالـتْ عائشـةُ: نزلَـتْ في التَّشـهُّدِ[١]؛ فإنَّ الأعـرابَ كانوا يجهَـرونَ بكلماتِ التَّشهُّدِ.

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾؛ أي: أسمِعْ أصحابَكَ، يُقالُ: خفَتَ صوتَه يَخفِتُه، وصوتٌ خفيتٌ؛ أي: خفيضٌ، فالصَّلاةُ بمعنَى القراءةِ.

وقيلَ: المُرادُ بالصَّلاةِ الدُّعاءُ، قالت عائشةُ: قال النَّبيُّ عليه السَّلامُ: «إنَّما ذلك في الدُّعاءِ»[٢]؛ أي: لا ترفَعْ صوتَكَ، فتذكُرَ ذنوبَكَ، فيُسمَعَ منك، فتُعيَّرَ.

وكان أبو بكرٍ يُخافِتُ وعمرُ يجهرُ، فسألَـهما رسولُ الله ﷺ، فقال أبو بكرٍ: أُسمِعُ مَن أُناجي، وقال عمر: أُوقِظُ الوَسْنانَ، وأطرُدُ الشَّيطانَ، وأُرضي الرَّحمنَ، فنزلتِ الآيةُ، وأُمِرَ أبو بكرٍ بأن يرفعَ صوتَه قليلًا، وعمرُ بأن يُنقِصَ منَ الجهرِ قليلًا[٣].

وقيلَ: أي: لا تجهَرْ في كلِّ صلاةٍ، ولا تُخافِتْ في كلِّ صلاةٍ، بل الجهرُ في اللَّيليّةِ دونَ النَّهاريّةِ.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ولـم يقُلْ: «بين ذَينِكَ» اكتفاءً بذكرِ أحدِهما.

* * *

---

(١) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٧٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٨٣٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٧)، ومسلم (٤٤٧).

(٣) رواه أبـو داود (١٣٢٩)، والترمـذي (٤٤٧)، مـن حديـث أبـي قتادة رضـي الله عنه. قـال النووي في «خلاصـة الأحـكام» (١/ ٣٩٢): رواه أبـو داود بإسـناد صحيح.

وروى نحـو هـذه القصـة مختصرة أبـو داود (١٣٣٠) مـن حديث أبي هريـرة رضي الله عنـه. قال أبو داود: لـم يذكـر: (فقـال لأبـي بكـر: ارفَعْ شـيئاً، ولعمر: اخْفِـضْ شـيئاً). وصححه النـووي أيضًا في المصـدر المذكور.

(١١١) ـ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾؛ أي: اختِمْ دُعاءَكَ وصلاتَكَ بالإخلاصِ، وفي الخبرِ: «إنَّها آيةُ العِزَّةِ»[١].

وكان عليه السَّلامُ يُعلِّمُها الصَّغيرَ والكبيرَ من أهلِه[٢].

و«الحمدُ» هاهُنا بمعنى المدحِ.

وقيلَ: الحمدُ لله الذي هدانا لتَنزيهِه.

﴿وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ أي: لا ذلَّ به فيحتاجَ إلى وليٍّ وناصرٍ.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: عظِّمْه عظمةً تامّةً.

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٦٣٤)، والطبراني في «الدعاء» (١٧٣٢)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه، بلفظ: «آية العز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٩٦): «رواه أحمد، ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم». وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣١٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٨) عن قتادة مرسلاً بلفظ: «ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله والكبير».

سُورَةُ الكَهفِ

تفسيرُ سورةِ الكهفِ

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الشُّكرُ والثَّناءُ والمدحُ لله.

﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ﴾ على محمَّدٍ القرآنَ ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾؛ أي: به اعوِجاجًا واختلافًا يُبطِلُ بعضُه بعضًا، والعِوَجُ بكسرِ العَينِ في الدِّينِ والرَّأيِ، وبفتحِها في الأجسامِ كالخشبِ والجدارِ.

* * *

(٢) ـ ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾.

﴿قَيِّمٗا﴾؛ أي: مُستقيمًا يُصدِّقُ بعضُه بعضًا.

وقيلَ: قيِّمًا على الكتبِ السّابقةِ يُصدِّقُها.

وقيلَ: أي: قائمًا بالحججِ أبدًا.

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾؛ أي: ليُنذِرَ محمَّدٌ، أو القرآنُ، وفيه إضمارٌ؛ أي: ليُنذِرَ الكافرين عقابَ الله كما قال: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهذا العذابُ الشَّديدُ قد يكونُ في الدُّنيا وقد يكونُ في الآخرةِ.

﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾؛ أي: من عندِه ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الطّاعاتِ؛ فإنَّها صالحةٌ للثَّوابِ وللقَبولِ.

﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾؛ أي: بأنَّ لـهم، وإنْ حملتَ التَّبشيرِ على البيانِ لـم يحتَجْ إلى الباءِ، والأجرُ الحسَنُ: الثَّوابُ العظيمُ.

***

(٣ ـ ٤) ـ ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾؛ أي: خالدينَ في الثَّوابِ.

قولُه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾؛ أي: النَّصارَى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، واليهودَ قالوا: عُزَيرٌ ابنُ الله، ونحنُ أبناءُ الله وأحبّاؤُه، والمُشركينَ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فالإنذارُ في أوَّلِ السُّورةِ عامٌّ، وهذا خاصٌّ فيمَن قال: لله ولدٌ.

***

(٥) ـ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك القولِ ﴿مِنۡ عِلۡمٖ﴾ لأنَّهم مُقلِّدةٌ قالوه بغيرِ دليلٍ.

﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ﴾؛ أي: أسلافِهم.

﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ﴾؛ أي: كبُرَتْ تلك الكلمةُ كلمةً، وقُرِئَ: (كلمةٌ) بالرَّفعِ[١]، فلا حاجةَ إلى إضمارٍ.

---

(١) بالنصب قراءة الجمهور، وبالرفع نسبت للحسن وعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١). وزاد ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٤) نسبتها ليحيى بن يعمر وابن محيصن وعمرو بن عبيد وابن أبي إسحاق.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ أي: ما يقولونَ إلّا كذِبًا.

***

(٦) ـ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

قولُه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ يُقالُ: بخَعَ فلانٌ نفسَه يَبْخَعُها بَخْعًا وبُخُوعًا؛ أي: قَتَلَها غيظًا؛ أي: لعلَّكَ مُهلِكٌ نفسَكَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾؛ أي: بسببِهم؛ أي: بعدَ كُفرِهم.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ أي: بهذا القرآنِ ﴿أَسَفًا﴾؛ أي: منَ الأسفِ والحزنِ.

***

(٧) ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾؛ أي: جعلْنا ما على الأرضِ لامتحانِ أهلِها، فمنهم مَن يتدبَّرُ ويُؤمِنُ، ومنهم مَن يكفرُ، ثمَّ يومُ القيامةِ بين أيديهم فلا يعظُمَنَّ عليك كُفرُهم فإنّا نُجازيهم.

﴿زِينَةً﴾؛ أي: زيَّنّاها بالأشجارِ والجبالِ والمعادنِ والمياهِ وغيرِها.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾؛ أي: لنُعامِلَهم مُعاملةَ المُختبِرين ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والأحسَنُ عملًا: مَن زهِدَ في زينةِ الدُّنيا.

ثمَّ، ليس كلُّ ما في الأرضِ زينةً، بل فيها القبيحُ، ولكنْ لا يَبينُ حُسنُ الحسَنِ إلا بأن يُقابلَ بالقبيحِ، فلكلِّ شيءٍ مدخلٌ في التَّزيُّنِ.

وقيلَ: هو عامٌّ أُريدَ به التَّخصيصُ.

وقيلَ: ما خلَقَ الله شيئًا إلّا وفيه نفعٌ وإنْ غابَ وجهُ الحكمةِ عنّا، وفي كلِّ شيءٍ مُعتبَرٌ يُعرَفُ به حدوثُه وأنَّ له صانعًا.

(٨) - ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا ﴾ وهو المُستَوي منَ الأرضِ.

والجرُزُ: الأرضُ لا نباتَ فيها، يُقالُ: «جرَزَ الجرادُ الأرضَ»؛ أي: أكلَ ما عليها، و«امرأةٌ جَروزٌ»؛ أي: أكُولٌ، يعني: يومَ القيامةِ، فإنَّ الأرضَ تكونُ مُستويةً لا مُستترَ فيها، بيَّنَ أنَّه لا يبقى[1] بقاءٌ في الدُّنيا.

* * *

(٩) - ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾.

قولُه: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ ﴾؛ أي: أحسِبْتَ؛ أي: ليسُوا بعَجَبٍ من آياتِنا، بل في آياتِنا ما هو أعجَبُ من خبرِهم.

وقيلَ: الخطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم سألوه عن الفِتيةِ فتيةٍ فُقِدُوا، وعن ذي القرنَين، وعنِ الرُّوحِ، وأبطأ الوحيُ، وكان عليه السَّلامُ ينتظِرُ نزولَ الوحيِ[2]؛ أي: ما أوحَينا إليك منَ القصَصِ ليسَتْ بدونِ ما سُئِلْتَ عنه.

وقيلَ: الخطابُ له والمُرادُ المُشركونَ؛ أي: عرِّفْهم أنَّ هذا ليس بأعجبَ مـمّا أوحَيْنا إليك من قبلُ.

وقيلَ: أي: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ ﴾؛ أي: أم علِمْتَ؛ أي: فاعلَمْ أنَّهم كانُوا عجَبًا، كما

---

(١) «يبقى»: ليس في (ج).

(٢) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وفيه راو لم يسم.

تقولُ: أعلِمْتَ أنَّ فلانًا فعَلَ كذا؟ أي: قد فعَلَ فاعلَمْه، والظَّنُّ قد يُقامُ مُقامَ العلمِ، فكذلك «حسِبْتَ» بمعنى «علِمْتَ».

والكهفُ: مغارةٌ في الجبلِ.

والرَّقيمُ: قال ابنُ عبّاسٍ: كلُّ القرآنِ أعلَمُه إلّا أربعةً: ﴿غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦]، و﴿وَحَنَانًا﴾ [مريم: ١٣]، و(الأوّاهُ)، و﴿الرَّقيم﴾[١].

وسُئِلَ مرّةً عن الرَّقيمِ فقال: زعمَ كعبٌ أنَّها قريةٌ خرَجُوا منها[٢].

وفي روايةٍ عنه: أنَّ الرَّقيمَ اللَّوحُ الذي كُتِبَ فيه أسماؤُهم، وهو من رصاصٍ[٣].

وقيلَ: كُتِبَ فيه قصَّتُهم، ووُضِعَ على بابِ الكهفِ، فالرَّقيمُ: الكتابُ المرقومُ، منَ الرَّقْمِ، وهو الكتابةُ[٤].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٥٥)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٦٠)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٣٥)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٣٤)، من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٥٤) بعد ذكره لهذا الخبر: «وهذا إنما قاله ابن عباس في وقت، ثم علمها بعد ذلك».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٥٤)، وابن أبي خيثمة في «تاريخه» (٢/ ٨٦٦)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٥٧).

(٣) علقه البخاري قبل حديث (٤٧٢٤)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٩) ضمن حديث طويل، وعزاه ابن حجر في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٤٥) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) في هامش (ف): «وذكر ابن عباس أن أسماء أهل الكهف سبعة، وذكر أسماءهم وهم: مكسلمينا وهو أكبرهم، ويمليخا، وبيطولس وكشفوطط، وببوط، وساربيولس، ويونس، وبطيونس، وسوس، وذكر في رواية وهب أسماءهم على خلاف ذلك إلا يمليخا فقد اتفقوا على اسمه، وقال ابن عباس: كان اسم الكلب قطمير، وقال سعيد بن جبير: كان اسمه فرفرين» ولم تصحح.

وقال مُجاهدٌ: الرَّقيمُ وادٍ(١).

وقال الضَّحّاكُ: بلدةٌ بالرُّومِ فيها غارٌ فيه أحدٌ وعشرونَ نَفْسًا أمواتٌ كأنَّهم نيامٌ على هيئةِ أصحابِ الكهفِ، فعلى هذا هم غيرُ أصحابِ الكهفِ.

وقيلَ: الرَّقيمُ: اسمُ دراهِمِهم التي عليها اسمُ الملكِ.

وقيل: لمَّا هرَبَ الفِتيةُ منَ الملكِ كان هناك اثنانِ مُؤمنانِ، فكتَبا شأنَ الفتيةِ في لوحٍ من رصاصٍ، ووضَعاه في تابوتٍ من نُحاسٍ في فمِ الكهفِ، لعلَّ الله أن يُظهِرَ عليهم مَن بعدَهم ليعلَمُوا قصَّتَهم.

وقيلَ: الرَّقيمُ: أصحابُ الغارِ الذي انطبَقَ عليهم فذكرَ كلُّ واحدٍ منهم أصلَحَ عملِه، وفي هذا خبرٌ معروفٌ(٢).

وقيلَ: الرَّقيمُ: اسمُ اللَّوحِ منَ الذَّهبِ تحتَ الجدارِ الذي أقامَه الخضِرُ، وكان لغُلامَينِ يتيمَينِ في المدينةِ.

وقال قومٌ: أخبرَ الله عن أصحابِ الكهفِ ولـم يُخبِرْ عن أصحابِ الرَّقيمِ بشيءٍ.

* * *

(١٠) ـ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

قولُه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾؛ أي: اذكُرْ إذ صارَ الفِتيةُ إلى الكهفِ وجعلوه مأواهم

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٥٨)، بلفظ: قال: «يقول بعضهم: الرقيم كتاب شأنهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم»

(٢) رواه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: هرَبُوا بدينِهم إلى الغارِ، ودَعَوا الله بالمغفرةِ والرِّزقِ؛ ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾؛ أي: أصلِحْ، والرَّشَدُ والرُّشْدُ والرَّشادُ: نقيضٌ للضَّلالِ؛ أي: أرشِدْنا إلى ما يقرِّبُ منكَ.

وقيلَ: هيِّئْ لنا من أمرِنا ذا رشَدًا؛ أي: أمرًا ذا رَشَدٍ، فحُذِفَ الموصوفُ، ثمَّ حُذِفَ المضافُ أيضًا.

***

(١١) - ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾.

قولُه: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ أي: فاستجَبْنا دُعاءَهم وصرَفْنا عنهم سوءَ قومِهم وأنَمْناهُم.

قال الزَّجَّاجُ: أي: منَعْناهم أن يسمَعُوا؛ لأنَّ النَّائمَ إذا سمعَ انتبهَ[١].

وقال ابنُ عبّاسٍ: ضرَبْنا على آذانِهم بالنَّومِ[٢]؛ أي: سدَدْنا آذانَهم عن نُفوذِ الأصواتِ[٣] إليها في الكهفِ؛ أي: أنَمْناهُم وهم في الكهفِ.

﴿سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ أي: سنينَ ذاتَ عددٍ؛ أي: معدودةً.

ثـمَّ، قال قومٌ: بيَّنَ الله عددَ تلك السِّنينَ من بعدُ فقالَ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥].

وقال قومٌ: لـم يُبيِّنْ لنا مدَّةَ نومِهم، بل أعلَمَنا أنَّها كانت سنينَ كثيرةً، ولولا ذلك لَما كان فيهم آيةٌ، وحُـمِلَ قولُه: ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: ٢٠]

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٧١)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٥٣٨).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٣٨).

(٣) في (أ): «الصوت».

على القِلّةِ، وحُـمِلَ قولُه: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ على الكثرةِ؛ لأنَّ مَن قال هذا قال: «ذو عددٍ» يُريدُ به الكثرةَ، وإذا قيلَ: «هذه دراهمُ معدودةٌ» يُريدُ القِلّةَ، ويدُلُّ على هذا أنَّ ثَمَّ قالَ: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، وهاهُنا قالَ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، فهو[1] لـم يدُلَّ على مدَّةِ النَّومِ بل تناوَلَ بيانَ كونِهم في الكهفِ أيقاظًا ونيامًا، فهو مـمَّا يدُلُّ على الكثرةِ في السِّنينَ.

***

(١٢) - ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي: أيقَظْناهُم من نومِهم بعدَ السِّنينَ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ مضَى معناه في سورةِ البقرةِ في قولِه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وإنَّما يَعلمُ الواقعَ واقعًا عند حُصولِه، وقبلَه يَعلَمُه مما سيقعُ.

﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ رفعٌ بـ﴿أَحْصَى﴾، تقولُ: «اذهَبْ فاعلَمْ أيُّهم قامَ»[2].

وأمّا الحزبانِ فقال السُّدِّيُّ: هم اليهودُ والنَّصارَى[3].

---

(١) كلمة غير واضحة في النسخ، ولعل المثبت هو المناسب للمعنى والسياق.

(٢) انظر «البسيط» (١٣/ ٥٤٠)، وفيه: ﴿أَيُّ﴾ رفع بـ﴿أَحْصَى﴾ على الابتداء والخبر، ولم يوقع العلم على شيء منهما في الظاهر، وهو في الباطن واقع على ما يتضمنان من القصة، كما تقول: «اذهب فاعلم أيهم قام»، قال الله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]، و(أَيُّ) من حروف الاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله سوى ما يجر.

قلت: وظاهر التمثيل بجملة: «اذهب فاعلم أيهم قام» يدل على أن ﴿أَحْصَى﴾ فعل ماض، وسيأتي التصريح بذلك، وقد ذهب لهذا قوم منهم: أبو علي والزمخشري وابن عطية، واختار كونَ ﴿أَحْصَى﴾ للتفضيل الزجاجُ والتبريزي. انظر: «الدر المصون» (٧/ ٤٤٩).

(٣) ذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٦٥٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ٣٢).

وقيلَ: المُؤمنونَ والكافرونَ.

وقال مجاهدٌ: هما حزبانِ من قومِ الفِتيةِ[١].

وقيلَ: طائفتانِ منَ المُؤمنينَ اختلَفُوا في عصرِ أصحابِ الكهفِ.

وقيلَ: اليهودُ وأصحابُ الكهفِ.

وقيلَ: أصحابُ الكهفِ والملوكُ الذين تداوَلُوا تلك المدينةَ.

وهذا التَّنازُعُ وقعَ بينَ الحزبَينِ في مدّةِ لَبثِهم، فبعَثَهم الله ليُظهِرَ ذلك.

﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ ليس ﴿أَحْصَىٰ﴾ بمعنَى «أفعلُ من كذا»، بل هو الماضي منَ الإحصاءِ؛ أي: أيُّ الحزبَينِ عدَّ أمدًا للَبثِهم[٢]، فقولُه: ﴿أَمَدًا﴾ نصبٌ لأنه مفعول به. ذكره أبو علي[٣].

وقال الفراء: ﴿أَمَدًا﴾ نصب على التمييز[٤].

وقال الزجَّاج على الظَّرفِ؛ أي: أيُّ الحزبَينِ أحصَى للَبثِهم في الأمدِ[٥].

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنَّ ملِكًا من الملوكِ يُقالُ له: «دِقْيانُوسُ» ظهرَ على مدينةٍ من مُدنِ الرُّومِ يُقالُ لها: دَقْسُوسُ ـ وقيلَ: هي لمرسُوسُ ـ فدَعا أهلَها إلى عبادةِ الأصنامِ، وكان بها سبعةُ أحداثٍ يعبُدونَ الله سرًّا، فوقعَ خبرُهم إلى الملكِ وخافوه،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥٠).

(٢) أي: عد أمد لبثهم وعلم ذلك. انظر «البسيط» (١٣/ ٥٤٢)، وكلمة «عد» تحرفت في النسخ إلى: «غدا».

(٣) انظر: «الإغفال» (ص: ٩٣٢)، و«البسيط» للواحدي (١٣/ ٥٤٣).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٦).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٧١)، وفي كلامه ما يدل على إجازة الوجهين: التمييز أو الظرف.

فهرَبُوا ليلًا، ومرُّوا براعٍ معه[١] كلبٌ فتبِعَهم، فأوَوْا إلى الكهفِ، فتبِعَهم الملكُ إلى فمِ الغارِ، فوجدَ أثرَ دخولِهم ولم يجِدْ أثرَ خُروجِهم، فدخلوا فأعمَى الله أبصارَهم فلم يرَوا شيئًا، فقال الملكُ: سُدُّوا عليهم بابَ الغارِ حتَّى يموتُوا فيه جوعًا وعطشًا[٢].

وقيلَ: إنَّهم طرَدُوا الكلبَ مِرارًا فأبَى، ثمَّ قال لهم: ما تُريدونَ منِّي؟ لا تخشَوا جانِبي؛ فإنِّي أُحِبُّ أحبّاءَ الله، فأنا أحرُسُكم.

وقيلَ: كتبَ صديقٌ لهم أسماءَهم واسمَ الملكِ والزَّمانَ الذي كانُوا فيه في لوحٍ، وألقاهُ في الغارِ خُفيةً.

***

(١٣) ـ ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾.

قولُه: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾؛ أي: خبرَ أصحابِ الكهفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾؛ أي: شبابٌ ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾؛ أي: هُدًى بالتَّثبيتِ.

***

(١٤) ـ ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾.

قوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: شدَدْنا وأخطَرْنا ببالِهم زوالَ الدُّنيا حتَّى يرغَبُوا في الآخرةِ.

وقيلَ: ربَطْنا على قلوبِهم بكلامِ الكلبِ.

---

(١) في (ف): «له» وكتب فوقها: «معه» ولم تصحح.

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٣٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٧٠) عن العلماء بأخبار القدماء.

﴿إِذْ قَامُواْ﴾ قيلَ: منَ النَّومِ، **والصَّحيحُ أَنَّهم** قالوا هذا قبلَ نومِهم في الكهفِ، فالمعنى: إذ قامُوا بينَ يدَي دِقْيانُوسَ الملكِ ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّ ذلك كانَ تثبيتًا منَ الله لهم.

وقيلَ: كانوا أولادَ عظماءِ تلك المدينةِ، خرَجُوا واجتمَعُوا وراء تلكَ المدينةِ من غيرِ ميعادٍ، فقال أَسَنُّهم: إنِّي أجِدُ في نفسي أنَّ ربِّي ربُّ السَّماواتِ والأرضِ، فقالوا: نحنُ كذلك نجِدُ في أنفُسِنا، فقامُوا جميعًا وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾[1].

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾؛ أي: لَئِنْ دَعَونا إلـهًا غيرَه فقد قُلْنا إذَنْ جَورًا ومُحالًا.

والشَّطَطُ: مُجاوَزةُ القَدْرِ، وأَشَطَّ في السَّومِ يشِطُّ إِشطاطًا؛ أي: جاوَزَ القدرَ.

وحكى الزَّجّاجُ أنَّ «شَطَّ وأَشَطَّ واشتَطَّ» بمعنًى[2]، وهـو من «شطَّتِ الدّارُ»؛ أي: بعُدَتْ.

***

(١٥) ـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

قولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؛ أي: أهلُ عصرِنا وبلدِنا عبَدُوا الأصنامَ تقليدًا من غيرِ حجّةٍ.

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾؛ أي: بحُجّةٍ عليهم؛ أي: عبادتِهم الأصنامَ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٤٥) عن مجاهد.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٧١)، وفيه: يقال: شط الرجل وأشط إذا جار.

وقيلَ: ﴿عَلَيْهِم﴾ يرجعُ إلى الآلهةِ؛ أي: هلّا قامُوا ببيِّنةٍ على الأصنامِ في كونِها آلهةً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: ممَّن عبدَ غيرَ الله.

***

(١٦) ـ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قيلَ: هو من قولِ الله لهم؛ أي: إذ اعتزَلْتُموهُم فأووا إلى الكهف، وقيل: هو من قولِ رئيسِهم تمليخا، قالَ لهم ذلك.

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: إذ اعتزَلْتُموهم فاعتزَلْتُم ما يعبُدونَ، ثمَّ استثنَى فقالَ: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: إنَّكم لم تترُكوا عبادَتَه، فهو استثناءٌ منقطعٌ.

وقُرِئَ (وما تَعبُدون)(١)؛ أي: ولستُم تعبُدونَ إلّا الله.

﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هو جوابُ ﴿إذ﴾، كما يُقالُ: «إذ فَعَلْتَ كذا فافعَلْ كذا».

﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾؛ أي: يبسُطْ عليكم.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ المِرْفَقُ بكسرِ الميمِ وفتحِ الفاءِ، والمَرْفِقُ بفتحِ الميمِ وكسرِ الفاءِ بمعنًى، وقُرِئَ بهما هاهُنا(٢)، وفي اليدِ، وفي المُتَّكأ؛ أي: يُسهِّلْ عليكم أمرَ الملِكِ وظُلْمَه، ويُهيِّئْ لكم غذاءً تأكلونَه، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ الله هيَّأ لهم

---

(١) لم أقف عليها.

(٢) قرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسرِ الفاء، والباقون بكسر الميم وفتح الفاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٢). وذكر ابن مجاهد من طريق الكسائي عن أبي بكر عن عاصم مثل نافع وابن عامر، ولم يذكرها الداني.

أسبابَ معاشِهم في الكهفِ مدّةَ مُقامِهم إلى أن ضرَبَ على آذانِهم بالنَّومِ؛ كما فعل ذلك بمريمَ عليها السَّلامُ إذ قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ولا يبعُدُ أنَّهم كانوا يبعَثُونَ مَن يأتيهم بأقواتِهم ولا يشعُرُ بهم أحدٌ، كما أخبَرَ عنهم أنَّهم لمَّا قامُوا قالُوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩].

* * *

(١٧) - ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾؛ أي: ترَى أيُّها المُخاطَبُ الشَّمسَ عند طُلوعِها تميلُ عن كهفِهم، والمعنَى: أنَّكَ لو رأيتَهم لرأيتَهم هكذا، لا أنَّ المُخاطبَ رآهُم على التَّحقيقِ.

﴿تَّزَٰوَرُ﴾؛ أي: تتَنَحَّى وتميلُ، من الزَّورِ والازوِرارِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿تَزْوَرُّ﴾ منَ الازوِرارِ(١)، ويُقالُ: اِزْوَرَّ؛ أي: انقبَضَ.

﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ نصبٌ على الظَّرفِ.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: تذَرُهم(٢).

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿تَزَاوَرُ﴾ خفيفة، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿تَزَّاوَرُ﴾ بتشديد الزاي، وقرأ ابن عامر: ﴿تَزْوَرُّ﴾ مثل: تَحْمَرُّ. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥١). والمعنى كما ذكر الطبري: تتركهم بذات الشمال ـ أو: من ذات شمالهم ـ فلا تصيبهم.

وقيلَ: تُجاوِزُهم، يُقالُ: قَرَضْتُ المكانَ؛ أي: عدَلْتُ عنه، ويُقالُ: «قَرَضْتُ ماءَ[1] كذا».

﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ أي: تركتُه وغادَرْتُه وهو على شِمالي، والمعنى: إذا طلَعَتِ الشَّمسُ مالَتْ عن كهفِهم ذاتَ اليمينِ؛ أي: يمين الكهفِ، وإذا غرَبَتْ تمرُّ بهم ذاتَ الشِّمالِ؛ أي: شمال الكهفِ، فلا تُصيبُهم لا في ابتداءِ النَّهارِ ولا في آخرِ النَّهارِ، وكان كهفُهم مُستقبلَ بناتِ نعشٍ في أرضِ الرُّومِ، فكانت الشَّمسُ لا تبلُغُهم لتُؤذِيَهم بحرِّها وتُغيِّرَ ألوانَهم وتُبلِيَ ثيابَهم، وهم في فسحةٍ منَ الكهفِ ينالُهم نسيمُ الهواءِ وينتَفي عنهم الكربُ.

وقيلَ: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ﴾؛ أي: تُصيبُهم يسيرًا، من قُراضةِ الذَّهبِ والفضّةِ، وهي: ما أُخِذَ منها بالمِقراضِ؛ أي: تُعطيهم الشَّمسُ اليسيرَ من شُعاعِها.

وقيلَ: القرضُ: القطعُ؛ أي: تقطعُ محلَّهم وتُجاوزُه.

والآيةُ في ذلك: أنَّ الله آواهُم إلى كهفٍ هذه صفتُه، لا إلى كهفٍ آخرَ يتأذَّونَ فيه بانبساطِ الشَّمسِ عليهم في مُعظمِ النَّهارِ، وعلى هذا فيُمكِنُ أن يكونَ صرفُ الشَّمسِ عنهم بإظلالِ أشجارٍ، ويُمكنُ أن يكونَ الكهفُ على شكلٍ لا يُصيبُهم فيه حرُّ الشَّمسِ.

وقال قومٌ: كان الكهفُ بحيثُ تنبسطُ فيه الشَّمسُ، ولكنَّ الله حفِظَهم وعدَلَ بالشَّمسِ عنهم طالعةً وغاربةً ليكونَ هذا آيةً خارقةً للعادةِ كما كان نومُهم خارقًا للعادةِ، وعلى هذا يُمكِنُ أن يكونَ صرفُ الشَّمسِ عنهم بإظلالِ غمامٍ أو سببٍ

---

(١) في (أ): «قرضته ماء»، وفي (ف) و(ج): «قرضت الماء»، ولعل المثبت هو الصواب، وفي «تفسير الطبري» (١٥/ ١٨٧): «قرضت موضع كذا: إذا قطَعتَه فجاوزته».

آخـرَ، والمقصـودُ: بيـانُ حفظِهم عـن تطـرُّقِ البلى وتغيُّـرِ الأبـدانِ والألـوانِ إليهم، والتَّأذِّي بحـرٍّ وبردٍ.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: منَ الكهفِ، والفَجوةُ: المُتَّسعُ، وجمعُها «فَجَواتٌ وفِجاءٌ»، مثلَ «زَكَواتٍ وزِكاءٍ»؛ أي: كانوا بحيثُ يُصيبُهم نسيمُ الهواءِ.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذلك المَيلُ منَ الشَّمسِ عنهم ووصولُ نسيمِ الهواء إليهم من آياتِ لُطفِ الله بهم.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ في المُصحَفِ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ بغيرِ ياءٍ، وهو في قراءةِ نافعٍ: ﴿فهو المُهتَدي﴾ بالياءِ[1]؛ أي: لو لا أنَّ الله هداهُم لَـمَا اهتَدَوا إلى الدِّينِ الحقِّ، أو: لَمَا[2] اهتَدَوا إلى ذلك الكهفِ.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ كدِقْيانُوسَ وأصحابِه.

* * *

(١٨) - ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

قولُه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾؛ أي: لو رأيتَهم لحسِبْتَهُم مُنتَبِهينَ غيرَ نيامٍ؛ لأنَّ أعيُنَهم كانت مفتوحةً بحيثُ يتوهَّمُهم النّاظرُ أيقاظًا.

وقيلَ: تحسَبُهم أيقاظًا لكثرةِ تقلُّبِهم، كالمُتيقِّظِ في مضجَعِه، والأيقاظُ: جمعُ يقُظٍ ويقِظٍ ويَقْظانَ.

---

(١) أثبت الياء وصلًا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وأثبتها في الحالين يعقوب. انظر: «النشر» لابن الجزري (٢/ ٣١٦).

(٢) في (أ): «ولما».

﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾؛ أي: نائمونَ، وهو كقولك: هم قومٌ رُكوعٌ وسُجودٌ وقُعودٌ، فيُوصَفُ الجمعُ بالمصدرِ.

﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: لئلّا تأكُلَ الأرضُ لحومَهم(١).

قال أبو هُريرةَ: كان لهم في كلِّ عامٍ تقليبتانِ(٢).

وقيلَ: في كلِّ سنةٍ مرّةٌ(٣).

وقال مجاهدٌ: كانوا يَبقَونَ رُقودًا على أيمانِهم سبعَ سنينَ، ثمَّ على شمائلِهم سبعَ سنينَ(٤).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٨٦ و١٩١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٦٥)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٥٨).
وروى معناه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٣) عن ابن عباس، ولفظه: ستة أشهر على ذي الجنب، وستة أشهر على ذي الجنب.
ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٨١٥) (ت: محمد عوامة) من طريق قتادة عن عبد ربه عن أبي عياض. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٩١) عن قتادة قال: وذكر لنا أن أبا عياض قال: لهم في كل عام تقليبتان. وأبو عياض هو المدني قال عنه الحافظ في «التقريب»: مجهول، وقيل: اسمه قيس بن ثعلبة. وعبد ربه هو ابن أبي يزيد. ويقال: ابن يزيد. انظر: «تهذيب الكمال» (١٦/ ٤٨٨).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٦٥)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ١٥٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكرا دون عزو أن ذلك كان في عاشوراء.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٥٨)، والرازي في «تفسيره» (٢١/ ٤٤٤)، وفيهما: «تسع» بدل: «سبع»، وأورده القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٢٩) بلفظ: «في كل سبع سنين مرة».
قال الرازي: هذه التقديرات لا سبيل للعقل إليها، ولفظ القرآن لا يدل عليها، وما لم يأت فيه خبر صحيح فكيف يعرف؟

و﴿ذَاتَ﴾ نصبٌ على الظَّرفِ؛ أي: نُقلِّبُهم في ناحيةِ اليمينِ وناحيةِ الشِّمالِ.

ثـمَّ ذلـك التَّقليبُ مـن فعلِ الله، ويجـوزُ أن يكونَ مـن ملكٍ بأمـرِ الله، فيُضافُ إلى الله.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أخبرَ أنَّه كانَ معهم كلبٌ، والأظهَرُ أنَّه كان كلبَ الرَّاعي الذي تبِعَهم، ويحتملُ أنَّه كان معَهم كلبُ صيدٍ، وكلبُ زرعٍ، أو كان اقتِناءُ الكلبِ جائزًا في وقتِهم.

وقيـلَ: مـا كان مختصًّـا بواحـدٍ منهـم، بل تبِعَهـم كلبٌ مـرُّوا به، فطـرَدُوه فلم ينصَرِفْ.

ثمَّ قيلَ: كان ذلك الكلبُ أنمَرَ.

وقيلَ: أصفَرَ، قالَه مقاتلٌ(١).

﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾؛ أي: ألقاهُما على الأرضِ مبسُوطتَينِ، والذِّراعُ من طرفِ المِرفَقِ إلى طرفِ الإصبعِ الوُسطَى.

ثمَّ قيلَ: بسَطَ ذراعَيه طولَ تلك المدّةِ.

وقيلَ: ما نامَ الكلبُ، وكان ذلك من الآياتِ.

وقيلَ: مفتوحَ العينِ يحسَبُ مَن رآه أنَّه يقصِدُه.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾ قيل: بالفِناءِ؛ أي: فِناءِ الكهفِ، والجمعُ: وصائدُ ووُصُدٌ.

وقيلَ: الوصيدُ: البابُ.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٦٦). ولم يرد بهذا خبر يصح، ولا طائل في بحث مثل هذه الأمور، مع ما فيها من الصرف عن العبرة من القصة.

وقيلَ: عَتَبةُ البابِ.

ولم يكُنْ للكهفِ بابٌ ولا عتبةٌ، ولكنَّ المعنى: أنَّ الكلبَ كان منهم بموضعِ مَن يكونُ عند العتَبةِ ممَّن في البيتِ، وكان الكلبُ وراءَ السَّدِّ الذي أمرَ به دِقْيانوسُ.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أشرَفْتَ عليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾؛ أي: لهرَبْتَ منهم رُعبًا، وظنَنْتَ أنَّهم يُريدونَكَ؛ لأنَّ أعيُنَهم كانت مفتوحةً كأنَّهم أيقاظٌ.

وقيلَ: لوحشةِ مكانِهم، وعلى هذا يحتملُ أن يكونَ الله آواهُم إلى هذا المكانِ الوحشِ في الظّاهرِ لينفرَ النّاسُ عنهم.

وقيلَ: كان النّاسُ محجوبين عنهم بالرُّعبِ، لا يجسرُ أحدٌ على الدُّنوِّ منهم.

وقيلَ: مدَحَهم بأنْ فرُّوا بدينِهم إلى مثلِ هذا المكانِ الهائلِ ليسلَمَ لهم دينُهم.

وقيلَ: الفِرارُ منهم لطولِ شُعورِهم وأظفارِهم. **وهذا بعيدٌ**؛ لأنَّهم لمَّا استَيقَظُوا قال بعضُهم لبعضٍ: لبِثْنا يومًا أو بعضَ يومٍ، ودلَّ هذا على أنَّ شُعورَهم وأظفارَهم كانَتْ بحالِها، إلّا أن تقولَ: إنَّما قالوا ذلك قبلَ أن ينظُروا في أظفارِهم وشُعورِهم.

قُرِئَ: ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[1].

* * *

(١) قرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام والباقون بتخفيفها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(١٩) - ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾؛ أي: كما ضرَبْنا على آذانِهم وزِدْناهم هُدًى وقلَّبناهم بعَثْناهم أيضًا؛ أي: أيقَظْناهم من نومِهم على ما كانوا عليه من هيئاتِهم في ثيابِهم وأحوالِـهم.

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ اللّامُ للعاقبةِ كقولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؛ أي: كم لنا مُذْ دخَلْنا الكهفَ، وذلك أنَّهم دخَلُوه غدوةً، وبعثَهم الله في آخرِ النَّهارِ، ويحتمِلُ أنهم بقُوا في الكهفِ مدّةً، ثمَّ وقعَ عليهم النَّومُ.

أي: كم لنا منذُ نِمْنا؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ أي: قال واحدٌ فأجابَ آخرُ، وكأنَّهم استَبطؤوا[1] النَّومَ، ثمَّ وجدوا بقيَّةً منَ الشَّمسِ فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فقال رئيسُهم تمليخا: الله أعلمُ بالمدّةِ.

ويحتمـلُ أنَّهـم خافُـوا فـواتَ بعـضِ العبـاداتِ لفـواتِ وقتِـه، فاجتهَـدُوا في معرفـةِ الوقتِ.

ويحتمـلُ أنَّهم سـألوا عن الوقتِ على العـادةِ لا لقضاءِ فرضٍ بل لاستِطالتِهم النَّومَ.

---

(١) في (أ): «استنبطوا».

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ قيلَ: بعثُوا قبلَ النَّومِ أحدَهم ليشترِيَ لهم طعامًا، فسمعَ أنَّ الملِكَ قد ركبَ فعجَّلَ واشترَى قدرًا نَزْرًا، فلم يشبَعُوا وناموا، فلما بُعِثُوا بُعِثُوا وهم جياعٌ.

والوَرِقُ: الفِضَّةُ، والقراءةُ الظَّاهرةُ ﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾ بفتحِ الواوِ وكسرِ الرَّاءِ.

وقرأ حمزةُ وعاصمٌ: ﴿بوَرْقِكُم﴾ بفتحِ الواوِ وسكونِ الرَّاءِ[1].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: كان معَهم دراهمُ عليها صورةُ الملكِ الذي كان في زمانِهم[2].

﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أحَلُّ[3]؛ لأنَّ أهلَ بلدِهم كانوا يذبَحُونَ على اسمِ الصَّنمِ، وكان فيهم قومٌ يُخفُونَ إيمانَهم.

وقيلَ: فيه حذفٌ؛ أي: أيُّ أهلِها أزكَى طعامًا.

وقيلَ: ﴿أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾؛ أي: أكثرُ بركةً وريعًا، كأنَّهم أمرُوه أن يشترِيَ ما يظُنُّ أنَّه طعامُ اثنَينِ أو ثلاثةٍ؛ لئلَّا يُطَّلعَ على مكانِهم، ثمَّ إذا طُبِخَ كفى جماعةً، ولهذا قيلَ: كان ذلك الطَّعامُ الأرُزَّ.

وقيلَ: ﴿أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾؛ أي: أطهرُ.

وقيل: أرخَصُ.

وقيلَ: ألطَفُ.

﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾؛ أي: بقُوتٍ ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾؛ أي: في دخولِ المدينةِ

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء وباقي السبعة بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٦٧).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٣٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥٣).

وشـراءِ الطَّعامِ يخفي مكانَـه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾؛ أي: لا يُخبِرَنَّ.

وقيلَ: إنْ ظُهِرَ عليه فلا يُوقِعَنَّ إخوانَه فيما وقعَ فيه.

***

(٢٠) ـ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

قولُه: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يطَّلِعُوا على مكانِكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾؛ أي: يقتُلوكم بالرَّجمِ، وهو أخبثُ القتلِ.

وقيلَ: يرمُوكم بالسَّبِّ والشَّتمِ.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾؛ أي: إنْ رجَعْتُم إلى دينِهم.

***

(٢١) ـ ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أطلَعْنا النَّاسَ عليهم بعد زمانٍ؛ لأنَّ دِقْيانُوسَ كانَ ماتَ ومضَتْ قرونٌ، وملكَ أهلَ تلك الدِّيارِ رجلٌ صالحٌ، واختلَفَ أهلُ مُلكِه، فأنكرَ بعضُهم البعثَ، فكبُرَ ذلك على الملِكَ وشكَى إلى الله وقال: أَظهِرْ لهم آيةً تُبيِّنُ أنَّ البعثَ حقٌّ، فألقَى الله في قلبِ رجلٍ من أهلِ تلك البلدةِ أن يهدمَ البناءَ الذي في فمِ الكهفِ ليبتَنيَ ثَمَّ حظيرةَ الغنمِ ففعلَ، وحجبَ الله الفتيةَ منَ النَّاسِ، ثمَّ بعثَهم من نومِهم، فجلَسُوا وأرسلُوا في طلبِ الطَّعامِ، فاطَّلعَ النَّاسُ على

أمرِهم، فركِبَ الملكُ مع أهلِ المدينةِ، فهذا معنَى: ﴿أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ أي: ليعلَمَ الملكُ ورعيَّتُه أنَّ القيامةَ حقٌّ.

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ قيلَ: أرادَ في البعثِ.

وقيلَ: هو التَّنازعُ مع هذا الذي كان يشتَري الطَّعامَ، فإنَّه كان على دراهمِه صورةُ دِقْيانُوسَ.

وقيلَ: هو تنازُعُهم في قَدْرِ مُكثِهم.

وقيلَ: في عددِهم.

وقيلَ: تنازَعُوا في البُنيانِ والمسجدِ.

﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ وهو من قولِ الله ابتداءً.

وقيلَ: من قولِ بعضِ الحاضِرينَ ذلك الوقتَ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾؛ أي: المُؤمنونَ: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ فبنَى الملكُ على بابِ الكهفِ مسجدًا يُصلَّى فيه، وجعَلَ عندَه عيدًا عظيمًا يجتَمِعُونَ إليه كلَّ سنةٍ.

ولمَّا رأَوا الدَّراهمَ قالوا للرَّجلِ: أصبْتَ كنزًا عظيمًا، ونازَعُوه، فقال: إنِّي بعتُ أمسِ كذا بهذه الدَّراهمِ، وخرَجْنا هربًا منَ الملكِ، فقيلَ: ومَن الملكُ؟ فقال: دِقْيانُوسُ، فقالوا: إنَّه ميِّتٌ من كذا، فكان هذا سببَ اطِّلاعِهم على الفتيةِ.

وقيلَ: كان الملكُ يومئذٍ كافرًا أيضًا، ولكنَّه كان مُنصِفًا، فأظهرَ الله له ولقومِه هذه الآيةَ.

وقيلَ: كان مُنازَعَتُهم أنَّ بعضَهم قال: يُبعَثُ الرُّوحُ والجسدُ جميعًا، وقال بعضُهم: يُبعَثُ الرُّوحُ فأمّا الجسدُ فتأكلُه الأرضُ.

وقيلَ: إنَّ الملكَ والقومَ دخلوا عليهم، وسألوا عن قصَّتِهم، فأخبَروهم بها ثمَّ ماتُوا مكانَهم.

وقيلَ: هذا الذي خرَجَ ليشتريَ الطَّعامَ قال للملكِ: لا تُفزِعُوهم بجَمْعكِم، فاصبِرُوا حتَّى أدخلَ عليهم أوَّلًا، فدخَلَ وماتُوا ولـم يرَهُم القومُ، وإنَّما استدَلُّوا بذلك الواحدِ على خبرِهم، وهابُوا الدُّخولَ عليهم، فقال الملكُ: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾، وقال الذين هم على دينِ الفِتيةِ: اتَّخِذوا عليهم مسجدًا.

وقيلَ: قال الملكُ: اتَّخِذوا مسجِدًا، وعبَّرَ عنه بلفظِ الجمعِ إذ كان له أتباعٌ.

وأرادُوا بالبنيانِ: رَدْمَ بابِ الكهفِ.

وقيلَ: أطلَعَ الله قومًا على أمرِ أصحابِ الكهفِ قبلَ بعثِهم من نومِهم، ولكنْ لـم يعرِفُوا موضِعَهم منَ الكهفِ، فقالَ قومٌ منهم: ابنُوا عليهم بنيانًا، فإنَّ الله يتولَّى إكرامَهم، وقال قومٌ: نبني مسجدًا، فربَّما يُبعثُون، فبنَوا المسجدَ، فلما بُعِثُوا علِمُوا أنَّ الله عمَّى موضِعَهم على مَن عثرَ عليهم تحقيقًا لقولِه: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: ليعلَمَ أصحابُ الكهفِ أنَّ البعثَ حقٌّ، وقد كانوا عالِـمِين، وهذه الزِّيادةُ لطُمأنينةِ القلبِ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

قولُه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هو إخبارٌ عن أهلِ الكتابِ.

ثُمَّ؛ قيلَ: هو إخبارٌ عن النَّصارَى؛ فإنَّ قومًا منهم حضروا النَّبيَّ عليه السَّلامُ من نجرانَ، فجرَى ذكرُ أصحابِ الكهفِ، فقالتِ اليعقُوبيّةُ: كانُوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم، وقالتِ النُّسطُوريّةُ: كانوا خمسةً سادسُهم كلبُهم، وقال المسلمون: كانوا سبعةً وثامنُهم كلبُهم[1].

وقيلَ: هو إخبارٌ عن اليهودِ الذين أمَرُوا المشركينَ بمسألةِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ عن أصحابِ الكهفِ.

واختلَفَ المُفسِّرون فقال قومٌ: لم يُبيِّنِ الله لأحدٍ عددَ أصحابِ الكهفِ، وقولُ مَن قالَ: «سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم» كان أيضًا رجمًا بالغيبِ، وعلى هذا فقولُه:

﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ معناه: لا يعلمُهم أحدٌ، وقولُه: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] تأويلُه عند قومٍ: لا يُؤمنونَ ألبتّةَ، وقد تقولُ: «قلَّما رأيتُ مثلَ هذا»؛ أي: ما رأيتُ مثلَه.

وقال قومٌ: علِمَ عددَهم أقوامٌ، وهم القليلُ الذينَ قال الله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

قال ابنُ عبّاسٍ: أرجو أن أكونَ منَ القليلِ[2]، كانوا ثلاثةً، قال واحدٌ منهم: كم لبِثتُم؟ فقالَ الثّاني: يومًا أو بعضَ يومٍ، فقال الثّالثُ: ربُّكم أعلَمُ بما لبِثتُم[3].

---

(١) انظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٣٤٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٧/ ٨٤ ـ ٨٥)، و«درج الدرر» للجرجاني (٢/ ٢٤٤)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١٤٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٦١)، و«التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي (١٠/ ٤٩)، و«تفسير الرازي» (٢١/ ٤٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٤٦). وعزاه النسفي للكلبي، والجرجاني للكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) إلى هنا رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(٣) ذكره بتمامه الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٧٩).

وقال في روايةٍ: هم سبعةٌ(١).

وقال ابنُ جُبَيرٍ: سبعةٌ أو ثمانيةٌ(٢).

وإنَّما قال: ثمانيةٌ؛ لأنَّ قومًا قالوا: ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم؛ أي: صاحبُ الكلبِ، فقولُه: «سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم»؛ أي: صاحبُ الكلبِ.

وقد ذكرَ الواوَ في قولِه: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يذكرِ الواوَ في قولِه: ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ ﴿سَادِسُهُمْ﴾، ولو كان بالعكسِ لكانَ جائزًا، **فطلَبُ الحكمةِ والعلَّةِ في مثلِ ذلك تكلُّفٌ بعيدٌ**، وهو كقولِه في موضعٍ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]، وفي موضعٍ: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

وحكى القَفَّالُ: أنَّ قومًا قالوا: العددُ ينتَهي عند العربِ إلى سبعةٍ، فإذا احتيجَ إلى الزِّيادةِ عليها استُؤنِفَ خبرٌ آخرُ بإدخالِ الواوِ كقولِه: ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، يدُلُّ عليه أنَّه لـمَّا ذكرَ أبوابَ جهنَّمَ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] بلا واوٍ، ولـمَّا ذكرَ الجنَّةَ قالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، ولأنَّ أبوابَ الجنَّةِ ثمانيةٌ وأبوابَ النَّارِ سبعةٌ، قال الله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ [الحجر: ٤٤]، وقال: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾، ثمَّ قالَ في الثَّامنةِ: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، فالسَّبعةُ نهايةُ العددِ عندَهم كالعشرةِ الآنَ عندِنا.

---

(١) هي رواية عكرمة كما ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٧٩)، ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣١٦) من رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢١٩) من رواية قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٧٩).

ومثلُ هذا الكلامِ تحكُّمٌ، ومن أين أنَّ السَّبعةَ نهايةٌ عندَهم؟ ثمَّ هو منقوضٌ بقولِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ولـم يذكرِ الاسمَ الثّامنَ بالواوِ.

وقال قومٌ ممَّن صارَ إلى أنَّ عددَهم سبعةٌ: ذكرَ الواوَ في قولِه: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ﴾ ليُنبِّهَ على أنَّ هذا العددَ هو الحقُّ، وأنَّه مُباينٌ للأعدادِ الأُخرِ التي قالَـها أهلُ الكتابِ، ولهذا قال في الجملتَينِ المُتقدِّمتَينِ: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾، ولم يذكُرْ في الجملةِ الثّالثةِ، فكأنَّه قال لنبيِّه: هم سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم.

﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: ظنًّا بالغيبِ، والرَّجمُ: القولُ بالظَّنِّ؛ أي: يرجُمونَ القولَ منهم بالغيبةِ عنهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾؛ أي: لا تُجادِلْ فـي أصحابِ الكهفِ إلّا بـما أظهَرْتُه لك.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: حسبُكَ ما قصَصْتُ عليكَ، فلا تُراجِعْ أحدًا من أهلِ الكتابِ فيهم، فإنَّه لا علمَ لهم في ذلك[1].

وقيلَ: في هذا دليلٌ على أنَّ الله لـم يُبيِّنْ لأحدٍ عددَهم، فلهذا قال: ﴿إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾.

وقيلَ: المِراءُ الظّاهرُ أن يقولَ: ليس كما تقولونَ، وأنتم لا تعلمُونَ عدَّتَهم، والمِراءُ: التَّجادُلُ.

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾؛ أي: فـي أصحـابِ الكهـفِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أي: مـن أهـلِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٢١) بلفظ: «حسبك ما قصصت عليك فلا تمار فيهم».

الكتابِ، فإنَّه عليه السَّلامُ سأَلَ نصارَى نجرانَ فنُهِيَ عن السُّؤالِ[1]، وهذا يدُلُّ على منعِ المسلمين من مُراجعةِ أهلِ الكتابِ في شيءٍ منَ العلمِ.

* * *

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ المُعظَمُ على أنَّ سببَ النُّزولِ ما تقدَّمَ، وهو أنَّ اليهودَ قالوا للمُشركينَ: سلُوه عنِ الرُّوحِ، وعنِ الفِتيةِ الذين فُقِدُوا، وعمَّن سارَ في الشَّرقِ والغربِ، فقال: «أُجيبُ» ولم يقُلْ: إنْ شاءَ الله، فقولُه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ أي: إذا نسيتَ الاستِثناءَ؛ أي: إذا تذكَّرتَ ولو بعد سنةٍ فقُلْ: إنْ شاءَ الله؛ فإنَّه يسقطُ عنك الإثمُ في تركِ الاستثناءِ، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ الاستثناءَ واجبٌ، فمَن نسيَ فوقتُ وجوبِه وقتُ تذكُّرِه.

وقيلَ: إذا تذكَّرتَ أنَّك نسيتَ فتُبْ إلى الله، وأكِّدْ عزمَكَ على أن تتحفَّظَ بعد ذلك.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾؛ أي: منَ الوعدِ على الله من غيرِ استثناءٍ؛ لأنَّ الله يفعلُ ما يشاءُ، وفيه بيانُ أنَّه إذا وعدَ شيئًا وعوَّلَ على أنْ يُعرِّفَه الله ذلك، فأبطأَ الوحيُ، فليس في ذلك ما يُنقِصُه؛ لأنَّ لله أن يُؤدِّبَ عبيدَه بما يشاءُ، وقد كان عليه السَّلامُ بشرًا يجوزُ عليه السَّهوُ.

وقيلَ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فمَن نسيَ صلاةً فعليه أن يُصلِّيَها إذا ذكرَها.

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٣٨)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٤٢).

وقال عِكْرمةُ: هو أمرُ العبدِ بذكرِ الله إذا غضِبَ حتَّى يزولَ غضبُه[1].

وقد قيلَ: لـم يثبُتْ تأخيرُ[2] الوحيِ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ تأديبًا على تركِ الاستثناءِ، ولا يجوزُ ذلك فيما يسألُه المشركون؛ لأنَّ تأخيرَ البيانِ عن وقتِ الحاجةِ لا يجوزُ، ولا يَتركُ الله الحجّةَ على الكافرينَ بتركِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ الاستثناءَ.

وقد نُقِلَ أنَّهم لـمَّا سألُوه عن هذه الأشياءِ قال: «لـم يأتِني في هذا علمٌ، فإنْ أتاني أُنبِئُكم»، فضجُّوا وظنُّوا أنَّهم ظهرُوا عليه، فرفعَ عليه السَّلامُ طَرْفَه إلى السَّماءِ، فرجعَ الطَّرفُ إليه بالوحيِ[3]، فلم يكُنْ إذًا ثَمَّ تأخيرٌ.

ويحتملُ أنَّه قال ابتداءً من غيرِ سؤالٍ: سأُخبِرُكم بقصَّةِ أصحابِ الكهفِ، ولـم يستثنِ، فتأخَّرَ عنه الوحيُ حتَّى لا يتضمَّنَ تأخيرَ البيانِ، وأمرَه الرَّبُّ تعالى بالاستثناءِ، وهو كقولِه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣].

وجملةُ الأمرِ: أنَّ وَصْلَ الكلامِ بالاستثناءِ من حيثُ اللَّفظُ أدبٌ منَ الآدابِ، فأمَّا اعتقادُ وُجوبِه حتَّى يجريَ في تركِه عقوبةٌ فقولٌ بعيدٌ، ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾؛ أي: لأمرٍ آخرَ سِوى هذه القِصّةِ؛ إذ ليس فيها شيءٌ أعجَبَ منَ الأقاصيصِ الأُخَرِ، ولهذا قالَ في ابتداءِ القصّةِ: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٤٦٥) بلفظ: «﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: إذا عصيت، وقال بعضهم: إذا غضبت». ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٦) بلفظ: «إذا عصيت»، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٣٤) بلفظ: «إذا غضبت».

(٢) في (ف): «تأخر».

(٣) لم أقف عليه.

وقيلَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ حتَّى لا أنسى الاستِثناءَ بمشيئةِ الله، فإنَّه أقرَبُ رَشَدًا من أن أنسى ذلك.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلّا بأنْ يشاءَ الله، و«أنْ» مع الفعلِ كالمصدرِ؛ أي: إلّا بمشيئةِ الله.

وقيلَ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلّا على هذا الشَّرطِ، تقولُ: «لا تفعَلْ كذا إلّا أن يُعطِيَك فلانٌ دينارًا»؛ أي: إلّا بشرطِ أن يُعطِيَك.

وقال الأخفشُ: أي: إلّا أن تقولَ: «إنْ شاءَ الله»، ويجوزُ مثلُ هذا لدلالةِ الحالِ عليه[1]، ولـمَّا حُذِفَ «تقولَ» نُقِلَ «شاءَ» إلى لفظِ الاستقبالِ.

❊ ❊ ❊

(٢٥) ـ ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعٗا﴾.

قولُه: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعٗا﴾ قال قومٌ: لـم يُخبِر الله أحدًا بمدَّةِ لَبثِهم، ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾؛ أي: لا يعلَمُه غيرُه، فإذاً هذه حكايةٌ عن أهلِ الكتابِ؛ أي: إنَّهم قالوا: «إنَّهم لبثوا هذه المدَّةَ» كما قالوا: ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، و: ﴿خَمْسَةٞ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ أي: ويقولون: «لبِثُوا ثلاثَ مئةِ سنينَ».

وفي قراءةِ عبدِ الله: (قالوا ولَبِثُوا في كهفِهم)[2]،.............................

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٢٩)، وعنه الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٨٢)، ثم قال: ونحو هذا روي عن المبرد عن الكسائي والفراء.

(٢) رواها عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٧٤)، وأوردها الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٣٠).

قال ابن الأنباري في «الأضداد» (ص: ٣٦٧): «ومما يفسر من كتاب الله جل اسمه تفسيرين متضادين قوله جل وعز: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾، يقال: هذا مما أخبر الله جل وعز به ودل العالَمَ فيه على حقيقة لبثهم. =

وهذا قولُ ابنِ عبّاسٍ[١].

وقال قومٌ: هذا بيانٌ منَ الله لمدَّةِ لَبثِهم، وقولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾؛ أي: هو أعلمُ، فالحقُّ ما بيَّنَه لا ما ادَّعاه أهلُ الكتابِ ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لأنَّه الذي له غيبُ السَّماواتِ والأرضِ.

وعلى هذا القولِ قيلَ: قالتِ نصارى نجرانَ: أمَّا الثَّلاثُ مئةٍ فقد عرَفْناها، وأمَّا التِّسعُ فلا علمَ لنا بها[٢]، فكأنَّهم أنكرُوا الزِّيادةَ على ثلاثِ مئةٍ.

وقيلَ: قالوا: لا نعلمُ أنَّ التِّسع سنون أم ليالٍ. فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾، وعلى هذا لم يُبيِّنْ لنا قَدْرَ الزِّيادةِ على ثلاث مئةٍ.

وقيلَ: قال أهلُ الكتابِ في وقتِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ: المدَّةُ من لدُنْ دخلَ الفتيةُ الكهفَ إلى يومِنا ثلاثُ مئةٍ وتسعُ سنينَ، فردَّ الله عليهم ذلك وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ بعد أن قبضَ أرواحَهم المرَّةَ الثَّانيةَ، فهذا لا يعلمُه أحدٌ غيرُ الله[٣].

= وقال آخرون: هذا مما حكاه الله عز وجل عن نصارى نجران. ولم يصحح قولهم وما ادعوه فيه، واحتجوا بقراءة عبد الله بن مسعود: (قالوا ولبثوا في كهفهم). واحتجوا أيضا بقوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فقوله: ﴿وَلَبِثُوا۟﴾ منعطف على قولهم الأول، وغير خارج من معناه.

وقالوا: الدليل على أنه من كلام نصارى نجران، قوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾، أي: لا تقبل ذا القول منهم؛ وهذا من المبهمات التي لا يعلمها راسخ العلم، بل ينفرد الله عز وجل بعلمها دون خلقه...» إلى آخر كلامه.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٠٣)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٨٩)، عن الكلبي.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٣١)، و«تفسير الثعلبي» (١٧/ ١٠٢ _ ١٠٣)، و«البسيط» (١٣/ ٥٨٩)، ولم يذكروا له سندا ولا راوياً.

قُرِئَ: ﴿ثلاثَ مائةِ سنينَ﴾ مُضافةً من غيرِ تنوينٍ، وقُرِئَ: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ بالتَّنوينِ(١).

﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾؛ أي: تسعَ سنينَ؛ لأنَّه لا يُفهَمُ منه تسعُ ليالٍ وتسعُ ساعاتٍ؛ لسبقِ ذكرِ السِّنينَ، كما تقولُ: «عندي مئةُ درهمٍ وخمسةٌ»، فالمفهومُ منه «وخمسةُ دراهمَ».

وقال أبو عليٍّ: أي: وازدادوا لَبْثَ تسعٍ، فحُذِفَ(٢).

* * *

(٢٦) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾.

قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ قد مضَى معنى هذا ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾؛ أي: ما أبصَرَه وما أسمَعَه!

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: ما أبصَرَ أوليائي(٣).

وقولُك: «أكرِمْ بزيدٍ» أمرٌ ولكنْ يُرادُ به الخبرُ، ولهذا تقولُ: «يا قومِ، أكرِمْ بزيدٍ!»، و«يا زيدُ، أكرِمْ بزيدٍ!»؛ لأنَّ المعنى: ما أكرَمَه!

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾؛ أي: ليس لأهلِ السَّماواتِ والأرضِ ناصرٌ من دونِ الله؛ لأنَّه سبقَ ذكرُهم إذ قال: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بالإضافة بلا تنوين، والباقون بالتنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٩ ـ ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (١/ ٣٢٣).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٩٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: أي: ما للمُؤمنين من أهلِ السَّماءِ والأرضِ من دونِ الله وليٌّ؛ أي: لم يتَّخِذُوا من دونِه وليًّا.

وقيلَ: أي: لم يكُنْ لأصحابِ الكهفِ وليٌّ يتولَّى حفظَهم دونَ الله.

وقيلَ: ما لهؤلاءِ المُختَلفين في مدَّةِ لَبثِهم وليٌّ دونَ الله يتولَّى تدبيرَ أمرِهم، فكيف يكونُ أعلمَ منه؟ أو كيف يعلمونَ من غيرِ إعلامِه إيّاهم؟

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ أي: لا يُشرِكُ بما يخبرُ به منَ الغيبِ أحدًا، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، ولو علِمَ أحدٌ ما يعلمُه منَ الغيبِ لكانَ شريكًا له في الإلهيّةِ.

وقيلَ: لا يجوزُ لأحدٍ أن يحكمَ إلّا بما حكَمَ الله.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿ولا تُشرِكْ﴾؛ أي: لا تُشرِكْ أنتَ أيها الإنسانُ ﴿فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ على النَّهيِ[1].

* * *

(٢٧) - ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾؛ أي: اتَّبعِ القرآنَ، فلا مُبدِّلَ لكلماتِ الله، ولا خُلفَ فيما أخبرَ به من قصّةِ أصحابِ الكهفِ.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾؛ أي: ملجأً، وأصلُه: الميلُ، ومَن لجأتَ إليه فقد ملتَ إليه، وهذا آخرُ قصّةِ أصحابِ الكهفِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

ولمَّا غزا معاويةُ غزوةَ المضيقِ نحوَ الرُّومِ وكان معه ابنُ عبّاسٍ، فانتهى إلى الكهفِ الذي فيه أصحابُ الكهفِ فقال معاويةُ: لو كُشِفَ لنا عن هؤلاءِ فننظرَ إليهم، فقال ابنُ عبّاسٍ: قد منعَ الله مَن هو خيرٌ منك عن ذلك، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ [الكهف: ١٨]، فقال: لا أنتهي حتَّى أعلمَ علمَهم، وبعثَ قومًا لذلك، فلما دخلوا الكهفَ بعثَ الله عليهم ريحًا فأخرَجَتْهم(١).

وقيلَ: أصحابُ الكهفِ دخلُوا الكهفَ قبلَ المسيحِ، وأخبرَ الله المسيحَ بخبرهِم، ثمَّ بُعِثُوا في الفترةِ بين عيسى ومحمَّدٍ عليهما السَّلامُ.

وقيلَ: كانوا قبلَ موسى عليه السَّلامُ، وأنَّ موسى ذكرَهم في التَّوراةِ، ولهذا سألتِ اليهودُ رسولَ الله ﷺ.

وقيلَ: دخلُوا الكهفَ بعد المسيحِ.

وقال قومٌ: إنَّهم نيامٌ لم يموتُوا ولا يموتُونَ إلى يومِ القيامةِ، بل يموتُونَ قبلَ(٢) قيامِ السّاعةِ.

***

---

(١) رواه عبد بن حميد في «تفسيره» كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٤٤)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٨)، وأبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٤١)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٧٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٤٠)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ١٥٩). وإسناده صحيح كما قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٣).

(٢) في (ج): «قبيل».

(٢٨) - ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ هذا كقولِه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ في (سورةِ الأنعامِ) [الأنعام: ٥٢]، وقد ذكرنا معناه.

ولـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ طلبَ رسولُ الله ﷺ الفقراءَ من أصحابِه فوجدَهم في مُؤخَّرِ المسجدِ يذكُرونَ اللهَ، فقال: «الحمدُ لله إذ لم يُمِتْني حتَّى أمرَني أن أصبرَ نفسيَ مع رجالٍ من أمَّتي»، وقال: «معَكم المحيا ومعَكم المماتُ»(١).

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: يدعُونَ الله معَك؛ أي: هم على دينِك.

وقيلَ: الدُّعاءُ هو العبادةُ والصَّلاةُ. وقيلَ: الذِّكرُ. وقيلَ: قراءةُ القرآنِ.

وقيلَ: ﴿بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ﴾؛ أي: في صلاةِ الصُّبحِ وصلاةِ العشاءِ.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تتجاوزْ عيناكَ إلى غيرِهم.

وقيلَ: أي: لا تحتقِرْهم، كما يُقالُ: فلان تنبُو عنه العينُ؛ أي: مُستَحقَرٌ.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: أن تتزيَّنَ بمُجالسةِ هؤلاءِ الرُّؤساءِ الذين اقترَحُوا إبعادَ الفقراءِ من مجلِسِكَ، ولم يُرِدِ النَّبيُّ عليه السَّلامُ أن يفعلَ ذلك، ولكنَّ الله نهاه عن أن يفعلَه، وليس هذا بأكثرَ من قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وإنْ كانَ الله أعاذَه منَ الشِّركِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٤٠ - ٢٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٤٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٧)، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في أميّةَ بنِ خلَفٍ الجُمَحيِّ؛ فإنَّه دعا رسولَ الله ﷺ إلى تقريبِ صناديدِ أهلِ مكّةَ وطردِ الفقراءِ عنه[١]؛ أي: لا تُطِعْ هؤلاءِ الكفّارَ.

﴿أَغْفَلْنَا﴾: جعَلْناه غافلًا، وتأويلُ المُعتزلةِ: وجَدْناه غافلًا، أو: سمَّيناه غافلًا.

والأرضُ الغُفْلُ: التي لا علامةَ لها، والكتابُ الغُفْلُ: الذي لا شكلَ عليه، فمعنى ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾: ترَكْنا قلبَه غافلًا.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: عندَما استحسَنَه من دونِ الله ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قيلَ: هو منَ التَّفريطِ، وهو تقديمُ العَجْزِ؛ أي: تركُ الإيمانِ[٢].

وقيلَ: الفُرُطُ: الأمرُ الذي يُفرَّطُ فيه، فقولُه: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾؛ أي: متروكًا قد تُرِكَ فيه الطّاعةُ.

وقيلَ: هو منَ الإفراطِ ومُجاوزةِ الحدِّ، والقومُ قالوا: نحنُ أشرافُ مُضَرَ، إن أسلَمْنا أسلَمَ النّاسُ[٣]، فكان هذا منَ التَّكبُّرِ والإفراطِ في القولِ.

---

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٨) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٨٢) إلى ابن مردويه. وجويبر متروك.

(٢) أي: من التفريط الذي هو التقصير والتضييع وتقديم العجز بترك الإيمان، وأمر فُرُط: متهاون به مضيع أصله، من التفريط، ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه. انظر: «التصاريف لتفسير القرآن» ليحيى بن سلام (ص: ٣١٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨١)، و«البسيط» (١٣/ ٦٠٠)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٥٩).

(٣) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٤٠)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٠٨)، وعزاه الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٦٠١) إلى الكلبي، وروى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٤٣) عن أبي بكر بن عياش قال: كان عيينة بن حصن يفخر بقول: أنا وأنا.

وقيلَ: ﴿فُرُطًا﴾؛ أي: قُدُمًا في الشَّرِّ، من قولِـهم: «فَرَطَ منه أمرٌ»؛ أي: سبَقَ وبدَرَ، ومنه: «فرَسٌ فُرُطٌ»؛ أي: سريعةٌ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

قولُه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: الحقُّ منَ الله، لا ما أنتُم فيه منَ الدُّنيا وزينتِها، فالله يُؤتي الحقَّ مَن يشاءُ وإنْ كانَ ضعيفًا، ويحرمُه مَن يشاءُ وإن كانَ قويًّا غنيًّا.

وقيلَ: أي: قُلْ: هذا الحقُّ، أو: هو الحقُّ، أو: الذي أتيتُكم به هو الحقُّ.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا تهديدٌ[١].

قال ابنُ عبّاسٍ: مَن شاءَ الله له الإيمانَ آمنَ، ومَن شاءَ له الكفرَ كفرَ[٢]، فهذه المشيئةُ ترجعُ إلى الله.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾؛ أي: هيَّأْنا وأعدَدْنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الذين عبَدُوا غيرَ الله ﴿نَارًا﴾؛ أي: جهنَّمَ ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ السُّرادِقُ: ما يُحيطُ بالفُسْطاطِ منَ الحجرةِ التي تكونُ حولَه.

قال اللَّيثُ: هو الحجرةُ المَحوطةُ من غزلٍ غليظٍ منسوجٍ يُضرَبُ في الأسفارِ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥٨)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٩٧١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٤٥٢).

للملوكِ، والجمعُ: «سُرادِقاتٌ»(١)، والمعنى: أنَّ النّارَ مُحيطةٌ بهم من كلِّ وجهٍ.

وقيلَ: سُرادِقُ النّارِ: دُخانٌ يُحيطُ بالكفّارِ يومَ القيامةِ، وهو الذي ذكرَه الله فقال: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]، وقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠].

وروَى أبو سعيدٍ الخدريُّ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «سُرادِقُ النّارِ أربعةُ جُدُرٍ كُثُفٍ، كلُّ جدارٍ منها مسيرةُ أربعين سنةً»(٢).

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾؛ أي: مـمَّا هم فيه منَ الحرِّ وشدّةِ العطشِ ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: كدُرْدِيِّ الزَّيتِ(٣).

وقال مُجاهدٌ: كالقيحِ والدَّمِ(٤).

وأذابَ ابنُ مسعودٍ فضّةً فقال: مَن أحبَّ أن ينظُرَ إلى المُهلِ فلينظُرْ إلى هذا(٥)، فهو إذاً كلُّ جوهرٍ أُذيبَ من نُحاسٍ أو رَصاصٍ أو غيرِهما.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٦٠٥)، وفي «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٩٣): «وقال الليث: يجمع السرادق سرادقات. وبيت مسردق، وهو أن يكون أعلاه وأسفله مسدوداً كله».

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٤)، وقال: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد، وفي رشدين مقال، وقد تكلم فيه من قبل حفظه، ومعنى قوله: كثف كل جدار: يعني غلظه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٤٩). ودردي الزيت: عكره وما يستقر منه في قعر الإناء. انظر: «حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي» (٦/ ٩٨)

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٤٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٥٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٤٨)، ولفظه: عن قتادة، قال: ذكر لنا أن ابن مسعود أهديت إليه سقاية من ذهب وفضة، فأمر بأخدود فخد في الأرض، ثم قذف فيه من جزل حطب، ثم قذف فيه تلك السقاية، حتى إذا أزبدت وانماعت قال لغلامه: ادع من يحضرنا من أهل الكوفة، فدعا رهطاً، فلما دخلوا عليه قال: أترون هذا؟ قالوا: نعم، قال: ما رأينا في الدنيا شبيهاً للمهل أدنى من هذا الذهب والفضة، حين أزبد وانماع. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٧٢) مختصراً.

وقيلَ: المُهلُ: ضَربٌ منَ القَطِرانِ، يُقالُ: مَهَلْتُ البعيرَ فهو ممهولٌ.

وقيلَ: هو السُّمُّ.

وقولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]، قيلَ: كالفِضَّةِ المُذابةِ في اضطِرابِها.

﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ فإذا أدناه من فمِه شوَى وجهَه من شدّةِ حرِّه، وسقطَ لحمُ وجهِه في الإناءِ، وهذا ليس إغاثةً في الحقيقةِ، وهو على مجازِ قولِك: «عِتابُه السَّيف وتحيَّتُه الضَّربُ»، وفي خبرِ أبي سعيدٍ في هذه الآيةِ: «فإذا قرَّبَه إليه سقطَ فروةُ وجهِه فيه»[(١)].

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا الماءُ الذي وصَفْناه ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾؛ أي: ساءَتِ النّارُ.

والمُرتَفَقُ: المجلسُ، وأصلُه: الاتِّكاءُ على المِرفَقِ.

وقيلَ: المُرتَفَقُ: موضعُ اجتماعِ الرُّفقةِ.

وقيلَ: ساءَ ما ارتفَقُوا وانتفَعُوا حيثُ يشربُونَ المُهلَ. **والأوَّلُ أحسنُ**؛ لقولِه: ﴿وَسَآءَتْ﴾.

* * *

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثمَّ ذكرَ ما أعدَّ للمُؤمنينَ منَ الثَّوابِ، وخبرُ ﴿إِنَّ﴾: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وفيه إضمارٌ؛ أي: مَن أحسَنَ منهم عملًا، فأمَّا مَن أحسَنُ عمَلًا من غيرِ المُؤمنينَ فعملُه مُحبَطٌ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨١) بالإسناد المتقدم، وتمامه: عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾، قال: «كعكر الزيت، فإذا قربه إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه».

وقيلَ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ كلامٌ مُعترضٌ، والخبرُ قولُه: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾.

وقيلَ: جوابُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ متروكٌ؛ لأنَّه ابتداءُ كلامٍ آخَرَ في ذلك المعنى، فأُجيبا بجوابٍ واحدٍ، ومثلُه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ إلى قولِه: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥]، فتُرِكَ جوابُ ﴿لولا﴾ حين ابتُدِئَ كلامٌ آخرُ كيلا يُؤدِّيَ إلى مثلِ معنى الأوَّلِ، وجُعِلَ جوابُ الكلامِ الثّاني نائبًا عنه وعن الأوَّلِ معًا.

وهكذا قولُه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى قولِه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، ثـمَّ قالَ: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقولُه: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] جـوابُ ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ وجوابُ قولِه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

***

(٣١) ـ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

قولُه: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنَّةِ، وسائرُ الجنانِ مُحدِقةٌ بها، وذُكِرَ بلفظِ الجمعِ لسعَتِها؛ لأنَّ كلَّ بقعةٍ منها تصلُحُ أن تكونَ جنَّةً.

وقيلَ: العَدْنُ: الإقامةُ، وقال ابنُ عبّاسٍ: معدِنُهم فيها[2].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ الأساوِرُ: جمعُ «أَسْوِرةٍ»، والأَسوِرةُ: جمعُ «سِوارٍ».

---

(١) كذا في النسخ الثلاث، والصواب: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ العبارة كلها الجواب لا قوله: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحده.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٠).

وقال قُطربٌ: «إسوارٌ» بمعنى سِوارٍ، وجمعُه: «أساويرُ»، فحُذِفَتِ الياءُ فقيلَ: «أساوِرُ»[١].

وأنكرَه أبو عليٍّ وقال: لو صحَّ هذا لَـمَا جازَ حذفُ الياءِ كما لا تُحذَفُ من «دنانيرَ»[٢].

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾؛ أي: لباسُهم من أشرفِ ما تعتقدُ منَ اللِّباسِ لملوكِ الدُّنيا، ولِـمَا في الجنّةِ منَ الفضيلةِ على ما في الدُّنيا ما لا يعلمُه إلا الله.

﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هما نوعانِ منَ الحريرِ[٣].

ثمَّ قيلَ: السُّندُسُ: ما رقَّ منَ الدِّيباجِ، والإستبرقُ: ما غلُظَ منه.

وقيلَ: إستبرقٌ: مُعرَّبٌ منَ الفارسيّةِ، والصَّحيحُ: أنّه وِفاقٌ بين اللُّغتَينِ، فليس في القرآنِ ما ليس من لغةِ العربِ.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أصلُ «اتَّكَأَ»: اِوْتكَأَ، مثلَ «اتَّزَنَ» منَ الوزنِ، وأصلُ التُّكأةِ: وُكَأةٌ، ومنه: «التَّوكُّؤُ» للتَّحامُلِ على الشَّيءِ، ورجُلٌ تُكأةٌ؛ أي: كثيرُ الاتّكاءِ، كما يُقالُ: «تُكَلةٌ» بمعنى: «وُكَلةٍ».

﴿فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الأريكةُ: سريرُ حَجَلةٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: هي الأسرَّةُ من ذَهبٍ[٤].

---

(١) ذكره عنه الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢٨٣)، والنحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٢٣٧)، وابن سيده في «المخصص» (١/ ٣٧٠).

(٢) انظر: «الإغفال» لأبي علي الفارسي (ص: ٩٤٠).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم هو في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٤) دون نسبة، ونسبه الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٦١٤) إلى الزجاج.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢١٣) بلفظ: «هي السرر في الحجال». والحجال: جمع الحجلة: =

وهي مُكلَّلةٌ بالدُّرِّ والياقوتِ عليها الحِجالُ، الأريكةُ ما بين صنعاءَ إلى أيلةَ، وما بين عدَنٍ إلى الجابيةِ(١).

وقد قال الزَّجّاجُ: الأرائكُ: الفُرُشُ في الحِجالِ(٢).

﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾؛ أي: طابَ ثوابُهم ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾؛ أي: حسُنَتِ الجنّةُ.

والأرائكُ: موضعُ الارتِفاقِ.

***

(٣٢) ـ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾.

قولُه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ هذا ضربُ مثَلٍ لمن يتغرَّرُ بالدُّنيا ويستنكِفُ من مُجالسةِ المُؤمنينَ، وهو مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾.

قال ابنُ عبّاسٍ: ماتَ ملكٌ من ملوكِ بني إسرائيلَ وخلَّفَ ابنَينِ، فأنفَقَ أحدُهما مالَه في سبيلِ الله، وكفرَ الآخرُ واشتغلَ بزينةِ الدُّنيا وتثميرِ مالِه(٣).

وقال الكلبيُّ: هما أخوانِ من بني مخزومٍ، أحدُهما مؤمنٌ، وهو أبو سلمةَ عبدُ الله ابنُ عبدِ الأسدِ زوجُ أمِّ سلمةَ، والآخرُ كافرٌ، وهو أخوه الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ(٤).

= وهو ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس، ويرخى على السرير، قال الشهاب: يسمى بديارنا ناموسية. انظر: «القاموس» و«المعجم الوسيط» (مادة: حجل)، و«حاشية الشهاب» (٨/ ٣٣٨).

(١) ذكره عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٦١٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٤).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٧) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٤) ذكره عن الكلبي الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٧ ـ ٨)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٤٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٩)، بلا نسبة.

أي: اضرِبْ لهم مثَلًا رجُلَين، وهما الأخوانِ المذكورانِ في سورةِ الصّافّاتِ في قولِه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١]، ورِثَ كلُّ واحدٍ منهما أربعةَ آلافِ دينارٍ من أبيه، فأنفَقَ أحدُهما مالَه في سبيلِ الله، فطلَبَ من أخيه شيئًا فقالَ ما قال[1].

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافرُ ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ ونخيلٍ ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾؛ أي: حفَفْنا الجنَّتَينِ منَ الأعنابِ بالنَّخيلِ، يُقالُ: حفَّ القومُ بفلانٍ يَحفُّونَ؛ أي: طافُوا به، ومنه: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بين الجنَّتَينِ ﴿زَرْعًا﴾؛ أي: أرضًا تصلُحُ للزَّرعِ.

***

(٣٣) - ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾؛ أي: بدا في أوَّلِ الأمرِ الثِّمارُ والزُّروعُ.

﴿ءَاتَتْ﴾ ولم يقُلْ: «آتَتا» نظرًا إلى لفظِ ﴿كِلْتَا﴾ لا إلى المعنَى، والأُكُلُ: الرَّيعُ.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لم تَنْقُصْ، والظُّلْمُ: النَّقصُ.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾؛ أي: أنبَعْنا، وماءُ النَّهرِ أعذَبُ من ماءِ البئرِ.

---

(١) روى القصة بأتم من هذا الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣١) عن عطاء الخراساني، وذكرت بنحوها في «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٨٤) و(٣/ ٦٠٧)، و«تفسير يحيى بن سلام» (١/ ١٨٥)، و«تفسير أبي الليث» (٢/ ٣٤٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٣/ ٦٢)، و«الهداية» لمكي (٦/ ٤٣٧٨)، و«التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي (١٠/ ٨٣). وعزاه أبو الليث ومكي لابن عباس، وأبو حفص للكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فمدارها على الكلبي ومقاتل، وهما متروكان.

وفي متن هذه القصة نظر، فإنه مخالف للأحاديث الصحيحة الواردة في النهي عن أن يتصدق الرجل بماله كله ويترك عياله عالة يتكففون الناس.

(٣٤) ـ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثُمُرٌ﴾ قُرِئَ بضمِّ الثّاءِ والميمِ، قال ابنُ عبّاسٍ: ذهبٌ وفِضّةٌ وأموالٌ[١]. فأمَّا ما يحملُه الشَّجرُ فهو الثَّمَرُ بفتحِ الثّاءِ والميمِ.

وقيلَ: الثُّمُرُ: الأصولُ[٢] التي تحمِلُ الثَّمرةَ.

وقُرِئَ بضمِّ الثّاءِ وسكونِ الميمِ، وقُرِئَ بفتحِهما[٣].

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾؛ أي: لأخيه ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ أي: يُراجِعُه في الكلامِ ويُجاوبُه.

وقيلَ: سألَه عن مالِه وفيما أنفقَه، فقال: قدَّمتُه بينَ يدَيَّ، فقال:

﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النَّفرُ: الرَّهطُ ما دونَ العشرةِ، وأرادَ هاهُنا: الأتباعَ والخدمَ والولدَ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ قيلَ: هجَنَ هذا الكافرُ رأيَ أخيه من إنفاقِ المالِ في القُرُباتِ وأخذَ بيدِه وأدخلَه جنَّتَه فعرَضَها عليه مُدِلًّا بها.

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٦١)، عن قتادة قال: قرأها ابن عباس: ﴿وكان له ثُمُرٌ﴾ بالضم، وقال: يعني أنواع المال.

(٢) في النسخ: «الأموال» والتصويب من «البسيط» للواحدي (١٤/ ١٢)، وعزى هذا القول لابن زيد. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) عن ابن زيد بلفظ: الثُّمُر: الأصل، قال: ﴿وأحيط بثُمُرِه﴾: بأصله.

(٣) قرأ عاصم بفتح الثاء والميم فيهما، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضمهما، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: وهو خارجٌ منَ الإيمانِ، ومَن أدخلَ نفسَه النّارَ بكُفرِه فهو ظالمٌ لنفسِه.

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ كأنَّه أنكرَ فناءَ الدُّنيا، وهذه إشارةٌ إلى جنَّتِه ونعمتِه، أو إشارةٌ إلى الدُّنيا؛ أي: لا انقضاءَ لها وليس وراءَها دارٌ.

* * *

(٣٦) - ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

قولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾؛ أي: لا أحسبُ البعثَ كائنًا ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾؛ أي: وإنْ كانَ بعثٌ، فكما أعطاني هذه النِّعمَ في الدُّنيا فسيُعطيني أفضلَ منه لكرامَتي عليه، وإنَّما قال هذا لـمَّا دعاه أخوه إلى الإيمانِ بالحشرِ والنَّشرِ، وكأنَّه قال: إنَّما أعطاني اليومَ ما أعطاني لكرامَتي وفضلي، فسيُعطيني إنْ كانَ الأمرُ كما تقولُ خيرًا من هذا.

قُرِئَ: ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾، و: ﴿خيرًا منهما﴾[1]؛ أي: منَ الجنَّتينِ.

وقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فأشارَ إلى التردُّدِ، وكان في مُشرِكي العربِ مَن يتردَّدُ في أمرِ البعثِ.

وقيلَ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾؛ أي: وما أعلَمُ، فالظَّنُّ بمعنى اليقينِ.

* * *

(١) قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٣٧) ـ ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ المُحاورةُ منَ الـحَوْرِ، وهو الرُّجوعُ، ومنه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤]، أي: أنْ لن يرجعَ، فقولُه: ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ أي: يُراجعُه في الخطابِ؛ يعني: ارتيابُك في البَعثِ ارتيابٌ في أنَّ الله خالقُكَ أو لا.

﴿مِن تُرَابٍ﴾؛ أي: آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ بيَّنَ أنَّ ما اعترَفَ به من هذه الأشياءِ أبدَعُ مـمَّا أنكرَه منَ الإعادةِ، والنُّطفةُ في اللُّغةِ: الماءُ، يُقالُ: في القِربةِ نطفةٌ من ماءٍ، فسُمِّيَ المنيُّ لهذا نطفةً.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: جعلَكَ مُعتدِلَ الخلقِ والقامةِ صحيحَ الأعضاءِ، ويُقالُ للغلامِ إذا تمَّ شبابُه: قد استوَى، ويُقالُ: سوَّيتُ كذا؛ أي: أصلَحْتُه.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

قولُه: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ قُرِئَ: (لكنَّ هو الله ربِّي)؛ لأنَّ أصلَه: (لكنْ أنا)، فحُذِفَتِ الهمزةُ وأُلقِيَتْ حركتُها على النُّونِ فصارَ: (لكِنَنا)، فاجتمعَ مثلانِ فأدغَمُوا الأوَّلَ في الثّاني بعد أن أسكَنُوا، فصارَ في الدَّرجِ: (لكنَّ هو الله ربِّ).

وقرأ ابنُ عامرٍ ونافعٌ: ﴿لكنّا﴾ بإثباتِ الألفِ في الوصلِ وفي الوقفِ[1].

---

(١) هي قراءة ابن عامر وحده في المشهور. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩١)، و«التيسير» (ص: ١٤٣). قال الداني: قرأ ابن عامر بإثبات الألف في الوصل، والباقون بحذفها فيه، وإثباتُها في الوقف إجماع.

وقال الزَّجَّاجُ: الهمزةُ قد حُذِفَتْ من (أنا) فصارَ إثباتُ الألفِ عِوَضًا من الهمزةِ(١).

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ ﴿هُوَ﴾ ضميرُ القِصّةِ والشَّأنِ والأمرِ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وقولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ دلَّ مفهومُه على أنَّ الأخَ الآخرَ كانَ مُشركًا بالله يعبُدُ غيرَه، ويحتمِلُ أنَّه أرادَ: لا أرى الغِنَى والفقرَ إلّا منه، وأعلَمُ أنَّه لو أرادَ أن يسلُبَ صاحبَ الدُّنيا دُنياه قدرَ عليه، وهو الذي آتاني الفقرَ.

ويحتملُ أنَّه أرادَ: جُحودَكَ البعثَ مصيرُه إلى أنَّ الله تبارَكَ وتعالى لا يقدرُ عليه، وهو تعجيزُ الرَّبِّ سبحانَه وتعالى، ومَن عجَّزَه سبحانَه شبَّهَه بخلقِه، فهو إشراكٌ.

* * *

(٣٩) - ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هلَّا قُلتَ، وهو توبيخٌ.

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال الزَّجَّاجُ والفرَّاءُ: الأمرُ ما شاءَ الله، أو: هو ما شاءَ الله(٢)؛ أي: الأمرُ بمشيئةِ الله تبارَكَ وتعالى، وهو ردٌّ على الأخِ الكافرِ إذ قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٤٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٨)، وعليه فـ﴿مَا﴾ في موضع رفع، وأجاز الزجّاج أن تكون في موضع نصب على معنى الشرط والجزاء، ويكون التأويل: أيَّ شيء شاء الله كان، وسيأتي هذا لاحقاً.

وقيلَ: الجوابُ مُضمَرٌ؛ أي: ما شاءَ الله كانَ، وجازَ حذفُ الجوابِ كما قال الله تبارَكَ وتعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]؛ أي: لكانَ هذا القرآنَ.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ما اجتمَعَ لك منَ المالِ فهو بقدرةِ الله سبحانَه وتعالى، ولو شاءَ تبارَكَ وتعالى لنزَعَ البركةَ عنه فلم يجتمِعْ.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قُرِئَ ﴿أَقَلَّ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ[1]، فإن نصبتَ فهو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿تَرَنِ﴾، وإنْ رفعتَ فـ(أنا أقلُّ) مبتدأٌ وخبرٌ، والجملةُ في موضعِ المفعولِ الثّاني لـ﴿تَرَنِ﴾.

* * *

(٤٠) ـ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

قولُه: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ أي: أرجُو منَ الله ذلك؛ إنِّي أرجو أن يرزُقَني خيرًا منها في الدُّنيا، وقيلَ: في الآخرةِ.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عذابًا وآفةً تجتاحُه.

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿حُسْبَانًا﴾؛ أي: نارًا[2].

---

(١) قرأ العشرة بالنصب، وقرأ عيسى بن عمر بالرفع كما في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٨٧)، وكذا قرأ بالرفع ابن أبي عبلة كما في «الكامل» للهذلي (ص: ٥٩١).

(٢) ذكره الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٣٠) دون سند، وكذا الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٧١)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: وهو قول الكلبي.

وقيلَ: قضاءً من قضاءِ اللهِ.

وقيلَ: الـحُسبانُ المَرامي، والنَّبلُ الصِّغارُ تُسمَّى حُسبانًا، والمَرامي منَ السَّماءِ عذابٌ.

وقيلَ: البَردُ والصَّواعقُ والسَّحابُ.

وقال الزَّجَّاجُ: الـحُسبانُ منَ الحسابِ؛ أي: يُرسِلَ عليها عذابَ الحسابِ، وهو حسابُ ما اكتَسَبَتْ يداكَ، فهو من بابِ حذفِ المُضافِ(١).

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ أي: تُصبِحَ جنَّتُكَ أرضًا ملساءَ لا نباتَ فيها، والزَّلَقُ تأكيدٌ لوصفِ الصَّعيدِ؛ أي: تزِلُّ عنها الأقدامُ لمَلاسَتِها، والزَّلْقُ: الحلْقُ، والزَّلَقُ: المحلوقُ، كالنَّقْضِ والنَّقَضِ، وليس المُرادُ أنَّها تصيرُ مزلقةً، بل المُرادُ أنَّه لا يبقَى فيها نباتٌ، كالرَّأسِ إذا حُلِقَ لا يبقَى عليه شعرٌ.

***

(٤١) - ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾.

قولُه: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾؛ أي: أو يغورَ ماؤُها ويذهبَ.

وقيلَ: أو يصبحَ ماؤُها ذا غورٍ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: الغَوْرُ بمعنَى الغائرِ، أُقيمَ المصدرُ مُقامَ الصِّفةِ للمُبالغةِ، يُقالُ: «ماءٌ غَوْرٌ، ومياهٌ غَوْرٌ»، كما تقولُ: «رجالٌ عَدْلٌ».

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾؛ أي: يذهبُ أصلُ الماءِ فلا تقدرُ عليه بحيلةٍ.

***

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٩).

(٤٢) ـ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

قولُه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾؛ أي: تحقَّقَ ما قدَّرَه هذا المؤمنُ، وأُرِيَ الكافرُ العبرةَ.

(أحيط)؛ أي: أُهلِكَ مالُه كلُّه.

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾؛ أي: فأصبحَ الكافرُ، ودلَّ قولُه: ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ على أنَّ هذا الإهلاكَ جرَى باللَّيلِ كقولِه: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩ ـ ٢٠].

﴿يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ أي: يضربُ إحدى يدَيه على الأُخرَى ندَمًا لأنَّ هذا يصدرُ منَ النّادمِ.

﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾؛ أي: عليها، يُقالُ: «أنفقْتُ في هذه الدّارِ كذا، وأنفَقْتُ عليها».

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: وجنَّتُه ساقطةٌ على سُقُفِها، فالعروشُ عامَّةٌ في سقوفِ الأبنيةِ وما عُرِشَ للكرومِ؛ أي: سقَطَ السَّقفُ ثمَّ سقَطَ عليه الجدارُ.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾؛ أي: يا ليتَني عرفْتُ نِعَمَ الله، وعلِمْتُ أنَّها كانت بقدرةِ الله، ولم أكفُرْ به، وهذا تمنٍّ منه حينَ لا ينفعُه النَّدمُ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

قولُه: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فرقةٌ وجماعةٌ يلتَجِئُ إليهم فينصُرونَه، بل ضلَّ عنهم وذهبَ مَن افتخرَ بهم منَ الخدَمِ والولدِ.

وقال: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ حملًا على معنى الفئةِ؛ إذ لو حَملَ على لفظِ الفئةِ لقالَ: «تنصُرُه»، كقولِه: ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ بأن يَستردَّ مالَه وما ذهَبَ، واشتقاقُ الفئةِ من «فأَوْتُ رأسَه»؛ أي: شقَقْتُه، وكأنَّ الفئةَ: القِطعةُ منَ النّاسِ.

والأظهرُ أنَّ هذَينِ الأخوَين كانا من بني إسرائيلَ.

وقد رُوِيَ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قال في أبي سلَمةَ بنِ عبدِ الأسدِ وأخيه الأسودِ بنِ عبدِ الأسدِ وقد قُطِعَتْ رِجلُه يومَ بدرٍ، وكان كَسَرَ حوضَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ: «الحمدُ لله الذي جعلَ في أمَّتي مثلَ أخوَي بني إسرائيلَ»[1].

وضُرِبَتْ هذه القصّةُ مثلًا بناءً على ما سبقَ من ذكرِ ما أعدَّ الله للكافرِ منَ العذابِ، وللمُؤمنِ منَ الثَّوابِ.

❊ ❊ ❊

(٤٤) - ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

قولُه: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: عند توفيةِ جزاءِ المُطيعِ والعاصي.

﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، قُرِئَ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بفتحِ الواوِ وكسرِها[2].

ثمَّ؛ قيلَ: المعنى واحدٌ كالرَّضاعةِ والرِّضاعةِ.

وقيلَ: الوَلايةُ بالفتحِ منَ المُوالاةِ، وبالكسرِ بمعنى السُّلطانِ والمُلكِ؛ أي: لا يردُّ أمرَه إلى أحدٍ، والمُلكُ في كلِّ وقتٍ لله، ولكنْ تزولُ الدَّعاوَى والتَّوهُّمُ يوم القيامةِ.

---

(١) لم أقف على المرفوع، وورد مقتل الأسود على يد حمزة، وقطع رجله على حوض بدر في «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٢٣)، و«مغازي الواقدي» (١/ ٦٨)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٦٦).

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر الواو والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٣). ويعني بحوض النبي ﷺ: حوض بدر.

﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ بالكسرِ، فهو نعتٌ ﴿لِلَّهِ﴾، ووصفُه بالحقِّ كوصفِه بالعدلِ وبالسَّلامِ؛ أي: هو ذو الحقِّ وذو السَّلامِ.

وقُرِئَ: ﴿الحقُّ﴾ بالرَّفعِ(١)، فـ﴿الحقُّ﴾ نعتُ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، ووصفُ الولايةِ بأنَّها حقٌّ بمعنَى: أنَّه لا يَشوبُها تكديرٌ، وليس فيها عجزٌ وضَعفٌ.

والمعنى: أنَّ يومَ القيامةِ ـ أو: في الموضعِ الذي تجري الآفَةُ الكلِّيَةُ التي(٢) لا يدفعُها مخلوقٌ ـ يَبِينُ لكلِّ ذي عقلٍ أنَّ الحكمَ لله.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾؛ أي: الله خيرٌ ثوابًا في الدُّنيا والآخرةِ لمَن آمنَ به، وليس ثَمَّ غيرُه يُرجَى منه خيرٌ، ولكنَّه أرادَ: في ظنِّ الـجُهّالِ(٣)؛ أي: هو خيرُ مَن يُرجَى.

﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قُرِئَ بضمِّ القافِ وسكونِها(٤)، وهما بمعنًى واحدٍ؛ أي: هو خيرٌ عاقبةً لمَن رجاه وآمنَ به.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

قولُه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: صِفْ لهم شَبَهَ الحياةِ الدُّنيا التي يفتَخِرُونَ بها ﴿كَمَآءٍ﴾؛ أي: هي كماءٍ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: المطر ﴿فَٱخْتَلَطَ

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي بالرفع، والباقون بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٢) في (ج) و(ف): «الموضع التي تجري الآفة الكلية الذي».

(٣) أي: هذا على ادِّعاء الجهال والكفار أنه قد يثيب غيرُ الله. انظر: «البسيط» (١٤/ ٣٢).

(٤) قرأ عاصم وحمزة بإسكان القاف والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: اجتمعَ بسببِ ذلك الماءِ؛ لأنَّ النَّباتَ إنَّما يختلطُ ويكثرُ بالمطرِ ﴿فَأَصْبَحَ﴾؛ أي: النَّباتُ ﴿هَشِيمًا﴾؛ أي: مُتكسِّرًا منَ اليَبْسِ مُتفتِّتًا، يُقالُ: «هَشَمَ الخبزَ»؛ أي: كسرَه في الثَّريدِ ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾؛ أي: تُقلِّبُه الرِّياحُ وترمي به، والذُّروُّ: حملُ الرِّيحِ الشَّيءَ وتبديدُه، يُقالُ: «ذَرَتْه الرِّيحُ تَذرُوه وتَذرِيه»؛ أي: فرَّقَتْه.

والمعنى: أنَّ الدُّنيا سريعةُ الزَّوالِ كهذا النَّباتِ، وهذا ردٌّ عليهم إذ اعتَقَدوا أنَّ الدُّنيا لا تَبيدُ، وأنَّها لا تزالُ على ما ترَى، وكانت أزَلًا هكذا، وهذا مُعتَقَدُ كلِّ كافرٍ يُنكِرُ المبدَأَ والمعادَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ منَ الإنشاءِ والإفناءِ.

* * *

(٤٦) - ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

قولُه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما افتَخَروا به ممَّا يفنَى، وثوابُ الطَّاعةِ لا يفنَى، وهو ردٌّ على عُيينةَ بنِ حصنٍ وأمثالِه لمَّا افتَخَروا بالغِنَى.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: ما يأتي به سلمانُ وصُهَيبٌ وفقراءُ المسلمين خيرٌ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ الصَّلواتِ الخمسَ[1].

وفي روايةٍ: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلّا الله، والله أكبرُ[2].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٥٨)، والمروزي في «الصلاة» (٩٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٦٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٦ ـ ٢٨٠).

وفي الخبرِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ عدَّ هذه الأذكارَ منَ الباقياتِ الصّالحاتِ[١].

وفي روايةٍ: أنَّه عدَّ منها «لا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ»[٢].

وقيلَ: هي جميعُ الحسناتِ[٣].

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾؛ أي: أفضَلُ ثوابًا ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾؛ أي: أفضَلُ أملًا منَ المالِ والبنينَ، وليس في زينةِ الدُّنيا خيرٌ، ولكنَّه خرجَ مخرجَ قولِه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقيلَ: خيرٌ في التَّحقيقِ مـمَّا يظنُّه الجهَّالُ أنَّه خيرٌ في ظنِّهم.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

قولُه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾؛ أي: واذكُرْ يومَ نسيِّرُ الجبالَ.

وقيلَ: والباقياتُ الصّالحاتُ خيرٌ أمَلًا يومَ نُسيِّرُ الجبالَ. **وهذا إنَّما يَحسُنُ** لو

---

(١) ورد ذلك في عدة أحاديث؛ منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧١٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٨٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٤٠). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى... وإسنادهما حسن.

وحديث عثمان رضي الله عنه، رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥١٣)، وإسناده حسن.

وحديث أبي الدرداء رضي الله عنه، رواه الطبراني في «الأوسط» (٣١٧٩)، وفي إسناده كثير بن سليم وهو ضعيف.

(٢) ورد ذلك في عدة أحاديث منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، المتقدم تخريجه في التعليق السابق.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كانَ ليس في اليومِ واوٌ، والغرضُ: تذكيرُ النّاسِ يومَ القيامةِ وما يجري منَ المُحاسبةِ على ما جمعُوا منَ المالِ، وتعريفُهم أنَّه لا ينفعُهم غيرُ الأعمالِ الصّالحةِ.

والتَّسييرُ: جَعلُ الشَّيءِ يسيرُ؛ أي: تسيرُ الجبالُ عن وجهِ الأرضِ كما تسيرُ الجبالُ في الهواءِ، ثمَّ تُكسَّرُ فتعودُ إلى الأرضِ، كما قال: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [الواقعة: ٥ ـ ٦].

قُرِئَ: ﴿تُسَيَّرُ الجبالُ﴾ بالتّاءِ ورفعِ ﴿الجبالُ﴾، وقُرِئَ بالنُّونِ: ﴿نُسَيِّرُ﴾ ﴿الجبالَ﴾ بالنَّصبِ[1].

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ أي: تنظرُ إليها ظاهرةً ليس عليها ما يسترُها من جبلٍ وشجرٍ وبحرٍ، وليس في بطنِها شيءٌ إلّا وقذفَتْه وتخلَّتْ منه.

وقيلَ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ أي: برزَ ما فيها منَ الكنوزِ والأمواتِ.

وقيلَ: لا يبقَى فيها مُستترٌ لأحدٍ، ويُحشرُ النّاسُ في صعيدٍ واحدٍ يرَى بعضُهم بعضًا.

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: حشَرْنا الخلقَ البرَّ والفاجرَ للحسابِ.

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾؛ أي: لم نترُكْ ولم نُخَلِّفْ، ومنه: الغَدرُ؛ لأنَّه تركُ الوفاءِ، والغديرُ: الماءُ الذي غادَرَه المطرُ والسَّيلُ، ومنه: غدائرُ المرأةِ؛ لأنَّها تجعلُها خلفَها.

* * *

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي ونافع، والباقون بالتاء وفتح الياء ورفع اللّام من ﴿الجبال﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٤٨) ـ ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾؛ أي: عُرِضَ المحشُورونَ ﴿صَفًّا﴾؛ أي: مصفُوفينَ كلُّ زمرةٍ وفئةٍ صفٌّ، وأصلُ الصَّفِّ: الظُّهورُ لا يحجُبُ بعضُهم بعضًا، ومنه: «الصَّفْصَفُ» للصَّحراءِ.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: لقد جئتُمونا حُفاةً عُراةً لا مالَ معَكم ولا ولدٌ.

وقال الزَّجّاجُ: أي: بعَثْناكم كما خلَقْناكم[1].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطابٌ لمُنكِري البعثِ؛ أي: زعمتُم في الدُّنيا أن لن تُبعَثُوا.

﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾؛ أي: للبعثِ والجزاءِ.

وقال العلماءُ: يُحشَرُ العبدُ غدًا وله منَ الأعضاءِ ما كان له يومَ وُلِدَ، فمَن قُطِعَ منه عضوٌ يُرَدُّ في القيامةِ عليه، وهذا معنى قولِه عليه السَّلامُ: «يُحشَرُ النّاسُ غدًا عُراةً حُفاةً غُرْلًا»[2]؛ أي: يُرَدُّ عليهم ما قُطِعَ منهم عندَ الختانِ.

* * *

(٤٩) ـ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾؛ أي: في أيمانِ النّاسِ وشمائلِهم.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٩٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: اسمُ جنسٍ، أرادَ: كتبَ أعمالِ الخلقِ.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المُشركينَ ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفينَ ﴿مِمَّا فِيهِ﴾؛ أي: منَ الأعمالِ السَّيِّئةِ.

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾؛ أي: يدعُونَ بالوَيلِ والثُّبورِ لوقُوعِهم في الهلكةِ.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أيُّ شيءٍ لهذا الكتابِ غيرَ مُغادرٍ ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾؟

قال ابنُ عبّاسٍ: الصَّغيرةُ: التَّبسُّمُ، والكبيرةُ: الضَّحكُ ونحوُ هذا[١].

وقيلَ: الكبيرةُ: الشِّركُ، والصَّغيرةُ: ما دونَ ذلك.

وقال ابنُ جُبيرٍ: الكبيرةُ: الزِّنا، والصغيرةُ: اللَّمَمُ[٢].

﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾؛ أي: عدَّدها؛ أي: أُحصِيَتْ وأُثبِتَتْ في الكتابِ، وأُضيفَ الإحصاءُ إلى الكتابِ توسُّعًا.

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾؛ أي: مكتوبًا في الكتابِ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾؛ أي: ما يحلُّ بهم جزاءُ أعمالِـهم.

***

(٥٠) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؛ أي: اذكُرْ يا محمَّدُ قصَّةَ آدمَ وإبليسَ إذ

---

(١) رواه أبو داود في «الزهد» (٣٤٠)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٩٠)، وليس الأمر على إطلاقه كما يوحي سياق المصنف، فإن الرواية عن ابن عباس كما في مصدري التخريج: «الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة القهقهة بذلك».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٦)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٤).

قُلنا للملائكةِ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾، وبيَّنَ أنَّ إبليسَ هو الذي يُوسوِسُ إليهم بالمعاصي وهو عدوٌّ، فلا ينبَغي أن يُغترَّ به.

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ قيلَ: الجنُّ جنسٌ منَ الملائكةِ، سُمُّوا جنًّا لاستتارِهم منَ الأبصارِ؛ لأنَّهم خُزَّانُ الجنانِ، ودليلُ أنَّه كانَ من الملائكةِ هذا الاستثناءُ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّه من قَبيلٍ منَ الملائكةِ يُقالُ لها: الجِنُّ، وكان يَسُوسُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فعصى الله فمسَخَه شيطانًا رجيمًا[1].

وفي روايةٍ عنه: أنَّه كانَ ملَكًا اسمُه[2] عزازيلُ، وكان من سكَّانِ الأرضِ وعُمَّارِها، وكان سكّانُ الأرضِ منَ الملائكةِ يُسمَّونَ الجِنَّ[3].

وقيلَ: لفظُ الجنِّ ينطلقُ على الملائكةِ لاجتِنانِهم عنِ الأبصارِ، قال الله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]؛ أي: الملائكةِ؛ لأنَّ منَ العربِ مَن قالَ: الملائكةُ بناتُ الله.

وقيلَ: كان إبليسُ منَ الجنِّ الذين هم من قَبيلِ الشَّياطينِ، وقولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ استثناءٌ من غيرِ الجنسِ.

وقيلَ: كان منَ الجنِّ الذينَ ظفرَ بهم الملائكةُ، وهو أصلُ الجنِّ كما أنَّ آدمَ أصلُ الإنسِ، وقد قال الله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، وأخبرَ عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فقولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: امتَنعَ منَ السُّجودِ لأنَّه كانَ منَ الجنِّ الذين خُلِقُوا منَ النّارِ، فأنِفَ أن يسجُدَ لمن خُلِقَ منَ الطِّينِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٤).

(٢) في (أ): «ملكا يقال له».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٣٦)، و(١٥/ ٢٨٦)، وابن الأنباري في «الأضداد» (ص: ٣٣٤).

ووجهُ النَّظمِ: أنَّ هؤلاءِ الذين توهَّـمُوا أنَّ الفضيلةَ بكثرةِ المالِ والأعراضِ ضلُّوا كما ضلَّ إبليسُ إذ توهَّمَ[1] أنَّ الفضيلةَ لجوهرِ النّارِ.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: خرجَ عن طاعتِه إلى معصيتِه.

وقيلَ: أي: صارَ فاسقًا عن ردِّ أمرِ ربِّه؛ أي: بسببِ ردِّ أمرِ ربِّه، تقولُ: «كسَوتُه عن عُريٍ، وأطعمتُه عن جوعٍ»؛ أي: كانَ الإطعامُ بسببِ الجوعِ.

وقيلَ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: بقضائِه وقَدَرِه، كما يُقالُ: كان هذا عن قضاءِ الله وعن أمرِه؛ أي: بقضائِه وأمرِه.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾؛ أي: أفتتَولَّونَهم بالطّاعةِ لهم ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ والوجهُ: أن يُخالِفَ العدوُّ عدوَّه ويتَّهمَه.

وذُرِّيَّةُ إبليسَ: أولادُه ونَسلُه.

قال الشَّعبيُّ: سألَني رجلٌ فقال: هل لإبليسَ زوجةٌ؟ فقلتُ: إنَّ ذلك عرسٌ لم أشهَدْه، ثمَّ ذكرتُ قولَه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، فعلِمْتُ أنَّه لا يكونُ ذُرِّيةٌ إلّا من زوجةٍ، فقلتُ: نعم[2].

وقال مُجاهدٌ: إنَّ إبليسَ أدخلَ فرجَه في فرجِ نفسِه فباضَ خمسَ بيضاتٍ، فهذا أصلُ ذُرِّيَّتِه[3].

---

(١) بعدها في (أ): «معصية».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٧٥)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ٩٣)، ورواه بنحوه ابن الجوزي في «أخبار الظراف» (٥٤).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٨٢) بلفظ: «باض إبليس خمس بيضات» ثم ذكر أسماءهم ومهامهم.

وقال قومٌ: ليس له أولادٌ وذُرِّيَّةٌ، وذُرِّيَّتُه أعوانُه منَ الشَّياطينِ.

والجملةُ: أنَّ الله أخبرَ أنَّ لإبليسَ أتباعًا وذُرِّيَّةً، وأنَّهم يُوسوسُونَ إلى بني آدمَ، وهم أعداؤُهم، **ولا ثبَتَ عندنا في كيفيَّةِ التَّوالدِ منهم وحدوثِ الذُّرِّيَّةِ عن إبليسَ، فيتوقَّفُ الأمرُ فيه على نقلٍ صحيحٍ.**

ومعنَى اتِّخاذِ بني آدمَ أولياءَ منَ الشَّياطينِ: طاعتُهم للشَّياطينِ في معصيةِ الله.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾؛ أي: بئسَ عبادةُ الشَّيطانِ بدلًا عن عبادةِ الله، أو: بئسَ إبليسُ بدلًا عنِ الله.

* * *

(٥١) ـ ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾.

قولُه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: ما أشهَدْتُ إبليسَ وذُرِّيَّتَه؛ أي: لم أُشاوِرْهُم في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ ولا في خلقِ أنفُسِهم، بل خلقتُهم على ما أردتُ، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾؛ أي: الشَّياطينَ، فكيف عبَدُوهم؟ وعلى هذا سُمَّى إبليسَ وذُرِّيَّته مُضلِّينَ لبني آدمَ قَبلَ خلقِ بني آدمَ لعلمِه أنَّهم يفعلونَه.

﴿وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: ولا خلقَ إبليسَ وذُرِّيتِه؛ أي: كوَّنتُهم فكانُوا، فكيف يعبُدونَ المخلوقَ؟!

وقيل: أي: ما أشهَدْتُ إبليسَ وذُرِّيته خلقَ السَّماواتِ والأرضِ ولا خلقَ أنفُسِ هؤلاءِ المُشركينَ، فكيفَ اتَّخذوهم أولياءَ من دوني؟!

وقيلَ: الكنايةُ في قولِه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ ترجعُ إلى المُشركينَ؛ أي: لم أُشهِدْهم

خلقَ السَّماواتِ، وفيه رَدٌّ على المُنجِّمةِ، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو ردٌّ على المُتطبِّبةِ؛ أي: لـم أستَعِنْ بهم في شيءٍ من خَلْقي، بل خلقتُهم من ماءٍ مَهينٍ، وما كنتُ لأعتضدَ بهم فيما أخلقُ.

والمُرادُ: لا تتوهَّموا أنَّهم إذا أسلَمُوا كان منهم عَونٌ، وينظرُ النّاسُ إليهم فيُسلِمون لأنَّهم أقلُّ من ذلك.

وقيلَ: المُضِلُّ بمعنَى الضّالِّ؛ أي: أصحابُ ضلالٍ، كما يُقالُ: «خبيثٌ مُخبِثٌ».

ورُوِيَ: ﴿ما كنْتَ﴾ بالفتحِ[1] يا محمَّدُ ﴿مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

والعَضْدُ: قوامُ اليدِ، واعتَضَدْتُ بفلانٍ؛ أي: استَعَنْتُ به، والله لا يحتاجُ إلـى عونِ أحدٍ، وخصَّ المُضلِّينَ بالذِّكرِ لزيادةِ الذَّمِّ والتَّوبيخِ.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

قولُه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أخبرَ أنَّ ما اتَّخذوه مـن دونِه أولياءَ لا ينفعُهم يومَ القيامةِ.

قُـرِئَ: ﴿يَقُولُ﴾ بالياءِ والنُّونِ[2]، فمَن قـرأ بالياءِ قال: يقولُ الله لهم: نادُوا شُرَكائيَ؛ أي: بزَعمِكُم ليدفعُوا عنكم عذابي.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾؛ أي: فعلُوا ذلك ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾؛ أي: لـم يُجيبُوهم إلـى نصرِهم، ولـم يكُفُّوا عنهم شيئًا.

---

(١) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣١١).

(٢) قرأ حمزة بالنون والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال أنسٌ: هو وادٍ في جهنَّمَ من قيحٍ ودمٍ[(١)].

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: جعَلْنا بينَ المُؤمنينَ والكفّارِ حاجزًا[(٢)].

وفي روايةٍ: مَهلِكًا[(٣)].

وقيلَ: جعَلْنا تواصُلَهم في الدُّنيا مَوبقًا؛ أي: مَهلِكًا لهم في الآخرة، والبَينُ بمعنَى التَّواصلِ على هذا، فانتصَبَ على أنَّه مفعولٌ به لا على الظَّرفِ، والكنايةُ ترجعُ إلى المُشركينَ.

وقال الزَّجّاجُ: وجعَلْنا بينَهم منَ العذابِ ما يُوبِقُهم[(٤)]. فالبَينُ على هذا ظرفٌ.

والموبقُ على القولَينِ مصدرٌ؛ أي: جعَلْنا تواصُلَهم في الدُّنيا هلاكًا لهم في الآخرةِ؛ أي: سببَ هَلاكٍ.

وقيلَ: أدخَلْنا المُشركينَ والشَّياطينَ النّارَ، وجعَلْنا بينَهم قِطَعًا منَ النّارِ.

***

(٥٣) ـ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾؛ أي: نظرَ المُشركونَ إلى النّارِ ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أيقَنُوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[(٥)].

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (١٨٠٩)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٨)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٣٨٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٢) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٦٧).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٩٥).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٢) عن ابن عباس ومجاهد.

وقيلَ: رأوها من مكانٍ بعيدٍ فتوهَّموا أنَّهم مُواقِعُوها وظنُّوا أنَّها تأخذُهم في الحالِ، وفي الخبرِ: «إنَّ الكافرَ ليَرى جهنَّمَ ويظنُّ أنَّها مُواقِعتُه من مسيرةِ أربعينَ سنةً»[١].

والمُواقَعةُ: مُلابسةُ الشَّيءِ بشدَّةٍ.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾؛ أي: أحاطَتْ بهم من كلِّ جانبٍ فلم يجِدُوا منها مَهرَبًا.

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾؛ أي: بيَّنَّا الحقَّ فأبَوا من كثرةِ الجدالِ بالباطلِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يُريدُ به النَّضرَ بنَ الحارثِ وجدالَه في القرآنِ[٢].

وقيلَ: الآيةُ في أُبيِّ بنِ خلَفٍ[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧١٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٨٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣٦): «رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن على ما فيه من ضعف».

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٧)، عن الكلبي.

وقال الزَّجّاجُ: أي: الكافرُ ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

وقال عليٌّ: طرَقَنا رسولُ الله ﷺ أنا وفاطمةُ فقال: «ألا تُصلُّونَ؟» فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّما أنفُسُنا بيدِ الله، فإذا شاءَ أن يبعثَنا من منامِنا بعثَنا، فانصرفَ وهو يقولُ ويضربُ يدَه على فخذِه: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤][2].

* * *

(٥٥) - ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: جاءَهم ما إن استدَلُّوا به اهتَدَوا.

﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: منعَهم منَ الاهتِداءِ أنَّهم طلَبُوا أن ينزلَ عليهم منَ الآياتِ ما حُكمي في مثلِه أنَّهم إن لم يُؤمِنُوا به وقعَ عذابُ الاستئصالِ، والمُرادُ: منعَهم عن الإيمانِ حُكمي، ولو حكَمْتُ لهم بالإيمانِ آمَنُوا.

وقيلَ: سنّةُ الأوَّلين: أنَّهم عايَنُوا العذابَ، فطلبَ المُشركونَ ذلك، وقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢].

﴿أو يأتيهمُ العذابُ قِبَلًا﴾؛ أي: عِيانًا ومُقابلةً.

وقُرِئَ: ﴿قُبُلًا﴾ بضمِّ القافِ والباءِ[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٩٦)، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

(٢) رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

(٣) وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي، والباقون بكسر القاف وفتح الباء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

ثمَّ؛ قيلَ: معنى ﴿قُبُلًا﴾؛ أي: مُقابلةً.

وقيلَ: ﴿قُبُلًا﴾: جمعُ «قَبيلٍ»؛ أي: يأتيهم العذابُ قَبيلًا قَبيلًا؛ أي: صِنفًا صِنفًا.

***

(٥٦) - ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ أي: نُرسلُهم لهذا لا ليُقترَحَ عليهم الآياتُ التي تُوجِبُ العلمَ الضَّروريَّ.

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ فيطلُبونَ الآياتِ على حسبِ أهوائِهم.

﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾؛ أي: ليُبطِلُوا، والإِدحاضُ: الإذهابُ، و«دَحَضَتْ رِجلُه»؛ أي: زَلَّتْ، و«دَحَضَتْ حُجَّتُه»؛ أي: بطَلَتْ، وفي الخبرِ: أنَّه كان عليه السَّلامُ يُصلِّي الأولى حينَ تدحَضُ الشَّمسُ؛ أي: تزولُ عن كبدِ السَّماءِ.

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾؛ أي: القرآنَ ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾؛ أي: الإنذارَ، و(ما) بمعنى المصدرِ.

وقيلَ: بمعنى «الذي»؛ أي: اتَّخذوا القرآنَ والذي أُنذِرُوا به منَ القيامةِ ﴿هُزُوًا﴾.

والهُزْءُ: مصدرٌ يُوصَفُ به؛ أي: قالوا: إنَّه سحرٌ وأضغاثُ أحلامٍ وأساطيرُ الأوَّلينَ، وقالوا للرَّسولِ: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، و﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، و﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

***

(٥٧) ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ ممَّن وُعِظَ بآياتِ ربِّه فتهاوَنَ بها ونسيَ ما أسلَفَ من ذُنوبِه، ومعنى النِّسيانِ هاهُنا: تركُ الفكرِ فيما قدَّمَ من سوءِ الأعمالِ.

وقيلَ: المعنى[1]: [نسيَ] ما قدَّمَ لنفسِه وحصَّلَ منَ العذابِ.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ بيَّنَ سببَ كُفرِهم؛ أي: نحنُ منَعْنا الإيمانَ من أن يدخُلَ قلوبَهم وأسماعَهم.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾؛ أي: إلى الإيمانِ ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ نزَلَ في قومٍ مُعيَّنين.

* * *

(٥٨) ـ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾.

قولُه: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾؛ أي: لـم يُعاجِلْهم بالعقوبةِ، فهو نوعُ رحمةٍ وسترٍ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾؛ أي: هم أهلٌ للعذابِ.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾؛ أي: وقتٌ للعذابِ إذا حلَّ لـم يتأخَّرْ عنهم إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرةِ ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾؛ أي: مَلجأً، من: وأَلَ يئِلُ وَأْلًا ووُؤُولًا.

* * *

---

(١) في النسخ: «معنى»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣١٢) حيث نقلَ عن المصنف هنا، وما سيأتي بين معكوفتين منه.

(٥٩) - ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

قولـه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾؛ أي: أهلَـكْنا أهلَـها، ولذلـك قـال: ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾.

﴿وجعلنا لمُهْلَكِهم موعدًا﴾؛ أي: كان لـهلاكِهم وقتٌ معلومٌ مُقدَّرٌ، والمُهلَكُ بضمِّ الميمِ و[فتحِ] اللّامِ[1]، وهو مصدرٌ، ويجوزُ أن يكونَ وقتَ الإهلاكِ.

وقُرِئَ: ﴿لمَهلَكِهم﴾ بفتحِ الميمِ واللّامِ، وهو مصدرٌ أُضيفَ إلى الفاعلِ.

وقُرِئَ: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ بفتحِ الميمِ وكسرِ اللّامِ[2]، والمَهلِكُ: اسمُ الزَّمانِ، ويجوزُ أن يكونَ مصدرًا، فقد جاء المصدرُ من بابِ فعَلَ يفعِلُ بكسرِ العينِ، مثلَ ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٥]، و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿مَّوْعِدًا﴾؛ أي: أجلًا.

***

(٦٠) - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ ثمَّ ذكرَ منَ القصصِ ما عُلِمَ أنَّ محمَّدًا عليه السَّلامُ لـم يعلَمْه إلّا بوحيٍ ليكونَ إحدى آياتِه، وليدُلَّـهم على طرح العُجْبِ[3] والتَّكبُّرِ، فإنَّ موسى أُمِرَ باتِّباعِ الخضرِ والتَّعلُّمِ منه حينَ احتاجَ إلى التَّعلُّمِ.

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق، وقوله: «واللام» من (أ) وليس في باقي النسخ.

(٢) قرأ أبو بكر بفتح الميم واللام، وحفص بفتح الميم وكسر اللام، وباقي السبعة بضم الميم وفتح اللام. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٣) في (ف): «التعجب».

والأظهرُ: أنَّ موسى صاحبَ الخضرِ هو موسى بنُ عمرانَ.

وقال قومٌ: هو موسى بنُ ميشا بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ، كان هو أيضًا نبيًّا قبلَ موسى بنِ عمرانَ[١].

وتعلُّمُ موسى منَ الخضرِ لا يدُلُّ على أنَّ الخضرَ كان أفضلَ منه، فقد يَشِذُّ عن الفاضلِ ما يعلَمُه المفضولُ، والفضلُ لمن فضَّلَه الله، **فلا قطعَ من حيثُ العقلُ في تفضيلِ موسى على الخضرِ والخضرِ على موسى، وكذا في الملائكةِ وإنْ علَّمَ آدمَ الأسماءَ ولـم تعرِفْها الملائكةُ.**

وفي الخبرِ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ بروايةِ أُبيِّ بنِ كعبٍ: أنَّ موسى كان في ملأٍ من بني إسرائيلَ، فجاءَه رجلٌ فقال: هل تعلمُ أحدًا أعلمَ منك؟ فقال: لا، فأوحَى الله إليه: بلى، عبدُنا خضرٌ، فسألَه[٢] موسى السَّبيلَ إلى لُقِيِّه، فجعلَ الله له الحوتَ آيةً وقيلَ له: إذا فقَدْتَ الحوتَ فارجِعْ فإنَّك ستَلقاهُ[٣].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ﴾؛ أي: واذكُرْ إذ قال موسى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ هو يوشعُ بنُ نونٍ، وسُمِّيَ فتى موسى لأنَّه لزِمَه ليتعلَّمَ منه وإنْ كان حرًّا.

﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾؛ أي: لا أزالُ، يُقالُ: «ما برِحْتُ أفعلُ كذا»؛ أي: ما زِلْتُ، ومنه: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: ٩١]؛ أي: لن نزالَ، يُقالُ: «برِحَ الرَّجلُ براحًا»؛ أي:

---

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، عن سعيد بن جبير قال: قُلتُ لابن عباس: إنَّ نَوفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُم أَنَّ موسى عليه السَّلام صاحبَ بني إسرائيلَ ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السَّلام، فقال: كذَب عَدُوُّ الله، سمعتُ أُبيَّ بن كعب يقولُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «قام موسى عليه السَّلام خطيبًا...» الحديث.

(٢) في (ج): «فسأل».

(٣) رواه البخاري (٧٤)، ومسلم (٢٣٨٠).

زالَ مـن موضِعِـه، فقولُك: «مـا برحَ يفعلُ كـذا»؛ أي: أقـامَ يفعَلُ كذا.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: لا أبرحُ أمضي حتَّى أبلُغَ، فعلى هذا «لا أزالُ» و«لا أزولُ» واحدٌ؛ أي: أُقيمُ ماضِيًا، يُقالُ: «زالَ يزالُ ويزولُ»، مثلَ «دامَ يدامُ ويدومُ»، و«ماتَ يماتُ ويموتُ»، فقولُه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾؛ أي: لا أزولُ عن الطَّلبِ، ثمَّ كثُرَ استعمالُه حتَّى قيلَ: «والله أزالُ أفعَلُ كذا»، ومنه ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]؛ أي: لا تفتأُ.

﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ هو مُلتَقى البحرَينِ العذبِ والمالحِ.

وقال قتادةُ: يعني: بحرَ فارسَ وبحرَ الرُّومِ(١).

ورُوِيَ عن ابنِ عبّاسٍ أنَّه قال: مَجمَعُ البحرَينِ: الخضرُ وإلياسُ، فإنَّهما بحرانِ في العلمِ(٢).

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾؛ أي: أسيرَ دهرًا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿حُقُبٗا﴾؛ أي: حَوْلًا(٣)، وفي روايةٍ: سبعينَ خريفًا(٤).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٩٣)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٨).

(٢) ذكره عن ابن عباس أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ١٠٤)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٣٢٢) عن السدي. وهذا قول مردود بنص القرآن حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، وحكى القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٣١٦) عن فرقة: أنهما موسى والخضر، قال: وهذا قول ضعيف، وحكي عن ابن عباس ولا يصح، فإن الأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما رُسم له بحر ماء. وقال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٤٠٨): وهذا غير ثابت ولا يقتضيه اللفظ.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٦) بلفظ: «دهراً».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤١٣) من رواية مجاهد عن ابن عباس. ورواه الطبري في =

وقيلَ: الحقبةُ ثلاثونَ سنةً.

وقيلَ: ﴿أَوۡ﴾ بمعنَى «حتَّى»؛ أي: لا أزالُ أسيرُ وإن احتَجْتُ إلى أن أسيرَ سنينَ حتَّى أبلُغَ مجمَعَ البحرَينِ[1]، فـ﴿أَوۡ﴾ هاهُنا هي النّاصبةُ للفعلِ بإضمارِ «أنْ»، كقولك: «لا أُفارِقُكَ أو تقضِيَني حقِّي»؛ أي: إلى أن تقضِيَني حقِّي.

***

(٦١) ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: كان فيما تزَوَّدُوا حوتٌ مملوحٌ في زَبِيلٍ[2]، وكانا يُصيبانِ منه غداءً وعشاءً، فلما انتَهَيا إلى الصَّخرةِ على ساحلِ البحرِ وضعَ فتاه المكتلَ فأصابَ الحوتَ جريُ البحرِ فتحرَّكَ في المكتلِ، فقُلِبَ المكتلُ، وانسرَبَ في البحرِ، ونسيَ الفتى أن يذكرَ قصّةِ الحوتِ لموسى[3].

ورَوَى أُبيٌّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لمّا أرادَ موسى أن يطلُبَه قال له الله: تزوَّدْ

= «تفسيره» (١٥/ ٣١٠) من قول مجاهد.

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٦٩) عن صاحب «النظم» ـ وهو الجرجاني ـ أنه قال: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى: حتى، مثل قولك: «لا آتيك أو تكرمَني»، فيرجع تأويل الآية: لا أبرح ماضيًا إلى أن أمضي حقبًا حتى أبلغ مجمع البحرين.

قال: ونظير هذا في الكلام أن تقول: «لا أزال إلى أن أسير سنة حتى أقضي حاجتي». ومعنى «إلى أن أسير سنة»: وإن احتجتُ إلى أن أسير سنة. وعلى ما ذكر يكون في الآية تقديم وتأخير.

(٢) في «سنن النسائي الكبرى»: «زنبيل» وهما لغتان، وهي القفة الكبيرة. انظر: «مشارق الأنوار» للقاضي عياض (مادة: زبل).

(٣) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٤٣).

معك مالِحًا، فحيثُ تفقِدُ الحوتَ فثَمَّ تجدُ هذا الرَّجلَ، فلما أَتَيا الصَّخرةَ قال موسى لفَتاه: امكُثْ حتَّى آتيَكَ، وانطلَقَ موسى لحاجتِه، فجرَى الحوتُ حتَّى وقعَ في البحرِ، ونسيَ فتاه أن يذكُرَه له، قال: وجعلَ الحوتُ لا يُصيبُ شيئًا منَ الماءِ إلا جـمَدَ حتَّى اتَّخذَ سبيلَه في البحرِ سرَبًا شبهَ الثَّقْبِ»(١).

وقيلَ: بقيَ الموضعُ الذي دخلَ فيه الحوتُ في البحرِ كالكُوَّةِ.

وقال الكلبيُّ: كان عند الصَّخرةِ التي نزَلا عندَها عينُ ماءٍ، فتوضَّأَ يوشعُ بنُ نونٍ من ذلك الماءِ فانتضَحَ منه شيءٌ على الحوتِ في المكتلِ فعاشَ، فانسَرَبَ في البحرِ، وشبَّهَ الموضعَ الذي دخلَه الحوتُ في البحرِ بالسَّرَبِ(٢).

ثمَّ قيلَ: إنَّ الله كان أخبرَه أنَّ الخضِرَ بمجمعِ البحرَين، ولكنْ لـم يُعلِمْه موضعَه منَ المجمَعِ.

وقيلَ: لـم يُخبِرْه أنَّه بمجمَعِ البحرَين، بل أمرَه أن يسيرَ حتَّى يُبيَّنَ له الموضعُ بالحوتِ، فبانَ بمجمَعِ البحرَينِ(٣).

وقيلَ: كانت العلامةُ أن يحيا الحوتُ.

---

(١) رواه هكذا الحنائي في «فوائده» (١/ ٦٢٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٧١). ولحديث أبي رضي الله عنه روايات كثيرة، منها في البخاري (٧٤) و(٣٤٠١) و(٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٧٢).

(٣) وهـذا مـردود بمـا رواه البخاري (١٢٢)، ومسـلم (٢٣٨٠)، من حديـث أبيٍّ، وفيـه: «... فأَوْحَى اللهُ إليـه: أنَّ عبـدًا مـن عبـادي بمجمع البحريـن هو أعلـمُ منـك...». ومردود أيضـاً بنص القـرآن حيث قال موسـى مـن بدايـة القصـة: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ فلو لم يؤمر بمجمـع البحرين ما قالـه هكذا.

وقيلَ: نزلَ موسى بعدَما جهدَه السَّفرُ على صخرةٍ إلى جنبِه ماءُ الحياةِ، فأصابَ الحوتَ شيءٌ من ذلك الماءِ فحيِيَ(١).

قال ابنُ عبّاسٍ: وكان هذا بعد أن أنزلَ موسى قومَه مصرَ، وكلَّمَه الله واصطَفاه، فقيلَ له: هل في الأرضِ أعلمُ منك؟ فقال: لا، فأوحى الله إليه: وما يُدريكَ أين أضعُ علمي؟ إنَّ على شطِّ البحرِ رجلًا هو أعلَمُ منك، وهو الخضرُ، فقال: أُحِبُّ أن أراه، فقال له: ايتِ البحرَ، فإنَّك تجدُ على الشَّطِّ حوتًا فادفَعْه إلى فتاكَ، ثمَّ الزَمْ شطَّ البحرِ، فإذا نسيتَ الحوتَ فثَمَّ تجدُ العبدَ الصّالحَ(٢).

وقيلَ: الحوتُ الذي جُعِلَ علامةً حوتٌ كان يُسايرُهما في الماءِ، وكانا يتبعانِ أثرَه(٣).

وعلى القولِ الأوَّلِ: اتَّبعا أثرَه بعد أن اتَّخذَ سبيلَه في البحرِ سرَبًا، وبقيَ الأثرُ كالكُوّةِ في الماءِ.

وقيلَ: دخلَ موسى في السَّرَبِ عقيبَ الحوتِ.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ أي: نسيَ يوشعُ، كقولِه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وإنَّما الرُّسلُ منَ الإنسِ لا منَ الجنِّ، وقولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنَّما يخرجُ منَ المِلْحِ، ولهذا قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص: ٣٠٠) عن الكلبي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٣).

(٣) وهذا أيضاً مردود بما رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبيٍّ، وفيه: «... قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به؟ قال: تأخذُ معك حوتًا فتجعلُه في مِكتلٍ، فحيثما فَقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله في مِكتلٍ، ثُمَّ انطلق...».

وقيلَ: نسيَ يوشعُ أن يُقدِّمَ الحوت، ونسيَ موسى أن يأمرَ فيه بشيءٍ.

وقيلَ: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ أي: ذهابًا على وجهِه، من سرَبَ يسرُبُ.

***

(٦٢ - ٧٠) - ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾؛ أي: ذلك المكانَ دعا موسى بالطَّعامِ.

والغداءُ: الطَّعامُ الذي يُؤكَلُ بالغداةِ، والنَّصَبُ: الإعياءُ والتَّعبُ.

قولُه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ كلمةٌ وُضِعَتْ لتنبيهِ المسؤولِ عمّا يسألُ[1] عنه؛ أي: اسمَعْ وتفهَّمْ؛ فإنِّي نسيتُ الحوتَ ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾؛ أي: حينَ نزَلْنا هُناكَ.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾؛ أي: نسيتُ أن أُحدِّثَكَ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وذلك أنَّه لو ذكرَ لموسى قصَّةَ الحوتِ عند الصَّخرةِ لَـمَا نالَه النَّصَبُ.

ثُمَّ ذكرَ أنَّ الحوتَ اتَّخذَ سبيلَه في البحرِ عجبًا، فعجَّبَ الفتى موسى مـمَّا ظهرَ في الماءِ من هيئةِ الطّاقِ والسَّرَبِ والكُوَّةِ.

---

(١) في (أ): «سئل».

وقيلَ: وجهُ التَّعجُّبِ أنَّهما أكلا منَ الحوتِ مدّةً ثمَّ صارَ حيًّا.

وقيلَ: أي: اتَّخذَ سبيلَه سبيلًا عجبًا.

قولُه: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى انسرابِ الحوتِ؛ أي: هذا الذي كنّا نطلبُه ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾؛ أي: رجَعا في الطَّريقِ الذي جاءا منه ﴿قَصَصًا﴾؛ أي: يَقُصَّانِ أثرَهما قَصَصًا، والقصَصُ: اتِّباعُ الأثرِ، ومنه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، ومنه: قصصُ الحديثِ؛ لأنَّه شيءٌ يتبعُ بعضُه بعضًا.

ثمَّ، قيلَ: عادَ إلى موضعِ الصَّخرةِ التي عندَها انسرَبَ الحوتُ في البحرِ، فوجدَ الخضرَ هناك يُصلِّي، وقيلَ: مُلفَّفًا في كساءٍ، وقيلَ: مُستَلقيًا.

وقيلَ: عادَ إلى الصَّخرةِ، ثمَّ أخذَ موسى أثرَ الحوتِ وهما يمشيانِ على الماءِ، فرأيا الخضرَ على طِنْفِسةٍ خضراءَ على وجهِ الماءِ.

وقيلَ: انتَهيا إلى جزيرةٍ فرأيا الخضرَ.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ قال قومٌ: هو عبدٌ صالحٌ، **والصَّحيحُ**: أنَّه كان الخضرَ، وبهذا ورَدَ الخبرُ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ[1].

قال مجاهدٌ: سُمِّيَ الخضرَ لأنَّه إذا صلَّى اخضَرَّ ما حولَه[2].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ قيلَ: نبوّةً، وقيلَ: نعمةً.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو علمُ الغيبِ، **والأظهرُ أنَّ الخضرَ نبيٌّ**، وقيلَ: وَليٌّ.

---

(١) ورد ذلك في حديث أبي المتقدم عند البخاري ومسلم.

(٢) رواه عنه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٣٤٦)، وقد روى البخاري (٣٤٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». والفروة: قِطْعة نبات مجتمعة يابسة.

وقيلَ: ملكٌ منَ الملائكةِ.

قولُه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ في روايةِ أُبيٍّ بنِ كعبٍ: فإذا رجلٌ مُسجًّى عليه ثوبٌ، فسلَّمَ، فقال: أنَّى بأرضِك السَّلامُ؟ فقال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم، قال: يا موسى، السَّلامُ عليك، إنِّي على علمٍ من علمِ الله علَّمَني لا تعلَمُه، وأنتَ على علمٍ من علمِ الله علَّمَكَه لا أعلَمُه، فقال: إنِّي أُريدُ أن أتَّبِعَك على أن تُعلِّمَني[(١)].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: لـمَّا قال موسى: السَّلامُ عليك، قال: وعليك يا نبيَّ بني إسرائيلَ، قال: مَن أعلَمَك أنِّي نبيُّ بني إسرائيلَ؟ قال: الذي أعلَمَكَ أنِّي هاهُنا[(٢)].

فقال موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾؟ فقال الخضرُ: قد كان لك في التَّوراةِ علمٌ، وفي بني إسرائيلَ شغلٌ، ثمَّ قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[(٣)].

قُرِئَ: ﴿رَشَدًا﴾ بفتحِ الرّاءِ والشِّينِ، وقُرِئَ بضمِّ الرّاءِ وسكونِ الشِّينِ[(٤)]، وهما لغتانِ، كالنَّحَل والنُّحْلِ.

---

(١) قطعة من حديث أبي المتقدم عند البخاري ومسلم.

(٢) إلى هنا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٠٠) من رواية ابن عباس عن أبي رضي الله عنه، وبنحوه عبد بن حميد عن الربيع بن أنس كما ذكر الحافظ في «الفتح» (٨/ ٤١٧)، وقال: وهذا إن ثبت فهو من الحجج على أن الخضر نبي، لكن يُبعد ثبوته قوله في الرواية التي في الصحيح: «مَن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟» الحديث

(٣) هذه القطعة ذكرها الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٦٦٨) من رواية عبيد بن عمير يرفعه. وروى نحوها عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٩٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) قرأ أبو عمرو بفتحتين، وباقي السبعة بضم فسكون. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

وقُرِئَ: (رُشُدًا) بضمِّهما، كالنُّكْرِ والنُّكُرِ[1].

﴿رُشْدًا﴾ نصبٌ لأنَّه مفعولٌ له؛ أي: للرُّشدِ، ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا به؛ أي: على أن تُعلِّمَني أمرًا ذا رُشْدٍ.

قولُه: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: يَثقُلُ عليك الصَّبرُ؛ لأنَّ موسى كان يعملُ بما ظهرَ له منَ العدلِ، والخضرُ كان يعملُ بما علمَ منَ الغيبِ.

قولُه: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؛ أي: على ما ظاهرُه مُنكَرٌ، والأنبياءُ لا يُقِرُّونَ على مُنكرٍ، ولا يجوزُ لهم التَّقريرُ؛ أي: لا يسعُك السُّكوتُ جَرْيًا على مُعتَقَدِكَ.

﴿خُبْرًا﴾ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: على ما لم تُخبَرْه خبرًا، والـخُبْرُ: العلمُ بالشَّيءِ، وليس منَ الخبرِ بمعنى التَّجربةِ، فإنَّ الإحاطةَ تُستعمَلُ في العلمِ لا في التَّجربةِ.

قولُه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾؛ أي: سأصبرُ بمشيئةِ الله ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾؛ أي: قد ألزَمْتُ نفسي طاعتَكَ، والاستِثناءُ المُتقدِّمُ شاملٌ لهذا أيضًا، كقولِه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقيلَ: استثنَى في الصَّبرِ فصبرَ ولم يقبِضْ على يدِ الخضرِ، وما استثنَى في قولِه: ﴿وَلَآ أَعْصِي﴾ فعصاه وسألَه.

---

(١) هي رواية عن ابن عامر على خلاف المشهور عنه، ذكرها عنه ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٢٩٣ ـ ٢٩٤)، وابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، والأزهري في «معاني القراءات» (١/ ٤٢٣)، وأبو علي الفارسي في «الحجة» (٤/ ٧٨)، وذكرها أبو عمرو الداني في «تحبير التيسير» (٣/ ١١٤) من رواية التغلبي عن ابن ذكوان، وكباقي السبعة روى الأخفش وسائر الرواة عن ابن ذكوان وابن عتبة والوليد وهشام بإسناده عن ابن عامر.

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ مـمَّا أفعلُ ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾: حتَّى أكونَ أنا الذي أُفسِّرُه لك في وقتِه.

* * *

(٧١ ـ ٧٣) ـ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾.

قولُه: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ قال أُبيٌّ في روايتِه: فانطَلَقا يمشِيانِ على السّاحلِ، فمرَّتْ بهما سفينةٌ فعرفُوا الخضرَ، فحملوه بغيرِ نَوْلٍ[1]، فلم يفجَأْ موسى منه إلّا وهو ينزِعُ لوحًا من ألواحِ السَّفينةِ، فقال موسى: ما صنَعْتَ؟ قومٌ حملُونا بغيرِ نَوْلٍ عمَدْتَ إلى سفينتِهم فخرَقْتَها لتُغرِقَ أهلَها[2].

وقيلَ: كانت سفينةً جديدةً فخرَقَها الخضرُ بمنقارٍ معه، ثمَّ طبقَ عليها لوحًا.

قال أبو العاليةِ: لـم يرَ الخضرَ في تلك الحالةِ غيرُ موسى، وكان عبدًا لا تراه[3] إلّا عينُ مَن أرادَ الله أن يُرِيَه إيّاه، ولو رآه القومُ لمَنعُوه من خرقِ السَّفينةِ[4].

وقيلَ: خرجَ أهلُ السَّفينةِ إلى جزيرةٍ، وتخلَّفَ الخضرُ فخرَقَ السَّفينةِ.

---

(١) (نول) النَّوْل: العطية والجعل. تقول: نِلْت الرجل أنوله نولًا: إذا أعطيته، ونلت الشيء أناله نيلًا: وصلت إليه. انظر: «جامع الأصول» (٢/ ٢٢٠).

(٢) جزء من حديث أبي المتقدم عند البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) في (ج): «لا يراه».

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٨)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٩٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٢٥) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ أي: ركبا البحرَ في السَّفينةِ، والسَّفينةُ منَ السَّفْنِ، وهو القَشْرُ، سُمِّيَتْ سفينةً لسَفْنِها وجهَ الماءِ كأنَّها تقشرُه، فهي «فعيلةٌ» بمعنى «فاعلةٍ».

وقيلَ: لأنَّها تَسفِنُ الرَّملَ.

وقيلَ: أخذَ منَ السَّفَنِ، وهو الفأسُ الذي ينجُرُ به النَّجَّارُ، فهي «فعيلةٌ» بمعنى «مفعولةٍ»، فهي مسفونةٌ؛ أي: منحوتةٌ.

﴿خَرَقَهَا﴾: شقَّها.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾؛ أي: مُنكَرًا، يُقالُ: «أَمِرَ أَمْرُ فلانٍ»؛ أي: عَظُمَ، ومنه قولُ أبي سفيانَ لـمَّا سمعَ قولَ هِرَقلَ في النَّبيِّ عليه السَّلامُ: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشةَ، إنَّه ليخافُه ملكُ بني الأصفرِ(١).

قُرِئَ: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ بالتّاءِ ونصبِ اللّامِ، وقُرِئَ: ﴿ليَغرَقَ أهلُها﴾ بالياءِ وضمِّ اللّامِ(٢).

قولُه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: تحقَّقَ ما قلتُ لك.

قولُه: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بيَّنَ أنَّه اعترَضَ عليه بسببِ النِّسيانِ، وفي الخبرِ: «لو صبرَ موسى لقصَّ الله علينا أكثرَ مـمَّا قصَّ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) الثانية قراءة حمزة والكسائي، وقرأ الباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٣) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب المتقدم، ولفظهما: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما».

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿نَسِيتُ﴾؛ أي: تركتُ(١).

وقيلَ: رأى موسى الماءَ لا يدخلُ في الخرقِ فقالَ: لا تُؤاخذني بما نسيتُ وجهلتُ.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾؛ أي: لا تُلحِقْني، يُقالُ: «أرهَقْتُه عُسرًا»؛ أي: كلَّفتُه.

***

(٧٤ ـ ٧٦) ـ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾.

قوله: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ في روايةِ أُبيٍّ: ومَرّا على غلمانٍ يلعبُونَ، فقال الخضرُ لغلامٍ منهم بيدِه هكذا فاقتلَعَ رأسَه، فقال موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾(٢).

وفي الخبرِ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قرأ هذه الآيةَ فقال: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنَّه عجِلَ لرأى العجبَ»(٣).

وفي روايةٍ: أنَّه مرَّ بغلمانٍ يلعبُونَ، فأخذَ بيدِ غلامٍ ليس فيهم أضوَأُ منه، وأخذَ حجرًا فضربَ به رأسَه حتَّى دمغَه فقتَلَه(٤).

وقال أبو العاليةِ: لم يرَه إلّا موسى، ولو رَأوه لحالُوا بينَه وبينَ الغلامِ(٥).

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٦ ـ ٣٢٩) بلفظ: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾؛ أي: بما تركت من عهدك. ثم رواه عن ابن عباس مقتصراً على هذه القطعة منه.

(٢) جزء من حديث كعب المتقدم عند البخاري ومسلم.

(٣) ورد هذا في رواية عند مسلم لحديث أبيٍّ المتقدم (٢٣٨٠/ ١٧٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٧) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٥) تقدم تخريجه قريبًا.

ثمَّ قيلَ: كان الغلامُ غيرَ بالغٍ[1].

وقال الكلبيُّ: كان بالغًا يقطعُ الطَّريقَ بين قريتَينِ، وأبوه من عظماءِ إحدى القريتَينِ، وأمُّه من عظماءِ القريةِ الأُخرَى، فأخذَه الخضرُ فصرَعَه ونزعَ رأسَه من جسدِه[2].

والغلامُ منَ الاغتلامِ، وهو شدَّةُ الشَّبَقِ، وإنَّما جازَ قتلُه لأنَّه كان بالغًا عاصيًا.

ومَن قال بالأوَّلِ قال: كان للخضرِ قتلُه لِـمَا علمَ من شرِّه، وأنَّه طُبِعَ كافرًا، وأنَّه لو أدرَكَ أبوَيه لأرهقَهما طُغيانًا، وقتلُ الصَّغيرِ غيرُ مستحيلٍ إذا أذِنَ الله بذلك[3].

﴿زاكيةً﴾؛ أي: طاهرةً منَ الذُّنوبِ؛ لأنَّ موسى لم يعرِفْ منه ذنبًا.

وقيلَ: ﴿زاكيةً﴾؛ أي: ناميةً مُقتبَلَ الشَّبابِ.

وقُرِئَ: ﴿زَكِيَّةً﴾[4]، والمعنى واحدٌ.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾: من غيرِ أن تستوجِبَ القصاصَ.

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾؛ أي: مُنكرًا، وقُرِئَ بضمِّ الكافِ وسكونِها[5].

---

(١) هذا المتبادر من كلمة (غلام)، وقد صرحت به بعض روايات حديث أبي بن كعب، منها ما رواه البخاري (٤٧٢٥)، وفيه: «... إذ أبصرَ الخضرُ غلامًا يَلعبُ مع الغِلمانِ...».

(٢) ذكره عن الكلبي بنحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢١٠)، والماوردي «النكت والعيون» (٣/ ٣٣٣)، والكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٦٧١)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ١١٩). وهو مردود بما ذكرناه في التعليق السابق من صحيح الحديث.

(٣) في (ج): «في ذلك».

(٤) قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٥) قرأ بضم الكاف نافع وأبو بكر وابن ذكوان، والباقون بإسكانها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

قولُه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ حقَّق لديه قولَه الأوَّلَ، وقولُه: ﴿لَّكَ﴾ زيادةُ تأكيدٍ في العتابِ.

قولُه: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾؛ أي: إنْ سألتُ سؤالَ إنكارٍ بعدَها؛ أي: بعد هذه المرّةِ، أو بعد النَّفسِ المقتولةِ.

﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾؛ أي: لا تجعَلْني صاحبًا لك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: بلَغْتَ مبلغًا تُعذَرُ به في تركِ مُصاحبَتي.

***

(٧٧ ـ ٧٨) ـ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قولُه: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قيلَ: أنطاكيّةُ[١].

وقيلَ: هي الأُبُلّةُ[٢].

قال ابنُ عبّاسٍ: أتيا أهلَ قريةٍ وهم لِئامٌ[٣].

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ يُقالُ: ضافَه وتضيَّفَه؛ أي: نزلَ به وصارَ ضيفًا له، وأضافَه وضيَّفَه؛ أي: أنزَلَه وقَراه، وأصلُ الكلمةِ منَ الميلِ، يُقالُ: ضافَ يَضيفُ؛ أي: مالَ،

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٢٧٢)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٥٧)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢١٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٩) من طريق قتادة عن ابن عباس قال: «هي أبرقة»، قال: «وحدثني رجل أنها أنطاكية».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٩)، عن ابن سيرين.

(٣) قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ في قصة الخضر في رواية مسلم (٢٣٨٠/ ١٧٢).

وأضافَه؛ أي: أمالَه، وهو مُضافٌ إلى كذا؛ أي: مُـمالٌ عليه، ومنه: أنَّه نَهَى عن الصَّلاةِ إذا تضيَّفَتِ الشَّمسُ للغروبِ[1]؛ أي: مالَتْ.

وقيلَ: التَّضييفُ بالإطعامِ؛ أي: أَبَوا أن يُطعِمُوهما.

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ ولـم يقُلْ: «استَطْعَماهم» تأكيدًا، ويجوزُ أن يُقالُ: أتَيا بعضَ أهلِ القريةِ واستَطْعَما بعضًا آخرينَ.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ الجدارُ والـجَدْرُ بمعنًى، وفي الخبرِ: «حتَّى يبلُغَ الماءُ الـجدْرَ»[2]، ومكانٌ جديرٌ؛ أي: بُنِيَ حوالَيه جدارٌ، وأصلُه: الرَّفعُ، وأجدَرَتِ الشَّجَرةُ؛ أي: طلَعَتْ، ومنه الـجُدَرِيُّ.

﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾؛ أي: قرُبَ أن يسقُطَ، وهذا توسُّعٌ، ويُقالُ: انقَضَّ الطّائرُ؛ أي: هوَى في طيرانِه.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيلَ: هدَمَه ثمَّ قعدَ يبنيه، ومعنى أقامَه: سوَّاه، وكان موسى أصابَه جهدٌ شديدٌ، وامتنعَ أهلُ القريةِ من إطعامِهما، فقال موسى:

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إقامتِه ﴿أَجْرًا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: كان قولُ موسى في السَّفينةِ والغلامِ لله، وكان قولُه في الجدارِ لنفسِه لطلَبِ شيءٍ منَ الدُّنيا، فكان سببَ الفِراقِ[3].

---

(١) هذا الحديث يذكره أصحاب كتب غريب الحديث كأبي عبيدة في «غريب الحديث» (١/ ١٣٧)، والهروي في «الغريبين» (٤/ ١١٥٠) وغيرهما، وهو لفظ أبو نعيم في «المستخرج على مسلم» (١٨٧٦) من حديث عقبة بن عامر الجهني، ولفظ مسلم (٨٣١): «وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب».

(٢) رواه البخاري (٢٣٦١)، ومسلم (٢٣٥٩)، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٤).

وقُرِئَ: ﴿لتَخِذْتَ﴾(١) يُقالُ: «تَخِذَ يتْخَذُ تَخْذًا»، أُلزِمَتِ التّاءُ الحرفَ كأنَّها أصليّةٌ، وقال وَهْبٌ: كان ذلك الجدارُ جدارًا طولُه في السَّماءِ مئةُ ذراعٍ.

قولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾؛ أي: هذا الذي عليه فراقُ بيني وبينِك؛ لأنَّك قلتَ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

وقيلَ: أي: هذا وقتُ فراقِ بينِنا.

وقال الزَّجّاجُ: أي: هذا فراقُ اتِّصالِنا(٢).

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾؛ أي: أُخبِرُك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ تأويلُ الشَّيءِ: مآلُه؛ أي: أُخبِرُك لِـمَ فعلتَ ما فعلتَ؟

* * *

(٧٩) ـ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

قولُه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ دلَّ هذا على أنَّ المسكينَ أحسنُ حالًا منَ الفقيرِ؛ لأنَّه كانتِ السَّفينةُ لهم، والفقيرُ مَن لا يملِكُ شيئًا.

ويحتمِلُ أن يُقالَ: ما كانتِ السَّفينةُ لهم، وكانت في أيديهم إعارةً أو إجارةً.

وقيلَ: أرادَ بالمسكنةِ أنَّهم كانوا مُستَضعَفين وإنْ كانوا أغنياءَ.

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، والباقون: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٠٤) وفيه: زعم سيبويه أن معنى مثل هذا التوكيد، والمعنى: هذا فراق بيننا؛ أي: هذا فراق اتصالنا، قال: ومثل هذا: أخزى الله الكاذب مِني ومنك، فذكر ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ثانيةً توْكيد.

وقال كعبٌ: كانت لعَشرةِ إخوةٍ منَ المساكينِ، خمسةٌ زمنَى وخمسةٌ ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾(١)؛ أي: يعملونَ بالسَّفينةِ في البحرِ، ويحتملُ أنَّهم كانوا يُكرُونَ السَّفينةَ، والعملُ منَ المُكترينَ.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾؛ أي: أخرقَها، يُقالُ: عابَ الشَّيءُ؛ أي: صارَ ذا عيبٍ بنفسِه، وعِبتُه أنا؛ أي: عيَّبتُه.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾؛ أي: كلَّ سفينةٍ صحيحةٍ، فأرادَ أن يَعيبَ السَّفينةَ لئلَّا تُؤخَذَ.

﴿وَرَآءَهُم﴾؛ أي: أمامَهم(٢)، قال الله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]؛ أي: أمامَه، وإنَّما يُقالُ هذا في الأوقاتِ، ولا يُقالُ للرَّجلِ أمامَك: إنَّه وراءَك، قالَه الفرّاءُ(٣)، وجوَّزَه غيرُه.

والقومُ ما كانوا عالمينَ بخبرِ الملكِ، فأخبرَ الله الخضرَ حتَّى عيَّبَ السَّفينةَ، ذكرَه الزَّجَّاجُ(٤).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٢٦).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٤١٠) و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٧)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٥٤) عن قتادة. وروى البخاري (٣٤٠١) ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (وكان أمامهم ملك).

وقال الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٣٠٥): ﴿وَرَآءَهُم﴾: خلفهم، هذا أجود الوجهين.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٧)، و«البسيط» (١٤/ ١١٥)، وفيهما: ولا يَجوز أن تَقُولَ لرجل وراءك: هُوَ بين يديك، ولا لرجل هُوَ بين يديك: هُوَ وراءك، إنما يجوز ذلك في المواقيت من الأيام والليالي والدهر، تقول: وراءك برد شديد، وبين يديك برد شديد، جاز الوجهان؛ فكأن البرد إذا لحقك صار من ورائك، وكأنك إذا بلغته كان بين يديك.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٠٥).

(٨٠ - ٨١) - ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ في روايةِ أُبيٍّ: وأمَّا الغلامُ فطُبِعَ يومَ طُبِعَ كافرًا، وكان أبواه قد عطَفَا عليه، ولو أدرَكَ لأرهقَهما الكفرَ[(١)].

﴿فَخَشِينَآ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أي: فعلِمْنا[(٢)]. وهذا كما كنَّى عن العلمِ بالخوفِ في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقيلَ: الخشيةُ بمعنَى الكراهةِ، يُقالُ: «فرَّقتُ بينَهما خشيةَ أن يقتَتِلا»؛ أي: كراهيةَ ذلك.

وقيلَ: هو من قولِ الخضرِ؛ أي: خِفْنا أن يُرهِقَهما كُفرًا، وكان الله قد أباحَ له الاجتهادَ في قتلِ النُّفوسِ على هذه الجهةِ ونحوِها[(٣)].

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾؛ أي: يُغشِيَهما.

وقيلَ: أي: يحمِلَهما حبُّه على أن يَدينا بدِينِه.

قولُه: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾؛ أي: أن يرزُقَهما الله ولدًا ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾؛ أي: دِينًا وصلاحًا.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٠)، و(٢٦٦١)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١١٨) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قال أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ١٢٠): «وقتلُ الصغير إنما لا يجوز لعدم إذن الشرع به، وكان الله تعالى أذن للخضر بذلك، ولذلك قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وليس الأمر بقتله أكبرَ من إماتته، واللَّه تعالى يميت الصغار، وله أن يحكُم في عباده بما يشاء».

قُرِئَ: ﴿يُبدِّلَـهما﴾ بالتَّشديدِ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[١]، يُقالُ: «بدَّلَ وأبدَلَ»، مثلَ «مهَّلَ وأمهَلَ»، و«نزَّلَ وأنزَلَ».

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ بالتَّخفيفِ، وقُرِئَ بضمِّ الحاءِ[٢]؛ أي: أبرَّ بوالدَيه وأرحمَ، وفي الخبرِ: «فوقعَ أبوه على أمِّه فتلقَّتْ فولَدَتْ خيرًا منه زكاةً»[٣].

قال ابنُ عبّاسٍ: فولدَتْ جاريةً ولدَتْ نبيًّا، وفي روايةٍ: أبدَلَـهما الله به جاريةً ولدَتْ سبعينَ نبيًّا[٤]. ولعلَّه أرادَ: كان في أولادِها وأحفادِها سبعونَ نبيًّا.

* * *

(٨٢) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾؛ أي: الجدارُ الذي أقمْتُه ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ماتَ أبوهُما وهما صغيرانِ، ودلَّ هذا على أنَّ القريةَ كانت مدينةً.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو بالتشديد، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٢) قرأ ابن عامر بضم الحاء، والباقون بإسكانها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١١١٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٣٦٠)، عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٢٣) عن ابن عباس من رواية عطاء وإسناده واهٍ. ورواه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) من طريق جعفر بن محمد عن أبيه. وفيه عبد الله بن ميمون بن داود القداح، وهو منكر الحديث متروك.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾؛ أي: تحتَ الجدارِ، وفي بعضِ الأخبارِ: «ذهبٌ وفضّةٌ»(١).

وقال ابنُ عبّاسٍ: في روايةٍ: كان عِلْمًا في صُحفٍ(٢).

وقال عِكرمةُ: كان ذلك العلمُ: عجَبٌ لمَن أيقَنَ بالموتِ كيف يفرحُ، وعجَبٌ لمَن أيقَنَ بالنّارِ كيف يضحكُ، وعجَبٌ ممَّن أيقَنَ بالقَدَرِ كيف يأسفُ على الطَّلبِ، وعجَبٌ ممَّن يرى تقلُّبَ الدُّنيا بأهلِها كيف يطمئِنُّ إليها(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣١٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وقال: غريب. قلت: فيه يزيد بن يوسف الصنعاني، وهو متروك.

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٩٦).

(٣) لم أقف عليه عن عكرمة، لكنه روي مرفوعًا وموقوفًا ومرسلًا:

أما المرفوع: فرواه البزار في «مسنده» (٤٠٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٢١)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٣): رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما وبقية رجاله ثقات.

وقال ابن كثير عند هذه الآية: بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المصيصة، قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: في حديثه وهم.

ورواه البيهقي في «الزهد» (٥٤٥)، وابن مردويه في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٢١)، من حديث علي رضي الله عنه. وفيه جويبر بن سعيد وهو متروك.

وأما الموقوف: فرواه ابن عدي في «الكامل» عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه كثير بن مروان الفلسطيني وشيخه أبين بن سفيان، وهو ضعيفان.

وأما المرسل: فرواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، من قول جعفر بن محمد والحسن وعمر مولى غفرة.

أما عكرمة فالمروي عنه أنه فسره بالمال، فقد روى عنه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٥) أنه قال: =

وقيلَ: كان الكنزُ لوحًا من ذهبٍ فيه هذه الكلماتُ[١].

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ قال جعفرُ بنُ محمَّدٍ: كان بينَهما وبين ذلك الأبِ الصّالحِ سبعةُ آباءٍ[٢].

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾؛ أي: يكبُرا ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فبيَّنَ أنَّه لو لم يُقِمِ الجدارَ لَبَدا الكنزُ وضاعَ.

وقيلَ: كان الكنزُ في ذلك الوقتِ حلالًا والغنيمةُ حرامًا.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: أمرَ بذلك للرَّحمةِ.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ أي: انكشَفَ لي من علمِ الله فعلِمْتُ به.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾؛ أي: هذا تفسيرُ ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قال عِكرمةُ: قيلَ لابنِ عبّاسٍ: لم نسمَعْ لفتَى موسى بذكرٍ وقد كانَ معه، فقال: شرِبَ الفَتَى منَ الماءِ فخلَدَ، فأخذَه العالِمُ فطابقَ عليه[٣] سفينةً، ثمَّ أرسلَه في البحرِ، وإنَّها لتموجُ به فيه إلى يومِ القيامةِ، وذلك أنَّه لم يكُنْ له أن يشربَ منه فشربَ[٤].

= «كنز مال». وهكذا ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٣٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٣٣٦)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٤٢).

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٢٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٣) عن الحسن.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٣).

(٣) قوله: «عليه» كذا في النسخ، وفي المصادر الآتية: «به».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٩)، وفي «تاريخه» (١/ ٢٢٥)، من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس، وذكره ابن الأثير في «الكامل» (١/ ١٢٥)، وابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، وابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٤١٥). قال ابن كثير: إسناده ضعيف والحسن متروك وأبوه غير معروف.

وهذا إنْ ثبتَ فعلى أنَّه ليس الفتى يوشعَ بنَ نونٍ[1]، فإنَّ يوشعَ بنَ نونٍ قد عُمِّرَ بعد موسى، وكان خليفتَه، والأظهرُ أنَّ موسى صرَفَ فتاه لـمَّا لقِيَ الخضرَ[2].

وقيلَ: قال في تعييبِ السَّفينةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ رعايةً للأدبِ في إضافةِ التَّعييبِ إلى نفسِه، وقال في الغلامِ: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ كأنَّه أضافَ القتلَ إلى نفسِه والتَّبديلَ إلى الله، وقال في الجدارِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ لأنَّه خيرٌ كلُّه.

***

(٨٣) ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

قولُه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قيلَ: إنَّ اليهودَ قالوا: إنَّما تَذْكرُ منَ الأنبياءِ إبراهيمَ وموسى ومَن سمِعْتَ منَّا ذِكْرَه، فأخبِرْنا عن نبيٍّ لـم يذكُرْه الله في التَّوراةِ إلّا في مكانٍ[3] واحدٍ، وهو ذو القرنَينِ، فقال: «ما بلغَني عنه شيءٌ»، ففرِحُوا فلم يبلُغُوا بابَ البيتِ حتَّى نزَلَ جبريلُ بهذه الآياتِ[4].

ثمَّ قيلَ: كان ذو القرنَينِ نبيًّا.

وقيلَ: كان عبدًا صالحًا.

وقال عقبةُ بنُ عامرٍ: كان يومي الذي أخدُمُ فيه رسولَ الله ﷺ، فخرَجْتُ من

---

(١) عقَّب ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٤١٥) على كلام المصنف هذا بقوله: لم يثبت فإن إسناده ضعيف. وانظر التعليق السابق.

(٢) ويحتمل أن يكون اكتفي بذكر المتبوع عن التابع، كما قال أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتابه «المفهم شرح مسلم» (٦/ ٢٠٣)، ونقله عنه تلميذه القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٥٧) عقب كلام المصنف.

(٣) في (أ): «في موضع».

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣١٨) عن السدي.

عندِه، فإذا برجالٍ من أهلِ الكتابِ معهم مصاحِفُ، وقالوا: استأذِنْ لنا على محمَّدٍ، فأخبرْتُه بمكانِهم، فقال: «ما لي ولهم، يسألونَني عمَّا لا أعلَمُ، إنَّما أنا عبدٌ لا أعلَمُ إلّا ما علَّمَني ربِّي»، ثمَّ قال: «ضَعْ لي وَضُوءًا»، فتوضَّأَ ثمَّ قامَ إلى المسجدِ في بيتِه فركعَ ركعتَينِ، فما انصرَفَ حتَّى بدا لي السُّرورُ في وجهِه، ثمَّ قال: «اذهَبْ فأدخِلْهم ومَن وجَدْتَ بالبابِ من أصحابي».

فلمَّا رآهُم عليه السَّلامُ قال: «إنْ شئتُم أخبرتُكم بما أردتُم أن تسألوني عنه، وإن شئتُم فسَلُوني»، قالوا: بل أخبرْنا بما جئْنا له قبلَ أن نتكلَّمَ، فقال: «جئتُم تسألونَني عن ذي القرنَينِ، وسأُخبِرُكم كما تجِدُونَه في كتُبِكُم مكتوبًا، إنَّ أوَّلَ أمرِه أنَّه كانَ غلامًا منَ الرُّومِ، وأُعطِيَ[1] مُلكًا، فسارَ حتَّى أتى أرضَ مصرَ فابتَنَى بها مدينةً يُقالُ لها: الإسكندريَّةُ، فلمَّا فرغَ أتاه ملَكٌ فعرجَ به، فقال: انظُرْ ما تحتَكَ، قال: أرى مدينَتي وحدَها لا أرى غيرَها، فقال له الملكُ: تلك الأرضُ كلُّها، وهذا السَّوادُ التي ترى محيطًا بها هو البحرُ، وإنَّما أرادَ الله أن يُريَكَ الأرضَ وقد جعَلَ لك سُلطانًا فيها، فسِرْ في الأرضِ، فعلِّمِ الجاهلَ وثبِّتِ العالـمَ، فسارَ حتَّى بلغَ مغرِبَ الشَّمسِ، ثمَّ سارَ حتَّى بلغَ مطلِعَ الشَّمسِ، ثمَّ أتَى السَّدَّينِ، وهما جبلانِ لينانِ يزلَقُ عنهما كلُّ شيءٍ، فبنَى السَّدَّ، ثمَّ سارَ فوجدَ يأجوجَ ومأجوجَ يُقاتلونَ قومًا وجوهُهم كوجوهِ الكلابِ، ثمَّ قطعَهم فوجدَ أمةً منَ الغرانيقِ يُقاتلونَ القومَ القصارَ، ثمَّ قطعَهم فوجدَ أمَّةً من الحيّاتِ تلتقمُ الحيَّةُ الصَّخرةَ العظيمةَ، ثمَّ أفضَى إلى البحرِ المُديرِ بالأرضِ»، قالوا: نحنُ نشهدُ أنَّ أمرَه كانَ هكذا، وإنَّا نجدُه هكذا مكتوبًا في كتُبِنا[2].

---

(١) في (ج): «فأعطي».

(٢) رواه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (١/ ١٠٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٨ ـ ٣٦٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٦٨). وهو حديث =

وحُكِيَ عن عمرَ: أنَّه سمعَ رجلًا يقولُ لآخرَ: يا ذا القرنَين، فقال: أمَا رضيتُم أن تَسَمَّوا بأسماءِ الأنبياءِ حتَّى تَسمَّوا بأسماءِ الملائكةِ[١].

وسألَ ابنُ الكوَّاء عليًّا رضيَ الله عنه عن ذي القرنَين: أنبيًّا كانَ أم ملِكًا؟ فقالَ: لا ذا ولا ذا، كان عبدًا صالحًا دَعا قومَه إلى الله فشجُّوه على قرنِه، ثمَّ دَعاهُم فشجُّوه على قرنِه الآخَرِ، فسُمِّيَ ذا القرنَين، ولم يكُنْ له قرنانِ كقرنَي الثَّورِ[٢].

وقال أبو العاليةِ: سُمِّيَ ذا القرنَينِ لأنَّه قرَنَ بينَ مطلِعِ الشَّمسِ ومغرِبِها[٣].

وقيلَ: لأنَّه ملَكَ الرُّومَ وفارسَ.

وقيلَ: كان في رأسِه شبهُ قرنَينِ تستُرهما العمامةُ.

وقيلَ: كان في رأسِه غديرتانِ من شعرٍ.

وقيلَ: رأى في المنامِ أنَّه دَنا منَ الشَّمسِ حتَّى أخذَ بقرنِها.

وقيلَ: عاشَ في قرنَينِ منَ النَّاسِ.

واختلَفُوا؛ فقال قومٌ: كان ذو القرنَينِ بعد موسى.

= واهـي السند كما قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٨)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ١٨٩): «فيه طول ونكارة، ورفعُه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل...» وينظر باقي كلامه ثمة.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٩٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٤٧٩)، وإسناده منقطع، وتعجب الكرماني من هذا القول في «غرائب التفسير» (١/ ٦٧٧)، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٠٣): وأغربَ من قال: كان ملَكًا من الملائكة.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٣٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٧٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٤).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٥٠)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٣٩).

وقال قومٌ: كان في الفترةِ بعد عيسى.

وقيلَ: كان في وقتِ إبراهيمَ وإسماعيلَ.

* * *

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

قولُه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مكَّنَّا له[1] حتَّى ملَكَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها.

قال عليٌّ رضيَ الله عنه: سُخِّرَ له السَّحابُ، ومُدَّتْ له الأسبابُ، وبُسِطَ له في النُّورِ، فكانَ اللَّيلُ والنَّهارُ عليه سواءً[2].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾؛ أي: أعطَيْناه من كلِّ شيءٍ ما يبلِّغُه إلى الحاجةِ.

وقيلَ: السَّببُ: الحبلُ، فاستُعيرَ لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: من كلِّ شيءٍ علمًا[3].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ منَ الأسبابِ التي أدَّتْ في المسيرِ إلى المغربِ.

قُرِئَ: ﴿فاتَّبَعَ﴾ بالتَّشديدِ، وقُرِئَ: ﴿فَأَتْبَعَ﴾ بقطعِ الألفِ[4]؛ أي: لحِقَ، يُقالُ:

---

(١) في (ف): «مكناه».

(٢) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢٠٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٤٨) وفي إسنادهما رجل مبهم، ورواه مختصراً دون قوله: «فكان الليل والنهار عليه سواء»: عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٩١٥)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣/ ٧٣٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٨٢).

(٤) هي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٧ـ٣٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

أَتْبعْتُ القومَ؛ أي: لحِقْتُهم، ولـم يقُلْ: «فأتبعَ السَّببَ» وإنْ كانَ يُقالُ: «وجدْتُ درهمًا وكان الدِّرهمُ كذا»؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤] يدُلُّ على الجمعِ؛ أي: آتَيناه أسبابَ الأشياءِ فأتبعَ سببًا من تلك الأسبابِ، فهو كقولِك: «وجَدْتُ دراهمَ فكان درهمٌ منها كذا».

***

(٨٦) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

قولـه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ قالَ وَهْبٌ: انطلَقَ يؤُمُّ الأُمَّةَ [التي] عند المغربِ، ويُقالُ لـها: ناسِكٌ، فوجدَ جمعًا لا يُحصيهم إلّا الله، فكاثَرَهم بالظُّلمةِ، فضرَبَ حولَـهم ثلاثَ عساكرَ منها حتَّى جمعَهم في مكانٍ واحدٍ، ثمَّ دخلَ عليهم بالنُّورِ ودَعاهُم إلى عبادةِ الله، فمنهم مَن آمنَ، ومنهم مَن صدَّ عنه، فعمدَ إلى الذين تولَّوا عنه فأدخَلَ عليهم الظُّلمةَ، فدخلَتْ في أفواهِهم وآذانِهم وأُنفِهم وأجوافِهم، وفي بيوتِهم وديارِهم ومن كلِّ جانبٍ، فماجُوا فيها وتحيَّروا وعَجُّوا إليه بصوتٍ واحدٍ فكشَفَها عنهم، ودخلوا في دعوتِه، فجنَّدَ منهم أمّةً عظيمةً وانطلَقَ يقودُهم، والظُّلمةُ تسوقُهم من خلفِهم، والنُّورُ أمامَه يقودُه ويدُلُّه، فسارَ نحوَ الأمّةِ في الجانبِ الأيمنِ، ويُقالُ لهم: هاويلُ، فعملَ فيهم عملَه في ناسكٍ(١).

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾؛ أي: ذاتِ حَمْأةٍ، وهي الطِّينُ الأسودُ المُنتِنُ، يُقالُ: حمِئَتِ البئرُ تحمَأُ حـمَأً؛ أي: صارَتْ ذاتَ حَمْأةٍ، فهي حمِئَةٌ.

---

(١) قطعة من خبر طويل عن وهب رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٩٠ ـ ٣٩٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٥١ ـ ١٤٦٠)، وما بين معكوفتين منهما.

وقُرِئَ: ﴿حاميةٍ﴾[1] من غيرِ همزٍ؛ أي: حارَّةٍ، ويجوزُ أن تكونَ: «حامِئةٍ» منَ الحمأةِ أيضًا، فخُفِّفَتِ الهمزةُ وقُلبَتْ ياءً.

وقال القفَّالُ: قال بعضُ العلماءِ: ليس المُرادُ أنَّه انتهَى إلى الشَّمسِ غربًا وشرقًا حتَّى وصلَ إلى جِرْمِها ومسَّها؛ لأنَّها تدورُ مع السَّماءِ حولَ الأرضِ من غيرِ أن تلتصِقَ بالأرضِ، وهي أعظَمُ من أن تدخُلَ في عينٍ من عيونِ الأرضِ، بل هي أكبرُ منَ الأرضِ أضعافًا مُضاعفةً، بل المُرادُ أنَّها تنتَهي إلى آخرِ العمارةِ من جهةِ المغربِ ومن جهةِ المشرقِ، فوجدَها في رأيِ العينِ تغرُبُ في عينٍ حمئةٍ، كما أنَّا نُشاهِدُها في الأرضِ الملساءِ كأنَّها تدخلُ في الأرضِ، ولهذا قالَ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، ولـم يُرِدْ أنَّها تطلُعُ عليهم بأن تـماسَّهم وتُلاصِقَهم، بل أرادَ أنَّهم أوَّلُ مَن تطلُعُ عليه.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾؛ أي: عندَ العينِ، أو عند نهايةِ العمارةِ.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إنْ كانَ نبيًّا فهو وحيٌ، وإنْ لـم يكُنْ نبيًّا فهو إلهامٌ.

﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾؛ أي: تقتُلَ وتُعاقِبَ؛ لأنَّه وجدَ قومًا كفّارًا، فخيَّره الله بين القتلِ والمنِّ، فاختارَ ذو القرنَينِ أن يدعُوَهم إلى الله.

* * *

(٨٧ ـ ٨٨) ـ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

قولـه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾؛ أي: أقـامَ علـى شـركِه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾؛ أي: بالقتـلِ فـي

---

(١) هي قراءة عاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر وحمزة والكسائي، والباقون: ﴿حمئة﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

الدُّنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: في القيامةِ ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: في جهنَّمَ.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: تركَ الكفرَ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: في إيمانِه ﴿فله جزاءُ الحُسْنَى﴾ قيلَ: في الآخرةِ، والحُسنَى: الجنَّةُ؛ أي: فله الجنّةُ جزاءً، فأضافَ الجزاءَ إلى الجنّةِ كقولِه: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]. قالَه الفرّاءُ[1].

وقيلَ: فله جزاءُ الخِلالِ الحسنَى التي صدَرَتْ منه من الإيمانِ والعملِ الصّالحِ.

ويُمكِنُ أن يكونَ هذا الجزاءُ من ذي القرنَينِ؛ أي: أُعطيهِ وأتفضَّلُ عليه.

قُرِئَ: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالنَّصبِ والتَّنوينِ[2]؛ أي: فله الحسنَى جزاءً.

وقيلَ: هو حالٌ؛ أي: فله الحسنَى جزاءً؛ أي: مَجزِيًّا بها جزاءً.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾؛ أي: خيرًا وقولًا جميلًا.

***

(٨٩ - ٩١) - ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾؛ أي: سلَكَ طريقًا آخرَ يُوصِلُه إلى المشرقِ.

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ قيلَ: وجدَ قومًا لا يستُرُهم منَ الشَّمسِ شيءٌ.

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٩).

(٢) هي قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص، وقرأ الباقون كما تقدم: ﴿جزاءُ الحسنى﴾ بالرفع والإضافة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

وقيلَ: كانوا عُراةً لا ثوبَ عليهم.

وقيلَ: كانت أرضُهم أرضًا لا تحملُ البناءَ، فكانت الشَّمسُ إذا طلعَتْ تهوَّرُوا في البحرِ، فإذا زالَتْ عنهم خرَجُوا وتَرَاعوا كالبهائمِ[١].

وقيلَ: كانوا يأتونَ إلى أسرابٍ لهم، فإذا زالتِ الشَّمسُ عنهم خرَجُوا إلى معاشِهم وحرثِهم.

وقال قتادةُ: هم الزِّنجُ[٢].

وقال الكلبيُّ: أخبرَني مَن لقِيَهم فقال: كان أحدُهم يفرُشُ أُذنَه ويلبسُ الأُخرَى[٣].

وهم عُراةٌ حُفاةٌ، وهم الأمَّةُ التي يُقالُ لهم: مَنْسَكٌ، وهم[٤] في مُقابلةِ ناسِكٍ، فعملَ فيهم كعمَلِه في ناسِكٍ وهاويلَ، ثمَّ كرَّ مُقبلًا في ناحيةِ الأرضِ اليُسرَى، فانتَهَى إلى أمَّةٍ بحيالِ هاويلَ يُقالُ لها: تاويلُ، وبينَهما عرضُ الأرضِ[٥] فعملَ فيها كعملِه فيما قبلَها.

---

(١) في (ج): «وتراغوا كالبهائم». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المصادر، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٨١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٧١)، والطيالسي والبزار في «أماليه» وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٤)، من طريق الحسن عن سمرة رضي الله عنه، وعندهم: «فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٤٥)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٨٧).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٦٣)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٣٨).

(٤) في (ج): «وهي».

(٥) في (أ): «عرض الدنيا».

قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا﴾؛ أي: كما بلغَ مغربَ الشَّمسِ كذلك بلَغَ مطلِعَها.

وقيلَ: أتبعَ سببًا [كما أَتْبعَ سبباً][1].

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾؛ أي: وقد علِمْنا حينَ ملَّكناه ما عندَه منَ الصَّلاحِ لذلك والاستقلالِ به.

***

(٩٢ ـ ٩٤) ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾؛ أي: سببًا ثالثًا مـمَّا يبلِّغُه قطرًا آخرَ.

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ هما جبلانِ من قِبَلِ أرمينيَّةَ وأذرَبيجانِ، قُرِئَ بفتحِ السِّينِ وضمِّها[2]، والسَّدُّ والسُّدُّ بمعنًى.

وقال أبو عبيدةَ: «السُّدُّ» بالضَّمِّ: إذا كان مخلوقًا من فعلِ الله، و«السَّدُّ» بالفتحِ: ما كان من فعلِ الآدميِّينَ[3].

وقال أبو عليٍّ: يجوزُ أن يكونَ «السُّدُّ» مصدرًا، و«السَّدُّ»: المسدودُ، ويجوزُ أن

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٢٦٤)، و«البسيط» (١٤/ ١٣٩).

ولعلهم أخذوه من قول الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٨٣): «و﴿كَذَٰلِكَ﴾ من صلة ﴿أَتْبَعَ﴾، وإنما معنى الكلام: ثم أتبع سبباً حتى بلغ مطلع الشمس كما أتبع سبباً حتى بلغ مغربها».

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٤١٤).

يكون «السَّدُّ» بالفتحِ أيضًا اسمًا للمسدودِ، نحوَ: «نَسْجُ اليمنِ»، و«ضربُ الأميرِ»[١].

وعلى الجملةِ: بلغَ جبلَينِ فسَدَّ ما بينَهما ليكونَ حاجزًا بين يأجوجَ ومأجوجَ ومَن سِواهُم، والسَّدُّ بينَ الجبلَينِ واحدٌ، ولكنَّه سمَّى الجبلَينِ اللَّذَينِ سدَّ[٢] ما بينَهما سدَّينِ.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾؛ أي: من ورائِهما مُجاوِزًا عنهما أُمَّةً منَ النّاسِ ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؛ أي: لا يَعلَمُونَه، بفتحِ الياءِ.

وقُرِئَ: ﴿يُفقِهُونَ﴾ بضمِّ الياءِ[٣]؛ أي: لا يُفهِمُونَ أحدًا قولًا، فحُذِفَ أحدُ المفعولَينِ.

ثمَّ؛ قيلَ: (يكادُ) زيادةٌ في الكلامِ.

وقيلَ: أي: لم يكونُوا يفهمونَ إلّا القليلَ منَ القولِ.

قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ بيَّنَ أنَّه فهَّمَه قولَهم وفهَّمَهم قولَه بعد أن كانُوا لا يفقَهُونَ ولا يُفقِهُونَ، وهذا منَ الأسبابِ التي آتاها الله إيَّاه كما علَّمَ سليمانَ منطقَ الطَّيرِ.

وقيلَ: فهِمَ منهم وفهِمُوا منه بعد جهدٍ.

وقيلَ: ترجَمَ مُتَرجِمونَ، فنسبَ القولَ إليهم لـمَّا كان بأمرِهم.

وقيلَ: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يعني: يأجوجَ ومأجوجَ، وكان هذا القولُ منَ الأمّةِ القريبةِ منهم؛ لأنَّهم الذين طلَبُوا الحاجزَ بينَهم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ.

---

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ١٧١).

(٢) في (أ): «يسد».

(٣) هي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

وقال وَهْبٌ: لـمَّا كان ذو القرنَين في بعضِ الطَّريقِ مـمَّا يلي أرضَ التُّركِ نحوَ المشرقِ قالت له أمَّةٌ منَ الإنسِ صالحةٌ: إنَّ بينَ هذَين الجبلَينِ خلقًا من خلقِ الله كثيرًا، فيهم مُشابهٌ منَ الإنسِ ومُشابهٌ منَ البهائمِ، يأكلونَ العُشبَ ويفترسونَ الدَّوابَّ والوحشَ كما تفترِسُها السِّباعُ، ويأكُلونَ الحيّاتِ والعقاربَ وكلَّ ذي روحٍ ممَّا خلَقَ الله في الأرضِ، وليس لله خلقٌ ينمُو نَماءَهم في العامِ الواحدِ، وإنْ كانت لهم مدَّةٌ يُوشِكُ أن يَملؤوا الأرضَ ويُجْلُوا أهلَها، ونحنُ نتوقَّعُهم ساعةً فساعةً[1].

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجًا﴾ لتجعلَ بينَنا وبينَهم حاجزًا.

و(ياجوجُ وماجوجُ) اسمانِ أعجميّانِ، مثلَ: طالوتُ وجالوتُ، وقرأ عاصمٌ بالهمزِ[2].

قال أبو عليٍّ: يجوزُ أن يكونا عربيَّينِ، فمَن همزَ ﴿يَأْجُوجَ﴾ فهو على وزنِ «يَفْعُول»، مثلَ «يَربُوعٍ»، من قولِكَ: «أجَّتِ النّارُ»؛ أي: صوَّتَتْ، ومنه: الأجيجُ، ومنه: ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، ومَن لم يهمِزْ أَمْكَنَ أن يكونَ خفَّفَ الهمزةَ فقلَبَها ألفًا مثلَ «رأس».

وأمَّا ﴿مأجوج﴾ فمَن همزَ فهو «مفعولٌ» من «أَجَّ»، والكلمتانِ من أصلٍ واحدٍ في الاشتقاقِ، ومَن لم يهمِزْ فيجوزُ أن يكونَ خفَّفَ الهمزةَ، ويجوزُ أن يكونَ «فاعولًا» من «مجَّ»، وتركُ الصَّرفِ فيهما للتَّأنيثِ والتَّعريفِ، كأنَّه اسمُ القبيلةِ[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٩٠ ـ ٣٩٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٥١ ـ ١٤٦٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٣) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، وفيه زيادة: «فالكلمتان على هذا من أصلين وليسا من أصل واحد كما كانتا كذلك فيمن همزهما.... وإن جعلتهما من العجمي فهذه التمثيلات لا تصح فيهما، وامتنعا من الصرف للعجمة والتعريف، وإنما تمثَّل هذه التمثيلات في العجمية ليُعلم أنها لو كانت عربيّة لكانت على ما يذكر».

وقد ورَدَتْ في يأجوجَ ومأجوجَ أخبارٌ، وأنَّها تخرجُ عند اقترابِ السّاعةِ، فرَوَى أبو هريرةَ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ قال: «وُلِدَ لنوحٍ سامٌ وحامٌ ويافثُ، فولدَ سامٌ العربَ وفارسَ والرُّومَ، والخيرُ فيهم، وولدَ يافثُ يأجوجَ ومأجوجَ والتُّركَ والصَّقالبةَ، ولا خيرَ فيهم، وولَدَ حامٌ القِبْطَ والبربرَ والسُّودانَ»(١).

ورَوَى أبو سعيدٍ الخدريُّ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ أنَّه: «لا يموتُ رجلٌ منهم حتَّى يُولَدَ لصُلبِه ألفُ رجلٍ»(٢)؛ يعني: يأجوجَ ومأجوجَ.

وقال أبو سعيدٍ: هم خمسٌ وعشرونَ قبيلةً من وراءِ يأجوجَ ومأجوجَ(٣)، لا يموتُ الرَّجلُ من هؤلاءِ ومن يأجوجَ ومأجوجَ حتَّى يخرُجَ من صُلبِه ألفُ رجلٍ، وطولُ هؤلاءِ شبرٌ بشبرٍ(٤)، قال: فيملكُونَ الأرضَ ثمَّ يقولون: قد ملَكْنا الأرضَ فتعالَوا نقتُلْ أهلَ السَّماءِ، فيرمُونَ بنبالِهم إلى السَّماءِ فترجعُ إليهم وفيها دمٌ، فيقولونَ: قد قتَلْنا أهلَ السَّماءِ، فيُرسلُ الله عليهم ريحًا فيها داءٌ في أقفِيَتِهم فتنبُذُهم(٥) عن ظهرِ الأرضِ(٦).

---

(١) رواه البزار (٢١٨ ـ كشف)، والخطيب في «تالي تلخيص المتشابه» (١/ ١١٤)، من طريق سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة مرفوعًا. وفي إسناده يزيد بن سنان الرهاوي، قال عنه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٢٧٠) بعد أن ذكر هذا الحديث: «ضعيف بمرة، لا يعتمد عليه».
ورواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٢ ـ ٤٣)، والإمام أحمد في «العلل» (٣/ ٣٥)، والطبري في «تاريخه» (١/ ١٢٩)، من قول سعيد بن المسيب، وهو المحفوظ كما قال ابن كثير.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٠٠) وإسناده مسلسل بالضعفاء.

(٣) إلى هنا رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٤٨).

(٤) في (ج): «شبر».

(٥) في (ج): «فتبيدهم».

(٦) رواه بنحوه ابن ماجه (٤٠٧٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً، ولفظه: «تفتح يأجوج، =

وقال السُّدِّيُّ والضَّحّاكُ: التُّركُ سرِيَّةٌ من يأجوجَ ومأجوجَ خرجَتْ تُغيرُ، فجاء ذو القرنَينِ فضرَبَ السَّدَّ فبقيَتْ في هذا الجانبِ[١].

وقال قتادةُ: بُنِيَ السَّدُّ على أحدٍ وعشرينَ قبيلةً، وبقيَتْ منهم قبيلةٌ واحدةٌ دونَ السَّدِّ، فهم التُّركُ[٢].

وسُئِلَ عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ العاصِ عن يأجوجَ ومأجوجَ: أمِنْ ولدِ آدمَ هم؟ قال: نعم، وإنَّ مِن بعدِهم لَثلاثَ أممٍ: تاوِيلُ وتارِيسُ ومَنْسَكُ[٣].

وقال كعبٌ: هم نادرةٌ في ولدِ آدمَ، فإنَّه احتلمَ ذاتَ يومٍ فامتزَجَتْ نطفتُه

= ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، فيعمون الأرض، وينحاز منهم المسلمون، حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، حتى إنهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئاً، فيمر آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء، ويظهرون على الأرض فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، ولننازلن أهل السماء، حتى إن أحدهم ليهز حربته إلى السماء، فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك، إذ بعث الله دواب كنغف الجراد، فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضاً، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسًا...». قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٠٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٤٣) عن الضحاك مقتصراً على قوله: «هم جيل من الترك»، وذكر عن السدي نحوَ ما سيأتي من قول قتادة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٦)، وذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٧).

(٣) رواه بهذا اللفظ أبو الفضل الزهري في «حديثه» (٣١٧)، ورواه مرفوعًا مختصراً أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٣٩٦)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٦٥٦). قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٥٥٤): وهو حديث غريب جدًا وإسناده ضعيف. وفيه نكارة شديدة.

بالتُّرابِ، فخلَقَ الله من ذلك الماءِ يأجوجَ ومأجوجَ، فهم مُتَّصلونَ بنا من جهةِ الأبِ لا من جهةِ الأمِّ[1].

وفي الخبرِ: «إنَّهم يخرُجونَ إذا جاءَ الأجَلُ المضروبُ، ويتحَصَّنُ النّاسُ في حُصونِهم، فيأتونَ على دجلةَ والفراتِ ويشربونَ ماءَهما، حتَّى يخرُجَ آخرُهُم فيقولونَ: قد كان هاهُنا مرّةً ماءٌ، ثمَّ يُسلِّطُ الله عليهم دوابَّ كالنَّغَفِ فتقتُلُهم»[2].

قال كعبٌ: ثمَّ تُنتِنُ الأرضُ من ريحِهم فيبعثُ الله عليهم طيرًا فتنقلُ أبدانَهم إلى البحرِ، ويُرسِلُ الله السماءَ أربعين ليلةً فتُنبِتُ الأرضُ... في خبرٍ طويلٍ[3].

قال وَهْبٌ: رآهم ذو القرنَينِ وطولُ الواحدِ منهم مثلُ نصفِ الرَّجلِ المربوعِ منَّا، لهم مخاليبُ في مواضعِ الأظفارِ، وأضراسٌ وأنيابٌ كالسِّباعِ، وأحناكٌ كأحناكِ الإبلِ، وهم هُلْبٌ، عليهم منَ الشَّعرِ ما يُواريهم، ولكلِّ واحدٍ أذنانِ عظيمتانِ يلتحِفُ إحداهما ويفترِشُ الأُخرَى، وكلُّ واحدٍ منهم عرفَ أجلَه؛ لأنَّه لا يموتُ حتَّى يخرُجَ من صُلبِه ألفٌ إنْ كانَ ذكرًا، ومن رحِمِها ألفٌ إنْ كانت أُنثَى.

---

(١) أورده عن كعب دون سند الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢٠٣)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ١٩٥): وهذا قول غريب جدًّا، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة، والله أعلم.

(٢) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وضعفه بعبد الله بن عصمة الجزري، قال عنه: «لا يقيم الحديث، يرفع الأحاديث ويزيد في الحديث». قلت: ويشهد له حديث أبي سعيد المتقدم.

وفي الباب عن النواس بن سمعان عند مسلم (٢٩٣٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٩٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٣ ـ ٢٤).

وهم يُرزَقُونَ التِّنِّينَ في أيّامِ الرَّبيعِ ويستمطِرُونَه إذا تحيَّنُوه كما يُستَمْطَرُ الغيثُ لحينِه، فيُقذفونَ منه كلَّ سنةٍ بواحدٍ، فيأكُلونَه عامَهم كلَّه فيُغنيهم، يتداعَونَ تداعيَ الحمامِ، ويعوُونَ عُواءَ الذِّئبِ، ويتسافَدُونَ حيثُ كانوا تسافُدَ البهائمِ[1].

﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2]: أهلُ بغيٍ وظلمٍ على مَن جاوَرَهم[3].

وقيلَ: شَكَوا أنَّهم يقتلونَ مَن رأوا من غيرِ جنسِهم.

﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ وقُرِئَ: ﴿خراجًا﴾[4]، وهو ما يُخرِجُونَه للوصولِ إلى حاجتِهم.

***

(٩٥ ـ ٩٦) ـ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾.

قولُه: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾؛ أي: ما أعطاني منَ التَّمكُّنِ في الأرضِ والأسبابِ خيرٌ مـمّا تعرِضُونَه عليَّ منَ المالِ، يُقالُ: «مكَّنَ غيرَه من أمرِ كذا»؛ أي: جعلَه ذا تمكُّنٍ.

قُرِئَ: ﴿مَكَّنِّي﴾ بنونٍ واحدةٍ مُشدَّدةٍ، وقُرِئَ بنونَينِ[5].

---

(١) قطعة من خبر وهب الذي تقدم قريباً.

(٢) في النسخ: «مفسدون في الأصل»، والصواب المثبت، وانظر التعليق الآتي.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٤٤) عن قتادة، وفيه: قوله تعالى: ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال قتادة: هما: حيَّان حيًّا سوء، كانا أهل بغي وظلم على من جاورهما.

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون: ﴿خَرۡجًا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٥) قرأ ابن كثير بنونين، والباقون بنون واحدة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بقوّةِ الأبدانِ، وقيلَ: بالأبدانِ والآلةِ التي بها أبني السَّدَّ، فلم يطلُبْ منهم المالَ، وطلبَ أن يُحصِّلوا الآلةَ، وبذلُ المالِ من جهةِ ذي القرنَينِ.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾؛ أي: سدًّا وحاجِزًا، يُقالُ: ردَمَ الحائطَ يردِمُ رَدْمًا، مثلَ: «ضرَبَ يضرِبُ».

قولُه: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾؛ أي: ناوِلُوني زُبَرَ الحديدِ وأْتوني بها، أمرَهم بنقلِ الآلةِ.

وزبرُ الحديد: قِطَعُ الحديدِ، وأصلُ الكلمةِ: الاجتماعُ، ومنه: «زُبْرةُ الأسدِ» لِـمَا اجتمَعَ منَ الشَّعرِ على كاهِلِه، و«زبَرْتُ الكتابَ»؛ أي: كتبتُه وجمعتُ حروفَه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾؛ أي: سوَّى ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وهما الجبلانِ.

وقال أبو عُبيدةَ: هما جانبا الجبلِ[1]، فالصَّدَفُ[2] والصَّدَفةُ: الجانبُ والنّاحيةُ، وسُمِّيا بذلك لتصادُفِهما؛ أي: لتلاقِيهما، ويُقالُ للبناءِ المُرتفعِ: «صَدَفٌ» تشبيهًا بجانبِ الجبلِ، ومنه: كانَ إذا مرَّ بصَدَفٍ مائلٍ أسرعَ المشيَ[3].

قُرِئَ: ﴿الصُّدُفَين﴾ بضمِّ الصّادِ والدّالِ، وفتحِهما، وبضمِّ الصّادِ وسكونِ الدّالِ[4].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٤١٤)، وفيه: «ما بين الناحيتين من الجبلين».

(٢) في (ج): «والصدف».

(٣) رواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (١/ ٢٠٨) عن يحيى بن أبي كثير بلاغاً عن النبي ﷺ، وفيه: «بهدف مائل أو صدف مائل..».

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الصاد والدال، وقرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بفتحهما، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بضمِّ الصاد وتسكينِ الدال. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠١)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾؛ أي: على زُبَرِ الحديدِ بالكيرِ، أو وضعَ البعضَ على البعضِ وجعلَ بينَها الحطبَ والفحمَ، ووضعَ عليها المنافخَ حتَّى إذا صارَتْ كالنّارِ ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فأذابَ النُّحاسَ وأفرغَه على زُبرِ الحديدِ، فاختلَطَ ولصقَ البعضُ بالبعضِ حتَّى صارَ جبلًا صَلْدًا من حديدٍ ونُحاسٍ.

قال قتادةُ: هو كالبُرْدِ المُحبَّرِ طريقةٌ سوداءُ وطريقةٌ حمراءُ[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٠٤) بلفظ: ذكر لنا أن رجلاً، قال: يا نبي الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انعته لي»، قال: كأنه البرد المحبر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء، قال: «قد رأيته».
وعلقه البخاري قبل الحديث (٣٣٤٦) عن قتادة بلفظ: «قال رجل للنبي ﷺ رأيت السد مثل البرد المحبر قال: رأيته»، ووصله ابن حجر في «تغليق التعليق» (٤/ ١٢)، من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله قد رأيت السد... الحديث.
قال الحافظ: هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو حديث صحيح؛ لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا يَضر عند الجمهور لأن كلهم عدول، ولكن قد اختلف فيه على قتادة فرواه سعيد بن أبي عروبة عنه هكذا، ورواه سعيد بن بشير عنه فاختلف عليه فيه؛ فقال أبو الجماهر والوليد بن مسلم: عنه عن قتادة عن رجلين عن أبي بكرة الثقفي: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني قد رأيته، يعني: السد... رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٧٥٨).
ورواه نعيم بن حماد في كتاب «الفتن» (١٦٣٢) عن شيخ له عن سعيد بن بشير عن قتادة: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فذكره مرسلاً.
قال الحافظ: ورواه مسلمة بن علي عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أنس. ومسلمة ضعيف، وليس هذا من حديث أنس والله أعلم
ورواه يوسف بن أبي مريم الحنفي عن أبي بكرة ورجل رأى السد فساقه مطولاً، رواه البزار في «مسنده» (٢٠٨٩) من هذا الوجه بإسناد حسن.
قلت: كذا حسنه الحافظ، وقال شيخه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٣٤): رواه البزار عن شيخه عَمْرِو بن مالك، تَرَكه أبو زُرعة وأبو حاتم، ووثَّقه ابن حِبَّانَ وقال: يخطئُ ويُغْربُ، وفيه مَن لم أعرفه.
وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٥٥٦): ولمْ أَرَهُ مسندًا من وجهٍ متصلٍ أَرتضيه.

والقِطْرُ: النُّحاسُ الذّائبُ، وأصلُه منَ القَطْرِ؛ لأنَّه إذا أُذيبَ قَطَرَ كما يَقطرُ الماءُ.

ولـم يَعمَلْ هذا البناءَ بمرَّةٍ، بل بناه سافةً فسافةً كسائرِ البُنيانِ، ولكنَّه اختُصرَ في الإخبارِ عنه، والله أعلمُ.

* * *

(٩٧) - ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾.

قولُه: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾؛ أي: ما استطاعَ يأجوجُ ومأجوجُ أن يصعَدُوا الجبلَ؛ لأنَّه أملَسُ مُستَوٍ مع الجبلِ، والجبلُ عالٍ لا يُرامُ، وما قدَرُوا أن ينقُبُوه.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا السَّدُّ بناحيةِ إرمينيةَ.

وقيلَ: وراءَ بحرِ الرُّومِ بين جبلَينِ هنالك يلي مُؤخَّرَهما البحرُ المُحيطُ.

وقيلَ: ارتفاعُ السَّدِّ مئتا ذراعٍ وخمسونَ ذراعًا.

ورُوِيَ عن وَهْبٍ أنَّه قال: بُعدُ ما بينَ السَّدَّينِ مئةُ فرسخٍ، وعرضُه خمسونَ فرسَخًا[1].

﴿اسْطَاعُوا﴾؛ أي: استطاعُوا، فحذفُوا التّاءَ طلبًا للتَّخفيفِ.

﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾؛ أي: أن يصعَدُوه، يُقالُ: «ظهرتُ السَّطحَ»؛ أي: علَوتُه.

* * *

(٩٨) - ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

قولُه: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: مـا تيسَّرَ من هذا السَّدِّ رحمةٌ من ربِّي على هؤلاءِ الذين كانوا يخافونَ يأجوجَ ومأجوجَ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾؛ أي: القيامةُ.

---

(١) قطعة من خبر وهب الطويل المتقدم ذكره.

وقيلَ: أجلُ ربِّي في خروجِهم.

﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾؛ أي: دكَّه دكًّا، أو: جعلَه ذا دكٍّ؛ أي: جعله مُلصَقًا بالأرضِ.

وقُرِئَ: ﴿دَكَّآءَ﴾[1]؛ أي: مثلَ دكاءَ، وهي النّاقةُ التي لا سنامَ لها، فحُذِفَ المُضافُ، ولا بدَّ من تقديرِ هذا الحذفِ؛ لأنَّ السَّدَّ مُذكَّرٌ فلا يُوصَفُ بـ﴿دَكَّآءَ﴾.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ يعني: في خروجِهم في مُقدِّمةِ القيامةِ.

وقيلَ: بالثَّوابِ والعقابِ.

***

(٩٩) ـ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

قولُه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ ماجَ الماءُ؛ أي: اضطرَبَ، وماجَ النّاسُ بعضُهم في بعضٍ؛ أي: دخلَ؛ أي: تركْنا يومَ القيامةِ الجنَّ والإنسَ يموجُ بعضُهم في بعضٍ.

وقيلَ: تركْنا يأجوجَ ومأجوجَ يومَ انفتاحِ السَّدِّ يموجُونَ في الدُّنيا مختَلِطِينَ لكثرتِهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لأنَّ خروجَهم من علاماتِ قُربِ القيامةِ ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾؛ أي: حشَرْنا جميعَ الخلقِ.

وقيلَ: أي: تركْنا يأجوجَ ومأجوجَ بعد بناءِ السَّدِّ يموجُ بعضُهم في بعضٍ لا يقدرونَ على الخروجِ.

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي وعاصم، والباقون بغير مد. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

وقيلَ: تركْنا النّاسَ يومَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ يموجُ بعضُهم في بعضٍ خوفًا منهم، ولأنَّه علامةُ السّاعةِ، قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧].

* * *

(١٠٠ ـ ١٠١) ـ ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾.

قولُه: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ﴾؛ أي: نُبرِزُها للكفّارِ، كقولِه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]؛ أي: يُكشَفُ لهم عنِ النّارِ قبلَ وُرودِها.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾؛ أي: أبرَزْنا جهنَّمَ لمن كان في غطاءٍ عن ذِكري؛ أي: للمحجوبينَ عنِ النَّظرِ في آياتي لإلفِهم الكفرَ، والغِطاءُ: ما يُتغطَّى به.

﴿عَن ذِكۡرِي﴾؛ أي: عن ما جاءَ به محمَّدٌ منَ البيِّناتِ.

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾؛ أي: لا يسمعونَ القرآنَ ولا يُحبُّونَه لعداوتِهم النَّبيَّ عليه السَّلامُ، وهو كما يُقالُ: «فلانٌ لا يقدرُ أن يسمَعَ كلامَ فلانٍ»؛ أي: لعداوتِه له يثقُلُ عليه سماعُ كلامِه، وإن استطاعَ ذلك على الجملةِ.

والظّاهرُ أنَّ معنى الآيةِ: أنَّ الله خلَقَ في قلوبِهم الكفرَ فلم يُبصِرُوا الحقَّ ولم يسمَعُوه، كما قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ الآية [البقرة: ٧].

* * *

(١٠٢) - ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾.

قولُه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ أي: ظنَّ هؤلاءِ أنَّهم إنْ تولَّوا آلـهةً من دوني من عبادي كالمسيحِ والملائكةِ أنَّ عبادي يصيرونَ لهم أولياءَ ينصُرونَهم ويشفَعُونَ لهم؛ أي: ليس كذلك، بل المسيحُ والملائكةُ براءٌ منهم.

وقيلَ: عنَى الشَّياطينَ الذين أطاعُوهم من دونِ الله؛ أي: أنَّهم لا ينفَعُونَهم غدًا، بل ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد قال الله أيضًا: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقيلَ: أرادَ الأصنامَ، وسمَّاها عبادًا كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وفي الآيةِ حذفٌ؛ أي: أفحسِبُوا أن يتَّخِذُوهم أولياءَ ولا أُعاقبُهم.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾؛ أي: إنَّ أولياءَهم لا يمنعُونَهم منَ النَّارِ.

﴿نُزُلٗا﴾؛ أي: جزاءً وثوابًا، وأصلُه: ما يُعَدُّ ويُقامُ للضَّيفِ والعسكرِ عند نُزولِـهم.

وقيلَ: ﴿نُزُلٗا﴾؛ أي: منزلًا.

***

(١٠٣ - ١٠٤) - ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين عبَدُوا غيري يخيبُ سعيُهم وآمالُـهم غدًا، فهم الأخسَرُونَ أعمالًا، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ في عبادةِ مَن سوى الله.

قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ كفَّارَ أهلِ مكّةَ(١).

وقال عليٌّ رضيَ الله عنه: هم الرَّهابنةُ أصحابُ الصَّوامعِ(٢).

وقال مرةً: هم أهلُ حَرُوراءَ(٣).

والصُّنعُ: مصدرُ صنعَ إليه معروفًا.

***

(١٠٥) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: بالقرآنِ وبمُعجِزاتِ الأنبياءِ وما نُصِبَ منَ الدّلالاتِ ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾؛ أي: بالبعثِ والنُّشورِ ورُؤيةِ الله تعالى.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾؛ أي: لا ثوابَ لهم، وأعمالُهم مُقابَلةٌ بالعذابِ، ولا يعبأُ الرَّبُّ بها، وفي الخبرِ: «يُؤتَى يومَ القيامةِ بالعظيمِ الطَّويلِ الشَّروبِ الأَكُولِ، فلا يزِنُ عندَ الله جناحَ بعوضةٍ، اقرَؤُوا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾»(٤).

وقيلَ: أرادَ خِفَّةَ موازينِهم منَ الطّاعاتِ.

---

(١) لم أقف عليه، وقد ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٩٣) ولعله أخذه عن المصنف هنا.

(٢) رواه عن عليٍّ رضي الله عنه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٢٤)، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٠٠) وصححه من قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٢١٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٧٠)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٢٦).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال: اقرؤوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾». ورواه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً.

وقيلَ: لا نُقيمُ لهم وزنًا، بل الوزنُ عليهم لا لـهم؛ لأنَّه لا عمَلَ لهم من أعمالِ الخيرِ حتَّى يُوزَنَ لهم.

وقيلَ: لا نُقيمُ لأعمالِـهم غدًا وزنًا لحقارتِها، وما كانَ منهم من عملِ خيرٍ في الدُّنيا فقد أخذُوا بدلَه في الدُّنيا من توسعةِ الرِّزقِ عليهم.

***

(١٠٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: الأمرُ ذلك، وهو أنَّه لا قَدْرَ لهم غدًا، ثمَّ ابتدأَ فقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

وقيلَ: الذي تقدَّمَ من قولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ جزاؤُهم، ثمَّ أكَّدَ وقالَ: وهو جهنَّمُ.

﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾؛ أي بكُفرِهم وباتِّخاذِهم ﴿ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾؛ أي: مهزُوءًا به، فهو مصدرٌ بمعنَى المفعولِ به.

***

(١٠٧ ـ ١٠٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثمَّ وصفَ المُؤمنينَ فقال: طاعاتُهم لا تحبطُ، بل الجنَّةُ لهم نزُلٌ.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ وهي وسطُ الجنةِ وأفضلُ موضعٍ منها، وفي اللُّغةِ: «الفِردَوسُ»: جنَّةٌ ذاتُ كرومٍ، يُقالُ: «كَرْمٌ مُفَرْدَسٌ»؛ أي: مُعَرَّشٌ.

وقولُه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾؛ أي: في سابقِ علمِ الله وسابقِ حكمِه.

قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مُؤبَّدينَ ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾؛ أي: لا يحوَّلونَ عنها، والحولُ بمعنَى التَّحويلِ، قال أبو عبيدةَ: ﴿حِوَلًا﴾؛ أي: تحوُّلًا(١).

وقال الزَّجَّاجُ: حالَ من مكانِه حِوَلًا، كما يُقالُ: عَظُمَ عِظَمًا، قال: ويجوزُ أن يكونَ منَ الحيلةِ؛ أي: لا يحتالونَ منزلًا غيرَها(٢).

ورَوَى عبادةُ بنُ الصّامتِ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ قال: «الجنَّةُ مئةُ درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتَينِ كما بينَ السَّماءِ إلى الأرضِ، الفِردَوسُ أعلاها درجةً، فإذا سألتُم الله فاسألوه الفِردَوسَ»(٣).

* * *

(١٠٩) ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ لمَّا قالت قريشٌ لليهودِ: ما الذي نسألُ عنه هذا الرَّجلَ حتَّى نُفحِمَه؟ فقالوا: سلوه عنِ الرُّوحِ، ونزلَ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أُوتينا التَّوراةَ، ومَن

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٤١٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣١٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٧٣٨)، وروى نحوه البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ بلفظ: «... إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

أوتـيَ التَّـوراةَ فقد أوتـيَ خيـرًا كثيـرًا، ونزلَتْ هـذه الآيةُ(١).

وقيلَ: قالتِ اليهودُ: ادَّعَيتَ أَنَّكَ أوتيتَ الحكمةَ، ومَن أوتيَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيرًا كثيرًا، ثمَّ رأيتَ(٢) أَنَّكَ لا علمَ لك بالرُّوحِ، فقالَ الله: قُلْ: وإنْ أُوتيتُ القرآنَ وأوتيتُم التَّوراةَ فهي بالنِّسبةِ إلى كلماتِ الله قليلةٌ، فلا يقتَضي ذلك أنْ أعلَمَ كلَّ شيءٍ؛ لأنَّ العالـمَ بكلِّ شيءٍ هو الله تعالى(٣).

والمدادُ: ما يجيءُ الشَّيءُ منه بعد الشَّيءِ على الاتِّصالِ، وأصلُه: الزِّيادةُ، ومنه: «مدَّ النَّهرُ»؛ أي: كثُرَ ماؤُه، ومنه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعـنى الآيـة: لـو كـان البحرُ مـدادًا، والقلمُ يكتبُ؛ لنفِدَ البحرُ ولا تنـفَدُ كلماتُ الله.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٦١) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

ورواه مطولاً الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣) من طريق ابن إسحاق، عن رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: «أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد...» الحديث.

ورواه الطبري أيضًا من طريق محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار، قال: «لما نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: اليهود، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود، فقالوا: يا محمد...».

وفي هذين الخبرين التصريح بأن اليهود خاطبوا النبي ﷺ بذلك في المدينة ما يدل على أن الآية مدنية، لكن سنديهما ضعيفان لإبهام شيخ ابن إسحاق فيهما.

(٢) في (أ) و(ج): «ثم زعمت».

(٣) ذكر نحوه مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٦٠٥).

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿لِكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾؛ أي: مواعظُ ربِّي وعلمُه في خلقِه[١].

وفي الجملةِ: معلوماتُ الرَّبِّ ومُخبَراتُه لا نهايةَ لها.

وقيلَ: عنَى بالكلماتِ: الكلامَ القديمَ الذي لا غايةَ له ولا مُنتَهَى، وهو وإنْ كان واحدًا فيجوزُ أن يُعبَّرَ عنه بلفظِ الجمعِ كقولِه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩].

قال السُّدِّيُّ: أي: إنْ كانَ البحرُ مدادًا لنفِدَ قبلَ أن تنفَدَ صفاتُ الجنّةِ التي هي دارُ الثَّوابِ[٢].

وقال عِكرمةُ: لنفِدَ البحرُ قبلَ أن ينفَدَ ثوابُ مَن قالَ: «لا إلهَ إلّا الله»[٣].

قُرِئَ: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ بالياءِ والتّاءِ[٤].

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾؛ أي: بمثلِ البحرِ ﴿مَدَدًا﴾ في كثرةِ مائِه، والمددُ: الزِّيادةُ، وهو نصبٌ على التَّمييزِ، أو على المصدرِ؛ أي: ولو جِئْنا بمثلِه نمُدُّه مدًّا، أو على الحالِ؛ أي: ولو جِئْنا بمثلِه مادِّينَ.

***

(١١٠) - ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٧٤) بلفظ: «مواعظ الشكر مني، أو مواعيد ربي وعلمه في خلقه».

(٢) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ١٥٦).

(٣) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (١٠/ ١٥٦).

(٤) قرأ حمزة والكسائي بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

قولُـه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: لا أعلـمُ إلّا مـا يُعلِّمُنـي الله، وعلـمُ الله لا يُحصَـى، وإنَّمـا أُمِـرْتُ بـأن أُبلِّغَكـم أنَّـه لا إلـهَ إلّا الله.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: يرجُو رُؤيتَه وثوابَه، ويخشَى عقابَه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؛ أي: خالصًا من غيرِ أن يعبُدَ غيرَ الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

قيلَ: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، إنِّي لأُصلِّي وأتصَدَّقُ، وأُحِبُّ مع ذلك أن يطَّلعَ عليه النّاسُ، فأنزَلَ الله هذه الآيةَ في تجنُّبِ الرِّياءِ[1].

وفي الخبرِ: «مَن عمِلَ عملًا[2] وأشرَكَ فيه غيري فأنا منه بريءٌ»[3].

وقيلَ: عنَى الشِّركَ الذي هو عبادةُ غيرِ الله.

والأوَّلُ أظهرُ؛ لأنَّه قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾، ولم يقُلْ: «بربِّه».

واللهُ أعلمُ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل، والحمدُ للهِ وحدَه[4]

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٥٢٧) وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ...﴾.
وروي نحوه عن مجاهد، رواه وكيع في «الزهد» (٢٤٦)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٤٣٥)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٩)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١١٥).

(٢) في (أ): «من عمل صالحاً».

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

(٤) **كذا جاء في ختام هذه السورة في النسخة (أ). وجاء في خاتمة النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي المرموز لها بـ(ف) ما نصه: «تمَّ بحمدِ الله وعَونِه. فُرِغَ من نسخِه ومُقابلتِه وسماعِه يومَ الجمعةِ في العشرِ الأخيرِ من شهرِ ذي الحجّةِ سنةَ اثنَينِ وأربعينَ وخمسِ مئةٍ بمدينةِ السَّلامِ. والحمدُ لله وحدَه، وصلاتُه على سيِّدِنا محمَّدٍ وسلَّمَ تسليمًا، وحسبُنا الله ونعمَ الوكيلُ».**
وفي الهامش: «يتلوه فيما بعده أول سورة مريم إن شاء الله تعالى».

سُورَةُ مَرْيَمَ

تفسيرُ سورةِ مريمَ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قد بيَّنّا أنَّ الأظهرَ أنَّ هذه الحروفَ اسمُ السُّورةِ، وعلى هذا قيلَ: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، كأنَّه إعلامٌ باسمِ السُّورةِ، كما تقولُ: كتابُ كذا، أو باب[1] كذا، ثمَّ شرعَ في المقصودِ.

وقولُه: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ رفعٌ بإضمارٍ؛ أي: هذا ذكرُ رحمةِ ربِّكَ.

وقيلَ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾، كما تقولُ: هذا الكتابُ قصصُ الأنبياءِ؛ أي: هذه السُّورةُ المُسمّاةُ بكذا فيها ذكرُ رحمةِ ربِّكَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: معناه: كافٍ لخلقِه هادٍ لعبادِه، يدُه فوقَ أيديهم، عالمٌ بهم، صادِقٌ في وعدِه[2].

---

(١) في (أ): «آيات».

(٢) ذكره عنه بنحوه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٧)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٨٣)، وذكره بنحوه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٢١٣)، والماتريدي في «تفسيره» (٧/ ٢١٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٢٧)، عن الكلبي.

وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٣١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كاف من كاف، وياء من حكيم، وعين من عليم، وصاد من صادق، وهاء من هاد».

قُرِئَ: (ها يا) بالتَّفخيمِ، وقُرِئَ بالإمالةِ(١).

قال أبو عليٍّ: لأنَّها ليست بحروفِ [معنًى]، بل هي أسماءٌ لهذه الأصواتِ، ولهذا تُخبَرُ عنها وتعربها(٢)، فتقولُ: هذه «ها» حسنةٌ، وإذا كانَتْ اسمًا جازَتْ فيها الإمالةُ(٣).

وفي روايةٍ عن عاصمٍ: (عَيْنْ صاد) بتبيينِ النُّونِ(٤)؛ لأنَّ هذه الحروفَ تجري على الوقفِ عليها، والقطعِ لها مـمَّا بعدَها، والأكثرُون لا يُبيِّنون النُّونَ كما قالوا: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ﴾ بتركِ قطعِ الهمزةِ.

قولُه تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: ذِكرُ ربِّكَ عبدَه زكريّا بالرَّحمةِ، ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وانتصَبَ قولُه: ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ بالذِّكرِ، ذكرَه الزَّجَّاجُ والفرَّاءُ(٥).

---

(١) انظر: «التيسير» للداني (ص: ١٤٧)، وفيه: قرأ أبو بكر والكسائيّ بإمالة فتحة الهاء والياء من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وابن كثير وحفص بفتحهما، وابن عامر وحمزة بفتح الهاء وإمالة الياء، وأبو عمرو بإمالة الهاء وفتح الياء، ونافع الهاء والياء بَينَ بَينَ.

(٢) في (ج): «وتعبر بها»، وفي (أ): «ويعبر عنها»، والصواب المثبت، فقد جاء في «الحجة»: ويدلّك على أنها أسماء أنها إذا أخبرت عنها أعربتها، وإن كنت لا تعربها قبل ذلك. ومثله في «البسيط».

(٣) انظر: «الحجة» للفارسي (٥/ ١٨٥)، و«البسيط» (١٤/ ١٨٥)، وما بين معكوفتين منهما.

(٤) ذكره أبو علي الفارسي في «الحجة» (٥/ ١٨٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤)، من رواية حفص عن عاصم، قال في «إتحاف فضلاء البشر» (ص: ٤٥): «والمشهور إخفاء نون (عين) عند الصاد للكل من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وبعضهم يظهرها، وهو مروي عن حفص؛ لأنها حروف مقطعة ونظيرها نون عين عند السين من فاتحة الشورى، ولم أر من نبه عليه فليراجع».

وقرأ أبو جعفر من العشرة بالسكت على كل حرف من هذه الحروف من دون تنفس، ويلزم من سكته إظهار المدغم منها والمخفي، فيقرأ: كافْ ها يا عينْ صادْ. انظر: «النشر» (١/ ٤٢٤)، و«البدور الزاهرة» (ص: ١٩٧).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٦١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣١٨).

وقال الأخفشُ: انتصَبَ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ بالرَّحمةِ، كما تقولُ: «هذا ذكرُ ضربِ زيدٍ عَمرًا»(١)، فلا حاجةَ إلى تقديمٍ وتأخيرٍ.

والرَّحمةُ هاهُنا: إجابةُ الدُّعاءِ حينَ سألَ الولدَ.

* * *

(٣ ـ ٤) ـ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ أي: خافِيًا، يُقالُ: خَفِيَ يَخْفَى خفاءً فهو خافٍ وخَفِيٌّ، مثلَ «سامعٍ وسميعٍ»، وذلك أنَّه نادى في الصَّلاةِ(٢)، والمُستَحَبُّ في الصَّلاةِ(٣) الإخفاءُ؛ لأنَّه أبعَدُ منَ الرِّياءِ، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقيلَ: أخفاه من قومِه لئلَّا يُلامَ على مسألةِ الولدِ عندَ كِبَرِ السِّنِّ.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ يُقالُ: وَهَنَ يهِنُ وَهْنًا ووَهَنًا فهو واهِنٌ.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ أي: انتشرَ فيه الشَّيبُ كما ينتشرُ شعاعُ النّارِ في الحطبِ، وأصلُ هذه الكلمةِ: الانتشارُ، يُقالُ: «أشعَلْتُ جمعَهم»؛ أي: فرَّقتُهم، و«أشعَلْتُ النّارَ في الحطبِ»؛ أي: فرَّقتُها، و«جاء جيشٌ كالجرادِ المُشتعلِ»؛ أي: المُنتشرِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٣٧).

(٢) في (ج) زيادة: «أي: نادى ربه بذلك، قال الله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ فبين أنه استجاب له في صلاته كما نادى في صلاته».

(٣) في (ج): «الدعاء».

والاشتِعالُ للشَّيبِ، فنُقِلَ الفعلُ إلى الرَّأسِ وخرَجَ الشَّيبُ مُفسِّرًا فنُصِبَ، كما يُقالُ: «ألِـمَ رأسَه» و: «وجِعَ بطنَه».

وقيلَ: «شيبًا» نصبٌ على المصدرِ؛ أي: شابَ رأسي شيبًا.

والشَّيبُ: مُخالطةُ الشَّعرِ الأبيضِ الأسودَ.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي بدُعائي إيّاكَ شقيًّا؛ أي: لـم تكُنْ تُخيِّبُ دُعائي؛ أي: إذ[1] دعَوتُك، يُقالُ: «شقِيَ بكذا»؛ أي: تعِبَ فيه ولـم يُحصِّلْ مقصودَه.

❊ ❊ ❊

(٥ ـ ٦) ـ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أرادَ بالمـوالي: العَصَبةَ؛ أي: خِفْتُ أن يرِثُوني، فهَبْ لي ولدًا يرِثُني دونَ عصَبَتي، والموالي: هم الذينَ يلُونَه في النَّسَبِ، والعربُ تُسمِّي بني العمِّ الموالِيَ.

وقيلَ: أي: إنِّي خِفْتُ بني عمِّي على الذين بعدي، وهم شرارُ بني إسرائيلَ، فهَبْ لي ولدًا صالحًا يَصلحُ لتربيةِ الدِّينِ.

وقيلَ: لـم يسأَلْ ولدًا، بل سأَلَ خليفةً من أهلِه يقومُ مَقامَه؛ أي: إنِّي خِفْتُ مواليَّ الذين هم موجُودونَ الآنَ ألّا يقُومُوا مَقامي بعد مَوتي.

والوليُّ والمَوالي بمعنًى، ويدُلُّ على هذا أنَّه لـمَّا بُشِّرَ بالولدِ قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾.

---

(١) في (ج): «إذا» بدل: «أي إذ».

ومَن قال: «سأَلَ الولدَ» قال: قولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾؛ أي: أيكونُ من هذه المرأةِ أو من غيرِها؟ وفي هذا الزَّمانِ أو غيرِه؟

ومعنى الخوفِ: أنَّه خافَ أن تخرُجَ النُّبوَّةُ من نسلِه إلى بني الأعمامِ، أو خافَ تضييعَهم للدِّينِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ بالموالي بني إسرائيلَ[1]، وكانوا يقتُلونَ الأنبياءَ وينقُضُونَ الميثاقَ، وسمَّاهم الموالي لأنَّهم كانُوا بني أعمامِه.

﴿مِن وَرَآءِى﴾؛ أي: من بعدِ مَوتي.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾؛ أي: عقيمًا لا تلِدُ ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾؛ أي: مَن تتولّاهُ بالرِّعايةِ حتَّى يكونَ دَيِّنًا صالحًا يحملُ أمرَ الدِّينِ.

قولُه تعالى: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ؛ أي: وليًّا يرثُني، فهو صفةٌ للوليِّ، وقُرِئَ بالجزمِ[2]، وهو جوابُ الأمرِ.

ثمَّ قيلَ: يعني: وراثةَ المالِ.

وقيلَ: وراثةَ النُّبوّةِ.

وقيلَ: يرثُني المالَ، ويرِثُ من آلِ يعقوبَ النُّبوّةَ.

والصَّحيحُ: أنَّه أرادَ وراثةَ العلمِ والنُّبوّةِ والحبورةِ، لا وراثةَ المالِ؛ إذ في الخبرِ: «إنّا معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ، ما ترَكْناه صدقةٌ»[3].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٩٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي بالجزم، وباقي السبعة بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٣) رواه النسائي في «الكبرى» (٦٢٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو عند البخاري =

وفي الخبرِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأ هذه الآيةَ فقال: «رحِمَ الله زكريّا ما[١] كان عليه مَن وَرِثَه؟»[٢]؛ أي: ما كانَ الله ليُضيعَ دينَه، وكان زكريّا مُتزوِّجًا بأُختِ مريمَ بنتِ عمرانَ، ويرجعُ نسبُها إلى يعقوبَ؛ لأنَّها من ولدِ سليمانَ بنِ داودَ من ولدِ يهوذا بنِ يعقوبَ، وزكريّا من ولدِ هارونَ أخي مُوسَى، وهارونُ وموسى من ولدِ لاوي بنِ يعقوبَ، وكانتِ النُّبوّةُ في سبطِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ.

وقيلَ: المعنيُّ بيعقوبَ هاهُنا: يعقوبُ بنُ ماثانَ، أخو عمرانَ بنِ ماثانَ، وبنو ماثانَ رُؤساءُ بني إسرائيلَ، وكانَ آلُ يعقوبَ هذا أخوالَ ولدِه.

قولُه تعالى: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي: مَرْضيًا عندَكَ وعندَ الأمّةِ لا يتلقَّونَه بالتَّكذيبِ.

***

(٧) ـ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فاستجابَ الله دُعاءَه فقالَ: يا زكرِيّا إنّا نُبشِّرُكَ؛ أي: نُخبِرُكَ ﴿بِغُلَٰمٍ﴾؛ أي: بولدٍ ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ سُمِّي به لأنَّه حيِيَ بالعلمِ والحكمةِ والعفّةِ، وقيلَ: حيِيَ به عُقْرُ أمِّهِ.

= (٦٧٢٨)، ومسلم (١٧٥٧)، دون قوله: «إنَّا معاشرَ الأنبياء».

(١) في (ج): «وما»، وهي رواية عبد الرزاق.

(٢) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٢١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٩٧)، عن الحسن مرسلاً.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٣٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٩) عن قتادة مرسلاً أيضاً.

ورواه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٣٥) من طريق قتادة عن بشير بن نَهيك، وهو مرسل كذلك.

وقال ابن كثير في «تفسيره»: «وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح».

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾؛ أي: لـم يُسَمَّ به أحدٌ قبلَ يحيى بهذا الاسمِ، ومَنَّ عليه بأنْ لـم يكِلْ تسميتَه إلى الأبوَين.

وقيلَ: أي: لـم يكُنْ له في سابقِ علمي نظيرٌ، وهو مثلُ قولِه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي: مِثْلًا، وذلك لأنَّ يحيى لـم يعصِ ولـم يهُمَّ بمعصيةٍ قطُّ.

* * *

(٨) - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ مَـن قـال: «طلَبَ الولـدَ» قال: هذا تَعـرُّفٌ[١] أنَّ الولـدَ مـن أيِّ امـرأةٍ؟ وأنَّـه يحصُـلُ وهما على حالتِهمـا، أو يُـرَدّانِ إلى الشَّبابِ؟

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ قيلَ: (كان) زيادةٌ؛ أي: وامرأتي عاقرٌ.

وقال ابنُ الأنباريِّ: أي: وكائنةٌ امرأتي عاقرًا في الحالِ، وجازَ وضعُ الماضي موضعَ الدّائمِ لأنَّ المعنى مفهومٌ، وهو كقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]؛ أي: وكائنٌ اللهُ غفورًا رحيمًا[٢].

﴿وقد بلغتُ مِنَ الكِبَرِ عُتِيًّا﴾ قُرِئَ بكسرِ العينِ أيضًا[٣]، يُقالُ للشَّيخِ إذا كبِرَ: عَتَا، وكلُّ شيءٍ انتَهَى يُقالُ له: عَتَا، وملكٌ عاتٍ[٤]؛ أي: قاسي القلبِ.

---

(١) بعدها في (ج): «من».

(٢) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ١٩٩).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر العين، وباقي السبعة بضم العين، ومثلها: ﴿جثياً﴾، و﴿صلياً﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٤) في (ج): «وقلبك عاتي».

وسُئِلَ ابنُ عبّاسٍ عن قولِه: ﴿عِتِيًّا﴾، فقال: هو اليبوسُ منَ الكبرِ[١].

ثمَّ قيلَ: عند السُّؤالِ ابنُ خمسٍ وستِّينَ سنةً.

وقيلَ: ابنُ خمسٍ وثمانينَ سنةً.

وقيلَ: كان بينَ السُّؤالِ والإجابةِ سنونَ كثيرةٌ، فلهذا قال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾.

***

(٩) - ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمرُ كما قيلَ لك.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: خلقُه عليَّ هيِّنٌ.

قال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: أي: أَرُدُّ عليك قُوَّتك وأفتِقُ رحِمَ امرأتِكَ بالولدِ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ يحيى، وقُرِئَ: ﴿وقد خلقناكَ﴾[٣].

﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾؛ أي: أوجَدْتُكَ بقُدرَتي.

***

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٠٨) من رواية ابن شجاع عن محمد بن زياد اليشكري عن ميمون بن مهران عن ابن الأزرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الذهبي: «قال أحمد بن حنبل: محمد بن زياد اليشكري الطحان كذاب خبيث يضع الحديث وابن شجاع من ضعفاء المراوزة». وفي المطبوع من «المستدرك»: «البؤس من الكبر».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٠٢).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي، وباقي السبعة: ﴿خلقتك﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(١٠) - ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ طلَبَ بعد بشارةِ الملائكةِ إيّاه، وبعد قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ زيادةَ طُمأنينةٍ؛ أي: تـمِّمِ النِّعمةَ بأن تجعلَ لي آيةً، وتكونَ تلك الآيةُ زيادةَ نعمةٍ وكرامةٍ.

وقيلَ: طلبَ آيةً ليعلمَ بها قُربَ ما منَّ به عليه.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾؛ أي: قال الله له: علامتُكَ على خلقِ الولدِ لك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾؛ أي: أن تُمنعَ الكلامَ فلا تقدرُ عليه ثلاثَ ليالٍ، فكان لا يُمكِنُه أن يتكلَّمَ في تلك الأيّامِ، بل كان يُومِئُ إيماءً ﴿سَوِيًّا﴾؛ أي: صحيحًا من غيرِ مرضٍ وخَرَسٍ.

***

(١١) - ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ لمَّا أتى امرأتَه فعَلِقَتْ جاءته الآيةُ، واعتُقِلَ لسانُه من غيرِ آفةٍ، فخرجَ على قومِه منَ المُصلَّى ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: أومأَ إليهم، وقيلَ: كتبَ لهم في الأرضِ:

﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ أي: أشارَ إليهم بالصَّلاةِ بُكرةً وعشيّةً، وكانوا لا يدخُلونَ الصَّلاةَ إلّا بإذنِه، فكأنَّه أذِنَ لهم في الصَّلاةِ معه في محرابِه، ثمَّ يحتملُ أنَّه كان ينطلقُ لسانُه بالذِّكرِ في الصَّلاةِ وبه تتمُّ الآيةُ، ويحتملُ أنَّه لا يدورُ لسانُه بالذِّكرِ أيضًا.

وقيلَ: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ أي: صلاةَ الفجرِ والعصرِ.

وقيلَ: كانَ يأمرُهم بالعباداتِ في أوَّلِ النَّهارِ وآخرِه، فلمَّا اعتُقِلَ لسانُه كان يُومِئُ إليهم بالوعظِ بُكرةً وعشيًّا.

والمحرابُ: مقامُ الإمامِ، ومحاريبُ بني إسرائيلَ مساجدُهم.

* * *

(١٢) ـ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ بيَّنَ أنَّه آتى يحيى في صِباه الكتابَ وعلَّمَه، وكان ذلك معجزةً ليحيى، كما أنَّه كان من مُعجزةِ عيسى إذ قال لهم في المهدِ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٣١].

والكتابُ: التَّوراةُ.

وقال الحسَنُ: علَّمَه التَّوراةَ والإنجيلَ وأرسلَه إلى بني إسرائيلَ، وكان يصومُ ويُصلِّي في حالِ طُفوليَّتِه ويدعُو إلى الله[١].

﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجِدٍّ.

وقيلَ: بقُوَّةٍ أثبَتْناها لك وقوَّيناكَ على حفظِه.

وفي التَّفاسيرِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾؛ أي: كان ابنَ ثلاثِ سنينَ.

وقيلَ: قال له الصِّبيانُ: اذهَبْ بنا نلعَبْ، فقال: ما للَّعِبِ خُلِقْتُ[٢].

والحُكمُ: ما يمنعُ منَ الجهلِ والخطأ.

* * *

---

(١) لم أجده.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣٩٦)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٧٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٧٠٥)، عن معمر.

(١٣) ـ ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: وآتيناه حنانًا من لدُنَّا؛ أي: آتيناه العطفَ على العبادِ، وأصلُ الحنانِ منَ الحنينِ والارتياحِ والجزَعِ للفِراقِ.

وقيلَ: وآتيناه الحكمَ صبيًّا حنانًا من لدُنّا؛ أي: رحمةً منّا عليه.

وأطلقَ بعضُهم الحنانَ في حقِّ الله تعالى بمعنى الرَّحيمِ الرَّؤوفِ، وأباه قومٌ وقالوا: هو منَ الحنينِ، ولا يصحُّ ذلك في وصفِ الله تعالى.

﴿وَزَكَوٰةً﴾؛ أي: طهارةً في أعمالِه؛ أي: لا يميلُ عن الحقِّ.

وقيلَ: أرادَ الطَّهارةَ عن المعاصي، فلم يعصِ ولـم يهُمَّ قطُّ بمعصيةٍ.

وقيلَ: ﴿وَزَكَوٰةً﴾؛ أي: بركةً، من «زَكا»؛ أي: «نما»؛ أي: جعَلْناه مُباركًا على النّاسِ يهديهم.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾؛ أي: يتَّقي الله، ولهذا لـم يعمَلْ خطيئةً ولـم يُلِمَّ بها.

***

(١٤) ـ ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أفرَدَ برَّ الوالدَين بالذِّكرِ تأكيدًا.

والبَرُّ بمعنَى البارِّ.

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ أصلُ الجبّارِ: الذي يضربُ على الغضبِ.

وقال سفيانُ: مَن قتَلَ اثنينِ فهو جبّارٌ؛ لقولِه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩][1].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٧٧٦٢)، وابن أبي الدنيا في «التواضع» (٢٠٣)، والطبري في =

وهذا وصفٌ ليحيى عليه السَّلامُ بلِينِ الجانبِ وخَفْضِ الجناحِ.

***

(١٥) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ هذه كلمةُ مدحٍ، كقولِه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]؛ أي: السَّلامةُ والطَّهارةُ والبراءةُ[١] منَ الآفاتِ مقرونةٌ به في أحوالِه.

وقيلَ: سلامٌ وأمانٌ له منَ الله.

﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ من أن ينالَه الشَّيطانُ ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾؛ أي: وأمانٌ له من فتَّاني القبرِ ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾؛ أي: وأمانٌ له من عذابِ الله يومَ القيامةِ.

قال ابنُ عُيَينةَ: خصَّ الأحوالَ الثَّلاثةَ لأنَّها أوحَشُ الأحوالِ على العبدِ؛ فإنَّه عند الولادةِ يرَى نفسَه خارجًا ممَّا كانَ فيه، وعند الموتِ يرَى قومًا لم يرَهم قبلُ، ويومَ الحشرِ يرَى نفسَه في محشرٍ عظيمٍ[٢].

والمُرادُ بقولِه: «يومَ وُلِدَ»: وقتُ الولادةِ؛ إذ قد تتَّفِقُ الولادةُ والموتُ في اللَّيلِ.

***

(١٦) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾؛ أي: عرِّفْهُم قصَّتَها ليعرِفُوا كمالَ قُدرتِنا.

= «تفسيره» (١٨/ ١٩٧)، عن الشعبي. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤٠٨) عن سفيان قال: «الجبار: الشقي الذي يقتل على الغضب».

(١) في (ج): «وهو البراءة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٨٢)، والخطابي في «شأن الدعاء» (٢١)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٥٩٨).

﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾؛ أي: تنحَّتْ وتباعَدَتْ، والنَّبـذُ: الطَّـرحُ والرمـيُ، قـال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: ممَّن كانَ معَها في الدّارِ.

قيلَ: عطِشَتْ فخرَجَتْ إلى المفازةِ تستَقي(١).

وقيلَ: كانت حائضًا فاستتَرَتْ في بيتِها لتغتَسِلَ وتمتَشِطَ.

وقيلَ: اعتزلَتْ في المسجدِ إلى جانبِ المحرابِ في شرقيِّه لتخلُوَ للعبادةِ، فدخلَ عليها جبريلُ عليه السَّلامُ.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾؛ أي: مكانًا من جانبِ الشَّرقِ.

والشَّرْقُ بسكونِ الرّاءِ: المكانُ الذي تُشرِقُ فيه الشَّمسُ، والشَّرَقُ بفتحِ الرّاءِ: الشَّمسُ.

قال ابنُ عبّاسٍ: خرجَتْ إلى مشرقةٍ في يومٍ شديدِ البردِ لتمتَشِطَ(٢).

***

(١٧) ـ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ﴾؛ أي: من دونِ أهلِها ﴿حِجَابًا﴾؛ أي: حاجِزًا وسِترًا.

---

(١) في (ج): «لتستقي».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢١٢ ـ ٢١٣) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن مريم أذاها القمل في رأسها فتمنت أن تجد خلوة فتفلي رأسها، فخرجت في يوم شديد البرد فجلست في مشرقة الشمس.

وعن عكرمة: أنها كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، ثم إنها أرادت الغسل من الحيض فتحولت إلى مشرقة دارهم للغسل.

قال ابنُ عبّاسٍ: جعلَتِ الجبلَ بينَها وبينَ النّاسِ، كقولِه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]؛ أي: بالجبلِ(١).

وقيلَ: حجابًا منَ الجدرانِ.

وقيلَ: بعُدَتْ من أعيُنِ النّاسِ، فهو الحجابُ.

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾؛ أي: جبريلَ في صورةِ شابٍّ أمرَدَ وضيءِ الوجهِ.

قيلَ: لأنّها لم تكُنْ لتُطيقَ أن تنظُرَ إلى جبريلَ في صورتِه.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ الله عنه: إنَّما اتَّخذَتِ النَّصارَى المشرقَ قبلةً لأنَّ مريمَ انتبَذَتْ من أهلِها مكانًا شرقيًّا، فقالوا: لو كان شيءٌ منَ الأرض خيرًا منَ المشرقِ لوضَعَتْ مريمُ عيسى فيه(٢).

وقيلَ: أرادَ بالرُّوحِ عيسى؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقَ الأرواحَ قبلَ الأجسادِ، فركَّبَ الرُّوحَ في جسدِ عيسى الذي خلقَه في بطنِها، وأُضيفَ الرُّوحُ إلى الله تخصيصًا وكرامةً.

***

(١٨) - ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ لمَّا رأَتْ رجُلًا في صورةِ البشرِ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢١٣) عن ابن عباس ومقاتل، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٠) عن مقاتل، وهو في «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٢٣).
ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٣٤٧) ضمن حديث طويل من رواية جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وزاد نسبته في «الدر المنثور» (٥/ ٤٩٦) إلى إسحاق بن بشر.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١١).

ظنَّتْ أنَّه يُريدُها بسوءٍ فقالَتْ: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾، أمرَتْه بالكفِّ عنها.

﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾؛ أي: ممَّن يتَّقي الله، والتَّقيُّ يُعيذُ مَن يستَعيذُ بالرَّحمنِ، ومَن لا يتَّقي الله لا ينفعُ معه الاستعاذةُ بالله، وهو كقولِه: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]؛ أي: شرطُ المُؤمنِ ذلك.

وقيلَ: «تقيٌّ» فعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ أي: إنْ كنتَ ممَّن يُتَّقى منه.

وقيلَ: تقيٌّ اسمُ فاجرٍ معروفٍ في ذلك الوقتِ(١).

* * *

(١٩) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ لمَّا علمَ جبريلُ أنَّها خائفةٌ أعلمَها وقال(٢): ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾.

﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾؛ أي: ليَهَبَ الله لكِ على يدي ﴿غُلَٰمٗا﴾؛ أي: ابنًا.

وقيلَ: إنَّما أنا رسولُ ربِّكِ يقولُ: أرسلتُه إليك لأهَبَ لك غلامًا.

وقُرِئَ: ﴿ليَهبَ لك﴾(٣) أي: ليهَبَ الله لك.

﴿زَكِيّٗا﴾؛ أي: صالِحًا.

وقيلَ: طاهِرًا منَ الذُّنوبِ.

---

(١) وهذا قول تالف، وهو من الهذيان والكذب الظاهر، كما نبه عليه العلماء.

(٢) في (ج): «فقال».

(٣) قرأ بها أبو عمرو، وورش عن نافع، والحلواني عن قالون عن نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

وقيلَ: ناميًا على الخيرِ، من «زَكَا يزكُو» بمعنى: «نَما».

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: أي: نبيًّا[1].

* * *

(٢٠) - ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؛ أي: زوجٌ.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾؛ أي: زانيةً، وذكرَتْ هذا تأكيدًا؛ لأنَّ قولَها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [مريم: ٢٠] يشملُ[2] الحلالَ والحرامَ.

وقيلَ: ما استبعدَتْ من قُدرةِ الله شيئًا، ولكنْ أرادَتْ: كيف يكونُ هذا الولدُ، من قِبَلِ زوجٍ في المُستقبلِ، أم يخلقُه الله عزَّ وجلَّ ابتداءً؟

ويُقالُ: بغَتِ المرأةُ تبغي؛ أي: فجَرَتْ، والبَغْيُ: الطَّلَبُ، فالزّانيةُ تبغي الأُجرةَ بالفُجورِ، والبَغِيُّ: «فعيلٌ» بمعنى «فاعلٍ»، فيكونُ منقولًا غيرَ مبنيٍّ على الفعلِ فلذلك لم يدخُلْه الهاء.

وقال ابنُ الأنباريِّ[3]: هذا الوصفُ أغلَبُ على النِّساءِ، وقلَّ ما يُقالُ: رجلٌ بغِيٌّ، فلهذا قيلَ: «امرأةٌ بغيٌّ» من غيرِ الهاءِ، كما يُقالُ: «حائضٌ وطالقٌ»[4].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢١٤).

(٢) في (ج): «يشتمل».

(٣) في (أ): «وقال ابن عباس وابن الأنباري».

(٤) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢١٦)، وقال ابن الأنباري في «المذكر والمؤنث» (١/ ١٣٠): «اعلم أن (فاعلا) إذا اشترك فيه الرجال والنساء دخلته هاء التأنيث؛ كقيلك: رجل قائم، وامرأة قائمة. وإذا انفرد به النساء دون الرجال لم تدخله هاء التأنيث؛ كقيلك: امرأة حائض وطالق وطامث».

وقال المازنيُّ: «بغِيٌّ» ليس بفعيلٍ، بل أصلُه «بغُوْيٌ»، فأُدغِمَتِ الواوُ السّاكنةُ في الياءِ، فقيلَ: بغِيٌّ، كما يُقالُ: «امرأةٌ صبورٌ» بغيرِ هاءٍ؛ لأنَّه بمعنى: صابرةٍ[1].

* * *

(٢١) - ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: يسيرٌ، إذا قضيتُ أمرًا قلتُ له: كُنْ، فكانَ.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: عجيبةً للنّاسِ؛ لأنَّه وجودُ ولدٍ من غيرِ أبٍ، فالكنايةُ ترجعُ إلى الغلامِ.

وقيلَ: إلى الخلقِ؛ أي: خلقُه عليَّ هيِّنٌ، ولنجعلَ خلقَه آيةً للنّاسِ، وكانت مريمُ عرَفَتْ أنَّ في قدرةَ الله خرقَ العادةِ؛ لأنَّه كان يأتيها رزقُها منَ السَّماءِ.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: ولنجعلَه رحمةً منَّا فنهدي به أقوامًا، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: ورحمةً خلقْناه.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾؛ أي: كان خلقُه أمرًا محكومًا به مفروغًا عنه، فهو كائنٌ لا محالةَ.

* * *

(٢٢) - ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾؛ أي: فنفخَ فيها جبريلُ فحملَتْه، فحُذِفَ لأنَّه بُيِّنَ في موضعٍ آخرَ؛ أي: خلَقَ الله فيها الحملَ فصارَتْ حاملةً للغلامِ.

---

(١) ذكره عنه النحاس في «عمدة الكتاب» (ص: ٥٣)، والزبيدي في «طبقات النحويين» (ص: ٨٩).

قال ابنُ عبّاسٍ: أخذَ جبريلُ رُدْنَ قميصِها بأصبُعِه[١] فنفخَ فيه فحمَلَتْ مريمُ من ساعتِها بعيسى[٢].

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾؛ أي: تنحَّتْ بالحملِ إلى مكانٍ بعيدٍ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: إلى أقصى الوادي[٣]، وهو وادي بيتَ لحمَ.

وإنَّما بعُدَتْ فرارًا من تعييرِ قومِها إيّاها بالولادةِ من غيرِ زوجٍ.

ومكانٌ قَصِيٌّ؛ أي: بعيدٌ، من قَصا يقصُو قُصُوًّا.

ثمَّ قال ابنُ عبّاسٍ: ما هو إلّا أن حملَتْ فوضعَتْ في الحالِ[٤]. **وهذا هو الظّاهرُ**؛ لأنَّ الله تعالى ذكرَ الانتِباذَ عقيبَ الحملِ، وكان الانتِباذُ عندَ الوضعِ.

وقيلَ: لا، بل مكثَتْ في الحملِ مدّةً، وشاعَ ذلك في النّاسِ وقالُوا ما قالُوا.

ثمَّ قيلَ: وضعَتْ لتسعةِ أشهُرٍ. وقيلَ: لستّةِ أشهُرٍ. وقيلَ: لثمانيةِ أشهرٍ.

وكان ذلك معجزةً؛ لأنَّ الولدَ لا يعيشُ لثمانيةِ أشهُرٍ[٥].

* * *

---

(١) في (ج): «بإصبعيه».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢١٧)، ورواه بنحوه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤١٥٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٧٣)، عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢١٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٩٧). قال ابن كثير في «تفسيره»: «وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه».

(٥) حكاه الزجاج. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٢٤)، و«زاد المسير» (٣/ ١٢٥).

(٢٣) - ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ يُقالُ: «جاءَ به، وأجاءَه إلى موضعِ كذا»، كما يُقالُ: «ذهبَ به وأذهبَه»؛ أي: ألجأَها المخاضُ، ومنه المثَلُ المعروفُ: «شرٌّ ما أجاءَكَ إلى مُـخَّةِ عُرقوبٍ»[1]، أي: ألجأكَ إليها.

المخاضُ: وجَعُ الولادةِ[2]، وهو الطَّلْقُ، ومخِضَتِ المرأةُ تمخَضُ مخاضًا، وناقةٌ ماخِضٌ؛ أي: دَنا وِلادُها.

﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ كأنَّها طلبَتْ شيئًا تستنِدُ إليه وتتعلَّقُ به كما تتعلَّقُ الحاملُ إذا ضربَها الطَّلْقُ.

ثمَّ؛ قيلَ: أنبتَ الله لها نخلةً فتعلَّقَتْ بها.

وقيلَ: قصَدَتْ جذعَ نخلةٍ يابسةٍ.

والجذعُ: ساقُ النَّخلةِ، قيلَ: كان جذعًا يابسًا لا سعَفَ عليه ولا غُصنَ، ولهذا لـم يقُلْ: إلى النَّخلةِ.

﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ إنَّما قالَتْه لشدّةِ الطَّلقِ والوجعِ ولخوفِ التَّعييرِ.

وقيلَ: علِمَتْ ما يُقالُ في عيسى: إنَّه ابنُ الله، فتمنَّتِ الموتَ لئلّا يُقالَ ذلك، أو لئلّا يقعَ بسببِها قومٌ في البُهتانِ والنِّسبةِ إلى الزِّنا.

﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾؛ أي: قبلَ هذا الوقتِ.

﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾؛ أي: شيئًا مطروحًا لا يُؤبَه له، وتقولُ العربُ إذا ارتَحلُوا

---

(١) يضرب مثلاً لكل مضطر إلى ما لا خير فيه، والعرقوب لا مخ فيه. انظر: «مجمع الأمثال» (١/ ٥٤٩).

(٢) في (ج): «الولد».

منَ المنزلِ: انظُروا أنساءَكم، وهي جمعُ «نِسْيٍ»، وهو ما يُنسَى من عصًا أو إداوةٍ أو سَوطٍ، قالَه أبو عُبيدةَ(١).

وقال الفرَّاءُ: النِّسْيُ: ما تُلقيه المرأةُ من خِرَقِ اعتلالِـها(٢).

والمنسيُّ: المفعولُ من نسيتُ، وهذا مُبالغةٌ في وصفِ النِّسْيِ.

وقُرِئَ: ﴿نَسْيًا﴾ بفتحِ النُّونِ(٣)، وهما لغتانِ، مثلَ «الحِجْرِ والحَجْرِ»، والوِتْرِ والوَتْرِ».

* * *

(٢٤) ـ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قيلَ: كلَّمَها جبريلُ وخاطبَها، وكان أسفلَ منها تحتَ الأكَمةِ التي عليها الجذعُ الذي هو(٤) جذعُ النَّخلةِ، أو: من تحتِ النَّخلةِ.

وقيلَ: ناداها عيسى، وكان ذلك مُعجزةً وآيةً وتسكينًا لقلبِها.

وقُرِئَ: ﴿مَن تحتَها﴾ بفتحِ الميمِ(٥)؛ أي: ناداها عيسى بعد الوضعِ، أو عادَ إليها جبريلُ عليه السَّلامُ بعدَ وقتِ الولادةِ وقال لـها هذا.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٦٥)، وزاد: «لأنه إذا رمي به لم يرد».

(٣) قرأ بها حمزة وعاصم في رواية حفص، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٤) «الجذع الذي هو»: ليس في (ج).

(٥) قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص: ﴿مِن﴾ بكسر الميم، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨ ـ ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٨). ومن قرأ بكسر الميم كسَر التاء من ﴿تحتِها﴾، ومن فتح الميم فتح التاء.

ثمَّ يحتملُ أنَّها رأتِ المُناديَ، ويحتملُ أنَّها لـم ترَه.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾؛ أي: بولادَتِكِ ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ أي: نهرًا تشربينَ منه.

﴿تَحْتَكِ﴾؛ أي: بحيالِ قدمَيكِ.

قيلَ: ضربَ جبريلُ الأرضَ من تحتِ قدمِها.

وقيلَ: ضربَ عيسى برجلِه فظهرَتْ عينُ ماءٍ عذبٍ وجرَى.

وقيلَ: جعلَ الله النَّهرَ تحتَ أمرِها: إنْ أرادَتْ جرَى، وإنْ أرادَتْ أمسَكَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: كان ذلك نهرًا قد انقطعَ ماؤُه فأجراهُ الله عزَّ وجلَّ لمريمَ[١].

وقيلَ: كان موضعُها لا يُرتَجى فيه الماءُ بل كان ربوةً، فاخترعَ الله هناك الماءَ.

وقيلَ: عنَى بالسَّرِيِّ عيسى، قال الحسَنُ: كانَ والله سرِيًّا منَ الرِّجالِ[٢].

والسَّرِيُّ: النَّبيلُ، وتسرَّى فلانٌ على فلانٍ؛ أي: تكرَّمَ، وفلانٌ سرِيٌّ من قومٍ سَراةٍ، والنَّهرُ يُسمَّى سرِيًّا لأنَّ الماءَ يسري فيه.

* * *

(١) لم أجده هكذا، وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٦) قوله: «﴿سَرِيًّا﴾ وهو نهر عيسى»، وروى الحاكم عنه أيضاً في «المستدرك» (٢/ ٦٤٨) ضمن حديث: «والسري: النهر».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٩)، وروي عنه أنه رجع عن قوله هذا كما روى سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٣٨٨)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٧) عن قتادة عن الحسن أنه قرأ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ قال: كان سريًّا، وكان وكان. فقال له حميد بن عبد الرحمن الحميري: يا أبا سعيد إنما هو جدول نهر. قال: غلبتنا عليك الأمراء.

(٢٥) - ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ الهزُّ: التَّحريكُ ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ الباءُ هاهُنا زائدةٌ كما يُقالُ: خُذْ بالزِّمامِ، وأعطِني بيدِك، وقال الله: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥]؛ أي: فليمدُدْ سببًا، ويُقالُ: ألقى بيدِه؛ أي: يدَه.

وقال المُبرِّدُ: أي: هُزِّي إليكَ رُطبًا على جذعِ النَّخلةِ[١].

﴿تسَّاقَطْ عليكِ﴾؛ أي: تتساقطْ عليكِ، فأُدغِمَ التّاءُ في السِّينِ، والمعنى: تُسقِطْ عليكِ النَّخلةُ ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ وقرأ حمزةُ: ﴿تَسَاقَطْ﴾ مُخفَّفًا، فحذفَ التّاءَ التي أدغمَها غيرُه.

﴿رُطَبٗا﴾ نصبٌ بالهزِّ؛ أي: إذا هَزَزْتِ الجذعَ هَزَزْتِ بهزِّه رُطبًا جنيًّا.

وقيلَ: تساقطْ عليكِ ثمرةُ النَّخلِ رُطبًا؛ أي: في حالِ رُطوبتِه، فيكونُ نصبًا على الحالِ؛ لأنَّ ذكرَ النَّخلةِ يدلُّ على الثَّمرةِ.

وقيلَ: ﴿رُطَبٗا﴾ نصبٌ على التَّمييزِ، كقولك: «تصبَّبَ عرقًا».

وقُرِئَ: ﴿تُسَٰقِطۡ﴾[٢]، و(ساقَطَ) بمعنى: أسقطَ.

والرُّطَبُ: النَّضيجُ منَ البُسرِ، وقد أرطبَتِ النَّخلةُ، وأرطبَ القومُ.

---

(١) ذكره عنه الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٣٢٦)، ولفظه: «هو مفعول به، المعنى: وهزي إليك بجذع النخلة رطبًا تساقط عليك».

(٢) بضم التاء وكسر القاف مخففة السين هي قراءة حفص، وقرأ حمزة: ﴿تَسَاقَطْ﴾ بفتح التاء مخففة السين، وقرأ شعبة بخلف عنه ويعقوب: ﴿يسَّاقَطْ﴾ بالياء على التذكير وفتحها وتشديد السين وفتح القاف، والباقون وهو الوجه الثاني لشعبة: ﴿تَسَّاقطْ﴾ بفتح التاء مشددة السين. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

والجنِيُّ بمعنَى: المُجتَنَى.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: كان جِذْعًا نَخِرًا، فلما هزَّتْ نظرَتْ إلى أعلى الجذعِ، فإذا السَّعَفُ قد أطلَعَ، ثمَّ نظرَتْ إلى الطَّلعِ قد خرجَ من بينِ السَّعَفِ، ثمَّ اخضرَّ فصار بلَحًا، ثمَّ احمرَّ فصار زَهْوًا ثمَّ رُطَبًا، كلُّ ذلك في طرفةِ عينٍ، فجعلَ الرُّطبُ يقعُ بين يدَيها في أقماعِه لا يتشدَّخُ منها شيءٌ[1].

وقيلَ: كان ذلك في الشِّتاءِ.

وقال قومٌ: كان هناك نهرٌ وماءٌ جارٍ ونخلةٌ نابتةٌ، ووجهُ المنّةِ: أنَّ الله ألطَفَ بها فجعلَ مخاضَها في مثلِ هذا الموضعِ ثمَّ قال: «لا تحزَني فإنَّ الله سيكفيكِ ما تخافينه».

والصَّحيحُ الأوَّلُ.

❊ ❊ ❊

(٢٦) ـ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَكُلِي﴾ أي: منَ الرُّطبِ ﴿وَاشْرَبِي﴾ منَ النَّهرِ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾؛ أي: بالولدِ، يُقالُ: «قَرَّ عينًا يَقَرُّ ويَقِرُّ» بضمِّ القافِ وكسرِها، «وأقرَّ الله عينَه فقرَّتْ»، وهو مأخوذٌ منَ القُرِّ والقِرَّةِ، وهما البردُ، ودمعةُ السُّرورِ باردةٌ، ودمعةُ الحزنِ حارّةٌ.

وقيلَ: الدَّمعُ كلُّه حارٌّ، فمعنى «أقرَّ الله عينَه»؛ أي: سكَّنَ الله عينَه بالنَّظرِ إلى مَن يُحبُّه حتَّى يَقرَّ ويَسكنَ، و«فلانٌ قرّةُ عيني»؛ أي: نفسي تسكنُ بقُربِه،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٣١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥١١) مختصراً بلفظ: «كان جذعاً يابساً، فقال لها: هزيه ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾».

وقال أبو عمرٍو: «أقرَّ الله عينَه»؛ أي: أنامَ عينَه وأذهبَ سهرَه(١).

و﴿عَيۡنٗا﴾ نصبٌ على التَّمييزِ، كقولك: «طِبْ نفسًا».

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ الأصلُ: «تَرْأَيينَ»، فحُذِفَت الهمزةُ كما حُذِفَت من «ترى»، ونُقِلَت فتحتُها إلى الرّاءِ، فصارَ «تَرَيْيْنَ»، فلمَّا تحَرَّكت الياءُ الأولى وانفتحَ ما قبلَها صارَت ألفًا، فاجتمعَ ساكنانِ: الألفُ المُنقلبةُ عن الياءِ، وياءُ التَّأنيثِ، فحُذِفت الألفُ لالتقاءِ السّاكنَين، فصارَ «تَرَيْنَ»، ثمَّ حذفت النُّونُ علامةً للجزمِ؛ لأنَّ «إمّا» حرفُ شرطٍ، فبقيَ «تَرَيْ»، ثمَّ دخلَه نونُ التَّوكيدِ ـ وهي مثقَّلةٌ ـ فكُسِرَ ياءُ التَّأنيثِ لالتقاءِ السّاكنَين؛ لأنَّ النُّونَ المثقَّلةَ بمنزلةِ نونَين، الأولى ساكنةٌ، فصارَ «تَرَيِنَّ»، وكذلك تقولُ للمرأةِ: «اخشَيِنَّ زيدًا».

﴿فَقُولِيٓ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فسألَكِ عن ولدِكِ فقولي: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ قيل: صَمْتًا؛ لأنَّ الصَّومَ إمساكٌ، والصَّمتَ إمساكٌ عن الكلامِ.

وقيلَ: هو الصَّومُ المعروفُ، وكان يلزمُهم الصَّمتُ يومَ الصَّومِ إلا بالإشارةِ.

وعلى هذا كان الصَّمتُ في الصَّومِ مُلتزَمًا بالنَّذرِ، كما أنَّ مَن نَذَرَ منَّا المشيَ إلى البيتِ اقتضى ذلك الإحرامَ بالحجِّ والعمرةِ، ومَن قال: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾؛ أي: التزَمْتُ صمتًا، فالمُرادُ: التزمتُ الصَّمتَ عن كلامِ الآدميِّينَ، وهو نوعٌ منَ القربةِ إلى الله.

قال القفَّالُ: مَن التزمَ بالنَّذرِ ألّا يُكلِّمَ الآدميِّينَ يحتمِلُ أن يُقالَ: «إنَّه قُربةٌ» فيلتزمُ

---

(١) انظر: «الفاخر» (ص: ٦)، و«الزاهر» (١/ ٢٠٠)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ٢٢٥)، و«البسيط» (١٤/ ٢٣٢). وأبو عمرو هنا هو الشيباني.

بالنَّذرِ، ويحتمِلُ أن يُقالَ: لا يجوزُ ذلك في شرعِنا؛ لِـمَا فيه منَ التَّضييقِ وتعذيبِ النَّفسِ، كنذرِ القيامِ في الشَّمسِ ونحوِه[1].

وعلى هذا كان نذرُ الصَّمتِ في تلك الشَّريعةِ لا في شريعتِنا[2].

ثمَّ، قيلَ: كان أذِنَ لـها في هذا القَدرِ، وهو أن تقولَ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ صمتًا ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ثمَّ تسكتَ ولا تتكلَّمَ بشيءٍ آخرَ.

وقيلَ: أي: قولي بلسانِكِ حينَئذٍ: «إنِّي نذرتُ أن لا أُكلِّمَ إنسيًّا»، فهو ابتداءُ النَّذرِ منها.

وقيلَ: إنَّما قالت هذا إشارةً لا نُطقًا، وإنَّما أُمِرَتْ بالصَّمتِ لتُظهِرَ براءَتَها بقولِ الصَّبيِّ؛ فإنَّه أبلَغُ في براءةِ ساحتِها، وقالت: ﴿إِنسِيًّا﴾ لأنَّها كانت تُكلِّمُ الملائكةَ، وقد يُقالُ: قال فلانٌ برأسِه؛ أي: أومأَ به.

وقيلَ: كان لمريمَ قرابةٌ يقالُ له: «يوسفُ» من أتقياءِ بني إسرائيلَ، فخبرَ بأمرِ مريمَ، فحملَها خوفًا من الملكِ عليها، ثمَّ سألَـها في الطَّريقِ عن ولدِها، فقالت مريمُ: رزقٌ رزَقَنيه الله، فلم يُصدِّقْها وأرادَ قتلَها، فأتاه جبريلُ فقالَ: إيّاكَ وإيّاها، فإنَّ ولدَها هذا روحُ القدُسِ، فرَقَّ لـها وانتبَذَ بها موضعًا بعيدًا.

***

(١) ذكره عنه النووي في «الروضة» (٣/ ٣٣٦)، وقال: الاحتمال الثاني أصح.

وصرح بنقل كلام القفال عن المصنف: الرافعي في «الشرح الكبير» (١٢/ ٤٠٤)، والسبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ١٦٥).

(٢) نقل الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ١٥١) كلام القفال عن المصنف وتذييله هذا عليه.

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه: خرجَتْ مريمُ من عندِهم حتَّى[1] تتشرَّقَ للشَّمسِ ليس بها قَلَبَةٌ، وجاءَتْهم عند الظُّهرِ ومعها صبيٌّ تحمِلُه، فكان الحملُ والولادةُ في ثلاثِ ساعاتٍ منَ النَّهارِ[2].

وقال الكلبيُّ: ولدَتْ حيثُ لم يشعُرْ بها قومُها، ومكثَتْ أربعينَ يومًا للنِّفاسِ، ثمَّ أتَتْ قومَها، فلمَّا رأَوها مع الصَّبيِّ حزِنُوا، وكانوا أهلَ بيتٍ صالحين[3]، فـ﴿قَالُوا۟﴾ مُنكِرينَ: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾؛ أي: جئتِ بأمرٍ عظيمٍ كالآتي بالشَّيءِ يفترَيه، والولدُ منَ الزِّنا كالشَّيءِ المُفترَى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]؛ أي: بولدٍ بقصدِ إلحاقِه بالزَّوجِ وليس منه.

والفَرِيُّ منَ الافتِراءِ، يُقالُ: «فَرَى وافترَى» كما يُقالُ: «خَلَقَ واختَلَقَ»؛ أي: كذَبَ، فالفَرِيُّ هو المُفترَى.

وقال أبو عُبيدةَ: الفَرِيُّ: العجبُ النّادرُ[4].

وقال قُطرُبٌ: الفَرِيُّ: الجديدُ منَ الأسقيةِ؛ أي: جئتِ بأمرٍ عجبٍ أو جديدٍ لم تُسبَقي إليه[5].

---

(١) في «البسيط»: «ضحى».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٣٦).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٣٦).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ٧).

(٥) ذكره عنه النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٣٢٧).

قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾ قيلَ: هو هارونُ أخو موسى، والمُرادُ: يا مَن كنّا نظُنُّها مثلَ هارونَ في الزُّهدِ.

وقيلَ على هذا: كانت مريمُ من ولدِ هارونَ أخي موسى، فنُسِبَتْ إليه بالأُخوّةِ لأنَّها من ولدِه، كما يُقالُ للتَّميميِّ: «يا أخا تميمٍ»، وللعربيِّ: «يا أخا العربِ».

وقيلَ: هارونُ هذا رجلٌ صالحٌ كان في ذلك الوقتِ تبعَ جنازتَه يومَ ماتَ أربعون ألفًا كلُّهم اسمُه هارونُ، ومعلومٌ أنَّه كان بينَ عيسى وبينَ موسى وهارونَ زمانٌ مديدٌ، فلا يُتخيَّلُ أنَّ مريمَ كانت أختَ موسى أو هارونَ(١).

وقال الكلبيُّ: هارونُ هذا كان أخًا لمريمَ من أبيها، وكان أمثَلَ رجلٍ في بني إسرائيلَ(٢).

وقيلَ: هارونُ هذا فاسقٌ مُعلِنٌ في بني إسرائيلَ فشُبِّهَتْ به.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾؛ أي: زانيًا ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾؛ أي: زانيةً، والمعنى: من أينَ هذا الولدُ؟

* * *

(٢٩) ـ ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ أشارَتْ لأنَّها كانت أُمِرَتْ بالصَّمتِ، فلمّا أشارَتْ

---

(١) وقد ورد في «صحيح مسلم» (٢١٣٥) ما يؤيد ذلك، فقد روى عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني. فقالوا: إنكم تقرؤن: يا أخت هارون. وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم».

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٧٠)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٣٨). وهو مخالف للحديث الصحيح السابق، ولا قول بعد قول رسول الله ﷺ.

إلى عيسى وهو يرضعُ نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ تعجُّبًا منها حين أشارَتْ إليه وقالوا: كيفَ نُكلِّمُ مَن هو صبيٌّ في المهدِ؟!

قيلَ: ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ؛ أي: كيف نُكلِّمُ مَن هو صبيٌّ في المهدِ؟!

وقيلَ: ﴿كَانَ﴾ بمعنى الوجودِ والحدوثِ، كقولِه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]؛ أي: وإنْ وقعَ ذو عسرةٍ.

وقال ابنُ الأنباريِّ: لا يجوزُ أن يُقالَ: ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، وقد نصبَ ﴿صَبِيًّا﴾، ولا أن يُقالَ: هو بمعنى «حدَثَ ووقَعَ»؛ لأنَّه إن كان بمعنى الحدوثِ والوقوعِ لاستُغنِيَ فيه عن الخبرِ، تقولُ: «كانَ الحرُّ» وتكتَفي به، فالصَّحيحُ أنَّ ﴿مَن﴾ في معنى الجزاءِ، و﴿كَانَ﴾ في معنى «يكونُ»، والتَّقديرُ: مَن يكونُ في المهدِ صبيًّا فكيفَ نُكلِّمُه؟! كما تقولُ: «كيف أُعطي مَن كانَ لا يقبلُ عطيَّةً؟! أي: مَن يكُنْ لا يقبَلُ، والماضي قد يُذكَرُ بمعنَى المُستقبلِ في الجزاءِ، كقولِه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]؛ أي: إن يشَأْ يجعَلْ، وتقولُ: «مَن كان منه إليَّ إحسانٌ كان منِّي إليه مثلُه»، و«مَن يكُنْ منه إليَّ إحسانٌ يكُنْ منِّي إليه مثلُه»(١).

﴿فِي الْمَهْدِ﴾؛ أي: في الموضعِ الذي هُيِّئَ لنومِ الصَّبيِّ.

وقيلَ: كان سريرًا كالمهدِ.

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٣٩)، وفي «الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٦١): «والذي نذهب إليه أن كان ويكون لا يجوز أن يكونا على خلاف ظاهرهما، إلا إذا وضح المعنى، فلا يجوز لقائل أن يقول: كان عبد الله قائماً، بمعنى يكون عبد الله، وكذلك محال أن يقول: يكون عبد الله قائما؛ بمعنى كان عبد الله، لأن هذا ما لا يفهم ولا يقوم عليه دليل؛ فإذا انكشف المعنى حمل أحد الفعلين على الآخر، كقوله جل اسمه: كيف نكلم من كان في المهد صبيا، معناه من يكون في المهد فكيف نكلمه! فصلح الماضي في موضع المستقبل لبيان معناه».

وقيلَ: المَهدُ هاهُنا: حِجْرُ الأمِّ، وكان في ذلك الوقتِ في حِجْرِ أمِّه، ولم يُعَدَّ له مَهدٌ بعدُ، وكلُّ مُستقَرٍّ فهو مهادٌ.

وقيلَ: أي: كيف نُكلِّمُ مَن سبيلُه أن يُنوَّمَ في المهدِ لصِغَرِه؟!

***

(٣٠ ـ ٣٣) ـ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ لمَّا أشارَتْ إليه غضِبُوا وقالوا: سُخرِيَتُها بنا في الإحالةِ على تكليمِ صبيٍّ أعظَمُ مـمّا صنعَتْ! وكان عيسى يرضعُ، فلمَّا سمعَ كلامَهم تركَ الرَّضاعَ وأقبلَ عليهم بوجهِه وأشارَ بسبّابتِه فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، فكان أوَّلَ ما نطقَ به الاعترافُ بعبوديَّتِه لله وبربُوبيَّةِ الله ردًّا على مَن غلا مِن بعدُ في شأنِه.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قيلَ: آتاه في تلك الحالةِ الكتابَ وفهَّمَه وعلَّمَه وآتاه النُّبوَّةَ كما علَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ابتداءً.

وقيلَ: أي: حكمَ لي بإيتاءِ الكتابِ والنُّبوّةِ في الأزلِ وإنْ لـم يكُنِ الكتابُ مُنزَلًا في الحالِ، والكتابُ هو الإنجيلُ.

وقيلَ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: عِلْمَ التَّوراةِ.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾؛ أي: ذا بركاتٍ ومنافعَ في الدِّينِ والدُّعاءِ إليه.

وقيلَ: البركةُ: الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكرِ.

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ على القولِ الأوَّلِ: أوصاني بها لأدائِها، وكان في تلك الحالةِ

مُكلَّفًا كما كان نبيًّا، وعلى الثّاني: أوصاني بها لأُؤَدِّيَها إذا أدركني التَّكليفُ وأمكنني أداؤُها، أو قضى أن يوصيَني بها إذا بلَغتُ.

وقد قال قومٌ من هؤلاءِ: إنَّما أنطقَه الله لإظهارِ براءةِ مريمَ، لا أنَّه كان ممَّن[1] يعقلُ في تلك الحالةِ، وهو كما يُنطِقُ الله الجوارحَ يوم القيامةِ.

وقد قال ابنُ عبّاسٍ: لم يتكلَّمْ بعدَ هذا إلى أن بلغَ مبلغَ تكلُّمِ الصِّبيانِ[2].

والأكثَرون على أنَّ الله أكمَلَ عقلَه في الصِّبا حتَّى صلحَ للأمرِ بالصَّلاةِ في ذلك الوقتِ.

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّه لم يُنقَلْ أنَّه كان يُصلِّي وهو ابنُ يومٍ أو شهرٍ، ولو كان يدومُ نطقُه وتسبيحُه ووعظُه وصلاتُه[3] في صِغَرِه من وقتِ الولادةِ لكان مثلُه ممَّا لا ينكتِمُ.

وقيلَ: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: لآمرَ بها الخلقَ، وهذا يشيرُ إلى أنَّه وإن كان لا يُصلِّي في صِغَرِه كان يدومُ نطقُه ووعظُه وأمرُه لهم بالصَّلاةِ.

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي: بإخراجِ زكاةِ المالِ.

وقيلَ: أرادَ بالزَّكاةِ: تطهيرَ الجسدِ من دنسِ الذُّنوبِ؛ إذ لم يكُنْ لعيسى مالٌ يُزكِّي منه.

---

(١) في (أ): «ممن كان».

(٢) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٦٣٦) من طريق الضحاك، ونحوه في «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٢٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٧٣) عن عمرو بن ميمون.

(٣) في (أ): «في صلاته».

قولُه تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾؛ أي: جعلَني نبيًّا مُبارَكًا وبرًّا بأمِّي مُؤدِّيًا لشكرِها فيما قاسَتْ بسببِ تربيَتي.

قال ابنُ عبّاسٍ: لمَّا قال: ﴿بِوَٰلِدَتِي﴾ ولم يقُلْ: «بوالدِيَّ» عُلِمَ أنَّه شيءٌ من جهةِ الله تعالى[١].

قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾؛ أي: مُتعظِّمًا يقتُلُ ويضرِبُ على الغضبِ.

وقيلَ: الجبَّارُ الذي لا يرَى لأحدٍ عليه حقًّا.

﴿شَقِيًّا﴾؛ أي: عاصيًا لربِّه.

وقيلَ: لم يجعَلْني تارِكًا لأمرِ الله فأشقَى كما شقِيَ إبليسُ لـمَّا ترَكَ أمرَه.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ قال الزَّجَّاجُ: ذُكرَ السَّلامُ قبلَ هذا بغيرِ ألفٍ ولامٍ فحَسُنَ في الثّانيةِ ذكرُ الألفِ واللّامِ، وهو مصدرُ «سلَّمْتُ سلامًا»[٢]؛ أي: السَّلامةُ عليَّ منَ الله يومَ وُلِدتُ حتَّى لم يضُرَّني شيطانٌ، والسَّلامُ عليَّ يومَ أموتُ ويومَ أُبعَثُ.

وفي الخبرِ: «ما من مولودٍ إلّا ويطعَنُ الشَّيطانُ في جنبِه، وذلك حينَ يستَهِلُّ صارِخًا، إلا عيسى ابنَ مريمَ؛ فإنَّه ذهبَ يطعَنُ فطَعَنَ في الحجابِ»[٣].

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٢٩)، و«البسيط» للواحدي (١٤/ ٢٤٣).

(٣) رواه البخاري (٣٢٨٦)، ومسلم (٢٣٦٦)، بألفاظ متقاربة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٤) - ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: ذلك الذي ذكَرْناه عيسى ابنُ مريمَ، فكذلك اعتَقِدُوه، لا كما تقولُ اليهودُ: إنَّه لغيرِ رِشدةٍ، وإنَّه ابنُ يوسفَ النَّجَّارِ، ولا كما قالتِ النَّصارَى فقالوا: إلهٌ وابنُ إلهٍ.

﴿قولُ الحقِّ﴾؛ أي: هذا قولُ الحقِّ فيما يمتَرونَ فيه من أمرِ عيسى وأمِّه؛ أي: هذا القولُ الحقُّ، فأُضيفَ القولُ إلى الحقِّ كما قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ أي: الوعدَ الصِّدقَ، وقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]؛ أي: وللدّارُ الآخرةُ.

وقيلَ: (الحقُّ) هاهُنا هو الله؛ أي: هذا قولُ الله الذي تـمتَرون فيه؛ أي: في ذلك القولِ.

وقيلَ: القولُ: الكلمةُ؛ أي: ذلك عيسى ابنُ مريمَ كلمةُ الله، وقولُه: ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، فيقولُ اليهودُ كذا، والنَّصارَى كذا، مع اختلافِ النَّصارَى أيضًا، ويقولُ المسلمون ما هو الحقُّ.

وقُرِئَ: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: ذلك عيسى ابنُ مريمَ قولًا حقًّا، وهو كما تقولُ: «هذا عبدُ الله أسدًا عادِيًا»، وتقولُ: «هذا عبدُ الله الأسدُ عادِيًا»؛ أي: ذلك عيسى ابنُ مريمَ الذي فيه يمتَرونَ القولَ الحقَّ؛ أي: قولًا حقًّا.

﴿ٱلَّذِي﴾ من نعتِ عيسى ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: يشُكُّونَ.

* * *

---

(١) قرأ بها عاصم وابن عامر، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٣٥) ـ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ لمَّا قالتِ النَّصارَى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ نزَّهَ الله نفسَه عن ذلك؛ أي: ليس ذلك مـمَّا يليقُ به.

وقيلَ: أي: ما كانَ اللهُ ليتَّخِذَ[1] من ولدٍ؛ كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]؛ أي: ما كانَ نبيٌّ ليغُلَّ.

﴿مِن وَلَدٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدةٌ، ولكنَّها تُفيدُ استغراقَ الجنسِ، كقولِك: «ما في الدّارِ من رجلٍ».

﴿سُبْحَانَهُۥٓ﴾؛ أي: هو مُنزَّهٌ عن ذلك ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: لا يُستَبْدَعُ منه خلقُ عيسى من غيرِ أبٍ؛ لأنَّه إذا أراد شيئًا قالَ له: «كُنْ» فكانَ.

قُرِئَ: ﴿فيكونَ﴾ بالنَّصبِ؛ لأنَّه جوابُ الأمرِ بالفاءِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[2]؛ أي: فهو يكونُ.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ قُرِئَ (أَنَّ) بالفتحِ؛ أي: ذلك عيسى ابنُ مريمَ، وذلك أنَّ الله ربِّي وربُّكم، فهو في محلِّ الرَّفعِ.

وقيلَ: ولأنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبُدوه.

---

(١) في (أ) و(ج): «أن يتخذ»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٣٨٣)، و«الهداية» لمكي (٧/ ٤٥٣٨)، و«البسيط» (١٦/ ١٣١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣١)

(٢) قرأ بها ابن عامر، وباقي السبعة بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ٧٦).

وقيلَ: أوصاني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ وبأنَّ الله ربِّي وربُّكم، أو: وقضَى الله أنَّ الله ربِّي وربُّكم.

وقُرِئَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بالكسرِ على الاستئنافِ[1]؛ أي: قال لهم عيسى: (إنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبُدوه).

وقيلَ: هو مـمَّا أمرَ الله به نبيَّه عليه السَّلامُ أن يقولَه لأهلِ الكتابِ؛ أي: وقُلْ: (إنَّ الله ربِّي وربُّكم).

* * *

(٣٧) ـ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: الفِرَقُ من أهلِ الكتابِ؛ أي: اختلَفُوا في عيسى بعد أن كانَ في مولدِه ومنشَئِه ما كانَ، فقدحَ فيه اليهودُ وقبِلَه النَّصارَى، ثمَّ تحزَّبَتِ النَّصارَى وتفرَّقَتْ إلى اليعقوبيَّةِ والنُّسطُوريَّةِ والمَلْكانيَّةِ.

﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ قيلَ: من بينِ النَّصارَى؛ فإنَّ عيسى صلواتُ الله وسلامُه عليه لـمَّا رُفِعَ تحزَّبُوا في أمرِه، واجتمَعُوا فاختاروا ثلاثةً من رُؤساِئهم لينظُروا ما يقولون في عيسى، فقال واحدٌ منهم: هو الإلهُ، وقال الثَّاني: ابنُ الإلهِ، وقال الثَّالثُ: ثالثُ ثلاثةٍ، واجتمعَ على كلِّ واحدٍ منهم حزبٌ وتابعُوه على قولِه، فقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: من جملةِ الذين آمَنوا بعيسى؛ إذ كان بين أظهُرِهم.

وقيلَ: ﴿مِنۢ﴾ زائدة؛ أي: اختلفَ الأحزابُ بينهم، كما تقولُ: «ما رأيتُ من أحدٍ»، و«ما رأيتُ أحدًا»، والمعنى: اختلَفُوا فيما بينَهم.

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الهمزة، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: من هؤلاءِ الأحزابِ؛ لأنَّ في الفِرَقِ مَن قال بالحقِّ، وهم المسلمون، فيحتملُ أن تكونَ الأحزابُ راجعةً إلى اليهودِ والنَّصارَى والمسلمين ثمَّ الويلُ للكافرينَ، ويحتملُ أن يكونَ المُرادُ بالأحزابِ الكفّارَ؛ أي: كلُّهم كفرُوا، ولـم يتناولِ اللَّفظُ المسلمينَ.

﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: من خِزْيِ يومِ القيامةِ إذ[1] تبرَّأَ عيسى منهم، والمشهدُ بمعنَى المصدرِ؛ أي: من شهودِ يومِ القيامةِ، والشُّهودُ: الحضورُ، ويجوزُ أن يكونَ الحضورُ لهم، ويُضافُ إلى الظَّرفِ لوُقوعِه فيه كما يُقالُ: ويلٌ لفلانٍ من قتالِ يومِ كذا؛ أي: من حُضورِه ذلك اليومَ.

وقيلَ: المشهدُ بمعنَى الموضـعِ الذي يشهدُه الخلائقُ، كالمحشرِ للموضعِ الذي يُحشَرُ إليه الخلقُ.

وقيلَ: فويلٌ للَّذين كفروا من حُضورِهم المشهدَ العظيمَ الذي اجتمَعُوا فيه للتَّشاوُرِ، فاجتمَعُوا على الكفرِ بالله، وقالوا[2]: إنَّ الله جلَّ وعلا ثالثُ ثلاثةٍ.

***

(٣٨) ـ ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾؛ أي: ما أسمَعَهم وما أبصرَهم يومَ القيامةِ، وأعلَمَهم بأنَّ عيسى ليس إلـهًا، ولا ابنَ إلهٍ، ولا ثالثَ ثلاثةٍ.

وقيلَ: السَّمعُ بمعنَى الطّاعةِ؛ أي: ما أطوَعَهم لله ذلك اليومَ.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وأيُّ ضلالٍ أبيَنُ من أن

---

(١) في (أ): «إذا».

(٢) في (ج): «وقولهم».

يعتقِدَ المرءُ في شخصٍ مثلِه حملتْه أرحامُ النِّساءِ وأكلَ وشربَ وأحدَثَ واحتاجَ أنَّه إلهٌ؟ ومَن هذا وصفُه فهو أصمُّ وأعمى، ولكنَّه سيُبصِرُ ويسمعُ في الآخرةِ إذا رأى العذابَ، ولكنْ لا ينفعُه ذلك.

***

(٣٩) ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: يومَ القيامةِ[١]، يومَ يتحسَّرُ فيه المُسيءُ هلّا أحسَنَ العملَ، والمُحسِنُ هلّا ازدادَ منَ الإحسانِ.

وقيلَ: تتحقَّقُ الحسرةُ حين يُذبَحُ الموتُ، ويُقالُ: يا أهلَ الجنّةِ خلودٌ فلا موتَ فيه، ويا أهلَ النّارِ خلودٌ فلا موتَ[٢]، فلو ماتَ أحدٌ فرَحًا لـماتَ أهلُ الجنّةِ، ولو ماتَ أحدٌ حُزنًا[٣] لـماتَ أهلُ النّارِ، وحينَئذٍ تعظمُ حسرةُ الكفّارِ.

وفي الخبرِ: «لولا ما قضَى الله من تخليدِ أهلِ النّارِ فيها لَـماتُوا حسرةً حين رأَوا ذلك»[٤].

---

(١) بعدها في (ج): «وهو».

(٢) جاء هذا مرفوعاً رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾».

(٣) في (ج): «جزعًا».

(٤) ورد ذلك في رواية الترمذي (٣١٥٦) لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه السابق، وفيه: =

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: فُرِغَ منَ الحسابِ، فأُدخِلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ، وأهلُ النّارِ النّارَ، والمعنى: إذ يُقضى الأمرُ.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ أي: في الدُّنيا عن ذلك اليومِ.

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يُصدِّقونَ بالبَعثِ.

وقيلَ: وأنذِرْهُم إذ قُضِيَ الأمرُ؛ أي: لأنَّه قُضِيَ الأمرُ وحقَّ الخبرُ منَ الله بعذابِ الكفّارِ فإنَّهم في غفلةٍ عن هذا الخبرِ.

* * *

(٤٠) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: نُميتُ سكّانَها فنرثُها.

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يومَ البعثِ للجزاءِ حيثُ لا حُكمَ لأحدٍ غيرِنا.

* * *

(٤١ ـ ٤٥) ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: واقرَأْ عليهم منَ القرآنِ أمرَ إبراهيمَ، فقد عرَفُوا أنَّه[1] من ولدِه، وأنَّه كان حنيفًا مسلمًا، وما كان يتَّخِذُ الأندادَ، فهؤلاءِ

= «فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحاً، ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها والبقاء لماتوا ترحاً»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) في (ج): «أنهم».

لِـمَ يتَّخِـذُونَ الأندادَ؟ وهذا كمـا قـالَ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾؛ أي: مُبالغًـا فـي الصِّـدقِ؛ أي: هـو أهـلٌ للاقتِـداءِ بـه فهـلّا اقتَـدَوا به؟

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسرِ التّاءِ على الإضافةِ، وقد حُذِفَتْ ياءُ الإضافةِ.

وقُرِئَ: ﴿يا أبتَ﴾ بالفتحِ[1]؛ أي: يا أبتَا، فأُسقِطَتْ ألفُ النُّدبةِ، فبقيَتِ التّاءُ مفتوحةً.

﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ يعني: الأصنامَ، ومَن لا يسمعُ ولا يُبصِرُ لا يعلَمُ فلا يستحقُّ العبادةَ.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: منَ اليقينِ والمعرفةِ باللهِ عزَّ وجلَّ ﴿مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ قيلَ: يعني: الوحيَ.

﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾؛ أي: اقتَـدِ بـي فيما جاءَنـي منَ اللهِ ﴿أَهۡدِكَ﴾؛ أي: أُرشِـدْكَ إلى دينٍ مُستقيمٍ.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أي: لا تُطِعْه، ومَن أطاعَ شيئًا في معصيةِ اللهِ فقد عبَدَه.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيًّا﴾؛ أي: إنَّه قديمُ المعصيةِ للهِ، فهو لا يُريدُ بك خيرًا.

وقيلَ: ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ.

وقيلَ: إنَّه بمعنى: «صارَ».

---

(١) قرأ بفتح التاء ابن عامر في جميع القرآن. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

وقيلَ: بمعنَى الحالِ؛ أي: كائنٌ.

والعَصِيُّ بمعنَى[1] العاصي، كالقديرِ والقادرِ.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾؛ أي: أخشى إنْ دُمْتَ على ما أنتَ عليه ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾؛ أي: أن يُصيبَكَ ﴿عَذَابٌ مِّنَ﴾ الله بطاعتِكَ للشَّيطانِ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾؛ أي: يُقرَنُ بينكما في النّارِ.

وقيلَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾؛ أي: أعلَمُ.

وقيلَ: فتكونَ للشَّيطانِ وليًّا في الدُّنيا؛ أي: تُطيعُه، ومَن كان للشَّيطانِ وليًّا في الدُّنيا كان للشَّيطانِ قرينًا في الآخرةِ وإنْ تباغَضا وتبرَّأَ البعضُ عنِ البعضِ.

وقيلَ: ﴿وَلِيّٗا﴾؛ أي: تابعًا تاليًا للشَّيطانِ، كما يُسمَّى المطرُ الذي يأتي بعد الوسميِّ: الوليَّ، وأصلُه: الوالي، ثمَّ قيلَ: الوليُّ، وهو كالعاصي والعصيِّ، والقاصي والقصيِّ.

* * *

(٤٦) - ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾؛ أي: لم يسمَعْ حُجّةَ إبراهيمَ، وقال: أتارِكٌ أنتَ عبادةَ هذه الأصنامِ؟ يُقالُ: رغِبَ عنِ الشَّيءِ؛ أي: تركَه عمدًا.

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾؛ أي: لَئِنْ لم تمتنِعْ عن شتمِها وعيبِها ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾؛ أي: لأشتُمَنَّكَ، والرَّجمُ: الرَّميُ، والشَّتمُ: رميٌ بالكلامِ.

وقيلَ: لأرمينَّكَ بالحجارةِ عقوبةً.

---

(١) في (ج): «مثل».

وقيلَ: لأُبعِدَنَّك عن نفسي.

وقيلَ: أي: لأقتُلَنَّكَ.

﴿وَٱهْجُرْنِى﴾؛ أي: تباعَدْ عنِّي واعتَزِلْني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمانًا طويلًا، من «أملَى يُملي»؛ أي: أجَّلَه، ومنه: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، و«تملَّيتُ العيشَ»؛ أي: عِشْتُ مليًّا؛ أي: طويلًا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: اهجُرني سالِـمًا سوِيًّا قبلَ أن يُصيبَكَ منِّي مكروهٌ[١].

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ المليَّ بالأمرِ أصلُه الهمزُ؛ من ملُؤ يَمْلُؤُ ملاءةً فهو مليءٌ، ولـم يُروَ عن القُرَّاءِ: «مليئًا» بالهمزِ.

***

(٤٧) ـ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ لـم يُعارِضْه إبراهيمُ بسوءِ الرَّدِّ؛ لأنَّه لـم يُؤمَرْ بقتالِه على كفرِه.

وقيلَ لابنِ عُيينةَ: هل يجوزُ السَّلامُ على الكافرِ؟ فقالَ: نعم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال إبراهيمُ لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾[٢]؛ أي: أمَنةٌ منِّي في ظاهرِ الحالِ فلا أقصدُكَ بمكروهٍ.

وقيـلَ: أرادَ: سـلامٌ عليـكَ قد فارقتُكَ، كما يقـولُ الرَّجلُ لغيرِه عنـد المُفارقةِ: سلامٌ عليكَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٠).

(٢) انظر: «التفسير البسيط» (١٤/ ٢٥٩). وعزاه ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٩) للطبري.

وقيلَ: هو بمعنى قولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ أي: لـم يُقاتِلُوهم على جهلِهم بالجهلِ.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ وقد بيَّنَ في موضعٍ آخرَ أنَّه إنَّما استغفرَ له لوعدٍ سبقَ في الإيمانِ، فلمَّا تبيَّنَ له أنَّه عدوٌّ لله تبرَّأَ منه.

وقيلَ: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ لِـمَا سبقَ من ذنبِكَ إن تركتَ الشِّركَ.

وقيلَ: أي: سأدعُو الله أن يرزُقَكَ الإيمانَ، فلمَّا ماتَ على الشِّركِ تبرَّأَ منه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، أي: لطيفًا بارًّا، وقيلَ: عالِـمًا.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾؛ أي: أتنحَّى عنكم وأفارِقُكم ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تعبُدون؛ أي: الأصنامَ.

﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾؛ أي: أعبدُه ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾؛ أي: أرجو أن لا أشقَى بعبادتِه، وقولُه: ﴿عَسَىٰٓ﴾ يدلُّ على أنَّ العبدَ لا يُقطَعُ بأنَّه يبقَى على المعرفةِ أم لا في المُستقبلِ.

وقيلَ: عنَى دُعاءَه لأبيه بالهدايةِ، فـ﴿عَسَىٰٓ﴾ شكٌّ؛ لأنَّه كان لا يدري هل يُستَجابُ له فيه أم لا.

وقيلَ: أرادَ بهذا الدُّعاءِ دعاءَه بأن يهبَ الله له أهلًا وولدًا يتقوَّى بمكانِهم حتَّى لا يستَوحِشَ بالاعتزالِ عن قومِه وهم عبَدةُ الأصنامِ، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩].

(٤٩) - ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ﴾؛ أي: فارقَهم وخرجَ إلى ناحيةِ الشّامِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واعتزَلَ أصنامَهم ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾؛ أي: آنَسْنا وحشتَه من فراقِهم بأولادٍ كرامٍ على الله.

﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: من هذَينِ ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

* * *

(٥٠) - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾؛ أي: من نعمَتِنا؛ يعني: المالَ والولدَ.

وقيلَ: الكتابَ والنُّبوّةَ.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾؛ أي: علَّينا ذِكرَهم في الآخِرينَ إلى قيامِ السّاعةِ.

وقيلَ: ما من أهلِ مكّةَ إلّا وهم يتولَّونَ إبراهيمَ.

وقيلَ: هذا اللِّسانُ العليُّ: ما أُمِرُوا به منَ الدُّعاءِ إلى الله، واللِّسانُ يُذكَرُ والمُرادُ به القولُ، والعليُّ: العالي، كالقاصي والقصيِّ.

* * *

(٥١ - ٥٣) - ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: واقرأْ عليهم منَ القرآنِ قصّةَ موسى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلِصًا﴾ بكسرِ اللّامِ؛ أي: أخلَصَ العبادةَ لله، وأخلَصَ نفسَه

لطاعةِ الله عزَّ وجلَّ، وقُرِئَ بفتحِ اللّامِ[1]؛ أي: أخلَصَه الله مِنَ الدَّنَسِ والآثامِ.

قولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾؛ أي: حينَ أقبَلَ من مدينَ ورأى النّارَ منَ الشَّجرةِ وهو يُريدُ مَن يهديهِ إلى طريقِ مصرَ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾؛ أي: من ناحيةِ الجبلِ، وهو جبلٌ بين مدينَ ومصرَ ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ يعني: يمينَ موسى، و﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ نعتٌ للجانبِ لا للطُّورِ.

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾؛ أي: أدنَيناه بتقريبِ المنزلةِ حتَّى كلَّمناه بما لم نكلِّم[2] به غيرَه، والنَّجِيُّ: المُناجي، كالجليسِ والنَّديمِ، والله أعلَمُ.

قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾؛ أي: من نعمتِنا ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾؛ أي: حيثُ سألَ فقالَ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ [طه: ٢٩].

﴿نَبِيّٗا﴾ نصبٌ على تقديرِ: وهَبْنا له نبيًّا أخاه هارونَ، فقولُه: ﴿أخاه﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿نَبِيّٗا﴾، وهارونُ أكبرُ سِنًّا من موسى، وإنَّما وُهِبَتْ له نُبوَّتُه.

وقيلَ: ﴿مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾؛ أي: برحمتِنا.

* * *

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ قيلَ: لم يعِدْ شيئًا إلّا وفَّى به.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٢) في (ج): «لم يكلم».

وقيلَ: وعَدَه إنسانٌ أن يعودَ إليه، ووعدَه بالانتظارِ، فلم يبرَحْ من مكانِه سنةً حتَّى أتاه جبريلُ فقال: إنَّ الفاجرَ الذي سألَكَ أن تقعُدَ حتَّى يعودَ إليك إبليسُ؛ فلا تقعُدْ ولا كرامةَ له[1].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾؛ أي: جُمِعَ له الأمرانِ؛ إذ رُبَّ نبيٍّ لا يكونُ رسولًا.

ثمَّ قيلَ: أُرسِلَ إسماعيلُ إلى جُرهُمَ، وكلُّ الأنبياءِ كانُوا إذا وعَدُوا صدَقُوا، ولكنَّ الله تعالى خصَّ إسماعيلَ بالذِّكرِ تشريفًا له.

وقيلَ: ﴿الْوَعْدِ﴾: النَّذرِ، كقولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ إلى قولِه: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: ٧٧].

واستُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ الذَّبيحَ إسماعيلُ؛ لأنَّه وعدَ أباه بالصَّبرِ فقالَ:

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٦٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه بدل «فلم يبرَحْ من مكانِه سنةً»: «وكان في ضميره أن لو أقام سنة لم يخلفه موعده»، يعني: أنه لم يمكث السنة بل كان في ضميره أن الوفاء بالوعد يستحق ذلك، وهذا أولى من رواية المصنف ـ إن صح الخبر ـ من الجزم بأنه انتظره سنة، فهذا شيء عجيب غريب!!

وأعجب منه وأغرب ما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١١) عن سفيان الثوري بلفظ: «بلغني إن إسماعيل وصاحباً له أتيا قرية، فقال له صاحبه: إما إن أجلس وتدخل فتشتري طعاما زادنا، وإما إن أدخل فأكفيك ذلك، فقال له إسماعيل: بل ادخل أنت وأنا أجلس أنتظرك، فدخل ثم نسي فخرج، فأقام مكانه حتى كان الحول من ذلك اليوم، فمر به الرجل، فقال له: أنت هاهنا حتى الساعة؟ قال: قلت لك: لا أبرح حتى تجيء، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

ويؤيد ما ذكرنا ما رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٦١) عن سهل بن عقيل بنحو تلك القصة. وفيه أنه انتظره حتى الغد. وهذا هو الصواب إن صحت القصة، والله أعلم.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثمَّ وفَّى بذلك.

قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ قيلَ: قومَه وأمَّتَه، وقيلَ: أقارِبَه.

﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي: بالشَّرائعِ التي وُظِّفَتْ عليهم.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ يُقالُ: «مَرضِيٌّ ومَرضُوٌّ»، مثلَ «أرضٌ مَسْنِيَّةٌ ومَسْنُوَّةٌ»؛ أي: سُقِيَتْ بالسَّواني.

قالَ الفرّاءُ: الأصلُ الواوُ بدليلِ الرِّضوانِ، ومَن قالَ: «مَرضِيٌّ» بناه على: رضيتُ(١).

* * *

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾؛ أي: اقرأه عليهم واذكُرْ لهم منَ القرآنِ بأنه ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾؛ أي: لكونِه صدِّيقًا نبيًّا رفَعْناه مكانًا عليًا، فشهَرْنا ذكرَه في الكتُبِ المنزلةِ على مَن بعدَه منَ الأنبياءِ.

وقيلَ: أي: رفَعْناه إلى الجنّةِ، والقِصّةُ فيه معروفةٌ(٢).

وفي خبرِ المعراجِ: «رأيتُ إدريسَ في السَّماءِ الرّابعةِ»(٣)، فعلى هذا يعني:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٦٩).

(٢) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٠٢) عن وهب بن منبه، والغالب أنها من الإسرائيليات.

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) من حديث أنس عن مالك بن صعصة، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

ورفَعْناه إلى السَّماءِ الرّابعةِ ولـم يمُتْ، وهو كما رُفِعَ عيسى(١).

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ: أنَّه رُفِعَ إلى السَّماءِ السّادسةِ(٢).

***

(٥٨) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: فتخلَّقُوا بأخلاقِهـم ولا ترفَّعُوا عـن عبـادةِ الله والسُّـجودِ لـه، فإنَّهم لـم يترفَّعُـوا، فـكان المُشـركونَ يترفَّعُونَ عن الانحنـاءِ للرُّكـوعِ والسُّـجودِ حتَّـى شـرطَ بعضُهـم أنْ لا ينحنـيَ؛ أي: لا يركعَ ولا يسـجدَ لو أسـلمَ(٣).

---

(١) كذا قال، ولا دليل في الحديث على شيء من هذا، ففيه أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وعيسى ويحيى في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، فليس في الحديث دلالة على خصيصة لإدريس بذلك.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٦٤) عن ابن عباس بإسناد ضعيف، وعن الضحاك.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٩١٣)، وأبو داود (٣٠٢٦) من طريق الحسن عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: أن وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قدِموا على رسولِ الله ﷺ أنزلَهم المسجدَ ليكون أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا عليه أن لا يُحْشَروا ولا يُعْشَرُوا ولا يُجَبُّوا، فقال رسولُ الله ﷺ: «لكم أن لا تُحشَروا ولا تُعشَروا، ولا خيرَ في دِين ليس فيه ركوعٌ». ورجاله ثقات، إلا أن في سماع الحسن ـ وهو البصري ـ من عثمان بن أبي العاص اختلافاً، وقد أورد البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢١٢) عن الحسن ما يثبت سماعه منه، وهو قوله: كنا ندخل على عثمان بن أبي العاص. قوله: «لا يجبوا» أصل التجبية: أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقيل: هو أن يضع يده على ركبتيه وهو قائم، وقيل: هو أن يَنْكَبَّ على وجهه باركاً، وهو السجود، والمراد بقولهم: «لا يجبُّوا» أنهم لا يُصَلُّون، ولفظ الحديث يدل على الركوع. انظر: «جامع الأصول» (٨/ ٤١٣).

وقال أبو طالبٍ: إنِّي لأكرَهُ أن تقولُ نساءُ قريشٍ: إنَّ أبا طالبٍ علَتْه استُه[1].

فبيَّنَ الرَّبُّ أنَّ زكريّا دَعا ربَّه في صلاتِه فأُجيبَ إلى الولدِ، وكذا يحيَى وعيسى أُمِرا بالصَّلاةِ، وقال عيسى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٣١]، وأخبرَ عن إسماعيلَ أنَّه كان يأمرُ أهلَه بالصَّلاةِ، وقال لموسى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وذكرَ المِحرابَ في حقِّ مريمَ، ولهذا ذمَّ بعد هذه الآياتِ مَن ترفَّعَ عن الصَّلاةِ فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: ٥٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين تقدَّمَ ذِكرُهم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ خصَّهم بالذِّكرِ وإنْ أنعمَ على غيرِهم أيضًا، والمعنى: أنعَمَ الله عليهم بالنُّبوَّةِ، والاقتداءُ بهم أولى من تقليدِ الجهّالِ.

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يعني: إدريسَ ونوحًا ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: وفيهم مَن هو من ذُرِّيةِ مَن حمَلْنا مع نوحٍ؛ أي: وكانوا في أصلابِ مَن حمَلْنا مع نوحٍ، وهو إبراهيمُ.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ.

﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: ومن ذُرِّيةِ إسرائيلَ، وإسرائيلُ هو يعقوبُ، فمن ذُرِّيةِ إسرائيلَ موسى وهارونُ وزكريّا ويحيى وعيسى، فكانَ لإدريسَ ونوحٍ شرفُ القُربِ من آدمَ، ولإبراهيمَ شرفُ القُربِ من نوحٍ، ولإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ شرفُ القربِ من إبراهيمَ.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾؛ أي: هؤلاءِ كانُوا مـمَّن اصطفَينا، وهو كما تقولُ: «زيدٌ من نسلِ فلانٍ ومن قومٍ صالحينَ»، تُريدُ بالقومِ الصّالحينَ نسلَه أيضًا.

---

(١) ذكره الحليمي في «المنهاج في شعب الإيمان» (٢/ ٤٧٣) دون سند.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وصفَهم بالخشوعِ لله، والبُكِيُّ: جمعُ الباكي، مثلَ: ساجدٍ وسُجودٍ، وقاعدٍ وقعودٍ.

***

(٥٩) ـ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ قيل: عنَى الكفّارَ.

وقيلَ: هم قومٌ من هذه الأمّةِ في آخرِ الزَّمانِ، والـخَلْفُ ـ بسكونِ اللّامِ ـ: البدلُ السَّيِّئُ(١).

﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أهمَلُوها وترَكُوها.

وقيلَ: أخَّروها عن الوقتِ.

وقيلَ: شرِبُوا الخمرَ فأضاعُوا أوقاتَ الصَّلواتِ.

وقال الحسنُ: عطَّلُوا المساجدَ، واشتغَلُوا بالضِّياعِ والأسبابِ(٢).

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ أي: اللّذّاتِ والمعاصي.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: الغَيُّ: وادٍ في جهنَّمَ أُعِدَّ للغاوينَ(٣).

---

(١) في «أمالي الزجاجي» (ص: ٧٣ ـ ٧٤): «والخلَف بفتح اللام مستعمل في الخير والشر، فأما الخلف بتسكين اللام فلا يكون إلا في الذم».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٧١).

(٣) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٠٩)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ١٨٨). ورواه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (٣٨)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٠٦)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقيلَ: شرًّا وخيبةً وعذابًا، والغَيُّ: الفسادُ، ومنه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؛ أي: فسَدَ عيشُه.

وقيلَ: أي: فسوفَ يلقَونَ جزاءَ الغَيِّ، كقولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [افرقان: ٦٨]؛ أي: جزاءَ الإثمِ.

***

(٦٠ ـ ٦٣) ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾؛ أي: فسوفَ يلقَونَ غيًّا إلّا التّائبينَ، ويجوزُ أن يكونَ استثناءً من غيرِ الجنسِ؛ أي: لكنْ مَن تاب.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يُنقَصُونَ من طاعاتِهم شيئًا، ولا من ثوابِهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ هو بدَلٌ من قولِه: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، والعَدْنُ: الإقامةُ.

﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: غابُوا عمَّا فيها؛ إذ في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سمِعَتْ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾؛ أي: لا بدَّ من أن يُؤتَى عليه ويُصارَ إليه.

ولو قال: «آتيًا» لجازَ، ولكنَّه قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ لمُشاكلةِ رُؤوسِ الآيِ، وأيضًا كلُّ ما أتاكَ فقد أتيتَه، وتقولُ: أتيتُ على ستِّينَ سنةً، وأَتَتْ عليَّ ستُّونَ سنةً.

وقال ابنُ جريرٍ: الوعدُ هاهُنا: هو الموعودُ، وهو الجنَّةُ؛ أي: يُؤتيها أولياءَه(١).

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٥٧٥).

قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ اللَّغوُ: ما سبيلُه أن يُلغَى ويُطَّرَحَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: هو كلُّ ما لـم يكُنْ فيه ذكرُ الله تعالى[1]؛ أي: كلامُهم في الجنّةِ حمدُ الله وتسبيحُه.

﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾؛ أي: لكن يسمعونَ سلامًا؛ يعني: سلامَ بعضِهم على بعضٍ، وسلامَ الملَكِ عليهم.

وقيلَ: لا يسمَعُونَ ما يُؤلِـمُهم[2]، وإنَّما يسمَعُونَ ما يُسلِّمُهم منَ الآفاتِ.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: لهم ما يشتَهُونَ مـنَ المـطاعمِ والمـشاربِ ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ أي: في قَدْرِ هذَينِ الوقتَينِ؛ إذ لا بُكرةَ ثَمَّ ولا عشيَّ، وهو كقولِه: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]؛ أي: قَدْرُ شهرٍ.

وقيلَ: عرَّفَهم اعتدالَ أحوالِ أهلِ الجنّةِ، وكان أهنأَ النِّعمةِ عند العربِ التَّمكُّنُ منَ المطعمِ والمشربِ بُكرةً وعشيًّا، فبيَّنَ أنَّ في الجنة أهلَها على نهايةِ التَّنعُّمِ وفي اعتدالِ الحالِ، فلا شتمَ ولا سقمَ ولا ضررَ عليهم.

وقيلَ: أي: رزقُهم فيها غيرُ مُنقطعٍ، كما قال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣]، وهو كما تقولُ: «أنا أُصبِحُ وأُمسي في ذِكرِكَ»؛ أي: ذِكري لك دائمٌ.

قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ أي: هذه الجنّةُ التي وصَفْنا أحوالَ أهلِها نُورِثُها الأتقياءَ دونَ الكفرةِ وخَلْفِ السُّوءِ الذين يُضيِّعونَ الصَّلواتِ ويتَّبِعُونَ الشَّهواتِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٧٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ج): «يؤثمهم».

وقيلَ: أُعِدَّ لكلِّ شخصٍ منزلٌ في الجنّةِ، فما أُعِدَّ للكفّارِ لو آمنُوا يُصرَفُ إلى المُؤمنينَ، فهذا معنى الإيراثِ.

❊ ❊ ❊

(٦٤) - ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قيلَ: لـمَّا نزلَتْ هذه الآياتُ احتبَسَ الوحيُ أيّامًا، وانتظرَ رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السَّلامُ، فنزلَ جبريلُ بهذه الآيةِ على نَظْمِ ما سبقَ منَ الآياتِ[1]؛ لأنَّها بعدَها وإنْ لـم تكُنْ في معناها.

وقال مُجاهدٌ: قال رسولُ الله ﷺ لجبريلَ: «ما حبَسَكَ؟» فقال: كيفَ نأتيكُم وأنتُم لا تقصُّونَ أظفارَكُم، ولا تأخُذونَ شوارِبَكم، ولا تستاكُونَ؟ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[2].

وقيلَ: إنَّما نزلَ هذا في سؤالِ القومِ عن الرُّوحِ، إذ لـم يستَثْنِ رسولُ الله ﷺ فيما وعَدَ منَ الجوابِ، وتأخَّرَ الوحيُ، فلمَّا نزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ قال رسولُ الله ﷺ: «ألا تزورُنا أكثرَ ممّا تزورُنا»[3].

---

(١) انظر ما سيأتي.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٤)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤١٦).

وله شاهد مرفوع رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٢٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، أنه قيل له: يا رسول الله، لقد أبطأ عنك جبريل عليه السلام، فقال: «ولم لا يبطئ عني، وأنتم حولي لا تستنون، ولا تقلمون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تنقون رواجبكم». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٦٧): «رواه أحمد والطبراني وفيه أبو كعب مولى ابن عباس قال أبو حاتم: لا يعرف إلا في هذا الحديث. ورجاله ثقات».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠١)، عن عكرمة =

وقيلَ: قال: «قد شقَّ عليَّ تأخُّرُكَ، وقال القومُ: قد وُدِّعَ محمَّدٌ، وما نزلْتَ حتَّى اشتَقْتُ إليك»، فقال جبريلُ: أنا كنتُ إليك أشوَقَ، ولكنِّي مأمورٌ، ونزلتِ الآيةُ(١).

وعلى هذا فهذه الآيةُ غيرُ مُتَّصلةٍ بما قبلَها، والقرآنُ سورٌ، ثمَّ السُّورُ تشتملُ على جملٍ، وقد تنفصلُ جملةٌ عن جملةٍ.

﴿ وَمَانَنَزَّلُ ﴾؛ أي: قال الله: قُلْ يا جبريلُ: ما نتنزَّلُ إلّا بأمرِ ربِّكَ.

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾؛ أي: ما بينَ أيدينا منَ الدُّنيا من قبلِ أن يخلُقَنا، وما خلفَنا منَ الدُّنيا بعد أن يُفنيَنا.

﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ مـمَّا نحنُ فيه منَ الحياةِ؛ أي: الأوقاتُ كلُّها لله، هو مُنشِئُها ومُدبِّرُ أمرِها وأمرِنا على ما يشاءُ من تقديمِ إنزالٍ وتأخيرِه.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؛ أي: لا يلحقُه سهوٌ.

وقيلَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: الدُّنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: الآخرةُ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما بينَ النَّفختَينِ.

وقيلَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: الآخرةُ ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: الدُّنيا.

= والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي.

ورواه بنحوه دون ذكر الآية: ابن إسحاق في «السيرة» (٢٥٧) ـ ومن طريقه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠) ـ قال: حَدَّثني رجلٌ من أهل مكة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه الرجل المبهم.

وروى البخاري (٣٢١٨) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ لجبريل: «ألا تَزورُنا أكثرَ ممَّا تَزورُنا؟»، قال: فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ الآيَةَ.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٤) عن عكرمة مرسلًا، قال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٢٤٩): «غريب». وذكره بنحوه مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٧٣١).

وقيلَ: إنَّ ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾؛ أي: ما مضَى من أمورِنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾؛ أي ما سيأتي ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما نحنُ فيه منَ الحياةِ؛ أي: الأوقاتُ كلُّها لله.

وقيلَ: أي: إنَّ الله تعالى يعلَمُ ما بينَ أيدينا وما خلفَنا، كما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال ابنُ عبّاسٍ في روايةٍ: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ يُريدُ الدُّنيا؛ أي: الأرضَ، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ يُريدُ السَّماواتِ، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ يُريدُ الهواءَ(١).

ولـم يقُلْ: (ما بينَ ذَينِكَ)؛ لأنَّ المُرادَ: ما بينَ ما ذكَرْنا، كما قال: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]؛ أي: بينَ ما ذكَرْنا.

* * *

(٦٥) ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هو ربُّ السَّماواتِ والأرضِ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فكما قال: إليه تدبيرُ الأزمانِ، قال: إليه تدبيرُ الأعيانِ.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾؛ أي: وَحِّدْه ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ أي: لطاعتِه، ولا تحزَنْ لتأخُّرِ الوحيِ عنك، بل اشتغِلْ بما أُمِرتَ به.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؛ أي: لا تعلَمُ قادِرًا على ما يشاءُ غيرَه فالزَمْ طاعتَه، وهو أعلَمُ بأوقاتِ الوحيِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: هل تعلمُ أحدًا اسمُه «الله» غيرَه(٢).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٨٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٨٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١٤١)، من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٤)، والحاكم في =

ثمَّ؛ إنْ سُمِّيَ أحدٌ باسمٍ من أسماءِ الرَّبِّ فالاستحقاقُ على الكمالِ لله في نُعوتِ الجلالِ.

***

(٦٦ - ٦٧) - ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لـمَّا ذكرَ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ، وذكرَ خَلْفَ السُّوءِ والكفَّارَ؛ ذكرَ قبيحَ مقالاتِهم أيضًا؛ أي: إنَّما يتَّبعونَ الشَّهواتِ ويُضيِّعونَ المفروضاتِ؛ لأنَّهم لا يُصدِّقُونَ بالبعثِ، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هاهُنا: الكافرُ.

﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؛ أي: يقولُه استِهزاءً.

نزلَتْ في أُبيِّ بنِ خلَفٍ، وجدَ عظامًا يابسةً ففتَّها بيدِه وقال: زعمَ محمَّدٌ أنَّا نُبعَثُ بعد الموتِ[1].

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: أوَلا يتذكَّرُ[2] هذا القائلُ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ أن يقولَ هذا القولَ ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ حينَئذٍ ﴿شَيْـًٔا﴾ فالإعادةُ مثلُ الابتداءِ، فلِمَ يُناقِضُ؟

= «المستدرك» (٣٧٦٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ليس أحد يسمى الرحمن غيره». وقال النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٣٤٥): روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: «هل تعلم أحدًا سمي الرحمن سواه»، ثم قال: وهذا أجلُّ إسناد علمته روي في هذا الحرف، وهو قول صحيح؛ لا يقال: «الرحمن» إلا لله، وقد يقال لغير الله: «رحيم».

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠١) عن الكلبي، وعزاه في «البسيط» (١٤/ ٢٨٤) لرواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهي من طريق الكلبي عن أبي صالح. والكلبي متروك.

(٢) في (ج): «أولا يذكر».

قُرِئَ: ﴿أَوَلا يذَّكَّرُ﴾، وهو منَ التَّذكُّرِ، وقُرِئَ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بالتَّخفيفِ(١).

والمقصودُ أيضًا: التَّفكُّرُ والتَّدبُّرُ، ففي الآيةِ تنبيهٌ على أنَّ المعدومَ ليس بشيءٍ.

* * *

(٦٨ ـ ٧٠) ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسمَ بنفسِه ـ بعد إقامةِ الحجّةِ على جوازِ الحشرِ ـ بأنَّه يحشرُهم؛ أي: لَنحشُرَنَّ الذين أنكرُوا البعثَ كما نحشُرُ المُؤمنينَ.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾؛ أي: ولَنَحشُرَنَّ الشَّياطينَ قُرَناءَ لهم.

وقيلَ: يُحشَرُ كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ في سلسلةٍ، كما قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ حولُ الشَّيءِ يجوزُ أن يكونَ داخلَه، ويجوزُ أن يكونَ خارجَه، تقولُ: «جلسَ القومُ حولَ البيتِ»؛ أي: داخلَه مُطبِقينَ به، فقولُه: ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ يجوزُ أن يكونَ بعد الدُّخولِ، ويجوزُ أن يكونَ قبلَ الدُّخولِ.

﴿جِثِيًّا﴾؛ أي: على الرُّكَبِ، وذلك لضيقِ المكانِ؛ أي: لا يُمكِنُهم أن يجلسُوا جلوسًا تامًّا، وهو جمعُ «جاثٍ»، يُقالُ: جَثا على رُكبتِه يجثُو جُثُوًّا، قال الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

وقيلَ: ﴿جِثِيًّا﴾؛ أي: جماعاتٍ، أهلُ الخمرِ على حِدَةٍ، وأهلُ الرِّبا(٢) على

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: (يذَّكَّرُ) بتشديد الذال والكاف، والباقون مخففًا. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٢) في (ج): «الزنا».

حِدَةٍ، فالجِثِيُّ على هذا: جمعُ جُثْوةٍ وجَثْوةٍ، وهي المجموعُ منَ التُّرابِ والحجارةِ.

وقيلَ: جِثيًّا على رُكَبِهم للتَّخاصُمِ، كقولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]؛ أي: نُحضِرُهم جهنَّمَ مشيًا على رُكَبِهم.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾؛ أي: لنأخُذَنَّ ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾؛ أي: من كلِّ جماعةٍ ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾؛ أي: الأعتَى فالأعتَى منهم، يُبدأُ في التَّعذيبِ بأشدِّهم عتِيًّا، والعِتِيُّ مصدرٌ كالعُتُوِّ، وهو التَّمرُّدُ والعصيانُ.

﴿أَيُّهُمْ﴾ بالرَّفعِ؛ أي: أيُّهم هو أشدُّ.

وقال سيبويهِ رحمَه الله: «أيُّهم» مبنيَّةٌ على الضَّمِّ؛ لأنَّها خالفَتْ أخواتِها، واستُعمِلَ معها حذفُ الابتداءِ، تقولُ: «اضرِبْ أيُّهم أفضلُ»؛ أي: «أيُّهم هو أفضلُ»، فحسُنَ حذفُ «هو»، ولا يُقالُ: «اضرِبْ مَن أفضَلُ»؛ أي: «مَن هو أفضلُ»، ولا «كُلْ ما أطيَبُ»؛ أي: «ما هو أطيَبُ»، ولا «خُذِ الذي أفضَلُ»؛ أي: «الذي هو أفضَلُ»، فلمَّا خالفَتْ «أيٌّ» «مَن» و«ما» و«الذي» هذا الخلافَ بُنِيَتْ على الضَّمِّ في الإضافةِ، وهذا لأنَّ الصِّلةَ تُوضِّحُ الموصولَ كما أنَّ المُضافَ يُبيِّنُ ويُوضِّحُ المُضافَ إليه ويُخصِّصُه، ثمَّ إذا حُذِفَ المضافُ إليه منَ الأسماءِ التي تُبيِّنُها الإضافةُ نحوَ «قبلُ» و«بعدُ» بُنِيَتْ، فكذا هاهُنا، والنَّصبُ حسَنٌ، تقولُ: «لننزِعَنَّ من كلِّ شيعةٍ أيَّهم» بالنَّصبِ، قال سيبويهِ: هو قراءةُ هارونَ الأعورِ[1].

---

(١) انظر: «الكتاب» (٢/ ٣٩٩ - ٤٠١)، و«غرائب التفسير» (٢/ ٧٠٤) قال الكرماني: «وخالف سيبويه في هذا جمهور النحاة»، ولعله يريد: في القول بالبناء، وذكر هو أن في رفع ﴿أَيُّهُمْ﴾ سبعة وجوه، وصحح ابن الحاجب مذهب سيبويه لأسباب ذكرها تنظر في «أماليه» (١/ ١٤٨).

والقراءة بالنصب نسبت لمعاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء وطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨ - ٨٩).

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صُلِيًّا﴾؛ أي: بمَن هو أشدُّ استِحقاقًا للنّارِ؛ أي: لا أحدَ أولى بها من هؤلاءِ الكفّارِ، و«الصُلِيُّ» مصدرُ: صَلَى النّارَ يصلاها صُلِيًّا، ووزنُه «فُعولٌ».

ويجوزُ ﴿صِلِيًّا﴾ بكسرِ الصّادِ[1]، و«الصِّليُّ» دخولُ النّارِ ومُقاساةُ حرِّها.

***

(٧١) ـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ أي: وارِدُ جهنَّمَ ثمَّ يُنجِّـي الله المُؤمنينَ منها.

ورَوى ابنُ مسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يرِدُ النّاسُ جهنَّمَ ثمَّ يصدُرونَ عنها بأعمالِـهم، فأوَّلُـهم كالبرقِ الخاطفِ، ثمَّ كالرِّيحِ، ثمَّ كأجاويدِ الخيلِ، ثمَّ كالرّاكبِ في رحلِه، ثمَّ كشدِّ الرَّجُلِ، ثمَّ كمشيِه»[2].

وقال جابرٌ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «الوُرودُ الدُّخولُ، لا يبقى برٌّ ولا فاجِرٌ إلّا دخلَها، فتكونُ على المُؤمنِ بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيمَ»[3].

---

(١) وقرأ بها حمزة والكسائي وحفص، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٢) رواه بنحوه الترمذي (٣١٥٩) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٢١) (٨٧٤١) وصححه. وقال الترمذي: «ورواه شعبة عن السدي فلم يرفعه»، ثم رواه الترمذي (٣١٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٤٢) (٨٧٤٣) من طريق شعبة موقوفاً على ابن مسعود وعقَّباه بقول شعبة: سمعتُه من السدي مرفوعًا ولكني عمدًا أدعه.

(٣) رواه عبد بن حميد في «مسنده» (١١٠٦)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٤٥٢٠)، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (١١٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (٣٧٠) وحسن إسناده.

وقد ورَدَ في الكتابِ الوُرودُ بمعنَى الدُّخولِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩][١].

وقال[٢]: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [مريم: ٧٢]، والنَّجاةُ إنَّما تكونُ ممَّا دخلَتْ فيه.

وقال قومٌ: الوُرودُ لا يتضمَّنُ الدُّخولَ، فالأنبياءُ والأولياءُ لا يدخلونَها، وإنَّما يرِدُونَها كما يُبيَّنُ إنْ شاءَ الله تعالى.

* * *

(٧٢) - ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾؛ أي: نُخلِّصُهم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في النّارِ، وهذا ممَّا يدُلُّ على الدُّخولِ؛ لأنَّه لم يقُلْ: ويُدخِلُ الظّالمينَ، وفي قدرةِ الله سُبحانَه أن يُسلِّمَ المُؤمنينَ حتَّى لا يتأذَّوا بالصِّراطِ وبدُخولِ النّارِ.

وفي بعضِ الآثارِ: أنَّ أقوامًا يقولون: ألَمْ يعِدْنا ربُّنا أن نمُرَّ على جسرِ النّارِ؟ فيُقالُ لهم: بلى، ولكن مرَرْتُم عليها وهي خامدةٌ[٣].

وفي الخبرِ: «تقولُ النّارُ للمُؤمنِ يومَ القيامةِ: جُزْ يا مُؤمِنُ فقد أطفأَ نورُكَ لهَبي»[٤].

---

(١) بعدها في (أ): «وقال جابرٌ: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ مثلَ ذلك» وهو تكرار.

(٢) في (ج): «وقد قال».

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٠٧ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٤٢٩)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩٢)، وأبو عبيد في «غريب الحديث» (٤/ ٣٤٧)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» عقب الخبر (٣٧٣)، عن خالد بن معدان.

(٤) رواه ابن عدي في «الكامل» (٨/ ١٣٠)، وتمام في «فوائده» (٩٦٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» =

وقال مُجاهدٌ: مَن حُمَّ منَ المُسلمينَ فقد ورَدَها؛ لأنَّ الـحُمَّى من فيحِ جهنَّمَ(١).

وفي الخبرِ: «الـحُمَّى كِيرٌ من جهنَّمَ، وما أصابَ المُؤمنَ منها كانَ حظَّه منَ النّارِ في الآخرةِ»(٢).

ثمَّ؛ مَن قال: «هذا الورودُ ليس بدُخولٍ» قال: يحضُرونَ موضعَ الحسابِ وهو بقُربِ جهنَّمَ، فيرَونها وينظُرون إليها في حالةِ الحسابِ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾؛ أي: نُنجِّيهم ممّا نظرُوا إليه منَ النّارِ، ويُصارُ بهم إلى الجنّةِ ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: يُؤمَرُ بهم إلى النّارِ، وهذا الورودُ كقولِه: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ ﴾ [القصص: ٢٢]؛ أي: أشرَفَ عليه؛ لا أنَّه دخلَه.

وقيلَ: يُنجِّي الله الذين اتَّقَوا بأنْ يَجُوزَ بهم على الصِّراطِ إلى الجنّةِ، ويتهافَتُ الكفّارُ منَ الصِّراطِ في النّارِ، ووُرودُ الصِّراطِ زيادةُ عقوبةٍ في حقِّ الكافرِ وتحذيرٌ للمُؤمنِ، وإذا رأى الكافرُ المؤمنَ يجوزُ الصِّراطَ ويسلَمُ والكفّارَ يتورَّطُونَ فيها؛ كان ذلك أزيدَ في تعذيبِهم.

= (٩/ ٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٣٧٥)، عن يعلى بن منية يرفعه، وقال البيهقي: «تفرّد به سليم بن منصور وهو منكر». وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٠/ ٩٧): «هذا حديث غريب جدًّا».

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢١٦٥)، وابن أبي الدنيا في «الكفارات» (٤٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٤٦٨)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٠٥): «رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفيه أبو حصين الفلسطيني ولم أر له راوياً غير محمد بن مطرف».

وروى البخاري (٥٧٢٥)، ومسلم (٢٢١٠)، عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء».

وفي الخبرِ: «مَن ماتَ له ثلاثةٌ لـم تمسَّه النّارُ إلّا تحلّةَ القسَمِ»(١).

وقُرِئَ: (وإنَّ منهم إلّا وارِدُها)(٢).

ومعنَى القسَمِ: أنَّه قال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥ ـ ٦].

وقيلَ: هذا القسَمُ قولُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾، ثمَّ وصلَه بقولِه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

وقيلَ: أشارَ بالقسمِ إلى قولِه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، ﴿حَتْمًا﴾ الحتمُ: إيجابُ القضاءِ؛ أي: كان ذلك حتمًا مقضِيًّا؛ أي: قضاه الله عليكم.

وقال ابنُ مسعودٍ: أي: قسَمًا واجبًا(٣).

وقيلَ: القسَمُ مُضمَرٌ؛ أي: وإنْ منكم واللهِ إلّا وارِدُها.

قُرِئَ: ﴿نُنَجِّي﴾ بالتَّشديدِ منَ التَّنجِيةِ، وبالتَّخفيفِ منَ الإنجاءِ(٤).

***

(٧٣) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

قولُه تعالـى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: على الكفّارِ الذين سبَقَ ذِكرُهم فـي قولِـه: ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وقال فيهـم: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾؛ أي:

---

(١) رواه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنها مرفوعاً.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩) عن ابن عباس وعكرمة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٠٦).

(٤) قرأ الكسائي بالتخفيف، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٤١١)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

هـؤلاءِ إذا قُـرِئَ عليهـم القرآنُ تعـزَّزوا[1] بالدُّنيـا وقالوا: فمـا بالُنا إنْ كنَّـا على باطلٍ أكثـرُ أموالًا وأعـزُّ نفـرًا؟ وغرَضُهم إدخالُ الشُّبَهِ علـى المُسـتَضعفين، وإيهامُهم أنَّ مَـن كثُـرَ مالُـه دلَّ ذلـك على أنَّه المُحِقُّ في دينِه، وكأنَّهم لـم يـرَوا في الكفَّـارِ فقيرًا ولا فـي المسـلمينَ غنيًّـا، ولـم يعلَمُـوا أنَّ الله يحمـي أولياءَه عـن الاغتـرارِ بالدُّنيا وفَرْطِ الميـلِ إليها.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: القرآنُ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يُريدُ مُشركي قُريشٍ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: لفقراءِ المُؤمنينَ: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: أنحنُ أم أنتم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾؛ أي: منزلًا ومسكنًا؟

وقيلَ: المقامُ: الموضعُ الذي يُقامُ فيه بالأمورِ الجليلةِ؛ أي: أيُّ الفريقَينِ أكثرُ جاهًا وأنصارًا؟

وقُرِئَ: ﴿مُقامًا﴾ بضمِّ الميمِ[2]، وهو موضعُ الإقامةِ، ويجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى الإقامةِ.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ النَّدِيُّ: فعيلٌ بمعنى الفاعلِ، والنّادي والنَّدِيُّ: المجلِسُ.

* * *

(٧٤) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كم كان في الدُّنيا مِن أُناسٍ أحسَنُ حالًا منهم دمَّرْنا عليهم، والأثاثُ: متاعُ البيتِ.

---

(١) في (أ): «تعذروا».

(٢) قرأ بها ابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٤١١)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

وقيلَ: هو اسمٌ لجميعِ أنواعِ المالِ منَ العبيدِ والدَّوابِّ والأمتعةِ، وأصلُه من أثَّ النَّباتُ يئثُّ أثاثةً؛ أي: كثُرَ والتَفَّ.

﴿وَرِءْيًا﴾؛ أي: منظَرًا، فهو «فِعْلٌ» من «رأيتُ»، وهو ما يظهرُ مـمَّا يُرى وتأخذُه العيونُ بحسنِ منظرِه، والمصدرُ: الرَّأيُ والرُّؤيةُ، فالرَّأيُ الفعلُ، والرِّئيُ المَرئيُّ، كالطَّحنِ والطِّحنِ، والرَّعيِ والرِّعيِ.

قُرِئَ: ﴿وَرِءْيًا﴾ بالهمزِ، وقُرِئَ: بالتَّشديدِ طلَبًا للتَّخفيفِ، فحُذِفَ الهمزةُ وأُبدِلَ عنها الياءُ[1].

وقال الزَّجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ منَ الرِّيِّ الذي هو ضدُّ العطشِ، والمرادُ به: الطَّراوةُ والنَّضارةُ؛ لأنَّ الذي يتبعُه ذلك، كما أنَّ العطشَ يتبعُه الذُّبولُ والجهدُ[2].

وفي روايةٍ عن عاصمٍ: (وريئا) مثل: «وريعًا»[3]، فقُلِبت الهمزةُ التي هي عينٌ إلى اللّامِ، فإنَّ في العربِ مَن يقولُ: «راءني زيدٌ» فيقلبُ الهمزةَ ويُؤخِّرُها.

وقُرِئَ في الشَّواذِّ: (هم أحسَنُ أثاثًا وزِيًّا) بالزّايِ المُعجَمةِ[4]؛ أي: وهَيْئةً.

***

---

(١) قرأ بالتشديد بلا همز ابن ذكوان وقالون. انظر: «السبعة» (ص: ٤١١)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٢) هـذا العبـارة التي نقلهـا المصنف عن الزجاج هي في «البسـيط» (١٤/ ٣٠٥) عن أبي علي الفارسـي، وانظـر: «الحجـة» (٥/ ٢١٠)، وانظـر كلام الزجـاج فـي الآيـة فـي «معانـي القـرآن» (٣/ ٣٤٢)، و«البسـيط» (١٤/ ٣٠٥).

(٣) ذكرها أبو علي الفارسي في «الحجة» (٥/ ٢٠٩) عن غير أحمد بن موسى: أن الأعشى رواها عن أبي بكر عن عاصم. وأحمد بن موسى هو ابن مجاهد صاحب كتاب «السبعة».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩)، و«المحتسب» (٢/ ٤٣ ـ ٤٤)، عن سعيد بن جبير.

(٧٥) - ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ هذا وعيدٌ للكفّارِ الذين توهَّموا أنَّ تأخُّرَ العقابِ عنهم ليُمتِّعَهم بالمالِ والأعوانِ؛ أي: عرِّفْهم أنَّهم لا يُعجِزُونَ الله وإنْ طالتِ المُدّةُ.

﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ اللَّفظُ لفظُ الأمرِ، ومعناه الخبرُ، كقولِك: «مَن زارَني فَلْأُكرِمْه»، فهذا آكدُ من قولِك: «أُكرِمْه»، فكأنَّه قال: «مَن زارَني فأنا آمِرٌ نفسي بإكرامِه»، فالمعنى: مَن كانَ في الضَّلالةِ مدَّه الرَّحمنُ مدًّا حتى يطولَ اغتِرارُه، فيكونَ ذلك أشدَّ لعقابِه.

وقيلَ: هذا دعاءٌ أُمِرَ به النَّبيُّ عليه السَّلامُ، كما[1] تقولُ: «مَن سرَقَ مالي فلْيقطَعِ الله يدَه»، فهو دعاءٌ على السّارقِ، وهو جوابُ الشَّرطِ، وعلى هذا فليس قولُه: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ خبرًا.

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال: ﴿رَأَوْاْ﴾ لأنَّ لفظَ «مَن» يصلُحُ للواحدِ والجمعِ، و«إذا» مع الماضي بمعنى المُستقبلِ؛ أي: حتَّى يرَوا ما يُوعَدون، والعذابُ هاهُنا: ما وُعِدُوا به من نصرِ المُؤمنينَ عليهم بالأسرِ والقتلِ.

والسّاعةُ: القيامةُ.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾؛ أي: حينئذٍ تتكشَّفُ الحقائقُ، وهذا ردٌّ لقولِهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

***

(١) «كما»: ليس في (ج).

(٧٦) - ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾؛ أي: ويُثبِّتُ اللهُ[1] المؤمنين على الهدى، ويزيدُهم في البصيرةِ، ويُنزِّلُ منَ الآياتِ ما يكونُ سببَ زيادةِ اليقينِ.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: الأعمالُ التي تبقَى يبقَى ثوابُها.

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾؛ أي: أنفعُ جزاءً في الآخرةِ مـمَّا يَفتخِرُ به الكفرةُ في الدُّنيا.

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ المَرَدُّ مصدرٌ كالرَّدِّ؛ أي: وخيرٌ رَدًّا على عامليها الثَّوابَ، يُقالُ: «هذا أَرَدُّ عليك»؛ أي: أنفَعُ لك.

وقيلَ: ﴿خيرٌ مَرَدًّا﴾؛ أي: مرجِعًا، فكلُّ أحدٍ يُرَدُّ إلى عملِه الذي عمِلَه.

***

(٧٧) - ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ذكرَ من استِهزائِهم قولَـهم: إنْ كانَ ثَمَّ بعثٌ فنصيبُنا منَ الجنَّةِ أوفَرُ، كما أنَّ نصيبَنا في الدُّنيا أوفَرُ.

نزلَتْ في العاصِ بنِ وائلٍ السَّهميِّ ـ وهو أبو عمرِو بنَ العاصِ ـ كان عليه دَينٌ لخبَّابِ بنِ الأرَتِّ، قال خبَّابٌ: كنتُ قَينًا، وكنتُ أعملُ له، فطلبتُ دَيني عليه، فقال: لا أقضيكَ حتَّى تكفُرَ بإلهِ محمَّدٍ، فقلتُ: والله لا أكفرُ بإلهِ محمَّدٍ حيًّا ولا مَيتًا، ولا حينَ أُبعَثُ، فقال: وتُبعَثُ أيضًا؟ فدَعْ مالَك قِبَلي، فإذا بُعِثْتُ أُعطيتُ مالًا وولدًا، وقضيتُكَ حقَّكَ، يقولُه مُستهزِئًا أو شاكًّا، لا قاطِعًا بنفيِ البعثِ[2].

---

(١) في (ج): «والله يثبت».

(٢) رواه بنحوه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، وفيه: فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى =

﴿لَأُوتَيَنَّ﴾؛ أي: والله لأُوتَيَنَّ، فالقسَمُ مُضمَرٌ.

﴿مَالًا﴾؛ أي: في الجنّةِ بعد البعثِ.

قُرِئَ: ﴿وَوَلَدًا﴾ و﴿ووُلْـدًا﴾(١) وهمـا واحدٌ، مثـلَ: «العَجَمِ والعُجْـمِ»، ومنه: «وُلْـدُكِ مَنْ دَمَّـى عَقِبَيكِ»(٢).

وقال قومٌ: الوُلْدُ جمعٌ، والوَلدُ واحدٌ، مثلَ: أُسْدٍ وأَسَدٍ.

وقالَ مُجاهدٌ: وُلْدُ الرَّجلِ: زَوجتُه وأهلُه ورَهطُه(٣).

***

= يميتك الله ثم يبعثك، قال: فدعني حتى أموت، ثم أبعث، فأوتى مالاً وولداً ثم أقضيك. فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ الآية.

(١) قـرأ حمـزة والكسـائي بالثانيـة، والباقـون بالأولـى. انظـر: «السـبعة» (ص: ٤١٢)، و«التيسـير» (ص: ١٥٠).

(٢) انظر: «أمثال العرب» للمفضل الضبي (ص: ١٦٦)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧٣)، و«الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٤٧)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٣٤)، و«الصحاح» (مادة: ولد)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ٣٩)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٣٦٣)، و«المستقصى في الأمثال» (١/ ٣٠).

وقصته كما ذكرها المفضل وغيره: أن امْرَأَة الطُّفَيْل بن مالك بن جَعْفَر بن كلاب وهي من بني القين كانت قد ولدت له عقيل بن الطُّفَيْل، فتبنته ضرتها كَبْشَة بنت عُرْوَة بن جَعْفَر، فعرم على أمه يَوْمًا فضربته، فَجَاءَت كَبْشَة تمنعها وتقول: ابْني ابْني، فقالت: «ابْنك ـ أو: «ولدك» كما في كثير من المصادر ـ من دمى عقبيك»؛ أي: من نفست به. وقال الميداني: الوُلْدُ لغةٌ في الوَلَد. وقال ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣٦٥): أي: وُلْدُك مَن وَلَدتِهِ فسال دمكِ على عقبيكِ عند ولادته، لا مَن اتخذته وَلَدًا، قريبًا كان منك أو بعيدًا.

(٣) لم أقف عليه.

(٧٨) ـ ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ أي: علِمَ ما غابَ عنه من أمرِ الجنّةِ والنّارِ حتَّى يعلمَ أنَّه يُؤتَى المالَ ثَمَّ.

وقيلَ: الغَيبُ: اللَّوحُ المحفوظُ، والذكرُ الذي عندَ الله في أهلِ الجنّةِ والنّارِ.

والاطِّلاعُ: الإشرافُ؛ أي: أاطَّلعَ(١)؟ وهو كقولِه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣]؛ أي: أاصطفى؟ وهذا استفهامُ توبيخٍ.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: أم قال: «لا إلهَ إلا الله» فأرحمَه بها(٢)؟

وقيلَ: قدَّمَ أعمالًا صالحةً فهو يرجُو ثوابَها، والمُرادُ: الإيمانُ وجميعُ الطّاعاتِ.

* * *

(٧٩ ـ ٨٠) ـ ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَلَّا﴾ هذا ردٌّ لكلامٍ سبَقَ؛ أي: ليس الأمرُ على ما تَوَهَّمَ من أنَّ له في الآخرةِ مالًا وولدًا، وليس كذلك، ما اطَّلَعَ الغيبَ، وما اتَّخذَ عند الرَّحمنِ عهدًا، بل كفَرَ وكذَّبَ.

---

(١) الأولى ألف الاستفهام والثانية ألف الوصل، ثم حذفت ألف الوصل لأنه قد استغني عنها. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٣٣)، بلفظ: «العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويتبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله»، ورواه الطبراني في «الدعاء» (١٥٧٠) و(١٥٧١)، و(١٥٧٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٦).

وقيلَ: ﴿كَلَّا﴾ معناه: حقًّا؛ أي: حقًّا سنكتُبُ ما يقولُ.

قال الكسائيُّ: «لا» تنفي فحسبُ، و«كلا» تنفي شيئًا وتُثبِتُ شيئًا، فإذا قيلَ: «أكلتَ تمرًا؟» قلتَ: «كلّا»؛ أي: أكلتُ عسلًا لا تمرًا(١). ففي هذه الكلمةِ نفيُ ما قبلَها وتحقيقُ ما بعدَها.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: سنأمرُ الحفظةَ بالكتبةِ.

وقيلَ: سنحفظُه؛ لأنَّ مَن أرادَ أن يحفظَ شيئًا قيَّدَه بالكتابةِ.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي: نزيدُه عذابًا فوقَ العذابِ، ومنه: مدُّ النَّهرِ؛ أي: زيادتُه.

وقيلَ: لا نُعجِّلُ إنزالَه به، بل نُعذِّبُه في الآخرةِ لتكثُرَ اليومَ آثامُه، وهو الاستِدراجُ.

قولُه تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: نرِثُه ما عندَه منَ المالِ والولدِ بأن نُهلِكَه ونُبطِلَ أملاكَه.

وقيلَ: نرِثُه أهلَه ومالَه الذي في الجنّةِ، وكانَ له لو آمنَ، فيُجعَلُ لغيرِه منَ المسلمين، والقولُ لا يُورَثُ، فالمعنى: نرِثُه ما تحتَ ما يقولُ؛ أي: يدَّعي أنَّ له في الآخرةِ مالًا وولدًا، وليس كذلك، بل يأتينا فردًا.

* * *

(٨١ ـ ٨٢) ـ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أي: عبَدُوا مَن سوى الله ليتعزَّزُوا

---

(١) انظر: «البسيط» (١٤/ ٣١٤)، وفيه: «تريد أنك أكلت» بدل: «أي أكلت»، والمؤدى واحد.

به، وهيهاتَ من ذلك، فلا يمتَنِعُونَ منَ العقابِ غدًا، ووحَّدَ العِزَّ لأنَّه مصدرٌ؛ أي: لينالُوا بها العزَّ.

قولُه تعالى: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمرُ كما توهَّمُوا، بل يكفُرونَ بعبادتِهم.

وقيلَ: حقًّا سيكفُرونَ بعبادتِهم.

﴿سَيَكْفُرُونَ﴾؛ أي: يُنكِرُونَ أنَّهم عبَدُوا الأصنامَ، أو تجحدُ الآلهةُ عبادةَ المُشركينَ لها، كما قالَ: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، وذلك لأنَّ الأصنامَ جماداتٌ لا تعلَمُ العبادةَ.

وقيلَ: ما كانوا يعبُدونَ بأمرِنا واختيارِنا.

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾؛ أي: أعوانًا يُكذِّبونَهم ويلعنُونَهم ويتبرَّؤُونَ منهم، فهم أعداءٌ لهم يومَ القيامةِ، والضِّدُّ يكونُ واحدًا وجماعةً، كالعدوِّ والرَّسولِ، قال الله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وقال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الشعراء: ١٦].

وقيلَ: وقعَ الضِّدُّ موقعَ المصدرِ؛ أي: ويكونُونَ عليهم عَوْنًا، فلهذا لم يُجمَعْ، وهذا في مُقابلةِ قولِه: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾، والعِزُّ مصدرٌ، فكذلك ما وقعَ في مُقابلَتِه.

وقيلَ: هو كقولِه: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]؛ أي: نُخرِجُ كلَّ واحدٍ منكم طفلًا.

وقيلَ: أي: ويكونُ الكفّارُ على الأصنامِ ضِدًّا؛ لأنَّهم يبوحُونَ بعيبِها ويتبرَّؤُونَ عنها.

ثمَّ قيلَ: الآيةُ في عبَدةِ الأصنامِ، وأُجري الأصنامُ مُجرَى مَن يَعقِلُ جَرْيًا على توهُّمِ الكفرةِ.

وقيلَ: فيمَن عبَدَ المسيحَ، أو الجِنَّ، أو الملائكةَ، أو الشَّياطينَ.

(٨٣ ـ ٨٤) ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا تعجيبٌ من فَرْطِ كُفرِهم؛ أي: ألـم ترَ كيفَ استَولى الشَّيطانُ عليهم؟

﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: خلَّينا الشَّياطينَ وإيّاهم ولـم نعصِمْهُم منَ القَبولِ منهم، ويُقالُ: «أرسلتُ البعيرَ»؛ أي: خلَّيتُه.

وقيلَ: أرسَلْنا الشَّياطينَ؛ أي: سلَّطناهُم عليهم.

﴿تَؤُزُّهُمْ﴾؛ أي: تُحرِّكُهم وتُهيِّجُهم، ومنه: «أزيزُ القِدْرِ»، وهو حركةُ الماءِ فيها عند الغلَيانِ.

وقيلَ: الأزيزُ الالتِهابُ، يُقالُ: «أَزَّ قِدْرَكَ»؛ أي: أوقِدْ تحتَها النّارَ، والمعنى: تُزعِجُهم إلى المعصيةِ إزعاجًا.

قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي: بطلَبِ العذابِ لهم.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾؛ أي: نعُدُّ أنفاسَهم في الدُّنيا وآجالَـهم.

وقيلَ: نعُدُّ الأيّامَ والشُّهورَ والسِّنينَ؛ أي: لعذابِهم أجلٌ معلومٌ.

وقيلَ: أي: أمَدُهم في المُهلةِ قليلٌ وأيّامٌ معدودةٌ، وما أقربَ عذابَ السّاعةِ إليهم!

وقيلَ: لا تعجَلْ؛ فإنَّما نُؤخِّرُهم ليزدادُوا إثمًا.

* * *

(٨٥ ـ ٨٧) ـ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: نعدُّ لهم الآجالَ لنُعاقِبَهم يومَ نحشُرُ المتَّقين، أو سيكفُرونَ بعبادتِهم يومَ نحشُرُ المتَّقينَ.

﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: إلى جنَّةِ الرَّحمنِ ودارِ كرامتِه، كقولِه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]، وكما في الخبرِ: «مَن كانت هجرتُه إلى الله ورسولِه فهجرتُه إلى الله ورسولِه»[١].

﴿وَفْدًا﴾ الوفدُ: اسمُ الوافِدين، كما يُقالُ: صَومٌ وفَطرٌ وزَوْرٌ، فهو جمعُ الوافِدِ، مثلَ «راكبٍ ورَكْبٍ»، وهو من: وَفَدِ يفِدُ وُفودًا ووَفْدًا ووِفادةً، إذا خرجَ إلى ملكٍ في فتحٍ أو أمرٍ خطيرٍ، ووفدَه الأميرُ وأوفدَه.

وفي التَّفسيرِ: ﴿وَفْدًا﴾؛ أي: رُكبانًا على نجائبِ طاعاتِهم، وهذا لأنَّ الوافدَ في الغالبِ يكونُ راكبًا، وأوفدَ على الشَّيءِ؛ أي: أشرَفَ عليه، والرُّكوبُ يُشيرُ إلى هذا المعنى.

ولمَّا نزلَتِ الآيةُ قال عليٌّ رضيَ الله عنه: يا رسولَ الله، إنِّي قد رأيتُ الملوكَ ووفودَهم فلم أرَ وفدًا إلّا رُكبانًا، فما وفدُ الله؟ فقال عليه السَّلامُ: «أمَا إنَّهم لا يجرُونَ[٢] على أقدامِهم ولا يُساقُونَ سَوْقًا، ولكنَّهم يُؤتَونَ بنُوقٍ من نُوقِ الجنَّةِ لم تنظُرِ الخلائقُ إلى مثلِها، رِحالُها الذَّهبُ، وزِمامُها الزَّبرجَدُ، فيركبُونَها حتَّى يقرَعُوا بابَ الجنَّةِ»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧)، عن عمر رضي الله عنه.

(٢) في (ج): «لا يحشرون».

(٣) رواه ابن أبي داود في «البعث» (٥٦) وقال: «لم يرفعه عن ابن فضيل إلا عباد [بن يعقوب الرواجني]». =

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: إذا خرجَ المؤمنُ من قبرِه استقبلَه عملُه في صورةٍ حسنةٍ وريحٍ طيِّبةٍ، فيقولُ: أتعرِفُني؟ فيقولُ: لا والله، إلّا أنَّ الله قد حسَّنَ وجهَكَ وطيَّبَ ريحَكَ، فيقولُ: أنا عملُكَ، فهلُمَّ فاركَبْني فطالَما ركبتُكَ، فذلك قولُ الله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، ويستقبلُ الكافرَ أو الفاجرَ عند خروجِه من قبرِه عملُه في صورةٍ قبيحةٍ وريحٍ مُنتِنةٍ، فيقولُ: أتعرِفُني؟ فيقولُ: لا والله، إلّا أنَّ الله قد قبَّحَ وجهَكَ وأنتَنَ ريحَكَ، فيقولُ: كذلك كنتَ في الدُّنيا، أنا عملُكَ، فهلُمَّ أركبُكَ فطالَما ركبتَني، فذلك قولُ الله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١][(١)].

وقال أيضًا: مَن كان يُحِبُّ ركوبَ الخيلِ وفدَ إلى الله على خيلٍ، لا تَروثُ ولا تبولُ، لُجُمُها منَ الياقوتِ الأحمرِ، ومنَ الزَّبرجَدِ الأخضرِ، ومنَ الدُّرِّ الأبيضِ، وسروجُها منَ السُّندُسِ والإستبرقِ، ومَن كان يُحِبُّ ركوبَ الإبلِ فعلى نجائبَ لا تبعرُ ولا تبولُ، أزمَّتُها منَ الياقوتِ والزَّبرجدِ، ومَن كان يُحِبُّ ركوبَ السُّفنِ فعلى سُفُنٍ من زَبرجدٍ وياقوتٍ، قد أمِنُوا الغرقَ وأمِنُوا الأهوالَ[(٢)].

= وروي موقوفاً؛ رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠١٤)، وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على «مسنده» (١٣٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٢٥) موقوفاً على علي رضي الله عنه وصححه الحاكم على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي فقال: «بل عبد الرحمن لم يرو له مسلم ولا لخاله النعمان وضعفوه». ورواه الحاكم أيضاً (٨٦٨٨) وصححه، وتعقبه الذهبي أيضاً بقوله: «ليس بصحيح».

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢١٦) عن عمرو بن قيس الملائي.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٢٨ـ ٣٢٩) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قولُه تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الكافرينَ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ في التَّفسيرِ: مُشاةً عِطاشًا تتقطَّعُ أعناقُهم منَ العطشِ، والوِرْدُ: الجماعةُ التي تَرِدُ الماءَ من طيرٍ وإبلٍ، والوِرْدُ أيضًا: وُرودُ القومِ الماءَ، والوِرْدُ أيضاً: الماءُ الذي يُورَدُ، وهذا من بابِ الإيماءِ بالشَّيءِ إلى الشَّيءِ، فوفدُ الملوكِ حقُّهم الخلعُ والإعزازُ.

وقولُه: ﴿وِرْدًا﴾ يدُلُّ على العطشِ؛ لأنَّ الماءَ إنَّما يُورَدُ في الغالبِ للعطشِ، وإذا كانَ سَوقُ المُجرمينَ إلى النّارِ فحشرُ المتَّقين إلى الجنّةِ.

وقيلَ: ﴿وِرْدًا﴾؛ أي: للوِردِ، كقولِك: «جئتُكَ إكرامًا لك»؛ أي: لإكرامِكَ؛ أي: نسوقُهم لوُرودِ النّارِ.

قولُه تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ﴾؛ أي: هؤلاءِ الكفّارُ لا يملِكُونَ الشَّفاعةَ لأحدٍ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾؛ أي: لكنْ مَن اتَّخذَ عند الرَّحمنِ عهدًا ـ وهم المُسلمونَ ـ فيملِكُونَ الشَّفاعةَ، فهو استِثناءُ الشَّيءِ من غيرِ جنسِه، وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾؛ أي: لا يكونُ لهم عِزٌّ، فلا تُقبَلُ غدًا شفاعةُ عبَدةِ الأصنامِ لأحدٍ، ولا شفاعةُ الأصنامِ لأحدٍ.

وقيلَ: لا يملِكُونَ شفاعةَ أحدٍ لهم؛ أي: لا تنفَعُهم شفاعةٌ.

وقيلَ: أي: نحشُرُ المُتَّقين والمُجرمينَ، ولا يملِكُ أحدٌ لأحدٍ شفاعةً إلّا مَن اتَّخذَ عندَ الرَّحمنِ عهدًا؛ أي: أذِنَ له الرَّبُّ في الشَّفاعةِ، وهذا العهدُ هو الذي قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾، وهو لفظٌ جامعٌ للإيمانِ وجميعِ الأعمالِ الصّالحةِ.

***

(٨٨ ـ ٩٢) ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ يعني: اليهودَ والنَّصارَى والمُشركينَ، فإنَّ منَ المُشركينَ مَن قال: الملائكةُ بناتُ الله.

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾؛ أي: مُنكَرًا عظيمًا، والإدُّ: الدَّاهيةُ العظيمةُ، وكذلك الإمرُ والعزَّاء، والجمعُ: إدادٌ.

قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ قُرِئَ: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاءِ والياءِ[1]؛ أي: قارَبَتِ السَّماواتُ أن تتشقَّقَ من هذا القولِ الإدِّ، وكادتِ الجبالُ أن تنهَدَّ؛ أي: كادتِ القيامةُ تقومُ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ تقعُ عند قيامِ السّاعةِ.

﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتّاءِ، وانفطَرَ الشَّيءُ؛ أي: تشقَّقَ.

وقُرِئَ: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ و(تنفطِرْنَ)[2]، وانفطَرَ وتفَطَّرَ بمعنًى.

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ الهدُّ: الكسرُ الشَّديدُ، والهدّةُ: صوتٌ شديدٌ تسمعُه من سقوطِ ركنٍ أو ناحيةِ جبلٍ.

وقيلَ: هذا مثَلٌ، فإنَّ مَن سمعَ كذِبًا عظيمًا يقولُ: كادَتِ الأرضُ تنشَقُّ، وأظلمَتْ عليَّ الدُّنيا.

---

(١) قرأ نافع والكسائي بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

(٢) قرأ الحرميان وحفص والكسائي: ﴿يتفطرن﴾ بالياء ثم التاء وفتح الطاء مشددة، والباقون بالياء ثم النون وكسر الطاء مخففة. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٠). والقراءتين الأخريين لم أجدهما.

ومثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾؛ أي: من أن دَعَوا، أو: لأَنْ دَعَوا، فموضِعُ ﴿أَن﴾ نصبٌ بسُقوطِ الخافضِ، وعند الكسائيِّ موضعُها خفضٌ بتقديرِ الخافضِ.

﴿دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾؛ أي: سمَّوا له ولدًا، وجعلُوا له ولدًا، وليس من دعاءِ الصَّوتِ.

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾؛ أي: ليس يليقُ به ذلك؛ لأنَّ الولدَ يقتَضي الجنسيّةَ والحدوثَ.

***

(٩٣ ـ ٩٥) ـ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيَّنَ أنَّ مَن كان في مكانٍ كان مخلوقًا، فما من ملَكٍ وإنسٍ وجانٍّ وشيطانٍ إلّا ويأتي يومَ القيامةِ خاضِعًا ذليلًا كما قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]؛ أي: الخلقُ كلُّهم عبيدُه، فكيف يكونُ واحدٌ منهم ولدًا له؟

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾؛ أي: علِمَ عدَدَهم ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ فلا يخفَى عليه أحدٌ منهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾؛ أي: واحدًا لا ناصرَ له ولا مالَ معَه لينفعَه، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّكم لا ترضَونَ باستعبادِ أولادِكم والكلُّ عبيدُه، فكيفَ رضيتُم له ما لا ترضَونَ لأنفُسِكم.

وقد ردَّ عليهم بمثلِ هذا في أنّهم لا يرضَونَ لأنفُسِهم بالبناتِ ويقولونَ: الملائكةُ بناتُ الله، أو: الأصنامُ بناتُ الله، وقالَ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

(٩٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

قولُه تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: صدَّقُوا وعمِلُوا الأعمالَ الصّالحةَ.

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: محبّةً في صدورِ عبادِه المؤمنينَ.

وفي الخبرِ: «إذا أحبَّ الله عبدًا نادَى جبريلَ: قد أحببْتُ فلانًا فأحِبَّه، فيُنادي في السَّماءِ، ثم تنزلُ[١] له المحبّةُ في أهلِ الأرضِ، وذلك قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾»[٢].

وقيلَ: يُحبُّهم الله إذا حُمِلَتْ محبّتُه للعبدِ على صفةِ الفعلِ.

وقيلَ: يجعلُهم يُحِبُّ[٣] بعضُهم بعضًا، فيتَراحمُونَ ويتعاطَفُونَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ[٤]، جعَلَ الله له في قلوبِ العبادِ المودّةَ، لا يلقاه مُؤمنٌ إلّا وقَّرَه، ولا مُشرِكٌ ولا مُنافِقٌ إلّا عظَّمَه.

---

(١) في (ج): «ينزل».

(٢) رواه الترمذي (٣١٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧)، دون ذكر الآية.

(٣) في (ج): «تحت».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٤٤)، وروى بعده عن عن عبد الرحمن بن عوف، أنه لما هاجر إلى المدينة، وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة، منهم شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. قال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٢٦٩): «قد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك».

وقيلَ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾؛ أي: يُذيقُهم حلاوةَ الإيمانِ والطّاعةِ حتَّى يجدوا في قلوبِهم حلاوةَ المحبّةِ لله تعالى.

والسُّورةُ مكّيّةٌ، نزلَتْ قبل هجرةِ المسلمينَ إلى الحبشةِ؛ لأنَّ جعفرًا قرأ صدرَ السُّورةِ على النَّجاشيِّ كما تقدَّمَ، وقد أثبتَ الله للمُؤمنينَ المحبّةَ في قلبِ النَّجاشيِّ، وفي قلوبِ أهلِ المدينةِ حتَّى آوَوْهُم ونصَرُوهُم، وأسلَمُوا بالقرآنِ لا بالسَّيفِ، وألَّفَ الله بينَ الأوسِ والخزرجِ، وتتابَعَ هذا حتَّى دخلَ النّاسُ في الدِّينِ أفواجًا.

***

(٩٧) - ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾؛ أي: بيَّنّا القرآنَ بلسانِكَ وجعلْناه سهلًا على مَن تدبَّرَه وتأمَّلَه، فالكنايةُ ترجعُ إلى القرآنِ وإنْ لم يجرِ له ذِكرٌ، كقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

وقيلَ: أنزَلْناه عليكَ بلسانِ العربِ ليسهُلَ عليهم فهمُه.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أو: بما أجرَيناه على لسانِك.

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾؛ أي: شديدي الخصومةِ، واللُّدُّ: جمعُ الألَدِّ، وخُصُّوا بالإنذارِ لأنَّ الذي لا عنادَ له يسهُلُ انقيادُه.

وقيلَ: الألَدُّ: الذي يأخُذُ في كلِّ وجهٍ منَ الخصومةِ، من لدِيدَي العُنُقِ، وهما جانباه.

***

(٩٨) ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾؛ أي: هؤلاءِ اللُّدُّ إنْ لـم يقبَلُوا إنذارَكَ فلْيَهُنْ عليكَ أمرُهم؛ لأنَّا سنُهلِكُهم كما فعَلْنا بأمثالِـهم.

﴿هَلْ تُحِسُّ ﴾؛ أي: هل ترَى منَ الذينَ أهلَكْناهُم ﴿مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾؛ أي: حِسًّا وصوتًا.

* * *

سُورَةُ طٰه

تفسيرُ سورةِ طه

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

﴿طه﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يا رجلُ[1]، ثمَّ قيلَ: إنَّه بلسانِ الحبشةِ[2].

وقيلَ: بالسُّريانيّةِ[3].

وقيلَ: بالنَّبَطيّةِ[4].

والصَّحيحُ أنَّها وإنْ وُجِدَتْ في لغةٍ أُخرَى، فهي من لغةِ العربِ أيضًا، فإنَّها لغةُ عَكٍّ.

قال الكلبيُّ: لو قلتَ في عَكٍّ لرجلٍ: «يا رجلُ» لـم يُجِبْ حتى تقولَ: «طهَ»[5].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥ ـ ٧) عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والحسن.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤١٥) عن عكرمة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٦) عن قتادة.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٩٧٤) عن ابن جبير.

(٥) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٨٩) من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٩١) عن الكلبي. قال الزمخشري: واللهُ أعلمُ بصحَّةِ ما يقال: إن (طاها) في لغة عَكٍّ في مَعْنَى: (يا رَجُلُ)، ولعَلَّ عَكًّا تصرَّفُوا في (يا هذا)، كأنهم في لغَتهمْ قالِبُون الياء طاءً فقالوا في (يا): (طا)، واختَصَروا (هذا) فاقتَصَرُوا على (ها). قال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٠/ ١١٩): والزمخشري ما رضي بهذا القول حيث قال: والله أعلمُ بصحة ما يقال.

وقيلَ: هي من فواتحِ السُّورِ، وجُعِلَت كالاسمِ لـها كما تقرَّرَ في مواضعَ.

وقيلَ: أَقْسَمَ بهذه الحروفِ، أو أَقْسَمَ بطَوْلِه وهدايتِه.

وقيلَ: أي: طَأ الأرضَ بقَدَمِكَ، يُريدُ: في التَّهجُّدِ، فكأنَّه قالَ: «طَأْها»، ثمَّ لُيِّنَتِ الهمزةُ فقيلَ: «طاها»، ولهذا قالَ: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، ويدلُّ عليه سببُ النُّزولِ، فإنَّه كانَ ربَّما علَّقَ إحدَى رجلَيه في الصَّلاةِ شُكرًا وتخشُّعًا فقيلَ له: «طَأ الأرضَ بقدمَيكَ»[1].

وأنكرَ ابنُ مسعودٍ القراءةَ بالتَّفخيمِ، وقالَ: إنَّما أقرَأَني رسولُ الله ﷺ «طهَ»، وأنكرَ أن يكونَ من «طَأ الأرضَ»[2].

وقُـرِئَ: (طَـهْ)[3]؛ أي: «طَأْ»، فأُبدِلَ من الهمـزةِ الهاءُ مثلَ «هِيّـاكَ» و«هَرَقْتُ»، وقيـلَ: «طَ» مـن وَطِـيَ علـى تـركِ الهمزةِ، ثـمَّ أُثبِتَـتِ الهاءُ للوقـفِ، ولكنَّهـا قراءةٌ شاذّةٌ.

قولُـه تعالـى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ قـال ابـنُ عبَّـاسٍ: كان ﷺ إذا قـامَ مـنَ اللَّيـلِ ربطَ صـدرَه بحبلٍ كـي لا ينـامَ، فنزلَتْ هـذه الآيـةُ وأمـرَه اللهُ بالتَّخفيفِ

---

(١) رواه عبد بن حميد كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٨) عن الربيع بن أنس مرسلًا، ورواه البزار في «مسنده» (٩٢٦) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٦): رواه البزار وفيه يزيد بن بلال، قال البخاري: فيه نظر. وكيسان أبو عمر، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٧٤)، ومن طريقه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٨٨).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩) عن الحسن، وذكرها الهذلي في «الكامل في القراءات» (ص: ٥٩٧) عن أبي حنيفة والحسن وورش في اختياره.

على نفسِه[1]؛ لأنَّه كانَ التزَمَ النَّوافلَ الكبيرةَ[2].

وقيلَ: هذا في صلاةِ اللَّيلِ، وكانت فرضًا عليه، فخُفِّفَ عنه ونُسِخَتِ الفَرْضيّةُ[3] في حقِّ غيرِه، وفي حقِّه أيضًا عند قومٍ.

وقيلَ: قال الكفّارُ: طالَ عَناؤُه وشقاوتُه بربِّه، فبيَّنَ أنَّ هذا ليس شقاءً، فـ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[4]، بل لتشكُرَ وليقتدِيَ بك غيرُك، فيكونَ لك مثلُ أجرِهم[5]، وليكونَ ما يظهرُ من جِدِّكَ في العبادةِ داعيًا لغيرِك إلى الدُّخولِ في دينِكَ.

وقيلَ: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ بل لننصُرَكَ ونُعِزَّكَ ونفتحَ عليك البلادَ.

ووُصِلَ هذا بقِصّةِ موسى؛ لأنَّه قاسى من قومِه شدائدَ ثمَّ كانت النُّصرةُ له عليهم من بعدُ، وكان عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ بعد نزولِ هذه الآيةِ ينامُ بعضَ اللَّيلِ ويُصلِّي بعضَه.

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ﴾؛ أي: ما أنزَلْناه إلّا تذكرةً.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ١٣٤) من طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس، وعبد الوهاب بن مجاهد متروك.
وروي في «تفسير مجاهد» (ص: ٤٦٠)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢٤١٥)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٣٧)، و«تفسير عبد بن حميد» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥٤٩)، عن مجاهد: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ قال: في الصلاة، كقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ [المزمل: ٢٠] فكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة.

(٢) في (ج): «الكثيرة».

(٣) في (ج): «الفريضة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «فإن قومه قالوا: لقد شقي هذا الرجل بربه، فأنزل الله تعالى ذكره ﴿طه﴾ يعني: يا رجل ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾».

(٥) في (ج): «أجورهم».

وقيلَ: ولكنْ أنزَلْناه تذكرةً، كقولِه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢٠]؛ أي: لكِنْ فَعَلَه ابتغاءَ وجهِ ربِّه.

وقيلَ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: «بل»؛ أي: بل أنزَلْناه تذكرةً، والتَّذكرةُ مصدرٌ كالتَّذكيرِ.

﴿لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾؛ أي: يخشَى اللهَ ويُطيعُه، ونظيرُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يس: ١١]، وخُصَّ مَن يخشى ويُطيعُ لأنَّهم المُنتَفِعون بالقرآنِ.

* * *

(٤ ـ ٥) ـ ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٗا﴾؛ أي: أنزلْناه تنزيلًا[1].

وقيلَ: ﴿تَنزِيلٗا﴾ نصبٌ لأنَّه بدلٌ من ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾.

﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾؛ أي: لم يعجَزْ عنهما، فلن يعجزَ عن ثوابِكَ على القيامِ بما أُنزِلَ عليك حتَّى لا تشقَى به.

وقيلَ: هو خالقُ كلِّ شيءٍ، فلا حاجةَ به إلى إيمانِ الخلقِ، ولكنْ أمرَهم به تشريفًا لهم وتحصيلًا لغبطتهم[2].

و﴿ٱلۡعُلَى﴾: جمعُ العُليا، كما يُقالُ: الكُبْرَى والكُبَرُ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٥٠)، وعنه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٥٢) وعقبه بالقول: فعلى هذا ينتصب على المصدر، و«أنزلنا» و«نزلنا» بمعنًى واحدٍ، فهو من باب المصدر على غير الصدر.

(٢) في (أ): «وتحصيلًا لغيب ظنهم».

قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ أي: تنزيلًا ممَّن خلَقَ وهو الرَّحمنُ.

﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ أي: استولَى، وقيلَ: أقبَلَ على خلقِه.

ومعنى الآيةِ: هو الرَّحمنُ خالقُ العرشِ.

وقيلَ: العرشُ: الملكُ؛ أي: هو مالكُ الملكِ، يُقالُ: ثُلَّ عرشُ فلانٍ؛ أي: زالَ ملكُه.

* * *

(٦ ـ ٧) ـ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾.

قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: لا حاجةَ به إلى أحدٍ ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ يعني: الهواءَ ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ الثَّرى: التُّرابُ النَّدِيُّ، وثرَّيتُ التُّربةَ؛ أي: ندَّيتُها.

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: إنْ تجهَرْ بالدُّعاءِ في الصَّلاةِ وفي غيرِها فإنَّ الله يُثيبُك؛ فإنَّه عالمُ السِّرِّ وما هو أخفَى، فدُمْ على ما أنتَ عليه.

وقيلَ: إنْ تجهَرْ فلا حاجةَ بك[1] إلى الجهرِ؛ فإنَّ الله يعلَمُ السِّرَّ، وكان المُشرِكونَ يُؤذونَه إذا جهرَ بالقرآنِ؛ أي: لا نُكلِّفُكَ أن تجهرَ فيُؤدِّيَ إلى نوعِ أذًى ومشقَّةٍ.

وقال الجرجانيُّ: أي: إنْ تجهَرْ [بالقول] وتُظهِرْه فإنَّ الله يعلَمُ السِّرَّ وأخفى منه، فكيف الجهرُ[2]؟

ثمَّ، قيلَ: السِّرُّ: ما دونَ الجهرِ، وهو ما لا يُرفَعُ به الصَّوتُ ممّا يُتكلَّمُ به، وأخفَى منه: ما يُحدِّثُ به المرءُ نفسَه من غيرِ تلفُّظٍ به.

---

(١) في (ج): «لك».

(٢) انظر: «البسيط» (١٤/ ٣٥٨)، وما بين معكوفتين منه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: السِّرُّ: ما أسرَرْتَ في نفسِكَ، وأخفَى منَ السِّرِّ: ما لـم يكُنْ بعدُ وهو كائنٌ، فلمْ تُحدِّثْ به نفسَكَ(١).

﴿وَأَخْفَى﴾؛ أي: أخفَى منَ السِّرِّ، فحُذِفَ لدلالةِ الحالِ عليه.

وقيلَ: أخفَى بمعنَى الخفيِّ؛ أي: يعلَمُ السِّرَّ والخفِيَّ، كما يُقالُ: لستَ في هذا الأمرِ بأوحدَ؛ أي: بواحدٍ.

وقيلَ: يعلَمُ السِّرَّ، وأخفَى سرَّه عن الخلقِ فلا يُطلِعُ على غيبِه أحدًا، فهو «أفعَلُ» منَ الإخفاءِ.

***

(٨) ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هو اللهُ لا إلهَ إلّا هو؛ أي: لا يستحقُّ التَّعظيمَ غيرُه.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: بـأيِّ اسـمٍ لـه دعوتَـه فكلُّـه حسَـنٌ، و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مؤنَّـثُ «الأحسَـنِ»، كالعُليا والكُبـرَى، ووُحِّدَتِ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ والأسـماءُ جمعٌ لأنَّها مُؤنَّثةٌ، والجماعةُ تُوصَـفُ بصفةِ المُؤنَّثِ الواحدة، كقولِه: ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، وقولِه: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

***

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ ذكَرَه أمرَ موسى تسليةً له.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥٠١)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٥٨).

وقيلَ: هذا أوَّلُ ما أُخبِرَ به؛ أي: لـم يأتِكَ حديثُ موسى فاسمَعْه الآنَ.

ويحتملُ أنَّه كان أتاه فقال: أليسَ قد أتاكَ.

و«هل» ترِدُ بمعنَى الجحدِ، تقولُ: «هل يقدرُ أحدٌ على مثلِ هذا؟» وقد تكونُ بمعنَى «قد»، كقولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]؛ أي: قد أتَى على الإنسانِ.

قولُه تعالى: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾؛ أي: حينَ رأى، وذلك حينَ سارَ بأهلِه، وكان شتاءً، فأضلَّ الطَّريقَ وأظلَمَ عليه اللَّيلُ، فرأى من بعيدٍ نارًا.

﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ﴾ لابنةِ شُعَيبٍ ـ واسمُها: صفورا، وكانت ولدَتْ له ولدَينِ ـ: إنِّي رأيتُ نارًا فامكُثُوا في موضعِكم لآتيَ النّارَ أو أهتَدِيَ إلى الطَّريقِ.

قـال وَهْبٌ: استأذَنَ موسى شُعَيبًا[1] في الرُّجوعِ إلى والدتِه فأذِنَ له، فخرَجَ بأهلِه، ووُلِدَ له ابنٌ في الطَّريقِ في ليلةٍ شاتيةٍ مُثلِجةٍ، وقد حادَ عن الطَّريقِ، فقدحَ موسى النّارَ فلم تُورِ المِقدَحةُ شيئًا، فبينا هو كذلك إذ أبصرَ نارًا من بعيدٍ عن يسارِ الطَّريقِ[2].

﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ قيلَ: خاطبَ المرأةَ والأعوانَ، أو المرأةَ وولدَيها.

وقيلَ: خاطبَها، ولكنَّه خرجَ الخطابُ على ظاهرِ لفظِ «الأهلِ».

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ أي: أبصَرْتُ، ومَن رأى شيئًا من بُعدٍ مـمَّا تسكُنُ إليه النَّفسُ فقالَ: «آنستُ كذا»؛ أي: رأيتُه لي أُنسًا.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ القَبَسُ: قطعةٌ منَ النّارِ عظيمةٌ على طرفِ عودٍ أو قصبةٍ.

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾؛ أي: هادِيًا؛ لأنَّ النّارَ لا تخلُو من ناسٍ عندَها.

---

(١) هذا على قول من قال: إن الرجل الصالح الذي لقيه بمدين هو شعيب، وفيه خلاف.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥٠٥)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٩).

وقيلَ: ﴿هُدَى﴾؛ أي: ما أهتَدي به.

وقيلَ: لعلِّي أجِدُ مَن يهديني إلى النّارِ؛ لأنَّه رآها من بعيدٍ.

***

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾؛ أي: أتَى النّارَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: فإذا النّارُ في شجرةِ عُنَّابٍ، فوقفَ مُتعجِّبًا من حُسنِ ضوءِ النّارِ وشدّةِ خُضرةِ تلك الشَّجرةِ، فلا شدّةُ حرِّ النّارِ تُغيِّرُ حسنَ خُضرةِ الشَّجرةِ، ولا كثرةُ ماءِ الشَّجرةِ يُغيِّرُ حُسنَ ضوءِ النّارِ[١].

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ كان موسى عند الشَّجرةِ فسمعَ النِّداءَ، وما كان النِّداءُ في الشَّجرةِ، وهو كما يُقالُ: نُودِيَ فلانٌ منَ الدّارِ وإنْ لم يكُنِ المُنادي في الدّارِ، فلمَّا سمعَ النِّداءَ قال: مَن أنتَ الذي يُناديني؟ قال: أنا ربُّكَ الأعلى.

قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قُرِئَ: ﴿أنّي﴾ بالفتحِ[٢]؛ أي: نُودِيَ بأنِّي أنا ربُّكَ، وقُرِئَ: ﴿إِنِّيٓ﴾ بالكسرِ؛ أي: فقال الله له: إنِّي أنا ربُّكَ.

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ الخلعُ: النَّزعُ، والنَّعلُ: ما جعلْتَه وقايةً لقدمَيكَ من الأرضِ، ثمَّ ذكرَ سببَ هذا الأمرِ فقال: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٦٥).

(٢) قرأ بها أبو عمرو وابن كثير، وباقي السبعة بكسر الهمزة. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

وفي الخبرِ: كانا(١) من جلدِ حمارٍ ميِّتٍ(٢).

وقيلَ: أمرَه بخلعِ النَّعلِ ليُباشرَ تلك التُّربةَ بقدمِه وتصلَ إليه بركتُها.

وقيلَ: أُمِرَ بخلعِ النَّعلِ للخُشوعِ والتَّواضعِ عند مُناجاةِ الله عزَّ وجلَّ.

وقيلَ: إعظامًا لذلك الموضعِ، كما يُؤمَرُ الإنسانُ بدخولِ الحرمِ حافيًا إعظامًا له.

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾؛ أي: المُطهَّرِ، وقيلَ: المُبارَكِ.

﴿طُوًى﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هو اسمٌ للوادي(٣).

وقال الحسَنُ: طُوِيَ بالبركةِ [مرَّتين](٤)،........................

---

(١) في (ج): «كانتا».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٣ ـ ٢٤) عن قتادة وكعب عكرمة وعلي رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٨).

(٤) ذكره بهذا اللفظ يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٢٤٥)، وابن فورك في «تفسيره» (٣/ ١٤٠)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٦٩)، وما بين معكوفتين منهما، ومن غيرهما أيضاً، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٨) بلفظ: «كان قد قدس مرتين»، وهكذا ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٢٧٢)، ورواه الطبري أيضاً (٢٤/ ٨٠) في سورة النازعات بلفظ: «بثت فيه البركة والتقديس مرتين»، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥٦٠) بلفظ: «واد بفلسطين قدس مرَّتَيْنِ».

وهذا القول على ما صرح به بعضهم على القراءة بكسر الطاء، كما ذكر الطبري في الموضع الثاني، ومثله في «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٩) عن أبي عُبيدٍ: أنَّ الحسن كان يقرؤها: (طِوًى) منونةً بكسر الطَّاء، على معنى: قُدِّس مرَّتين. وكذا ذكر النحاس في «إعراب القرآن» (٥/ ٩٠)، وفصَّله أبو حيان في «البحر» (١٥/ ٢٤) بقوله: قال الحسن: (طِوًى) بكسر الطاء والتنوين مصدرٌ ثُنِّيت فيه البركةُ والتَّقديسُ مرَّتين، فهو بوزن الثِّنى وبمعناه، وذلك لأن الثِّنَى بالكسر والقصر: الشيءُ الذي تكرَّره، فكذلك الطِّوى على هذه القراءة. =

فـ(طوًى) مصدرٌ، تقولُ: «طَوَيتُه طوًى»، مثلَ «لقِيتُه لُقًى»، و«هدَيتُه هُدًى».

وقيلَ: أي: طوَيتَه باللَّيلِ طيًّا[1].

قال قُطربٌ: طُوًى منَ اللَّيلِ؛ أي: ساعةً؛ أي: إنَّك بالوادي الذي قد قُدِّسَ لك في ساعةٍ منَ اللَّيلِ؛ لأنَّ موسى إنَّما نُودِيَ باللَّيلِ، فلحِقَ الوادي في تلك السّاعةِ تقديسٌ مُجدَّدٌ، فكأنَّه قال: إنَّك بالوادي المُقدَّسِ ليلًا[2].

قُرِئَ: ﴿طُوًى﴾ بضمِّ الطّاءِ وكسرِها، ومع الصَّرفِ ومع تركِ الصَّرفِ[3].

وقيلَ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾؛ أي: ففرِّغْ قلبَكَ من أمرِ الأهلِ والولدِ، وقد يُعبَّرُ عن الأهلِ والولدِ بالنَّعلِ.

* * *

= وقال السمين في «الدر المصون» (٨/ ١٧): وعن الحسن البَصْريِّ أنه بمعنى الثِّنى بالكسرِ والقَصْر، والثنى: المكررُ مرتين، فيكون معنى هذه القراءة: أنه طهر مرتين، فيكون مصدراً منصوباً بلفظ ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ لأنه بمعناه، كأنه قيل: المقدَّس مرتين، من التقديس.

قلت: ففي سياق المصنف مخالفة لكل ما ذكروه، فهو أسقط ذكر المرتين، ثم لم يذكر أنه بكسر الطاء، بل أعقبه بما يدل على أنه بضم الطاء من تمثيله بـ«لقيته وهديته»، فكان لا بد من التنويه.

(١) أي: إنَّك بالوادِ المقدَّس الذي طويتَه طُوى؛ أي: تجاوَزْتَه فطوَيْتَه بسيرك. قال القرطبي: فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه. انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٥).

(٢) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (١٥/ ٢٤).

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بضم الطاء غير مصروف، والباقون بضم الطاء مصروفاً. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٠). والقراءتان بكسر الطاء مع الصرف وعدمه من الشواذ، وذكرهما مع من قرأ بكل منهما أبو حيان في «البحر» (١٥/ ٢٣).

قال الجوهري في «الصحاح» (مادة: طوى): «(طوى) اسم موضع بالشام، تكسر طاؤه وتضم، يصرف ولا يصرف. فمَن صرفه جعله اسم وادٍ ومكانٍ وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله اسم بلدة وبقعة وجعله معرفة».

(١٣ ـ ١٦) ـ ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾؛ أي: وأنا الله ربُّكَ اخترتُك لرسالتي.

﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾؛ أي: اعمَلْ بما آمُرُكَ به وأنهاكَ عنه.

وقرأ حمزةُ: ﴿وإنّا اخترْناكَ﴾[1] على لفظِ الجمعِ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾؛ أي: وحِّدني بالعبادةِ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾؛ أي: حافِظْ بعد التَّوحيدِ على الصَّلاةِ، وهذا تنبيهٌ على عِظَمِ قَدْرِ الصَّلاةِ.

﴿لِذِكْرِي﴾؛ أي: لتكونَ ذاكِرًا لي بالصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ تضرُّعٌ إلى الله وقيامٌ بينَ يدَيه، وعلى هذا فالصَّلاةُ هي الذِّكرُ، وقد سمَّى الله الصَّلاةَ ذكرًا في قولِه: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقيلَ: أرادَ الأذكارَ في الصَّلاةِ منَ القراءةِ والتَّسبيحِ؛ أي: أقمِ الصَّلاةَ بلسانٍ ذاكرٍ لي ولعظَمَتي.

وقيلَ: أقمِ الصَّلاةَ لأذكُركَ بالجميلِ والثَّوابِ، كما تقولُ: «ذَرْني لعطائي»؛ أي: لأَنْ أُعطِيَك.

وقيلَ: أقمِ الصَّلاةَ لذِكري إذا نسيتَ، كما في الخبرِ: «فليُصَلِّها إذا ذكرَها»[2]؛ أي: لا تسقُطُ الصَّلاةُ بالنِّسيانِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٧)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤)، من حديث أنس رضي الله عنه. ورواه مسلم (٦٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وجاء في كلا الحديثين في آخرهما: «فإنَّ الله قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»، وهو من كلام النبي ﷺ كما ذكر الحافظ في «الفتح» (٢/ ٧٢).

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾؛ أي: من نفسي، فكيفَ يعلَمُها مخلوقٌ، وفيه توسُّعٌ؛ لأنَّه لا يخفَى على الله شيءٌ، وهو كما تقولُ في المُبالغةِ في كتمانِ الشَّيءِ: «كتَمتُه حتى من نفسي».

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: لـم أُطلِعْ عليها نبيًّا مُرسلًا ولا ملَكًا مُقرَّبًا[1].

وقيلَ: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾؛ أي: أُريدُ إخفاءَ السّاعةِ[2] على الخلقِ.

وقيلَ: ﴿أَكَادُ﴾ زيادةٌ في الكلامِ للتَّوكيدِ؛ أي: الساعةُ آتيةٌ أُخفيها.

وقال أبو عُبيدةَ وقُطربٌ: ﴿أُخۡفِيهَا﴾؛ أي: أُظهِرُها، وأخفَيتُ الشَّيءَ؛ أي: كتَمتُه، وأخفَيتُه؛ أي: أظهَرتُه، فهو منَ الأضدادِ[3]، مثلَ «أسرَرْتُه»؛ فإنَّه منَ الأضدادِ.

وقال ابنُ جنِّي: «أُخفِيها»؛ أي: أُزيلُ خفاءَها، وخفاءُ كلِّ شيءٍ: غطاؤُه، ومنه: خفاءُ القربةِ، للكساءِ الذي يكونُ عليها[4]، وهو كقولك: «أعجَمْتُ الكتابَ»؛ أي: أزَلتُ عُجمَتَه، و«أشكَلْتُه»؛ أي: أزَلتُ إشكالَه، و«أشكَيتُ فلانًا»؛ أي: أزَلتُ شكواه، فـ«أفْعَلْتُ» قد يأتي والمُرادُ به السَّلبُ، وهذا التَّأويلُ يُوافقُ قولَ الله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقُـرِئَ: (أَخفيهـا) بالفتـحِ[5]، يُقـالُ: «خَفَيـتُ الشَّـيءَ أَخْفيـه»؛ أي: أظهَرتُـه،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٤) بلفظ: «لا أظهر عليها أحداً غيري».

(٢) في (ج): «أريد إخفاءها».

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٦)، وذكره عن قطرب الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٧٤).

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ٤٧)، و«سر صناعة الإعراب» (١/ ٥١).

(٥) نسبت لأبي الدرداء وسعيد بن جبير. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧٦)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٠٢)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٣٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٥٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠).

وقـد رُوِيَ «خَفَيْتُ» بمعنى: أظهَرْتُ، وبمعنى: كتَمْتُ.

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: هي آتيةٌ لتُجزَى كلُّ نفسٍ ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾: بما تعملُ من خيرٍ وشرٍّ.

قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾؛ أي: لا يرُدَّنَّكَ عن الإيمانِ بها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فاستثقَلَ[1] الشَّرائعَ ولـم يُؤمِنْ بالحشرِ والنَّشرِ.

﴿فَتَرْدَىٰ﴾؛ أي: فتَهلِكَ، يُقالُ: رَدِيَ يرْدَى رَدًى فهو رَدٍ[2].

***

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قيلَ: كان خطابُ الله تعالى لموسى وحيًا؛ لأنَّه قال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾، ولا بدَّ للنَّبيِّ في نفسِه من مُعجزةٍ يعلمُ بها صحَّةَ نُبوَّتِه في[3] نفسِه، فأراهُ في العصا وفي نفسِه ما أراه لذلك.

ويجوزُ أن يكونَ ما أراهُ في الشَّجرةِ آيةً كافيةً له في نفسِه، ثمَّ تكونُ العصا واليدُ زيادةَ توكيدٍ، وبُرهانًا يَلقَى به قومَه.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ قال الزَّجّاجُ: أي ما التي بيمينِكَ[4]؟

---

(١) في (ج): «واستثقل».

(٢) في النسختين: «فهو ردي»، والصواب المثبت. انظر: «العين» (٨/ ٦٧)، و«الكتاب» (٤/ ١٨)، و«إصلاح المنطق» (ص: ١٣٦)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ١٠٥٧)، و«البسيط» (١٤/ ٣٧٧).

(٣) في (ج): «صحة نبوة».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٥٣).

وقال الفرَّاءُ: ما هذه بيمينِكَ[١].

ولو قالَ: وما ذلك؟ لجازَ؛ أي: ما ذلك الشَّيءُ، ومقصودُ السُّؤالِ: تقريرُ الأمرِ حتَّى يقولَ موسى: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ لتثبُتَ عليه الحجّةُ بعدَما اعترَفَ.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ قال وَهْبٌ: قالَ الله له: وما تصنَعُ بها؟ ولا أحدَ أعلَمُ منه بذلك[٢]، فقال:

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾؛ أي: أتحامَلُ عليها في المشيِ والوقوفِ، ومنه الاتِّكاءُ.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾؛ أي: أخبطُ بها فأضرِبُ أغصانَ الشَّجرةِ ليسقُطَ ورقُها على غنَمي، يُقالُ: «هشَّ على غنمِه يهُشُّ» بضمِّ الهاءِ في المُستقبلِ؛ أي: خبَطَ الشَّجرَ، و«هشَّ إلى الرَّجلِ يهَشُّ» بالفتحِ.

والأصلُ في الكلمةِ: الرَّخاوةُ، يُقالُ: «رجلٌ هَشٌّ»، و«زوجٌ هَشٌّ»، فإذا خُبِطَ الشَّجرُ وسقَطَ ورقُه سهُلَ على الغنمِ تناوُلُه.

وفي الآثارِ: أنَّه كان لتلكَ العصا شُعبَتانِ، فإذا طالتِ الشَّجرةُ تناوَلَ غُصنَها بالشُّعبتَينِ، فمَدَّها ولَواها[٣].

﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: حوائجُ، واحدُها: مَأرَبةٌ ومَأرُبةٌ، ومنه المثَلُ: «مَأرُبةٌ لا حَفاوةٌ»[٤].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٤٢) ضمن خبر طويل.

(٣) ذكر نحوه في خبر وهب بن منبه السابق.

(٤) يُضرب مثلًا للرجل إذا كان يتملقك؛ أي: إنَّما بك حاجتك إليَّ لا حفاوة لك بي. انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ٩٣)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٢٣٠)، و«المستقصى» (٢/ ٣٠٩).

﴿أُخۡرَىٰ﴾ جاءَ على صيغةِ الواحدةِ؛ لأنَّ ﴿مَـَٔارِبُ﴾ في معنى جماعةٍ، فكأنَّه جماعاتٌ منَ الحاجاتِ أُخرَى.

قال ابنُ عبّاسٍ: إذا انتهَيتُ إلى رأسِ بئرٍ فقصُرَ الرِّشاءُ وصلتُه بالعَصا، وإذا أصابَني حرُّ الشَّمسِ غرَزْتُها في الأرضِ وألقَيتُ عليها ما يُظلُّني، وإذا خِفْتُ شيئًا من هوامِّ الأرضِ قتَلتُه بها، وإذا مشَيتُ جعلتُها[1] على عاتِقي وعلَّقتُ عليها القَوسَ والكِنانةَ والمِخْلاةَ، وأُقاتِلُ بها السِّباعَ عنِ الغَنَمِ[2].

وقيلَ ـ والله أعلَمُ ـ: كانت العصا بعد ذلك تُماشيه وتُحدِّثُه، وقد علَّقَ عليها أحمالَه، وتُضيءُ له الشُّعبتانِ باللَّيلِ كالشَّمعِ، وإنْ ظهرَ عدوٌّ ناضلَتْ عنه، وإذا أرادَ الاستِقاءَ انقلَبَتِ الشُّعبتانِ كالدَّلوِ، وإذا اشتَهَى ثمرةً ركزَها في الأرضِ فأثمَرَتْ تلك الثَّمرةَ[3].

وكانَ[4] يكفي في الجوابِ: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ وإنَّما زادَ لسُؤالٍ آخرَ؛ أي: وما تصنعُ بها؟

---

(١) في (أ): «تركتها».

(٢) كذا ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٤) وهو على الأغلب نقله عن المصنف، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٨١) مجموع خبرين، الأول عن ابن عباس في رواية عطاء قال: إذا أتيت إلى بئر فقصر الرشا، وصلته بالعصا حتى ينال الماء، وإذا أصابني حر الشمس أقمتها في الأرض، وجعلت لي عليها ظلا بثوب يسترني من الشمس، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلتها بالعصا. والثاني عن وهب: كان لها شعبتان ومحجن تحت الشعبتين، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين، وكان إذا شاء ألقاها على عاتقه فعلق بها قوسه وكنانته ومرجونته ومخلاته وثوبه وزاداً إن كان معه، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (ج): «وقيل: كان».

وقيلَ: هذا يدُلُّ على جوازِ زيادةِ الجوابِ على السُّؤالِ.

وقيلَ: علِمَ أنَّ المقصودَ التَّقريرُ، فذكرَ غايةَ ما يَعلمُ من منافعِها.

* * *

(١٩ - ٢١) - ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: ألقِ العَصا من يدك ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾؛ أي: فألقاها فقلبَها الله ثُعبانًا.

﴿تَسْعَىٰ﴾؛ أي: تشتدُّ[1] وتمشي مُسرعةً على بطنِها.

قال ابنُ عبّاسٍ: فابتَلَعتِ الصَّخرةَ والشَّجرَ وكلَّ ما مرَّتْ به[2]، وخافَها موسى.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾؛ أي: قالَ الله تعالى له: ﴿خُذْهَا﴾، وإنَّما أظهرَ له هذه الآيةَ لئلّا يفزَعَ منها إذا ألقاها عند فِرعَونَ.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: حالتَها وهيأتَها؛ أي: نرُدُّها عصًا، وفيه حذفٌ؛ أي: إلى سيرتِها.

ثمَّ قيلَ: كانت تلك العصا من أسِّ الجنّةِ.

وقيلَ: أتاه جبريلُ بها.

وقيلَ: قال له شُعَيبٌ: خُذْ عصًا من ذلك البيتِ، فوقعَ بيدِه تلك العصا.

* * *

---

(١) في (أ): «تستبد».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٨٢)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٧).

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ الجناحُ: الجانبُ والجنبُ، والإبطُ: جَناحٌ.

وقيلَ: جناحُ الإنسانِ: عضُدُه إلى أصلِ إبطِه؛ أي: اجمَعْ يدَكَ إلى ما تحتَ إبطِكَ.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ: إلى صدرِكَ[1]. ولعلَّه أرادَ: طرَفَ الصَّدرِ وما يقرُبُ منَ العضُدِ.

﴿تَخْرُجْ﴾؛ أي: وأخرِجْها تخرُجْ.

قال ابنُ عبّاسٍ: كانت يدُه تخرجُ بيضاءَ مثلَ الثَّلجِ تتلألأُ لها شعاعٌ ساطعٌ كضوءِ الشَّمسِ والقمرِ، وأشدُّ ضوءًا[2]، فكانَ إذا أدخلَ يمينَه في جنبِ درعِه إلى عضدِه الأيسرِ، أو يسارَه إلى عضُدِه الأيمنِ، خرجَتْ بيضاءَ، وإذا ردَّها عادَتْ بلا نورٍ.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ أي: من غيرِ برصٍ.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾؛ أي: تخرجُ بيضاءَ آيةً أُخرَى، فهي بدلٌ.

وقيلَ: المعنى: آتيناكَ آيةً أُخرَى، ولا تكونُ أُخرَى إلّا بعد أُولى، والأُولى هي العَصا وانقِلابُها.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٨٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعلق الواحدي عليه قائلاً: «ولا أدري كيف فسر الجناح بالصدر».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٨٥) مختصراً ولفظه: «كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار، كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءًا».

قولُه تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ هي تأنيثُ الأكبرِ، ولـم يقُلْ: «الكُبرِ»؛ لِـمَا ذكرْنا في قولِه: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، ولوِفاقِ رُؤوسِ الآيِ.

وقيلَ: هو نعتُ محذوفٍ؛ أي: لنُرِيَكَ من آياتِنا الآيةَ الكُبرَى؛ أي: الكبيرةَ.

* * *

(٢٤) ـ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أقامَ البُرهانَ وأزاحَ العلّةَ، ثمَّ أرسلَه إلى فرعونَ.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: جاوزَ الحدَّ في الكفرِ، وفيه حذفٌ؛ أي: اذهَبْ إلى فرعونَ فادعُه إلى أن يُوحِّدَ اللهَ.

* * *

(٢٥ ـ ٢٨) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ استوفَقَ اللهَ تعالى في القيامِ بما حمَّلَه فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾؛ أي: وسِّعْ صدري للقيامِ بما كلَّفتَنيه، ولقَبولِ الحقِّ، وفهمِ الوحيِ، والصَّبرِ على ما ينالُني، حتَّى لا أخافَ غيرَك، وذلك لأنَّه عرفَ من نفسِه ضِيقَ صدرٍ، ولهذا قال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٣].

قولُه تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾؛ أي: سهِّلْ عليَّ ما بعثْتَني له.

قولُه تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ قيلَ: كان في لسانِه رُتَّةٌ، فكان لا ينطلقُ لسانُه بكثيرٍ منَ الكلامِ، ولهذا قال فرعونُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقيلَ: كان سببُ العقدةِ أنَّه أدخلَ في صباه جمرةً منَ النّارِ في فيه(١).

قولُه تعالى: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي: يفهَمُوا ما أقولُ.

* * *

(٢٩ ـ ٣٥) ـ ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ يعني: هارونَ ﴿وَزِيرًا﴾؛ أي: مُعاونًا أستَشيرُه في أُموري، والوَزَرُ: الجبَلُ الذي يُعتَصَمُ به.

وقيلَ: هو منَ الثِّقلِ، يُقالُ: «وزَرَ عنِ السُّلطانِ يَزِرُ»؛ أي: حملَ عنه أثقالَ ما أُسنِدَ إليه من تدبيرِ الولايةِ، و«وَزَرْتُ الشَّيءَ»؛ أي: حملتُه.

قولُه: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾؛ أي: اجعَلْ هارونَ أخي وزيرًا لي، فهو مفعولُ (اجعَلْ).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت في لسانه رتة، وذلك أنه كان في حجر فرعون ذات يوم فلطمه لطمة وأخذ بلحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: إن هذا عدوي. فقالت آسية: على رسلك، إنه صبي لا يفرق بين الأشياء ولا يميز، ثم جاءت بطستين، فجعلت في أحدهما الجمر وفي الآخر الجوهر، ووضعتهما بين يدي موسى، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعهما على النار حتى رفع جمرة ووضعها على لسانه فتلك الرتة. وروى نحو هذه القصة الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٣ ـ ٥٤) عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج والسدي.
وروى النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما خبراً طويلاً، وفيه: أن امرأة فرعون قالت: «اجعلْ بيني وبينك أمرًا يُعْرَفُ فيه الحقُّ، ائتِ بجمرتين ولؤلؤتين فقرِّبْهنَّ إليه، فإنْ بَطَش باللُّؤلؤ واجْتَنَب الجمرتين عَرَفْتَ أنه يَعْقِلُ، وإنْ تناول الجمرتين ولمْ يُرِدِ اللُّؤلؤتين عَلمتَ أنَّ أحدًا لا يُؤْثِرُ الجمرتين على اللُّؤلؤتين وهو يَعقلُ، فقَرَّب ذلك إليه فأخذ الجمرتين فانتزعوهما منه مخافة أن يحرقا يده». قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٩): «وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه. وهو أصح ما ورد في ذلك».

وقيلَ: هو نصبٌ على البدلِ من قولِه: ﴿وَزِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾؛ أي: قوِّ به ظَهري، والأَزْرُ: الظَّهرُ، ويَرِدُ بمعنى القوّةِ، وبمعنَى الضَّعفِ أيضًا.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿أَشْدُدْ به أَزْري، وأُشرِكْهُ في أمري﴾ على الجوابِ والمجازاة[1]، **وهو بعيدٌ** في (أشركه)؛ لأنَّ الإشراكَ في النُّبوّةِ لا يكونُ إلّا من جهةِ الله، إلّا أن تُحمَلَ على الأمورِ الأُخرِ دونَ النُّبوّةِ.

قولُه تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ أي: لنتعاوَنَ في العبادةِ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾؛ أي: رائيًا.

* * *

(٣٦ ـ ٣٩) ـ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: أُعطيتَ جميعَ ما سألتَ.

قيلَ: كان هارونُ بمصرَ، فآتاهُ الله الوحيَ، وأُمِرَ بأن يتلَقَّى موسى، فتلقَّاه على مسيرةِ ليالٍ من مصرَ، وأخبرَه أنَّ الله أوحى إليه ليتلقَّاه، فأتَيا فرعونَ فكان موسى يتكلَّمُ وهارونُ يُترجِمُ عنه لبقيّةِ عجمةٍ بقيَتْ به.

وقيلَ: زالتِ العُقدةُ بالكلّيِةِ، بدليلِ قولِه: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾، وإنَّما قال فرعونُ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لأنّه عرفَ منه تلك العقدةَ في التَّربيةِ، وما ثبتَ عندَه أنَّ الآفةَ زالَتْ، وهارونُ كان يُؤازِرُه ويسترُ عليه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٨)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

وقيلَ: كان لا يفهمُ كلامَه، فسألَ أن يحلَّ عقدةً، ولم يتناوَلْ هذا جميعَ العُقدِ، فلمَّا أُجيبَ صارَ بحيثُ يفهمُ كلامَه مع بقيّةٍ بقيَتْ منَ العُجمةِ.

والسُّؤلُ: الأُمنيةُ، وأصلُ الكلمةِ منَ السُّؤالِ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾؛ أي: حفِظْناكَ من شرِّ الأعداءِ في الابتداءِ، والمَنُّ: الإحسانُ.

قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ يعني: في صِغَرِه؛ إذ أوحى إلى أمِّه وحيَ إلهامٍ بما كانَ فيه نجاةُ موسى منَ القتلِ.

وقيلَ: كان هذا الوحيُ رُؤيا فعُبِرَتْ ـ أو عُبِّرَتْ[1] ـ لها.

﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾؛ أي: ما يُلهَمُ.

قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾؛ أي: قُلنا لها: اقذِفيه في التّابوتِ؛ أي: اجعَليه فيه، والقَذْفُ: الرَّميُ بالحصى والسَّهمِ والكلامِ؛ أي: اجعليه فيه بالعجلةِ قبلَ أن يطَّلعَ عليه أحدٌ منَ الذَّبّاحين.

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: نيلِ مصرَ، واليَمُّ: البحرُ.

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ هو أمرٌ وخبرٌ[2]، ومثلُه: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]؛ أي: اقذِفيه في اليمِّ فإنَّ اليمَّ يُلقيه بالسّاحلِ، ونحنُ نُكوِّنُ ذلك ونُيسِّرُه.

والسّاحلُ: شاطئُ البحرِ، سُمِّي به لأنَّ الماءَ يسحَلُه؛ أي: يقشِرُه إذا علاه، وهو «فاعلٌ» بمعنى «مفعولٍ»، وذلك أنَّ النِّيلَ ألقاه إلى مشرعةٍ في دارِ فرعَونَ.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني: فرعونَ.

---

(١) كذا في (أ).

(٢) في (ج): «وجزاء».

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: لا يراكَ أحدٌ من مُؤمنٍ أو كافرٍ إلّا أحبَّكَ[1].

وقال أيضًا: أحبَّه وحبَّبَه إلى عبادِه[2].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ أي: لتُغَذَّى وتُرَبَّى، يُقالُ: «فلانٌ صنيعُ فلانٍ»، و«صنيعةُ فلانٍ»؛ أي: هو الذي ربّاه، و«صنَعَ فلانٌ جاريتَه»؛ أي: ربّاها.

﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ أي: بمَرأًى منِّي، وكلُّ شيءٍ بمَرأًى منه، ولكنَّه تخصيصُ الذِّكرِ.

وقيلَ: ألقَيتُ عليك محبّةً منِّي لتُصنعَ على عيني، فالواوُ مُقحَمةٌ.

وقيلَ: ولتُصنَعَ على عيني فعلتُ ما تقدَّمَ.

وقيلَ: هو كما يُقالُ: «عينُ الله عليك»؛ أي: حفِظَكَ الله.

ثمَّ قيلَ: إنَّ جوارِيَ فرعونَ أخَذْنَ التّابوتَ منَ المَشرَعةِ التي كُنَّ يستَقينَ منها الماءَ، وكان الشَّطُّ بينَ الماءِ والشَّجرِ، فسُمِّيَ مُوشَا، و«مو» بلسانِ القبطِ: الماءُ، و«شا» هو الشَّجرُ بالشِّينِ المُعجمةِ في لُغتِهم، وقُلِبَتْ إلى السِّينِ، فانطَلَقْنَ به إلى امرأةِ فرعونَ.

وقيلَ: كانتِ امرأةُ فرعونَ مُشرفةً على الشَّطِّ، فرأتِ التّابوتَ فأمرَتْ فجيئَتْ به.

وقيلَ: إنَّما رأى فرعونُ التّابوتَ في الماءِ فأمرَ فجيءَ به، ولـمَّا فتحَ التّابوتَ ورأى موسى أحبَّوه.

***

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٦٩) من رواية عطاء عن ابن عباس. عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥٦٧) بلفظ: «كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبّة».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٣٦٩).

(٤٠) ـ ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ﴾ قيلَ: مشَتْ والتّابوتُ بمرأًى منها إلى أن أُخِذَ.

وقيلَ: فشا الخبرُ بمصرَ أنَّ قومَ فرعونَ أخذُوا منَ الماءِ صبيًّا، فمشَتْ حينئذٍ لتعلَمَ الخبرَ.

﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾؛ أي: أُتِيَ بالمراضعِ فلم يقبَلْ ثديًا، فقالت هذه ما قالَتْ.

﴿عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾؛ أي: يضُمُّه إليه ويُرضِعُه، فقيلَ لها: ومَن هي؟ قالت: أمِّي، فقالوا: لأُمِّكِ لبنٌ؟ قالت: لبنُ أخي هارونَ، فأرسلُوها فجاءَتْ بالأمِّ فقَبِلَ ثديَها.

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾؛ أي: ردَدْناكَ إليها ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾؛ أي: برُؤيتِك؛ فإنَّ الله ردَّ ولدَها عليها حتَّى يُربَّى في حِجرِها وهي آمنةٌ عليه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾؛ أي: ليزولَ حُزنُها الذي كان بسببِ فقدِكَ.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني: القِبطيَّ الذي وكزَه موسى.

قال كعبٌ: كان إذ ذاكَ ابنَ اثنتَي عشرةَ سنةً(١).

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾؛ أي: مـمَّا خِفْتَ منه(٢) بسببِ قتلِ هذه النَّفسِ، كما قال: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص: ٤٠].

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾؛ أي: اختبَرْناكَ اختبارًا، وابتَلَيناكَ ابتلاءً ببلاءِ الذَّبحِ والغرقِ وقتلِ القِبطيِّ وغيرِها، فالفتونُ إشارةٌ إلى جملةِ هذه الأشياءِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥٣٢).

(٢) في (ج): «مما خفته».

وقيلَ: هو مصدرٌ؛ أي: فتنَّاكَ فتنةً، فالفتنةُ بمعنَى الابتلاءِ.

وقيلَ: بمعنَى التَّخليصِ منَ المِحَنِ، يُقالُ: فتنْتُ الذَّهبَ على النّارِ.

قولُه تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾؛ أي: فتنَّاكَ فُتونًا فخرَجْتَ خائفًا إلى أهلِ مدينَ، فلبِثْتَ سنينَ فيهم أجيرًا لشُعَيبٍ، وكان بلدُ شُعَيبٍ على ثماني مراحلَ من مصرَ، فلبِثَ موسى في إجارةِ شُعَيبٍ عشرَ سنينَ.

قال وَهْبٌ: بقيَ موسى بمدينَ ثمانيًا وعشرينَ سنةً، منها عشرُ سنينَ في إجارةِ شُعَيبٍ[١].

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾؛ أي: حضرَ الوقتُ الذي قضيتُ لك فيه بالنُّبوّةِ، قال ابنُ عبّاسٍ: على رأسِ أربعينَ سنةً؛ لأنَّ الأنبياءَ لا يُبعَثُونَ إلّا وهم أبناءُ الأربعينَ سنةً[٢]، يُقالُ: «جاء فلانٌ على قدرٍ»؛ أي: جاءَ لوقتِ الحاجةِ إليه.

❊ ❊ ❊

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ يُقالُ: «اصطنَعَ فلانٌ فلانًا»؛ أي: اتَّخذَه صنيعةً له وخرَّجَه؛ أي: اخترتُكَ للرِّسالةِ لنفسي؛ أي: لأُصرِّفَك في أوامِري.

وقيلَ: لتقومَ مَقامي في الاحتجاجِ على أعدائي.

قولُه تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى﴾؛ أي: بأدلَّتي.

وقيلَ: مع آياتي، فالباءُ بمعنى «مع».

﴿وَلَا تَنِيَا﴾؛ أي: لا تضعُفا، يُقالُ: «وَنَى يَنِي وَنْيًا ووُنِيًّا ووَنًى، فهو وانٍ».

---

(١) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥٣٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٠٣).

﴿فِي ذِكۡرِي﴾؛ أي: في ذِكري لِفرعونَ وقومِه ودُعائِهم إليَّ.

وقيلَ: في ذكرِ إحساني إليكما.

وقيلَ: واصِلا ذِكري لتَقوَى عزائِمُكما على ما أمرتُكُما به.

* * *

(٤٣ ـ ٤٥) ـ ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ كُرِّرَ للتَّأكيدِ.

وقيلَ: بيَّنَ بهذا أنَّه لا يكفي ذهابُ أحدِهما.

وقيلَ: الأوَّلُ أمرٌ بالذَّهابِ إلى كلِّ النّاسِ، والثّاني بالذَّهابِ إلى فرعَونَ.

قولُه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: كنِّياه[1].

ثمَّ؛ قيلَ: كنيتُه أبو العبّاسِ. وقيلَ: أبو الوليدِ. وقيلَ: أبو مرّةَ.

وقيلَ: قال له موسى: تُؤمِنُ بما جئتُ به، وتعبُدُ ربَّ العالمينَ، على أنَّ لك شبابًا لا يهرمُ إلى الموتِ، وملكًا لا يُنزَعُ منك إلى الموتِ، ويُنسَأُ في عُمرِكَ[2] أربعُ مئةِ سنةٍ، فإذا متَّ دخلتَ الجنّةَ[3]، فهو القولُ اللَّيِّنُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٠٨)، وذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٣/ ١٦٠) من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ج): «أجلك».

(٣) رواه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٢٠٧) عن السدي، وذكره في «البسيط» (١٤/ ٤٠٩) ثم قال: «وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء، وأبي صالح السدي عن أبي مالك، ومرة عن ابن مسعود، وناس من الصحابة».

وقـال ابـنُ مسـعودٍ: هـو قولُـه: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩][1].

قولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾؛ أي: كُونا على طمعٍ من تذكُّرِه وخشيتِه؛ لأنَّ الدّاعيَ إذا كان أرجى كان أحرَصَ على الدُّعاءِ.

وقيلَ: لعلَّه يتذكَّرُ مُتذكِّرٌ، أو يخشَى خاشٍ إذا رأى الذي به.

قولُه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ لحِقَهما ما يلحقُ البشرَ منَ الخوفِ على أنفُسِهما، فعرَّفَهما الله تعالى أنَّ فرعونَ لا يصِلُ إليهما ولا قومُه.

﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: يُعجِّلَ بعُقوبتِه إيَّانا[2]، يُقالُ: «فرَطَ علينا فُلانٌ»؛ أي: عجَّلَ بمكروهٍ، و«فرَطَ منه أمرٌ»؛ أي: سبَقَ، ومنه «الفَرَطُ والفارِطُ».

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾؛ أي: يُجاوِزَ الحدَّ في الإساءةِ بنا.

وقيلَ: الألفُ في ﴿قَالَا﴾ حرفُ مـدٍّ زيدَ لمدِّ الصَّوتِ؛ أي: قالَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾، وإنَّما احتيجَ إلى هذا لأنَّ هارونَ ما كان حاضِرًا في وقتِ جريانِ هذا الكلامِ من موسى.

ويحتمـلُ أن يكـونَ موسـى قـال ذلك، ثـمَّ هـارونُ لمَّا بلغَـه الأمرُ قالَـه أيضًا، فقال الله لهمـا: ﴿لَا تَخَافَآ﴾.

وفي مُصحفِ عبدِ الله: (قال ربَّنا إنَّنا نخافُ).

***

---

(١) وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٣/ ٢٨)، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما في «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٧/ ٢٨٣).

(٢) في (ج): «بعقوبتنا».

(٤٦ ـ ٤٨) ـ ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ ﴾؛ أي: بالنُّصرةِ ﴿أَسۡمَعُ﴾ دعاءَكما فأُجيبُ ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما يُرادُ بكما فأمنعُ.

قولُه تعالى: ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾؛ أي: أرسلَنا إليك خالقُك ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أطلِقْهم، كما تقولُ: «أرسلْتُ الصَّيدَ»؛ أي: أطلَقْتُه.

﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾؛ أي: بالاستعمالِ في الأعمالِ الشَّديدةِ، وكان فرعونُ يُكلِّفُهم ضربَ اللَّبِنِ، والأعمالَ الشَّاقَّةَ.

﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أرادَ: جنسَ الآياتِ، وهي المُعجِزاتُ.

وقيلَ: أي: ببيانٍ من عندِ اللهِ.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ أي: منَ اللهِ، وهو التَّحيَّةُ.

وقيلَ: السَّلامةُ من عذابِ اللهِ تعالى.

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡنَآ ﴾؛ أي: إنَّ اللهَ قد أوحَى إلينا وعرَّفَنا ﴿أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: عذابَ اللهِ على مَن كذَّبَ أنبياءَ اللهِ.

قيلَ: هذه أرجَى آيةٍ في القرآنِ؛ لأنَّها تُوجِبُ أنَّ مَن صدَّقَ النَّبيَّ وآمنَ فليس عليه شيءٌ منَ العذابِ؛ لأنَّ العذابَ لفظُ الجنسِ.

* * *

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: فأَتَياه ودَعَواه إلى الله، فقال لهما فرعونُ: فمَن ربُّكما؟ فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه، وكان الخطابُ مع موسى، فلهذا قال: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾.

وقيلَ: خاطَبَهما ولـم يقُلْ: «يا هارونُ» اكتِفاءً بذكرِ أحدِهما، ولمُوافقةِ رُؤوسِ الآيِ.

وقيلَ: خصَّ موسى لمكانِه منَ الرِّئاسةِ، فإنَّ هارونَ كان في حكمِ التّابعِ له.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: أنَّه يُعرَفُ بصفاتِه، وليس له اسمُ علَمٍ حتَّى يُقالَ: «فلانٌ»، بل هو خالقُ العالَـمِ، وهو الذي خصَّ كلَّ مخلوقٍ بهيئةٍ وصورةٍ، ولو كان الخطابُ معهما لقالَ: «قالا ربَّنا».

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾؛ أي: أعطَى كلَّ شيءٍ خلقَه وهداهُ لِـمَا يُصلِحُه من مطعَمِه ومشرَبِه وغيرِهما.

وقيلَ: أعطى اليدَ البَطْشَ، والرِّجلَ المشيَ، واللِّسانَ النُّطقَ، والعينَ البصرَ، والخلقُ بمعنَى المخلوقِ؛ لأنَّ البطشَ والمشيَ والرُّؤيةَ والنُّطقَ معانٍ مخلوقةٌ أودَعَها الله الأعضاءَ.

وقيلَ: أي: أعطى كلَّ شيءٍ جميعَ ما يحتاجُ إليه منَ المخلوقاتِ، كقولِه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقيلَ: هو كقولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ أي: وسَّعَ النِّعمةَ على العبادِ.

* * *

(٥١ ـ ٥٢) ـ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: فما بالُـهم ذهَبُوا وقد عبَدُوا غيرَ ربِّكَ، وهذا كقولِ مَن قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، والبالُ: الحالُ؛ أي: فما حالُـها؟

قولُه تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾؛ أي: أعمالُهم محفوظةٌ عندَ الله ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾؛ أي: هي مكتوبةٌ، فيُجازيهم بما عمِلُوا.

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾؛ أي: لا يذهبُ علمُ شيءٍ عنه، فسيُجازيهم الله غدًا بما يستَحِقُّونَ، وكأنَّ فرعونَ لجهلِه ظنَّ أنَّ العذابَ لا يكونُ إلّا في الدُّنيا لـمَّا قال موسى: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨].

وقيلَ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: لِـمَ ضلُّوا؟ فقال: الله تعالى أعلَمُ بضلالِ[1] كلِّ إنسانٍ: من تقليدٍ، وفرطِ عنادٍ، ومُخامرةِ شكٍّ، وإنَّ الله لا يَضِلُّ وإنْ ضلَّ كثيرٌ منَ الخلقِ، وعنَى بالكتابِ: اللَّوحَ المحفوظَ.

وقيلَ: هو كتابٌ مع بعضِ الملائكةِ.

وقيلَ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾؛ أي: لا يُخطِئُ في التَّدبيرِ، فمَن أنظرَه فلِحكمةٍ أنظرَه، ومَن عاجَلَه فلِحكمةٍ عاجَلَه.

وقيلَ: لا يضِلُّ ذلك الكتابُ ربِّي؛ أي: لا يضيعُ منه، فموضعُ ﴿رَبِّى﴾ نصبٌ.

وقيلَ: توهَّمَ فرعونُ أنَّ موسى يدَّعي علمَ جميعِ الأشياءِ فقال: ما حالُ القرونِ الأولى في أعمارِهم؟ وكم بينَنا وبينَهم؟ أو كم هي؟ فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾.

---

(١) في (ج): «بسبب ضلال».

وقيلَ: أي: علمُ وقتِ بَعثِها وعقابِها عند ربِّي، ولـم يُطلِعْ أحدًا على وقتِ قيامِ السّاعةِ، ولـم يَضِلَّ ربِّي في عقابِ مَن أرادَ وإمهالِ مَن أرادَ.

(٥٣ ـ ٥٤) ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ وقُرِئَ: ﴿مَهْدًا﴾[1]، والمَهدُ المصدرُ كالفَرْشِ؛ أي: مهَّدَ لكم الأرضَ مَهْدًا، والمِهادُ مثلُ الفِراشِ.

وقيلَ: مَهدًا؛ أي: ذاتَ مَهدٍ.

وقيلَ: استُعمِلَ المهدُ استعمالَ الأسماءِ، فجُمِعَ كما يُجمَعُ «فَعْلٌ» على «فِعالٍ».

قولُه تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ السَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ؛ أي: جعَلَ لكم طرُقًا تسلُكون فيها من بلدٍ إلى بلدٍ لإقامةِ مَعاشِكُم، والطُّرُقُ المسلوكةُ مُـمَهَّدةٌ على عرضِ الأرضِ، فجُعِلَتْ كأنَّها مسلوكٌ فيها.

وقيلَ: أي: شقَّ لكم في الأرضِ الأنهارَ والعيونَ.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: المطرَ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ قيلَ: تمَّ كلامُ موسى عندَ قولِه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ثمَّ قال الله سُبحانَه وتعالى مُوضِّحًا لنا مُرادَ مُوسى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾.

وقيلَ: أنزلَ منَ السَّماءِ ماءً فأخرَجْنا نحنُ به معاشرَ العبادِ أزواجًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ بالحراثةِ.

﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: بالماءِ المُنزَّلِ منَ السَّماءِ ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾؛ أي: أصنافًا منَ النَّباتِ المُختلفةِ الأزواجِ والألوانِ.

---

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٨)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

و﴿شَتَّىٰ﴾ من شَتَّ الشَّيءُ؛ أي: تفرَّق، يشِتُّ شَتًّا وشتاتًا، وشَتَّ به؛ أي: فرَّقه، وأشتَّه وشتَّتَه، و﴿شَتَّىٰ﴾ هاهُنا نعتٌ للأزواجِ، ويجوزُ أن يكونَ نعتًا للنَّباتِ.

قولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾؛ أي: أخرَجْنا ذلك قَوامًا لكم ولأنعامِكُم، وهذا أمرُ إباحةٍ، والمعنى الخبرُ؛ أي: لتنتَفِعُوا بما أخرَجْنا منَ الأرضِ.

﴿وَٱرۡعَوۡاْ﴾ من رعَتِ الماشيةُ الكلأَ، ورَعاها صاحبُها رعايةً؛ أي: أسامَها وسرَحَها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ أي: إنَّ فيما ذُكِرَ بالأدلَّةِ على أنَّها مُسخَّرةٌ مُدبَّرةٌ دبَّرَها خالقٌ حكيمٌ قادرٌ عليمٌ، وهذا كلُّه من موسى احتجاجٌ على فرعونَ في إثباتِ الصَّانعِ جوابًا لقولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

وبيَّنَ أنَّه إنَّما يُستَدَلُّ على الصَّانعِ اليومَ بأفعالِه.

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾؛ أي: لذَوي العُقولِ، والنُّهيةُ: العقلُ، وسُمِّيَ نُهيةً؛ لأنَّه يُنتَهى إلى ما أَمَرَ به[1].

وقيلَ: لأنَّه ينتَهي إلى أقوالِ العُقلاءِ ورأيِهم.

* * *

(٥٥) ـ ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ يعني: آدمُ خُلِقَ منَ الأرضِ، وقد جرَى ذِكرُ الأرضِ في قولِه: ﴿جَعلَ لكم الأرضَ مِهادًا﴾.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٢٣١)، و«اللسان» (مادة: نهى)، وفيهما: وسُمِّيَ العقلُ نُهْيَةً لأنه يُنتَهى إلى ما أَمَر به ولا يُعْدى أمرُه.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾؛ أي: بعدَ الموتِ ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾؛ أي: للبعثِ والحسابِ ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يرجعُ هذا إلى قولِه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ لا إلى ﴿نُعِيدُكُمْ﴾، وهو كقولِك: «اشتَريتُ ناقةً ودارًا وناقةً أُخرَى»، فالمعنى: منَ الأرضِ أخرَجْناكم ونُخرِجُكم بعدَ الموتِ منَ الأرضِ تارةً أُخرَى.

***

(٥٦ ـ ٥٨) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا﴾؛ أي: فعتَا ولم يُؤمِنْ، ولم يُجِبْ موسى عمّا جاءَ به منَ الحجَّةِ في إثباتِ الصّانعِ، ولكنْ لـمَّا رأى المُعجِزاتِ قال: إنَّها سحرٌ.

والآياتُ: قلبُ العصا، واليدُ البيضاءُ. ويجوزُ إطلاقُ لفظِ الآياتِ عليهما لأنَّ كلَّ واحدةٍ كانت تدُلُّ على أشياءَ، ويُمكِنُ أن يرجعَ هذا إلى السِّنينَ وسائرِ الآياتِ الأُخرِ التي أوتيَها موسى، ولم يُرِدْ جميعَ آياتِ الله تعالى.

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ لأنَّ الله تعالى هو الذي أظهرَ تلك الآياتِ.

﴿فَكَذَّبَ﴾؛ أي: نسَبَ الآياتِ إلى الكذبِ ﴿وَأَبَىٰ﴾؛ أي: امتنَعَ من قبولِ التَّوحيدِ.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾؛ أي: لتُوهِمَ النّاسَ أنَّكَ جئتَ بآيةٍ تُوجِبُ الإيمانَ بك ليجتَمِعُوا معَكَ على مُحاربتِنا، وتَغلِبَ على أرضِنا.

قولُه تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: لنُعارِضَنَّكَ بسحرٍ مثلِه لنُبيِّنَ للنّاسِ أنَّ ما أتيتَ به ليس من عندِ الله.

﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ هو مصدرٌ؛ أي: وَعْدًا.

وقيلَ: المَوعِدُ اسمٌ لمكانِ الوعدِ، كما قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾ [الحجر: ٤٣]، فالمَوعِدُ هاهُنا مكانٌ.

وقيلَ: المَوعِدُ اسمٌ لزمانِ الوعدِ، كقولِه: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ [هود: ٨١].

والأظهَرُ أنَّه مصدرٌ، ولهذا قالَ: ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ﴾؛ أي: لا نُخلِفُ ذلك الوعدَ، والإِخلافُ: أن تُعِدَّ شيئًا ولا تُنجِزَه.

﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾ هو نصبٌ على الظَّرفِ عند الكوفيِّينَ.

وأمَّا البصريُّونَ فقد قالوا: قولُه: ﴿مَكَانٗا﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ﴾؛ أي: عِدْنا ﴿مَكَانٗا﴾.

﴿سُوٗى﴾ من قولِهم: مكانًا سواءً وسِوًى وسُوًى؛ أي: مُتوسِّطٌ بينَ المكانَينِ، فهو إذًا مكانٌ تستَوي مسافتُه على الفريقَينِ.

وقيلَ: أي: مكانًا مُستَويًا يُبيِّنُ للنّاسِ ما بيَّنّا فيه، وعلى هذا التَّسويةُ صفةُ المكانِ لا صفةُ المسافةِ إليه.

وقيلَ: ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾؛ أي: تستَوي فيه حالُنا في الرِّضا به.

* * *

(٥٩) ـ ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ﴾؛ أي: قال موسى: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قُرِئَ: ﴿يَوۡمُ﴾ بالرَّفعِ(١)؛ أي: وقتُ وعدِكم يومُ الزِّينةِ.

---

(١) هي قراءة الجمهور.

وقُرِئَ: (يومَ) بالنَّصبِ على الظَّرفِ[1]؛ أي: يقعُ يومَ الزِّينةِ.

﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ إنْ قرأتَ (يومَ) بالنَّصبِ لم يجُزْ أن تعطفَ على الظَّرفِ ما ليس بظرفٍ، فلا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: موعدُكم يقعُ يومَ الزِّينةِ، وموعدُكم أن يُحشرَ النّاسُ ضُحًى.

أو تقولُ: المعنى: موعدُكم يومُ الزِّينةِ، ويومُ حشرِ النّاسِ ضُحًى.

ويومُ الزِّينةِ كان يومًا معروفًا لهم كالعيدِ يتزيَّنُونَ فيه.

وقيلَ: هو يومُ عاشوراءَ.

وقيلَ: هو يومُ سوقٍ كانَتْ لهم.

وحشرُ النّاسِ ضُحًى: حشرُ أهلِ مصرَ؛ أي: دواعيهم تحشرُهم إلى الخروجِ للعيدِ، أو يَحشرُ فرعونُ النّاسَ في ذلك اليومِ حتَّى يرَوا ما يأتي به موسى والسَّحرةُ.

وخُصَّ الضُّحَى لأنَّه أوَّلُ النَّهارِ، فلو امتدَّ الأمرُ فيما بينَهم كان في النَّهارِ مُتَّسعٌ.

والضَّحوُ: ارتفاعُ النَّهارِ.

* * *

(٦٠ ـ ٦١) ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾.

قولُه: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾؛ أي: أدبرَ مُعرِضًا عن قَبولِ الحقِّ فجمَعَ السَّحرةَ.

وقيلَ: تولَّى فرعونُ ذلك الأمرَ بنفسِه.

وقيلَ: فرجعَ إلى أهلِه لاستعدادِ مكائدِه.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٣) عن الحسن والأعمش والثقفي ورواية عن أبي عمرو.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾؛ أي: مكـره وحيلتـه، والمُرادُ: جمعَ السَّـحرةَ ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾؛ أي: ثمَّ حضـرَ الموضعَ.

قولـه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾؛ أي: قال لفرعونَ والسَّـحرةِ: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: وعيدًا لكم.

قـال الزَّجّـاجُ: هـو منصـوبٌ علـى معنـى: «ألزَمَهـم الله ويـلًا»، أو نصـبٌ على النِّـداءِ كقولِـه: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ [يس: ٥٢][(١)].

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا تُشـرِكُوا بـه، ولا تقولـوا للمُعجِـزاتِ: إنَّهـا سحرٌ.

﴿فيسحَتُكم بعذاب﴾ وقُرِئَ: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ بضمِّ الياءِ[(٢)]، يُقالُ: سحَتَه وأسحَتَه؛ أي: استأصَلَه وأهلكَه، وسحَتَ الشَّعرَ؛ أي: استَقْصَى حلقَه، وكذلك أسحَتَ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾؛ أي: خسِرَ مَن كذَّبَ.

***

(٦٢ ـ ٦٤) ـ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: تشاوَرُوا.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قيل: هو قولُـهم: (هذان ساحران).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٦٠).

(٢) بضـم اليـاء وكسـر الحـاء قـراءة حفص وحمـزة والكسـائي، والباقـون بفتحهمـا. انظر: «السـبعة» (ص: ٤١٩)، و«التيسـير» (ص: ١٥١).

وقيلَ: هو قولُ السَّحرةِ: إنْ كانَ ما أتَيا به سحرًا فإنّا سنغلِبُهما، وإنْ كانَ من جهةِ الله فلا قِبَلَ لنا بهما، وعلى هذا هو إسرارٌ من فرعَونَ؛ أي: كتَمُوه هذه النَّجوَى، ويحتمِلُ أن يكونَ إسرارًا من موسى.

وقال وَهْبٌ: لمَّا قال موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾؛ قال بعضُهم لبعضٍ: ليس هذا كلامَ ساحرٍ[1].

قولُه تعالى: ﴿قالُوا إنَّ هذانِ لساحِرَانِ﴾؛ أي: قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿إنَّ هذانِ﴾؛ أي: موسى وهارونُ.

قرأ أبو عَمرٍو: ﴿إنَّ هذَينِ﴾[2]، قال: فيُكتبُ ﴿إنَّ هذان﴾، ولكنْ في القراءةِ يتعيَّنُ «إنَّ هذَينِ».

وذهبَ إلى قولِ عثمانَ لمَّا نظرَ في المُصحفِ: أرى فيه لحنًا، وستُقيمُه العربُ بألسنتِها، ورُوِيَ أنَّه قيلَ له: ألا تُغيِّرُه؟ فقال: دَعُوه؛ فإنَّه لا يُحِلُّ حرامًا ولا يُحرِّمُ حلالًا[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٩٦).

(٢) وقرأ ابنُ كثير وحفصٌ: ﴿إنْ هذان لساحران﴾، والباقون: ﴿إنَّ هذان لساحران﴾، وشدد ابن كثير النُّون من ﴿هذانِّ﴾ والباقون يخففونها. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٩)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

(٣) رواه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص: ١٢١ و١٢٢)، وجاء عنده في رواية بلفظ: «... شيئًا من لحن...».

وقد تكلم كثير من العلماء على هذا الخبر سندًا ومتنًا، وعلى رأسهم الباقلاني في «الانتصار للقرآن» (٢/ ٥٣٢) وما بعدها، فأطال في تفنيده ورده من حيث المتن والسند، ثم قال في توجيهه على فرض صحته: «إنهُ يمكنُ - إن كانت هذه الرِّواية صحيحةً - أن يكونَ عثمانُ أرادَ بقوله: «أرى فيه لحنًا وستقيمه العربُ بألسنتِها»، أن فيه لحنًا في لغةِ بعضِ العربِ وعلى مذهَب قبيلةٍ منهم لا يتكلمونَ بتلك الكلماتِ على الوَجهِ الذي أُثبِتَ في المصحف، وأن من لَم يألف الكلامَ بتلك الحروفِ على ذلكَ الوجهِ =

وقال قومٌ: لا يجوزُ الأخذُ بقراءةِ أبي عمرٍو؛ لأنَّها خلافُ المصحفِ.

والصَّحيحُ: جوازُ القراءَتَينِ، أمَّا ﴿إِنَّ هذانِ﴾ فلمُوافقةِ المُصحفِ، وأمَّا ﴿إِنَّ هذَينِ﴾ فلأنَّها قراءةُ عائشةَ رضيَ الله عنها، وابنِ الزُّبيرِ، والحسنِ البصريِّ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ، وأبي عمرٍو، وعاصمٍ في روايةٍ[1]، وهي قراءةُ جماعةٍ، ولا تُجمِعُ الأمّة على تركِ تضليلِهم إلّا للعلمِ بأنَّهم قرؤُوا على ما أُنزِلَ، وقد ثبَتَ أنَّ القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ، فإذا ثبَتَ في شيءٍ قراءتانِ جازَ القراءةُ بهما.

ثمَّ اختلفَ النَّحويُّونَ في وجهِ[2] ﴿إِنَّ هذانِ﴾، فقال الفرَّاءُ: هو على لغةِ بَلْحارثِ بنِ كعبٍ وزُبَيدٍ وخَثْعَمٍ وقبائلَ منَ اليمنِ، جعلُوا ألفَ الاثنَينِ في الرَّفعِ

= اعتقدَ أنه لحن وأنه لا يُقرأ به».

وللآلوسي رحمه اللهً كلامٌ حسنٌ في رده وبيان حقيقته، حيث قال في «روح المعاني» (١/ ١٦١): وأما قول عثمان: «إن في القرآن لحنًا... إلخ» فهو مشكل جدًّا؛ إذ كيف يُظن بالصحابة ـ أولًا ـ اللحن في الكلام فضلًا عن القرآن وهم هم؟ ثم كيف يظن بهم ـ ثانيًا ـ اجتماعهم على الخطأ وكتابته؛ ثم كيف يظن بهم ـ ثالثًا ـ عدم التنبه والرجوع؟ ثم كيف يظن بعثمان عدم تغييره؟ وكيف يتركه لتقيمه العرب؟ وإذا كان الذين تولوا جمعه لم يقيموه وهم الخيار فكيف يقيمه غيرهم؟ فلعمري إن هذا مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادة. فالحق أَنَّ ذلك لا يصح عن عثمان، والخبر ضعيف مضطرب منقطع. وقد أجابوا عنه بأجوبة لا أراها تقابل مؤنة نقلها، والذي أراه أن رواة هذا الخبر سمعوا شيئًا ولم يتقنوه فحرَّفوه، فلزم الإشكالُ وحلُّ الداء العضال، وهو ما روي بالسند عن عبد الله بن عبد الأعلى قال: لما فُرغ من المصحف أُتي به عثمان فنظر فيه فقال: «أحسنتم وأجملتم، أرى شيئًا سنقيمه بألسنتنا»، وهذا لا إشكال فيه، لأنه عُرض عليه عقيب الفراغ من كتابته فرأى فيه ما كتب على غير لسان قريش، ثم وفى بذلك عند العرض والتقويم ولم يترك فيه شيئًا، ولا أحسبك في مرية من ذلك. اهـ.

وهذا أكثره مأخوذ عن السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٣٢٢)، وفيه زيادات تنظر ثمة.

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣١).

(٢) في (ج) زيادة: «جواز».

والنَّصبِ والخفضِ على لفظٍ واحدٍ، فقالوا: «جاء الزَّيدانِ، ورأيتُ الزَّيدانِ، ومررتُ بالزَّيدانِ»[١].

وقال أبو عُبيدةَ: إنَّها لغةُ كنانةَ، وكذلك قد يقلبونَ كلَّ ياءٍ ساكنةٍ انفتَحَ ما قبلَها ألفًا[٢].

وقال عليُّ بنُ عيسى: إنَّما جازَ ﴿إنَّ هذانِ﴾ لضَعفِ عملِ «إنَّ»، فإنَّها تعملُ بالشَّبهِ للفعلِ، وليست بأصلٍ في العملِ؛ لأنَّها لـمَّا خُفِّفَتْ لـم تعمَلْ، فلمَّا ضعُفَ عملُها لـم تعمَلْ في ﴿هَٰذَٰنِ﴾[٣]. وهكذا الكلامُ في أخواتِ «إنَّ».

وذكرَ الزَّجَّاجُ قولَينِ؛ أحدُهما: أنَّ ﴿إنَّ﴾ بمعنَى «نعَمْ» و«أجَلْ»؛ أي: أجَلْ هذانِ لَساحرانِ[٤].

وسألَ رجلٌ ابنَ الزُّبيرِ شيئًا فلم يُعطِه، فقالَ: لعَنَ اللهُ ناقةً حملَتْني إليك، فقال: إنَّ وراكبَها[٥]؛ أي: نعَمْ وراكبَها، وهذا معروفٌ في أشعارِ العربِ ومُحاوراتِهم.

ثمَّ، «نعم» تستَدعي سُؤالًا تقدَّمَ، وقد تقدَّمَ هاهُنا قولُه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا﴾ إلى قولِه: ﴿بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، فقولُه: «نعَمْ» ينصرِفُ إلى تصديقِ أنفُسِهم فيما ادَّعَوه منَ السِّحرِ على أنَّه لا يجبُ أن يكونَ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٨٣).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢١)، وعبارته: «وزعم أبو الخطّاب أنه سمع قوماً من بني كنانة وغيرهم يرفعون الاثنين في موضع الجر والنصب».

(٣) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٤٦).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٦٣).

(٥) انظر: «العين» (٨/ ٣٩٨)، و«البيان والتبيين» (٢/ ١٩٢)، و«عيون الأخبار» (١/ ٥٣٧).

قيلَ: «نعم» استفهامٌ، وليس في الأشعارِ التي ورَدَ فيها «إنَّ» بمعنى «نعَمْ» ولا فيما حكَينا عنِ ابنِ الزُّبيرِ سؤالٌ مُتقدِّمٌ.

والقولُ الثَّاني: قال: المعنى «إنَّه هذانِ لساحرانِ»(١)، والهاءُ كنايةٌ عن الأمرِ والشَّأنِ، فحُذِفَتْ، وهو كقولِه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤]؛ أي: إنَّ الأمرَ مَن يأتِ ربَّه مُجرِمًا.

ويجوزُ إدخالُ اللّامِ في خبرِ المبتدأ كقولِك: «زيدٌ والله لَواثِقٌ بك»، حكاهُ يونسُ، وإضمارُ القِصّةِ والشَّأنِ كثيرٌ، تقولُ: «زيدٌ قائمٌ»، ثمَّ تقولُ: «هو زيدٌ قائمٌ»؛ أي: الشَّأنُ زيدٌ قائمٌ، ولهذا جازَ: «كانَ زيدٌ قائمٌ»؛ أي: كانَ الأمرُ زيدٌ قائمٌ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وقومٌ: ﴿إنْ هذانِّ﴾ بتخفيفِ ﴿إنْ﴾(٢)؛ أي: ما هذانِ إلّا ساحرانِ، كقولِه: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾؛ أي: غرَضُهما إفسادُ دينِكم الذي أنتم عليه، كما قال فرعونُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، ويُقالُ: «فلانٌ حسَنُ الطَّريقةِ»؛ أي: حسَنُ المذهبِ.

وقيلَ: طريقةُ القومِ: أفضَلُ القومِ، وهو الذي ينبَغي أن تسلُكوا طريقتَه وتقتَدُوا به، فالمعنى: ويذهَبا بسادَتِكم ورُؤسائِكم استمالةً لهم، أو يذهَبا ببني إسرائيلَ، وهم الأماثِلُ وإن كانُوا خَوَلًا لكم لما ترجعونَ إليه منَ الانتِسابِ إلى الأنبياءِ، أو يذهبا بأهلِ طريقتِكم، فحُذِفَ المُضافُ.

و﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾: تأنيثُ الأمثَلِ، والأمثَلُ: الأفضَلُ، والأماثِلُ: الأفاضِلُ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٦٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٩)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

وقيلَ: الأمثَلُ: الأشبَهُ بالحقِّ.

وقيلَ: ﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ نعتٌ للطَّريقةِ؛ أي: بالمذهبِ المُستقيمِ.

قولُه تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ الإجماعُ: الإحكامُ والعزمُ على الشَّيءِ، تقولُ: «أجمَعْتُ الخروجَ، وعلى الخروجِ»؛ أي: عزَمْتُ.

وقرأ أبو عَمرٍو: ﴿فاجْمَعوا﴾ منَ الجمعِ[1]، وهذا من قولِ السَّحرةِ بعضِهم لبعضٍ.

﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾؛ أي: صفًّا صفًّا، تقولُ: «جاؤوني صفًّا»؛ أي: مُصطَفِّين.

وقيلَ: الصَّفُّ: موضعُ المجمعِ، ويُقالُ للمُصلَّى: صفٌّ، تقولُ: هل أتيتَ اليومَ الصَّفَّ؟ أي: المُصلَّى الذي يُصلَّى فيه.

وفي التَّفسيرِ: ثمَّ أتوا جميعًا ليكونَ أنظَمَ لأُمورِكم وأشدَّ لهيبَتِكم.

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾؛ أي: استعَدَّ للسَّعادةِ[2] مَن غلَبَ، يُقالُ: علاه، واعتَلاه، واستَعْلاه، واستَعْلَى عليه؛ أي: قهرَه.

***

(٦٥ ـ ٦٦) ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾؛ أي: العَصا، وكان معَ السَّحرةِ أيضًا عِصِيٌّ، وكانوا علِمُوا أنَّ آيةَ موسى في إلقاءِ العصا، فإنَّه لـمَّا دخلَ على فرعونَ ألقى عصاهُ، وكان هذا القولُ منهم إدلالًا بأنفُسِهم وإظهارًا للاقتِدارِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

(٢) في (ج): «أي سعد».

قولُه تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ قيلَ: هو أمرُ تهديدٍ؛ لأنَّ إلقاءَهم كان كُفرًا وسحرًا، وموسى لا يأمرُ بالكفرِ، فكأنَّه قال: ألقُوا فستلقَونَ ما يفعلُ الله بكم.

وقيلَ: أمرَهم بالإلقاءِ لتكونَ مُعجزتُه أظهرَ إذا ألقَوا هم ما معهم، ثمَّ يُلقي عصاه فتبتلعَ كلَّ ما ألقَوا، فهو أمرٌ بالإلقاءِ ليبطلَ السِّحرُ لا ليَثبُتَ.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ﴾ فيه حذفٌ؛ أي: فألقَوا فإذا حبالُـهم.

قيلَ: كانَ عددُ السَّحرةِ سبعينَ ألفَ رجلٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: مع كلِّ رجلٍ عصًا وحبلٌ غليظٌ مثلَ حبالِ السُّفنِ[1].

وقيلَ: كانوا خمسةَ عشرَ ألفًا.

وقيلَ: كانوا تسعَ مئةٍ.

وقيلَ: أربعَ مئةٍ.

وقيلَ: اثنَينِ وسبعينَ.

وقيلَ: جعلُوا في حبالِـهم وعِصِيِّهم الزِّئبقَ، فلما انبسَطَتْ عليها الشَّمسُ اهتَزَّتْ وتحرَّكَتْ[2].

﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى موسى منَ الحيَلِ التي أتَوا بها والتَّمويهِ الذي عمِلُوه، ومنه: الخيالُ الذي يُشبِهُ الشَّيءَ وليس به، كخيالِ الإنسانِ في المِرآةِ، وأخالَ الشَّيءُ؛ أي: اشتبَهَ.

قُرِئَ: ﴿يُخَيَّلُ﴾ بالياءِ والتّاءِ[3].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٥٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وفيه نظر، فمثل هذا لا ينطلي على موسى عليه السلام.

(٣) قرأ ابن ذكوان بالتاء وباقي السبعة بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

وقُرِئَ: (تَخيَّلُ)[١] و: (تُخيِّلُ)[٢]؛ أي: تخيِّلُ بأنَّها تسعَى.

قال الكلبيُّ: خُيِّلَ إلى موسى أنَّ الأرضَ حيّاتٌ، وأنَّها تسعَى على بطنِها[٣].

***

(٦٧ - ٦٩) - ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾؛ أي: أحَسَّ ووجَدَ، والوَجْسُ: الصَّوتُ الخفيُّ.

﴿خِيفَةً﴾؛ أي: خَوْفًا، والأصلُ: «خِوْفةً»، فانقلبَتِ الواوُ ياءً لانكسارِ الخاءِ، وإنَّما خافَ موسى لأنَّ سحرَهم كانَ من جنسِ ما أراهُم في العصا، فخافَ أن يلتبِسَ على النّاسِ.

وقيلَ: كان خوفَ طبعٍ، فأوحَى الله إليه: لا تخَفْ، فراجعَ عقلَه ونفسَه فزالَ خوفُه.

قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ فلكَ الظَّفرُ والغلَبةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: لك العُلوُّ عليهم، وإن كانَ لهم نوعُ استيلاءٍ وحكمٍ[٤] على غيرِهم.

وقيلَ: أي: أنتَ العالي، كما يُقالُ: «أنتَ الأوحَدُ»؛ أي: الواحدُ، والله أعلَمُ.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (ص: ٩١) عن أبي السمال.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٥٩٨)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٩١)، عن أبي السمال أيضاً.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٥٨).

(٤) في (ج): «وعلو».

قولُه تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ أي: العَصا ﴿تَلَقَّفْ﴾ بالجزمِ، وهو جوابُ الأمرِ، كأنَّه قال: إنْ تُلقِه يتلقَّفْ.

وقُرِئَ: ﴿تلقَفُ﴾ بالرَّفعِ[1].

ثمَّ يجوزُ أن يكونَ ﴿تَلَقَّفْ﴾ خطابًا لمُوسى؛ فإنَّه صاحبُ العصا، ويجوزُ أن يرجعَ التَّلقُّفُ إلى العَصا، والعَصا مُؤنَّثةٌ.

والتَّلقُّفُ: أخذُ الشَّيءِ بالتَّلقِّي له، وكذلك اللَّقْفُ، و«رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ»؛ أي: سريعُ الفهمِ.

﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾؛ أي: مصنُوعَهم ﴿كَيْدُ سِحْرٍ﴾ قُرِئَ: ﴿كَيْدُ﴾ بالرَّفعِ[2]؛ أي: هو كيدُ سحرٍ، وقُرِئَ: (كيدَ)[3]؛ أي: صنَعُوا كيدَ سحرٍ.

وقُرِئَ: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[4]؛ لأنَّ الكيدَ يكونُ للسّاحرِ لا للسِّحرِ.

بيَّنَ أنَّ احتيالَهم تخييلٌ، وهم عاجِزونَ عن اختراعِ الأعيانِ وقلبِها.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ لأنَّ التخييلَ لا بقاءَ له عند التَّحقيقِ.

﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾؛ أي: حيثُ كانَ ويكونُ، وقد يكونُ ﴿حَيْثُ﴾ عبارةً عن الزَّمانِ،

---

(١) قرأ بها ابنُ ذكوانَ، وقرأ حفصٌ بالجزم مع تخفيف القاف، والباقون بالجزم وتشديد القاف، والبَزِّيُّ على أصله في تشديد التاء وصلًا. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٠)، و«التيسير» (ص: ١١٢ و١٥٢).

(٢) وهي قراءة العشرة، و(ما) على هذه القراءة بمعنى الذي، والعائد ضمير المفعول محذوف؛ أي: إن الذي صنعوه كيدُ.

(٣) بالنصب نسبت لابن مسعود ومجاهد وحميد وأبي عمران الجوني. انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٩٨) و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٢)، و(ما) عليها كافة، ولا تضمر الهاء.

(٤) قرأ حمزة والكسائي ﴿كيد سحر﴾ من غير ألف، والباقون: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢١)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

تقولُ: «كان هذا حيثُ كانَ الوالي فلانٌ»، وفي الخبرِ: «إذا أخذتُم السّاحرَ فاقتُلوه»، ثمَّ قرأَ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، قال: «لا يُؤمَّنُ حيثُ وُجِدَ»(١).

***

(٧٠ - ٧٢) - ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾؛ أي: فألقَى موسى ما في يمينِه، فتلقَّفَ ما صنَعُوا، فعلمَ السَّحرةُ أنَّه من عندِ الله وليس بسحرٍ، فوقَعُوا سُجَّدًا إعظامًا لِمَا رأَوا وإيمانًا بالله تعالى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾؛ أي: باحُوا وصرَّحُوا بالإيمانِ بالله تعالى على رُؤوسِ الأشهادِ.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: قال فرعونُ لهم بعد أن عادَ عن ذلك المجلسِ مغلوبًا: كذا وكذا.

والإيمانُ يُوصَلُ بالباءِ إذا كانَ بالله تعالى، ويُوصَلُ باللّامِ في الأكثرِ إذا كان بغيرِه، قال الله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿وَقَالُواْ لَن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤٢٧)، وابن بشران في «أماليه» (٨٥٧)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي، وذكره ابن كثير عند هذه الآية من «تفسيره» عن ابن أبي حاتم بإسناده، ثم قال: وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً.

قلت: روى الترمذي (١٤٦٠) عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضربة بالسيف»، وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث من قبل حفظه... والصحيح عن جندب موقوفًا».

نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [الإسراء: ٩٠]، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وقال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

ويجوزُ الباءُ كقولِه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ في سورةِ الأعرافِ [١٢٣].

قُرِئَ: ﴿أآمنتُم﴾ بهمزتَينِ على التَّحقيقِ.

وقُرِئَ: ﴿آآمنتُم﴾ بمدَّةٍ وهمزةٍ على الاستفهامِ.

وقُرِئَ: ﴿ءَامَنتُمْ﴾ بلفظِ الخبرِ(١).

وبلَغَ من عُتوِّ فرعونَ أنَّه توهَّمَ أنَّه لا يجبُ أن يُعتقَدَ دينٌ إلّا بإذنِه.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾؛ أي: هو رئيسُكم، وإنَّما غلبَكُم لأنَّه أحذَقُ، وأرادَ بهذا القولِ صرفَ النّاسِ عن اتِّباعِ موسى.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ هدَّدَهم بالعذابِ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ إنَّما قال بالتَّشديدِ؛ لأنَّ مَن يُفعلُ به ذلك جماعةٌ، فهو كقولِه: ﴿فُتِّحَتْ أبوابُها﴾(٢) [الزمر: ٧١]، ولو خُفِّفَ لكانَ جائزًا.

﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾؛ أي: على جُذوعِ النَّخلِ، و«في» للظَّرفِ وللوعاءِ، فجعَلَ الجذعَ مكانًا للصَّلبِ كالبيتِ.

وجِذعُ النَّخلِ أطولُ، وإذا كان الصَّليبُ أطولَ كان لصاحبِه أشهرَ، وفي القلوبِ أهوَلَ.

---

(١) انظر ما في هذه الكلمة من قراءات ومن قرأ بها في «السبعة» (ص: ٢٩٠ ـ ٢٩١)، و«التيسير» (ص: ١١٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٢٤٧)، و«النشر» (١/ ٣٦٨).

(٢) بالتشديد قراءة ابنِ كثير ونافع وأبي عَمْرو وابن عامر، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣ ـ ٥٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾؛ أي: أنا أم ربُّ موسى على ترك الإيمانِ به.

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ بيَّنَ استنصارَهُم في الدِّينِ؛ أي: لن نختارَكَ ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: اليقينِ.

قال عكرمةُ: لـمَّا سجَدُوا أراهُم الله في سجودِهم منازلَـهم في الجنّةِ فلهذا قالوا: لن نُؤثِرَكَ(١).

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾؛ أي: وعلى ربِّنا الذي خلَقَنا.

وقيلَ: هو قسَمٌ؛ أي: والله لن نُؤثِرَكَ.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾؛ أي: فاصنَعْ ما أنتَ صانعٌ.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ أي: إنَّما سلطانُكَ في الدُّنيا، والقضاءُ بمعنى الفراغِ منَ الشَّيءِ، وبمعنَى فِعْلِه؛ أي: فاحكُمْ بما أنتَ حاكمٌ.

وقيلَ: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ أي: تُخلِّفُ هذه الدُّنيا وتصيرُ إلى الآخرةِ التي فيها الجزاءُ، فتُجزَى بما تصنعُه بنا من سوءٍ.

* * *

(٧٣) - ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾؛ أي: الشِّركَ ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ قيلَ: كان فرعونُ يُكرِهُ النّاسَ على تعلُّمِ السِّحرِ.

وقيلَ: هذا الإكراهُ حَشرُهم من مدائنِهم واستحضارُهم، وكان لهم نوعُ

---

(١) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥٨٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٦٥).

اختيارٍ؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ لنا لأجرًا، ولو كانوا مُكرَهين على التَّحقيقِ لَـمَا كان ذلك الفعلُ منهم ذنبًا.

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ أي: ثوابُه خيرٌ وأبقَى، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: اللهُ خيرٌ لنا منكَ، وأبقَى عذابًا لك من عذابِكَ لنا، وهو جوابُ قولِه: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.

* * *

(٧٤ ـ ٧٦) ـ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ قيل: هو من قولِ السَّحرةِ لمَّا آمَنُوا.

وقيلَ: ابتداءُ كلامٍ منَ الله تعالى.

والكنايةُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ترجعُ إلى الشَّأنِ والأمرِ؛ أي: إنَّ الأمرَ هذا، وهو أنَّ المُجرِمَ يدخلُ النّارَ والمُؤمِنَ الجنَّةَ.

﴿مُجۡرِمٗا﴾؛ أي: كافرًا، وقيلَ: مُكتسِبًا معاصيَ الله.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾؛ أي: لا يموتُ فيستريحَ، ولا يحيا بأن يُفتَّرَ عنه العذابُ.

وقيلَ: لا يحيا حياةً تنفعُه.

﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا﴾؛ أي: مُصدِّقًا ﴿قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: أدَّى الفرائضَ، وأتَى بالنَّوافلِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾؛ أي: لهم الرُّتبةُ العليَّةُ عندَ الله.

وقيلَ: لهم الدَّرجاتُ العُلى في الجنّةِ، وليس كلُّ مَن يدخلُ الجنّةَ ينالُ الدَّرجاتِ العُلى.

وقولُه: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ يدُلُّ على أنَّ المُرادَ بالمُجرمِ المُشرِكُ.

قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: هي جنّاتُ إقامةٍ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: من تحتِ أشجارِها، وإنَّما يتمُّ التَّنزُّهُ بذلك.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هو توكيدُ قولِه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: تطهَّرَ في الدُّنيا عنِ الذُّنوبِ.

وقيلَ: ﴿تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: تشرَّفَ بالطّاعاتِ، ومَن قال: «هذا من قولِ السَّحرةِ» قال: لعلَّ السَّحرةَ سمِعُوه من موسى، أو من بني إسرائيلَ؛ إذ كان منهم بمصرَ أقوامٌ، وكان فيهم أيضًا المُؤمنُ من آلِ فرعونَ.

***

(٧٧) - ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ ذكرَ مآلَ فرعونَ، وإنَّما عُرِفَ بعد قصّةِ السَّحرةِ بمدَّةٍ وبعد آياتٍ ظهرَتْ؛ أي: أوحَيْنا إلى موسى بعد أن شاهدَ فرعونُ الآياتِ الكبيرةَ ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: سِرْ بهم ليلًا من أرضِ مصرَ، وأضافَ بني إسرائيلَ إلى نفسِه لأنَّهم كانوا مُؤمنينَ.

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾؛ أي: اتَّخِذْ لهم طريقًا في البحرِ يابسًا بأن تضرِبَ بعصاكَ البحرَ فينفلِقَ وتبدوَ فيه طرقٌ لقومك.

﴿يَبَسًا﴾؛ أي: لا ندوةَ فيه ولا بلَلَ، يُقالُ: يَبِسَ الشَّيءُ يَبَسًا ويُبْسًا ويَبْسًا.

وقولُه: (طريقًا يبسًا) نعتٌ بالمصدرِ؛ أي: طريقًا ذا يبسٍ.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾؛ أي: لا تخافُ أن يُدرِكَكَ فرعونُ ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ غرَقًا منَ البحرِ.

وقرأ حمزةُ: ﴿لا تخَفْ﴾ بالجزمِ؛ أي: لا تفزَعْ ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ على الاستئنافِ[1]، كقولِه: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ بالجزمِ، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] فاستأنَفَ.

وقيلَ: ﴿لا تخَفْ﴾ جزمٌ على جوابِ الشَّرطِ؛ أي: إنْ تضرِبْ لا تخَفْ دركًا ممَّن خلفَكَ، وقولُه: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾؛ أي: وأنتَ لا تخشَى الغرَقَ أمامَكَ.

الدَّرَكُ: إدراكُ الشَّيءِ.

وقال الأخفشُ رحمَه الله: أي: لا تخافُ فيه دَرَكًا، كقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: ٤٨]؛ أي: لا تجزي فيه نفسٌ[2].

والكوفيُّونَ لا يُجوِّزُونَ حذفَ «فيه» إلّا في المواقيتِ؛ لأنَّه يصحُّ أن يُقالَ فيها: «قُمْتَ اليومَ» و: «قُمْتُ في اليومِ»، ولا يُجيزونَ ذلك في الأسماءِ.

***

(٧٨ ـ ٧٩) ـ ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾؛ أي: لحِقَهم، كقولِه: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، والمعنى: كادَ فرعَونُ يلحَقُهم، كقولِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، يُقالُ: «تبِعَه وأتبَعَه»، و«لحِقَه وألحقَه» بمعنًى واحدٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢١)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٤٤).

وقُرِئَ: (فاتَّبَعَهم) بالتَّشديدِ(١)؛ أي: تبِعَهم ليَلْحقَهم.

﴿بِجُنُودِهِۦ﴾؛ أي: مع جُنودِه، كما يُقالُ: «ركِبَ الأميرُ بسيفِه»؛ أي: مع سيفِه، وكان هذا اللُّحوقُ: أنَّ أوَّلَ عسكرِ فرعونَ قَرُبَ من ساقةِ قومِ موسى وهم يعبُرونَ البحرَ.

وقيلَ: «أتبَعَ» مُطاوعُ «تبعَ»، كقولِه: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [هود: ٦٠]، والباءُ في «بجُنودِه» زيادةٌ.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ أي: جاءَهم منَ البحرِ ما جاءَهم منَ الغرقِ.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾؛ أي: حينَ دَعاهم إلى عبادتِه ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾؛ أي: ما هداهُم إلى الرُّشدِ، وهو تكذيبٌ لفرعونَ إذ قال: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وحُذِفَ الهاءُ لمُراعاةِ رُؤوسِ الآيِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: ما هدَى نفسَه، بل أهلَكَ نفسَه وقومَه(٢).

* * *

(٨٠ ـ ٨٢) ـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ لـمَّا أنجاهم من فرعَونَ قال لهم هذا ليشكُروا.

---

(١) رويت عن عبيد عن أبي عمرو في «السبعة» (ص: ٤٢٢)، ورويت عن نافع في «إعراب القراءات السبع» لابن خالويه (ص: ٢٦٧).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٨٠)، وعبارته: «يريد ما أرشد نفسه. وعلى هذا معنى (ما هدى) ما هدى نفسه».

﴿وَوَاعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ وذلك أنَّه وعدَ موسى بعد إغراقِ فرعونَ أن يأتيَ جانبَ الطُّورِ الأيمنِ فيُؤتيَه التَّوراةَ، وقد مضى هذا في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

والوعدُ كان لمُوسى، ولكنْ خُوطِبُوا به لأنَّ الوعدَ كان لأجلِهم، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: واعَدْناكم إتيانَ جانبِ الطُّورِ، والأيمنُ: الجانبُ الذي على يمينِ موسى.

وقيلَ: وعَدَهم جانبَ الطُّورِ[1] ليسمَعُوا كلامَ الله، وهذا حينَ اختارَ موسى سبعين رجلًا للميقاتِ.

و﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ نصبٌ؛ لأنَّه نعتٌ للجانبِ.

وقيلَ: ليس للجبلِ يمينٌ وشمالٌ، فإذا قيلَ: «خُذْ عن يمينِ الجبلِ» فمعناه: خُذْ على يمينِكَ منَ الجبلِ، فكانَ الجبلُ على يمينِ موسى إذ أتاه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾؛ أي: في التِّيهِ ﴿كُلُوا۟﴾؛ أي: وقُلنا لهم: كلُوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ أي: من لذيذِ الرِّزقِ.

وقيلَ: من حلالِه؛ إذ لا صُنعَ فيه لآدميٍّ فيدخُلَه شُبهةٌ.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾؛ أي: ولا تظلِمُوا فيستلِبَ البعضُ منَ البعضِ، أو: ولا تبطَرُوا ولا تُحرِّمُوا ما أحلَلْتُ لكم، ولا تكفُروا النِّعمةَ، ولا تنسَوا شُكرَ المُنعِمِ.

وقيلَ: أي: لا تستبدِلُوا بها شيئًا آخرَ، كما قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿فيه﴾؛ أي: فيما رزَقْناكُم.

---

(١) في (ج): «الجبل».

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ قُرِئَ: (يَحِلَّ) بفتحِ الياءِ وكسرِ الحاءِ، وقُرِئَ بضمِّ الحاءِ[١]؛ أي: يقعَ عليكم، أو يجبَ.

قال الفرَّاءُ: الضَّمُّ منَ الحلولِ بمعنى الوُقوعِ، والكسرُ منَ الوُجوبِ، ويُقالُ: «حلَّ الشَّيءُ يحِلُّ ـ بكسرِ الحاءِ ـ حلًّا وحلالًا»؛ أي: انحَلَّتْ عنه عقدةُ التَّحريمِ، و«حَلَّ يحُلُّ» بالضَّمِّ؛ أي: نزَلَ[٢].

واتَّفقُوا على الكسرِ في قولِه: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، وقولِه: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [طه: ٨٦].

﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾ قُرِئَ بالكسرِ والضَّمِّ[٣].

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾؛ أي: هلَكَ، من: «هوَى يهوِي»؛ أي: سقَطَ من عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، و«هَوَى فلانٌ» أي: ماتَ.

وقرأ الأكثرُ: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ و﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ بالنُّونِ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالتَّاء: ﴿قد أنجَيتُكم﴾، ﴿وواعَدْتُكم﴾، ﴿ورزَقْتُكم﴾.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿ووَعَدْناكُم﴾[٤].

قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾ أتبعَ الوعيدَ وعدًا ليردِّدَ العبدَ بين الخوفِ والرَّجاءِ.

﴿لِّمَن تَابَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: منَ الشِّركِ[٥].

---

(١) قرأ الكسائي: ﴿فَيَحُلَّ عَلَيْكُم﴾ بضم الحاء ﴿وَمن يَحْلُلْ﴾ بضم اللاَّم الأولى، والباقون بكسر الحاء واللّام. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٨٨).

(٣) انظر تخريج القراءة السابقة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٢)، و«التيسير» (ص: ٧٣ و١٥٢).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤٣٠).

﴿وَءَامَنَ﴾؛ أي: وحَّدَ الله تعالى.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: أدَّى الفرائضَ.

﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ علِمَ أنَّ ذلك توفيقٌ منَ الله له.

وقيلَ: لزِمَ الإسلامَ إلى الموتِ.

* * *

(٨٣ ـ ٨٤) ـ ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾؛ أي: ما حمَلَكَ على أن سبَقْتَهم.

قيلَ: عنَى بالقومِ جميعَ بني إسرائيلَ، فعلى هذا قيلَ: استخلَفَ هارونَ على بني إسرائيلَ، وخرجَ معَ سبعينَ رجلًا للميقاتِ، فقولُه: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾؛ أي: ليس يُريدُ أنَّهم يسيرونَ خلفَه مُتوجِّهينَ إليه، بل أرادَ: هم بالقُربِ مني ينتَظرونَ عَودي إليهم.

وقيلَ: لا بل كانَ أمرَ هارونَ بأن يتَّبعَ في بني إسرائيلَ أثرَه ويلتحِقُوا به.

وقال قومٌ: أرادَ بالقومِ: السَّبعينَ الذين اختارَهم، وكان موسى لمَّا قرُبَ منَ الطُّورِ سبقَهم شوقًا إلى سماعِ كلامِ الله.

ثمَّ قال ابنُ عبّاسٍ: كانَ الله عالـمًا، ولكنْ قال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ رحمةً لمُوسى، وإكرامًا له بهذا القولِ، وتسكينًا لقلبِه.

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾؛ أي: لتزدادَ رِضًا، ويُقالُ: «عجِلَ إلى كذا»؛ أي: سبقَ إليه.

* * *

(٨٥) ـ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾؛ أي: اختبَرْناهم بعد مُفارقتِكَ إيّاهم بالعِجْلِ فترَكُوا الدِّينَ.

وقيلَ: ألقيناهُم في الفِتنةِ.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾؛ أي: صارَ سببَ ضلالِـهم؛ لأنَّه دَعاهُم إلى الضَّلالةِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: كان السّامريُّ من قومٍ يعبُدونَ البقرَ، فوقعَ بأرضِ مصرَ فدخلَ في دينِ بني إسرائيلَ[1].

وقيلَ: كان رجلًا منَ القِبْطِ، وكان جارًا لمُوسى آمَنَ به وخرَجَ معه.

وقيلَ: كان عظيمًا من عُظماءِ بني إسرائيلَ من قبيلةٍ تُعرَفُ بالسّامرةِ، وكان هؤلاءِ القومُ ميّالينَ إلى التَّشبيهِ؛ إذ قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

***

(٨٦ ـ ٨٧) ـ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾؛ أي: حزينًا ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ قيلَ: هو وعدُ إيتاءِ الكتابِ.

---

(١) قطعة من حديث الفتون، وهو خبر طويل جدًّا رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأورده بتمامه ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] ثم قال: «وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه».

وقيلَ: هو قولُه: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؛ أي: نسيتُم وعدَه لطُولِ المدّةِ، أو نسيتُم إنجاءَ الله إيّاكُم من فرعونَ، أو نسيتُم قولي لكم: إنِّي راجعٌ إليكم بعد أربعينَ يومًا.

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يجبَ عليكم ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادتِكم العجلَ، والمعنى: أم أردتُم أن تفعلوا فعلًا يكونُ سببَ حلولِ غضبِ الله بكم؛ لأنَّ أحدًا لا يطلُبُ غضبَ الرَّبِّ، بل يرتكبُ ما يكونُ سببَ الغضبِ.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ يعني: ما وعدُوه منَ اللُّحوقِ به، أو ما وعدُوه منَ الإقامةِ على ما هم عليه إلى أن يرجعَ إليهم منَ الطُّورِ.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾؛ أي: بطاقَتِنا، أو: ونحنُ نملِكُ أمرَنا؛ أي: كنَّا مُضطَّرينَ.

وقيلَ: أي: لـم نملِكِ الصَّوابَ بل أخطَأْنا، فهو اعترافٌ منهم بالخطأِ، ولعلَّ هذا جوابُ مَن لـم يعبُدِ العجلَ منهم؛ أي: كنَّا مغلوبينَ.

وقُـرِئَ: ﴿بمُلكِنـا﴾ بضـمِّ الميـمِ؛ أي: بقُدرتِنـا؛ أي: مـا كنّا نملـكُ ردَّهم عنه، ويحتمـلُ أن يكـونَ صـدرُ هـذا الجـوابِ عـن عبَدةِ العجـلِ؛ أي: اسـتَولى الشَّـيطانُ علينـا، وكان الذيـن لـم يعبُـدوا العجـلَ اثنَي عشـرَ ألفًـا، وكان جميـعُ بني إسـرائيلَ سـتَّ مئـةِ ألفٍ.

وقُرِئَ: ﴿بمِلْكِنا﴾[1] وهو مصدرٌ، يُقالُ: «ملَكْتُه أملِكُه مِلْكًا».

---

(١) قـرأ نافـع وعاصـم بفتح الميـم، وحمـزة والكسـائي بضمِّهـا، والباقون بكسـرها. انظر: «السـبعة» (ص: ٤٢٢)، و«التيسـير» (ص: ١٥٣).

﴿ولكنا حَمَلْنا أوزارًا﴾؛ أي: أثقالًا ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: من حُليِّ آلِ فرعونَ، وكانوا قد استَعارُوا حليَّ آلِ فرعونَ حينَ أرادُوا الخروجَ مع موسى بأمرِ موسَى عليه السَّلامُ، وأوهَمُوهم أنَّهم يجتَمِعُونَ في عيدٍ لهم أو وليمةٍ.

وقيلَ: هو ما أخذوه من آلِ فرعونَ لـمَّا قَذَفَهم البحرُ إلى السّاحلِ ليُشاهِدُوهم مَوتَى، وسُمِّيَتْ أوزارًا بسببِ أنَّها كانت آثامًا؛ أي: لـم يحلَّ لهم أخذُها، ولـم تحِلَّ لهم الغنائمُ.

وأيضاً «الأوزارُ» هي الأثقالُ في اللُّغةِ.

وقُرِئَ: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾[1]؛ أي: كُلِّفْنا حملَها.

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾؛ أي: طرَحْناها.

وقال قتادةُ: لـمَّا مضَتْ ثلاثونَ يومًا ولـم يرجِعْ موسى وكانَ الوعدُ ثلاثينَ يومًا في الابتداءِ؛ قال السّامِريُّ: هذه العقوبةُ التي أصابتكُم بتخلُّفِ[2] موسَى عن الوقتِ الموعودِ إنَّما أصابَتْكم بسببِ الحليِّ التي معكم، فاجمَعُوها حتَّى يجيءَ موسى فيقضيَ فيها، فجُمِعَتْ ودُفِعَتْ إليه[3].

وقيلَ: قال هارونُ: إنَّكم تحمَّلتُم أوزارًا من زينةِ آلِ فرعونَ، فتطهَّرُوا منها فإنَّها نجسةٌ، وأوقَدَ لهم نارًا، وقالَ: فاقذفوها فيها، فانسبك الحلي في النار، فقوله: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾؛ أي: في النار.

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بالفتح والتخفيف؛ أي: احتملنا، وقرأ الباقون بضم الحاء والتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) في (ج): «فتخلف».

(٣) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٢٤)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٣٩).

وقيلَ: قال[1] هارونُ: احفِرُوا له حفرةً واطرَحُوه فيها[2].

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾؛ أي: فكما ألقَينا ألقَى السّامريُّ الحليَّ في النّارِ ليتَّخِذَ العجلَ[3].

وقيلَ: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾؛ أي: كما ألقَينا الحليَّ ألقَى السّامريُّ ما كانَ معه من تربةِ حافرِ فرسِ جبريلَ عليه السَّلامُ.

***

(٨٨) ـ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: لمَّا انسَبَكَت الحليُّ في النّارِ جاءَ السَّامريُّ وقال لهارونَ: يا نبيَّ الله، أُلقي ما في يدي؟ قال: نعم، وهارونُ يظُنُّ أنَّه كبعضِ ما جاءَ به غيرُه منَ الحليِّ، فقذَفَ التُّرابَ فيه وقال: كُنْ عجلًا جسَدًا له خوارٌ، فكانَ كما قالَ للبلاءِ والفتنةِ[4].

وقيلَ: لا، بل ضرَبَها صورةَ بقرةٍ، ثمَّ قذَفَ فيها القبضةَ.

وقيلَ: أرادَ بالجسدِ أنَّه لا روحَ فيه.

وقيلَ: أخرَجَ لهم عجلًا من لحمٍ ودمٍ، وهو الجسدُ له خوارٌ.

وقيلَ: كان يخورُ خُوارَ الحيِّ من العجولِ.

وقيلَ: خوارُه حفيفُ الرِّيحِ إذا دخلَتْ جوفَه، ذكرَه مُجاهدٌ[5].

---

(١) «فاقذفوها فيها فانسبك الحلي في النار، فقوله: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: في النار، وقيلَ قال» من (ج).

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ج) زيادة: «ثم إنه أخذ تلك الحلي أو ما انسبك منها في النار فاتخذ العجل».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٧٢).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤٣٢).

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾؛ أي: قال السّامِرِيُّ ومَن تابعَه ذلك.

﴿فَنَسِيَ﴾؛ أي: فضَلَّ موسى وذهَبَ يطلُبُ ربَّه ولـم[1] يعلَمْ مكانَه.

وقيلَ: أي: نسيَ موسى أن يذكرَ لكم أنَّ هذا إلـهُه وإلـهُكم.

وقيلَ: أي: تركَ موسى إلـهَه هاهُنا وذهبَ يطلبُه.

وقيلَ: فنسيَ السّامريُّ ما كان عليه من الإسلامِ، أو نسـيَ الاستدلالَ ولـم يعلَمْ أنَّ مَن لا يرجعُ قولًا ولا يملكُ ضرًّا ولا نفعًا يستحيلُ أن يكونَ إلـهًا، أو فنسيَ السّامريُّ أنَّ موسى يرجعُ إليه وينكرُ ما فعلَ.

***

(٨٩ ـ ٩١) ـ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾؛ أي: أفلا يعلَمُونَ؟ فهذا رؤيةُ القلبِ ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ﴾؛ أي: أنَّه لا يرجعُ ﴿إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾؛ أي: لا يُكلِّمُهم ولا يرُدُّ لـهم جوابًا.

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: للّذينَ عبَدُوا العجلَ من قبلُ؛ أي: من قبلِ رُجوعِ موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: ابتُليتُم وأُضلِلْتُم به ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لا العِجلُ ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ في عبادتِه ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ لا أمرَ السّامريِّ، أو فاتَّبِعُوني في مسيري إلى موسى ودَعُوا العجلَ، فعَصَوه.

و﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾؛ أي: لن نزالَ مُقيمينَ على عبادةِ العجلِ ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فننظُرَ هل يعبُدُه كما عبَدْناه؟ فتوَهَّموا أنَّ موسى يعبُدُ العجلَ.

---

(١) في (ج): «فلم».

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾؛ أي: أخطَؤُوا الطَّريقَ وكفَرُوا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ (لا) زائدةٌ؛ أي: ما منَعَكَ منَ اللُّحوقِ بي لتُخوِّفَهم خُروجَكَ من بينِهم؟

وقيلَ: ما منَعَكَ من اتِّباعي في الإنكارِ عليهم؟

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؛ أي: مُقامُكَ بينَهم وقد عبَدُوا غيرَ الله عصيانٌ منك، ثمَّ أخذَ برأسِ أخيه غضبًا منه.

قال الكلبيُّ: أخذَ شعرَه بيمينِه ولحيتَه بشمالِه[1].

***

(٩٤) ـ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا﴾ أضافَ إلى الأمِّ دونَ الأبِ ترقيقًا.

وقال الزَّجَّاجُ: قيلَ: كان هارونُ أخًا لمُوسى لأمِّه لا لأبيه[2].

قُرِئَ: «يا ابنَ أم» بالكسرِ والفتحِ[3].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٠٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٠٤)، وفي «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٧٣): «ولم يجئ هذا إلا في ابن أم وابن عم، وذلك أنه يقال لمن ليس بأخ لأم ولا بأخ ألبتة: يا ابن أم، وكذلك يقال للأجنبي: يا ابن عم، فلما أزيل عن بابه بني على الفتح، وإن كان قد يقول القائل لأخيه من أمه أيضاً: يا ابن أم، فإنما أدخل أخاه في جملة من يقول له: يا ابن أم. وقد قيل في هارون: إنه لم يكن أخا موسى لأمه».

(٣) قرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن عامر وعاصمٌ في رواية أبي بكر بكسر الميم، والباقون: ﴿ابنَ أمَّ﴾ بفتح الميم. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

﴿وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾؛ أي: ولا بشعرِ رأسي.

وقيلَ: لـم يكُنِ القَبضُ على اللِّحيةِ في ذلك الوقتِ مـمَّا يُعَدُّ استخفافًا.

وقيلَ: أجراه مُجرَى نفسِه؛ فإنَّ مَن غضِبَ قبَضَ على لحيتِه.

وقيلَ: وقعَ في نفسِ موسى أنَّ هارونَ عصَى الله بتركِ اتِّباعِه، ففعَلَ ما فعَلَ غضبًا لله وتأديبًا لهارونَ.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: خشيتُ أنِّي إنْ فارقتُهم وتبعتُك أن تقولَ: فرَّقتَ جماعتَهم؛ لأنَّه كان يتبعُني قومٌ ويتخلَّفُ على العجلِ قومٌ، وربَّما أدَّى الأمرُ إلى سفكِ الدِّماءِ، أو خشيتُ إنْ زجَرتُهم أن يقعَ قتالٌ فتلومَني على ذلك.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾؛ أي: لـم تحفَظْ وصيَّتي في حفظِهم.

***

(٩٥ ـ ٩٦) ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؛ أي: قال موسى: ما قضيَّتُكَ[1] يا سامريُّ؟ وما الذي دَعاكَ إلى ما صنعتَ؟ والخَطْبُ: الأمرُ الجليلُ.

وقيلَ: أي: ما أمرُكَ الذي تُخاطَبُ به.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ من «بصُرَ الرَّجُلُ يَبصُرُ»: إذا صارَ عليمًا بالشَّيءِ بصيرًا به.

---

(١) في (ج): «قصتك».

قُرِئَ: ﴿لَمۡ يَبۡصُرُواْ﴾ بالياءِ والتاءِ[١].

﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: من أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السَّلامُ.

قال عليٌّ: لـمَّا نزلَ جبريلُ ليصعَدَ بموسى إلى السَّماءِ أبصرَه السّامريُّ من بينِ النّاسِ، فقبضَ قبضةً من أثرِ الفرسِ[٢].

وقيلَ: قال السّامريُّ: رأيتُ جبريلَ على الفرسِ وهي بلقاءُ أنثى، خَطوُها مدُّ البصرِ، فأُلقِيَ في نفسي أن أقبِضَ من أثرِها فما ألقَيْتُه على شيءٍ إلّا صارَ له روحٌ ودمٌ.

وقيلَ: رأى جبريلَ يومَ نزَلَ على رَمَكةٍ وَديقٍ، فتقَدَّمَ خيلَ فرعون في وُرودِ البحرِ.

وقيلَ: قال السّامريُّ: رأيتُ القومَ سألوكَ أن تجعَلَ لهم إلـهًا لـمَّا مرُّوا بقومٍ يعبُدونَ العجلَ، فعلِمْتُ أنَّهم يميلونَ إلى عبادةِ العجلِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: لـمَّا أَمرَ فرعونُ بذبحِ أولادِ بني إسرائيلَ أخْفَتْ أمُّ السّامِرِيِّ السّامريَّ لما ولدته، فكان يُغذِّيه جبريلُ، فلهذا عرَفَه[٣].

﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾؛ أي: ألقَيتُها في صورةِ العجلِ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾؛ أي: وكما حدَّثْتُكَ يا موسى زيَّنَتْ لي نفسي؛ أي: وقعَ في قلبي أنِّي لا أُلقي ذلك التُّرابَ على مواتٍ إلّا حيِيَ.

---

(١) قرأ بالتاء حمزة والكسائي، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨) من رواية السدي عن أبي عمارة عن علي رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٦٩).

ثمَّ المُعظَمُ على أنَّ الله قلَبَ العجلَ بقُدرتِه حيوانًا.

وفي قولِ مُجاهدٍ وجماعةٍ: صاغَ منَ الذَّهبِ صورةَ العجلِ، وجعَلَ فيه خُروقًا، ووضعَه على مهَبِّ الرِّيحِ، فكان يحدُثُ فيه شبهُ الصَّفيرِ كما ينفخُ الإنسانُ في قصبةٍ فيُحدِثُ صفيرًا، وأوهَمَ بني إسرائيلَ أنَّه قلَبَه حيوانًا فعبَدُوه[1].

***

(٩٧ - ٩٨) - ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ﴾؛ أي: فاذهَبْ من بينِنا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ المِساسُ: المُماسَّةُ؛ أي: لا يمسُّ بعضُنا بعضًا، والمقصودُ: نهيُه عن مُخالطةِ النّاسِ، ونهيُ النّاسِ عن مُخالطتِه؛ جزاءً له على فعلِه، فهجَره موسى، وأمرَ بني إسرائيلَ أن لا يُخالِطُوه.

وقد فعلَ النَّبيُّ ﷺ بكعبِ بنِ مالكٍ والثَّلاثةِ الذين خُلِّفُوا[2]، ومَن التجأَ إلى الحرمِ، وعليه لا يُقتَلُ عند أكثرِ[3] الفُقهاءِ، ولكنْ لا يُعامَلُ ولا يُبايَعُ ولا يشارَى، وهو إرهاقٌ إلى الخروجِ، ومن هذا القَبيلِ: التَّغريبُ في حدِّ الزِّنا.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤٣٢)، عن مجاهد بلفظ: «له خوار: حفيف الريح فيه فهو خواره». وقد تقدم قريباً.

(٢) روى حديث الثلاثة المخلفين: البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، وقد تقدمت قصتهم في سورة التوبة.

(٣) في (ج): «بعض».

وقولُه: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ ليس يعني: أنَّه يقولُ هذا بلسانِه، بل يعني: أنَّكَ لا يجوزُ لك أن تُخالِطَ وأن تُخالَطَ.

وقيلَ: جعَلَ يَهيمُ في البرِّيةِ مع الوحشِ والسِّباعِ فتغيَّرَ طبعُه حتَّى كان يتوحَّشُ، وإذا رأى أحدًا قال: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ عقوبةً له منَ الله تعالى.

وقال قتادةُ: تعدَّى ذلك إلى أولادِه، فبقاياهُم اليومَ يقولونَ ذلك، وإنْ مسَّ واحدٌ من غيرِهم أحدًا منهم حُمَّ كلاهما في الوقتِ[1].

﴿فِي الْحَيَوٰةِ﴾؛ أي: ما دُمتَ في الحياةِ؛ أي: هذا عقوبتُه في الحياةِ، فإذا صارَ إلى الآخرةِ جُوزِيَ بما يستحِقُّ.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ يعني: القيامةَ، والموعِدُ مصدرٌ؛ أي: إنَّ لك وعدًا لعذابِكَ.

﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾؛ أي: يأتيكَ به الله، ولن يتأخَّرَ عنك.

وقُرِئَ بكسرِ اللّامِ[2]؛ أي: سيأتي ذلك الوعدُ، ولا مذهَبَ لك عنه.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: ظَلِلْتَ تعبُدُه، وأصلُ «ظَلْتَ»: ظَلِلْتَ، فحُذِفَ اللّامُ لثِقَلِ التَّضعيفِ والكسرِ، ومثلُه: مِسْتُ الشَّيءَ؛ أي: مَسِسْتُه.

---

(١) وهو بلا نسبة في «تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٥٨)، و«البسيط» للواحدي (١٤/ ٥١١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٥٢) بلفظ: «كان والله السامري عظيماً من عظماء بني إسرائيل، من قبيلة يقال لها سامرة... فبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس».

(٢) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، والباقون بفتحها على ما لم يسمَّ فاعلُه. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

﴿لَنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: حرَقَه بالنّارِ وذرَّاهُ في اليمِّ[١].

وقال السُّدِّيُّ: ذبحَ العجلَ فسالَ منه الدَّمُ كما يسيلُ منَ العجلِ إذا ذُبِحَ، ثمَّ برَدَ عظامَه بالمِبردِ وحرَقَه[٢]، وهذا على قراءةِ مَن قرأ: ﴿لنَحْرُقنّه﴾[٣]، وليس قراءةً مشهورةً.

ويُقالُ: «حرَقَه»؛ أي: برَدَه، واللَّحمُ والدَّمُ إذا احترَقا[٤] صارا رمادًا، فيُمكِنُ تذرِيَتُه في اليمِّ، وأمَّا الذَّهبُ فلا يصيرُ رمادًا، فلعلَّه برَدَه بالمبارِدِ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالتَّشديدِ في معنى: ﴿لنَحْرُقنَّه﴾، وهو أن يُبرَدَ بالمبارِدِ[٥].

وقيلَ: عرَفَ موسى ما صَيَّرَ به الذَّهبَ رمادًا، وكان ذلك من آياتِه.

والنَّسفُ: نفضُ الشَّيءِ لتذهبَ به الرِّيحُ، وهو التَّذرِيةُ.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: المعبودُ هو الذي لا إلهَ إلّا هو، وهو الذي ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾؛ أي: وسعَ علمُه كلَّ شيءٍ، فنُقِلَ الفعلُ عن العلمِ، ونُصِبَ على التَّفسيرِ.

***

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٥٥ - ١٥٦).

(٢) ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٥٦).

(٣) هي قراءة أبي جعفر من رواية ابن وردان عنه، وقرأ في رواية ابن جماز: ﴿لنُحْرِقنه﴾ بضم النون وكسر الراء، وباقي العشرة: ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٤) في (ج): «أحرقا».

(٥) ولخص الزمخشري القول في القراءات الثلاث بقوله: ﴿لَنُحَرِّقَنه﴾ و﴿لنُحْرِقنَّه﴾ القراءتان من الإحراقِ، وذكر أبو علي الفارسي في ﴿لَنَحَرِّقنهُ﴾ أنّه يجُوز أن يكون (حَرَّقَ) مبالغةً في (حَرَق): إذا برَد بالمِبْرَدِ، وعليه القراءةُ الثالثة. انظر: «الكشاف» (٣/ ٨٥).

(٩٩ ـ ١٠١) ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾؛ أي: كما قصَصْنا عليك أخبارَ موسى نقصُّ عليكَ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ليكونَ تسليةً لك، وليدُلَّ على صدقِكَ.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾؛ أي: القرآنَ، وسُمِّيَ القرآنُ ذكرًا لِـمَا فيه منَ الذِّكرِ، كما سُمِّيَ الرَّسولُ ذِكرًا لأنَّ الذِّكرَ كان ينزلُ عليه.

وقيلَ: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾؛ أي: شرَفًا، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف: ٥٥]؛ أي: شرَفٌ لك وتنويهٌ باسمِكَ.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾؛ أي: لم يُؤمِنْ به ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾؛ أي: إثمًا ثقيلًا.

قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾؛ أي: مُؤبَّدينَ في عذابِ ذلك الوزرِ؛ أو في ذلك الثِّقلِ ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾؛ أي: يتبيَّنُ لهم ذلك يومَ القيامةِ حملًا، وهو الكفرُ بالقرآنِ، والحِمْلُ: المحمولُ، كالطِّحْنِ والقِشْرِ والقِطْفِ.

* * *

(١٠٢ ـ ١٠٤) ـ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾؛ أي: ساءَ لهم حملًا يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، وهو بدلٌ من قولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذا هو النَّفخةُ الثَّانيةُ، فإنَّ النَّاسَ عندَها يُبعَثونَ.

قُـرِئَ: ﴿يُنفَخُ﴾ و﴿نَنفُـخُ﴾[١]، فيصحُّ إضافتُه إلى الله؛ لأنَّه يحصـلُ من الملَكِ بأمرِ الله.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ يُقالُ: «زَرِقَتْ عينُه تَـزْرَقُ زَرَقًا وزُرْقَـةً»، والزُّرْقةُ: الخضرةُ في سوادِ العينِ، كعينِ السِّنَّورِ، والعربُ تتشاءَمُ بالزُّرقِ وتذمُّه؛ أي: تشَـوَّه خلقُهم.

وقال الكلبيُّ: ﴿زُرْقًا﴾؛ أي: عُمْيًا[٢].

وقيلَ: يخرُجُونَ من قُبورِهم بُصْرًا، ثمَّ يَعْمَونَ في المحشرِ، ومَن ذهبَ ناظرُه ازرَقَّ سوادُ عينِه.

ودليلُ قولِ الكلبيِّ قولُه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وفي التَّفسيرِ: ﴿زُرْقًا﴾؛ أي: عِطاشًا؛ أي: من شدَّةِ العطشِ يتغيَّرُ سوادُ أعيُنِهم حتَّى تزرَقَّ، والعطشُ يُؤثِّرُ في العينِ.

وقيلَ: ﴿زُرْقًا﴾؛ أي: طامِعينَ فيما لا ينالُونَه، يُقالُ: ابيَضَّتْ عيني لطُولِ انتِظاري لكذا.

قولُه تعالى: ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾؛ أي: يقولُ بعضُهم لبعضٍ سرًّا عند الحشرِ: ما لبثتُم إلّا عشرًا.

ثمَّ قيلَ: يُريدونَ مدَّةَ الدُّنيا؛ أي: لشدَّةِ الأهوالِ يُخيَّلُ إليهم أنَّهم لـم يبقَوا في الدُّنيا إلّا عشرةَ أيّامٍ، ويُخيَّلُ إلى أمثَلِهم طريقةً أنَّهم ما لبِثُوا إلّا يومًا واحدًا.

---

(١) قـرأ أبـو عمـرو بالثانية، والباقـون بالأولى علـى ما لم يسـم فاعله. انظـر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسـير» (ص: ١٥٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥١٧).

وقيلَ: يعني: مدّةَ اللُّبثِ في القُبورِ؛ لأنَّهم وإن كانوا في عذابٍ فيهونُ ذلك عليهم في جنبِ عذابِ الآخرةِ.

وقيلَ: يعني: ما بينَ النَّفختَينِ؛ فإنَّه يُرفعُ عنهم العذابُ بينَ النَّفختَينِ، قالَه ابنُ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما[1].

قولُه تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: بالنَّجوَى بينَهم.

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾؛ أي: أعدلُهم قولًا، وأعقَلُهم، أو أعلَمُهم عند نفسِه: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ وقد لبِثُوا بينَ النَّفختَينِ أربعينَ سنةً في قولِ ابنِ عبّاسٍ[2].

* * *

(١٠٥ ـ ١٠٧) ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ قيلَ: سألُوا النَّبيَّ ﷺ عن حالِ الجبالِ يومَ القيامةِ، فقالَ الله تعالى: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾؛ أي: يقلعُها ويُذرِّيها؛ أي: يُصيِّرُها كالـهَباءِ المنثورِ.

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا﴾؛ أي: يذَرُ مواضعَها قاعًا، والقاعُ: الأرضُ المُستويةُ الواسعةُ، وقيلَ: مُستنقَعُ الماءِ.

﴿صَفْصَفًا﴾: هو الذي لا نباتَ فيه، والصَّفْصَفُ يرجعُ إلى الاستواءِ أيضًا.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥١٩ ـ ٥٢٠) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٢١).

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ العِوَجُ - بكسرِ العَينِ - في الدِّينِ وفي الطَّريقِ[1]، وبالفتحِ في العُودِ.

﴿وَلَآ أَمۡتًا﴾ هو الارتفاعُ والهبوطُ، يُقالُ: «مَلأ سقاءَه حتَّى لـم يدَعْ فيه أَمْتًا»؛ أي: لـم يُبقِ فيه ثمَّ انثِناءً.

* * *

(١٠٨) - ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾؛ أي: صـوتَ الدّاعـي للحشـرِ، وهـو إسـرافيلُ إذا نفَـخَ فـي الصُّورِ.

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾؛ أي: لا انحِرافَ عنه، بل يُسرِعُونَ إليه ولا يحيدونَ عنه، والمعنى: يتَّبِعُونَ الدّاعيَ الذي لا محيدَ عنه.

وقيلَ: أي: يتَّبعونَ الدّاعيَ اتِّباعًا لا عِوَجَ له، فالمصدرُ مُضمَرٌ.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ أي: ذلَّتْ وسكَنَتْ، وكلُّ إنسانٍ ساكتٌ هناك للهيبةِ ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ أي: من أجلِه.

﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ الـهَمْسُ: أخفَى ما يكونُ منَ الصَّوتِ، ومنه يُقالُ للأسدِ: «الـهَمُوسُ»؛ لأنَّه يهمِسُ في الظُّلمةِ؛ أي: يطَأُ وَطْءًا خفيًّا، وهمَسَ الطَّعامَ؛ أي: مضَغَه وفُوه مُنضَمٌّ.

ثمَّ قيلَ: أرادَ بالهمسِ: ما يُسمَعُ من نقلِ الأقدامِ إلى المَحشَرِ.

وقيلَ: هو تحريكُ الشِّفاهِ بغيرِ نُطقٍ.

---

(١) في (ج): «الطرق».

(١٠٩) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: لا تنفعُ أحدًا إلّا الذي أذِنَ الله في شفاعتِه.

وقيلَ: لا تنفعُ الشَّفاعةُ إلّا ممَّن أذِنَ له الرَّحمنُ فيها ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾؛ أي: رضيَ قولَه في الشَّفاعةِ.

وعلى الأول؛ أي: إنَّما تنفعُ الشَّفاعةُ لمَن أذِنَ له الرَّحمنُ في أن يُشفَعَ له وكانَ له قولٌ مَرضِيٌّ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: هو قولُه: لا إلهَ إلا الله[١].

* * *

(١١٠) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: الذين يتَّبِعُونَ الدّاعيَ؛ أي: يعلَمُ ما بينَ أيديهم من أمرِ القيامةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمرِ الدُّنيا.

وقيلَ: يعلَمُ ما يصيرونَ إليه من ثوابٍ أو عقابٍ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: ما حصَلَ من أعمالِهم.

وقيلَ: ما قدَّمُوا وما خلَّفُوا.

وقيلَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما مضَى منَ الدُّنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ منَ الآخرةِ.

وقيلَ: الآيةُ عامَّةٌ في جميعِ الخلقِ.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾؛ أي: لا أحدَ يُحيطُ علمًا بما يَعلمُه الله.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٣٠).

وقيلَ: ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالله؛ أي: لا أحدَ يُحيطُ به علمًا؛ إذ الإحاطةُ مُشعِرةٌ بالحدِّ، ويتعالى الرَّبُّ عن التَّحديدِ.

* * *

(١١١) ـ ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾؛ أي: ذلَّتْ واستَسْلَمَتْ، يُقالُ: عَنا يعنُو؛ أي: خضَعَ.

وقيلَ: سجَدَتِ الوجوهُ لله ونَصِبَتْ، فهو منَ العَناءِ بمعنَى التَّعبِ، وكنَى عنِ النّاسِ بالوجوهِ لأنَّ آثارَ الذُّلِّ إنَّما تتبيَّنُ في الوجوهِ.

﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾؛ أي: الذي يقومُ بتدبيرِ السَّماواتِ والأرضِ، والدُّنيا والآخرةِ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾؛ أي: خسِرَ مَن أشرَكَ بالله.

* * *

(١١٢) ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿مِنَ﴾ للجنسِ؛ أي: مَن يعمَلِ الصّالحاتِ.

وقيلَ: للتَّبعيضِ؛ أي: شيئًا منَ الصّالحاتِ.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأنَّ العملَ لا يُقبَلُ من غيرِ إيمانٍ.

﴿فَلَا يَخَافُ﴾؛ أي: فهو لا يخافُ، وقُرِئَ: ﴿فلا يخَفْ﴾ على النَّهيِ[١].

﴿ظُلْمًا﴾؛ أي: لا ينقُصُ ثوابُ طاعتِه ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ يُقالُ: «هَضَمْتُ لك من حقِّي»؛ أي: تركتُه، و«هذا يَهضِمُ الطَّعامَ»؛ أي: يُنقِصُ ثِقَلَه.

* * *

(١) هي قراءة ابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(١١٣) ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾؛ أي: وكالذي قدَّمْنا إنزالَه عليك منَ القرآنِ أنزَلْنا هذه السُّورةَ؛ أو: كالذي أنزَلْنا هذه السُّورةَ أنزَلْنا هذا الكتابَ.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾؛ أي: صرَّفْنا[1] فيه ضُروبَ الوعيدِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾؛ أي: ليكونَ سببًا لاتِّقائِهم ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾؛ أي: موعظةً.

وقيلَ: أو يُحدِثُ لهم شرفًا، فالذِّكرُ هاهُنا بمعنَى الشَّرفِ، كقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقيلَ: أي: ليتذكَّروا العذابَ الذي تُوعِّدُوا به.

***

(١١٤) ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾ لمَّا عرَّفَ العبادَ عظيمَ نعمِه وإنزالَ القرآنِ نزَّه نفسَه عن الأندادِ والأولادِ فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾؛ أي: جلَّ الله ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: ذو الحقِّ.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ أخبرَ أنَّه أنزلَ القرآنَ حُجّةً وبيانًا، ولا أحدَ يقدرُ على ذلك؛ لأنَّه المُتعالي عن أن يكونَ له شريكٌ، ثمَّ علَّمَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ كيف يتلقَّى القرآنَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُبادِرُ جبريلَ فيقرأُ قبلَ أن يفرغَ

---

(١) في (ج): «بينّا».

جبريلُ منَ الوحيِ حِرْصًا على الحفظِ، فنزَلَ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾، وهذا كقولِه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦][(١)].

وقيلَ: أي: لا تَتْلُه على أحدٍ حتَّى نُبيِّنَه لك.

وقيلَ: لا تسأَلْ إنزالَ القرآنِ من قبلِ أن يأتيَكَ وحيُه.

وقال الحسَنُ: نزلَتْ في رجلٍ لطَمَ امرأتَه، فجاءَتْ إلى النَّبيِّ ﷺ تطلُبُ القِصاصَ، فجعَلَ النَّبيُّ ﷺ لها القِصاصَ، فنزَلَ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[(٢)]. ولهذا قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾؛ لأنَّه عليه السَّلامُ حكمَ بالقِصاصِ وأبى اللهُ ذلك.

﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ قُرِئَ بضمِّ الياءِ، وقُرِئَ بالنُّونِ وكسرِ الضَّادِ، و﴿وَحْيَه﴾ بالنَّصبِ[(٣)].

***

(١١٥) ـ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: طاعةُ بني آدمَ للشَّيطانِ أمرٌ قديمٌ؛ أي: أمَرْناه بأنْ لا يقرَبَ الشَّجرةَ.

﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ أن يأكُلَ منَ الشَّجرةِ، أو: من قبلِ هؤلاءِ الذينَ نقَضُوا عهدي، وهم الذينَ قال فيهم: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣]؛ أي: إنْ نقَضَ هؤلاءِ العهدَ فإنَّ آدمَ أيضًا نقَضَ عهدَنا إليه.

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٦٧)، والواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٣٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٤١١)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٨٩)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٦٨٥).

(٣) قرأ بها يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٢).

﴿فَنَسِيَ﴾؛ أي: ترَكَ ما أُمِرَ به؛ لأنَّ النّاسيَ لا يُؤاخَذُ بالنِّسيانِ.

وقيلَ: نسِيَ الوعيدَ لا النَّهيَ؛ لأنَّ إبليسَ ذكَّرَه النَّهيَ، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقيلَ: أي: فعَلَ فِعْلَ النّاسي، كما قال: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]؛ أي: فما أفعَلَهم لأفعالِ مَن يرَى أنَّه يصبِرُ على النّارِ.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ العَزْمُ: عقدُ القلبِ على الأمرِ يفعلُه[1]، وهو توطينُ النَّفسِ على الأمرِ والفعلِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: لـم نجِدْ له صبرًا عن أكلِ الشَّجرةِ، ومُواظبةً على التزامِ الأمرِ[2].

وقيلَ: أي: لـم يكُنْ له عزمٌ على العَودِ إلى المعصيةِ ولا إصرارٌ عليها، بل فعَلَ ما فعَلَ نسيانًا أو تأويلًا.

والأوَّلُ أقرَبُ إلى نظمِ الكلامِ، ولهذا قال قومٌ: آدمُ لـم يكُنْ من أُولي العزمِ منَ الرُّسلِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، وقال المُعظَمُ: كلُّ الرُّسلِ أُولو العزمِ.

وفي الخبرِ: «ما من نبيٍّ إلّا وقد أخطأَ أو هَمَّ بخطيئةٍ ما خلا يحيى بنَ زكريّا»[3]، فلو خرَجَ آدمُ بسببِ خطيئتِه من جملةِ أُولي العزمِ لخرجَ جميعُ الأنبياءِ سِوَى يحيَى.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (أ): «على الأمر بفعله»، وفي «البسيط» (١٤/ ٥٤٣): «على أمر يفعله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٤٣).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٩٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٩٣٣)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤١٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن عدي: «وهذا الحديث بهذا الإسناد غريب من حديث شعبة وغيره»، وقال الذهبي: «إسناده جيد»، وقال النووي في «فتاويه» (ص: ٢٤٩): «هذا حديث ضعيف، لا يجوز الاحتجاج به».

(١١٦ ـ ١١٧) ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾؛ أي: واذكُرْ إذ قُلنا للملائكةِ.

وقيلَ: (إذ) صلةٌ؛ أي: وقُلنا.

وقيلَ: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ... وَإِذْ قُلْنَا ﴾؛ أي: وحينَ قُلنا، كقولِه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾، وهو كقولِكَ: «عهِدْتُ إلى فلانٍ قبلَ هذا بعشرةِ أيّامٍ، وبعشرينَ يومًا، وبشُهورٍ».

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ مضى معناه ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾؛ أي: امتنعَ.

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ ﴾ لأنّه استكبرَ عليكَ، وقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾؛ أي: لا تُطيعاه فيصيرَ ذلك سببًا لخروجِكما منَ الجنّةِ.

﴿فَتَشْقَىٰٓ ﴾ يُريدُ به تعبَ الدُّنيا والأكلَ من كدِّ اليدِ.

وفي التَّفسيرِ: هو الحرثُ والزَّرعُ والعَجْنُ والخَبزُ، ولم يقُلْ: «فتشقَيا» لرعايةِ رُؤوسِ الآيِ، ولأنَّ المُخاطَبَ آدمُ في ابتداءِ الآيةِ.

وقيلَ: كانَ في خطابِ آدمَ كفايةٌ عن خطابِ حوّاءَ، كما قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

وقيلَ: لأنَّ مُعظمَ الكدِّ على الرِّجالِ في الأعمالِ.

* * *

(١١٨ ـ ١١٩) ـ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾؛ أي: إنَّ لك في الجنّةِ السَّلامةَ منَ الجوعِ، ولكَ الاكتِساءُ من لباسِ النُّورِ.

وقيلَ: كان لباسُهما في الجنّةِ كالظُّفرِ للأناملِ[(١)].

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا﴾؛ أي: ولك أنَّك لا تظمَأُ.

وقُرِئَ: ﴿وإنَّكَ﴾ بالكسرِ على الاستئنافِ[(٢)].

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ من «ضَحَى يضْحَى»؛ أي: برزَ للشَّمسِ فأصابَه حرُّها؛ أي: لا يُصيبُكَ عطَشٌ، ولا حرُّ شمسٍ؛ إذ ليس في الجنّةِ شمسٌ إنَّما هو ظلٌّ ممدودٌ.

* * *

(١٢٠ ـ ١٢٢) ـ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: دَعاهُ إلى الأكلِ منَ الشَّجرةِ

---

(١) في (ج): «للأنمل». وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٥٢ و١٤٥٩) عنه من طريقين: الأول فيه الحسن بن أبي جعفر الجُفري، قال عنه البخاري: منكر الحديث، وضعفه أحمد والنسائي. انظر: «تهذيب الكمال» (٦/ ٧٣). وفي الثاني النضر بن عبد الرحمن أبو عمر الخزاز، قال عنه أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: لا يحل لأحد أن يروي عنه، وقال البخاري: منكر الحديث. انظر: «تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٢٥).

(٢) قرأ بها شعبة ونافعٌ، والباقون بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: على شجرةٍ إنْ أكلتَ منها خلدتَ أبدًا في الجنةِ من غيرِ موتٍ ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؛ أي: لا يفنَى.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾؛ أي: اغترّا بقولِ إبليسَ فأكلا، فلمَّا وصلَتْ إلى أجوافِهما انتثَرَ عنهما لباسُ الجنّةِ، وإنَّما قالَ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إذا لـم تُطيعا إبليسَ.

وقيلَ: ما ظهرَتْ عورتُهما لغيرِهما، بل بدَتْ ﴿لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: يُلصِقانِه بأبدانِهما، ﴿فطَفِقا﴾؛ أي: أقبلا.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: بأكلِه منَ الشَّجرةِ ﴿فَغَوَىٰ﴾؛ أي: فعَلَ ما لـم يكُنْ له فِعلُه.

وقيلَ: غوَى؛ أي: جهِلَ موضعَ رُشدِه.

وقيلَ: الغيُّ: الفسادُ؛ أي: فسَدَ عليه عيشُه.

ثمَّ قال قومٌ: يُقالُ: «عصَى آدمُ وغوَى»، ولا يُقالُ له: «عاصٍ وغاوٍ»، كما أنَّ مَن خاطَ مرّةً يُقالُ له: «خاطَ»، ولا يُقالُ له: «خيّاطٌ» ما لـم تتكرَّرْ منه الخِياطةُ[1].

وقيلَ: يجوزُ للسَّيِّدِ أن يُطلِقَ في عبدِه عندَ معصيتِه ما لا يجوزُ لغيرِه أن يُطلِقَه.

وهذا تكلُّفٌ، وما أُضيفَ من هذا إلى الأنبياءِ فإمَّا أن يكونَ صغائرَ، أو تركَ الأولى، أو قبلَ النُّبوّةِ.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اصطَفاه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: فعادَ عليه بالعفوِ، أو وفَّقَه للتَّوبةِ ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي: للتَّوبةِ.

---

(١) ذكره ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢٣٠)، وفيه: وقد أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها باستزلال إبليس وخداعه إيّاه بالله والقسم به إنه لمن الناصحين حتى دلّاه بغرور، ولم يكن ذنبه عن إرصاد وعداوة وإرهاص كذنوب أعداء الله. فنحن نقول: (عصى وغوى) كما قال الله تعالى، ولا نقول: آدم عاص ولا غاو، لأن ذلك لم يكن عن اعتقاد متقدّم ولا نيّة صحيحة، كما تقول لرجل قطع ثوبا وخاطه: قد قطعه وخاطه، ولا تقل: خائط ولا خيّاط، حتى يكون معاوداً لذلك الفعل معروفاً به.

(١٢٣) ـ ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ خاطَبَ آدمَ وإبليسَ.

﴿مِنْهَا﴾؛ أي: منَ الجنّةِ، وقد قال لإبليسَ: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، فلعلَّه أُخرِجَ منَ الجنّةِ إلى موضعٍ منَ السَّماءِ ثمَّ أُهبِطَ إلى الأرضِ.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: إبليسُ وآدمُ مع حوّاءَ، وهذا يدُلُّ على أنَّ قولَه: ﴿ٱهْبِطَا﴾ ليس خطابًا لآدمَ وحوّاءَ؛ لأنَّهما ما كانا مُتعادِيَينِ.

﴿بَعْضُكُمْ﴾ يرجعُ إلى آدمَ وحوّاءَ، أو إبليسَ، أو إلى ذُرِّيَّتِهم.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾؛ أي: إرشادٌ إلى الدِّينِ فاعمَلُوا به، ﴿فـ﴾إنَّ ﴿مَن اتَّبَعَ هُدَايَ فلا يَضِلُّ﴾ عنِ الصَّوابِ، وعنِ الثَّوابِ.

وقيلَ: لا يضِلُّ في الدُّنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرةِ.

***

(١٢٤ ـ ١٢٦) ـ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ قيلَ: عن القرآنِ فلم يُؤمِنْ به.

وقيلَ: عمَّا أنزَلْتُ منَ الدَّلائلِ.

ويُمكِنُ أن يُحمَلَ الذِّكرُ على الرَّسولِ؛ لأنَّه كان منه الذِّكرُ.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قيلَ: عذابُ القبرِ.

وقيلَ: هي حياتُه في جهنَّمَ.

وقيلَ: أرادَ: في الدُّنيا؛ لأنَّه إذا تقلَّبَ في الحرامِ فهو سببُ العقوبةِ، فتكونُ عيشةً ضَنْكًا، والضَّنْكُ: الضِّيقُ والشِّدّةُ، يُقالُ: «ضَنُكَ عيشُه يضْنُكُ ضناكةً وضَنْكًا»، من بابِ «عظُمَ يعظُمُ»، و«امرأةٌ ضِناكٌ»؛ أي: كثيرةُ اللَّحمِ؛ لأنَّ جلدَها ضاقَ بلحمِها.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: أعمَى البصرِ، فهو علامةُ الكافرِ، ويجوزُ أن يكونوا زُرْقًا في حالٍ، وعُمْيًا في حالٍ.

وقيلَ: نحشرُه أعمَى عنِ الحجّةِ.

وقيلَ: عنِ الحيلةِ في دفعِ العذابِ عن نفسِه، كالأعمى الذي لا حيلةَ له فيما لا يراه.

ومَن حملَه على عمَى البصرِ قال: ذاك في حالٍ دون حالٍ؛ لأنَّهم يُعطَونَ كتبَهم فيقرؤُونها.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: بأيِّ ذنبٍ عاقبتَني بالعمَى ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾؛ أي: في الدُّنيا، وكأنَّه نظرَ أنَّه لا ذنبَ له.

وقيلَ: أي: لِمَ حشرتَني أعمَى عن حُجَّتي؟ ذكرَه مجاهدٌ[1]. **وهو بعيدٌ**؛ إذ ما كان للكافرِ حجّةٌ في الدُّنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: قال الله له: كما أتَتْكَ آياتي فتركتَها وتركتَ العمَلَ بها.

﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾؛ أي: تُترَكُ في النّارِ.

وقيلَ: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: لا أهتَدي لحيلةٍ في دفعِ ما حلَّ بي عنِّي ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾؛ أي: عالِمًا بوُجوهِ الحِيَلِ، فيُقالُ له: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ فأعرَضْتَ عنها، فكذلك أحلَلْنا بك العذابَ.

---

(١) علقه البخاري قبل حديث (٤٧٣٦)، ووصله هناد بن السري في «الزهد» (٢٢٦)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٠١).

(١٢٧) - ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾؛ أي: وكالذي جزَيْنا به هذا الكافرَ نجزي كلَّ مَن أسرَفَ؛ أي: جاوَزَ الحدَّ في المعصيةِ.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾؛ أي: أفظَعُ منَ المعيشةِ الضَّنْكِ وعذابِ القبرِ.

وقيلَ: جزيتُهم لكُفرِهم، وعذابُ الآخرةِ عليهم أشدُّ؛ لأنَّ كفرَ الكافرِ ينقَضي، وذلك العذابُ لا ينقطعُ.

* * *

(١٢٨) - ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾؛ أي: أفلم يُبِنْ لهم خبرُ مَن ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾؛ أي: هؤلاءِ الكفّارُ يخرُجونَ في تجاراتِهم ومعايِشهم فيرَونَ بلادَ الأممِ الماضيةِ الذين دمَّرْنا عليهم؛ أي: أفلا يخافونَ أن يحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بالكفارِ قبلَهم.

(١٢٩) - ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ولولا كلمةٌ سبقَتْ من ربِّكَ وأجلٌ مُسمًّى لكانَ لِزامًا؛ أي: ولولا كلمةٌ سبقَتْ في تأخيرِ عقابِ هؤلاءِ إلى أجلٍ مُسمًّى، وهو القيامةُ.

وقيلَ: أرادَ بالأجلِ المُسمَّى: الوقتَ المُوقَّتَ لعذابِهم في الدُّنيا، وهو يومُ بدرٍ.

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ اللِّزامُ: المُلازِمُ؛ أي: لكانَ العذابُ لازمًا لهم، وأُضمِرَ اسمُ (كان)؛ أي: لكان العذابُ لِزامًا لهم.

* * *

(١٣٠) - ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾؛ أي: اشتغِلْ بما أمَرْناك به واصبِرْ عليه؛ فإنَّ لعذابِهم وقتًا مضروبًا لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ.

ثمَّ، قيلَ: هذا منسوخٌ بآيةِ القتالِ.

وقيلَ: ليس منسوخًا؛ إذ لم يُستَأصلِ الكفّارُ بعد آيةِ القتالِ، بل بقيَ المُعظَمُ منهم.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ أي: بحمدِكَ لربِّك، وهو كما قالَ: ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ أي: كحُبِّهم لله.

﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ وهي صلاةُ الصُّبحِ ﴿وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: العصرَ.

﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: في ساعاتٍ منَ(١) اللَّيلِ؛ يعني: صلاةَ العتَمةِ، وواحدُ الآناءِ: «إِنْيٌ»، مثلَ: أنحاءٍ ونِحْيٍ، و«إِنًى» مثلَ: مِعًى وأمعاءٍ.

﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: الظُّهرَ والمغربَ؛ لأنَّ الظُّهرَ في آخرِ طرفِ النَّهارِ الأوَّلِ وأوَّلِ طرَفِ النَّهارِ الآخرِ؛ فهي في طرفَينِ منه، والطَّرفُ الثَّالثُ غروبُ الشَّمسِ، وهو وقتُ المغربِ.

وقيلَ: أرادَ: الطَّرفَينِ وقتَ الظُّهرِ والمغربِ، كما قالَ: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

وقيلَ: جمَعَ فقالَ: ﴿أطراف﴾ لأنَّه يعودُ في كلِّ نهارٍ.

﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾؛ أي: ترضَى الثَّوابَ غدًا، أو ترضَى عاقبةَ الصَّبرِ اليومَ.

وقُرِئَ: ﴿تُرْضَى﴾ بضمِّ التّاءِ(٢)؛ أي: إنَّ الله يُرضيكَ بالثَّوابِ غدًا، وبالنَّصرِ اليومَ.

---

(١) في (ج): «من آناء».

(٢) وهي قراءة شعبة والكسائي، والباقون بفتح التاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

وقيلَ: لعلَّكَ تكونُ مرضِيًّا عندَ الله بطاعتِكَ.

* * *

(١٣١) ـ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: لا تجعَلْ لزهرةِ الدُّنيا وزنًا؛ فإنَّه لا بقاءَ لها.

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: أشكالًا وأشباهًا لهم من طبقَتِهم التي هي طبقةُ الشِّركِ والكفرِ، فالكفّارُ أشكالٌ في الذَّهابِ عن الحقِّ.

وقال أبو رافعٍ مولى رسولِ الله ﷺ: نزَلَ ضيفٌ برسولِ الله ﷺ، فأرسلَني عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى رجلٍ منَ اليهودِ وقال: «قُلْ له: يقولُ لك محمَّدٌ: نزلَ بنا ضيفٌ ولـم يُلفِ عندَنا بعضَ الذي يُصلِحُه، فبِعْني كذا وكذا منَ الدَّقيقِ، وأسلِفْني إلى هلالِ رجبٍ»، فقال: لا، إلّا برهنٍ، قال: فرجَعْتُ إليه فأخبَرْتُه فقال: «والله إنِّي لَأمينٌ في السَّماءِ، أمينٌ في الأرضِ، ولو أسلَفَني أو باعَني لأدَّيْتُ إليه، اذهَبْ بدِرْعي إليه»، ونزلَتِ الآيةُ تعزيةً له عن الدُّنيا[1].

---

(١) رواه مطولًا ومختصراً البزار في «مسنده» (٣٧٦٣)، والروياني في «مسنده» (٦٩٥) و(٧١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢١٤)، والطبراني في «الكبير» (٩٨٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠٤). وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي، قال أحمد: لا يكتب حديثه. وضعفه النسائي وابن عدي. والخبر تعقبه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٧٠) بقوله: «وهذا معترض أن يكون سبباً؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي ﷺ، لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت».

وهذا الحديث الذي أشار إليه ابن عطية رواه البخاري (٢٩١٦) عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: «تُوُفِّي رسولُ اللهِ ﷺ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعًا من شعيرٍ». وروى البخاري (٢٠٦٩) عن أنس قال: «ولقد رَهَن النَّبيُّ ﷺ درعًا له بالمدينة عند يهوديٍّ، وأخذ منه شعيرًا لأهله».

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: بهجةَ الدُّنيا؛ أي: متَّعناهُم زهرةً.

وقُرِئَ: (زَهَرَة) بفتحِ الهاءِ[1]، مثلَ: «نَـهْرٍ ونَـهَرٍ»، ويُقالُ: «سراجٌ زاهرٌ»؛ أي: له بريقٌ، و«زهرةُ الأشجارِ»: ما يروقُ من نُوّارِها.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنبتَلِيَهم.

وقيلَ: لنجعَلَ ذلك فتنةً لهم وضلالةً.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ثوابُ ربِّك[2] على الصَّبرِ وقلّةِ المُبالاةِ بالدُّنيا ﴿خَيْرٌ﴾ لأنَّه يبقَى والدُّنيا تفنَى.

وقيلَ: يعني بهذا الرِّزقِ: ما يفتحُ الله على المُؤمنينَ منَ البلادِ والغنائمِ.

* * *

(١٣٢) ـ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أهلُه: أمَّتُه على التَّعميمِ، وأهلُ بيتِه على التَّخصيصِ، وكان عليه السَّلامُ بعد نُزولِ هذه الآيةِ يذهبُ كلَّ صباحٍ إلى فاطمةَ وعليٍّ رضيَ الله عنهما فيقولُ: «الصَّلاةَ»، فكان يفعلُ ذلك أشهُرًا مُتواليةً[3].

---

(١) قرأ بها يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٢) في (ج): «الله».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٦٢) دون نسبة ولا إسناد، وروي نحوه دون ذكر النزول، فقد روى البخاري (٧٣٤٧)، ومسلم (٧٧٥)، عن الحسين بن علي رضي الله عنه عن علي رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، فقال لهم: «ألا تصلون؟» فقال علي: فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قال له ذلك، ولم يرجع إليه شيئا، ثم سمعه وهو مدبر، يضرب فخذه، وهو يقول: «وكان =

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ فإنَّ الصَّلاةَ تنهَى عن الفحشاءِ والمُنكرِ.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾؛ أي: لا نسألُكَ أن ترزُقَ نفسَكَ وأهلَكَ وتشتغِلَ عن الصَّلاةِ بسببِ الرِّزقِ، بل ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيّاهم، فكان عليه السَّلامُ إذا نزلَ بأهلِه ضيقٌ أمرَهم بالصَّلاةِ وتلا هذه الآيةَ.

وقد قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: الجنة لأهل التقوى[١]، يعني: العاقبةُ المحمودةُ، وقد يكونُ لغيرِ التَّقوَى عاقبةٌ ولكنَّها مذمومةٌ، فهي كالمعدومةِ.

* * *

(١٣٣) ـ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ أي: بآيةٍ تُوجِبُ العلمَ الضَّروريَّ، أو بآيةٍ ظاهرةٍ كالنّاقةِ والعصا، أو: هلّا يأتينا بالآياتِ التي نقترِحُها نحنُ.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾؛ أي: أوَلـم يأتِهم القرآنُ ببيانِ ما في التَّوراةِ والإنجيلِ والكُتبِ المُتقدِّمةِ؟ وذلك أعظَمُ آيةٍ؛ إذ أخبرَ أُمِّيٌّ بما فيها.

وقيلَ: أوَلـم تأتِهم الآيةُ الدّالّةُ على نُبوَّتِه مـمَّا وجدوه في الكتبِ المُتقدِّمةِ من البشارةِ به.

وقيلَ: أوَلـم يأتِهم إهلاكُنا الأممَ الذين كفروا واقترَحُوا الآياتِ.

قُرِئَ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ بالتّاءِ، وقُرِئَ بالياءِ[٢].

= الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾».

(١) «أي: الجنة لأهل التقوى» من (ج).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وحفص بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(١٣٤) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾ يعني: مُشرِكي مكّةَ ﴿بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبلِ بعثةِ محمَّدٍ ونُزولِ القرآنِ ﴿لَقَالُواْ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾؛ أي: هلّا أرسلْتَ إلينا رسولًا يدعونا إلى طاعتِكَ ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ أي: أزَلْنا العذرَ ببعثةِ الرُّسلِ.

***

(١٣٥) ـ ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ ختمَ السُّورةَ بضربٍ منَ الوعيدِ؛ أي: كلٌّ منّا ومنكم مُتربِّصٌ عاقبةَ أمرِه ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ العواقبَ عن قريبٍ.

والله تعالى أعلَمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجِعُ والمآبُ[1].

***

(١) «والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب» في (أ) فقط.